جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين

إشراف وتقديم

أ. د. محمود حمدى زقزوق
وزير الأوقاف
ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

القاهرة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

حقائق الإسلام
في
مواجهة شبهات المشككين

إشراف وتقديم
أ. د. محمود حمدى زقزوق
وزير الأوقاف
ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

القاهرة
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

المؤلفـــــون *

أ . د . عبد الصبور مـــرزوق

أ . د . عبد العظيم المطعنـــى

أ . د . علـــى جمعة محمـــد

أ . د . محمـــد عمـــــارة

أ . د . محمود حمدى زقزوق

التحرير والمراجعة :

أ . د . على جمعة محمـــــد

---

* ترتيب الأسماء وفقًا للترتيب الهجائى .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

للأستاذ الدكتور / محمود حمدى زقزوق

وزير الأوقاف

قصة الصراع بين الحق والباطل والخير والشر قصـــة قديمـــة بـــدأت فصولها مع بداية وجود الإنسان على الأرض . وسوف تتواصـــل فصولـــها طالما كان هناك إنسان فى هذا الوجود .

وعندما ظهر الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا مـــن الزمـــان لـــم يتوقف سيل الشبهات التى يثيرها المشككون والمبطلون من خصوم هذا الدين تشكيكًا فى مصادره أو فى نبيه أو فى مبادئه وتعاليمه . ولا تزال الشـــبهات القديمة تظهر حتى اليوم فى أثواب جديدة يحاول مروجوها أن يضفوا عليـــها طابعًا علميًا زائفًا .

ومن المفارقات الغريبة فى هذا الصدد أن يكون الإسلام ــ وهو الديـــن الذى ختم الله به الرسالات ، وكان آخر حلقة فى سلســـلة اتصـــال الســـماء بالأرض ــ قد اختص من بين كل الديانات التى عرفها الإنسان سماوية كانت أم أرضية بأكبر قدر من الهجوم وإثارة الشبهات حوله .

ووجه الغرابة فى ذلك يتمثل فى أن الإسلام فى الوقت الذى جـــاء فيـــه يعلن للناس الكلمة الأخيرة لدين الله على الأرض لم ينكر أيًا من أنبيـــاء الله السابقين ولا ما أنزل عليهم من كتب سماوية ، ولم يجبر أحدًا مـــن أتبـــاع الديانات السماوية السابقة على اعتناق الإسلام . ولم يقتصر الأمر على عـــدم

الإنكار ، وإنما جعل الإسلام الإيمان بأنبياء الله جميعًا وما أنزل عليهم مـــن كتب عنصرًا أساسيًا من عقيدة كل مسلم بحيث لا تصح هذه العقيدة بدونـــه . ومن شأن هذا الموقف المتسامح للإسلام إزاء الديانـــات الســـابقة أن يقـــابل بتسامح مماثل وأن يقلل من عدد المناهضين للإسلام .

ولكن الذى حدث كان على العكس من ذلك تمامًا . فقد وجدنا الإســـلام ـــ على مدى تاريخه ـــ يتعرض لحملات ضارية من كل اتجاه . وليس هناك فى عالم اليوم دين من الأديان يتعرض لمثل ما يتعرض لـــه الإســـلام فـــى الإعلام الدولى من ظلم فادح وافتراءات كاذبة .

وهذا يبين لنا أن هناك جهلاً فاضحًا بالإسلام وسوء فهم لتعاليمه ، سواء كان ذلك بوعى أو بغير وعى ، وأن هناك خلطًا واضحًا بين الإسلام كديـــن وبعض التصرفات الحمقاء التى تصدر من بعض أبناء المسلمين باسم الديـــن وهو منها براء .

ومواجهة ذلك تكون ببذل جهود علمية مضاعفة مـــن أجـــل توضيـــح الصورة الحقيقية للإسلام ، ونشر ذلك على أوسع نطاق .

ولم يقصر علماء المسلمين على مدى تاريخ الإسلام فى القيام بواجبـــهم فى الرد على هذه الشبهات كل بطريقته الخاصة وبأسلوبه الذى يعتقـــد أنـــه السبيل الأقوم للرد . وهناك محاولات جادة بذلت فى الفترة الأخيرة للدفـــاع عن الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك .

وقد نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية العديد مـــن الرســـائل فـــى سلسلتى " قضايا إسلامية " و " دراسات إسلامية " ، قام فيها عدد من العلمـاء بالرد على هذه الشبهات [1] .

---

(١) انظر فى ذلك ـــ على سبيل المثال ـــ :حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك ، مقولات ظالمـــة، شبهات وإجابات حول القرآن الكريم ، شبهات وإجابات حول مكانة المرأة فـــى الإســـلام ج١ ، ٢ ، حقائق القرآن وأباطيل خصومه .. شبهات وردود ج١ ، ٢ .

ولم يتوان المجلس عن تتبع ما يثار بين الحين والآخر من شبهات جديدة أو قديمة حول الإسلام والرد عليها بالعربية وغيرها من لغات أخرى . وقد رأينا أن الحاجة قد أصبحت ماسة لتجميع كل الشبهات المعروفة التى قال بها المشككون والرد عليها تفصيلاً فى كتاب واحد ييسر للباحثين والمهتمين بهذه القضايا فرصة الإحاطة بما تفتق عنه ذهن المشككين والاطلاع على الرد الإسلامى على ما أثاروه من مزاعم .

والكتاب الذى نقدمه اليوم إلى القارئ الكريم يتضمن الرد على مائة وسبع وأربعين شبهة . وقد اشترك فى هذا العمل العلمى الكبير عدد من العلماء المعروفين ممن لهم باع طويل فى مجال الدراسات الإسلامية . وفى خطة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القيام بترجمة هذا الكتاب إلى عدد من اللغات الأجنبية حتى تعم الفائدة ويطلع المسلمون وغير المسلمين على هذه الشبهات والرد عليها .

ونأمل أن يسهم هذا الكتاب فى توضيح الصورة الحقيقية للإسلام وإزالة ما علق بالأذهان من سوء فهم لتعاليمه وعقائده .

والله من وراء القصد ...،،

تحريرا فى : ١٨ من صفر ١٤٢٣هـ

١ من مايو ٢٠٠٢م

بين يدى هذا العمل

أ . د . على جمعة محمد

اشتدت فى السنين العشر الأخيرة الحملة على الإسلام وبخاصة فى ظل النظام العالمى الجديد أو العولمة . وزاد من ضراوتها وسائل البث والإعلام الحديثة ، فى عصر تدفق المعلومات ، والسموات المفتوحة . واستغل خصوم الإسلام هذه " المستجدات " فاتخذوها منافذ للانقضاض على قيم الإسلام ومبادئه ، بغية تشويه حقائقه أو القضاء عليه إن أمكن ، لأنه أصبح المنافس الوحيد لحضارة أوروبا بعد سقوط الاتحاد السوفييتى .

ودأبوا على إثارة الشبهات ضد الإسلام ، إما على شبكات الإنترنت ، وإما على مطبوعات مجهولة المصدر .. وها نحن أولاء نواجه كل ذلك فى إطار جهود المجلس الأعلى للشئون الإسلامية برئاسة الأستاذ الدكتور / محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف ورئيس المجلس فى الدفاع عن الإسلام ..

نواجه تلك الشبهات المثارة حديثًا ضد الإسلام وقيمه وحضارته وضد القرآن العظيم ، الذين يحاولون التشكيك فى صدقه ، وأنه ليس وحيًا من عند الله ؟

صدرت إحدى هذه المطبوعات تحت عنوان " **هل القرآن معصوم ؟** " وكذلك منشور آخر تحت عنوان " **الباكورة الشهية فى الروايات الدينية** " ، وكذلك على شبكات الإنترنت وهى فى جملتها ترديد لما سبق أن شاع منذ أكثر من مائة عام فى مثل " كتاب الهداية " من إنشاء المبشرين أو " رسالة الكندى " أو غيرهما .

ولقد أجملنا تلك الشبهات بعد حذف المكرر إلى مائة وسبع وأربعين شبهة ، وقام بالرد عليها لجنة من العلماء على رأسهم الأستاذ الدكتور وزير الأوقاف محمود حمدى زقزوق ، والأستاذ الدكتور / عبد الصبور مرزوق نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، والأستاذ الدكتور / محمد عمارة عضو مجمع البحوث الإسلامية ، والأستاذ الدكتور / عبد العظيم المطعنى عميد كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر سابقًا ، والأستاذ الدكتور / على جمعة محمد أستاذ أصول الفقه بجامعة الأزهر .

وهذا العمل رُوعى فيه الموضوعية التامة وعرض الإسلام عرض الداعية إليه الذى يرفض أن ينساق وراء استفزاز المعترضين . بل إنه يقدم دعوته كما أمره ربه : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾ (١) . متأسيًا برسولنا الكريم ﷺ ﴿ **ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ (٢) .

ونرجو من الله أن ينفع به المسلمين وغيرهم إحقاقًا للحق وإظهارًا للحقيقة إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

---

(١) النحل : ١٢٥ .

(٢) آل عمران : ١٥٩ .

الشبهة الأولى

جمـــع القـــرآن

اتخذ المعترضون من وقائع جمع القرآن وليجة يتسللون من خلالها للنيل من القرآن ، وإيقاع التشكيك فى كونه وحيًا من عند الله عز وجل .

والواقع أن الذى ألجأهم إلى التسلل من هذه " الوليجة " ــ وهى وقائع جمع القرآن ــ أمران رئيسيان :

الأول : محاولتهم نزع الثقة عن القرآن وخلخلة الإيمان به حتى لا يظل هو النص الإلهى الوحيد المصون من كل تغيير أو تبديل ، أو زيادة أو نقص .

الثانى : تبرير ما لدى أهـــل الكتاب (اليهـــود والنصـــارى) من نقد وجه إلى الكتاب المقدس بكلا عهديه : القديم (التوراة) والجديـــد (الأناجيـــل) ليقطعوا الطـــريق على ناقدى الكتاب المقدس من المســـلمين ، ومـــن غيـــر المسلمين .

ومواطن الشبهة عندهم فى وقائع جمع القرآن والمراحل التى مرَّ بها ، هى :

أن القرآن لم يُدوَّن ولم يكتب فى مصحف أو مصاحف كما هو الشـــأن الآن ، إلا بعد وفاة النبى ﷺ أما فى حياته ، فلم يكن مجموعاً فى مصـــحف .

وأن جمعه مرَّ بعدة مراحل :

الأولى : فى خلافة أبى بكر – رضى الله عنه – وهو جمع ابتـــدائى غيـــر موثق تمام التوثيق كما يزعمون ؟ .

الثانية : فى خـــلافة عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ وقد كان الجمـــع فى هذه المرحلة قابلاً لإدخال كثير من الإضافات التى افتقر إليهـــا تـــدوين القرآن فيما بعد . لأن القرآن لم يكن فيهما مضبوطًا مشكولاً .

الثالثة : الإضافات التى أُلْحِقَتْ بالنص القرآنى وأبرزها :

* **نَقْط حروفه** لتمييز بعضها من بعض ، مثل تمييز الخاء من الجيم والحاء ، وتمييز الجيم من الخاء والحاء ، وتمييز التاء ــ بوضع نقطتين فوقها ــ عن كل من الياء والباء والنون والثاء .

- **ضبط كلماته** بالضم والفتح والكسر والجزم ، مثل : " الْحَمْــدُ لِلَّــهِ رَبِّ الْعَالَمِين " وهذا أمر طارئ على جمع القرآن فى مرحلتيه السابقتين .
- **علامات الوقف:**مثل :خ ــ صلى ــ لا ــ قلى ــ م ــ ۞ ــ ۞
- وضع الدوائر المرقوم فيها **أرقام الآيات فى كل سورة .**

إن كل هــذه الإضافــات لم تكــن موجــودة فى العصر النبوى ، بــل ولا فى عهد الخلفاء الراشدين .

يذكرون هذا كله ليصوروا أن الشبهة التى لوحظت فى جمع المصحف الحاوى للقرآن الكريم ، تزرع الشكوك والريوب (جمع ريب) فــى وحــدة القرآن واستقراره وسلامته من التحريف . فعلام ــ إذن ــ يصر المسلمون على اتهام التوراة التى بيد اليهود الآن أنها لا تمثل حقيقة التوراة التى أنزلها الله على موسى عليه السلام ؟ أو لماذا يطلقــون هــذا الوصــف علــى مجموعــة " الأناجيل " : التى بيد النصارى الآن ؟

الرد على الشبهة :

إنَّ تأخير تدوين القرآن عن حياة النبى ﷺ وجمعه فى مصحــف فــى خلافــة أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ ، لامساس له مطلقًا بوحــدة القــرآن وصلة كل كلمة بــالوحى الإلهى ؛ لأن القرآن ــ قبل جمعه فى مصاحف ــ كان محفوظًا كما أنزله الله على خاتم المرسلين .

والعرب ــ قبل الإسلام ، وفى صدر الإسلام المبكــر ــ كــانوا ذوى ملكات فى الحفظ لم يماثلهم فيها شعب أو أمة ، من قبلهم أو معاصرة لهم ، ومن يعرف الكتابة والقراءة فيهم قليلون فكانوا يحفظون عن ظهر قلب مــا يريدون حفظه من منثور الكلام ومنظومه .

وروعة نظم القرآن ، ونقاء ألفاظه ، وحلاوة جرسه ، وشرف معانيه ، هــذه الخصائص والسمات فاجأت العرب بما لم يكونوا يعرفــون ، فوقــع من أنفسهم موقع السحر فى شدة تأثيره على العقــول والمشــاعر ، فاشــتد اهتمامهم به ، وبخاصة الذين كانوا من السابقين إلى الإيمان بــه ، وكــانوا يترقبون كل جديد ينزل به الوحى الأمين ، يجمعون بين حفظه والعمل به .

وكان النبى ﷺ كلما نزل عليه شئ من الوحى يأمر كُتَّاب الوحى بكتابته فورًا ، سماعًا من فمه الطاهر ثم ينشر ما نزل من الوحى بين الناس .

وقد ساعد على سهولة حفظه أمران :

الأول : نزوله (مُنَجَّمًا) أى مفرقًا على مدى ثلاث وعشرين سنة ؛ لأنه لــم ينزل دفعة واحدة كما كان الشأن فى الوحى إلى الرسل السابقين .

والسبب فى نزول القرآن مُفَرَّقًا هو ارتباطه بتربية الأمة ، والترقى بها فى مجال التربية طورًا بعد طور ومعالجة ما كان يجد من مشكلات الحياة ، ومواكبة حركة بناء الدعوة من أول شعاع فيها إلى نهاية المطاف .

الثانى : خصائص النظم القرآنى فى صفاء مفرداته ، وإحكــام تراكيبــه ، والإيقاع الصوتى لأدائه متلوًّا باللسان ، مسموعًا بالآذان ، وما يصاحب ذلك من إمتاع وإقناع ، كل ذلك أضفى على آيات القرآن خاصية الجذب إليــه ،

والميل الشديد إلى الإقبال عليه ، بحيث يجذب قارئه وسامعه واقعًا فى أسره غير ملولٍ من طول الصحبة معه .

وتؤدى فواصل الآيات فى القرآن دورًا مُهِمًّا فى الإحساس بهذه الخصائص . ولنذكر لهذا " مثلاً " من سور القرآن الكريم :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **والعاديات ضبحا * فالموريات قدحا * فالمغيرات صبحًا * فأثرن به نقعًا * فوسطن به جمعًا * إن الإنسان لربه لكنود * وإنه على ذلك لشهيد * وإنه لحب الخير لشديد * أفلا يعلم إذا بُعثر ما فى القبور * وحُصل ما فى الصدور * إن ربهم بهم يومئذ لخبير** ﴾ (١) .

عدد آيات هذه السورة [العادِيات] إحدى عشرة آية ، وقد وزعت من حيث الفواصل ، وهى الكلمات الواقعة فى نهايات الآيات ، على أربعة محاور ، هى : الثلاث الآيات الأولى ، وكل فاصلة فيها تنتهى بحرف الحاء : ضبحا ــ قدحا ــ صبحا .

والآيتان الرابعة والخامسة ، كل فاصلة فيهما انتهت بحرف العين : نقعا ــ جَمْعا .

والآيات السادسة والسابعة والثامنة ، انتهت فواصلها بحرف الدال : لكنود ــ لشهيد ــ لشديد .

أما الآيات التاسعة ، والعاشرة ، والحادية عشرة ، فقد انتهت فواصلها بحرف الراء : القبور ــ الصدور ــ لخبير .

---

(١) العاديات : ١-١١ .

مع ملاحظة أن حروف الفواصل فى هذه السـورة ـ ماعـدا الآيـات الثلاث الأولى ـ مسبوقـة بحـرف " مد " هـو " الواو " فى : " لكنود " ـ و " الياء " فى : " لشهيد ـ لشديد " .

ثم " الواو " فى : " القبور ـ الصدور ـ ثم " الياء " فـى : " لخبيـر " وحروف المد تساعد على " تطرية " الصوت وحلاوته فى السـمع . لـذلك صاحبت حروف المد كلمات " الفواصل " فى القرآن كله تقـريبًا ، وأضفت عليها طابعًـا غنائيًا من طراز فريد [1] جذب الإسماع ، وحـرك المشـاعر للإقبال على القرآن بشدة أسره إياهم عن طريق السماع ، ليكون ذلك وسيلة للإقبال على فقه معانيه ، ثم الإيمان به .

ومن سمات سهولة الحفظ فى هذه السورة أمران :

أنها سورة قصيرة ، حيث لم تتجاوز آياتها إحدى عشرة آية .

قصر آياتها ، فمنها ما تألف من كلمتين ، وهى الآيات الثلاث الأولى . ومنها ما تألف من ثلاث كلمات ، وهى الآيتان الرابعة والخامسة . ومنها ما تألف من أربع كلمات ، وهى الآيات : السادسة والسابعة والثامنة . وآيتـان فحسب كلماتها خمس ، وهما العاشرة والحادية عشرة . وآية واحدة كلماتها سبع ، هى الآية التاسعة .

ونظام " عقد المعانى " فى السورة رائع كروعة نظمها . فالآيات الثلاث الأولى قَسَمٌ جليل بِخَيْلِ المجاهدين فى سبيل الله .

والآيتان الرابعة والخامسة استطراد مكمل لمعانى المقسـم بـه ، شـدة إغارتها التى تثير غبار الأرض ، وسرعة عَدْوِهَا ومفاجأتهـا العـدوّ فـى الإغارة عليه .

ثم يأتى المقسم عليه فى الآية السادسة : " **إن الإنسان لربه لكنـود** " : عاص لله ، كفور بإنعامه عليه .

---

(١) سورة " والعاديات " من قصار السور التى قد بدأ بها الوحى فى مكة ، قبل الهجرة ، ويـرى بعـض الباحثين أن القرآن بدأ بهذه السور ذات الطبيعة الغنائية فى مكة ، لجذب أهل مكة إليه عن طريـق السـمع أولاً ، ثم لتدبر معانيه ثانيًا.

وفى الآية السابعـــة إلماح إلى علم الإنسان بأنه عاق لربـــه ، شهـــيد على كفرانه نعمته .

وفى الآية الثامنة تقبيح لمعصية الإنسان لربه ، وإيثار حطـــام الـــدنيا على شكر المنعم .

أما الآيات الثلاث الأخيرة من (٩) إلى (١١) فهى إنذار للإنسان الكفور بنعم ربه إليه .

وهـــذه السمات ، ليست وقفًا كلها على سورة " والعـــاديات " بل هـــى مع غيرها ، سمات عامة للقرآن كله ، وبهذا صار القرآن سهل الحفظ لمـــن حاوله وصدق فى طلبه وسلك الطريق الحق الموصل إليه [١] .

إن الحفظ كان العلاقة الأولى بين المسلمين وبين كتـــاب ربهـــم وكـــان الحفظ له وسيلة واحدة ضرورية يعتمد عليها ، هى السماع . وهكذا وصـــل إلينا القرآن ، من بداية نزوله إلى نهايته .

وأول سماع فى حفظ القرآن كان من جبريل عليه السلام الذى وصفه الله بالأمين .

وأول سامع كان رسول الله ﷺ ، سمع القرآن كله مرات من جبريل .

وثانى مُسَمِّع كان هو عليه الصـــلاة والســـلام بعد سماعـــه القـــرآن من جبريل .

أما ثانى سامع للقرآن فهم كُتَّابُ الوحى ، سمعوه من النبى عليه الصلاة والسلام فور سماعه القرآن من جبريل ؛ لأنه كان إذا نزل الوحى ، وفـــرغ من تلقى ما أنزله الله إليه دعا كُتَّابَ الوحى فأملى على مسامعهم مـــا نـــزل فيقومون بكتابته على الفور .

ثم يشـــيع عن طريق السماع لا الكتابة ما نزل مـــن القـــرآن بـــين المؤمنين ، إما من فم الرسول ﷺ ، أو من أفواه كتاب الوحى .

---

(١) انظر تفـــسير سورة " والعاديات " فى أى تفسير شئت من التفاســـير المتداولـــة : الكشـــاف ـــ روح المعانى ـــ التفسير الواضح للدكتور حجازى ، أو فى غيرها .

وقد يسَّر الله تعالى لحفظ القرآن واستمرار حفظه كما أنزله لله ، أوثــق الطرق وأعلاها قدرًا فكان ــ ﷺ ــ يقرؤه على جبريل فى كل عام مرة فى شهر رمضان المعظم . ثم فى العام الذى لقى فيه ربه تَمَّ عرض القرآن تلاوة على جبريل مرتين . زيادة فى التثبت والتوثيق .

وفى هذه الفترة (فترة حياة النبى) لم يكن للقراء مرجع سوى المحفوظ فى صدر النبى عليه الصلاة والسلام ، وهو الأصل الذى يُرجع إليــه عنــد التنازع ، أما ما كان مكتوبًا فى الرقــاع والورق فلم يكن مما يرجــع إليــه الناس ، مع صحته وصوابه .

وكذلك فى عهدى الشيخين أبى بكر وعمر رضــى الله عنهمــا كــان الاعتماد على الحفظ فى الصدور هو المعول عليه دون الكتابة ؛ لأنها كانت مفرقة ، ولم تكن مجموعة .

وكانت حظــوظ الصحابة ، من حفظ القــرآن متــفاوتة ، فكان مــنهم من يحفظ القدر اليسير ، ومنهم من يحفظ القدر الكثير ، ومنهم مــن يحفــظ القرآن كله . وهم جمع كثيرون مات منهم فى موقعة اليمامة فى خلافة أبــى بكر سبعون حافظًا للقرآن ، وكانوا يسمون حفظة القرآن بـــ " القُرَّاء " .

ولا يقدح فى ذلك أن بعض الروايات تذهب إلى أن الذين حفظوا القرآن كله من الصحابة كانوا أربعة أو سبعــة ، وقد وردت بعض هذه الروايــات فى صحيحى البخارى ومسلم لأن ما ورد فيهما له توجيه خاص ، هو أنهــم حفظوا القرآن كله وعرضوا حفظهم على رسول الله تلاوة عليــه فأقــــرهم على حفظــهم ، وليس معــناه أنهم هم الوحيدون الذين حفظــوا القــــرآن من الصحابة [1] .

---

(١) ينظر : البرهان فى علوم القرآن للإمام الزركشى (٢٤١/١) وما بعدها .

أول جمع للقرآن الكريم

لم يجمع القــرآن فى مصحف فى حياة النبى ﷺ ، ولا فى صدر خلافة أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ ، وكان حفظه كما أنزل الله فى الصدور هــو المتبع .

وفى هذه الأثناء كان القرآن مكتوبًا فى رقاع متفرقًــا . هــذه الرقــاع وغيرها التى كتب فيها القرآن إملاء من فم النبى ﷺ ، ظلت كما هى لم يطرأ عليها أى تغيير من أى نوع .

ولما قتل سبعون رجلاً من حُفَّاظِه دعت الحاجة إلى جمع ما كتب مفرقًا فى مصحف واحد فى منتصف خلافة أبى بكر باقتراح من عمر ــ رضــى الله عنهما ــ .

وبعد وفاة أبى بكر تسلم المصحف عمر بن الخطاب ، وبعد وفاته ظــل المصحف فى حوزة ابنته أم المؤمنين حفصة ــ رضى الله عنها ــ (١) .

وفى هذه الفترة كان حفظ القرآن فى الصدور هو المتبع كذلك .

وانضم إلى حُفاظه من الصحابة بعد انتقال النبى عليه الصلاة والســلام إلى الرفيق الأعلى ، التابعون من الطبقة الأولى ، وكانت علاقتهم بكتاب الله هى الحفظ بتفاوت حظوظهم فيه قلة وكثرة ، وحفظًا للقرآن كلــه ، وممــن اشتهر منهم بحفظ القرآن كله التابعى الكبير الحسن البصرى ــ رضــى الله عنه ــ وآخرون .

كان هذا أول جمع للقرآن ، والذى تم فيه هو جمع الوثائق التى كتبها كتبــة الوحى فى حضرة رسول الله ﷺ ، بمعنى تنسيق وثائق كل ســورة مرتبــة آياتها على نسق نزولها ، ولا معنى لهذا الجمع إلا ما ذكرنــاه ، وإطــلاق وصف المصحف عليه إطلاق مجازى صرف . والقصد منه أن يكون مرجعًا موثوقًا به عند اختلاف الحفاظ .

---

(١) هو مصحف فرد لا متعدد ، فلم يكن متداولاً بين أيدى المسلمين ، لأن حفظ القرآن فى الصدور كــان هو المرجع .

ومما يجب التنبيه إليه مرات أن الجمع فى هذه المرحلة لم يضف شـــيئاً أو يحذفه من تلك الوثائق الخطية ، التى تم تدوينها فى حيـــاة النبـــى عليـــه الصلاة والسلام إملاءً منه على كتبة وحيه الأمناء الصادقين .

مرحلة الجمع الثانية [1]

كانت هذه المرحلة فى خلافة عثمان بن عفان ــ رضـــى الله عنـــه ــ وكان حافظًا للقرآن كله كما ورد فى الروايات الصحيحة . والسبب الرئيسى فى اللجوء إلى هذا الجمع فى هذه المرحلة هو اختلاف النـــاس وتعصـــبهم لبعض القراءات ، إلى حد الافتخار بقراءة على قراءة أخرى ، وشيوع بعض القراءات غير الصحيحة .

وهذا ما حمل حذيفة بن اليمان على أن يفزع إلى أمير المؤمنين عثمان ابن عفان ، ويهيب به أن يدرك الأمة قبل أن تتفرق حول القرآن كما تفـــرق اليهود والنصارى حول أسفارهم المقدسة . فنهض ــ رضى الله عنه ــ للقيام بجمع القرآن فى " مصحف " يجمع الناس حول أداء واحد متضمنًا الصلاحية للقراءات الأخـــرى الصحيحة ، وندب لهذه المهمة الجليلة رجلاً من الأنصار (زيد بن ثابت) وثلاثة من قـــريش : عبد الله بن الزبير ، سعد بـــن أبـــى وقاص ، وعبد الرحـــمن بن الحارث بن هشـــام . وزيد بن ثابت هذا كـــان هو رئيس الفريق الذى ندبه عثمان ــ رضى الله عنه ــ لهذه المهمة الجليلة؛ لأنه ــ أى زيد بن ثابت ــ قد تحققت فيه مـــؤهلات أربعـــة للقيـــام بهـــذه المسئولية وهى :

ــ كان من كتبة الوحى فى الفترة المدنية .

ــ كان حافظًا متقنًا للقرآن سماعًا مباشرًا من فم رسول الله .

ــ كان هو الوحيد الذى حضر العرضة الأخيرة للقرآن مـــن النبـــى عليـــه الصلاة والسلام على جبريل عليه السلام .

ــ كان هو الذى جمع القرآن فى خلافة أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ.

---

(١) انظر : جمع القرآن فى خلافة عثمان فى " البرهان فى علـــوم القرآن " و " الاتقـــان فى علوم القرآن والأول للإمام الزركشى ، والثانى للإمام جلال الدين السيوطى

منهج الجمع فى هذه المرحلة

وقد تم الجمع فى هذه المرحلة على منهج دقيق وحكيم للغايـــة قوامـــه أمران :

الأول : المصحف الذى تم تنسيقه فى خلافة أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ ، وقد تقدم أن مكوّنات هذا المصحف هى الوثائق الخطية التى ســجلها كتبــة الوحى فى حضرة النبى عليه ﷺ سماعًا مباشرًا منه .

فكان لا يُقبل شئ فى مرحلة الجمع الثانى ليس له وجود فى تلك الوثائق التى أقرها النبى عليه الصلاة والسلام .

الثانى : أن تكون الآية أو الآيات محفوظة حفظًا مطابقًا لما فى مصحف أبى بكر عند رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ على الأقل . فلا يكفى حفظ الرجل الواحد ، ولا يكفى وجــودها فى مصحف أبى بكر ، بل لابد من الأمــرين معًا :

- وجودها فى مصحف أبى بكر .
- ثم سماعها من حافظــين ، أى شاهــدين ، وقد استثنى من هذا الشرط أبو خزيمة الأنصارى ، حيث قام حفظه مقام حفظ رجلين فى آية واحدة لم توجد محفوظة إلا عند أبى خزيمة ، وذلك لأن رســول الله ﷺ جعــل شهادته بشهادة رجلين عدلين .

قام هذا الفريق ، وفق هذا المنهج المحكم ، بنسخ القرآن ،لأول مــرة ، فى مصحف واحد ، وقد أجمع عليه جميع أصحاب رسول الله ﷺ ولم يعارض عثمان منهم أحدًا ، حتى عبد الله بن مسعود ، وكان له مصحف خاص كتبه لنفسه ، لم يعترض على المصــحف "الجـــماعى" الذى دعا إلــى كتابتــه عثمان ــ رضى الله عنه ــ ، ثم تلقت الأمة هذا العمــل الجليــل بالرضــا والقبول ، فى جميع الأقطار والعصور .

ونسخ من مصحف عثمان ، الذى سمى " المصحف الإمـــام " بضـــعة مصاحف ، أرســـل كل مصحـــف منهـــا إلى قطرٍ من أقطار الإسلام ، مثل الكـــوفة والح
جاز ، وبقى المصحف الأم فى حـــوزة عثمان ــ رضى الله عنـــه ــ ، ثـــم عمد عثمان إلى كل ماعدا " المصحف الإمام " من مصـــاحف الأفـــراد ـــــ المخالفة أدنى مخالفة للمصحف الإمام ، ومنها مصحف الصحابى الجليل ابن مسعـــود ــ وأمر بحرقهـــا أو استبعـــادها ؛ لأنها كانـــت تحتـــوى علـــى قراءات غير صحيحة ، وبعضـــها كان يُدخل بعض عبارات تفســـيرية فـــى صلب الآيات أو فى أواخرها .

الفرق بين الجمعين

من نافلة القول ، أن نعيد ما سبق ذكره ، من أن أصل الجمعين اللـــذين حدثا فى خلافتى أبى بكر وعثمان ــ رضى الله عنهما ــ كان واحدًا ، هو الوثائق الخطية التى حـــررت فى حضـــرة النبى ﷺ إملاءً من فمه الطـــاهر على كتبة الوحى ، ثم تلاوتهـــاعليه وإقـــرارها كما تليت عليه هذه الوثـــائق لم تدخل عليها أية تعديلات ، وهى التى نراها الآن فى المصحف الشـــريف المتداول بين المسلمين .

وكان الهدف من الجمع الأول فى خلافة أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ هو جمع تلك الوثائق المتفرقة فى مكان واحد منسقة السور والآيـــات ، دون نقلها فى مصحـــف حقيقى جامع لها . فهذا الجمع بلغة العصر مشروع جمع لا جمع حقيقى فى الواقع .

ولهذا عبَّر عنه أحد العلماء بأنه أشبه ما يكون بأوراق وجـــدت متفرقة فى بيت النبى فربطت بخيط واحد ، مانع لها من التفرق مرة أخرى .

أما الجمع فى خلافة عثمان ــ رضى الله عنه ــ فكان نسخًا ونقلاً لما فى الوثائق الخطية ، التى حررت فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام وأقرها بعد تلاوتها عليه ، وجمعها فى مصحف واحد فى مكان واحد . وإذا شبهنا الوثائق الأولى بقصاصات ورقية مسطر عليها كلام ، كان الجمع فى خلافة عثمان هو نسخ ذلك الكلام المفرق فى القصاصات فى دفتر واحد .

أما الهدف من الجمع فى خلافة عثمان فكان من أجل الأمور الآتية :

- توحيد المصحف الجماعى واستبعاد مصاحف الأفراد لأنها لم تسلم من الخلل . وقد تم ذلك على خير وجه .
- القضاء على القراءات غير الصحيحة ، وجمع الناس على القراءات الصحيحة ، التى قرأ بها النبى عليه الصلاة والسلام فى العرضة الأخيرة على جبريل فى العام الذى توفى فيه .
- حماية الأمة من التفرق حول كتاب ربها . والقضاء على التعصب لقراءة بعض القراء على قراءة قراء آخرين .

وفى جميع الأزمنة فإن القرآن يؤخذ سماعًا من حُفَّاظ مجودين متقنين ، ولا يؤخذ عن طريق القراءة من المصحف ؛ لإن الحفظ من المصحف عرضة لكثير من الأخطاء ، فالسماع هو الأصل فى تلقى القرآن وحفظه . لأن اللسان يحكى ما تسمعه الأذن ، لذلك نزل القرآن ملفوظًا ليسمع ولم ينزل مطبوعًا ليُقرأ .

فالفرق بين الجمعين حاصل من وجهين :

الوجه الأول : جمع أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ كان تنسيقًا للوثائق الخطية التى حررت فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام على صورتها الأولى حسب ترتيب النزول سورًا وآيات .

وجمع عثمان ــ رضى الله عنه ــ كان نقلاً جديدًا لما هو مسطور فى الوثائق الخطية فى كتاب جديد ، أطلق عليه " المصحف الإمام " .

أما الوجه الثانى فهو من حيث الهـــدف من الجمع وهو فى جمع أبـــى بكر كان حفــظ الوثائق النبوية المفــرقة فى نسق واحد مضمومًا بعضها إلى بعض ، منسقة فيه السور والآيات كما هى فى الوثائق ، لتكون مرجعًا حافظًا لآيات الذكر الحكيم .

وهو فى جمع عثمان ، جمع الأمة على القراءات الصحيحة التى قرأها النبى ﷺ فى العرضة الأخيرة على جبريل عليه السلام .

أما المتــون (النصــوص) التى نزل بهــا الوحى الأمــين فظلـــت على صورتها الأولى ، التى حررت بهــا فى حياة النبـــى عليــه الصــلاة والسلام .

فالجمعان البكرى والعثمانى لم يُدْخِلا على رسم الآيات ولا نطقهــا أى تعديل أو تغيير أو تبديل ، وفى كل الأماكن والعصور واكب حفــظ القــرآن تدوينه فى المصـــاحف ، وبقى السماع هو الوسيلة الوحيدة لحفــظ القــرآن على مدى العصورحتى الآن وإلى يوم الدين.

فذلكة سريعة :

العرض الذى قدمناه لتدوين القرآن يظهر من خلاله الحقائق الآتية :

- إن تدوين متون القرآن (نصوصه) تم منذ فجر أول سورة نزلت بـــل أول آية من القرآن ، وكان كلما نزل نجم من القرآن أملاه عليه الصلاة والسلام على كاتب الوحى فدونه سماعًا منه لتوه ، ولم يلق عليه الصلاة والسلام ربه إلا والقرآن كله مدون فى الرقاع وما أشبهها مـــن وســائل التسجيل . وهذا هو الجمع الأول للقرآن وإن لم يذكر فى كتب المصنفين إلا نادرًا .
- إن هذا التدوين أو الجمع المبكر للقرآن كان وما يزال هو الأصل الثابت الذى قامت على أساسه كل المصاحف فيما بعد ، حتى عصرنا الحالى .

- إن الفترة النبوية التى سبقت جمع القرآن فى خلافة أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ ، لم تكن فترة إهمال للقرآن ، كما يزعم بعض خصوم القرآن من المبشرين والمستشرقين والملحدين بل العكس هو الصحيح ، كانت فتــرة عناية شديدة بالقــرآن [1] . اعتمدوا فيها على ركيزتين بالغتى الأهمية :

الأولى : السماع من الحفظة المتقنين لحفظ القرآن وتلاوته .

الثانية : الحفظ المتقن فى الصدور .

والسماع والحفظ هما أقدم الوسائل لحفظ وتلاوة كتــاب الله العزيــز . وسيظلان هكذا إلى يوم الدين .

- إن القرآن منذ أول آية نزلت منه ، حتى اكتمل وحيه لم تمر عليه لحظة وهو غائب عن المسلمين ، أو المسلمون غائبون عنه ، بل كان ملازمًا لهم ملازمة الروح للجسد .

إن تاريخ القرآن واضح كل الوضوح ، ومعروف كل المعرفة ، لم تمــر عليه فترات غموض ، أو فترات اضطراب ، كما هو الشــأن فــى عهــدى الكتاب المقدس [2] التوراة والإنجيل . وما خضعا له من أوضــاع لا يمكــن قياسها على تاريخ القرآن ، فليس لخصوم القرآن أى سبب معقول أو مقبول فى اتخاذهم مراحل جمع القرآن منافذ للطعن فيه ، أو مبررًا يبررون به مــا اعترى كتابهم المقدس من آفات تاريخية ، وغموض شديد الإعتام صــاحب وما يزال يصاحب ، واقعيات التوراة والأناجيل نشأة ، وتدوينًا ، واخــتلافًا واسع المدى ، فى الجوهر والأعراض التى قامت به .

وقد بقى علينا من عناصر شبهاتهم حول جمع القرآن ومراحله ما سبقت الإشارة إليه من قبل ، وهى : **النقط والضبط وعلامات الوقف** .

---

(١) لأن القرآن لو كان جمع فى مصحف من أول الأمر ، لاتكل الناس على المصحف المكتــوب ، وقــل اهتمامهم بحفظه .

(٢) سيأتى حديث مفصل عما تعرض له الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد من أوضاع وآفات شــديدة الخطورة .

المراد بالنَقْط هو وضع النُّقط فوق الحروف أو تحتها مثل نقطة النـــون ونقطة الباء .

أما الضبط فهو وضع الحركات الأربع : الضـــمة والفتحـــة والكســـرة والسكون فوق الحروف أو تحتها حسب النطق الصـــوتى للكلمـــة . حســـبما تقتضيه قواعد النحو والصرف .

أما علامات الوقف فهى كالنقط والضبط توضع فوق نهاية الكلمة التـــى يجوز الوقف عليها أو وصلها بما بعدها . وهذه الأنواع الثلاثة يُلحـــظ فيهـــا ملحظان عامَّان :

الأول : أنهـــا لا تمس جســـم الكلمة من قـــريب أو من بعـــيد ولا تغـــــير من هيكل الرســـم العثمانى للكلمات ، بل هى زيادة إضافيـــة خـــارجة عـــن " متون " (أصول) الكلمات .

الثانى : أنها ــ كلها ــ أدوات أو علامات اجتلبت لخدمة النص القرآنـــى ، ولتلاوته صوتيًا تلاوة متقنة أو بعبارة أخرى :

هى وسائل إيضاح اصطلاحية متفق عليها تعين قارئ القرآن على أدائه أداء صوتيًا محكمًا ، وليست هى من عناصر التنزيل ، ولو جرد المصـــحف منها ما نقص كلام الله شيئًا . وقد كان كتاب الله قبل إدخال هذه العلامات هو هو كتاب الله ، إذن فليست هى تغييرًا أو تبديلاً أو تحريفًا أدخل على كتاب الله فأضاع معالمه ، كما يزعم خصوم القرآن الموتورون .

فالنقط أضيفت إلى رسم المصحف للتمييز بين الحروف المتماثلة كالجيم والحاء والخاء ، والباء والتاء والثاء والنون والسين والشين ، والطاء والظاء والفاء والقاف والعين والغين ، والصاد والضاد .

وقبل إضافة النقط إلى الحروف كان السماع قائماً مقامها ، لأن حفـــاظ القرآن المتقنين المجوِّدين ليسوا فى حاجة إلى هذه العلامات ، لأنهم يحفظون كتاب ربهم غضًا طريًا كما أنزله الله على خاتم رسله ، أمَّا غير الحفاظ ممن لا يستغنون عن النظر فى المصحف فهذه العلامـــات النقطيـــة والضـــبطية

والوقفية ترشدهـــم إلى التلاوة المثلى ، وتقدم لهم خدمات جليلة فى النظر فى المصحف ؛ لأنها ــ كما قلنا من قبل ــ وسائل إيضـــاح لقــراء المصـــحف الشريف .

فمثلاً نقط الحروف وقاية من الوقوع فى أخطاء لا حصر لها ، ولنأخـــذ لذلك مثالاً واحدًا هو قوله تعالى : ﴿ **كمثل جنة بربوة** ﴾ (١) .

لو تركت " جنة " بغير نقط ولا ضبــط لوقــع القارئ غير الحافـــظ فى أخطاء كثيرة ؛ لأنها تصلح أن تنطق على عدة احتمالات ، مثل : حَبَّة ــ حية ــ حِنَّة ــ خبَّة ــ جُنة ــ حِتة ــ خيَّة ــ جيَّة ــ حبة ــ جبَّة .

ولكن لما نقطت حروفها ، وضُبطت كلماتها اتضح المراد منها وتحــدد تحديدًا دقيقًا ، طاردًا كل الاحتمالات غير المرادة .

وأول من نقط حــروف المصحف جماعة من التابعين كان أشـــهرهم أبوالأسود الدؤلى ، ونصر بن عاصـــم الليثى ، ويحيى بن يَعْمُر ، والخـــليل ابن أحمد ، وكلهم من كبار التابعين (٢) .

والخلاصة : أن نقط حروف الكلمات القرآنية ، وضبط كلمات آياته ليس من التنزيل ، وأنه حدث فى عصر كبار التابعين ، وإلحاق ذلك بالمصحف ليس تحريفًا ولا تعديلاً لكلام القرآن .

وهو من البدع الحسنة وقد أجازه العلماء لأن فيه تيسيرًا على قُرَّاء كتاب الله العزيز ، وإعانة لهم على تلاوته تلاوة متقنة محكمة ، وهو من المصالح المرسلة ، التى سكت الشرع عنها فلم يأمر بها ولم ينه عنها .

وتحقيق المصلحة يقوم مقام الأمر بها ، ووقوع المضرة يقوم مقام النهى عنها .

وهذه سمة من سمات مرونة الشريعة الإسلامية العادلة الرحيمـــة. أمـــا علامات الوقف فلها أدوار إيجابية فى إرشاد قراء القرآن وتوجيههم إلى كيفية التعامل مع الجـــمل والتراكيب القرآنية حين تُتلى فى صلاة أو فـــى غيـــر صلاة .

---

(١) البقرة : ٢٦٥ .

(٢) المقنع لأبى عمرو الدانى ص ١٢٩ ــ تحقيق محمد الصادق قمحاوى .

والواقع أن كل هذه المضافات إلى رسم كلمات المصحف فوق أنهـا ـــ والله سبحانه وتعالى أعلم ـــ وسائل إيضاح كما تقدم ، اجتلبت من أجل خدمة النص القرآنى ، تؤدى فى الوقت نفسه خدمـة جليلـة لمعـانى المفـردات والتراكيب القرآنية . وقد أشرنا من قبل إلى مهمات الـنقط فـوق أو تحـت الحروف ، وعلامات الضبط الأربع : الفتحة والضمة والكسرة والسـكون ، فوق أو تحت رسم الكلمات .

ونسوق ـــ الآن ـــ تمثيلاً سريعًا للمهام الجليلة التى تؤديهـا علامـات الوقف ، التى توضع فوق نهايات الكلمات التى يُوْقَفُ عليها أو لا يُوقف :

قوله تعالى:﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هـو**صلى ، **وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير** ﴾ (١) .

نرى العلامة (صلى) فوق حرف الواو فى كلمة " هو " وهى ترمز إلى أن الوقف على هذه الكلمة " هو " جائز ووصلها بمـا بعـدها وهـو " وإن يمسسك " جائز كذلك إلا أن الوصل ، وهو هنا تلاوة الآية كلها دفعة واحـدة بلا توقف ، أولى من الوقف .

والسبب فى جواز الوقف والوصل هنا أن كلاً من الكلامين معناه تـام يحسن السكوت عليه ، وكذلك يحسن وصله بما بعده لأنهما كلامان بينهمـا تناسب وثيق ، ومن حيث البناء التركيبى ، هما شرط " إنْ " ، وفِعْلا الشرط فيهما فعل مضارع ، وهما فعل واحد تكرر فى شرطى الكلامين " يمسسك " والفاعل هو " الله " فيهما . الأول اسم ظاهر ، والثانى ضمير عائد عليه ، أما كون الوصل أولى من الوقف ، فلأن التناسب بين الكلامين أقوى من التباين لفظاً ومعنى ، مع ملاحظة أن جـواز الوقف يتيح لقـارئ القـرآن نفحـة من راحة الصمت ، ثم يبدأ رحلة التلاوة بعدها وقوله تعالى :﴿ **قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل** قلى **فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهرًا** ﴾ (٢) .

---

(١) الأنعام : ١٧ .
(٢) الكهف : ٢٢ .

علامة الوقف (قلى) موضوعة فوق اللام الثانية من كلمة "قليل" وترمز إلى جـــواز الوصل والوقـــف على كلمة " قليل " وأن الوقـــف عليها أولـــى من وصلها بما بعدها ، وفى الوقف راحة لنفس القارئ كما تقدم .

وجواز الوقف لتمام المعنى فى الجزء الأول من الآية .

وجواز الوصل ، فلأن الجزء الثانى من الكلام مفـــرع ومرتـــب علـــى الجزء الأول [1] .

أما كون الوقف على كلمة " قليل " أولى فى هذه الآية فلأن مـــا قبلهـــا جملتان خبريتان ، وهما واقعتان مقول القول لقوله تعالى : ﴿ **قل ربى ..** ﴾ .

أما جملة " فلا تمار فيهم " فهى جملة إنشائية [2] فيها نهى عن الجـــدال فى شأن أهل الكهف كم كان عددهم والكلام الإنشائى مباين للكلام الخبرى . إذن فالكلامان غير متجانسين . هذه واحدة .

أما الثانية فإن " فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرًا ولا تستفت فـــيهم مـــنهم أحدًا " ، غير داخل فى مقول القول الذى أشرنا إليه قبلاً .

وهذان الملحظان أحدثا تباعدًا ما بين الكلامين لذلك كان الوقف أولى ، إلماحًا إلى ذلك التباين بين الكلامين . والوقف هـــو القطـــع بـــين كلامـــين بالسكوت لحظة بين نهاية الكلام الأول، وبداية الكلام الثانى ، وله شأن عظيم فى تلاوة القرآن الكريم ، من حيث الألفاظ (الأداء الصوتى) ومن حيـــث تذوق المعانى وخدمتها ، وقوله تعالى : ﴿ **وترى الشمس إذا طلعت تـــزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فـــى فجـــوة منهج ذلك من آيات الله** ﴾ [3] .

---

(١) التفريع هو تولد كلام من كلام آخر ، وتأتى الفاء دليلاً على هذا التفريع كما فى الآية الكريمة .

(٢) الكلام كله قسمان : خبر ، وإنشاء ، فكل كلام أخبرت فيه غيرك بأمر قد حدث قبل زمـــن الـــتكلم أو بعده مثل : حضر فلان أمس ، أو سيحضر غدًا هو كلام خبرى ، أما إذا طلبت شيئًا لم يكن حاصـــلاً فى زمن التكلم مثل : أطع والديك فهو كلام إنشائى .

(٣) الكهف : ١٧ .

علامة الوقف (ج) موضوعة فوق " الهاء " نهاية كلمة " منه " وترمز إلى جواز الوقف على " منه " وعلى جواز وصله بما بعده " **ذلك من آيات الله** " وهذا الجواز مستوى الطرفين ، لا يترجح فيه الوقف على الوصل، ولا الوصل على الوقف. وهذا راجع إلى المعنى المدلول عليه بجزئى الكلام ، جزء ما بعد " منه " وجزء ما قبله .

وذلك لأن ما قبل " منه " كلام خبرى لا إنشائى وكذلك ما بعدها " **ذلك من آيات الله ..** " فهما إذن متجانسان .

والوقف مناسب جدًا لطول الكلام قبل كلمة " منه " وفى الوقف راحة للنفس ، والراحة تساعد على إتقان التلاوة .

والوصل مناسب جدًا من حيث المعنىَ ؛ لأن قوله تعالى : " **ذلك من آيات الله** " تركيب واقع موقع " الخبر " عما ذكره الله عز وجل من أوضاع أهل الكهف فى طلوع الشمس وغروبها عنهم .

وقوله تعالى : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبينْ يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة ..** ﴾ (١) .

علامة الوقف (لا) موضوعة على " النون " نهاية كلمة "طيبين" ترمز إلى أن الوقف على " طيبين " ممنوع .

والسبب فى هذا المنع أن جملة " يقولون " وهى التالية لكلمة "طيبين" حال من " الملائكة " وهم فاعل " تتوفاهم " .

أما " طيبين " فهى حال من الضمير المنصوب على المفعولية للفعل " تتوفاهم " وهو ضمير الجماعة الغائبين " هم " ولو جاز الوقف على " طيبين " لحدث فاصل زمنى بين جملة الحال " يقولون " وبين صاحب الحال " الملائكة " ولم تدع إلى هذا الفعل ضرورة بيانية .

لذلك كان الوقف على " طيبين " ممنوعًا لئلا يؤدى إلى قطع "الحال"

---

(١) النحل : ٣٢

وهو وصف ، عن صاحبه " الملائكة " وهو الموصوف . وهـذا لا يجـوز بلاغة ؛ فمنع الوقف ــ هنا ــ كان سببه الوفاء بحق المعنى ، ومجيء الحال ــ هنا ــ جملة فعلية فعلها مضارع يفيد وقوع الحدث بالحـال والاسـتقبال مراعاة لمقتضى الحال ؛ لأن الملائكة تقول هذا الكلام لمـن تتوفـاهم مـن الصالحين فى كل وقت لأن الموت لم ولن يتوقف .

وقوله تعالى : ﴿ **إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولدٌ له ما فـى السماوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا** ﴾ (١) .

علامة الوقف (م) موضوعة على حرف الدال من كلمة " ولد " للدلالـة على لزوم الوقف على هذه الكلمة " ولد " وامتناع وصلـها بما بعدها وهو : " **له ما فى السماوات وما فى الأرض** " .

وإنما كان الوقف ، هنا ــ لازمًا لأن هذا الوقف سيترتب عليه صـحة المعنى وليمتنع إيهام غير صحته أما وصله بما بعده فيترتب عليه إيهام فساد المعنى .

بيان ذلك أن الوصل لو حدث لأوهم أن قوله تعـالى : " **لـه مـا فـى السماوات وما فى الأرض** " وصف لـ " الولد " المنفى ، أى ليس لله ولـد ، له ما فى السماوات والأرض ، وهذا لا يمنع أن يكون لله ــ سبحانه ــ ولد ولكن ليس له ما فى السماوات والأرض ؟! وهذا باطل قطعًا .

أما عندما يقف القارئ على كلمة " ولد " ثم يستأنف التلاوة من " **له ما فى السماوات وما فى الأرض** " فيمتنع أن يكون هذا الوصف للولد المنفى ، ويتعين أن يكون لله عز وجل ، وهذا ناتج عن قطع التلاوة عند " ولـد " أى بالفاصل الزمنى بين تلاوة ما قبل علامة الوقف " لا " وما بعدها حتى آخـر الآية .

---

(١) النساء : ١٧١ .

فأنت ترى أن الوقف ــ هنا ــ يؤدى خدمة جليلة للمعنى المراد من الآية الكريمة . ومثله قوله تعالى :﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهمْ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون** ﴾ (١) .

علامة الوقف (م) موضوعة فوق الميم من كلمة " همْ " للدلالة على لزوم الوقف عليها ، وامتناع وصلها بما بعدها ، وهو " **الذين خسروا أنفسهم** " .

وسر ذلك اللزوم ؛ أن الوصل يوهم معنى فاسدًا غير مراد ، لأنه سيترتب عليه أن يكون قوله تعالى : " **الذين خسروا أنفسهم** " وصفًا لـ " أبناءهم " وهذا غير مراد ، بل المراد ما هو أعم من "أبناءهم" وهم الذين خسروا أنفسهم فى كل زمان ومكان . فهو حكم عام فى الذين خسروا أنفسهم ، وليس خاصًا بأبناء الذين آتاهم الله الكتاب .

هذه هى علامات الوقف ، وتلك هى نماذج من المعانى الحكيمة التى تؤديها ، أو جاءت رامزة إليها ، وبقيت حقيقة مهمة ، لابد من الإشارة إليها .

إن خصوم القرآن يعتبرون علامات الوقف تعديلاً أُدْخِل على القرآن ، بعد عصر النزول وعصر الخلفاء الراشدين .

وهذا وهم كبير وقعوا فيه ، لأن هذه العلامات وغيرها ليست هى التى أوجدت المعانى التى أشرنا إلى نماذج منها ، فهذه المعانى التى يدل عليها الوقف سواء كان جائز الطرفين ، أو الوقف أولى من الوصل أو الوصل أولى من الوقف ، أو الوقف اللازم أو الوقف الممنوع . هذه المعانى من حقائق التنزيل وكانت ملحوظة منذ كان القرآن ينزل ، وكان حفاظ القرآن وتالوه من أصحاب رسول الله ﷺ يطبقونها فى تلاوتهم للقرآن ، قبل أن يُدوَّن

---

(١) الأنعام : ٢٠ .

القرآن فى " المصحف " هذا هو الحق الذى ينبغى أن يكون معروفًا للجميع ، أما وضع هذه العلامات فى عصر التابعين فجاءت عونًا لغير العارفين بآداب تلاوة القرآن ، دون أن تكون ــ بشكلها ــ جزءا من التنزيل [1] .

تنسيق المصحف :

نعنى بـ : تنسيق المصحف " الفواصل بين سوره بـ : " بسم الله الرحمن الرحيم " وترقيم آيات كل سورة داخل دوائر فاصلة بين الآيات ، ووضع خطوط رأسية تحت مواضع السجود فى آيات القرآن ، ثم الألقاب التى أطلقت على مقادير محددة من الآيات مثل :

الربع ــ الحزب ــ الجزء . لأن هذه الأعمال إجراءات بشرية خالصة أُلْحِق بعضها بسطور المصحف ، وهو ترقيم الآيات وَوُضِع بعضها تحتها ، كعلامات السجود فى أثناء التلاوة .

أما ماعدا هذين فهى إجراءات اعتبارية عقلية ، تدل عليها عبارات موضوعة خارج إطار أو سُور الآيات .

وليس فى هذا مطعن لطاعن ؛ لأنّا نقول ــ كما قلنا فى نظائره من قبل ــ إنها وسائل إيضاح وتوجيه لقرّاء القرآن الكريم توضع خارج كلمات الوحى لا فى متونها ، وتؤدى خدمة جليلة للنص المقدس مقروءاً أو متْلُوًّا .

ولا يدعى مسلم أنها لها قداسة النص الإلهى ، أو أنها نازلة من السماء بطريق الوحى الأمين .

والمستشرقون الذين يشاركون المبشرين [2] فى تَصيُّد التهم للقرآن ، ينهجون هذا النهج " التنسيقى " فى أعمالهم العلمية والفكرية، وبخاصة فى تحقيق النصوص فيضعون الهوامش والملاحق والفهارس الفنية لكل

---

(١) هى مثل علامات الإعراب كالفتحة والضمة والكسرة والسكون . لم تُوجد هى أحكام الإعراب ، وإنما هى مجرد رموز دالة عليها .

(٢) المبشرون هم الذين يريدون فتنة عامة الناس بما يكتبونه عن الإسلام ، وهم أساتذة المستشرقين . أما المستشرقون فيقصدون فتنة المثقفين والطبقات العليا ، ويصورون الإسلام فى غير صورته إلا قليلاً منهم تجدهم منصفين للإسلام .

ما يقومون بتحقيقه من نصوص التراث . ولهم مهارة فائقة فى هذا المجال ، ولم نر واحدًا منهم ينسب هذه الأعمال الإضافية إلى مؤلف النص نفسه ، كما لم نر أحدًا منهم عدَّ هذه الإضافات تعديلاً أو تحريفًا أو تغييرًا للنص الذى قام هو بتحقيقه وخدمته .

بل إنه يعد هذه الأعمال الإضافية وسائل إيضاح للنص المحقق . وتيسيرات مهمة للقراء .

وهذا هو الشأن فى عمل السلف ــ رضى الله عنهم ــ فى تنسيق المصحف الشريف ، وهو تنسيق لا مساس له بـ " قدسية الآيات " لأنها وضعت فى المصحف على الصورة التى رُسِمَتْ بها بين يدى رسول الله ﷺ .

تاريخ القرآن [1]

هذا هو تاريخ القرآن ، منذ نزلت أول سورة منه ، إلى آخر آية نزلت منه ، كان كتابًا محفوظاً فى الصدور ، متلوًّا بالألسنة ، مسطورًا على الرقاع ، ثم مجموعًا فى مصاحف ، لم يخضع لعوامل محو وقرض، ولا آفات ضياع ، وضعته الأمة فى " أعينها " منذ نَزَلَ فلم يضل عنها أو يغب ، ولم تضل هى عنه أو تغب ، تعرف مصادره وموارده ، على مدى عمره الطويل ، تعرفه كما تعرف أبناءها ، بلا زيغ ولا اشتباه .

---

(١) نقصد بتاريخ القرآن رحلته عبر تاريخه المبكر ، إلى أن تم جمعه فى المصاحف ، وما لحق بهذا الجمع من رموز واصطلاحات لتيسير تلاوته مجودًا ، ولسهولة الإحاطة بما فيه من الألفاظ والمعانى .

هذا هو تاريخ القرآن ، وضعـــناه وضعًا موجزًا ، لكنـــه مُلِـــمٌ بمعـــالم الرحلة ، كاشفًا عن أسرارها . وضعناه لنقول لخصوم القرآن والإسلام :

هل فى تاريخ القرآن ما يدعو إلى الارتياب فيه ، أو نزع الثقة عنه ؟

وهل أصاب آياته المحكمة خلل أو اضطراب ؟

وهل رأيتموه غاب لحظة عن الأمة، أو الأمة غابت عنه لحظة؟

وهل رأيتم فيه جهلاً بمصدره ونشأته وتطور مراحل جمعه وتدوينـــه ؟

أو رأيتم فى آياته تغييرًا أو تبديلاً ؟

تلك هى بضاعتنا عرضناها فى سوق العرض والطلب غير خائفين أن يظهر فيها غش أو رداءة ، أو تصاب ببوار أو كساد من منـــافس يناصـــبها العداء .

هذا هو ما عندنا . فما هـــو الذى عندكم من تاريخ الكتـــاب المقـــدس بعهديه [1] .

---

(١) اليهود يؤمنون بالعهد القديم وحده ، ويكفرون بالعهد الجديد (الأناجيل) أما النصارى فيعتبرون العهـــد القديم شطرًا من الكتاب المقدس ، ويؤمنون بالعهدين معًا .

الشبهة الثانية

تعدد مصاحف القرآن

يقولون : لم تعددت المصاحف ؛ ألبس فى ذلك دليل علـــى الإخـــتلاف المؤذن بالتحريف ؟

الرد على الشبهة : وهى وثيقة الصلة بالشبهة السابقة ونقول لهم :

التعدد الذى عندنا :

بدأ جمع القرآن فى " المصحف " فى عهد أبى بكر رضى الله عنه وكان هذا جمعًا لما كتب فى حضرة رسول الله ﷺ كما تقدم .

ثم كان نسخ ما جُمع فى عهد أبى بكر فى مصاحف أربعةأو سبعة فـــى عهد عثمان ــ رضى الله عنه ــ ، فالجمع الأول كان بمعنى ضـــم الوثـــائق الخطية فى حياة النبى وترتيب سورها سورة بعد أخرى ، دون إعادة كتابتها من جديد .

وكان الجمع الثانى هو إعادة كتابة الوثائق النبوية فى مصـــحف نقـــلاً أمينًا لها دون أن يمسها أدنى تغيير أو تبديل .

ومن " المصحف الإمام " الذى تم نسخه من الوثائق النبوية مطابقًا لها ، ثم نسخ مصاحف أربعة ، أو سبعة وزعت على الأمصار الإسلامية فى ذلك الوقت .

الحجاز ــ البصرة ــ الكوفة ــ الشام . وهذه المصاحف كانت أشبه ما تكون بالصورة الضوئية للوثائق الحديثة عندما يتم تصويرها فيتوغرافيّـــا ، شديدة الوضوح . ووجه الشبه هو التطابق التـــام بـــين المصـــحف " الأم " والمصاحف التى نسخت منه ، وأصل هذه المصاحف كلها هـــو " الوثـــائق الخطية النبوية " .

هذا لون من ألوان تعـــدد المصحـــف عندنا ، وهو أول تعـــدد ظهـــر فى تاريخ القرآن . لكنه تعدد أوراق لا تعدد كلام ؛ فالكلام الذى كُتِـــبَ فـــى جميع المصاحف كلام واحد ، مثل الكتاب الذى تُطبع منه مئـــات النســـخ أو آلافها ، فإن كل نسخة منه تكرار حرفى للنسخ الأخرى .

أما اللون الثانى من تعدد المصاحف عندنا فهو مصاحف الأفراد التـــى كتبت بعد جمع القرآن لأول مرة فى عهد أبى بكر ، أو كتبت قبله ، قيل :إن عثمان جمع هذه المصاحف وحرقها. وقيل إنه لم يحرقها بل اســـتبعد غيـــر الصحيح منها . ومنها مصحف ابن مسعود لخلاف غير كبيـــر بينـــه وبـــين المصحف الإمام .

ثم تعـــددت نســـخ المصحف بعد ذلك ؛ باتساع الأقطـــار الإســـلامية ، ومع هذا التعدد فإن النصوص الموحى بها من الله عز وجل واحدة فى جميع المصاحف فى العالم الإسلامى كله .

أما ما استحدث من إضافات فهى إجـــراءات خارجيـــة لا صـــلة لهـــا بالنصوص المنزلة . وكل المصاحف كانت تكراراً لمصحف عثمان ، الـــذى جمع عليه الأمة ، وأعدم أو استبعد ما عداه من مصاحف الأفراد ، لأن العمل الفردى عرضة للخطأ والسهو أو النسيان .

" وإذا كان إعدام هذه المخطوطات الفـــردية يبدو فيه شىء من القســـوة فى الوقت الذى لم يوجد فيه بالفعل أى تحريف على الإطلاق ، فإنه يدل مع ذلك على أن عثمان كان بعيد النظر ، وعميقًا فى إدراك حقيقـــة الأمـــور ، ويرجع فضل تمتع المسلمين اليوم بوحدة كتابهم واستقراره إلى هـــذا العمـــل المجيد من جانب عثمان .

ومهما أضيف إلى المصحف العثماني من علامات خارجية ابتكرها أبو الأسود الدؤلى وأتباعه ، ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر ، والحسن البصرى ، والخليل بن أحمد فإن النص (الإلهى) باق كما هو على الدوام ، يتحدى فعل الزمن ، ووجود بعض الحروف الزائدة (لحكمة) أو الكلمات المدغمة التى اقتصرت على كتابة المصحف فى جميع نسخ القرآن إلى اليوم ، المطبوع منها والمخطوط ، يُعد شهادة بليغة على الأمانة التى انتقل بها البناء القرآنى من جيل إلى جيل ، حتى وصل إلينا بهذا الكمال المنقطع النظير [1] .

فإن قالوا : إن بعض المصاحف تختلف فى عدد سور القرآن من أربع عشرة ومائة سورة ، إلى اثنتى عشرة ومائة سورة ، إلى ست عشرة ومائة سورة [2] .

وكذلك تختلف المصاحف فى عدِّ آيات القرآن كله ، وفى كلماته وعدد حروفه . فكيف تقولون إن تعدد المصاحف عندكم كائن على صورة واحدة . وإن كل مصحف تكرار لما عداه من مصاحف ؟

إن قالوا هذا قلنا لهم ، إن الاختلاف فى هذه الأعداد كلها لا يخرج " المصاحف " عن الوحدة والتطابق التام بينها ؛ لأن النصوص الموحى بها من الله عز وجل إلى خاتم رسله واحدة فى جميع المصاحف ، فمثلاً من قال إن عدد سور القرآن ثلاث عشرة ومائة سورة اعتبر سورة الأنفال وسورة التوبة سورة واحدة ؛ لإنهما لم يفصل بينهما بـ " بسم الله الرحمن الرحيم " ،

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم (٥٠-٥١) د . محمد عبد الله دراز .

(٢) انظر : البرهان فى علوم القرآن (٢٤٩/١) مرجع سبق ذكره .

وكذلك الاختلاف فى عدد آيات القرآن الكريم مرجعه جَعْل آيتين آية واحدة ، وهكذا . وسواء عدت الآيتان آية واحدة ، أو عدتا آيتين فنصهما موجـــود فى المصحف الشريف . والاختلاف فى العدد لا مساس فيه بالمعدود ، وهو النصوص التى نزل بها الوحى الأمين . فالنصوص مسطورة فى المصحف ، أما تعدادها فأمر اعتبارى خارج عنها ، ووصف عارض طـــارئ عليهـــا . فالإصابة والخطأ فيه لا ينعـــكس بأى حال على حقيقة النصـــوص المذكورة فى المصحف وإن قالوا : إن الشيعة يقولون إن عثمان رضى الله عنه حذف من القرآن شيئًا يتعلق بعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، وبعضهم يـــذكر سورة باسم " سورة النورين " كانت مما نزل فى القرآن واستبعدها عثمـــان عند جمع المصحف . وهذا يُعد تعديلاً فى النصوص المـــوحى بهـــا فكيـــف تقولون إن القرآن لم يمس ، وإن المصاحف متطابقة تمامًا ؟ .

إن قالوا ذلك ـــ وهم قد قالوه فعلاً ـــ فإننا نقول لهم : إن كان هذا القول قد حدث من بعض الشيعة فالشيعة كان منهم غلاة دخلاء على التشيع ، وقـــد انقرضوا من الوجود الآن .

ومما يدفع هذه الفرية عن عثمان رضى الله عنه ، أن التشيع فى خلافته كان خافتًا ، بل وفى دور النشأة ، وعلى يد عبد الله بن ســـبأ ، الـــذى كـــان المسلمون يطلقون عليه : ابن السوداء وهو يهودى حاقـــد علـــى الإســـلام . ومولد التشيع كان بعد حادثة التحكيم بين علىّ رضى الله عنه ومعاوية بـــن أبى سفيان رضى الله عنه .

ومعنى هذا أن الحاجة إلى غمط حق علىّ رضى الله عنه لم يكـــن لهـــا وجود فى خلافة عثمان . فما الذى يحمل عثمان إذن على غمط حقه وهـــب

أن ذلك حدث منه فهل كان حُفاظ القرآن من الصحابة سيتركونه يعبث بكتاب الله ، والأهم من هذا أن عليًا نفسه رضى الله عنه أثنى على ما قام به عثمان من جمع القرآن ، وكذلك كل أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا أحياء فى خلافة عثمان [1].

ومهما يكن من أمر ، فإن هذا المصحف (العثمانى) هو الوحيد المتداول فى العالم الإسلامى بما فيه من فرق الشيعة ، منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، ونذكر هنا رأى الشيعة الإمامية (أهم فرق الشيعة) كما ورد بكتاب أبى جعفر " الأم " :

إن اعتقادنا فى جملة القرآن ، الذى أوحى الله تعالى به إلى نبيه محمد ﷺ هو كل ما تحويه دفتا المصحف المتداول بين الناس لا أكثر، وعدد السور المتعارف عليه بين المسلمين هو ١١٤ سورة . أما عندنا " أى الشيعة " فسورة الضحى والشرح تكونان سورة واحدة ، وكذلك سورتا الفيل وقريش ، وأيضًا سورتا الأنفال والتوبة.

أما من ينسب إلينا أن القرآن أكثر من ذلك فهو كاذب [2] .

فماذا يقول خصوم القرآن بعد هذا البيان ؟

إن الاختلاف بين مصاحف السنة والشيعة هو فى تعداد السور فحسب ، يدمج بعض السور فى بعض عند الشيعة ، مع اعتماد كل النصوص الموحى بها فى مصاحف الفريقين . وهذا لا يضير فى قضية الإيمان ، ولا فى وحدة المصحف فى العالم الإسلامى .

---

(١) انظر : مدخل إلى القرآن الكريم (٣٦) مرجع سبق ذكره .

(٢) مدخل إلى القرآن الكريم (٣٩) مرجع سبق ذكره .

الشبهة الثالثة

تعدد قــراءات القــرآن

مقدمة : تعــدد القراءات ألا يدل على الإختلاف فيــه ، وهــو نــوع مــن التحريف ؟

القراءات : جمع قراءة ، وقراءات القرآن مصطلح خاص لا يراد بــه المعنى اللغوى المطلق ، الذى يفهم من اطلاع أى قارئ على أى مكتــوب ، بل لها فى علوم القرآن معنى خاص من إضافة كلمة قراءة أو قراءات للقرآن الكريم، فإضافة " قراءة " أو "قراءات " إلى القرآن تخصص معــنى القراءة أو القراءات من ذلك المعنى اللغوى العام ، فالمعنى اللغوى العام يطلق ويراد منه قراءة أى مكتوب ، سواء كان صحيفة أو كتابًا ، أو حتى القرآن نفسه إذا قــرأه قارئ من المصحــف أو تلاه بلسانه من ذاكرته الحافظــة لما يقرؤه من القرآن ومنه قول الفقهاء :

القراءة فى الركعتين الأوليين من المغرب والعشاء تكون جهرًا ، فــإن أسرَّ فيهما المصلى فقد ترك سُنة من سنن الصلاة ، ويسجد لهما سجود السهو إن أسر ساهيًا . فقراءة القرآن هنا معنى لغوى عام ، لا ينطبق عليه ما نحن فيه الآن من مصطلح : قراءات القرآن . وقد وضع العلماء تعريفًا للقراءات القرآنية يحدد المراد منها تحديدًا دقيقًا . فقالوا فى تعريفها :

" اختلاف ألفاظ الوحى فى الحروف أو كيفيتها مــن تخفيــف وتشــديد وغيرهما [1] .

وقد عرفها بعض العلماء فقال :

" القراءات: هى النطق بألفاظ القرآن كما نطقها النبى ﷺ .." [2] .

ومما تجب ملاحظته أن القراءات القرآنية وحى من عند الله عزَّ وجل ، فهى ــ إذن ــ قرآنٌ ، ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :

---

(١) البرهان فى علوم القرآن (٣١٨/١) ، مرجع سبق ذكره .

(٢) القراءات القرآنية تاريخ وتعريف (ص٦٤) للأستاذ / عبد الوهاب الفضلى .

قــوله تعالى : ﴿ **لقد جاءكم رســول من أنْفُسِكُمْ** ﴾ [1] . هــذه قــراءة حفص عن عاصم ، أو القــراءة العــامة التى كُتب المصحــف فى خــلافة عثــمان بن عفان رضى الله عنه عليها ، والشاهد فى الآية كلمــة "أنفُسِــكُم" بضم الفاء وكسر السين ، وهى جمع : " نَفْس " بسكون الفاء ، ومعناها : لقد جاءكم رسول ليس غريبًا عليكم تعرفونه كما تعرفون أنفسكم لأنه منكم نسبًا ومولدًا ونشأة ، وبيئة ، ولغة .

وقرأ غــير عاصم : " **لقد جاءكم رسول من أَنْفَسِكُمْ** " بفتح الفاء وكسر السين ، ومعناها : لقد جاءكم رسول من أزكاكم وأطهركم .

و" أنْفَس " هنا أفعل تفضيل من النفاسة . فكلمة " أنفسكم " كمــا تــرى قرئت على وجهين من حيث النطق . وهذا هو معنى القــراءة والقــراءات القرآنية .

مع ملاحظة مهمة ينبغى أن نستحضرها فى أذهاننا ونحن نتصــدى ــ فيما يأتى ــ للرد على الشبهة التى سيوردها خصوم القرآن من مدخل : تعدد قراءات القرآن أن هذه القراءات لا تشمل كل كلمات القرآن ، بل لها كلمات فى الآية دون كلمات الآية الأخرى ، وقد رأينا فى الآية السابقة أن كلمــات الآية لم تشملها القراءات ، بل كانت فى كلمة واحدة هى " أنفسكم " .

وهذا هو شأن القراءات فى جميع القرآن ، كما ينبغى أن نستحضر دائمًا أن كثيرًا من الآيات خلت من تعدد القراءات خلوًّا تامًّا .

ومثال آخر ، قوله تعالى :

" **مالك يوم الدين** " والشاهد فى الآية كلمة " مالك " ، وفيها قراءتان : " مالك " اسم فاعل من " مَلِكَ " وهى قراءة حفص وآخرين . " مَلِــك " صفة لا اسم فاعل ، وهى قراءة : نافع وآخرين .

ومعنى الأولى " مالك " القاضى المتصرف فى شئون يوم الدين، وهــو يوم القيامة .

---

(١) التوبة : ١٢٨ .

أما معنى " مَلِك " فهو أعم من معنى " مالك " أى من بيده الأمر والنهى ومقاليد كل شيء . ما ظهر منها وما خفى .

وكلا المعنيين لائق بالله تعالى ، وهما مدح لله عز وجل .

ولما كانت هذه الكلمة تحتمل القراءتين كتبت فى الرسم هكذا "مـــــلك " بحذف الألف بعد حرف الميم ، مع وضع شرطة صغيرة رأسية بين المـــيم واللام ، ليصلح رسمها للنطق بالقراءتين .

ومثال ثالث هو قوله تعالى :

﴿ يوم يُكشف عن ساق ﴾ [1] .

والشاهد فى الآية كلمة " يُكشَف " وفيها قراءتان الأولى قراءة جمهـــور القراء ، وهى " يُكشف " بضم الياء وسكون الكافُ ، وفتح الشـــين . بالبنـــاء للمفعول ، والثانية قراءة ابن عباس " تَكْشِفُ " بفتح التاء وســـكون الكـــاف ، وكسر الشين ، بالبناء للفاعل ، وهو الساعة ، أى يوم تكشف الســـاعة عـــن ساق . قرأها ابن عباس بالتاء ، والبناء للمعلوم ، وقرأها الجمهـــور باليـــاء والبناء للمجهول .

والعبارة كناية عن الشدة ، كما قال الشاعر :

كشفت لهم ساقها * * * وبدا من الشر البراح [2] .

هذه نماذج سقناها من القراءات القرآنية تمهيدًا لذكر الحقائق الآتية :

- إن القراءات القرآنية وحى من عند الله عز وجل .
- إنها لا تدخل كل كلمات القرآن ، بل لها كلمات محصورة وردت فيها ، وقد أحصاها العلماء وبينوا وجوه القراءات فيها .

---

(١) القلم : ٤٢ .

(٢) معانى القرآن للقراء (١٧٧/٣) .

- إن الكلمة التى تقرأ على وجهين أو أكثر يكون لكل قراءة معنى مقبـــول يزيد المعنى ويثريه .
- إن القراءات القرآنية لا تؤدى إلى خلل فى آيات الكتاب العزيز ، وكلام الله الذى أنزله على خاتم رسله عليهم الصلاة والسلام .

ومع هذا فإن خصوم الإسلام يتخذون من تعدد قراءات بعـــض كلمـــات القرآن وسيلة للطعن فيه ، ويرون أن هذه القراءات ما هـــى إلا تحريفـــات لحقت بالقرآن بعد العصر النبوى .

وكأنهم يريدون أن يقولوا للمسلمين ، إنكم تتهـــمون الكتـــاب المقـــدس بعهديه (التوراة والإنجيل) بالتحـــريف والتغيير والتبديل ، وكتابكم المقدس (القرآن) حافل بالتحريفات والتغييرات والتبديلات ، التى تسمونها قراءات ؟

وهذا ما قالوه فعلاً ، وأثاروا حوله لغطًـــا كثيـــرًا ، وبخاصـــة جـــيش المبشرين والمستشرقين ، الذين تحالفوا ــ إلا قليلاً مـــنهم ــ علـــى تشـــويه حقائق الإسلام ، وفى مقدمتها القرآن الكريم .

ونكتفى بما أثاره واحد منهم قبل الرد على هذه الشبهة التى يطنطنـــون حولهـــا كثيرًا ، ذلكم الواحد هو المستشـــرق اليهـــودى المجـــرى المسمى : " جولد زيهر " الحقود على الإسلام وكل ما يتصل به من قيم ومبادئ .

إن هذا الرجل لهو أشد خطرًا من القس زويمر زعيم جيش المبشـــرين الحاقدين على الإسلام فى عهد الاحتلال الإنجليزى للهند ومصر .

أوهام جولد زيهر حول القراءات القرآنية :

المحاولة التى قام بها جـــولد زيهـــر هى إخـــراج القراءات القـــرآنية من كونها وحيًا من عند الله ، نزل به الروح الأمين إلـــى كونهـــا تخـــيلات توهمها علماء المسلمين ، وساعدهم على تجسيد هذا التوهم طبيعـــة الخـــط العربى ؛ لأنه كان فى الـــفترة التى ظهرت فيها القـــراءات غـــير منقـــوط

ولا مشكول ، وهذا ساعد على نطــق الياء تاء فى مثــل " تقولــون " أو " تفعلون " ! فمنهم من قرأ بالتاء " تقولون " ومنهم من قرأ بالياء " يقولون " .

هذا من حيث النقط وجودًا وعدمًا ، أما من حيــث الشــكل أى ضــبط الحروف بالفتح أو الضم مثلاً ، وأرجع إلى هذا السبب قوله تعالى : ﴿ **وهــو الذى أرسل الرياح بُشرًا ..** ﴾ (١) .

فقد قرأ عاصم : " بُشرا " بضم الباء

وقرأها الكسائى وحمزة : " نَشْرا " بالنون المفتوحة بــدلاً مــن البــاء المضمومة عند عاصم .

وقرأ الباقون : " نُشُرا " بالنون المضمومة والشين المضمومة ، بينما كانــت الشين فى القراءات الأخرى ساكنة (٢) .

وفى هذا يقول جولد زيهر نقلاً عن الترجمة العربية لكتابه الذى ذكر فيه هذا الكلام (٣) :

" والقسم الأكبر من هذه القراءات يرجع السبب فى ظهوره إلى خاصية الخط العربى ، فإن من خصائصه أن الرسم الواحد للكلمة قد يقــرأ بأشــكال مختلفة تبعًا للنقط فوق الحروف أو تحتها ، كما أن عدم وجــود الحركــات النحوية ، وفقدان الشكل (أى الحركات) فى الخط العربى يمكن أن يجعــل للكلمة حالات مختلفة من ناحية موقعها من الإعراب . فهذه التكميلات للرسم الكتابى ثم هذه الاختلافات فى الحركات والشكل ، كل ذلك كان السبب الأول لظهور حركة القراءات ، فيما أهمل نقطه أو شكله من القرآن " .

إن المتأمل فى هذا الكلام ، الذى نقلناه عن جولــد زيهــر ، يــدرك أن الرجل يريد أن يقول فى دهاء وخبث . إن هذه القراءات تحريفات معتــرف بها لــدى المسلمين خاصتهــم وعامتهم ، وأن النصــوص الإلهية المنزلــة على رسولهم أصابها بعض الضياع إنه لم يقل صراحة بــالتحريف وإنمــا وضع المبررات لوجود التحريف فى القرآن الحكيم .

---

(١) الفرقان : ٤٨ .

(٢)انظر : رسم المصحف (٢٩) للدكتور / عبد الفتاح شلبى ، مكتبة وهبة .

(٣) المذاهب الإسلامية (ص٤) ، ترجمة د . محمد يوسف موسى .

ثم أخذ ــ بعد ذلك ــ يورد أمثلة من القراءات وينسبها إلى السببين اللـــذين تقدم ذكرهما ، وهما :

- تجرد المصحف من النقط فى أول عهده .
- تجرد كلماته من ضبط الحروف .

فإلى السبب الأول نسب قوله تعالى :

(ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا مـــا أغنـــى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) (١) .

والشاهد فى كلمة " تستكبرون " وهى قراءة الجمهور . وقد قارنها جولد زيهر بقراءة شاذة " تستكثرون " بإبدال الباء ثاء ، يريد أن يقول : إن الكلمة كانت فى الأصل " يستكبرون " غيـــر منقوطـــة الحـــروف الأول والثالـــث والخامس فاختُلِف فى قراءتها :

فمنهم من قرأ الخامس " باء " والأول تاء فنطق : تستكبرون ، ومـــنهم من قرأ الخامس " ثاء " فنطق " تستكثرون .

هذا هو سبب هاتين القراءتين عنده .

وكذلك قوله تعالى :**(وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عـــن موعـــدة وعدها إياه ..)** (٢) .

والشاهد فى كلمة " إياه " ضمير نصب منفصل للمفرد الغائب الذكر .

ثم قارنها بقراءة شاذة لحماد الراوية هكذا " اباه " بإبدال الياء من " إياه " باء " اباه " أى وعدها إبراهيم عليه السلام أباه ؟ (٣) .

أما اختلاف القراءات للسبب الثانى ، وهو تجرد كلمات المصحف عن الضبط بالحركات ، فمن أمثلته عنده قوله تعالى :

(ومَنْ عِنْدَهُ علم الكتاب) (٤) .

---

(١)الأعراف : ٤٨ .

(٢)التوبة : ١١٤ .

(٣)رسم المصحف (٣٠) ، مرجع سبق ذكره .

(٤) الرعد : ٤٣ .

وقـــارن بين قراءاتـــها الثـــلاث : " مَنْ عـــنْدَهُ " ــ " مِنْ عِنْدِه " ــ "مَـــنْ عِنْدِه " ؟ !

هذا هـــو منهجه فى إخراج القراءات القرآنية من كونها وحيًا من عنـــد الله ، إلى كونها أوهامًا كان سببها نقص الخط العربى الذى كتب به المصحف أولاً عن تحقيق الألفاظ من حيث حروفها ومن حيث كيفيـــة النطـــق بهـــا . واقتفى أثره كثير من المبشرين والمستشرقين .

الرد على هذه الشبهة :

لقد حظى كتاب الله العزيز بعناية منقطعة النظير ، فى حياة النبى ﷺ ، وبعد وفاته . ومن الحقائق الراسخة رسوخ الجبال أن طريق تَلَقِّى القرآن كان هو السماع الصوتى .

- سماع صوتى من جبريل لمحمد عليهما السلام .
- وسماع صوتى من الرسول إلى كتبة الوحى أولاً وإلى المسلمين عامة .
- وسماع صوتى من كتبة الوحى إلى الذين ســـمعوه مـــنهم مـــن عامـــة المسلمين .
- وسماع صوتى حتى الآن من حفظة القرآن المتقنين إلى من يتعلمونـــه منهم من أفراد المسلمين .

هذا هو الأصل منذ بدأ القرآن ينزل إلى هذه اللحظة وإلى يوم الـــدين ، فى تلقى القرآن من مرسل إلى مستقبل .

وليست كتابة القرآن فى مصاحف هى الأصل ، ولن تكـــون . القـــرآن يجب أن يُسمع بوعى قبل أن يقـــرأ من المصحف ، ولا يزال متعلم القـــرآن فى أشد الحاجة إلى سماع القرآن من شيوخ حافظين متقنين ، وفى القـــرآن عبارات أو كلمات مستحيل أن يتوصل أحد إلى نطقها الصحيح عن مجـــرد القراءة فى المصحف ، ولو ظل يتعلمها وحده أيامًا وأشهرا .

وبهذا تهوى الأفكار التى أرجـــع إليهـــا جولد زيهـــر نشأة القـــراءات إلى الحضيض ، ولا يكون لها أى وزن فى البحث العلمـــى المقبـــول ؛ لأن

المسلمين من جيل الصحابة ومن تبعهم بإحسان لم يتعلموا القرآن عن طريق الخط العربى من القراءة فى المصاحف ، وإنما تعلموه سماعًا واعيًا ملفوظًا كما خرج من فم محمد ﷺ ، ثم قيض الله لكتابه شيوخًا أجلاء حفظوه وتلـــوه غضًا طريًا كما كان صاحب الرسالة يحفظه ويتلوه كما سمعه مـــن جبريـــل أمين الوحى .

أجل .. كان سيكون لأفكار جولد زيهر وجه من الاحتمـــال لـــو كـــان المسلمون يأخذون القراءة قراءة من مصاحف . أما وقد علمنا أن طريق تلقى القرآن هو السماع الموثق ، فإن أفكار جولد زيهر تذهب هباء فى يوم ريـــح عاصف .

ثانيًا : إن القراءات الصحيحة مسموعة من جبريل لرسول الله ﷺ ، ومسموعة من محمد ﷺ لكتبة الوحى ، ومسموعة من محمد ومن كتبة الـــوحى لعمـــوم المسلمين فى صدر الإسلام الأول ، ثم شيوخ القرآن فى تعاقب الأجيال حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد سمع المسلمون من محمد المعصوم عن الخطأ فى التبليغ " فتبينوا " و " فتثبتوا " فى قوله تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾ [1] بالبـــاء واليـــاء والنون .

وسمعوها منه " فتثبتوا " بالتاء والثاء والباء والتاء وكلا القراءتين قرآن موحى به من عند الله . وليس كما توهم جولد زيهر، إنهما قراءتان ناشئتان عن الاضطـــراب الحاصـــل من خلو كلمات المصحف من النقـــط والشكل فى أول أمره ؟ .

---

(١) الحجرات : ٦ .

والقراءتان ، وإن اختلف لفظاهما ، فإن بين معنييهما علاقــة وثيقــة ، كعلاقة ضوء الشمس بقرصــها : لأن التبين ، وهو المصــدر المتصيــد من " فتبينوا " هى التفحص والتعقب فى الخبر الذى يذيعه الفاســق بــين الناس ، وهذا البَين هو الطــريق الموصل للتثبت . فالتثبت هو ثمرة التبين . ومن تبيَّن فقد تثبت . ومن تثبت فقد تبين .

فما أروع هذه القراءات ، ورب السماوات والأرض وما فيهمــا ومــا بينهما ، إن قراءات القــرآن لهى وجه شديد الإشراق مــن وجــوه إعجــاز القرآن ، وإن كره الحاقدون .

وكما سمع المســلمون من فم محمد ، الذى لا ينطــق عن الهــوى ﷺ فى الآية السابقــة : " فتبينوا " و " فتثبتوا " سمعــوا منه كذلك ، " يُفَصِّل " ــ و " نُفصِّلُ " فى قوله تعالى :

﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (١) .

و " نفصل الآيات "

وفاعل الفصل فى القراءتين واحد هو الله عز وجل :

وقد اختلف التعبير عن الفاعل فى القراءتين ، فهــو فــى القــراءة الأولى " يفَصِّل " ضمير مستتر عائد على الله عز وجل فى قوله : **﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾** أى يفصل هو الآيات . فالفاعل هنــا مفــرد لعوده على مفرد " الله " .

وفى القراءة الثانية عُبِّر عن الفاعل بضمير الجمع للمتكلم "نُفَصِّــل" أى نفصل نحن .

والله واحد أحد ، ولكن النون فى " نفصل " لها معنى فى اللغة العربيــة هو التعظيم إذا كان المراد منها فردًا لا جماعة . ووجه التعظيم بلاغة تنزيل الفرد منزلة " الجماعة " تعظيمًا لشأنه ، وإجلالاً لقدره .

---

(١) يونس : ٥ .

وفى هاتين القراءتين تكثير للمعنى ، وهو وصف ملازم لكل القراءات .

وللبلاغيين إضافة حسنة فى قراءة " نفصل " بعد قوله : " ما خلق الله .. " هى الانتقال من الغيبة فى " ما خلق الله " إلى المتكلم فى " نفصل " للإشعار بعظمة التفصيل وروعته .

وبعد : إن إرجـــاع القراءات القرآنية لطبيعـــة الخط العربى الذى كان فى أول أمره خاليًا من النقط والشكل ، كما توهم " جولد زيهر " ومن بعده " آثر جيفرى " فى المقدمة التى كتبهـــا لكتـــاب المصاحـــــف ، لأبـــى داود السجستانى ، وتابعهما المستشرق " جان بيرك " ، إن هذه النظرية مجرد وَهْمٍ ساندە جهل هؤلاء الأدعياء على الفكر الإسلامى، مبدؤه ومنتهـــاه الحقـــــد على الإسلام والتطاول على القرآن ، لِحاجات فى نفوس " اليعاقيب " .

وقد قدمنا فى إيجـــاز ما أبطل هـــذه الأوهـــام ، وبقى علينا فى الـــرد على هذه الشبهة أن نذكر فى إيجاز كذلك جهـــود علمائنـــا فـــى تمحـــيص القراءات ، وكيف وضعوا الضوابط الدقيقة لمعـــرفة القراءات الصـــحيحة ، من غيرهـــا مما كان شائعًـــا وقت جمع القـــرآن فى عهـــد عثمان بن عفان " رضى الله عنه " .

تمحيص القراءات :

وضع العلماء الأقدمون ضوابط محكمة للقراءات الصحيحة التـــى هـــى وحى من عند الله . وتلك الضوابط هى :

١ ــ صحة السند ، الذى يؤكد سماع القراءة عن رسول الله ﷺ .

٢ ــ موافقة القراءة لرسم المصحـــف الشريف ، الذى أجمعـــت عليه الأمة فى خلافة عثمان رضى الله عنه مع ملاحظة أن الصـــحابة الـــذين نســـخوا القرآن فى المصحف من الوثائق النبوية فى خلافة عثمان ، نقلوه كمـــا هـــو مكتوب فى الوثائق النبوية بلا تغيير أو تبديل . ورسم المصحف الذى بـــين

أيدينا الآن سنة نبوية ؛ لأن النبى ﷺ أقر تلك الوثيقة ، واحتفظ بها فى بيته حتى آخر يوم فى حياته الطيبة .

ولذلك أجمع أئمة المذاهب الفقهية على تحريم كتابة المصحف فى أى زمن من الأزمان ، على غير الرسم المعروف بالرسم العثمانى للمصحف الشريف . ونقل هذا الإجماع عنهم كثير من علماء تاريخ القرآن (١) .

٣ ــ أن تكون القراءة موافقة لوجه من وجوه تراكيب اللغة العربية ؛ لأن الله أنزل كتابه باللسان العربى المبين .

٤ ــ أن يكون معنى القراءة غير خارج عن قيم الإسلام ومقاصده الأصول والفروع .

فإذا تخلف شرط من هذه الشروط فلا تكون القراءة مقبولة ولا يعتد بها .

وعملاً بهذه الضوابط تميزت القراءات الصحيحة من القراءات غير الصحيحة ، أو ما يسمى بالقراءات الشاذة ، أو الباطلة .

ولم يكتف علماؤنا بهذا ، بل وضعوا مصنفات عديدة حصروا فيها القراءات الصحيحة ، ووجهوها كلها من حيث اللغة ، ومن حيث المعنى .

كما جمع العلامة ابن جنى القراءات الشاذة ، حاصرًا لها ، واجتهد أن يقومها تقويمًا أفرغ ما ملك من طاقاته فيه ، وأخرجها فى جزءين كبيرين .

أما ذو النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، حين أمر بنسخ الوثائق النبوية فى المصاحف ، فقد أراد منه هدفين ، ننقل للقارئ الكريم كلامًا طيبًا للمرحوم الدكتور/ محمد عبد الله دراز فى بيانهما :

" وفى رأينا أن نشر المصحف بعناية عثمان كان يستهدف أمرين :

---

(١) ينظر : البرهان فى علوم القرآن ، مرجع سبق ذكره .

أولهما : إضفاء صفة الشـــرعية على القراءات المختلفة ، التى كانـــت تدخل فى إطـــار النص المدون ـــ يعنى المصحـــف ـــ ولها أصـــل نبـــوى مجمع عليه ، وحمايتها فيه منعًا لوقوع أى شجار بين المسلمين بشأنها ، لأن عثمان كان يعتبر التمارى (أى الجدال) فى القرآن نوعًا من الكفر .

ثانيهما : اســـتبعاد ما لا يتطـــابق تطـــابقًا مطـــلقًا مع النص الأصلى (الوثائق النبوية) وقاية للمسلمين من الوقوع فى انشقاق خطير فيما بينهم ، وحماية للنص ذاتـــه من أى تحـــريف ، نتيجة إدخال بعـــض العبـــارات المختلـــف عليها نوعًا ما ، أو أى شـــروح يكون الأفـــراد قد أضافوهـــا إلى مصاحفهم " [1] .

هـــذه هى عناية المسلمين من الرعيل الأول بـــالقرآن الكـــريم وتعـــدد قراءاته ، وحماية كتاب الله من كل دخيل على نصوص الوحى الإلهى .

هذا ، وإذا كان جولد زيهر ، وآثر جيفرى المبشر الإنجليزى ، وجـــان بيرك قد أجهدوا أنفسهم فى أن يتخذوا من قراءات القرآن منفذًا للانقضـــاض عليه ، والتشكيك فيه ، فإن غيرهم من المستشرقين شهدوا للقرآن بـــالحق ، ونختم ردنا على هذه الشبهة بمستشرق نزيه ، أثنى على القرآن وقـــال إنـــه النص الالهى الوحـــيد ، الذى ســـلم من كل تحريف وتبديل ، لا فى جمعه ، و فى تعـــدد مصاحفـــه ، ولا فى تعـــدد قـــراءاته . قال المستشرق لوبلوا: [إن القرآن هو اليـــوم الكتاب الربانى الوحيد ، الذى ليس فيـــه أى تغييـــر يذكر] . ومن قبله قال مستشرق آخر (د . موير) كلاما طيباً فـــى الثنـــاء على القرآن ، وهو : [إن المصحف الذى جمعه عثمان ، قد تواتر انتقاله من يد ليد ، حتى وصل إلينا بدون أى تحريف ، ولقد حفظ بعناية شديدة ، بحيث لم يطرأ عليه أى تغيير يذكر ، بل نستطيع أن نقول إنه لم يطـــرأ عليـــه أى تغييـــرعلى الإطلاق فى النســـخ التى لا حصر لها ، المتداولة فـــى الـــبلاد الإســـلامية الواسعـــة ، فلم يوجـــد إلا قـــرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية

---

(١) " مدخل إلى القرآن الكريم " (ص٤٣) مرجع سبق ذكره .

المتنازعة وهذا الاستعمال الإجماعى لنفس النص المقبول من الجميع حتـــى اليوم ، حجة ودليل على صحة النص المُنزل ، الموجود معنا والذى يرجـــع إلى (عهد) الخليفة المنكوب ، عثمان الذى مات مقتولاً] [1].

---

(١) حـــياة محمد تأليف W. muir ص ٣٣ نقلا عن : " مدخل إلى القرآن الكريم ". مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠ .

الشبهة الرابعة

الكـــلام الأعجـمى

جاء فى سورة الشعـــراء: ﴿ **نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكـــون من المنذرين * بلسان عربى مبين**﴾ [1]. وجاء فى سورة الزمر : ﴿ **قرآنـــا عربياً غير ذى عوج** ﴾ [2]. وجاء فى سورة الـــدخان : ﴿ **فإنمـــا يســـرناه بلسانك لعلهم يتذكرون**﴾ [3]. وجاء فى سورة النحل: ﴿ **ولقـــد نعلـــم أنهـــم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربـــى مبين**﴾ [4].

ونحن نسأل : " كيف يكون القـــرآن عربيًّا مبينًا ، وبه كلمـــات أعجميـــة كثيرة ، من فارسية ، وآشـــــورية ، وســـريانية ، وعبريـــة ، ويونانيـــة ، ومصرية ، وحبشية ، وغيرها ؟ ".

هذا نص الشبهة الواردة فى هذا الصدد ، وتأكيدا لهـــذه الشـــبهة ذكـــروا الكلمات الأعجمية ــ حسب زعمهم ــ التى وردت فى القرآن الكريم وهى :

آدم ــ أباريق ــ إبراهيم ــ أرائك ــ استبرق ــ إنجيـــل ــ تـــابوت ــ توراة ــ جهنم ــ حبر ــ حور ــ زكاة ــ زنجبيل ــ ســـبت ــ ســـجيل ــ سرادق ــ سكينة ــ سورة ــ صراط ــ طاغوت ــ عـــدن ــ فرعـــون ــ فردوس ــ ماعون ــ مشكاة ــ مقاليد ــ ماروت ــ هاروت ــ الله .

---

(١) الشعراء : ١٩٣-١٩٥.

(٢) الزمر : ٢٨ .

(٣) الدخان : ٥٨ .

(٤) النحل : ١٠٣ .

الرد على الشبهة :

هذه هى شبهـــتهم الواهية ، التى بنوا عليها دعـــوى ضـــخمة ، ولكنهـــا جوفاء ، وهى نفى أن يكون القرآن عربيًّا مثلهم كمثل الذى يهم أن يعبر أحد المحيطات على قارب من بوص ، لا يلبث أن تتقاذفه الأمواج ، فـــإذا هـــو غارق لا محالة .

ولن نطيل الوقوف أمام هذه الشبهة ، لأنها منهارة من أساسها بآفة الوهن الذى بنيت عليه . ونكتفى فى الرد عليها بالآتى :

* إن وجود مفردات غير عربية الأصل فى القرآن أمر أقر بـــه علمـــاء المسلمين قديماً وحديثاً . ومن أنكره منهم مثل الإمام الشافعى كان لإنكـــاره وجه مقبول سنذكره فيما يأتى إن شاء الله .

* ونحن من اليسير علينا أن نذكر كلمات أخرى وردت فى القرآن غيـــر عربية الأصل ، مثل : مِنْسَأَة بمعنى عصى فى سورة " سبأ " ومثل " الـــيم " بمعنى النهر فى سورة " القصص " وغيرها .

* إن كل ما فى القرآن من كلمات غير عربية الأصل إنما هـــى كلمـــات مفردات ، أسماء أعلام مثل : " إبراهيم ، يعقوب ، إســـحاق ، فرعـــون " ، وهذه أعلام أشخاص ، أو صفات ، مثل :" طاغـــوت ، حبر" ، إذا ســـــلمنا أن كلمة " طاغوت " أعجمية .

* إن القرآن يخلو تمامًا من تراكيب غير عربية ، فليس فيه جملة واحدة إسمية ، أو فعلية من غير اللغة العربية .

* إن وجود مفردات أجنبية فى أى لغة سواء كانت اللغة العربيـــة أو غيـــر العربية لا يخرج تلك اللغة عن أصالتها ، ومن المعـــروف أن الأســـماء لا تترجم إلى اللغة التى تستعملها حتى الآن . فالمتحدث بالإنجليزية إذا احتـــاج إلى ذكر اسم من لغة غير لغته ، يذكره برســـمه ونطقـــه فى لغته الأصـــلية ومن هذا ما نسمعه الآن فى نشرات الأخبار باللغات الأجنبية فـــى مصـــر ،

فإنها تنطق الأسماء العربية نُطقاً عربيًّا . ولا يقال : إن نشرة الأخبار ليست باللغة الفرنسية أو الإنجليزية مثلاً ، لمجرد أن بعض المفردات فيها نطقت بلغة أخرى .

والمؤلفات العلمية والأدبية الحديثة ، التى تكتب باللغة العربية ويكثر فيها مؤلفوها من ذكر الأسماء الأجنبية والمصادر التى نقلوا عنها ، ويرسمونها بالأحرف الأجنبية والنطق الأجنبى لا يقال : إنها مكتوبة بغير اللغة العربية ، لمجرد أن بعض الكلمات الأجنبية وردت فيها ، والعكس صحيح .

ومثيرو هذه الشبهة يعرفون ذلك كما يعرفون أنفسهم فكان حرياً بهم ألا يتمادوا فى هذه اللغو الساقط إما احتراماً لأنفسهم ، وإما خجلاً من ذكر ما يثير الضحك منهم .

* إنهم مسرفون فى نسبة بعض هذه المفردات التى ذكروها وعزوها إلى غير العربية :

فالزكاة والسكينة ، وآدم والحور ، والسبت والسورة ، ومقاليد ، وعدن والله ، كل هذه مفردات عربية أصيلة لها جذور لغُوية عريقة فى اللغة العربية . وقد ورد فى المعاجم العربية ، وكتب فقه اللغة وغيرها تأصيل هذه الكلمات عربيًّا فمثلاً : الزكاة من زكا يزكو فهو زاكٍ . وأصل هذه المادة هى الطهر والنماء .

وكذلك السكينة ، بمعنى الثبات والقرار ، ضد الاضطراب لها جذر لغوى عميق فى اللغة العربية . يقال : سكن بمعنى أقام ، ويتفرع عنه : يسكن ، ساكن ، مسكن ، أسكن .

*إن هذه المفردات غير العربية التى وردت فى القرآن الكريم ، وإن لم تكن عربية فى أصل الوضع اللغوى فهى عربية باستعمال العرب لها قبل عصر نزول القرآن وفيه .. وكانت سائغة ومستعملة بكثرة فى اللسان العربى قبيل نزول القرآن وبهذا الاستعمال فارقت أصلها غير العربى ، وعُدَّتْ عربية نطقاً واستعمالاً وخطاً .

إذن فورودها فى القرآن ــ مع قلتها وندرتها إذا ما قيست بعــدد كلمــات القرآن ــ لا يخرج القرآن عن كونه " بلسان عربى مبين "

ومن أكذب الادعاءات أن يقال : إن لفظ الجلالة " الله " عبرى أو سريانى وإن القرآن أخذه عن هاتين اللغتين . إذ ليس لهذا اللفظ الجليل " الله " وجود فى غير العربية :

فالعبرية مثلاً تطلق على " الله " عدة إطلاقات ، مثــل ايــل ، الــوهيم ، وأدوناى ، ويهوا أو يهوفا . فأين هذه الألفاظ من كلمــة " الله " فــى اللغــة العربية وفى اللغةاليونانية التى ترجمت منها الأناجيل إلى اللغة العربية حيث نجد الله فيها " الوى " وقد وردت فى بعض الأناجيل يذكرها عيســى عليــه السلام مستغيثاً بربه هكذا " الوى الوى " وترجمتها إلهى إلهى .

إن نفى عروبة القرآن بناء على هذه الشبهة الواهية أشبه ما يكون بمشهد خرافى فى أدب اللامعقول .

الشبهة الخامسة

الكـــلام العـاطـل

يدعى المشكِّكُون أنه جاء فى فواتح ٢٩ سورة بالقرآن الكـــريم حـــروف عاطلة ، لا يُفهم معناها نذكرها فيما يلى مع ذكر المواضع التى وردت فيها :

الحـــروف	الســـورة
الر	يونس ، هود ، يوسف ، إبراهيم ، الحجر
الم	البقرة ، آل عمران ، العنكبـــوت ، الـــروم ، لقمـــان ، السجدة
المر	الرعد
المص	الأعراف
حم	غافر، فصلت ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف
حم عسق	الشورى
ص	ص
طس	النمل
طسم	الشعراء ، القصص
طه	طه
ق	ق
كهيعص	مريم
ن	القلم
يس	يس

ونحن نسأل : " إن كانت هذه الحروف لا يعلمها إلا الله (كما يقولون) فما فائدتها لنا ، إن الله لا يوحى إلا بالكلام الواضح فكلام الله بـــلاغ وبيـــان وهدى للناس " .

الرد على الشبهة :

أطلقوا على هذه الحروف وصف " الكلام العاطل " والكلام العاطل هـــو " اللغو " الذى لا معنى له قط ..

أما هذه الحروف ، التى أُفتتحت بها بعض سور القرآن ، فقد فهمت منها الأمة ، التى أُنزل عليها القرآن بلغتها العريقة ، أكثر من عشرين معنـــى[1] ، وما تزال الدراسات القرآنية الحديثة تضيف جديداً إلى تلك المعـــانى التـــى رصدها الأقدمون فلو كانت " عاطلة " كما يدعى خصوم الإسلام ، ما فهـــم منها أحد معنى واحداً ..

ولو جارينا جـــدلاً هـــؤلاء المتحـــاملين على كتاب الله العـــزيز من أن هذه " الحروف " عاطلة من المعانى ، لوجدنا شططاً فى اتهامهم القرآن كله بأنه " كلام عاطـــل " لأنهـــا لا تتجـــاوز ثمانى وعشـــرين آية ، باستبعـــاد " طـــه" و" يس " لأنهما اســـمان للنبى ﷺ، حذف منهما أداة النداء والتقدير : يا " طه " يا " يس " بدليل ذكر الضمير العائد عليه هكذا :

﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ [2] و **﴿ إنك لمن المرسلين﴾** [3] ..

---

(١) انظر للوقوف على هذه المعانى : التفسير الكبير " للفخر الرازى .. تفسير سورة البقرة .

(٢) طه : ٢ .

(٣) يس : ٣ .

وباستبعاد هاتين السورتين من السور التسع والعشرين تُصبح هذه السور سبعاً وعشرين سورة ، منها سورة الشورى ، التى ذكرت فيها هذه الحروف المقطعة مرتين هكذا :

"حم ، عسق " فيكون عدد الآيات موضوع هذه الملاحظة ثمانى وعشرين آية فى القرآن كله ، وعدد آيات القرآن الكريم ٦٢٣٦ آية . فكيف ينطبق وصف ثمانٍ وعشرين آية على ٦٢٠٨ آية ؟ ..

والمعانى التى فُهمتْ من هذه " الحروف " نختار منها ما يأتى فى الرد على هؤلاء الخصوم ..

الرأى الأول :

يرى بعض العلماء القدامى أن هذه الفواتح ، مثل : الم ، و الر ، والمص " . تشير إلى إعجاز القرآن ، بأنه مؤلف من الحروف التى عرفها العرب ، وصاغوا منها مفرداتهم ، وصاغوا من مفرداتهم تراكيبهم . وأن القرآن لم يغير من أصول اللغة ومادتها شيئاً ، ومع ذلك كان القرآن معجزاً ؛ لا لأنه نزل بلغة تغاير لغتهم ، ولكن لأنه نزل بعلم الله عز وجل ، كما يتفوق صانع على صانع آخر فى حذقه ومهارته فى صنعته مع أن المادة التى استخدمها الصانعان فى " النموذج المصنوع " واحدة وفى هذا قطع للحُجة عنهم ..

ويؤيد هذا قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ [1].

---

(١) هود : ١٣-١٤.

يعنى أن اللغة واحدة ، وإنما كان القرآن معجزاً لأمر واحد هو أنه كـــلام الله ، نازل وفق علم الله وصنعه ، الذى لا يرقى إليه مخلوق .

الرأى الثانى :

إن هذه الحروف " المُقطعة " التى بدئت بها بعض سور القرآن إنما هـــى أدوات صـــوتية مثيـــرة لانتباه السامعـــين ، يقصـــد بها تفـــريغ القلـــــوب من الشواغل الصارفة لها عن السماع من أول وهلة . فمثلاً " الم " فى مطلع سورة البقرة ، وهى تنطق هكذا .

" ألف ــ لام ــ ميم " تستغرق مسافة من الزمن بقدر ما يتســـع لتســـعة أصوات ، يتخللها المد ــ مد الصوت ــ عندما تقرع السمع تهيؤه ، وتجذبه لعقبى الكلام قبل أن يســـمع السامع قـــوله ــ تعالى ــ بعد هذه الأصـــوات التسعة:

﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ (١) .

وإثارة الانتباه بمثل هذه المداخل ســـمة من ســـمات البيـــان العـــــالى ، ولذلك يطلق بعض الدارسين على هذه " الحروف " فى فواتح الســـور عبارة " قرع عصى " (٢) وهى وسيلة كانت تستعمل فى إيقـــاظ النـــائم ، وتنبيـــه الغافل . وهى كناية لطيفة ، وتطبيقها على هذه " الحروف " غير مســـتنكر . لأن الله ــ عز وجل ــ دعا الناس لسماع كلامه ، وتدبر معانيه ، وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ **وإذا قُرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** ﴾ (٣).

الرأى الثالث :

ويرى الإمام الزمخشرى أن فى هذه " الحروف " سرًّا دقيقاً من أســـرار الإعجاز القرآنى المفحم ، وخلاصة رأيه نعرضها فى الآتى :

---

(١) البقرة : ٢ .
(٢) يعنى الضرب بالعصى على الأرض لتنبيه المراد تنبيهه .
(٣) الأعراف : ٢٠٤ .

" واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه فى الفـواتح مـن هـذه الأسماء ـ يقصد الحروف ـ وجدتها نصف حروف المعجم ، أربعة عشـر سواء ، وهى : الألف واللام والميم والصاد ، والراء والكاف والهاء ، والياء والعين والطاء والسين والحاء ، والقاف والنون ، فى تسع وعشرين سورة ، على حذو حروف المعجم " ..

ثم إذا نظرت فى هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجنـاس الحروف ، بيان ذلك أن فيها :

من المهموسة نصفها :

" الصاد ، والكاف ، والهاء والسين والخاء " .

ومن المجهورة نصفها :

الألف واللام والميم ، والراء والعين والطاء ، والقاف والياء والنون .

ومن الشديدة نصفها :

" الألف والكاف ، والطاء والقاف " .

ومن الرخوة نصفها :

" اللام والميم ، والراء والصاد ، والهاء والعين ، والسين والحاء والياء والنون " .

ومن المطبقة نصفها :

" الصاد والطاء " .

ومن المنفتحة نصفها :

" الألف واللام ، والميم والراء ، والكاف ، والهاء والعين والسين والحاء ، والقاف والياء والنون " .

ومن المستعلية نصفها :

" القاف والصاد ، والطاء " .

ومن المنخفضة نصفها :

" الألف واللام والميم ، والراء والكاف والهاء ، والياء ، والعين والسين ، والحاء والنون ".

ومن حـــروف القلقلة نصفـــها : " القـــاف والطـــاء " (١).

يريد أن يقول : إن هذه الحروف المذكورة يلحظ فيها ملحظان إعجازيان :

الأول : من حيث عدد الأبجدية العربية ، وهى ثمانية وعشرون حرفـــاً . فإن هذه الحروف المذكورة فى فواتح السور تعادل نصف حروف الأبجدية ، يعنى أن المذكور منها أربعة عشر حرفاً والذى لم يذكر مثلها أربعة عشـــر حـــرفا :

١٤+١٤ = ٢٨ حرفاً هى مجموع الأبجدية العربية ..

الثانى : من حـــيث صفـــات الحـــروف وهى :

الهمس فى مقابلة الجهارة ..

الشـــدة فى مقابلة الرخاوة ..

الانطباق فى مقابلة الانفتاح ..

والاستعلاء فى مقابلة الانخفاض ..

والقلقلة فى مقابلة غيرهـــا ..

نجد هذه الحروف المذكورة فى الفواتح القرآنية لبعض سور القرآن تعادل نصف أحرف كل صفة من الصفات السبع المذكورة .. وهذا الانتصاف مـــع ما يلاحظ فيه من التناســـب الدقـــيق بين المذكور والمتروك ، لا يوجـــد إلا فى كلام الله المنزل على محمد ﷺ . وهو ذو مغزى إعجازى مذهل لـــذوى الألباب ، لذلك نرى الإمام جار الله الزمخشرى يقول مُعقباً على هذا الصـــنع الحكيم :

---

(١) الكشاف (ج١ ص ١٠٠- ١٠٣) .

" فسبحان الذى دقت فى كل شىء حكمته .. وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته .. فكأن الله عز اسمه عدد على العرب الألفـاظ التـى منهـا تراكيب كلامهم ، إشـارة إلى ما ذكـرت من التبكيت لهم ، وإلزام الحُجـة إياهـم [1].

ثم أخذ الإمام الزمخشرى ، يذكر فى إسهاب الدقائق والأسرار واللطائف ، التى تستشف من هذه " الحروف " التى بدئت بها بعض سور القرآن ، وتابعه فى ذلك السـيد الشريف فى حاشيته التى وضعها على الكشاف ، والمطبوعة بأسفل تفسـير الزمخشرى . وذكر ما قاله الرجلان ــ هنا ــ يخرج بنا عن سبيل القصد الذى نتوخاه فى هذه الرسالة . ونوصى القراء الكرام بالاطلاع عليه فى المواضع المشار إليها فى الهوامش المذكورة وبقى أمرٌ مهمٌ فى الرد على هذه الشبهة التى أثارها خصوم الإسلام ، وهى شبهة وصـف القـرآن بالكلام العاطل . نذكره فى إيجاز فى الأتى :

لو كانت هذه " الحروف " مـن الكـلام العاطـل لمـا تركهـا العـرب المعارضون للدعوة فى عصر نزول القرآن ، وهم المشهود لهم بالفصـاحة والبلاغة ، والمهارة فى البيان إنشاءً ونقداً ؛ فعلى قدرما طعنوا فى القرآن لم يثبت عنهم أنهم عابوا هذه " الفواتح " وهم أهل الذكر " الاختصاص " فى هذا المجال .. وأين يكون " الخـواجات " الذين يتصـدون الآن لنقـد القـرآن من أولئك الذين كانوا أعلم الناس بمزايا الكلام وعيوبه ؟!

وقد ذكر القرآن نفسه مطاعنهم فى القرآن ، ولم يذكر بينها أنهم أخـذوا على القرآن أىَّ مأخذ ، لا فى مفرداته ولا فى جمله ، ولا فى تراكيبه . بـل على العكس سلموا له بالتفوق فى هذا الجانب ، وبعض العرب غير المسلمين امتدحوا هذا النظم القرآنى ورفعوه فوق كلام الإنس والجن ..

---

(١) الكشاف : (ج١ ص ١٠٣) .

ولشدة تأثيره على النفوس اكتفوا بالتواصى بينهم على عـــدم ســـماعه ، والشوشرة عليه ..

والطاعنون الجدد فى القرآن ، قدرة لهم على فهم تراكيب اللغة العربية ، ولا على صوغ تراكيبها صوغاً سليماً ، والشرط فيمن يتصدى لنقد شىء أن تكون خبـــرته وتجربته أقوى من الشىء الذى ينقده .. وهذا الشرط منعـــدم أصـلاً عندهم .

***

الشبهة السادسة

الكـلام المتنـاقــض

" جاء فى سورة النساء : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً﴾ (١).

ولكننا نجد فيه التناقض الكثير مثل :

كلام الله لا يتبدل	كلام الله يتبدل
﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ (٢)	﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية..﴾ (٣)
﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ (٤)	﴿ ما ننسخ من آية أو ننسـها نـأت بخير منها ﴾ (٥)
﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنـا له لحافظون ﴾ (٦)	﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ (٧)

هذه طريقتهم فى عرض هذه الشبهة يقابلون بين بعض الآيات على اعتبار تصورهم ، وهو أن كل آية تناقض معنى الآية المقابلة لها ، على غرار مـا ترى فى هذا الجدول الذى وضعوه لبيان التناقض فى القرآن حسب زعمهم .

---

(١) النساء: ٨٢ .
(٢) يونس : ٦٤ .
(٣) النحل : ١٠١ .
(٤) الكهف : ٢٧ .
(٥) البقرة : ١٠٦ .
(٦) الحجر : ٩ .
(٧) الرعد : ٣٩ .

الرد على الشبهة :

الصورة الأولى للتناقض الموهوم بين آية يونس : ﴿ **لا تبـــديل لكلمـــات الله** ﴾ وآية النحل ﴿ **وإذا بدلنا آية مكان آية..**﴾ لا وجود لها إلا فى أوهامهم ويبدو أنهم يجـــهلون معنى التناقض تمامًا. فالتناقـــض من أحكـــام العقـــل ، ويكون بين أمرين كليين لا يجتمعـــان أبداً فى الوجـــود فى محـــل واحـــد ، ولا يرتفعان أبداً عن ذلك المحل ؛ بل لا بد من وجـــود أحـــدهما وانتفـــاء الآخر ،مثل الموت والحـــياة . فالإنســـان يكـــون إمـــا حيًّـــا وإمـــا ميتـــا ولا يرتفـــعان عنه فى وقت واحـــد ، ومحال أن يكون حيًّا و ميتاً فـــى آن واحد ؛ لأن النقيضين لا يجتمعان فى محل واحد .

ومحال أن يكون إنسان ما لا حى ولا ميت فى آن واحد وليس فى القرآن كله صورة ما من صور التناقض العقلى إلا ما يدعيه الجهلاء أو المعاندون . والعثور على التناقض بين الآيتين المشار إليهما محال محـــال ؛ لأن قولـــه تعالى فى سورة يونس ﴿ **لا تبديل لكلمات الله** ﴾ معناه لا تبديل لقضـــاء الله الذى يقضيه فى شئون الكائنات ، ويتسع معنى التبديل هنا ليشمل ســـنن الله وقوانينه الكونية . ومنها القوانين الكيميائية ، والفيزيائية وما ينتج عنها مـــن تفاعلات بين عناصرالموجودات ،أو تغييرات تطرأ عليها . كتسخين الحديـــد أو المعادن وتمددها بالحرارة ، وتجمدها وانكماشـــها بالبرودة . هـــذه هـــى كلمات الله عزّ وجلّ .

وقد عبر عنها القرآن فى مواضع أخرى بـــ .. السنن وهى القوانين التى تخضع لها جميع الكائنات ، الإنسان والحيوان والنبات والجمادات . إن كـــل شئ فى الوجود ، يجرى ويتفاعل وفق السنن الإلهية أو كلماته الكلية ، التـــى ليس فى مقـــدور قـــوة فى الوجود أن تغيرها أو تعطل مفعولها فى الكون .

ذلك هو المقصود به بـــ " كلمات الله " ، التى لا نجد لها تبديلاً ، ولا نجد لها تحويلاً .

ومن هذه الكلمات أو القوانين والسنن الإلهية النافذة طوعاً أو كرهاً قولـــه تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقـــة الموت**﴾ (١). فهل فى مقـــدور أحـــد مهما كـــان أن يعطل هذه السنة الإلهية فيوقف " سيف المنايا " ويهب كل الأحياء خلـــوداً فى هذه الحياة الدنيا ؟

فكلمات الله ــ إذن ــ هى عبارة عن قضائه فى الكائنات وقوانينه المطردة فى الموجودات وسننه النافذة فى المخلوقات .

ولا تناقض فى العقل ولا فى النقل ولا فى الواقع المحسوس بين مـــدلول آية : ﴿ **لا تبديل لكلمات الله** ﴾ وآية : ﴿ **وإذا بدلنا آية مكان آية..** ﴾ .

لأن معنى هذه الآية : إذا رفعنا آية ، أى وقفنا الحكم بها ، ووضعنا آيـــة مكانها ، أى وضعنا الحكم بمضمونها مكان الحكم بمضون الأولـــى . قـــال جهلة المشركين : إنما أنت مفتٍ (٢) .

فلكل من الآيتين معنى فى محل غير معنى ومحل الأخرى .

فالآية فى سورة يونس ﴿ **لا تبديل لكلمات الله** ﴾ والآية فى سورة النحل : ﴿ **وإذا بدلنا آية مكان آية..**﴾ لكل منهما مقام خاص ، ولكن هؤلاء الحقـــدة جـــعلوا الكلمات بمعنى الآيات ، أو جعلوا الآيـــات بمعنـــى الكلمـــات زوراً وبهتاناً ، ليوهموا الناس أن فى القـــرآن تناقضاً . وهيهـــات هيهـــات لمـــا يتوهمون .

* * *

أما الآيتان ﴿ **لا مبدل لكلماته** ﴾ و﴿**ما ننسخ من آية أو ننسها نـــأت بخيـــر منها أو مثلها** ﴾ **وقد** تقدم ذكرهما فى الجدول السابق .

هاتان الآيتان بريئتان من التناقض براءة قرص الشمس من اللون الأسود :

فآية الكهـــف ﴿ **لا مبدل لكلماته** ﴾ معـــناها لا مغـــير لسننه وقوانينه فى

---

(١) آل عمران : ١٨٥ .

(٢) انظر تفسير فتح القدير (ج٢/٢٣٢)

الكائنات . وهذا هو ما عليه المحققون من أهل العلم ويؤيده الواقع المحسوس والعلم المدروس .

وحتى لو كان المراد من " كلماتـــه " آياته المنـــزلة فى الكتاب العـــزيز " القرآن " فإنه ــ كذلك ــ لا مبدل لها من الخلق فهى باقية محفوظـــة كمـــا أنزلها الله عز وجل ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها [1] .

أما آية البقرة :﴿ **ما ننسخ من آية ... ﴾** فالمراد مـــن الآيـــة فيهـــا المعجزة ، التى يجريها الله على أيدى رسله . ونسخها رفعها بعد وقوعهـــا . وليس المراد الآية من القرآن ، وهذا ما عليه المحققون من أهـــل التأويـــل . بدليل قوله تعالى فى نفس الآية : ﴿**ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير** ﴾ .

ويكون الله عز وجل قد أخبر عباده عن تأييده رسله بالمعجزات وتتابع تلك المعجزات ؛ لأنها من صنع الله ، والله على كل شىء قدير .

فالآيتان ــ كما ترى ــ لكل منهما مقام خاص بها ، وليس بينهما أدنـــى تعارض ، فضلاً عن أن يكون بينهما تناقض .

***

أما الآيتان الأخيرتان الواردتان فى الجدول ، وهما آية الحجر : ﴿ **إنـــا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ وآية الرعد : ﴿ **يمحو الله مـــا يشـــاء ويثبت** ﴾ فلا تعارض بينهما كذلك ؛ لأن الآية الأولى إخبار مـــن الله بأنـــه حافظ للقرآن من التبديل والتحريف والتغيير ، ومن كل آفات الضـــياع وقـــد صدق إخباره تعالى ، فظل القرآن محفوظاً من كل ما يمسه مما مس كتـــب الرسل السابقين عليه فى الوجود الزمنى ، ومن أشهرها التوراة وملحقاتها . والإنجيل الذى أنزله الله على عيسى عليه السلام .

---

(١) تفسير فتح القدير (ج٣ ــ ص ٣٣٣) .

أما الآية الثانية: ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت** ﴾ فهى إخبار من الله بأنه هو وحده المتصرف فى شئون العباد دون أن يحد من تصرفه أحد . فإرادته ماضية ، وقضاؤه نافذ ، يحيى ويميت ، يغنى ويفقر ، يُصحُّ ويُمْرِضُ ، يُسْعِد ويُشْقِى ، يعطى ويمنع ، لا رادِ لقضائه ، ولا معقب على حكمه ﴿ **لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون** ﴾ [1]. فأين التناقض المزعوم بين هاتين الآيتين يا ترى ؟ التناقض كان سيكون لو ألغت آية معنى الأخرى . أما ومعنى الآيتين كل منهما يسير فى طريقٍ متوازٍ غير طريق الأخرى ، فإن القول بوجود تناقض بينهما ضرب من الخبل والهذيان المحموم ، ولكن ماذا نقول حينما يتكلم الحقد والحسد ، ويتوارى العقل وراء دياجير الجهالة الحاقدة ؟ نكتفى بهذا الرد الموجز المفحم ، على ما ورد فى الجدول المتقدم ذكره .

وهناك شبه أخرى يمكن سردها بإيجاز :

١- إنهم توهموا تناقضاً بين قوله تعالى : ﴿ **يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون** ﴾ [2]. وبين قوله تعالى : ﴿ **تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ [3]. وفى عبارة شديدة الإيجاز نرد على هذه الشبهة الفرعية ، التى تصيدوها من اختلاف زمن العروج إلى السماء ، فهو فى آية السجدة ألف سنة وهو فى آية المعارج خمسون ألف سنة ، ومع هذا الفارق العظيم فإن الآيتين خاليتان من التناقض . ولماذا ؟ لأنهما عروجان لا عروج واحد ، وعارجان لا عارج واحد .

* * *

---

(١) الأنبياء : ٢٣ .

(٢) السجدة : ٥ .

(٣) المعارج : ٤ .

فالعارج فى آية السـجدة الأمر ، والعـروج عروج الأمر ، والعارج فى آية المعارج هم الملائكة والعروج هو عروج الملائكة .

اختلف العـارج والعـروج فى الآيتين . فاختلف الزمن فيهما قصـراً أو طولاً . وشرط التناقض ــ لو كانوا يعلمون ــ هو لتحاد المقام .

* * *

٢- وقالوا أيضًا : إن بين قوله تعالى : ﴿ **ثلة مـن الأولـين وقليـل مـن الآخرين**﴾ [١]. **وقـوله تعالى : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخـرين ﴾** [٢] تناقضا . وشـاهد التنـاقض عندهم أن الله قال فى الآية (١٣) ﴿**وقليل مـن الآخـرين ﴾** وقال فى الآية (٤٠) ﴿ **وثلة من الآخرين ﴾** إذ كيف قال أولاً : ﴿ **ثلة من الأولين * وقـليل من الآخرين ﴾** ثم قال ثانياً ﴿ **ثلة من الأولـين * وثلة من الآخرين ﴾** ولو كان لديهم نية فى الإنصاف ، ومعرفـة الحـق ناصعاً ونظروا فى المقامين اللذين ورد فيهما هذا الاختلاف لوصـلوا إلـى الحق من أقصر طريق . ولكنهم يبحثون عن العيوب ولو كلفهم ذلك إلغـاء عقولهم .

هذا الاختلاف سببه اختلاف مقام الكلام ؛ لأن الله عز وجل قسم النـاس فى سـورة الواقعة ، يوم القـيامة ثلاثة أقسام . فقال : ﴿ **وكنـتم أزواجـاً ثلاثة ﴾** :

*السابقون السابقون . *وأصحاب الميمنـة . * وأصحاب المشئمة .

ثم بين مصير كل قسـم من هـذه الأقسام فالسابقون السابقـون لهـم منزلة : " المقربون فى جنات النعيم "

ثم بيَّن أن الذين يتبوأون هذه المنزلة فريقان :

كـثيرون من السـابقين الأوليـن ، وقليلون من الأجيال المتأخـرين .

---

(١) الواقعة : ١٣ ــ ١٤ .

(٢) الواقعة : ٣٩ ــ ٤٠ .

وذلك لأن السابقين الأولين بلغوا درجات عالية مـــن الإيمـــان وعمـــل الباقيات الصالحات . ولم يشاركهم من الأجيال المتأخرة عن زمنهم إلا قليل .

أما أصحاب اليمين أو الميمنة فبلاؤهم فى الإســـلام أدنـــى مـــن بـــلاء السابقين الأولين . لذلك كانت درجاتهم فى الجنة أدنى من درجات الســـابقين الأولين ويشاركهم فى هذه المنزلة كثير من الأجيال اللاحقة بهم ؛ لأن فرصة العمل بما جعلهم أصحاب اليمين ، متاحة فى كل زمان .

ويمكن أن نمثل للسابقين الأولين بأصحاب رسول الله ﷺ ولأصـــحاب اليمين بالتابعين ، الذين أدركوا الصحابة ولم يدركوا صاحب الرســـالة ﷺ . واذا صح هذا التمثيل ، ولا أظنه إلا صحيحاً ، صح أن نقول :

إن قليلاً منا ، بل وقليل جداً ، من يسير فى حياته سيرة أصحاب رسول الله ﷺ وإن كثيراً منا من يمكن أن يسير سيرة التابعين رضى الله عنهم .

وعلى هذا فلا تناقض أبداً بين الآيتين :

﴿ ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين ﴾ .

و**﴿ ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين ﴾ .**

٣- وقالوا أيضًا : إن فى القرآن آية تنهى عن النفـــاق ، وآية أخـــرى تُكره الناس على النفاق أما الآية التى تنهى عن النفاق ــ عندهم ــ فهـــى قولـــه تعالى **﴿وبشر المنافقين بأن لهم عذابًا أليما﴾** (١).

وأما الآية التى تُكره الناس على النفـــاق ــ عندهم ــ فهى قوله تعالى : **﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قـــولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفـــروا مـــن قـــبل قاتلهـــم الله أنَّـــى يؤفكـــون ﴾** (٢).

---

(١) النساء : ١٣٨ .

(٢) التوبة : ٣٠ .

من المحال أن يفهم من له أدنى حظ من عقل أو تمييز أن فـــى الآيـــة الأولى نهياً ، وأن فى الآية الثانية إكراهاً ويبدو بكل وضوح أن مثيرى هذه الشبهات فى أشد الحاجة إلى من يعلمهم القراءة والكتابة على مـــنهج : وزن وخزن وزرع .

ويبدو بكل وضوح أنهم أعجميو اللسان ، لا يجيدون إلا الرطانة والتهتهـــة ؛ لأنهم جهلة باللغة العربية ، لغة التنزيل المعجز . ومع هذه المخازى يُنَصِّبُون أنفسهم لنقد القرآن ، الذى أعجز الإنس والجن .

لا نهى فى الآية الأولى ، لأن النهى فى لغة التنزيل له أسلوب لغـــوى معروف ، هو دخول " لا " الناهية على الفعل المضارع مثل : لا تفعل كذا .

ويقـــوم مقامه أسلوب آخر هو : إياك أن تفعل ، جامعًا بـــين التحـــذير والنهى ، ولا إكـــراه فى الآية الثانيـــة . وقد جهل هؤلاء الحقدة أن الإكراه من صفات الأفعال لا من صفات الأقـــوالُ أما كان الحرى بهم أن يســـتحيوا من ارتكاب هذه الحماقات الفاضحة .

إن الآية الأولى : ﴿ **وبشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما**﴾ تحمل إنذاراً ووعيداً . أما النهـــى فلا وجـــود له فـــيها والآية الثانية تســـجل عن طريق " الخبر " انحراف اليهود والنصارى فى العقيدة ، وكفرهم بعقيدة التوحيـــد ، وهى الأساس الذى قامت عليه رسالات الله عز وجل .

وليس فى هذه الآية نفاق أصلاً ، ولكن فيهـــا رمـــز إلـــى أن اليهـــود والنصارى حين نسبوا " الأبنية " لله لم يكونوا على ثقة بما يقولون ، ومع هذا فإنهم ظلوا فى خداع أنفسهم .

وكيف يكون الـــقرآن قد أكرههـــم على هذا النـــفاق " المودرن " وهو فى الوقت نفسه يدعو عليهم بالهلاك بقبح إشراكهم بالله :

﴿ **قاتلهم الله**﴾ .

الشبهة السابعة

الكـــلام المفـــكك

جاء فى ســـورة الإسراء : ﴿ **وقرآنًا فرقناه لتقرأه على النـــاس علـــى مكث ونزلناه تنزيلا** ﴾ [1]. ﴿ **وقرآنا فرقناه** ﴾ : نزلنـــاه مفرقاً منجماً " فإنه نزل فى تضاعيف عشرين سنة " ﴿ **لتقرأه على الناس على مكث**﴾ : علـــى مهل وتؤدة . فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم ﴿ **ونزلناه تنزيلا** ﴾ حســـب الحوادث ، بعد هذه المقدمة قالوا :

" كيف يكون القرآن وحياً ، وهو متقطع مفرق يأتى بعضه فـــى وقـــت ، ويتأخر بعضـــه إلى وقـــت آخر ، لقد كان محمد يرتبك عندما كان العرب أو اليهود أو النصارى يسألونه . وأحياناً كان يحتج بأن جبريل تأخر .

الرد على الشبهة :

إنهم يستبعدون أن يكون القرآن وحياً لأنه لم ينزل مرة واحدة . فنزولـــه مفرقاً على مدى ثلاث وعشرين سنة ينفى عنه كونه وحياً من عند الله ، هذه واحدة ويثبت أنه كلام مفكك ، وهذه ثانية ونقول لهم على وفق طريقتهم : ونحـــن نســـأل :

من أين لكم هذا الدليل ؟ أَنَزل عليكم وحى من الله قال لكم فيه : إن كـــل وحى من عنـــدى يكون نزوله دفعة واحدة . وكل ما خالف هـــذا لا يكـــون وحياً ؟ ! هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . هذا عن الأولى .

أما عن الثانية ، فمن يجاريكم من العقـــلاء علـــى هـــذا المعيـــار الـــذى وضعتموه لمعرفة الكلام المفكك الذى تتهمون كلام رب العالمين به ؟

إن الكلام المفكك عند العقلاء هو الكلام الذى لا يناسب بعضـــه بعضـــاً ،

---

(١) الإسراء : ١٠٦ .

لامن حيث المفردات والتراكيب ولا من حيث المعانى والـدلالات . وهـذا معـيار عام لا يخـص كلاماً دون كلام ، فمن الناس من يكتب كتابـاً فـى سنة ، أو خمس ، أو عشر ، ويأتى ما كتبه آية فى الجودة والإتقان . ولـو قدر لإنسان أن يكتب كتاباً من مائة صفـحة فى سـاعة أو ساعتين أو ثلاث لجاء كتابه " تخاليط " يصد عنه الناس .

والقرآن ، الذى نزل مفـرقا فى ثلاث وعـشرين سـنة ، ليس له مثيـل ولاحتى مقارب فى إحكام نسـجه ، وتآلف نظمه وصـحة معنـاه وصـفاء عباراته ، وسلامة لغته من كل عيب أو قصور .

كتاب قطع عمراً من الدهر يقترب من الألف ونصف الألف من السنين ، ومع هذا فهو كتاب كل عصر سام فوق كل كلام قيل بعده أو قبلـه أو فـى عصر نزوله و معانيه تكشف للناس فى كل عصر سبقاً فى ميادين المعرفـة يذهل ويدهش . وكفاه فضلاً سبقه للحضارات الحديثة فى مختلـف ميـادين المعرفة العلوية والأرضية وما بين السماء والأرض ، وما فى أعماق الأنهار والبحار والمحيطات ، وما فى أعماق الأرض .

وكل هذا وفاء بالوعـد الإلهى ، الذى ورد فى القرآن:﴿ **سنريهم آياتنـا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ (١).

إن القرآن الذى تفترون عليه هو كتاب الوجود كله ، كم حاول الحاقـدون قبلكم ومعكم أن يحدثوا فيه شرخاً فأعياهم ، وبقى هو كلمة الله العليا السابحة فى الآفاق يتحدى تعاقب الدهور والعصور ، وهو المنارة الشـامخة يـتلألأ ضوؤها ماحياً حيالك الظلام . ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيماً لينذر بأسا شديداً من لدنه ويبشر المـؤمنين الـذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيها أبداً * وينـذر الـذين قالوا اتخذ الله ولدا * مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج مـن أفواههم إن يقولون إلا كذبا** ﴾ (٢).

---

(١) فصلت : ٥٣ .

(٢) الكهف : ١- ٥ .

الشبهة الثامنة

الكـلام المكـرر

هذه الشبهـة من الشبهـات التى أكثروا اللغـو حولهـا . واتخـذوها ـ كذلك ـ منفذاً للطعن فى القرآن الكريم بأنـه لـيس وحيـاً مـن عنـد الله .

وركزوا كل التركيز على تكرار القصص فى القرآن وذكـروا بعـض القصص الذى تكرر ، مع الإشارة إلى مواضعه فى سور القرآن ، كما ذكروا تكرار بعض العبارات والجمل .

ولغوا لغواً كثيراً ، حـول تكرار قصة آدم فى القـرآن ، وقـالوا إنهـا تكررت خمس مرات . ونحن نقول بل تكررت سبع مرات .

كما فعلوا الشىء نفسه مع التكرار الوارد فى سورة " الرحمن " وادعـوا أن القرآن إذا حُذف منه المكرر لم يبق منه إلا ما يملأ كراسة واحدة .

لذلك فإننا فى الرد عليهم سنقف وقفة متأنيـة ، نلقـنهم فيهـا درسـاً بليغاً حول التكرار الوارد فى القـرآن المحفـوظ وبخاصـة فـى سـورة الرحمن ، وتكرار قصـة آدم عليه السلام فـى مواضـع سـبعة . لنقـيم الحجـة لله .

*** الرد على الشبهة :**

يقع التكرار فى القرآن الكريم على وجوه :

١- مرة يكون المكرر أداة تؤدى وظيفة فى الجملة بعد أن تستوفى ركنيهـا الأساسيين .

٢- وأخرى تتكرر كلمة مع أختها لداع ، بحيـث تفيـد معنـى لا يمكـن الحصول عليه بدونها .

٣- فاصلة تكرر فى سورة واحدة على نمط واحد .

٤- قصة تتكرر فى مواضع متعددة مع اختلاف فى طرق الصياغة وعرض الفكرة .

٥- بعض الأوامر والنـواهى والإرشادات والنصح مما يقرر حكماً شرعيًّا أو يحـث على فضـيلة أو ينهى عن رذيلة أو يرغب فى خير أو ينفـر من شر .

وتكرار القرآن فى جميع المواضع التى ذكرناها ، والتى لم نذكرها مما يلحظ عليها سمة التكرار . فى هذا كله يباين التكرار القرآنى ما يقع فى غيره من الأساليب لأن التكرار وهو فن قولى معروف . قد لا يسلم الأسلوب معه من القلق والاضـطراب فيكون هـدفاً للنقد والطعن . لأن التكرار رخصـة فى الأسـلوب ــ إذا صح هذا التعبير ــ والرخص يجب أن تؤتى فى حـذر ويقظة .

***

*** وظيفة التكرار فى القرآن :**

مع هذه المزالق كلها جاء التكرار فى القرآن الكريم محكماً . وقـد ورد فيه كثيراً ــ فليس فيه موضع قد أخذ عليه ــ دَعْ دعاوى المغالين فإن بينهم وبين القرآن تارات ؛ فهم له أعداء ــ وإذا أحسنا الفهم لكتاب الله فإن التكرار فيه ــ مع سلامته من المآخذ والعيوب ــ يؤدى وظيفتين :

أولاهما : من الناحية الدينية .

ثانيهما : من الناحية الأدبية .

فالناحية الدينية ــ باعتبار أن القرآن كتاب هداية وإرشاد وتشريع ــ لا يخلو منها فن من فنونه ، وأهم ما يؤديه التكرار من الناحية الدينية هــو تقريــر المكرر وتوكيده وإظهار العناية به ليكون فى السلوك أمثل وللاعتقاد أبين .

أما الناحــية الأدبية فإن دور التكرار فيها متعدد وإن كان الهدف منــه فى جميع مواضعه يؤدى إلى تأكيد المعانى وإبرازها فى معرض الوضــوح والبيان . وليكن حديثنا عنه على حسب المنهج الذى أثبتناه فى صــدر هــذا البحث .

* * *

*** تكرار الأداة :**

ومن أمثلتها قوله تعالى : ﴿ **ثم إن ربك للذين هاجروا من بعدما فتنــوا ثــم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحِيم**﴾ (١) .

﴿ **ثم إن ربك للذِين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾ (٢) .

والظاهر من النظر فى الآيتين تكرار " إنَّ " فيهمــا . وهــذا الظــاهر يقتضــى الاكتفــاء بــ " إنَّ " الأولى . ولم يطــلب إلا خــبرها . وهــو فى الموضعين ــ أعنى الخبر ــ " لغفور رحيم " لكن هذا الظــاهر خولــف وأعيدت " إنَّ " مرة أخرى .ولهذه المخالفة سبب .

وهذا السبب هو طول الفصل بين " إنَّ " الأولى وخبرها . وهــذا أمــر يُشعِر بتنافيه مع الغرض المســوقة من أجله " إنَّ " وهــو التوكيــد . لهــذا اقتضت البلاغة إعادتها لتلحظ النسبة بين الركنين على ما حقهــا أن تكــون عليه من التوكيد .

---

(١)النحل : ١١٠ .

(٢) النحل : ١١٩ .

على أن هناك وظيفة أخرى هى : لو أن قارئاً تلا هاتين الآيتين دون أن يكرر فيهما " إنَّ " ثم تلاهما بتكرارها مرة أخرى لظهر لـــه الفـــرق بـــين الحالتين : قلق وضعف فى الأولى ، وتناسق وقوة فى الثانية .

ومن أجل هذا الطول كررت فى قول الشاعر [1] :

وإن امرأً طَالَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ *** عَلَى مِثْلِ هَذاَ إنَّهُ لَكَرِيمُ

يقول ابن الأثير رائياً هذا الرأى : ".. فإذا وردت " إنَّ " وكـــان بـــين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام . فإعادة " إنَّ " أحسن فى حكم البلاغة والفصاحة كالذى تقدّم من الآيات " [2] .

***

*** تكرار الكلمة مع أختها :**

ومن أمثلتها قوله تعالى : **﴿أولئك الذين لهم سوء العـذاب وهـم فـى الآخرة هم الأخسرون﴾** [3] .

فقد تكررت " هم " مرتين ، الأولى مبتدأ خبرهـا : " الأخســرون " . والثانية ضمير فصل جئ به لتأكيد النسبة بين الطرفين وهى : هُـمْ الأولـى بالأخسرية .

وكذلك قوله تعالى :**﴿ أولئك الذين كـفروا بربهـم وأولئك الأغـلال فِى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** [4] .

تكررت ــ هنا ــ " أولئك " ثلاث مرات . ولم تجد لهذه الكلمة المكررة مع ما جاورها إلا حسناً وروعة . فالأولى والثانية : تســجلان حكماً عامًّـا على منكرى البعث : كفرهم بربهم وكون الأغلال فى أعناقهم .

---

(١) ديوان الحماسة : ١٠٥/٢ ــ ولم ينسب لقائل معين .

(٢) المثل السائر (جـ٣ ص٧) تحقيق د/ بدوى طبانة ود/ الحوفى .

(٣) النمل : ٥ .

(٤) الرعد : ٥ .

والثالثة : بيان لمصيرهم المهين . ودخولهم النار . ومصاحبتهم لها على وجه الخلود الذى لا يعقبه خروج منها .

ولو أسقطت﴿ **أولئك** ﴾ من الموضعين الثانى والثالث لترك المعنى واضطرب . فتصبح الواو الداخلة على :﴿ **الأغلال فى أعناقهم** ﴾ . واو حال . وتصبح الواو الداخلة على :﴿ **أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ عاطفة عطفا يرك معه المعنى .

لذلك حسن موضع التكرار فى الآية لما فيه من صحة المعنى وتقويته . وتأكيد النسبة فى المواضع الثلاثة للتسجيل عليهم بسوء المصير .

* * *

* تكرار الفاصلة :

سبق أن ذكرنا فى مبحث الفواصل بسوء المصير من تكرار الفاصلة مرتين بدءاً وثلاث مرات نهاية . وقد وجهنا أسلوب التكرار فى تلك الصور . ولكنَّا ــ هنا ــ أمام فاصلة لم تقف فى تكرارها عند حد المرات الثلاث . بل تعدت ذلك بكثير . لذلك آثرنا أن نبحثها هنا إذ هى بهذا الموضع أنسب [1] .

ونعتمد فى دراستنا لتكرار الفاصلة على ثلاث سور هى : " الرحمن ــ القمر ــ المرسلات " . وهى السور التى برزت فيها هذه الظاهرة الأسلوبية . بشكل لم يرد فى غيرها ، كما ورد فيها .

فقد تكررت :﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ [2] فى " الرحمن " . وتكررت ﴿ **فكيف كان عذابى ونذر** ﴾ [3] فى " القمر " . وتكررت : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ [4] فى " المرسلات ".

* تكرار الفاصلة فى " القمر " :

ولهذا التكرار فى المواضع الثلاثة أسباب ومقتضيات . ففى سورة

---

(١) انظر كتابنا : خصائص التعبير فى القرآن الكريم وسماته البلاغية (مبحث الفواصل) ــ مكتبة وهبة بالقاهرة

(٢) وردت ٣١ مرة .

(٣) وردت ٤ مرات .

(٤) وردت ١٠ مرات

القمر " نجد العبارة المكررة وهى : ﴿ **فكيف كان عذابى ونذر**﴾ قد صاحبت فى كل موضع من مواضع تكرارها قصة عجيبة الشأن ، وكان أول موضع ذُكِرت فيه عقب قصة قوم نوح . وبعد أن صوَّر القرآن مظـــاهر الصـــراع بينهم وبين نوح ــ عليه السلام ــ ثم انتصار الله لنوح عليهم . حيث سـلَّط عليهم الطوفان . فأغرقهم إلا مَن آمن وعصمه الله .

ونجد أن الله نجَّى نوحاً وتابعيه . ولكن تبقى هذه القصة موضع عظـــة وادكار، ولتلفت إليها الأنظار وللتهـــويل من شأنـــها جاء قوله تعالى عقبها : ﴿ **فكيف كان عذابى ونذر**﴾ مُصدَّراً باسم الاستفهام " كيف " للتعجيـــب ممـــا كان ، ولقد مهَّد لهذا التعجيب بالآية السابقة عليه . وهى قوله تعالى : ﴿ **ولقد تركناها آية فهل من مدكِر**﴾ (١) .

والموضع الثانى لذكرها حين قص علينا القرآن قصة عاد وعتوها عن أمر الله وفى " عـــاد " هذه نجد العبارة اكتنفت القصة بدءاً ونهايـــة . قـــال تعالى : ﴿ **كذبت عادُ فكيف كان عذابىِ ونذر *إنا أرسـلنا علـيهم ريحـاً صرصراً فى يومِ نحْسٍ مستمر * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعـر * فكيف كان عذابى ونذر** ﴾ (٢) .

وتكرار العـــبارة ــ هكذا ــ فى البداية والنهاية إخـــراج لهـــا مخـــرج الاهتمام . مع ملاحظة أن أحداث القصة ــ هنا ــ صُورت فـــى عبـــارات قصيرة ولكنها محكمة وافية .. ولم يسلك هذا المسلك فى قصة نوح ــ أعنى قصر العبارات ــ والسبب ــ فيما يبدو لى ــ أن إهلاك قـــوم نـــوح كـــان بالإغراق فى الماء . وهى وسيلة كثيراً ما تكون سبب هلاك . فقـــد كانـــت سبب هلاك فرعون وملئه .. أما أن يكون الإهلاك بالريح فذلك أمر يـــدعو إلى التأمل والتفكر .

---

(١) القمر : ١٥ .
(٢) القمر : ١٨ ــ ٢١ .

ولعل مما يقــوى رأينا هذا . أن هــذه القصة ــ قصة عــاد ــ وردت فى موضع آخر من القرآن يتفق مع هذا الموضوع مــن حيــث الفكــرة ، ويختلف معه ــ قليلاً ــ من حيث طريقة العرض وزيادة التفصيل .

جاء فى سورة الحاقة : ﴿ **وأما عاد فأهلكوا بــريح صرصــرٍ عاتيــة* سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حُسوماً فترى القوم فيها صرعَى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية**﴾ (١) .

فإرسال الريح ــ هكذا ــ سبع ليال وثمانية أيام حسوماً مــدعاة للعظــة والاعتبار .

ومثله : ﴿ **وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ما تذر من شــئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم**﴾ (٢) . ﴿ **فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغيــر الحق وقالوا مَن أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد مــنهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون * فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عــذاب الخــزى فى الحــياة الدنيا ولعــذاب الآخــرة أخزى وهــم لا ينصرون** ﴾ (٣) .

فقد بطرت " عاد " نعم ربها عليها . وغرها ما فيه من أسباب التمكــين فى الأرض وقوة البطش أن تبارز ربها ومولى نعمها بالمعاصى ، فأهلكهــا الله بما لا قبل لها به . وفى كل موضع يذكر القرآن فيه قصة هؤلاء ، تأتى عباراته قوية هادرة واعظة زاجرة ..

جاء فى موضــــع آخر : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربــك بعــاد * إرم ذات العماد * التى لم يُخلق مثلها فى البلاد** ﴾ (٤)

---

(١) الحاقة : ٦ ــ ٨ .

(٢) الذاريات : ٤١ ــ ٤٢ .

(٣) فصلت : ١٥ ــ ١٦ .

(٤) الفجر : ٦ ــ ٨ .

وكانت عاقبتها خسراً وهلاكاً مع من طغى فى الأرض بغـير الحـق : ﴿ **فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد**﴾ (١) .

أما الموضع الأخير الذى ذكرت فيه هذه العبارة : ﴿ **فكيف كان عذابى ونذر** ﴾ فحين قص الله علينا قصة " ثمود " ، وقد جاءت فيها كـذلك مهيئـة لتلقى صورة العقاب بعد التشـويق إليها عند السـامع . ولفت نظـره إليها : ﴿ **فكيف كان عذابى ونذر* إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشـيم المحتظر**﴾ (٢) .

ومن هنا ندرك شدة اقتضاء المقام لهذا التكرار . فليست إحدى العبارات فى موضع بمغنية عن أختها فى الموضع الآخر . إنما هو اتسـاق عجيـب تطلبه المقام من الناحيتين : الدينية والأدبية .

من الناحية الدينية حيث تحمل المومنين على التذكر والاعتبار عقب كل قصة من هذه القصص ، ومن الناحية الأدبية لأن العبارة : ﴿ **فكيـف كـان عذابى ونذر**﴾ تأتى عقب كل قصة ــ أيضاً ــ لافتة أنظـار المشـاهدين إلى " كنه " النهاية وختام أحداث القصة .

وقد مهد القرآن لهذا التكرار حيث لم يأت إلا بعد خمـس عشـرة آيـة تنتهى كلها بفاصلة واحدة تتحد نهاياتها بحـرف " الراء " مع التزام تحريك ما قبلها . وذلك هو نهج فواصل السورة كلها . وقد أشاع هذا النسق الشاجى نوعاً من الإحساس القوى بجو الإنذار. والسورة فوق كل هذا مكية النـزول والموضوع .

كما أن الطابع القصصى هو السائد فى هذه السورة . فبعـد أن صـور آلقرآن الكريم موقف أهل مكة من الدعوة الجديدة . وبَيَّن ضلال مسـلكهم . وقد كان الرسول ﷺ حريصاً على هدايتهم فى وقت هم فيه أشد ما يكونـون إعراضاً عنه . لهذا اقتضى الموقـف العام سـوق عِبَر الماضـين ليكـون فى ذلك تسلية للرسول ﷺ ومن اتبعه وزجر لمن عارضه وصد عنه .

---

(١) الفجر ١٣ ــ ١٤ .

(٢) القمر : ٣٠ ــ ٣١ .

وما دام هذا هو طابعُ السورة فإن أسس التربية ــ خاصة تربية الأمم ــ تســتدعى تأكيد الحقائق بكل وسيلة ومنها التكرار الذى لمسناه فى ســورتنا هذه ؛ حتى لكأنه أصيل فيها وليس بمكرر .

* * *

*** تكرار آخر فى سورة " القمر " :**

وفى هذه السورة " القمر " مظهر آخر من مظاهر التكرار ، هو قولــه تعالى:﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**﴾ (١). حيث ورد فى السورة أربع مرات ، وهذه دعوة صالحة للتأمل فيما يسوقه الله من قصص .

وقد اشتملت هذه الآية : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مــدكر** ﴾ على خبر واستفهام ، والخبر تمهيد للاستفهُام الذى فيها ولفت النظر إليه .

* * *

*** التكرار فى سورة " الرحمن " :**

أما التكرار الوارد فى " الرحمن " فى قوله تعالى :﴿ **فبأى آلاء ربكمــا تكذبان**﴾ حيث تكررت الآية فيها إحدى وثلاثين مرة فلــه أســبابه كــذلك . ويمكن أن نسجل هذه الملاحظات :

أولاً : إن هذا التكرار الوارد فى سورة " الرحمن " هو أكثر صور التكــرار الوارد فى القرآن على الإطلاق .

ثانياً : إنه ــ أى التكرار فى هذا الموضع ــ قد مُهِّدَ له تمهيداً رائعاً .حيــث جاء بعد اثنتى عشرة آية متحدة الفواصل . وقد تكررت فى هذا التمهيد كلمة " الميزان " ثلاث مرات متتابعة دونما نبو أو ملل :

---

(١) القمر : ١٧ ، ٢٢ ،٣٢ ، ٤٠ .

﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا فى الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ (١) .

وهذا التمهيد قد أشاع ــ كذلك ــ لحناً صوتيًّا عذباً كان بمثابة مقدمة طبيعية لتلائم صور التكرار ولتألفها النفس وتأنس بها فلا تهجم عليها هجوماً ؛ لأن القرآن قد راعى فى فواصل المقدمة التمهيدية ما انبنت عليه فواصل الآية المكررة .

ثالثاً : إن الطابع الغالب على هذه السورة هو طابع تعداد النعم على الثَقَلين : الإنس والجن ، وبعد كل نعمة أو نِعَم يعددها الله تأتى هذه العبارة : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان**﴾ .

وعلى هذا الأساس يمكن بيسر فهم عِلّة التكرار الذى حفلت به سورة الرحمن أنه تذكير وتقرير لنعمه . وأنها من الظهور بمكان فلا يمكن إنكارها أو التكذيب بها .

" فتكرار الفاصلة فى الرحمن .. يفيد تعداد النِّعَم والفصل بين كل نعمة وأخرى لأن الله سبحانه عدَّد فى السورة نعماءه وذكَّرعباده بآلائه . ونبههم على قدرها وقدرته عليها ولطفه فيها . وجعلها فاصلة بين كل نعمة لتعرف موضع ما أسداه إليهم منها . ثم فيها إلى ذلك معنى التبكيت والتقريع والتوبيخ ؛ لأن تعداد النِعَم والآلاء من الرحمن تبكيت لمن أنكرها كما يبكت منكر أيادى المنعَم عليه من الناس بتعديدها" (٢) . ولقائل أن يسأل : إن هذه

---

(١) الرحمن : ٧-٩ .

(٢) خزانة الأدب للحموى : ص ١٤٤-١٤٥ .

الفاصلة قد تكررت بعدما هو ليس بنعمة من وعيد وتهديد . فكيف يستقيم التوجيه إذن بعد هذه الآيات ؟

﴿ يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران * فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ (١) .

﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام * فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ (٢) .

﴿ هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آن * فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ (٣) .

وظاهر هذه الآيات بلاء وانتقام وليس بنعم .

والجواب : ولكن المتأمل يدرك أن فى الإنذار والوعيد وبيان مآل الضالين عصمة للإنسان من الوقوع فيما وقعوا فيه فيكون مصيره مصيرهم .

ومن هذا الاعتبار يتبين أن هذه المواضع مندرجة تحت النعم ، لأن النعمة نوعان : إيصال الخير . ودفع الشر . والسورة اشتملت على كلا النوعين فلذلك كررت الفاصلة .

* * *

* التكرار فى سورة " المرسلات " :

بقى التكرار الوارد فى سورة " المرسلات". وقد صنع ما صنع فى نظيريه فى " القمر " و " الرحمن " من التقديم له بتمهيد .. وله ــ مثلهما ــ هدف عام اقتضاه .

بيد أن التمهيد يختلف عما سبق فى " القمر و " الرحمن " . فقد رأينا فيهما اتحاد الفاصلة فى الحروف الأخيرة مع التزام نهج معين فيما قبله . أما هنا فإن الأمر يختلف .

---

(١) الرحمن : ٣٥ – ٣٦ .
(٢) الرحمن : ٤١–٤٢ .
(٣) الرحمن : ٤٣–٤٥ .

فقد اشتمل التمهيد على مجموعتين من الآيات : أولاهما: لهـا فاصـلة تختلف عن ثانيتهما وهى : ﴿ **والمرسلات عرفا * فالعاصـفات عصـفاً * والناشـرات نشـراً * فالفارقات فـرقا * فالملقـيات ذكـراً * عـذراً أو نذراً** ﴾ (١) .

وختمت هذه المجموعة بقفلة هى سر الجمال كله : ﴿ **إنمـا توعـدون لواقع** ﴾ (٢) .

ما قبلها مقسم به . وهى جواب القسم . والمقسم به متعدد كأجزاء الشرط إذا بدئت بها السور . وهى ــ كما تقدم ــ خصائص تعبيرية آسرة .

وبجـواب القسـم تنتهى هذه المجـموعة ثم تبدأ المجموعة الثانيـة وهى : ﴿ **فإذا النجوم طمست * وإذا السماء فرجت * وإذا الجبال نسفت * وإذا الرسل أقتت * لأى يوم أجلت * ليوم الفصل * ومـا أدراك مـا يـوم الفصل * ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ (٣) .

وهذه المجموعة تتكون من :

أولاً : شرط يتكرر أربع مرات محذوف الجواب . وكله حديث عن أهـوال القيامة ومقدمات البعث .

ثانياً : استفهام يعتبر مدخلاً لحقيقة مهمة تقودنا إلى الهدف المنشود . وهـو التوصل إلى مصير المكذبين يوم الدين .

ثالثاً : جواب هذا الاستفهام الذى اشتمل على كلمة : " يوم الفصل " وكانـت هذه الكلمة الشعاع الذى قادنا إلى الساحة الكبرى : ساحة القضـاء العـادل والقصاص الحكيم : ﴿**لأى يوم أجلت * ليوم الفصل * وما أدراك مـا يـوم الفصل * ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ .

---

(١) المرسلات : ١ ــ ٦ .

(٢) المرسلات : ٧ .

(٣) المرسلات : ٨ ــ ١٥ .

فانظر إلى هذا التمهيد الحكيم الذى مهد القرآن به لهذه العبارة . حتـــى لكأنها هى المقصودة .

ثم تكررت هذه الآية : ﴿**ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ عشر مرات بعد هـــذه المرة وهى فى كل مواضعها تتلو مشـــهداً من مشـــاهد القيـــامة . وصورة من صور الحشر . أو مشاهد القدرة الإلهية .

* * *

سبب عام :

أما السبب العام الذى اقتضى هذا التكرار فإن الآية أعقبت ما من شأنه أن يكون أكبر داع من دواعى الإيمان والتصديق . بحيث يكون الخارج عن هذا السلوك والمكذب به صائراً ــ لا محالة ــ إلى الويل ، والعذاب الأليم .

فويل للمكذبين بيوم الفصل . وويل للمكذبين بهلاك المجرمين .. وويل للمكذبين بقدرة الله وتقديره أرزاق الخلق . وعلى هذا المنهج يمضى التكرار فى السورة كلها .

* * *

التكرار فى القصة :

أما تكرار القصة فى القرآن فذلك سمته الغالبة على معظم قصصه . إذ لم يأت فيه غير مكرر إلا القليل مثل قصة يوسف عليه السلام .

وللعلماء توجيه فى سردها مرة واحدة دون تكرار ، أهم ما فى هذا التوجيـــه أن حرص الإسلام على صيانة الأعراض كان سبباً فى ذلك ، لأن فى قصة يوسف محاولة إغراء على جريمة خلقية . لذلك فرغ القرآن من سوقها للعظة والاعتبار مرة واحدة .

والقصص القرآنى فى جملته مسوق لغرضين أساسيين :

أولاً : تسلية الرسول ﷺ وتثبيت فؤاده . وأنه لم يكن بدعاً من الرسل فهم قد خولفوا مثل مخالفته . وحـــق على المخالفين العذاب . ونصـــر الله رســـله وجنده .

ثانياً : تهديد وزجر المخالفين . وبيان لمصير أمثـــالهم . علهـــم يرتـــدعون ويقلعون عن غيهم .

ودواعى هذين الغرضين متكرر مرات ومرات . فالرسول ﷺ لم يكـــف عن الدعوة إلى الإسلام . والكفار لم يكفوا عن الإعراض والمخالفة . فـــإذا اعتبرنا أن مجموع هذين الأمرين هـــما الحـــال المقتضية لإيراد القصة فى القرآن ــ فإن تكرارهما يستدعى تكرار مقتضي الحـــال ــ وهـــو تكـــرار القصص مقدراً فى كل قصة على عدة مناسبات دقيقة لمقام الحديث .

فتكرار القصـــة القرآنية فى أكثر من موضع ظـــاهرة فنيـــة ودعامـــة تربوية . كان لابد أن تكون ..

ومع هذا المقتضى فإن تكـــرار القصة فى القرآن لم يكن علـــى نمـــط واحد . أعنى أن هناك فروقاً بين مواضع تكرارها . ولم تكرر فيـــه قصـــة واحدة على وجه واحد فى الصياغة أو الفكرة أو فيهما معاً .

فهناك اختلاف فى الصياغة ، وهناك اختلاف فى الطـــول والقصـــر . واختلاف فى الأحداث التى تتناولها . وطريقة عرض تلك الأحداث .

وهى ــ بهذا ــ جديدة متجددة دائماً لا مدعاة للسآمة والملـــل ــ كمـــا يزعم المغرضون ــ بل فيها روح وطرافة .

كذلك فإن المعانى التى تتحدث عنها القصة القرآنية لـــم تكـــن لمجـــرد التهديد أو التسلية .

ولكنها حقائق يراد إثباتها لتؤدى دورها فى كل عصر ، متى تـــوافرت دواعيها .

والتكـــرار كـــما يقـــول جوســـــتاف لوبـــون : " يحـــول المكـــــرر إلى معتقد " (١) .

ولذلك كان التكرار وسيلة من أهم وسائل التربية والتثقيف .

* * *

دواعى التكرار فى القصة :

يقول صاحب " البرهان " موجهاً لتكرار القصة فى القرآن : " إن عادة العرب فى خطابها إذا اهتمت بشئ أرادت تحقيقه وقرب وقوعه أو قصـــدت الدعاء إليه . كررته توكيداً وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه أو الاجتهاد فى الدعاء بحيث تقصد الدعاء . والقرآن نزل بلسانهم فكانت مخاطباته فيمـــا بين بعضهم وبعض . وبهذا المسلك تســـتحكم الحجـــة عليهم فى عجـــزهم عن المعارضة " (٢) .

ويمضى الزركشى بعد هذا موضحا لظاهرة التكـــرار فـــى القـــرآن . ويسوق أدلة من القرآن نفسه لبيان صحة ما يقول هو عنه . بيد أنه لم يـــأت بمثال واحد يحلل فيه التكرار فى الأسلوب القرآنى وإن لم يفته أهم غـــرض فيه وهو إفادته التقرير والتوكيد قال : " وفائدته العظمى التقرير وقد قيل : إن الكلام إذا تكرر تقرر " (٣) .

وهناك شئ مهم غفل عنه الزركشى . إذ لايكفى أن يكون مجرد التوافق فى أسلوب القرآن وأســـلوب العـــرب من حيث إن فى كل منهـــما تكراراً ، لا يكفى أن يكون هذا سبباً فى الحكم على التكـــرار بالجـــودة ، فنحن لســـنا فى موضع يراد فيه إثبات مشروعية التكرار ، وإنما فى موضع يبحث عـــن مزايا وخصائص التعبير القرآنى ، ومنها التكرار .

---

(١) روح الاجتماع ص ١٥٧ . (٢) البرهان فى علوم القرآن ، للزركشى :٣/٩.
(٣) المصدر السابق.

ويرى الزمخشرى رأياً يقرب من رأى الزركشى لكنه أعمق فهماً منه . قال : " إن فى التكرير تقريراً للمعانى فى الأنفس . وتثبيتاً لها فى الصدور . ألا ترى أنه لا طريق إلى حفظ العلوم إلا ترديد ما يرام حفظه منها . وكلما زاد ترديده كان أمكن له فى القلوب ، وأرسخ له فى الفهم ، وأثبت للـــذكر ، وأبعد من النسيان " (١) .

وهنا لابد أن نقـــرر حـــقيقة مهمة هى : أن الإشادة بجمال التكرار فى القرآن لم يقتصر على العلماء العرب . بل إن كثيراً مـــن المستشـــرقين قـــد شهـــدوا بذلك منهم " جـــرونيبادم " ــ كما نقـــل عنه عبد الكريم الخطيـــب فى كتابه " الإعجاز القرآنى " (ج١ص٣٨٥) ــ ومع هذا الحق الذى يشهد به الأصدقاء والأعداء فإننا نستنطق القرآن نفسه . وهو خير وأعدل شـــاهد، ولنأخذ لهذا كله ــ مثلاً ــ قصـــة آدم عليهَ السلام . وقد كُرِّرت فـــى ســـبع سور سبع مرات .

دراسة تحليلية لقصة آدم

نصوص القصة فى القرآن الكريم :

قال سبحانه وتعالى : ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفـــة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون * وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم علـــى الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قـــالوا سبحـــانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلـــم غيـــب الســـموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين * وقلنـــا يـــا آدم اســـكن أنـــت وزوجك الجنة وكُلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشـــجرة فتكونـــا من الظـــالمين * فأزلهـــما الشيـــطان عنها فأخـــرجهما مما كانا فيه وقلنا**

---

(١) الكشاف : ٣٨٥/٣ (بتصرف) .

اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين * فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم* قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (١) .

***

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين * قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين * قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين * قال أنظرنى إلى يوم يبعثون * قال إنك من المنظرين * قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين * قال اخرج منها مذءوما مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين * ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين* فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهمًا وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين * قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين* قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ (٢) .

---

(١) البقرة : ٣٠ – ٣٨ .

(٢) الأعراف :١١ – ٢٥ .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأٍ مسنون * والجانَّ خلقناه من قبل من نار السموم وإذ قال ربك للملائكة إنـــى خـــالق بشراً من صلصال من حمأٍ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه مـــن روحـــى فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكـــون مع الساجدين * قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين * قال لم أكـــن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأٍ مسنون * قال فاخرج منها فإنـــك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين * قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال رب بما أغويتنى لأُزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المُخْلَصِـــين * قال هذا صراط علىَّ مستقيم * إن عبادى ليس لك عليهم ســـلطان إلا مـــن اتبعك من الغاوين * وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكـــل باب منهم جزء مقسوم﴾ (١) .

* * *

وقال تعالى : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً * قال أرأيتك هذا الذى كرمت علىَّ لئن أخرتنِ إلـــى يـــوم القيامة لأَحتنكنَّ ذريته إلا قليلاً * قال اذهب فمن تبعك مـــنهم فـــإن جهـــنم جزاؤكم جزاءً موفوراً * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعـــدهم الشـــيطان إلا غروراً * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً﴾ (٢) .

---

(١)الحجر : ٢٦ -٤٤ .

(٢) الإسراء : ٦١-٦٥ .

* * *

وقال سبحانه وتعالى : ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً﴾ (١) .

* * *

وقال تبارك وتعالى : ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى * فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى * إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى * فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى * فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى * قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ (٢) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين * قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين * قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين * قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون

---

(١) الكهف : ٥٠ .

(٢) طه : ١١٥-١٢٧

* قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال فالحق والحق أقول * لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ (١) .

* * *

ونسجل أولاً حقيقة مهمة ، وهى ترتيب السور التى وردت فيها نصوص القصة حسب نزولها وهى :

أولاً ــ فى مكة : " ص ــ الأعراف ــ طه ــ الإسراء ــ الحجر ــ الكهف " .

ثانياً ــ فى المدينة : البقرة (٢) .

ومن هذا نعلم : أن أول سورة تتحدث عن قصة آدمعليه السلام هى سورة " ص " ، وأنها مكية النزول ، وأن نصيب العهد المكى من قصة آدمعليه السلام كان وفيراً . حيث وردت فى ست سور . بدأت بسورة " ص " ، واختتمت بـ " الكهف " ، وأن الكهف كانت خاتمة المطاف بالنسبة للعهد المكى .

أما العهد المدنى فلم ترد فيه القصة إلا فى سورة واحدة . وهى سورة البقرة . وأن سورة البقرة هذه أول ما نزل بالمدينة بعد الهجرة الشريفة .

ولهذا فإننا سنحلل عناصر هذه القصة فى كل موضع وردت فيه . حسب هذا الترتيب النزولى .

*** عناصر القصة فى سورة " ص " :**

١- إخبار الله الملائكة بخلقه بشراً من طين .

٢- أمر الله الملائكة بالسجود لهذا البشر . إذا سواه ونفخ فيه من روحه ، ثم امتثال الملائكة هذا الأمر .

---

(١) ص : ٧١-٨٥ .

(٢) اعتمدنا فى هذا حسب ما ذكره الزركشى فى البرهان : ١/١٩٣- ١٩٤ .

٣- إخـبار الله ـ تعالى ـ بمخـــالفة إبليـــس وإبائـــه الســـجود وصيرورتـــه من الكافرين .

٤- ســؤال الله ـ وهو أعلم ـ إبليس عن سبب مخالفته وامتناعــه عــن السجود .

٥- اعتذار إبليس عن مخالفته أمر ربه بالسجود لآدم . وحجته التى اســتند عليها .

٦- طرد الله إبليس من الجنة وإحقاق لعنته عليه إلى يوم الدين .

٧- طلب إبليس من ربه أن ينظره إلى يوم البعث .

٨- استجابة الله له ، وجعله من المنظرين .

٩- عناد إبليس وإعلانه ـ مقسماً ـ أن يغوى الناس أجمعين . إلا عباد الله المخلصين .

١٠ – توعد الله إبليس ليملأن جهنم منه ومن أتباعه .

***

*** عناصر القصة فى سورة " الأعراف " :**

١- الإخبار بأمر الله للملائكة أن يسجدوا لآدم . وامتثالهم هذا الأمر.

٢- مخالفة إبليس .

٣- سؤال الله ـ وهو أعلم ـ إبليس عن مخالفته .

٤- اعتذار إبليس عن مخالفته أمر ربه . وحُجته التى استند عليها .

٥- أمرالله إبليس بالهبوط من الجنة منكراً عليه أن يتكبر فيهــا . وتكــرار الأمر بالخروج وذمه .

٦- طلب إبليس من الله أن ينظره إلى يوم البعث .

٧- استجابه الله له .

٨- عناد إبليس وإعلانه الترصد للناس لإغوائهم وإيتاؤه إياهم من كل مدخل ينزلون فيه .

٩- تكرار الأمر له بالخـــروج مع ذمه وتوعـــده بأن يملأ الله جهنم منـــه ومن كل من يتبعه .

١٠- أمر الله آدم أن يسكن الجنة هو وزوجه ويتمتعا بكل نعيم فيها إلا شجرة واحدة عيَّنَها لهما ، وحرَّمها عليهما ، فإن أكلا منها صارا ظالمين .

١١- وسوسة الشيطان لهما ، وغرضه منهما ، وأسلوب خداعه لهما .

١٢- ذوقهما الشجرة المحرَّمة . وظهور سوءاتهما ، ومحاولتهمـــا ســـترها بورق الجنة .

١٣- نداء الله وتذكيره لهما بنصائحه .

١٤- ندمهما على ما فعلا، واستغفارهما الله .

١٥- أمر الله بالهبوط إلى الأرض مع تحقق العـــدواة بينهم . واســـتقرارهم فى الأرض .. والاستمتاع بها إلى حين معلوم .

١٦- إخبار الله لهم بما سيكون عليه حالهم فى الأرض : حيـــاة ، فمـــوت ، فبعث .

***

* عناصر القصة فى سورة " طه " :

١- مدخل القصة .

٢- إخبار الله بأمره الملائكة بالسجود لآدم وامتثالهم الأمر .

٣- مخالفة إبليس أمر ربه .

٤- نصح الله لآدم وتحذيره له من الشيطان .

٥- بيان النعم التى سينعم بها آدم وزوجه فى الجنة .

٦- وسوسة الشيطان لهما . وأسلوب خداعه .

٧- أكلهما من الشجرة المحرَّمة ، وظهور سوءاتهما ، ومحاولتهما ســـترها بورق الجنة .

٨- حكم الله على مسلك آدم حيث خالف هو وزوجه أمر الله وأطاعا إغـــراء الشيطان لهما .

٩- اجتباء الله آدم . وتوبته عليه . وهدايته له .

١٠-أمر الله لهمِ بالهبوط وترقب هُداه ، فمن اتبع هُداه فهو فى هدى وسعادة ، ومن أعرض عن هدى الله شقى فى الدنيا . وساء مصيره فى الآخرة .

***

*** عناصر القصة فى سورة " الإسراء " :**

١-إخبار الله بأمره الملائكة بالسجود لآدم وامتثالهم الأمر .

٢ــ مقولة إبليس ومحاجته ربه . مبرراً لماذا لم يسجد لآدم .

٣ــ عناده وإعلانه لو أخر إلى يوم القيامة ليُضلن ذرية من كرم الله عليه ــ يقصد آدم ــ إلا قليلا منهم .

٤ــ إمداد الله لإبليس فى الغواية والإغواء ، متوعداً له ولمن تبعه بإدخـــالهم النار .

٥ــ بيان أن وعد الشيطان لأوليائه ما هو إلا غرور .

٦ــ عصمة الله عباده ــ الأحقاء ــ من غواية إبليس ، وسلبه كـــل ســـلطان عليهم ؛ فهم فى مأمن منه .

***

*** عناصر القصة فى سورة " الحجر " :**

١ــ مدخل القصة .

٢ــ إخبار الله الملائكة أنه خالق بشراً من صلصال من حمأٍ مسنون .

٣ــ أمره الملائكة بالسجود له إذا سواه . وامتثالهم هذا الأمر .

٤ــ مخالفة إبليس أمر ربه .

٥ــ سؤال الله ــ وهو أعلم ــ إبليس عن سبب مخالفته أمره بالســـجود لآدم عليه السلام .

٦ــ اعتذار إبليس وحجته .

٧ــ أمر الله إبليس بالخروج من الجنة وإحلال لعنة الله على إبليس .

٨ــ طلب إبليس من الله أن يجعله من المنظرين إلى يوم البعث .

٩ــ استجابة الله له .

١٠ــ عناد إبليس وإعــلانه تزيين المعاصى وإغواء الناس إلا المخلصــين من عباد الله .

١١ــ إعلام الله إبليس بحصانة عباده المخلصين من إغوائه .

١٢ــ أن جهنم مصير من يتبع إبليس . وأن الله أعد لهم سبعة أبواب يدخلون منها النار لكل باب منها فريق مقسوم .

***

* عناصر القصة فى سورة " الكهف " :

١ــ إخبار الله بأمره الملائكة بالسجود لآدم وامتثالهم هذا الأمر .

٢ــ مخالفة إبليس .

٣ــ إنكار أن يتخذ الناس إبليس وذريته أولياء من دون الله ، وهو لهم عدو .

٤ــ من يتخذ الشيطان وليًا من دون الله ، فبئس البدل بدله .

وبسورة الكهف تنتهى مصادر القصة فى العهد المكى . وتبدأ مرحلة جديــدة فى العهد المدنى تتمثل فى سورة البقرة .

***

* عناصر القصة فى سورة " البقرة " :

١ــ إخبار الله الملائكة أنه جاعل فى الأرض خليفة .

٢ــ تعجب الملائكة من هذا الجعل ، وسببان لهذا التعجب .

٣ــ رد الله عليهم .

٤ــ تعليم الله آدم الأسماء كلها .

٥ــ عرضهم على الملائكة ، ومطالبتهم بالإنباء بأسمائهم على سبيل الاختبار المؤدى إلى العجز .

٦ــ تنزيه الملائكة الله ، وتفويضهم الأمر إليه .

٧ــ أمر الله آدم أن يخبرهم بالأسماء ، وامتثال آدم عليه السلام هذا الأمر .

٨ــ استئثار الله بغيب السماوات والأرض . وعلمه بظواهر الأمور وبواطنها .

٩ــ أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم وامتثالهم هذا الأمر .

١٠ــ مخالفة إبليس واستكباره وصيرورته من الكافرين .

١١ــ أمر الله آدم أن يسكن هو وزوجه الجنة وأن يتمتعا بما فيها من إنعام .

١٢ــ تحريم الله عليهما قربان شجرة فيها عيّنها لهما . فإن قرباها صارا ظالمين .

١٣ــ إغواء الشيطان لهما ، وأكلهما من الشجرة المحرمة . وإخراجه لهما مما كانا فيه .

١٤ــ أمر الله لهم بالهبوط من الجنة إلى الأرض مع تحقق العداوة بينهم واستقرارهم فى الأرض واستمتاعهم فيها إلى حين .

١٥ــ تلقى آدم كلمات من ربه ، وتوبة الله عليه .

١٦ــ تكرار الأمر بالهبوط وترقب هدى الله فمن اتبع هدى الله آمن وسلم ، ومن عصاه أدخله النار وأخلده فيها .

***

وبعد هذا التحليل لعناصر القصة فى مصادرها الأصلية ننظر فيها على الوجه الآتى :

أولاً : المعانى المشتركة فى جميع المصادر ، مع التعرض لفروق الصياغة ما أمكن .

ثانياً : المعانى المشتركة فى مجموعة دون أخرى ، مع التعرض لفروق الصياغة كذلك .

ثالثاً : المعانى التى لم تتكرر قط .

أولاً : المعانى المشتركة فى جميع المصادر :

المتأمل فى نصوص القصة فى جميع مصادرها يدرك أن المعانى التى لـــم يخل نص منها ــ بل هى مشتركة بينها كلها ــ هى المعانى الآتية :

(أ) أمر الله الملائكة بالسجود لآدم .

(ب) امتثال الملائكة هذا الأمر .

(ج) مخالفة إبليس أمر ربه .

ففى سورة " البقرة " جاء قولـــه : ﴿**وإذ قلنـــا للملائكـــة اســـجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾ (١) .

وفى سورة " الأعراف " جاء قوله : ﴿**ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين**﴾ (٢) .

وفى سورة " الحـــجر " جـــاء قوله : ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأٍ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه مـــن روحـــى فقعوا له ساجدين * فســـجد الملائكة كلهم أجـــمعون * إلا إبليس أبى أن يكـــون مع الساجدين** ﴾ (٣) .

وفى سورة " الإسراء " جاء قوله : ﴿**وإذ قلنا للملائكـــة اســـجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً**﴾ (٤) .

وفى سورة " الكهـــف " جـــاء قـــوله : ﴿**وإذ قلنا للملائكة اســـجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه**﴾ (٥) .

وفى سورة " طه " جاء قـــوله : ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فســـجدوا إلا إبليس أبى** ﴾ (٦) .

---

(١) البقرة : ٣٤ .
(٢) الأعراف : ١١ .
(٣) الحجر : ٢٨ ــ٣١ .
(٤) الإسراء : ٦١ .
(٥) الكهف : ٥٠ .
(٦) طه : ١١٦ .

وفى سورة " ص " جاء قوله : ﴿إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين﴾ (١) .

فهذه المعانى الثلاثة وردت ــ كما ترى ــ فى جميع المصادر لأنها العناصر الكبرى التى تدور حولها أحداث القصة .

ونلحظ منْ النظر فى النصوص أن سجود الملائكة قد عطف بالفاء فى جميع المواضع على القول لهم بالسجودْ ، وهذا يفيد سرعة امتثال الملائكة لأمر ربهم وأنهم لم يترددوا قيد أنملة .

أما مخالفة إبليس فقد صورت بصياغة مختلفة ففى سورة " البقرة " : ﴿أبى واستكبر وكان من الكافرينْ﴾ (٢) .

وفى سورة " الأعراف " : ﴿لم يكن من الساجدين﴾ (٣) .

وفى سورة " الحجر " : ﴿إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾ (٤) .

وفى سورة " الإسراء " : ﴿قالْ أأسجد لمن خلقت طيناً﴾ (٥) .

وفى سورة " الكهف " :﴿إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ (٦).

وفى سورة " طه " : ﴿إلا إبليس أبى﴾ (٧) .

وفى سورة " ص " : ﴿إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين﴾ (٨) .

والتفنن فى العبارة قد أفاد إسناد أقبح أوصاف الذم لِلَّعين إبليس .

---

(١) ص : ٧١ ــ ٧٤ .
(٢) البقرة : ٣٤ .
(٣) الأعراف : ١١ .
(٤) الحجر : ٣١ .
(٥) الإسراء : ٦١.
(٦) الكهف : ٥٠ .
(٧) طه : ١١٦ .
(٨) ص : ٧٤ .

كما نجد فروقاً ــ كذلك ــ فى التمهيد : ففى سورة " البقرة " لم يتقــدم عليها تمهيد . أما فى سورة " الأعراف " فقد كان التمهيد صدر آية : ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم** ﴾ (١) ، ثم قال : ﴿**ثم قلنا للملائكــة اســجدوا لآدم** ﴾ والعطف بــ " ثم " المفيدة للترتيب مع التراخى يدل علــى أن فــى التعبيــر تجوزاً . إذ ليس المخلوق والمصوّر هم المخاطبين بل آدم عليه السلام ليصح الترتيب . والمعــنى : " خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصوّر ثم صوَّرناه بعــد ذلك " .

والمجاز فيها مرسل والعلاقة المصــححة هــى المســببية . إذ وجــود المخاطبين مسبب على وجود المراد بالحديث وهو آدم .

كذلك مُهِّد لها فى سورة " الحجر " بالحديث عن خلق الجانَّ والإنسان : ﴿**ولقد خلقنا الإنسان من صلصال مِّن حمأٍ مسنون * والجانَّ خلقنــاه مــن قبل من نار السموم**﴾ ثم قال : ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً مــن صلصال من حمأ مسنون**﴾ (٢) .

أما فى سورة " الإسراء " فلم يأت فيها تمهيد مثل ســورة " البقــرة " . وكذلك سورة " الكهف " وسورة " طه " تُقدّم القصة فيها تمهيد هو فى الواقع إجمال بديع للقصة كلها ومدخل لسرد أحداثها بالغ الجــودة : ﴿**ولقد عهــدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجــد له عــزماً**﴾ (٣) . كان هــذا هــو مــدخل القصة فى سورة " طه " كما سردت بعده أحداثها سرداً محكماً .

وكذلك خلت سورة " ص " من التمهيد المباشر للقصة . وبــذلك تكــون القصة قد مُهِّدَ لها فى ثلاث سور هى :" الأعراف ــ الحجر ــ طه" .

ولم يُمهَّد لها تمهيداً مباشراً فى أربع سور هى : البقرة ــ الإســراء ــ الكهف ــ ص " .

---

(١) الأعراف : ١١ .
(٢) الحجر : ٢٦-٢٨ .
(٣) طه : ١١٥ .

وكذلك نجد فـروقاً فى الأمر بالسجـود . فتارة يكون بصريح الأمـر من الفعل " سجد " نفسه وذلك فى خمس سور هى : البقرة ــ الأعـراف ــ الإسراء ــ طه ــ الكهف .

أما فى سـورة الحجر والله ــ سبحانه وتعالى ــ أعلم .وسورة " ص " فلم يأت بالأمر الصريح من الفعل . بل تقدَّم عليه " أمر " من فعل آخر " وقع " وجعل السجود حالاً . من فاعل ذلك الفعل الذين هم الملائكة . ومـن دقـة النظم أن هذه العبارة جاءت فى السورتين فى سياق حديث واحـد : **﴿فـإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾** (١) .

ولعل السـر فى هـذا التصـرف ــ **﴿فقـعوا له ساجـدين﴾** بـدلاً من : **﴿اسجدوا لآدم﴾** ــ أن التفصيل فى هاتين السورتين فى هذا الموضوع بالذات حيث قال : **﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحى﴾** بعد قوله فى سورة الحجر: **﴿إنى خالق بشـراً من صلصال من حـمأ مسنـون﴾** وبعـد قولـه فى سورة " ص " : **﴿إنى خالق بشراً من طين﴾** .

إن هذا التفصيل فيه شرح أكثر لبيان قدرة الله سبحانه وتعالى وذلـك أمـر أدعى إلى تعظيم الله القادر والانكباب من عَلٍ على الحياة تقديراً له حق قدره ذلك لأن : **﴿فقعوا له سـاجدين﴾** فى معنى الانكباب الفورى وهو معنى زائد على مجرد الأمر الوارد فى المواضع الأخرى : " اسجدوا لآدم " .

ويلاحظ ــ كذلك ــ أن إحدى هاتين العبارتين جاءت فى سـورة "ص " وسورة " ص " هذه هى أول سورة تحدثت عن القصة ، وهى مكية . فـإن سورة الحجر مكية كذلك . والقوم فى مكة شديدو العناد للإسـلام . فناسـب حالتهم هذه ، التفصيل فى القول والاتجاه به نحو القوة . وذلك تكفلـت بـه السورتان : سورة " ص " وسورة " الحجر ".

---

(١) الآية ٢٩ من سورة " الحجر " وهى نفس الآية ٧٢ من سورة " ص " .

* * *

*** ملاحظة جديرة بالتسجيل :**

هذه خلاصة وجيزة لما اشترك من عناصر القصة فى جميع المصـــادر . ونرى أن نذكر ملاحظة جديرة بالتسجيل هى أن الإشارة جاءت عابرة عــن قصة آدم فى سورة الكهف . وهى وإن اشتملت على العناصر الثلاثة التى لم يخل منها مصدر من مصادر القصة ، فإن جانب القصص غير ظاهر فيها .

وإنما جئ بها تمهيداً لإنكار أن يتخذ الناس إبليس وذريته أولياء من دون الله .. والعهد المكى لم يكن فى حاجة إلى تفصيل بعد أن تحدثت عنها خمس سور مكية فى تفصيل ووضوح .

لذلك جاءت آية " الكهف " لمحة عابرة إلى حديث طويل معلوم وذائــع أمره . كما أن هذه السورة على وجازة ما جاء فى آيتها من حديث القصــة فإنها اشــتملت على جــديد لم يصــرح به فى غــيرها . وذلك الجــديد هــو : **﴿إلا إبليس كان من الجــن ففســق عن أمر ربه﴾** (١) . فنســبته إلى الجن . والحكم عليه بالفسق لم يرد إلا فى آية " الكهف " .

وهذا يعطينا قيمة عظيمة هى أن القصــة المتكررة فى القرآن لم تخــل من جديد وإن قصرت فى موضع دون آخر .

ثانيا ــ المعانى المشتركة بين مجموعة دون أخرى :

من المعانى المشتركة بين مجموعة دون أخرى : سؤال الله ــ ســبحانه وتعالى ــ إبليس عن عدم امتثاله لأمره وما ترتب على ذلك من أمور .

وقد ورد هذا السؤال فى ثلاثة مصادر:

الأول ــ فى سورة الأعراف ، قال سبحانه وتعالى : **﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين * قال فــاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين * قال أنظرنــى إلى يوم يبعثون * قال إنك من المُنْظَرِين* قال فبما أغــويتنى لأقعدن لهــم**

---

(١) الكهف : ٥٠ .

صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمـــانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين * قال اخرج منها مذءوماً مـــدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ (١) .

الثانى فى سورة الحجر ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ قال يا إبليس ما لـــك ألا تكون مع الساجدين * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال مـــن حمأٍ مسنون * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلـــى يـــوم الدين * قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال رب بمـــا أغـــويتنى لأزيـــنن لهـــم فـــى الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المُخْلَصين * قال هذا صـــراط علَّـــى مستقيم * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك مـــن الغـــاوين * وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها ســـبعة أبواب لكل بـــاب مـــنهم جـــزء مقسوم ﴾ (٢) .

الثالث فى سورة " ص " ، قال سبحانه وتعالى : ﴿قال يا إبلـــيس مـــا منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين * قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين * قال رب فَأَنْظِرْنِى إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عِبادك منهم المخلصين * قال فالحق والحق أقول * لأملأن جهنم منـــك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ (٣) .

والباحث يرى أن السؤال قد اختلف فى صياغته من موضع إلى آخر .
وأنه قد ترتب عليه أمور :

١ــ اعـــتذار إبليس وحجتـــه أنه مخـــلوق من نار ، وآدم من طـــــين مع اختلاف فى الصياغة .

---

(١) الأعراف : ١٢ ــ ١٨ . (٢) الحجر : ٣٢ ــ ٤٤ . (٣) ص : ٧٥ ــ ٨٥ .

٢ــ رد عليه من الله رافض لعذره وآمر له بالخروج أو الهبوط من الجنة ، منكر عليه أن يتكبر فيها ، موجب عليه اللعنة مع الاختلاف فى طرق تعريف اللعنة . مرة بـــ " الـــ " . وأخرى بالإضافة إلىالله .

٣ــ طلب إبليس أن ينظره ربه إلى يوم البعث . واستجابة الله له .

٤ــ إعـــلان إبليـــس ــ مقســـماً مرة ومعللاً أخـــرى ــ ليغـــوين الناس إلا من يعصمه الله .

٥ــ إعلام الله إبليس بحصانة عباده المخلصين . وتوعده لإبليس بأن يمـــلأ منه جهنم وممن اتبعه أجمعين .

٦ــ إن فى المواضع الثلاثة فروقاً دقيقة فى الصياغة . وفى تصوير المعانى سواء فيما قاله الله لإبليس أو فيما حكاه القرآن من مقولة اللعين .

٧ــ إن سورة الإسراء تشترك معها فيما ترتب على السؤال دون أن يرد فيها ذكر له ؛ لأن مقولة إبليس فيها نزلت منزلة إبائه السجود .

﴿إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً * قال أرأيتك هذا الذى كرمت علىَّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتَنِكَنَّ ذريته إلا قليلاً * قال اذهب فمن تبعـك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً * واستفزز مـــن اســـتطعت مـــنهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * إنَّ عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفـــى بربك وكيلاً﴾ (١) .

* * *

ملاحظات :

وكذلك : إن هذه العناصر التى اشتركت فيها كل من سورة "الأعراف" . وسورة "الحجر" . وسورة " ص" . وسورة "الإسراء" . كان مهدها مكة ؛ لأن هذه السور مكية النزول . وحال القـــوم فى مكة من الإعـــراض والصـــدود

---

(١) الإسراء : ٦١-٦٥ .

والجدل العقيم فى محاربة الدعوة الجديدة تناسبه عناصر القصة المذكورة بما فيها من قوة وعنف فى الرد على إبليس وتوعده بالعذاب هو ومن اتبعه ، كما أن رفض الحجة التى بنى عليا اللعين اعتذاره وإهدارها من الأساس شبيه برفض الإسلام لدعاوى وحجج المعاندين من مشركى مكة .

كما نرى أن اختلاف الصياغة من موضع إلى آخر أمر اقتضاه المقام ولم يكن مجرد اتفاق .

ونضرب لذلك مثلاً : قال إبليس فى سورة " الحجر " معتذراً عن مخالفته أمر ربه :﴿ **قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون**﴾ (١) .. بينما نسب خلقه إلى الطين فى كل من سورة " الأعراف" وسورة الإسراء وسورة "ص" .

والطين سابق على الصلصال والحمأ المسنون . قال الراغب: " الصلصال تردد الصوت من الشىء الجاف ومنه قيل : صل المسمار، وسَمٌّ الطين الجاف صلصالاً قال :﴿**من صلصالٍ كالفخار**﴾ ، ﴿**من صلصالٍ من حمأ مسنون**﴾ (٢) .

فأُوثر الصلصال فى سورة " الحجر " لتقدمه فى قوله تعالى: ﴿**إنى خالق بشراً من صلصالٍ من حمأ مسنون**﴾ (٣) . ولعل إيثار هذا أيضاً على أن يقول : " من طين " لأن مبدأ خلق الإنسان هنا قوبل بمبدأ خلق الجان ، ولما قال فى خلق الجان : ﴿**من نار السموم**﴾ ناسب أن يكون المقابل له : ﴿**صلصال من حمأ مسنون**﴾ لأن الطين إذا قوبل بالنار جف ويبس وسمع له صوت إذا حُرِّك .

---

(١) الحجر : ٣٣ .

(٢) المفردات : ص٢٨٤ .

(٢) الحجر : ٢٨ .

ومما يؤيد هذا قوله فى سورة الرحمن : ﴿**خلق الإنسان من صلصال كالفخار * وخلق الجان من مارج من نار**﴾ (١) . فآثر الصلصال فى مقابلة المارج الذى من نار .

أما إيثار الطين فى " الأعراف" و "الإسراء" و " ص " فحيث لم يقتض المقام سواه ولأنه أسبق وجوداً من الصلصال .

هذا مثل أذكره للقياس ولبيان أن كل اختلاف فى الصياغة إنما هو لسببٍ وداعٍ وليس لمجرد التعبير الخالى من الدقائق والأسرار .

ومن المعانى التى اشتركت فيها مجموعة دون أخرى : أمر الله آدم وحواء أن يسكنا الجنة بعد طرد إبليس منها

وهذه مرحلة تالية فى بناء القصة للمرحلة السابقة من مخالفة إبليس وعناده وما ترتب عليها .

فننظر فى مصادرها وصياغاتها :

*** سكنى الجنة :**

جاء أمر الله لآدم عليه السلام أن يسكن الجنة هو وزوجه فى ثلاث سور :

الأولى : " البقرة " ، قال سبحانه وتعالى: ﴿**وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكُلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين**﴾ (٢) .

الثانية : " الأعراف " قال سبحانه وتعالى : ﴿**ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾ (٣)

الثالثة : " طه " قال سبحانه وتعالى: ﴿**فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى**(٤) *** إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وأنك لا تَظْمَأُ فيها ولا تضحى**﴾ (٥) .

---

(١)الرحمن : ١٤-١٥ . (٢) البقرة : ٣٥ . (٣) الأعراف : ١٩ .

(٤) الراجح فى إفراد الخطاب هنا ــ كما أرى ــ هو أن آدم بما يحمل من مسئولية القوامة وتدبير أمر الأسرة يكون أول من يشعر بالشقاء .

(٥) طه : ١١٧-١١٩ .

ولعل أول ما يلاحظه الباحث فى هذه النصـــوص الثلاثـــة أن الأمـــر بالسكنى فى الجنة جاء صريحاً فى آيتى "البقـــرة والأعراف" . وخولف ذلك فى سورة "طه" ؛ لأن ما فيها نصح وتحذير لآدم وزوجه من إغواء الشيطان لهما ؛ لأنه لهما عدو . فجاء قوله تعالى :﴿**فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى**﴾ دليلاً على تمكنهما من الجنة حيث نهاهما الله أن يخرجهما الشيطان منها .

وفى سورة طه ــ كذلك ــ تفصيل لمظاهر النعيم التى كانا ينعمان بهـــا فى الجنة . ويقابل هذا التفصيل فى "البقرة والأعراف" الإذن لهما بأن يتمتعا بما شاءا حيث كانا فيها مع زيادة وصف الأكل ب " الرغـــد " فـــى ســـورة البقرة .

كما يلاحظ أن آية البقرة قد صدرت بقوله :﴿**وقلنـــا يـــا آدم** ﴾ ، أمـــا الأعراف فقد حُذف منها القول وصدرت بالنداء وحده :﴿**ويا آدم اسكن أنـــت وزوجك الجنة** ﴾ ، كما صدرت آية " طه " بالقول مسبوقاً بالفاء دون الـــواو كما فى "البقرة " : ﴿**فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك** ﴾ .

ولعل السر فى ذلك أن القول فى " البقرة "عطف على نظيره فى صدر الآية السابقة : ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا**﴾ .

أما فى سورة الأعراف فقد حُذف القول . وبُدِىءَ فى خطاب آدم بالنداء لأنه قد سبق عليه قوله تعالى : ﴿**قال اخرج منها مذءوما مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين**﴾ [1] . فلو قال بعده : " وقلنـــا .." لتـــوهم متوهم أن " قال " فى الآية السابقة ليست من قول الله لإسناده إلـــى ضـــمير الغائب وإسناد " قلنا " لضمير المتكلم ، وقد عرفنا حرص القرآن على إسناد القول إلى ضمير المتكلم فى موضع الأمر بالسَكنى لآدم وزوجه .

والأظهر هنا أن الواو للاستئناف فى: ﴿**ويا آدم اسكن**﴾ حتـــى تظهـــر المغايرة التامة بين مأمور بالخروج مذءوماً مـــدحوراً ، ومـــأمور بـــالتمكن معززاً مكرماً .

---

(١) الأعراف : ١٨

أما العطف فى سورة طه بـــ " الفاء " : ﴿**فقلنا يا آدم إن هذا عدو لـــك ولزوجك**﴾ فَلِمَا فى " الفاء " من الترتيب والتعقيب . وما تفيده كذلك من معنى السببية . إذ تقدَّم عليها امتناع إبليس عن السجود له .

فأبان العطف ب " الفاء " ترتب نصح الله لآدم على امتناع إبليس عـــن السجود . وأن ذلك حدث دونما فصل بين الامتناع والنصح ـــ هذا من حيث الترتيب والتعقيب ـــ أما من حيث السببية فإن كون إبليس ممتنعاً عن السجود لآدم . فذلك سبب فى أنه عدوهما والحقود عليهما .

*** وسوسة الشيطان لهما وما ترتب عليها :**

وهذه المرحلة من القصة قد اشـــتركت فى الحـــديث عنها مجموعـــــة من السور : هى " البقرة " قال سبحانه وتعالى : ﴿ **فأزلهما الشيطان عنهـــا فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فـــى الأرض مستقر ومتاع إلى حين * فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليـــه إنـــه هـــو التواب الرحيم** ﴾ (١) .

" الأعراف " قال سبحانه وتعالى : ﴿**فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشـــجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين * فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقـــا يخصـــفان عليهما من ورق الجنة** ﴾ (٢) .

تلك هى مواضع ورود مرحلة وسوسة الشيطان لآدم وزوجه . حســـداً منه وحقداً عليهما على أن بقيا فى الجنة وطُرِد هو منها .

والذى نلاحظه هنا أمور :

أولاً : أن السورتين المكيتين اتفقتا فى التفصيل والتعبير عـــن إغـــواء الشيطان لهما بالوسوسة ، بينما عبرّت عنه السورة المدنية بالإزلال . كمـــا جاءت فيها المعانى مجملة .

---

(١)البقرة : ٣٦ ــ ٣٧ .

(٢) الأعراف ٢٠ ــ ٢٢ .

ثانياً : أن التفصيل فى كلتا السورتين المكيتين ــ مع اختصاص الأعراف بنصيب وافر فيه ــ صور لنا لقطات هامة هى : الغرض من الوسوسة ــ أسلوب الخداع الذى سلكه اللعين فى الإضلال ، وهذا الأسلوب اعتمد على الإغراء والتأكيد بالقسم ــ بدو سوءات آدم و حواء ــ اجتهادهما فى سترها بورق الجنة ــ تأنيب الله لهما على ما بدر منهما . ومخالفتهما نصحه .

ثالثاً : أن سورة " البقرة وطه " اتفقتا فى الإشارة إلى توبة الله عن آدم واجتبائه له وانفردت سورة " الأعراف" بالحديث عن تندمهما ودعائهما ربهما بالمغفرة والرحمة . فكأن ما فى " البقرة وطه " من الإشارة إلى التوبة واجتباء الله لآدم استجابة لذلك الدعاء الذى انفردت به "الأعراف" خاصة وأن كلاً من السورتين ــ طه والبقرة ــ نزلتا بعد" الأعراف ". إذ أن الأعراف هى السورة الثانية التى تحدثت عن قصة آدم بعد سورة " ص " ، وهذا يفسر لنا سر التفصيل فيها لهذه المرحلة أكثر مما ورد في طه . وهى قسيمتها فيه ..

* * *

*أمر الله لهم بالهبوط إلى الأرض :

وهذه مرحلة جاءت فى بعض المصادر دون بعضها .. ومصادر ورودها : هى " البقرة " قال سبحانه وتعالى :﴿**قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ (١) .

" الأعراف " قال سبحانه وتعالى : ﴿**قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون** ﴾ (٢) .

---

(١) البقرة : ٣٨ ــ ٣٩ .

(٢) الأعراف : ٢٤- ٢٥ .

" طه " قال سبحانه وتعالى : ﴿قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإمّا يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ (١) .

من التأمل والمقارنة بين هذه النصوص يخرج الباحث بما يأتى :

أولاً : أن الأمر بـ "الهبوط " جاء بصيغة الجمع فى" البقرة والأعراف" ؛ لأن المخاطب ثلاثة : آدم وزوجه وإبليس .

وجاء بصيغة التثنية فى "طه" . ولعل سره أن المأمور بالهبوط فريقان : آدم وزوجه فريق ، وإبليس فريق آخر .

ثانياً : أن الأمر فى " البقرة وطه" قد اقترن ضمير المخاطب فيه بالتوكيد بلفظ : " جميعاً " ولم يرد ذلك فى الأعراف .

ثالثاً : أن التصريح بـ " ثبوت العداوة بينهم " أمر مشترك بين "الأعراف وطه " ، أما آية " البقرة " هنا فقد خلت منه ؛ لأنها جاءت تأكيداً بالهبوط للآية التى قبلها . وفيها صرح الله بثبوت تلك العداوة . فاكتفى بها .

رابعاً : أن ترقب هدى الله قد صرح به فى كل من " البقرة وطه " .. ولم يأت فى " الأعراف " إطلاقاً .

خامساً : أن بيان أن من اتبع الهدى ﴿ **فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ ، أو : ﴿**فلا يضل ولا يشقى** ﴾ من خصائص سورتى "البقرة وطه" مع اختصاص " طه"بشئ من التفصيل إذا ما قورنت " بالبقرة " . هذا البيان لم يرد فى " الأعراف " ؛ لأنه تابع لترقب الهدى الذى لم يرد فيها كما مر .

---

(١) طه : ١٢٣ ـ١٢٧ .

سادساً : التصريح بـــ : " الاســتقرار فى الأرض والتمتع فيها إلى حـــين " من خصائص سورتى " البقرة والأعراف " . مع اختصـــاص " الأعـــراف " بشرح تفصيلى لأدوار سنة الله التى سيخضعون لها فى الأرض قال : ﴿**فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون** ﴾ (١) .

ولكل من هذه الفروق دواع ومقتضيات يطول بنا الحديث لو تتبعناهـــا على أن هناك فروقاً دقيقة بين الألفاظ المتقابلة فى هذه المواضع . نضـــرب مثلاً بواحد منها :

فقد جاء فى سورة " البقرة " : ﴿**..فمن تبع هداى** ﴾ (٢) .

وجاء فى سورة طه : ﴿**فمن اتبع هداى** ﴾ (٣) .

الفعل " تبع " مخفف فى " البقرة " ومشدد فى "طه" . يقول جماعة : إن تشديد الاتباع لسبق التصريح بمعصية آدم . وقد سبقه أيضاً الاتباع مشدداً فى نفس السورة فى قوله تعالى : ﴿**يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له** ﴾ (٤) .

وفى توجيه التشديد وعدمه آراء أُخر لعل هذا أقواها .

وتوجيه آخر أراه حريًّا بالقبول ، هو أن القرآن فى مكة كان يتجه كثيراً نحو القوة والعنف لغلظة القوم وتماديهم فى الضلال . بخلاف المدنى الـــذى يميل إلى الهدوء والشرح والتفصيل .

هذه آخر مرحلة يتحدث عنها العهد المكى ــ مرحلة الهبـــوط مـــن الجنـــة والاستقرار فى الأرض ــ وقد اشترك العهد المدنى معه فـــى بيـــان هـــذه المراحل مع الفروق التى لحظناها بين النصوص جميعاً .

---

(١) الأعراف : ٢٥ .

(٢) البقرة : ٣٨ .

(٣) طه : ١٢٣ .

(٤) المناهج الجديدة فى تفسير آيات الله المجيدة ٧٩ ــ الدكتور عبد الغنى الراجحى ــ والآية من ســورة طه : ١٠٨ .

لكن بقى هناك شئ مهم . ومهم جداً لم ترد إليه إشارة واحدة فى العهد المكى ، وإنما استأثر به العهد المدنى . شئ مهم تكاد حكاية القصة فى المدينة تختلف به عن حكايتها فى مكة اختلافاً أساسيًّا وهو أن العهد المدنى قد أضاف جديداً إلى هذه القصة .. فما هو ذلك الجديد ؟

*** الجديد فى القصة فى العهد المدنى :**

إن الجديد الذى ورد فى العهد المدنى عناصر بارزة فى القصة أرجأها الله تعالى فلم ترد فى المكى . وهى تتمثل فيما يلى :

أولاً : جاء فيه أنه قال للملائكة : **﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾** (١) ولم يقل لهم كما قال فى المكى : **﴿إنى خالق بشراً من طين﴾** (٢) . ــ مثلاً ــ كما فى سورة " ص " .

وجعل آدم خليفة مرحلة أرقى من خلقه ولاحقة به فى الوجود .

ثانياً : جاء فيه أن الملائكة تعجبوا من هذا الجعل وبنوا تعجبهم على وصفين فى المجعول . ووصفين فيهم .

أما الوصفان اللذان فى المجعول : فكونه مفسداً فى الأرض وسافكاً للدماء وأما الوصفان اللذان فيهم : فكونهم مسبحين بحمد الله ومقدسين له ، فردَّ الله عليهم بأنه يعلم ما لا يعلمون .

ثالثا : وجاء فيه تعليم الله آدم الأسماء كلها و مسمياتها وأعده بذلك لمباراة بينه وبين الملائكة ليتحقق له الانتصار عليهم .

رابعاً : وجاء فيه أن الله عرض المسميات على الملائكة وطلب منهم أن ينبئوه بها فلم يستطيعوا وفوَّضوا الأمر إلى الله مسبحين له .

خامساً : وجاء فيه أن الله أمر آدم أن ينبئهم بالأسماء ففعل . فلما أنبأهم بأسمائهم قال الله لهم : **﴿ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾** (٣) .

---

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) ص : ٧١ .

(٣) البقرة : ٣٣ .

وأول ما يلاحظه الباحث ــ هنا ــ أن نص السورة البقرة حين اشـــتمل على معان جديدة لم ترد فى غيره قبلاً . كما وضحناها آنفاً . واشتمل علـــى معان تحدثت عنها السور المكية ، فإنه فى بناء القصة فى المدينة قدم القرآن المعانى الجديدة ، وبعد الفراغ منها ساق المعانى التى وردت فى العهد المكى . وبذلك اكتمل بناء القصة ولم يعدْ فيها موضع لإضافة جديدة .

فى المدنى كانت عبارة : ﴿**إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾ (١) بديلاً عن عبارة : ﴿**إنى خالق بشراً**﴾ (٢) .

لأن العهد المكى كان عهد تكوين فى كـــل شـــىء .. تكـــوين للعقيـــدة الصالحة ، تكوين للأخلاق الإنسانية الفاضلة ، تكوين لجماعة تؤمن بـــالحق وترفض الباطل . فناسبه من قصة آدمعليه السلام مراحل التكوين الأولى . مراحل الخلق والإيجاد من الطين أو الصلصال والحمأ المسنون .

أما " الجعل " فمناسب للعهد المدنى لأنه طور لاحق للإيجاد والخلـــق . ولأن مفعوله خليفة ، والخلافة مجعولة لآدم متنقلة فى ذريته جيلاً بعد جيل؛ لأن فى الجعل معنى التحويل من شىء إلى شىء .

قال العلاَّمة العمادى(٣) فى تفسير أول سورة الأنعام :

" والجعل هو الإنشاء والإبداء كالخلق . خلا أنـــه مخـــتص بالإنشـــاء التكوينى وفيه معنى التقدير والتسوية . وهـــذا عـــام له كمـــا فـــى قـــوله تعـــالى : ﴿**وجعل الظلمات والنور**﴾ (٤) ، وللتشـــريع كمـــا فـــى قـــوله سبحـــانه وتعالى : ﴿**ما جـــعل الله من بحـــيرة ولا ســـائبة ولا وصيـــلة ولا حام**﴾ (٥) . وأيًّا ما كان فهو إنباء عن ملابسة مفعوله بشىء آخر يكـــون فيه أو له أو منه ".

---

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) ص : ٧١ .

(٣) هو العلاَّمة أبو السعود صاحب التفسير المشهور بـــ " إرشاد العقل السليم " .

(٤) الأنعام : ١.

(٥) المائدة : ١٠٣

فالخلق لا يُطلق إلا على الإيجاد والإبداع . أما الجعـل فقد يُستعمل في معنى الخلق . وقد يفـارق ذلك المعنى إلى معانٍ أخـرى كمـا ذكـره العمادى . ولذلك وضع بإزاء الخلافة لأن الخلافة مجعولة لا مخلوقة .

ومن ملاءمات القصة في " البقرة " للعهد المدنى أن اليهود كـانوا فـى المدينة وهم أهل كتاب . ولهم بماضـى الأمم وحقائق الخلق دراية . فجـاءهم القرآن بتفاصيل دقيقة من جعل الخلافة لآدم . ومحاورة الملائكـة ربهـم . وتعليم آدم الأسماء ، وعجز الملائكة عن التنبؤ بها ، وتحقيق ذلك لآدم .

ومن تلك الملاءمة أيضاً قوله سبحانه وتعـالى : ﴿**إنـى أعلـم غيـب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون**﴾ (١) .

فهذه العبارة تؤدى إلى جانب المقصود منها معنى آخر هو تهديد ظاهرة النفاق التى جدَّت فى المدينة ولم تُعرف عنها مكة شيئاً .

فيها تهديد لهم بكشف أسـرارهم وإظهار خفاياهم ؛ لأن النفـاق يقـوم على كتمان الكفر وإظهار الإيمان والطاعة .

* * *

* ملاحظة مهمة أخرى :

ومن الملاحظات المهمة فى نصوص القصة كلها فى جميع مصـادرها أن بعض المعانى تُذكر مع بعض معيَّن . فإذا لم يُذكر ذلك البعض المعـيَّن لـم يذكر ــ كذلك ــ ما جرى المنهج القرآنى على ذكره معه .

فسؤال الله إبليس عن عدم السجود يُذكر معه بعد اعتذاره طلب إبلـيس من ربه أن يجعله من المنظرين . ويُذكر معه ــ كـذلك ــ إعـلان إبلـيس تصديه لإضلال الناس إلا عباد الله المَخلصين .

وهذا المعنى جاء فى كل من سور " ص " ــ و"الحجر" ــ و"الإسراء" . ولم يرد فى هذه السور الثلاث الأمر لهم بالهبوط من الجنة إلى الأرض .

---

(١) البقرة :٣٣

وإذا ذُكر الهبوط من الجنة إلى الأرض ، ذُكر معه ترقب الهُدى . فمن اتبعه هَداه إلى الحق . ومَن خالفه هلك .

وقد ذُكر هذا المعنى فى سورتى " البقرة " وَ" طه " . ولم يختلف هـذا المنهج إلا فى الأعراف حيث ذُكر فيها الهبوط ولم يُذكر ترقب الهُدى . ولعل السر في ذلك أن " طه " نزلت بعد " الأعراف " مباشرة فأُرجيء ذلك إليها .

كذلك فإن إعلان توبة الله على آدم عليه السلام قرينة ذكر الهُدى وترقبه ذلك فى " البقرة " و" طه ".

إن المنهج القرآنى يسير على اعتبارات دقيقة فى بناء القصة وائتلاف أجزائها ، وتظهر هذه الجوانب الحكيمة كلما أطال الباحث النظر فى نصوصه وقارن ودرس واستنتج .

وفوق هذه العناصر المشتركة بين كل النصوص ، ثم المشتركة بين مجموعة دون أخرى ، نجد لكل ملامح خاصة لم تأت فيما عداه . فما هى إذن ؟

* * *

ثالثاً : الملامح الخاصة بكل مصدر من مصادر قصة آدم :

نضرب مثلاً ، ولا نستقصى . وليكن ذلك بحسب وضع السور فى المصحف ولنبدأ بسورة " البقرة " .

إن العهد بهذه السورة ليس ببعيد . إذ يكاد ما جاء بها يكون ملامح خاصة لها .. فليس فيها مكرر سوى أمر السجود والهبوط وترقب الهُدَى . وما عدا ذلك فخاص بها .

وسورة " الأعراف " : اختُصت بذكر تندم آدم وحواء ودعائهما الله بالمغفرة والرحمة وإلا كانا من الخاسرين .

وسورة " الحجر" : اختُصت بذكر الصلصال والحمأ المسنون . وبذكر الأبواب السبعة للنار وأن لكل باب جزءاً مقسوماً .

وسورة "الإسراء" : اختُصت بوضع مقولة إبليس موضع إبائه السجود . وبالتصريح بحقده على آدم : ﴿**أرأيتك هذا الذى كرمت علىَّ**﴾ (١) . وبالإمداد له فى الضلال ، وأن يجلب عليهم بخيله وَرَجْلِه ، وأن يشاركهم فى الأموال والأولاد . وأن وعده لهم ما هو إلا غرور .

وسورة " الكهف" : اختُصت بوصف إبليس بأنه كان من الجن وأنه فسق عن أمر ربه وبإنكار أن يتخذ هو وذريته أولياء من دون الله .

وسورة " طه" : اختُصت بإجمال جامع ورد على وجه التمهيد للقصة : ﴿**ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً**﴾ (٢) .

وبتفصيل النعيم الذى سيلقاه آدم وحواء فى الجنة . وبأن الله اجتبى آدم وهداه .

وسورة " ص " : اختُصت بقوله سبحانه وتعالى: ﴿**لما خلقت بيدى** ﴾ (٣) . . إلى غير هذه الأمور التى يطول بنا الحديث لو تتبعناها جزئية جزئية . وكم فى هذه النصوص من الحكم والأسرار !

* * *

أولاً : أن الاختلاف راجع فى الأغلب إلى اختلاف الأحوال . ففى كل عبارة جاءت على نهج معيَّن رعاية ومناسبة لمقام الحديث . ويتصل بهذا المظهر من مظاهر التحدى حيث يكون المعنى الأصلى واحداً . وتحدث بتكراره زيادات ومعانٍ ثانية لم يزد بها إلا حلاوة وطلاوة .

على خلاف المعهود فى بلاغة الناس . فإن التكرار فيه يُعَرِّضه للقوة والضعف والتهافت وإن وُفِّق فى موضع خُذِلَ وسقط فى موضع آخر .

ثانياً : الفروق اللفظية التى يجئ عليها المكرر عندما نبحث عن أسرارها يتجلى لنا بوضوح لماذا آثر القرآن لفظاً على لفظٍ وأسلوباً على أسلوب ؟ مما يؤدى فى النهاية إلى الإقرار اليقينى بإعجاز القرآن .

---

(١) الإسراء : ٦٢ .

(٢) طه : ١١٥ .

(٣) ص : ٧٥ .

ثالثاً : يقول الإمام البقاعى فى تفسيره سورة " البقرة " : " إن المقصود من حكاية القصص فى القرآن إنما هى المعانى . فلا يضر اختلاف اللفظ إذا أدى جميعها ولم يكن هناك تناقض . فإنها كانت حين وقوعها بأوفى المعانى ، ثم إن الله ــ تعالى ــ يُعبِّر لنا فى كل سورة يذكر القصة فيها بالألفاظ المناسبة للمعانى ، ويطرح ما لا يقتضيه المقام [1] .

* * *

*** خلاصة :**

ذلك هو جانب التكرار فى القرآن الكريم . فأين موضع العيب فيما جاء فى القرآن مكرراً ؟

* * *

---

(١) المناهج الجديدة فى تفسير آيات الله المجيدة ص ٣٩- الدكتور عبد الغنى الراجحى .

الشبهة التاسعة

الكـــلام المنســـوخ

النسخ فى اللغة هو الإزالة والمحو ، يقال : نسخت الشمسُ الظل ، يعنى أزالته ومحته ، وأحلت الضوء محله .

ثم تطورت هذه الدلالة فأصبح النسخ يطلق على الكتابة ، سواء كانـــت نقلاً عن مكتوب ، أو ابتدأها الكاتب بلا نقل .

والنُّساخ أو الوراقون هم جماعة من محترفى الكتابة كانوا ينسخون كتب العلماء (ينقلون ما كتب فيها فى أوراق جديدة فى عدة نسخ ، مثـــل طبـــع الكتب الآن) .

أما النسخ فى الشرع فله عدة تعريفات أو ضوابط ، يمكن التعبيرعنهـــا بالعبارة الآتية :

" النسخ هو وقْفُ العمل بِحُـــكْمٍ أَفَادَه نص شـــرعى ســـابق من القرآن أو من السنة ، وإحلال حكم آخر محـــله أفاده نص شـــرعى آخر لاحـــق من الكتاب أو السنة ، لِحكمة قصدها الشرع ، مع صحة العمل بحكم الـــنص السابق ، قبل ورود النص اللاحق [1] والنسخ موجود بقلة فى القرآن الكريم ، مثل نسخ حـــبس الزانيات فى البيوت حتى الموت ، وإحلال الحكم بالجلـــد مائة ، والرجم حتى الموت محل ذلك الحبس [2] .

النسخ و وروده فى القرآن ، على أن القرآن ليس وحياً من عنـــد الله .

ونذكر هنا عبارة لهم صوَّروا فيها هذه الشبهة :

---

(١) هذا التعـــريف راعينا فيه جمع ما تفرق فى غيره من تعريفـــات الأصـــوليين مـــع مراعـــاة الـــدقائق والوضوح .

(٢) الجلد ورد فى القرآن كما سيأتى . أما الرجم فقد ورد قوليا وعمليا فى السنة ، فخصصت الجلـــد بغيـــر المحصنين .

" القرآن وحده من دون سائر الكتب الدينية ، يتميز بوجود الناسخ والمنسوخ فيه ، مع أن كلام الله الحقيقى لا يجوز فيه الناسخ والمنسوخ ؛ لأن الناسخ والمنسوخ فى كلام الله هو ضد حكمته وصدقه وعلمه ، فالإنسان القصير النظر هو الذى يضع قوانين ويغيرها ويبدلها بحسب ما يبدو له من أحوال وظروف .

لكن الله يعلم بكل شئ قبل حدوثه . فكيف يقال إن الله يغير كلامه ويبدله وينسخه ويزيله ؟

ليس الله إنساناً فيكذب ، ولا ابن إنسان فيندم ؟!

*** الرد على الشبهة :**

نحن لا ننكر أن فى القرآن نسخاً ، فالنسخ موجود فى القرآن بين ندرة من الآيات ، وبعض العلماء المسلمين يحصرها فيما يقل عن أصابع اليد الواحدة ، وبعضهم ينفى نفياً قاطعاً ورود النسخ فى القرآن (١) .

أما جمهور الفقهاء ، وعلماء الأصول فيقرونه بلا حرج ، وقد خصصوا للنسخ فصولاً مسهبة فى مؤلفاتهم فى أصول الفقه ، قل من لم يذكره منهم قدماء ومحدثين . والذى ننكره ــ كذلك ــ أن يكون وجود النسخ فى القرآن عيباً أو قدحاً فى كونه كتاباً منزلاً من عند الله . ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار.

إن الناسخ والمنسوخ فى القرآن ، كان إحدى السمات التربوية والتشريعية ، فى فترة نزول القرآن ، الذى ظل يربى الأمة ، وينتقل بها من طور إلى طور ، وفق إرادة الله الحكيم ، الذى يعلم المفسد من المصلح ، وهو العزيز الحكيم .

أما ما ذكرتموه من آيات القرآن ، ساخرين من مبدأ الناسخ والمنسوخ فيه فتعالوا اسمعوا الآيات التى ذكرتموها فى جداول المنسوخ والناسخ وهى قسمان :

أحدهما فيه نسخ فعلاً (منسوخ وناسخ) .

---

(١) منهم الدكتور عبد المتعال الجبرى وله فيه مؤلف خاص نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة ، والدكتور محمد البهى ومنهم الشيخ محمد الغزالى .

وثانيهما لا ناســخ فيه ولا منســوخ فيه ، ونحن نلتمس لكم العــذر فى هذا " الخلط " لأنكم سرتم فى طريق لا تعرفون كيفية السير فيه .

القسم الأول : ما فيه نسخ :

من الآيات التى فيها نسخ ، وذكروها فى جدول الناسخ والمنســوخ الآيتــان التاليتان : ﴿ **واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعــة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعــل الله لهن سبيلا** ﴾ (١) .

ثم قوله تعالى : ﴿ **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلــدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ٠٠٠** ﴾ (٢) .

هاتان الآيتان فيهما نسخ فعلاً ، والمنسوخ هو حكم الحبس فى البيــوت للزانيات حتى يَمُتْنَ ، أو يجعل الله لَهُنَّ حكماً آخر .

وكان ذلك فى أول الإســلام . فهذا الحكم ــ حكم حبس الزانيــة فــى البيت ــ ، حين شرعه الله ــ عز وجل ــ أومأ فى الآية نفسها إلى أنه حكم مؤقت ، له زمان محدد فى علم الله أزلاً . والدليل على أن هذا الحكم كان فى علم الله مؤقتاً ، وأنه سيحل حــكم آخر محله فى الــزمن الــذى قــدره الله ــ عــز وجل هو قوله : ﴿ **أو يجعل الله لهن ســبيلاً** ﴾ . هذا هو الحــكم المنسوخ الآن وإن كانت الآية التى تضمنته باقية قرآناً يتلى إلى يوم القيامة .

أما الناسخ فهو قوله تعالى فى سورة "النور" فى الآية التى تقدمت ، وبين الله أن حكم الزانية والزانى هو مائة جلدة ، وهذا الحكم ليس عامّا فى جميع الزناة . بل فى الزانية والزانى غير المحصنين . أما المحصنان ، وهما اللذان سبق لهما الزواج فقد بينت السنة قوليًّا وعمليًّا أن حكمهما الرجم حتى الموت .

وليس فى ذلك غرابة ، فتطور الأحكام التشريعية ، ووقف العمل بحكم سابق ، وإحلال حكم آخر لاحق محله مما اقتضاه منهج التربية فى الإسلام .

ولا نزاع فى أن حكم الجلد فى غير المحصــنين ، والــرجم فــى الزنــاة المحصنين ، أحسم للأمر ، وأقطع لمادة الفساد .

وليس معنى هذا أن الله حين أنزل عقوبة حبس الزانيات لم يكن يعلم أنه سينزل حكماً آخر يحل محله ، وهو الجلد والرجم ــ حاشا لله .

---

(١) النساء : ١٥ .

(٢) النور : ٢ .

والنسخ بوجه عام مما يناسب حكمة الله وحسن تدبيره ، أمَّا أن يكون فيه مساس بكمال الله . فهذا لا يتصوره إلا مرضى العقول أو المعاندين للحق الأبلج الذى أنزله الله وهذا النسخ كان معمولاً به فى الشرائع السابقة على شريعة الإسلام .

ومن أقطع الأدلة على ذلك ما حكاه الله عن عيسى ــ عليه السلام ــ فى قوله لبنى إسرائيل : ﴿ **ولأحل لكم بعض الذى حُرِّم عليكم**﴾ (١) .

وفى أناجيل النصارى طائفة من الأحكام التى ذكروها وفيها نسخ لأحكام كان معمولاً بها فى العهد القديم .

ومثيروهذه الشبهات ــ ضد القرآن ــ يعرفون جيداً وقوع النسخ بين بعض مسائل العهد القديم والعهد الجديد . ومع هذا يدعون ــ بإصرار ــ أن التوراة والأناجيل ــ الآن ــ متطابقان تمام الانطباق (٢) .

ومن هذا القسم ــ أيضاً ــ الآيتان الآتيتان :

﴿ **يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون**﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ **الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين**﴾ (٤) .

---

(١) آل عمران : ٥٠ .

(٢) انظر كتابنا " الإسلام فى مواجهة الاستشراق العالمى " طبعة دار الوفاء .

(٣)الأنفال : ٦٥ .

(٤)الأنفال: ٦٦ .

والآيتان فيهما نسخ واضح . فالآية الأولى توجب مواجهة المؤمنين لعـــدوهم بنسبة (١ : ١٠) ، والآية الثانية توجـــب مواجهـــة المؤمنين للعـــدو بنسبة (١ : ٢) .

وهذا التطور التشريعى قد بين الله الحكمة التشريعية فيه ، وهى التخفيف على جماعة المؤمنين فى الأعباء القتالية فما الذى يراه عيباً فيـــه خصـــوم الإسلام ؟

لو كان هؤلاء الحســـدة طلاب حق مخلصين لاهتدوا إليه مـــن أقصـــر طريق ، لأن الله ـــ عزوجل ـــ لم يدع مجالاً لريبة يرتابها مرتاب فى هاتين الآيتين . لكنهم يبحثون عن " العورات " فى دين أكمله الله وأتم النعمة فيه ، ثم ارتضاه للناس ديناً .

وقد قال الله فى أمثالهم :

﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفـــروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ (١) .

ومن هذا القسم ـــ أيضاً ـــ الآيتان الآتيتان :

﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجـــاً وصيةً لأزواجهـــم متاعـــاً إلى الحول غير إخراج ...﴾ (٢) .

وقوله تعالى :**﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصـــن بأنفســـهن أربعة أشهر وعشراً ...﴾** (٣) .

أجل ، هاتان الآيتان فيهما نسخ ؛ لأن موضوعهما واحد ، هو عدة المتـــوفى عنها زوجها .

الآية الأولى : حددت العدة بعام كامل .

---

(١) الأنعام : ٧ .

(٢)البقرة : ٢٤٠

(٣) البقرة :٢٣٤ .

والآية الثانية : حددت العدة بأربعة أشهر وعشر ليال .

والمنسوخ حكماً لا تلاوة هو الآية الأولى ، وإن كان ترتيبها فى السورة بعد الآية الثانية .

والناسخ هو الآية الثانية ، التى حددت عدة المتوفى عنها زوجها بأربعة أشهر وعشر ليال ، وإن كان ترتيبها فى السورة قبل الآية المنسوخ حكمها .

وحكمة التشريع من هذا النسخ ظاهرة هى التخفيف ، فقد استبعدت الآية الناسخة من مدة العدة المنصوص عليها فى الآية المنسوخ حكمها ثمانية أشهر تقريباً ، والمعروف أن الانتقال من الأشد إلى الأخف ، أدعى لامتثال الأمر ، وطاعة المحكوم به .. وفيه بيان لرحمة الله ــ عز وجل ــ لعباده . وهو هدف تربوى عظيم عند أولى الألباب .

القسم الثانى :

أما القسم الثانى ، فقد ذكروا فيه آيات على أن فيها نسخاً وهى لا نسخ فيها ، وإنما كانوا فيها حاطبى ليل ، لا يفرقون بين الحطب ، وبين الثعابين ، وكفى بذلك حماقة .

وها نحن نعرض نموذجين مما حسبوه نسخاً ، وهو أبعد ما يكون عن النسخ .

- **النموذج الأول :**

﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾ (١) .

﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ (٢) .

زعموا أن بين هاتين الآيتين تناسخاً ، إحدى الآيتين تمنع الإكراه فى الدين ، والأخرى تأمر بالقتال والإكراه فى الدين وهذا خطأ فاحش ، لأن قوله تعالى **﴿ لا إكراه فى الدين﴾** سلوك دائم إلى يوم القيامة .

والآية الثانية لم ــ ولن ــ تنسخ هذا المبدأ الإسلامى العظيم ؛ لأن موضوع هذه الآية " **قاتلوا** " غير موضوع الآية الأولى : **﴿ لا إكراه فى الدين﴾** .

لأن قوله تعالى : **﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾** له سبب نزول خاص . فقد كان اليهود قد نقضوا العهود التى أبرمها معهم المسلمون . وتآمروا مع أعداء المسلمين للقضاء على الدولة الإسلامية فى المدينة ، وأصبح وجودهم فيها خطراً على أمنها واستقرارها . فأمر الله المسلمين بقتالهم حتى يكفوا عن أذاهم بالخضوع لسلطان الدولة ، ويعطوا الجزية فى غير استعلاء .

أجل : إن هذه الآية لم تأمر بقتال اليهود لإدخالهم فى الإسلام . ولو كان الأمر كذلك ما جعل الله إعطاءهم الجزية سببا فى الكف عن قتالهم ، ولاستمر الأمر بقتالهم سواء أعطوا الجزية أم لم يعطوها ، حتى يُسلموا أو

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .

(٢) التوبة : ٢٩ .

يُقتلوا وهذا غير مراد ولم يثبت فى تاريخ الإسلام أنه قاتل غيـــر المســـلمين لإجبارهم على اعتناق الإسلام .

ومثيرو هذه الشبهات يعلمون جيداً أن الإســـلام أقر اليهود بعد الهجـــرة إلى المدينة على عقائدهم ، وكفل لهم حرية ممارسة شعائرهم ، فلما نقضوا العهود ، وأظهروا خبث نياتهم قاتلهم المسلمون وأجلوهم عن المدينة .

ويعلمون ــ كذلك ــ أن النبى ﷺ عقد صلحاً سِلْمِيًّا مع نصارى تغلـــب ونجران ، وكانوا يعيشون فى شبه الجزيرة العربية ، ثـــم أقـــرهم عقائـــدهم النصرانية وكفل لهم حرياتهم الاجتماعية والدينية .

وفعل ذلك مع بعض نصارى الشام . هذه الوقائع كلها تعلن عن سماحة الإسلام ، ورحابة صدره ، وأنه لم يضق بمخالفيه فى الدين والاعتقاد .

فكيف ساغ لهؤلاء الخصوم أن يفتروا عَلى الإسلام ما هو برئ منه ؟

إنه الحقد والحسد . ولا شىء غيرهما ، إلا أن يكون العناد .

- **النموذج الثانى :**

﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبيـــر ومنـــافع للنـــاس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ (١) .

﴿ إنما الخـــمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشـــيطان فاجتنبوه ﴾ (٢) .

والآيتان لا ناسخ ولا منسوخ فيهما . بل إن فى الآية الثانية توكيداً لمـــا فى الآية الأولى ، فقد جاء فى الآية الأولى : " **فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما** "

ثـــم أكـــدت الآيـــة الثانيـــة هـــذا المعنـــى : **﴿ رجـــس مـــن عمـــل الشيطان فاجتنبوه ﴾** فأين النسخ إذن ؟ .

---

(١) البقرة : ٢١٩ .

(٢) المائدة : ٩٠ .

أما المنافع فى الخمر والميسر ، فهى : أثمان بيع الخمر ، وعائد التجارة فيها ، وحيازة الأموال فى لعب الميسر " القمار " وهى منافع خبيثة لم يقرها الشرع من أول الأمر ، ولكنه هـادنها قليلاً لما كان فيها من قيمة فى حيـاة الإنسان قبل الإسلام ، ثم أخذ القرآن يخطو نحو تحريمها خطوات حكيمة قبل أن يحرمها تحريما حاسما ، حتى لا يضر بمصالح الناس

وبعد أن تدرج فى تضئيل دورها فى حياة الناس الاقتصادية وسد منافذ رواجها ، ونبه الناس على أن حسم الأمر بتحريمها آتٍ لا محالـة وأخـذوا يتحولون إلى أنشطة اقتصادية أخرى ، جاءت آية التحريم النهائى فى سورة المائدة هذه : ﴿ **رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحـون** ﴾ هذه هى حقيقة النسخ وحكمته التشـريعية ، وقيمته التربويـة ومع هـذا فإنه نـادر فى القرآن .

الشبهة العاشرة

الكلام الغريب

فى القرآن كثير من الكلمات الغريبة ، وهاكم بعضاً منها : فاكهةً وأبًّـا ، غسلين ، حنانا ، أوّاه ، الرقيم ، كلالـة ، مبلسـون ، أخبتـوا ، حنـين ، حصحص ، يتفيؤا ، سربا ، المسجور ، قمطـرير ، عسـعس ، سـجيل ، الناقور ، فاقرة ، استبرق ، مدهامتان ..

ونحـن نسـأل : أليسـت هـذه الألفـاظ الغريبة مخـالفة للسـليم من الإنشاء .. ؟!

*** الرد على الشبهة :**

لا وجود فى القرآن لكلمة واحدة من الغريب حقًا ، كما يعرفه اللغويـون والنقاد .

فالغريب ــ الذى يعد عيباً فى الكلام ، وإذا وجد فيه سلب عنه وصـف الفصاحـة والبلاغـة ــ هو ما ليس له معنى يفـهم منـه علـى جهـة الاحتمال أو القطع ، وما ليس له وجود فى المعاجم اللغوية ولا أصـل فـى جذورها .

والغريب بهذا المعنى ليس له وجود فى القرآن الكريم ، ولا يحتج علينا بوجود الألفاظ التى استعـملت فى القرآن من غير اللغـة العربيـة مثـل : إستبرق ، وسندس ، واليم ، لأن هذه الألفاظ كانت مأنوسة الاستعمال عنـد العرب حتى قبل نزول القرآن ، وشائعة شيوعاً ظاهراً فى محادثاتهم اليومية وكتاباتهم الدورية .

وهى مفردات وليست تراكيب . بل أسماء مفردة لأشخاص أو أماكن أو معادن أو آلات .

ثم إنها وإن لم تكن عربية الأصـــل ، فهـــى ـــ بالإجمـــاع ـــ عربيـــة الاســـتعمال . ومعـــانيها كانت ـــ وما تزال ـــ معـــروفة فـــى القـــرآن ، وفى الاستعمال العام .

ومنها الكلمات التى ذكروها مما هو ليس عربيًّـــا ، مثـــل :غســـلين ، ومعناها : الصديد ، أى صديد أهل النار ، وما يسيل من أجسادهم من أثـــر الحـــريق ، ولما كان يسيل من كل أجسامهم شبه بالماء الـــذى يُغسَـــل بـــه الأدران . أما بناؤه على : فعلين فظاهر أنه للمبالغة . ومثل : " قمطريـــرا " ومعناها : طويلاً ، أو شديداً . ومثل : " إستبرق " ومعناهـــــا : الـــديباج . وهكذا كل ما فى القرآن من لغة غير عربية الأصل فهى عربية الاســـتعمال بألفاظها ومعانيها . وكانت العرب تلوكها بألسنتها قبل نزول القرآن .

واستعـــارة اللغات من بعضـــها من سنن الاجـــتماع البشـــرى ودليـــل على حيوية اللغة . وهذه الظاهرة فاشيةٌ جداً فى اللغات حتى فـــى العصـــر الحديث . ويسميها اللغويون بـــ " التقارض " بين اللغات ، سواء كانت لغات سامية أو غيرها كالإنجليزية والألمانية والفرنسية وفى اللغة الأسبانية كلمات مستعملة الآن من اللغة العربية .

أما مااقترضته اللغة العربية من غيرها من اللغات القديمة أو مـــا لـــه وجود حتى الآن فقد اهتم به العلماء المسلمون ونصوا عليه كلمـــة كلمـــة ، وأســـموه بـــ " المعـــرَّب " مثل كتاب العلامة الجواليقى ، وقد يســـمونه بـــ " الدخيل " هذا بالنسبة لما ذكروه من الكلمات غير العربية الأصـــل ، التـــى وردت فى القرآن الكريم .

أما بقية الكلمات فهى عربية الأصل والاستعمال ولكـــن مثيـــرى هـــذه الشبهات قوم يجهلون فكلمة " حنان " لها جذر لغوى عربى ، يقال : حـــنَّ ، بمعنى . رق قلبه ومال إلى العطف على الآخـــرين . والمضـــارع : يحـــن والمصدر : الحنان والحنين ، وقد يستعملان استعمال الأسماء .

ومنه قول الشاعر :

حننت إلى ريَّا ونفسك باعــدت * مزارك من رياء ونفساكما معا

وأما " أوَّاه " فهو اســم فاعــل من " التــأوُّه " على صيغــة المبالغــة " فعَّال " .

وكذلك " حصحص " ومعناه : ظهر وتبيَّن .

ومنه قــول الشـــاعر العــربى القديم :

من مُبْلِغٌ عنى خِداشاً فإنــه * كذوب إذا ما حصحص الحق كاذب

أما الناقــور فهو اســم من " النقر " كالفاروق من الفراق .

وحتى لو جارينا هؤلاء الحاقدين ، وسلمنا لهم جدلاً بأن هذه الكلمــات غريبة ؛ لأنها غير عربية ، فإنها كلمات من " المعرَّب " الذى عرَّبه العرب واستعملوه بكثرة فصار عربياً بالاستعمال . ومعانيه معروفة عند العرب قبل نزول القرآن . وما أكثر الكلمات التى دخلت اللغة العربية ، وهجر أصــلها وصارت عربية . فهى إذن ــ ليستْ غريبة ، لإن الغريب ما ليس له معنى أصلاً ، ولا وجود له فى المعاجم اللغوية ، التى دونت فيها ألفاظ اللغة .

* * *

قد يقــال : كيف تنكــرون " الغريب " فى القــرآن ، وهــو موجــود باعتراف العلماء ، مثل الإمام محمد بن مسلم بن قتيبة العالم الســنى ، فقــد وضع كتاباً فى " غريب القرآن " وأورده على وفق ما جاء فى سور القــرآن سورة سورة ؟

وكذلك صنع السجستانى وتفسيره لغريب القرآن مشهور .

ومثله الراغب الأصفهانى فى كتابه " المفردات " فــى شــرح غريــب القرآن .

ثم الإمام جلال الدين السيوطى ، العالم الموسوعى ، فله كتاب يحمــل اسم " مبهمات القرآن " .

ألا يُعد ذلك اعترافاً صــريحاً من هؤلاء الأئمة الأفذاذ بورود الغريــب فى القرآن الكريم ؟ ومن العلماء المحدثين الشيخ حسنين مخلــوف ، مفتــى

الديار المصـــرية فى النصف الأول من القــرن العشـــرين ، وكتـــابه " كلمات القرآن لا يجهله أحد " .

كما أن جميع مفسرى القرآن قاموا بشرح ما رأوه غريباً فى القــرآن . فكيف يسوغ القول ــ الآن ــ بإنكار وجود الغريب فى القــرآن أمــام هــذه الحقائق التى لا تغيب عن أحد ؟

من حق غير الملم بفقه هذه القضية ــ قضية الغريب ــ أن يسألوا هــذا السؤال ، ومن واجبنا أن نجيب عليه إجابة شافية وافية بعون الله وتوفيقه..

والجــواب :

هذا السؤال جدير بأن نستقصى جوانب الإجابة عليه لوجاهته وأهميته .

فنقول مستمدين الهداية والتوفيق من الله العلى الحكيم :

- إن الغــريب الذى نســب فى كــتب العـــلماء ــ رضـــى الله عنهم ــ إلى القرآن ، إنما هو غريب نسبى وليس غريباً مطلقاً .

فالقرآن فى عصر الرسالة ، وعصر الخلفاء الراشــدين كــان مفهومــا لجميع أصحاب رسول ﷺ

ولم يرد فى رواية صحيحة أن أصحاب رسول الله ﷺ غاب عنهم فهــم ألفاظ القرآن من حيث الدلالة اللغوية البحتة ، وكل ما وردت به الروايــة أن بعضهم سأل عن واحد من بضعة ألفاظ لا غير . وهى روايات مفتقرة إلــى توثيق ، وقرائن الأحوال ترجح عدم وقوعها ، والألفاظ المسئول عنها هى :

غسلين ، قسورة ، أبًّا ، فاطر ، أوّاه ، حنان . وقد نسبوا الجهل بمعانى هذه الكلمات إما إلى عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ ، وإما إلى ابــن عباس رضى الله عنهما ، وكلا الرجلين أكبر من هذه الاتهامات .

ومما يضعف إسناد الجهل إلى عمر رضى الله عنه ، بمعنى كلمة " أبًّا " أن عمر كما تقــول الرواية سأل عن معــناها فى خــلافته ، مع أن ســورة " عبس " التى وردت فيها هذه الكلمة من أوائل ما نزل بمكة قبل الهجــرة ، فهل يُعقَلُ أن يظل عمر جاهلا بمعنى " أبًّا " طوال هذه المدة (قرابــة ربــع قرن) ؟

أما ابن عباس رضى الله عنه فإن صحت الرواية عنه أنه سـأل عـن معانى " غسلين " و " فاطر " فإنه يحتمل أنه سأل عنها فى حداثـة سـنه . ومعروف أن ابن عباس كان معروفاً بـ " ترجمان القرآن " ومعنى هذا أنـه كان متمكناً من الفقه بمعانى القرآن ، وقد ورد أن الرسول ﷺ دعا له قائلاً : **[اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل]** .

هذا فيما يتعلق بشأن الروايات الواردة فى هذا الشأن .

أما فيما يتعـلق بالمؤلفات قديماً وحديثاً حول ما سمى بـ " غريـب القرآن " فنقول :

إن أول مؤلف وضع فى بيان غريب القرآن هو كتاب " غريب القرآن " لابن قتيبة (فى القرن الثالث الهجرى) وهذا يرجح أن ابن قتيبة ، لم يكتب هذا الكتاب للمسلمين العرب ، بل كان القصد منه هو أبناء الشـعوب غيـر العربية التى دخلت فى الإسلام ، وكانوا يتحدثون لغات غير اللغة العربية .

أما مسلموالقرنين الأول والثانى الهجريين ، والنصف الأول من القـرن الثالث ، فلم يكن فيها ـ فيما نعـلم ـ كتب حول بيان غريب القرآن ، سوى تفسـير عبـد الله بن عباس ـ رضى الله عنه ـ ، وكتـاب " مجـازات القرآن " لأبى عبيدة معمر بن المثنى (م ٢١٠هـ) وهما أعنى تفـسير ابـن عباس ، ومجازات أبى عبيدة ، ليسا من كتب الغريب ، بل هما : محاولتان مبكرتان لتفسير القرآن الكريم مفردات وتراكيب [1] .

ولما تقادم الزمن على نزول القرآن ، وضعف المحصول اللغوى عنـد الأجيال اللاحقة ، قام بعض العلماء المتأخرين ـ مثل : الراغب الأصفهانى ، صاحب كتاب " مفردات القرآن " ، وجـلال الدين السـيوطى ، صـاحب كتاب " مبهمات القرآن " ـ بوضع كتب تقرب كتاب الله إلى الفهم ، وتقـدم بيان بعض المفردات التى غابت معانيها واستعمالاتها عن الأجيال المتأخرة .

وهذا يسلمنا إلى حـقيقة لاحـت فى الأفق من قبل ، نعيد ذكرها هنـا فى الآتى :

---

[1] هذا وقد ظهرت مؤلفات أخرى فى هذا الموضوع مثل " معانى القرآن " للفراء ، وغيره من الأقـدمين . وهى ليست من كتب الغريب ، بل لها مجالات بحث أخرى كالقراءات .

إن ما يطلق عليه " غريب القرآن " فى بعض المؤلفات التراثية ومنهـا كتب علوم القرآن ، وما تناوله مفسرو القرآن الكريم فى تفاسـيرهم ، هـو غريب نسبى لا مطلق ، غريب نسبى باعتبار أنه مستعار من لغات أخـرى غير اللغة العربية ، أو من لهجات عربية غير لهجة قريش التى بهـا نـزل القرآن وغريب نسبى باعتبار البيئات التى دخلها الإسلام ، وأبناؤها دخلاء على اللغة العربية ، لأن لهم لغاتٍ يتحدثون بها قبل دخولهم فى الإسـلام ، وظلت تلك اللغـات سائدة فيهم بعدً دخولهم فى الإسـلام وغريـب نسـبيٍ باعتبار الأزمان ، حتى فى البيئات العربية ، لأن الأجيال المتـأخرة زمنـاً ضعفت صلتهـم باللغة العربية الفصحى مفردات وتراكيـب . وكـل هـذه الطوائف كانت ، وما تزال ، فى أمس الحاجة إلى ما يعينهم علـى فهـم القرآن ، وتذوق معانيه ، والمدخل الرئيس لتذوق معانى القـرآن هـو فهـم معانى مفرداته ، وبعض أساليبه .

والغريب النسبى بكل الاعتبارات المتقدمة غريب فصيح سائغ ، ولـيس غريباً عديم المعنى ، أو لا وجود له فى معاجم اللغة ومصـادرها ، وهـذا موضع إجماع بين علماء اللغة والبيان ، فى كل عصر ومصـر . ولا وزن لقول من يزعم غير هذا من الكارهين لما أنزل الله على خاتم أنبيائه ورسله .

مسائل ابن الأزرق

بقى أمر مهم ، له كبير صلة بموضوع " الغريب " فى القرآن ذلك الأمر هو ما عرف فى كتب الأقدمين بـ " مسائل ابن الأزرق " ونوجز القول عنها هنا إيجازاً يكشف عن دورها فى الانتصارللحق ، فى مواجهة مثيرى هـذه الشبهات ومسائل ابن الأزرق مسطـورة فى كثير من كتب التراث مثـل ابن الأنبارى فى كتابه " الوقف " والطبرانى فى كتابه " المعجـم الكبيـر " والمبرد فى كتابه " الكامل " . وجـلال الدين السـيوطى فى كتابه " الإتقان فى علوم القرآن " وغيرهم .

ولهذه المسائل قصة إيجازها : أن عبد الله بن عباس كان جالساً بجوار الكعبة يفسر القرآن الكريم ، فأبصره رجلان هما : نافع بن الأزرق ، ونجدة بن عويمر ، فقال نافع لنجدة " قم بنا إلى هذا الذى يجتـرئ علـى القـرآن ويفسره بما لا علم له به . فقاما إليه فقالا له :

إنَّا نريد أن نسألك عن أشياء فى كتاب الله ، فتفسرها لنا ، وتأتينا بما يصادقه من كلام العرب . فإن الله أنزل القرآن بلسان عربى مبين .

فقال ابن عباس : سلانى عما بدا لكما . ثم أخذا يسألانه وهو يجيب بلا توقف ، مستشهداً فى إجاباته على كل كلمة ، " قرآنية " سألاه عنها بما يحفظه من الشعر العربى المأثور عن شعراء الجاهلية ، ليبين للسائلين أن القرآن نزل بلسان عربى مبين .

وكان الإمام جلال الدين السيوطى قد جمع هذه المسائل وذكر منها مائة وثمانٍ وثمانين كلمة ، وقد حرص على ذكر إجابات ابن عباس عليها رضى الله عنه ، وقال : إنه أهمل نحو أربع عشرة كلمة من مجموع ما سئل عنه ابن عباس (١) .

وها نحن أولاء نورد نماذج منها ، قبل التعليق عليها ، ولماذا أشرنا إليها فى مواجهة هذه الشبهة التى تزعم أن ألفاظ الكتاب العزيز " غريبة " وغير مفهومة .

النموذج الأول : " عزين "

قال نافع بن الأزرق لابن عباس :

أخبرنى عن قوله تعالى : ﴿**عن اليمين وعن الشمال عزين**﴾ (٢).

قال ابن عباس : عزين : الحلق من الرفاق . فسأله نافع : وهل تعرف العرب ذلك ؟

فقال ابن عباس : نعم ، أما سمعت قول عبيد بن الأبرص :

فجاءوا يُهرعون إليه حتى يكونوا حول منسره عزينا

يعنى جماعات يلتفون حول الرسولﷺ ، وهو مشتق من الاعتزاء ، أى ينضم بعضهم إلى بعض ، قال الراغب فى المفردات : العزين : الجماعة المنتسب بعضها إلى بعض (٣) .

النموذج الثانى : " الوسيلة "

قال نافع : أخبرنى عن قوله تعالى : ﴿**وابتغوا إليه الوسيلة**﴾(٤). قال ابن عباس : الوسيلة : الحاجة ، قال نافع : وهل تعرف العرب ذلك ؟

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن . فصل ما يجب على المفسر لكتاب الله .

(٢) المعارج : ٣٧ .

(٣) ومنه قول العامة " عزوة " أى جماعة انظر حرفى العين والزاى فى كتاب الراغب .

(٤) المائدة : ٣٥ .

قال ابن عباس : نعم ، أما سمعت قول عنترة :

إن الرجال لهم إليك وسيلة

أن يأخذوك تكحلى وتخضبى

يعنى : اطلبوا من الله حاجاتكم . واستعمال الوسيلة فى معنى الحاجة كما فسرها ابن عباس فيها إلماح أن طريق قضاء الحوائج يكون إلى الله ؛ لإن معنى الوسيلة : الطريق الموصل إلى الغايات .

النموذج الثالث : " شرعةً ومنهاجاً "

وسأله نافع عن الشرعة والمنهاج فى قوله تعالى : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً** ﴾ (١). فقال ابن عباس : الشرعة : الدين ، والمنهاج : الطريق ، واستشهد بقول أبى سفيان الحارث بن عبد المطلب :

لقد نطق المأمون بالصدق والهدى

وبين للإسلام ديناً ومنهجاً .

النموذج الرابع : " ريشا "

وسأله نافع عن كلمة " ريشاً " فى قوله تعالى :﴿ **يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ..** ﴾ (٢).

ففسره ابن عباس بالمال ، واستشهد بقول الشاعر :

فريشى بخير طالما قد بريتنى

وخير الموالى من يريش ولا يبرى

النموذج الخامس : " كَبد "

وسأله نافع عن كلمة " كَبد " فى قوله تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى كبد** ﴾(٣).

---

(١) المائدة :٤٨ .

(٢) الأعراف ٢٦

(٣) البلد : ٤ .

فقال ابن عباس : فى اعتدال واستقامة . ثم استشهد بقول لَبِيد بن ربيعة :

يا عين هلا بكيت أربد إذ قمنا وقام الخصوم فى كبد

وهكذا نهج ابن عباس فى المسائل الـ (١٨٨) التى وجهت إليه ، يجيب عنها بسرعة مذهلة ، وذاكرة حافظة لأشعار العرب ، وسرعة بديهة فى استحضار الشواهد الموافقة لفظاً ومعنى للكلمات القرآنية ، التى سئل عنها [١] .

وهذا يؤكد لنا حقيقتين أمام هذه الشبهات التى أثارها الحاقدون ضد القرآن الكريم .

الأولى : كذب الادعاءات التى نسبت لابن عباس الجهل ببعض معانى كلمات القرآن .

الثانية : أن القرآن كله لا غريب فيه بمعنى الغريب الذى يعاب الكلام من أجله ، وأن نسبة الغريب إليه فى كتابات السلف ، تعنى الغريب النسبى لا الغريب المطلق ، وقد تقدم توضيح المراد من الغريب النسبى فى هذا المبحث ، باعتبار الزمان ، وباعتبار البيئة والمكان ، وأن ما وضعه القدماء من مؤلفات تشرح غريب القرآن إنما كان المقصود به إما أبناء الشعوب التى دخلت الإسلام من غير العرب . وإما للأجيال الإسلامية المتأخرة زمنا ، التى غابت عنها معانى بعض الألفاظ .

وقد يضاف إلى هذا كله الألفاظ المشتركة والمترادفة والمتضادة، والاحتمالية المعنى .

أما أن يكون فى القرآن غريب لا معنى له وغير مأنوس الاستعمال . فهذا محال ، محال .. والحمد لله رب العالمين .

---

(١) انظر " الإعجاز البيانى للقرآن . د/عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ط : دار المعارف بالقاهرة .

الشبهة الحادية عشرة

الكلام المنقول عن غيره

دعوى أن القرآن مقتبس من التوراة

الشبهة التى تمسكوا بها وُرُودُ مواضع بينها تشابه فى كل من التـــوراة والقرآن الكريم . ومن أبرزها الجانـــب القصصـــى . وبعـــض المواضـــع التشريعية تمسكوا بها ، وقالوا : إن القرآن مقتبس من التوراة ، وبعضـــهم يضيف إلى هذا أن القرآن اقتبس مواضع أخرى من " الأناجيل " .

*** الرد على الشبهة :**

كيف يتحقق الاقتباس عموماً ؟

الاقتباس عملية فكرية لها ثلاثة أركان :

الأول : الشخص المُقتَبَس منه .

الثانى : الشخص المُقتبِس (اسم فاعل) .

الثالث : المادة المُقتَبَسَة نفسها (اسم مفعول) .

والشخص المقُتَبَس منه سابق إلى الفكرة ، التى هى موضوع الاقتباس ، أما المادة المقُتَبَسَة فلها طريقتان عند الشخص المُقتَبِس ، **إحداهما** : أن يأخذ المقتبس الفكرة بلفظها ومعناها كلها أو بعضها . **والثانية** : أن يأخذها بمعناها كلها أو بعضـــها كذلك ويعبر عنها بكلام من عنده .

والمقتبس فى عملية الاقتـــباس أســـير المقتبس منه ـــ قطعاً ـــ ودائـــر فى فلكه ؛ إذ لا طريق له إلى معرفة ما اقتبس إلا ما ذكره المقتبس منـــه . فهو أصل ، والمقتبس فرع لا محالة .

وعلى هذا فإن المقتبس لابد له ـــ وهو يـــزاول عمليـــة الاقتبـــاس ـــ أن يأخذ الفكرة كلها بلفـــظها ومعناها أو بمعناها فقط .

ويمتنع على المقتبس أن يزيد فى الفكرة المقتبسة أية زيادة غير موجودة فى الأصل ؛ لأننا قلنا : إن المقتبس لا طريق له لمعرفة ما اقتبس إلا ما ورد عند المقتبس منه ، فكيف يزيد على الفكرة والحال أنه لا صلة له بمصادرها الأولى إلا عن طريق المقتبس منه .

إذا جرى الاقتباس على هذا النهج صدقت دعوى من يقــول إن فلانــاً اقتبس منى كذا .

أما إذا تشابه ما كتبه اثنان ، أحدهما سابق والثانى لاحق ، واختلف مــا كتبه الثانى عما كتبه الأول مثل :

١ ــ أن تكون الفكرة عند الثانى أبسط وأحكم ووجدنا فيها مالم نجــده عنــد الأول .

٢ ــ أو أن يصحح الثانى أخطاء وردت عند الأول ، أو يعــرض الوقــائع عرضاً يختلف عن سابقه .

فى هــذه الحال لا تصدق دعوى من يقول إن فلانا قد اقتبس منى كذا .

ورَدُّ هذه الدعوى مقبول من المدعى عليه ، لأن المقتبس (اتهامًا) لما لم يدر فى فلك المقتبس منه (فرضــاً) بل زاد عليه وخالفــه فيما ذكـــر من وقــائع فإن معنى ذلك أن الثانى تخــطى ما كتبــه الأول حتى وصــل إلى مصدر الوقائع نفسها واستقى منها ما استقى . فهو إذن ليس مقتبساً وإنما مؤسس حقائق تلقاها من مصدرها الأصيل ولم ينقلها عن ناقل أو وسيط .

وسوف نطبق هذه الأسس التى تحكم عملية الاقتباس على ما ادعاه القوم هنا وننظر :

هل القرآن عندما اقتبس ــ كما يدعون ــ من التــوراة كــان خاضــعاً لشرطى عملية الاقتباس وهما : نقل الفكرة كلها ، أو الاقتصار على نقل جزء منها فيكون ــ بذلك ــ دائراً فى فلك التوراة ، وتصدق حينئذ دعوى القــوم بأن القرآن (معظمه) مقتبس من التوراة ؟

أم أن القرآن لم يقف عند حدود ما ذكرته التوراة فى مواضع التشـــابه بينهما ؟ بل :

١ ــ عرض الوقـــائع عرضـــاً يخـــتلف عن عرض التوراة لها .

٢ ــ أضاف جديداً لم تعرفه التوراة فى المواضع المشتركة بينهما .

٣ ــ صحح أخطاء " خطيرة " وردت فى التوراة فى مواضع متعددة .

٤ ــ انفرد بذكر " مادة " خاصة به ليس لها مصدر سواه .

٥ ــ فى حالة اختلافه مع التوراة حول واقعة يكون الصحيح هو ما ذكـــره القرآن . والباطل ما جاء فى التوراة بشهادة العقل والعلم إذا كان الاحتمـــال الأول هو الواقع فالقرآن مقتبس من التوراة ..

أما إذا كان الواقع هو الاحتمال الثانى فدعوى الاقتباس باطلة ويكـــون للقرآن فى ــ هذه الحالة ــ سلطانه الخاص بـــه فـــى اســـتقاء الحقـــائق ، وعرضها فلا اقتباس لا من تور ة ولا من إنجيل ولا من غيرهما .

لا أظن أن القارئ يختلف معنا فى هذه الأسس التى قـــدمناها لصـــحة الاتهام بالاقتباس عموماً .

وما علينا بعد ذلك إلا أن نستعرض بعض صور التشابه بـــين التـــوراة والقرآن ، ونطبق عليها تلك الأسس المتقدمة تاركين الحرية التامة للقـــارئ سواء كان مسلماً أو غير مسلم فى الحكم على ما سوف تسفر عنه المقارنـــة أنحن على صواب فى نفى الاقتباس عن القرآن ؟.

والمسألة ــ بعد ذلك ــ ليست مسألة اختلاف فى الرأى يصبح فيها كل فريق موصوفاً بالسلامة ، وأنه على الحق أو شعبة من حق .

وإنما المسألة مسألة مصير أبدى من ورائه عقيدة صحيحة توجب النجاة لصاحبها يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

أو عقيدة فاسدة تحل قومها دار البوار يوم يقدم الله إلى ما عملـــوا مـــن عمل فيجعله هباءً منثوراً .

الصورة الأولى من التشابه بين التوراة والقرآن . لقطة من قصـــة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز

تبدأ هذه اللقطة من بدء مراودة امرأة عـــزيز مصر ليوســـف (عليـــه السلام) ليفعل بها الفحشاء وتنتهى بقرار وضع يوسف فى السجن . واللقطة كما جاءت فى المصدرين هى :

أولاً : نصوصها فى التوراة : (١)

" وحدث بعد هـــذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينهـــا إلـــى يوســـف وقالت : اضطجع معى ، فأبى وقال لامرأة سيده : هو ذا ســـيدى لا يعـــرف معى ما فى البيت وكل ما له قد دفعـــه إلى يدى ، ليس هو فى هـــذا البيـــت أعظم منى . ولم يمسك عنى شيئا غيرك لأنك امرأته . فكيف أصـــنع هـــذا الشر العظيم ، وأخطئ إلى الله ، وكانت إذ كلمت يوسف يومًا فيوما أنه لـــم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها ..

ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك فى البيت فأمسكته بثوبه قائلة اضطجع معى فترك ثوبه فى يدها وخرج إلى خارج ، وكان لما رأت أنه ترك ثوبه فى يدها ، وهـــرب إلـــى خارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة :

" انظروا قد جاء إلينا برجل عبرانى ليداعبنا دخل إلىّ ليضطجع معـــى فصرخت بصوت عظيم ، وكان لما سمع أنى رفعت صوتى وصرخت أنـــه ترك ثوبه بجانبى وهرب وخرج إلى خارج . فَوَضَعَتْ ثوبه بجانبهـــا حتـــى جاء سيده إلى بيته فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة دخل إلىَّ العبد العبرانى الذى

---

(١) سفر التكوين الإصحاح (٣٩) الفقرات (٧ ــ ١٩) .

جئت به إلينا ليداعبنى وكان لما رفعت صوتى وصرخت أنـــه تـــرك ثوبـــه بجانبى وهرب إلى خارج فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذى كلمتـــه بـــه قائلة بحسب هذا الكلام صنع بى عبدك أن غضبه حمى ..

فأخذ سيدُه يوسف ووضعه فى بيت السجن المكان الذى كـــان أســـرى الملك محبوسين فيه " .

نصوص القرآن الأمين

﴿ وَرَاوَدَتْهُ التى هوَ فى بيتها عن نفسه وغلّقتِ الأبوابَ وقالتْ هيت لك قال معاذ الله إنهُ ربى أحسنَ مثواى إنهُ لايُفلحُ الظالمون ولقد هَمَّـــتْ بـــه وَهَمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرفَ عنهُ السوءَ والفحشاء إنـــه من عبادنا المخلَصين * واستبقا الباب وقدت قميصه من دُبرٍ وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاءُ من أراد بأهلكَ سوءًا إلا أن يُسجن أو عذابُ أليـــم * قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهدٌ من أهلها إن كان قميصَه قد من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قُد من دُبرٍ فكذبت وهو من الصادقين * فلما رأى قميصه قُد من دُبرٍ قال إنه من كيدكُنَّ إن كيدكن عظيم * يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبكِ إنك كنتِ من الخاطئ ... [1] ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات لَيَسْجنُنَّهُ حتى حين ﴾ [2].

تلك هى نصوص الواقعة فى المصدرين :

وأدعو القارئ أن يقرأ النصين مرات قراءة متأنية فاحصة . وأن يجتهد بنفسه فى التعرف على الفروق فى المصـــدرين قبل أن يســـترسل معنا فيما

---

(١) لم نذكرالنص القرآنى الخاص بحديث النسوه إذ لا مقابل له فى التوراة .

(٢) يوسف : ٢٣-٢٩ ثم آية ٣٥ .

نستخـــلصه من تلك الفروق . ثم يكمل ما يراه من نقـــص لدينا أو لديه فقد يدرك هو ما لم ندركـــه ، وقـــد ندرك نحن ما لم يدركـــه وربَّ قـــــارئ أوعى من كاتب ..

الفروق كما نراها

التوراة	القرآن الأمين
المراودة حدثت مرارًا ونُصـــح يوسف لامرأة سيده كان قبـــل المرة الأخيرة .	المراودة حدثت مرة واحدة اقترنت بعزم المرأة على يوسف لينفذ رغبتها .
تخلو من الإشارة إلـــى تغليـــق الأبواب وتقول إن يوسف ترك ثوبه بجانبها وهرب وانتظرت هى قدوم زوجها وقصت عليه القصة بعد أن أعلمت بها أهـــل بيتها .	يشير إلى تغليق الأبواب وأن يوسف هـــم بالخروج فَقَدَّتْ ثوبه من الخلـــف وحـــين وصلا إلى الباب فوجئا بـــالعزيز يـــدخل عليهما فبادرت المرأة بالشكـــــوى فـــى الحال .
لم يكن يوسف موجـــوداً حـــين دخل العزيز ولم يدافع يوســـف عن نفسه لدى العزيز.	يوســـف كان موجوداً حين قدم العزيز ، وقد دافع عن نفسه بعد وشاية المـــرأة ، وقال هى راودتنى عن نفسى .
تخلو من حديث الشاهد وتقـــول إن العزيز حمى غضبه علـــى يوسف بعد سماع المرأة .	يذكر تفصيلاً شهادة الشاهد كمـــا يـــذكر اقتناع العزيز بتلك الشهادة ولومه لامرأته وتذكيرها بخطئها . وتثبيت يوسف على العفة والطهارة .

تقول إن العزيز فى الحال أمر بوضع يوسف فى السجن ولم يعرض أمره على رجال حاشيته .	يشير إلى أن القرار بسجن يوسف كان بعد مداولة بين العزيز وحاشيته .
تخلو من حديث النسوة اللاتى لُمْنَ امرأة العزيز على مراودتها فتاها عن نفسه ، وهى فجوة هائلة فى نص التوراة .	يذكر حديث النسوة بالتفصيل كما يذكر موقف امرأة العزيز منهن ودعوتها إياهن ملتمسة أعذارها لديهن ومصرة على أن ينفذ رغبتها .

هذه ستة فروق بارزة بين ما يورده القرآن الأمين ، وما ذكرته التوراة . والنظر الفاحص فى المصدرين يرينا أنهما لم يتفقا إلا فى " أصل " الواقعة من حيث هى واقعة وكفى ، ويختلفان بعد هذا فى كل شىء . على أن القرآن قام هنا بعملين جليلى الشأن :

أولهما : أنه أورد جديداً لم تعرفه التوراة ومن أبرز هذا الجديد :

(١) حديث النسوة وموقف المرأة منهن .

(٢) شهادة الشاهد الذى هو من أهل امرأة العزيز .

ثانيهما : تصحيح أخطاء وقعت فيها التوراة ومن أبرزها :

(١) لم يترك يوسف ثوبه لدى المرأة بل كان لابساً إياه ولكن قطع من الخلف .

(٢) غياب يوسف حين حضر العزيز وإسقاطها دفاعه عن نفسه .

اعتراض وجوابه :

قد يقول قائل : لماذا تفترض أن الخطأ هو ما فى التوراة ، وأن الصواب هو ما فى القرآن ؟! أليس ذلك تحيزاً منك للقرآن ؛ لأنه كتاب المسلمين وأنت مسلم ؟ ولماذا لم تفترض العكس وإذا لم تفترض أنت العكس

فقد يقول به غيرك ، وماتراه أنت لا يصادر مـــا يـــراه الآخـــرون . هـــذا الاعتراض وارد فى مجال البحث . وإذن فلابد من إيضاح.

والجواب :

لم نتحيز للقرآن لأنه قرآن . ولنا فى هذا الحكم داعيان :

الأول : لم يرد فى القرآن ــ قط ــ ما هو خلاف الحق ؛ لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . وقد ثبتت هـــــذه الحقيقة فى كل مجالات البحوث التى أجريت على " مفاهيم " القرآن العظيم فى كـــل العصور . وهذا الداعى وحده كافٍ فى تأييد ما ذهبنا إليه .

الثانى : وهو منتزع من الواقعة نفسها موضوع المقارنة وإليك البيان : كـــل من التوراة والقرآن متفقان على " عفة يوسف "وإعراضه عن الفحشاء . ثـــم اختلفا بعد ذلك :

فالتوراة تقول : إن يوســـف تـــرك ثـــوبه كله لدى المـــرأة وهـــــرب والقرآن يقول : إنه لم يترك الثوب بل أمسكته المرأة من الخلف ولمـــا لـــم يتوقف يوسف ــ عليه السلام ــ اقتطعت قطعة منه وبقيت ظاهرة فى ثوبه .

فأى الروايتين أليق بعفة يوسف المتفق عليها بـــين المصـــدرين ؟! أن يترك ثوبه كله ؟! أم أن يُخرق ثوبه من الخلف ؟!

إذا سلمنا برواية التوراة فيوســـف ليس " عفـــيفاً " والمرأة على حـــــق فى دعواها ؛ لأن يوسف لا يخلع ثوبه هكذا ــ ســـليماً ــ إلا إذا كـــان هـــو الراغب وهى الآبية.

ولا يقال إن المرأة هى التى أخلعته ثوبه ؛ لأن يوسف رجل ، وهـــى امرأة فكيف تتغلب عليه وتخلع ثوبه بكل سهولة ، ثم لما يمتنع تحتفظ هـــى بالثوب كدليل مادى على جنايته المشينة ؟!

وهل خـــرج يوسف " عريانًا " وترك ثوبه لدى غريمته ..؟!

والخـــلاصة أن رواية التوراة فيها إدانة صريحة ليوسف وهذا يتنـــافى مع العفة التى وافقت فيها القرآن الأمين .

أما رواية القرآن فهى إدانة صريحة لامرأة العزيــز ، وبــراءة كاملــة ليوسف ــ عليه السلام ــ .

لقد دعــته المرأة إلى نفسها ففر منها . فأدركته وأمسكته مــن الخلــف وهو ما يزال فاراً هارباً من وجهها فتعرض ثوبه لعمليتى جــذب عنيفتــين إحداهما إلى الخلف ــ بفعل المرأة ــ والثانية إلى الأمام ــ بحركة يوسف ــ فانقطع ثوبه من الخلف .

وهذا يتفق تماماً مع العفة المشهود بها ليوسف فى المصدرين ولهذا قلنا : إن القرآن صحح هذا الخطأ الوارد فى التوراة .

.. فهل القرآن مقتبس من التوراة ؟!

فهل تنطبق على القرآن أسس الاقتباس أم هو ذو سلطان خاص به فيما يقول ويقرر ؟ .

المقتبس لا بد من أن ينقل الفكرة كلها أو بعضها . وها نحن قــد رأينــا القرآن يتجاوز هذه الأسس فيأتى بجديد لم يذكر فيما سواه ، ويصحح خطــأ وقع فيه ما سواه .

فليس الاختلاف فيها اختلاف حَبْكٍ وصياغة ، وإنما هو اختلاف يشــمل الأصول والفروع . هذا بالإضافة إلى إحكام البناء وعفة الألفــاظ وشــرف المعانى [1] .

---

(١) تأمل عبارة التوراة " اضطجع معى " تجدها مبتذلة فاضحة تكاد تجسم معناها تجسيماً. ثم تأمل عبــارة القرآن ﴿**و راودته التى هو فى بيتها عن نفسه**﴾ تجدها كناية لطيفة شريفة بعيدة عن التبذل والإســفاف . والألفاظ أوعية المعانى والمعانى ظلال الألفاظ ..

إن الذى روته التوراة ــ هنا ــ لا يصلح ولن يصلح أن يكون أساساً للذى ذكره القرآن . وإنما أساس القرآن هو الوحى الصادق الأمين . ذلك هو مصدر القرآن " الوضىء " وسيظل ذلك هو مصدره تتساقط بين يديه دعاوى الباطل ومفتريات المفترين فى كل عصر ومصر .

الصورة الثانية من صور التشابه بين التوراة والقرآن

قصة هابيل وقابيل ابنى آدم

نصوص التوراة :

" حدث من بعد أيام أن قابين قدم من أثمار الأرض قربانا للرب ، وقدم هابيل أيضا من أبكار غنمه ، ومن سمانها ، فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قابين . وقربانه لم ينظر . فاغتاظ قابين جداً وسقط وجهه . فقال الرب لقابين لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك ؟ إن أحسنت أفلا رفع ؟؟. وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها ، وأنت تسود عليها . وكلم قابين هابيل أخاه . وحدث إذ كانا فى الحقل أن قابين قام على هابيل أخيه وقتله . فقال الرب لقابين أين هابيل أخوك فقال لا أعلم أحارس أنا لأخى ؟ فقال ماذا فعلت ؟ صوت دم أخيك صارخ إلىَّ من الأرض . فالآن ملعون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك متى عملت الأرض ؟؟ تعود تعطيك قوتها . تائهاً وهارباً تكون فى الأرض فقال قابين للرب : ذنبى أعظم من أن يحتمل أنك قد طردتنى اليوم على وجه الأرض ، ومن وجهك أختفى وأكون تائهاً وهارباً فى الأرض فيكون كل من وجدنى يقتلنى فقال له الرب : لذلك كل من قتل قابين فسبعة أضعاف ينتقم

منه . وجعل الرب لقابين علامة لكى لا يقــتله كل من وجــده . فخـــــرج قابين من لدن الرب وسكن فى أرض نود شرقى عدن " [1] .

نصوص القرآن الأمين

﴿ واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبلُ الله من المتقين * لئن بسطت إلىَّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسطٍ يدى إليك لأقتلك إنى أخافُ الله ربَّ العــالمين * إنـــى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين* فطوعت له نفسهُ قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين * فبعث الله غرابًا يبحث فى الأرض ليُرِيَهُ كيف يوارى سوءة أخيه * قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارىَ سوءة أخى فأصبح من النادمين * من أجــل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فسادٍ فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءتهم رسلـــنا بالبينات ثم إن كـــثيراً منهـــم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون ﴾ [2] .

الفروق بين المصدرين

اتفق المـــصدران حول نقطتين اثنتين لا ثالث لهما واختلفا فيمـــا عـــداهما . اتفقا فى : مسألة القربان . وفى قتل أحد الأخوين للآخر . أما فيما عدا هاتين النقطتين فإن ما ورد فى القرآن يختلف تماماً عما ورد فى التوراة ، وذلـــك على النحو الآتى :

---

(١) سفر التكوين (٤-٣-١٦)

(٢) المائدة : ٢٧-٣٢ .

التوارة	القرآن الأمين
تسمى أحد الأخوين بقابين وهو " القاتل " والثـانى " هابيـل " كمـا تصـف القربانين وتحدد نوعهما .	لايسميهما ويكتفى ببنوتهما لآدم كما اكتفى بذكر القربانين ولم يحددهما .
تروى حواراً بين قـابين والرب بعـد قتلـه أخـاه ،وتعلن غضب الرب على قابين وطرده مـن وجـه الرب إلى أرض بعيدة .	لا يذكر حواراً حدث بين القاتل وبين الله ، ولا يذكر أن القاتل طرده الله من وجهه إلى أرض بعيدة ، إذ ليس على الله بعيد .
التوراة تخلـو مـن أى حوار بين الأخوين .	يذكر الحديث الـذى دار بـين ابنـى آدم ويفصل القول عما صدر من القتيل قبل قتله وتهديده لأخيه بأنه سيكون من أصحاب النار إذا قتله ظلماً ..
لا مقابل فى التوراة لهـذه الرواية ولمْ تبين مصـير جثة القتيل ؟!	يذكر مسألة الغراب ، الذى بعثه الله ليُـرى القاتل كيف يتـصرف فـى جثـة أخيـه ، ويوارى عورته .
تنسب الندم إلى " قـابين " القاتل لمـا هـددده الله بحـرمانه مـن خيـرات الأرض ، ولا تجعله يشعر بشناعة ذنبه .	يصرح بندم " القاتل " بعـد دفنـه أخيـه وإدراكه فداحة جريمته .
لا هدف لذكر القصة فـى التوراة إلا مجرد التاريخ . فهى معلومات ذهنية خالية من روح التربية والتوجيه.	يجعل من هذه القصة هدفاً تربويـاً ويبنـى شـريعة القصاص العادل عليهـا . ويلـوم بنى إسرائيل على إفسادهم فى الأرض بعـد مجيء رسل الله إليهم .

أضف إلى هذه ما تحتوى عليه التوراة من سوء مخاطبة " قابين" الرب ، فترى فى العبارة التى فوق الخط : " أحارس أنا لأخى " فيها فظاظة لوصدرت من إنسان لأبيه لعد عاقًّا جافًّا فظًّا غليظًّا فكيف تصدر من " مربوب " إلى " ربه " وخالقه ..؟!

ولكن هكذا تنهج التوراة فلا هى تعرف " قدر الرب " ولا من تنقل عنه حواراً مع الرب .

ولا غرابة فى هذا فالتوراة تذكر أن موسى أمر ربه بأن يرجع عن غضبه على بنى إسرائيل ، بل تهديده إياه ــ سبحانه ــ بالاستقالة من النبوة إذا هو لم يستجب لأمره .

والواقع أن ما قصَّهُ علينا القرآن ــ وهو الحق ــ من أمر ابنى آدم مختلف تماماً عما ورد فى التوراة فى هذا الشأن .

فكيف يقال : إن القرآن اقتبس هذه الأحداث من التوراة وصاغها فى قالب البلاغة العربية ؟!

إن الاختلاف ليس فى الصياغة ، بل هو اختلاف أصيل كما قد رأيت من جدول الفروق المتقدم .

والحاكم هنا هو العقل فإذا قيل : إن هذه القصة مقتبسة من التوراة قال العقل :

* فمن أين أتى القرآن بكلام الشقيق الذى قتل مع أخيه ، وهو غير موجود فى نص التوراة التى يُدعى أنها مصدر القرآن ؟!

* ومن أين أتى القرآن بقصة الغراب الذى جاء ليُرى القاتل كيف يوارى سوءة أخيه وهى غير واردة فى التوراة المُدَّعى أصالتها للقرآن ؟!

* ولماذا أهمل القرآن الحوار الذىّ تورده التوراة بين " الرب " وقابين القاتل وهذا الحوار هو هيكل القصة كلها فى التوراة ؟!

إن فاقد الشيء لا يعطيه أبداً ، وهذا هو حكم العقل . والحقائق الـــواردة في القرآن غير موجودة في التوراة ــ قطعاً ــ فكيف تعطى التوراة شيئاً هى لم تعرف عنه شيئاً قط ..؟!

لا.. إن القرآن له مصدره الخاص به الذى استمد منـــه الوقـــائع علـــى وجهها الصحيح ، ومجـــرد التشـــابه بينه وبين التوراة فى " أصل الواقعة " لا يؤثر فى استقلال القرآن أبداً .

الصورة الثالثة من صور التشابه بين التوراة والقرآن
مقارنة بين بعض التشريعات
المحرمات من النساء

قارَنَّا فيما سبق بين بعض المسائل التاريخية التى وردت فى كل من التوراة والقرآن الأمين . وأثبتنا بأقطع الأدلة أن القرآن له سلطانه الخاص به فيما يقول ويقرر ، ورددنا دعوى أن القرآن مقتبس من التوراة . وبَيَّنَّا حكم العقل فى هذه الدعوى كما أقمنا من الواقع " المحكى " أدلة على ذلك .

ونريد ــ هنا ــ أن نقارن بين بعض المسائل التشريعية فى المصدرين ؛ لأنهم يقولون : إن المسائل والأحكام التشريعية التى فى القرآن لا مصدر لها سوى الاقتباس من التوراة .

وقد اخترنا نص المحرمات من النساء فى التوراة لنقابله بنص المحرمات من النساء فى القرآن الحكيم ليظهر الحق .

النص فى المصدرين

أولاً : فى التوراة :

" عورة أبيك وعورة أمك لا تكشف . إنها أمك لا تكشف عورتها . عورة امرأة أبيك لا تكشف . إنها عورة أبيك . عورة أختك بنت أبيك أو بنت أمك المولودة فى البيت ، أو المولودة خارجاً لا تكشف عورتها . عورة ابنة ابنك أو ابنة بنتك لا تكشف عورتها إنها عورتك . عورة بنت امرأة أبيك المولودة من أبيك لا تكشف عورتها إنها أختك . عورة أخت أبيك لا تكشف إنها قريبة أبيك . عورة أخت أمك لا تكشف إنها قريبة أمك عورة

أخى أبـــيك لا تكـــشف ، إلى امرأته لا تقـــرب إنها عمتك . عـــورة كنتك لا تكشف . إنها امرأة ابنك لا تكشف عورتها .

عورة امرأة أخيك لا تكشـــف إنها عورة أخـــيك . عورة امرأة ، وبنتها لا تكشف ، ولا تأخذ ابنة ابنتها أو ابنة بنتها لتكشف عورتها إنهما قريبتاها . إنه رذيلة . ولا تأخـــذ امرأة على أختـــها للضـــر لتكشـــف عورتها معهـــا فى حياتها [1] .

ثانياً : فى القرآن الحكيم :

﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ماقد سلف إنه كان فاحشة ومقتًا وساء سبيلا * حرمت عليكم أمهاتكم وبنـــاتكم وأخـــواتكم وعمـــاتكم وخـــالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهـــاتكم اللاتى أرضعنكم وأخـــواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجـــوركم مـــن نســـائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد ســـلف إن الله كـــان غفوراً رحيما والمحصنات من النساء .. ﴾ [2] .

هذان هما النصـــان فى المصدرين . نص التـــوراة ، ونـــص القـــرآن الحكيم . فما هى أهم الفروق بينهما ياترى ؟!

وقبل إجراء المقارنة نفترض صحة النص التوراتى وخلوه من التحريف إذ لا مانع أن يكون هذا النص ــ فعلاً ــ مترجماً عن نص أصلى تشـــريعى خلا مترجمه من إرادة تحريفه .

والمهم هو أن نعرف هل يمكن أن يكون نص التوراة هذا أصلاً اقتبس منه القرآن الحكيم فكرة المحرمات من النساء ، علماً بأن الـــنص التـــوراتى قابل إلى حد كبير لإجراء دراسات نقدية عليه ، ولكن هذا لا يعنينا هنا .

---

(١) سفر اللاويين (١٨ ــ٧ ــ ١٨) .

(٢) النساء : ٢٢-٢٤ .

الفروق بين المصدرين :

التوراة :

١ ــ لا تقيم شأنًا للنسب من جهة الرضاعة .

٢ ــ تحــرم نكاح امرأة العم وتدعوها عمة .

٣ ــ تحرم نكاح امرأة الأخ لأخيه .

٤ ــ لا تذكر حرمة النساء المتزوجات من رجال آخرين زواجهم قائم .

٥ ــ تجعل التحريم ــ غالباً ــ للقرابة من جهة غير الزوج مثل قرابة الأب ــ الأم ــ العم ٠٠٠ وهكذا .

القرآن الأمين :

١ ــ يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب .

٢ ــ لا يحرم نكاح امرأة العم ولا يدعوها عمة .

٣ ــ لا يحرم نكاح امرأة الأخ لأخيه إذا طلقها أو مات عنها أخوه .

٤ ــ يحرم نكاح المتزوجات ــ فعلاً ــ من آخرين زواجاً قائماً ويطلق عليهن وصف المحصنات من النساء .

٥ ــ يجعل التحريم لقرابة الزوج ممن حرمت عليه . أو قرابة زوجته أحياناً .

هذه الفروق الواضحة لا تؤهل النص التوراتى لأن يكون أصلاً للنص القرآنى ، علميًّا ، وعقليًّا ، فللنص القرآنى سلطانه الخاص ومصدره المتميز عما ورد فى التوراة . وإلا لما كان بين النصين فروق من هذا النوع المذكور .

وقفة مع ما تقدم :

نكتفى بما تقدم من التوراة وإن كانت التوراة مصدراً ثَرَاً لمثل هذه المقارنات ، ولو أرخينا عنان القلم لما وقفنا عند حد قريب ولتضاعف هذا

الحجم مئات المرات . ومع هذا فما من مقارنة تجرى بين التوراة وبين القرآن إلا وهى دليل جديد على نفى أن يكون القرآن مقتبساً من كتاب سابق عليه ، فالقرآن وحى أمين حفظ كلمات الله كما أنزلت على خاتم النبيين ﷺ وقد رأينا فى المقارنات الثلاث المتقدمة أن القرآن فوق ما يأتى به من جديد ليس معروفاً فى سواه ــ إنه يصحح أخطاء وقعت فيما سواه ــ وهذا هو معنى " الهيمنة " التى خَصَّ الله بها القرآن فى قوله تعالى : ﴿ **مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه** ﴾ (١) .

فالأمور التى لم يلحقها تحريف فى التوراة جاء القرآن مصدقاً لها أو هو مصدق لكل من التوراة والإنجيل بالصفة التى أنزلها الله عليهما قبل التحريف والتبديل .

أما الأمور التى حُرفت ، وتعقبها القرآن فقصها قصًّا صحيحاً أميناً ، وصحح ما ألحقوه بهما من أخطاء ، فذلك هو سلطان " الهيمنة " المشهود للقرآن بها من منزل الكتاب على رسله .

فالقرآن هو كلمة الله " الأخيرة " المعقبة على كل ما سواها ، وليس وراءها معقب يتلوها ؛ لأن الوجود الإنسانى ليس فى حاجة مع وجود القرآن إلى غير القرآن .

كما أن الكون ليس فى حاجة مع الشمس إلى شمس أخرى تمده بالضوء والطاقة بعد وفاء الشمس بهما .

---

(١) المائدة : ٤٨ .

ولنأخذ صورة مقارنة من العهد الجديد أيضًا حيث يختلف عـن العهـد القديم وذلك لأن نص الإنجيل الذى سندرسه يقابله من القرآن نصـان كـل منهما فى سورة مما يصعب معه وضع النص الإنجيلى فى جـدول مقـابلا بالنصين القرآنيين . ولهذا فإننا سنهمل نظام الجدول هنا ونكتفـى بعـرض النصوص ، والموازنة بينها والموضوع الذى سنخضعه للمقارنة ـ هنـا ـ هو بشارة زكريا ـ عليه السـلام ـ بابنه يحى ـ عليه السلام ـ وذلك على النحو الآتى :

الصورة الرابعة من الإنجيل والقرآن

بشارة زكريا بـ " يحيى " (عليهما السلام)

النص الإنجيلى :

" لم يكن لهما ـ يعنى زكريا وامرأته ـ ولد . إذ كانت اليصـابات ـ يعنى امرأة زكريا ـ عاقراً .وكان كلاهما متقدمين فى أيامهما فبينمـا هـو يكهن فى نوبة غرفته أمام الله ـ حسب عادة الكهنوت ـ أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخر ، وكان كل جمهور الشعب يصلى خارجاً وقت البخور . فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور . فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف . فقال له الملاك : لاتخف يا زكريا ؛ لأن طلبتك قد سمعت وامرأتك اليصابات ستلد لك ولداً وتسميه يوحنا ، ويكون لك فرح وابتهاج . وكثيرون سيفخرون بولادته ؛ لأنه يكون عظيمـاً أمـام الـرب . وخمراً ومسكراً لا يشرب ، ومن بطن أمه يمتلئ بروح القدس ويرد كثيرين من بنىّ إسرائيل إلى الرب إلههم ، ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء .والعصاة إلى فكر الأبرار ، لكى يهئ للرب شعباً مستعدًّا . فقال زكـريا للملاك : كيف أعلم هذا و أنا شـيخ وامرأتى متقـدمة فـى أيامها ..؟!

فأجاب الملاك وقال : أنا جبرائيل الواقف قدام الله . وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا . وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذى يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامى الذى سيتم فى وقته . وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من إبطائه فى الهيكل . فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا فى الهيكل . فكان يومئ إليهم . وبقى صامتاً .." (١) .

النصوص القرآنية :

(١) سورة آل عمران :

﴿ هنالكَ دعا زكريا ربَّهُ قال رب هب لى من لدُنك ذريةً طيبةً إنك سميعُ الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يُبشرك بيحيى مصدقاً بكلمةٍ من الله وسيداً وحصوراً ونبيًّا من الصالحين * قال رب أنى يكون لى غلامٌ وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلكَ الله يفعلُ ما يشاء * قال ربِّ اجعل لى آية قال آيتك ألا تُكلم الناسَ ثلاثةَ أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار﴾ (٢).

(٢) سورة مريم :

﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربَّه نداءً خفيًّا * قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربِّ شقيًّا * وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك وليًّا * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله ربِّ رضيًّا * يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميًّا * قال رب أنَّى يكون لى غلام وكانتً امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيًّا * قال كذلكَ قال ربكَ هو علىَّ هينٌ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا * قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويًّا * فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيًّا * يا يحيى خذ الكتاب

---

(١) إنجيل لوقا (٧- ٢٢) الإصحاح الأول .

(٢) آل عمران : ٣٨-٤١ . وراجع قبله الآيات من ٣٥-٣٧ للأهمية

بقوة وآتيناه الحكم صبيًّا * وحناناً من لدنَّا وزكاةً وكان تقيًّا * وبراً بوالديه ولم يكن جـــباراً عصيًّا * وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويـــوم يبعـــث حيًّا﴾ (١) .

ذلك هو نص الإنجيل . وذان هما نصا القرآن الأمين . والقضية التـــى نناقشها هنا هى دعوى " الحاقدين " أن القرآن مقتبس من الأناجيل كما ادعوا قبلا أنه مقتبس من التوراة .

وندعو القارئ أن يراجع النص الإنجيلى مرات ، وأن يتلو النصـــوص القرآنية مرات ، ويسأل نفسه هذا السؤال :

هل من الممكن علميًّا وعقليًّا أن يكون النص الإنجيلى مصدرًا لما ورد فى القرآن الأمين ؟!

إن المقارنة بين هذه النصوص تسفر عن انفراد النصـــوص القرآنيـــة بدقائق لا وجود لها فى النص الإنجيلى . ومن أبرز تلك الدقائق ما يلى :

أولاً : فى سورة آل عمران :

(أ) تقدم على قصـــة البشـــارة فى" آل عمران" قصـــة نذر امرأة عمـــران ما فى بطنها لله محرراً . وهذا لم يرد فى النص الإنجيلى .

(ب) الإخبار بأنها ولدت أنثى " مريم " وكانت ترجو المولود ذكرا وهذا لـــم يأت فى النص الإنجيلى .

(ج) كفالة زكـــريا للمولودة "مريم " ووجود رزقها عنـــدها دون أن يعـــرف مصـــدره والله ــ سبحانه وتعالى ــ أعلم سؤاله إياها عن مصدره . وهـــذا بدوره لم يرد فى النص الإنجيلى .

(د) القرآن يربط بين قصة الدعاء بمولود لزكريا وبين قصة مولودة امـــرأة عمران . وهذا لا وجود له فى النص الإنجيلى .

(هـــ) دعاء زكريا منصوص عليه فى القرآن وليس له ذكـــر فـــى الـــنص الإنجيلى.

---

(١) مريم : ٨ - ١٥

ثانياً : فى سورة مريم :

(أ) ما رتبه زكـــريا على هبة الله له وليًّا ، وهو أن يرثـــه ويـــرث مـــن آل يعقوب . ولم يرد هذا فى النص الإنجيلى .

(ب) السبب الذى حمل زكريا على دعاء ربه وهو خوفه الموالى من ورائـــه والنص الإنجيلى يخلو من هذا .

(ج) كون زكريا أوحى لقـــومه بأن يســـبحوا بكرة وعشيًّا . ولا وجود لهذا فى النص الإنجيلى .

(د) الثناء على المولود " يحيى " من أنه بار بوالديه عليـــه ســـلام الله يـــوم ولادته ويوم موته ويوم بعثه حيًّا ورد فى القرآن ولا مقابل له فـــى الـــنص الإنجيلى .

هذا كله جديد خاص بالقرآن لا ذكر له فى سواه . وهذا يعنى أن القرآن قد صور الواقعة المقصوصة تصويراً أمينًا كاملاً .

وهذه هى المهـــمة الأولى التى تعـــقب بها القـــرآن المهـــيمن ما ورد فى الإنجيل المذكور .

وبقيت مهمة جليلة ثانية قام بها القرآن المهيمن نحو النص الإنجيلـــى ، كما قام بمثلها نحو النصوص التوراتية المتقدمة . وتلك المهمة هى : تصحيح الأخطاء التى وردت فى النص الإنجيلى .

ومن ذلك :

(أ) النص الإنجيلى يجعل الصمت الذى قام بزكريا عقوبة له من الملاك .

فصحح القرآن هذه الواقعة ، وجعل الصمت استجابة لدعاء زكريا ربه . وقد حرص على هذا النصان القرآنيان معاً . ففى آل عمـــران ﴿ **قـــال رب اجـــعل لى آية قال آيتك ألا تكلـــم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً** ﴾ وفى مريم : ﴿ **قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا** ﴾ .

فالصمت كان تكريما لزكريا ــ عليه السلام ــ من الله ، وليس عقــوبة من الملاك ، وقد انساق بعض مفسرى القرآن الكريم وراء هــذا التحريــف الإنجيــلى فقال : إن الصمت كان عقوبة لزكريا ، ولكــن مــن الله لا مــن الملاك .

وها نحن نرفض هذا كله سواء كان القائل به مسلما أو غيرمسلم .

فما هو الذنب الذى ارتكــبه زكــريا حــتى يعــاقــب من الله أو حتى من الملاك ؟!

هل إقراره بكبر سنه وعقر امرأته هو الذنب ؟!

لقد وقع هذا من إبراهيم عليه السلام حين بشر بإسحق ، ووقع من سارة حــين بشرت به فلم يعاقب الله منهما أحداً .

وقد وقع هذا من " مريم " حين بُشِّرَتْ بحملها بعيسى ولــم يعاقبهــا الله عليه . فما السر فى ترك إبراهيم وسارة ومريم بلا عقوبة وإنزالها بزكريــا وحده مع أن الذى صدر منه صدر مثله تماماً من غيره .

أفى المسألة محاباة ..؟! كلا .. فالله لا يحابى أحداً .

إن أكبر دليل على نفى هذا القول هو خلو النصوص القرآنيــة منــه ، وليس هذا تعصباً منا للقرآن . وإنما هو الحق ، والمســلك الكــريم اللائــق بمنزلة الرسل عند ربهم .

إن الصمت الذى حل بزكريا كان بالنسبة لتكليم الناس ، ومع هذا فقــد ظل لسانه يلج بحمد الله وتسبيحــه فى العشى والإبكار كما نــص القــرآن الأمين .

(ب) النص الإنجيلى يحدد مدة الصمت بخروج زكريا من الهيكل إلى يوم أن ولد يحيى .

وهذا خطأ ثانٍ صححه القرآن المهيمن فجعل مدته ثلاثة أيام بلياليهن بعد الخروج من المحراب .

(ج) النص الإنجيلى يجعل البشارة على لسان ملاك واحد ، بينما النصان القرآنيان يجعلانها على لسان جمع من الملائكة : ﴿ **فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب** ﴾ (١) .

﴿ **يا زكريا إنا نبشرك بغلام ..** ﴾ (٢) .

وهذا خطأ ثالث وقع فيه النص الإنجيلى فصححه القرآن الأمين .

(د) النص الإنجيلى يجعل التسمية بـ " يحيى " يوحنا من اختيار زكريا بيد أن الملاك قد تنبأ بها .

وهذا خطأ رابع صححه القرآن الأمين فجعل التسمية من وحى الله إلى زكريا : ﴿ .. **اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا** ﴾ (٣) .

(هـ) النص الإنجيلى يقول : " إن زكريا حين جاءه الملاك ـ وقع عليه خوف واضطراب ".

وقد خلا النص القرآنى من هذا .. فدل خلوه منه على أنه لم يقع .

ذلك أن القرآن الحكيم عَوَّدَنَا فى قَصِّه للوقائع المناظرة لهذه الواقعة أن يسجلها إذا حدثت ولا يهملها ، بدليل أنه قد نَصَّ عليها فى واقعة السحرة مع موسى عليه السلام فقال : ﴿ **فأوجس فى نفسه خيفة موسى** ﴾ (٤) . وقال فى شأنه كذلك عند انقلاب العصى حية لأول مرة : ﴿ **فلما رآها تهتز كأنها جَانٌّ ولَّى مُدبِراً ولم يُعَقِّبْ** ﴾ (٥) . وحكاها عن إبراهيم عليه السلام حين جاءته الملائكة تبشره فقال حكاية عن إبراهيم لضيوفه : ﴿ **إنا منكم وجلون** ﴾ (٦) . وحكاها عن مريم حين جاءها الملك : ﴿ **قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا** ﴾ (٧) .

---

(١) آل عمران : ٣٩ .
(٢) مريم :٧ .
(٣) مريم :٧ .
(٤) طه : ٦٧ .
(٥) القصص : ٣١ .
(٦) الحجر : ٥٢ .
(٧) مريم : ١٨ .

وحِرْصُ القرآن على ذكر هذا الانفعال (الخــوف ، إذا حدث) يــدل على أن خلوه منه بالنســبة لزكريا دليل على أنه لم يقــع منه خــوف قط ، وهذا " الخلو "يعتبر تصحيحاً لما ورد فى الإنجيل من نسبة حدث إلى زكريا هو فى الواقع لم يصدر منه .

فهذه خمسة أخطاء قام بتصحيحها القرآن الأمين نحو نصوص الإنجيل المذكورة هنا فى المقارنة . وبهذا نقول :

إن القرآن أدى هنا فى تعقبه للنص الإنجيلى مهمتين جليلتين :

الأولى : تصوير الواقعة المقصوصة تصويراً أميناً كاملاً .

الثانية : تصحيح الأخطاء الواردة فى النص الإنجيلى المقارن .

وقفة أخيرة مع دعوى الاقتباس :

موضوع الدعوى ــ كما يروج لها المبشرون ــ أن القرآن اقتبس من الكتاب المقدس كل قصَصِهِ التاريخى .

والواقعة التى هى موضوع دعوى الاقتباس ــ هنا ــ هى حادثــة تاريخيــة دينية محددة ببشارة زكريا عليه السلام بيحيى عبد الله ورسوله ووثائق تســجيلها هما : الإنجيل ، ثم القرآن الأمين .

وصلة الإنجيل بالواقعة المقصوصة أنه سجلها ــ فرضًا ــ بعد زمــن وقوعها بقليل ؛ لأن عيسى كان معاصراً ليحيى ــ عليهما السلام ــ وصلة القرآن الأمين بها أنه سجلها بعد حــدوثها بزمن طــويل " حوالى ســبعمائة سنة " .

وقرب الإنجيل من وقوع الحادثة المقصوصة ، وبُعد القــرآن الزمنــى عنها يقتضى ــ إذا سلمنا جدلاً بدعوى الاقتبــاس المطروحــة ــ أن يــأتى الاقتباس على إحدى صورتين :

أولاهما : أن يقتبس القرآن جزءًا مما ورد من القصة الكلية فى الإنجيل . وتظل القصة فيه ناقصة عما هى عليه فى المصدر المقتبس منه (الإنجيل) على حسب زعمهم .

ثانيهما : أن يقتبس القرآن القصة كلها كما هى فى الإنجيل بلا نقص ولا زيادة ، سواء أخذها بألفاظها أو صاغها فى أسلوب جديد (البلاغة العربية كما يدعون) ، بشرط أن يتقيد بالمعانى الواردة فى المصدر المقتبس منه ؛ لأن الفرض قائم (حتى الآن) على أن القرآن لم يكن له مصدر يستقى منه الواقعة غير الإنجيل المقتبس منه .

ومحظور على القرآن ــ عملا بهذه القيود التى تكتنف قضية الاقتباس للوقائع التاريخية من مصدرها الأوحد ــ أن يأتى بجديد أو يضيف إلى الواقعة ما ليس فى مصدرها الأوحد .

فماذا صنع القرآن إذن ؟

هل اقتبس من الإنجيل جزءًا من الواقعة ؟ أم الواقعة كلها ؟!

دائراً فى فلك الإنجيل دورة ناقصة أو دورة كاملة ؟!

لو كان القرآن قد فعل هذا : اقتبس جزءاً من الواقعة كلها ، وَ لَوْ مع صياغة جديدة لم تغير من المعنى شيئا ؛ لكان لدعوى الاقتباس هذه ما يؤيدها من الواقع القرآنى نفسه . ولما تردد فى تصديقها أحد .

ولكننا قد رأينا القرآن لم يفعل شيئًا مما تقدم . لم يقتبس جزءاً من الواقعة ولا الواقعة كلها .

وإنما صورها تصويراً أميناً رائعاً . سجل كل حقائقها ، والتقط ــ بعدساته ــ كل دقائقها . وعرضها عرضاً جديداً نقيًّا صافياً ، وربط بينها وبين وقائع كانت كالسبب الموحد لها فى بناء محكم وعرض أمين .

ولم يقف القرآن عند هذا الحد .. بل قام بإضافة الكثير جدًّا من الجديد الذى لم يعرفه الإنجيل . وصحح كثيراً من الأخطاء التى وردت فيه بفعل

التحريف والتزوير . إما بالنص وإما بالسكوت . وهذا لا يتأتى من مقتـــبس ليس له مصدر سوى ما اقتبس منه .

وإنما يتأتى ممن له مصدره ووسائله وسلطانه المتفوق ، بحيث يتخطى كل الحواجز ، ويسجل الواقعة من " مسرحها " كما رآها هو ، وعقلها هو ، وسجلها هو . وكان هذا هو القرآن .

إن المصدر الوحيد للقرآن هو الوحى الصادق الأمين .. وليس ما سجله الأحبار والكهان ، والفريسيون ، والكتبةَ فى توراة أو أناجيل .

إن مقاصـــد القـــرآن وتوجيـــهاته وكل محتوياتـــه ليس فـــى التـــوراة ولا فى الإنجيل منها شىء يذكر . وفاقد الشىء لا يعطيه . هذا هـــو حكـــم العقل والعلم ، ومن لم يخضع لموازين الحق من عقل وعلم ونقل فقد ظلـــم نفسه .

الشبهة الثانية عشرة

رفع المعطوف على المنصوب

منشأ هذه الشبهة :

﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (١) .

هذه الآية هى منشأ هذه الشبهة عندهم ، لأنهم نظروا فيما بعد " الواو " فى " الصابئون " وقارنوا بينه وبين " الذين آمنوا " الواقع بعد " إن " وهى حرف ناسخ ينصب " المبتدأ " ويرفع " الخبر " واسم " إن " ـ هنا ـ هو " الذين " وهو مبنى لأنه اسم موصول .

وقد عطف عليه " الذين هادوا " أما " الصابئون " فجاءت مرفوعة بـ"الواو" لأنها جمع مذكر سالم وجاء بعدها " النصارى " .

وكل من " الذين " فى الموضعين السابقين على " الصابئون " وكذلك " النصارى " إعرابها تقديرى لا يظهر لا فى الخط ولا فى النطق ، وذلك لأن الاسم الموصول " الذين " من المبنيات على حالة واحدة ، أما "النصارى" فهو اسم مقصور ، يتعذر ظهور حركة الإعراب عليه ، وهى ـ هنا ـ الفتحة ، و " الراء " مفتوحة أصالة ، ومحال أن تظهر فتحتان على موضع واحد . سواء كانت الحركتان مختلفتين ، كفتحٍ وضمٍ ، أو متجانستين ، كفتحتين وضمتين .

---

(١) المائدة : ٦٩ .

وخصوم القرآن نظروا فى نظم هذه الآية الحكيمة وقالوا إن فيها خطـــأ لغوياً (نحوياً) ؛ لأن " الصابئون " معطوفة علـــى منصـــوب " إن الذيـــن آمنوا " فكان حقها أن تنصب ، فيقال " والصابئين " لكنها جـــاءت مرفوعـــة بـــ " الواو " هكذا " والصابئون " وهدفهم من تصيد هذه الشبهات إثبات :

- أن فى القرأن تحريفاً لمخالفته بدهيات القواعد النحوية .
- أو هو ليس من عند الله ، لأن ما كان من عند الله لا يكون فيه خطأ .

الرد على الشبهة :

للنحاة والمفسرين فى توجيه رفع " الصابئون " فى هذه الآية عدة آراء ، منها ما هو قوى مشهود له فى الاستعمال اللغوى عند العرب الخلص ، ومنها ما هو دون ذلك ، وقد بلغت في جملتها تسعة توجهات نذكر منها ما يلى :

الأول : ما قاله جمهور نحاة البصرة ، الخليل وسيبويه وأتباعهما ، قالوا : إن " الصابئون " مرفوع على أنه " مبتدأ " وخبره محذوف يدل عليه خبر ما قبله " إن الذين آمنوا " قالوا : والنية فيه التأخير ، أى تأخير " والصابئون " إلـــى ما بعد " والنصارى " . وتقدير النظم والمعنى عندهم : " إن الذيـــن آمنـــوا والذين هادوا والنصارى من آمن منهم بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون كذلك " [1] .

ومن شواهد هذا الحذف عند العرب قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بمـــا

عندك راض والرأى مختلف

---

(١) انظر : الدر المصون للسمين الحلبى (٣٥٤/٤) .

فقد حذف الخبر من المبتدأ الأول ، وتقديره " راضون " لدلالة الثـــانى عليه " راض " .

والمعنى : نحن بما عندنا راضون ، وأنت بما عندك راض .

وقول الآخر :

ومن بك أمسى بالمدينة رحلـــه

فإنى وقيَّار بها لغريب

والتقدير : فإنى لغريب وقيار كذلك .

وقول الشاعر :

وإلا فاعلموا أنَّا وأنتـــــم

بغاة ما بقينا فى شقاق

الشاعر يصف الفريقين أنهم " بغاة " إن استمروا فى الشقاق ، والتقدير : اعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك .

وهكذا ورد فى الاستعمال اللغوى عند العـــرب ، أن الجملـــة الاســـمية المؤكدة بـــ " إن " يجوز أن يذكر فيها مبتدأ آخر غير اسم " إن " وأن يذكـــر خبر واحد يكون لاسم " إن " ويحذف خبر المبتدأ الثانى لدلالة خبر اسم "إن " عليه ، أو يحذف خبر اسم " إن " ويكون الخبر المذكور للمبتدأ الثانى دليـــلاً على خبر اسم " إن " المحذوف ونظم الآية التى كانت منشأ الشـــبهة عندهـــم لا يخرج عن هذه الأساليب الفصيحة ، التى عرفناها فى الأبيـــات الشـــعرية الثلاثة ، وهى لشعراء فصحاء يستشهد بكلامهم .

الثانى : أن " إن " فى قوله تعالى : " إن الذين آمنـــوا " ليســـت هـــى " إنَّ " الناسخة ، التى تنصب المبتدأ وترفع الخبر ، بل هى بمعنى : نعـــم ، يعنـــى حرف جواب ، فلا تعمل فى الجملة الاسمية لا نصباً ، ولا رفعاً ، وعلى هذا

فالذى بعدها مرفوع المحل ، لأن " الذين " اسم موصول ، وهو مبنـــى فـــى محل رفع ، وكذلك " الصابئون " فإنه مرفوع لفظاً ، وعلامة رفعه " الــواو " لأنه جمع مذكر سالم ، مفرده " صابئ " .

وقد استعملها العرب كذلك . قال قيس بن الرقيات :

برز الغوانى من الشــباب

يلمننى ، وآلو مهنَّهْ

ويقلن شيبٌ قد عـــــلاك

وقد كبرتَ ، فقلت إنَّهْ [1]

أى فقلت : نعم .

وعلى هذا فإن كلا من " الذين " و " الصابئون " والنصــارى ، أســماء مرفوعة إما محلاً ، وهما : الذين " فهى مبنية فى محل رفع ، والنصـــارى مرفوعة بضمة مقدرة لأنها اسم مقصورٍ لا تظهر على آخـــره حركــات ، وإما لفظاً مثل : " الصابئون " فهى مرفوعة لفظاً بواو الجماعة .

وعليه ــ كما كان فى المذهب الأول ــ فلا خطأ فى الآيــة كمــا زعــم خصوم القرآن .

أما المفسرون فقد اختار الزمخشرى منهم المذهب الأول المعــزو إلـــى جمهور علماء البصرة ، ومن شيوخهم الخليل وسيبويه ، فقال :

" والصابئون " رفع على الابتداء ، وخبره محذوف والنية به [2] التأخير عما فى حيز إن من اسمها وخبرها كأنه قيل :

---

(١) البيتان فى ديوانه (٦٦) والكتاب لسيبويه (٤٧٥/١) .

(٢) الضمير فى " به " عائد على " الصابئون " يعنى أن حقه أن يذكر بعد النصارى ، ولكنه قُـــدِّم مــن تأخير .

" إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كـــذا ، والصـــابئون كذلك " (١) .

وقال الإمام الشوكانى :

" والصابئون " مرتفع على الابتداء ، وخبره محـــذوف والتقديـــر : إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فـــلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون والنصارى كذلك " (٢) .

وقد ألمح الإمام الشوكانى إلى إضافة جديدة خالف بها كلا من الخليـــل وسيبويه والزمخشرى ؛ لأن هؤلاء جعلوا " الصابئون" مقدما من تأخير كمـــا تقدم ، أما هو فجعله قاراً فى موضعه غير مقدم من تأخير بدليل قوله :

" والصابئون والنصارى كذلك " وهذه إضافة حسنة ومقبولة . وعليـــه يمكن جَعْل " النصارى " مرفوعة عطفاً على " الصابئون " ولا حاجـــة إلـــى جعلها منصوبة عطفاً على " إن الذين آمنوا " ، والواقع أن هذا المذهـــب ــ على جملته ــ الذى ذهب إليه جمهور علماء البصرة ، وتابعهم فيـــه الإمـــام الشوكانى هو أقوى ما أورده النحاة فى توجيه رفع " الصابئون " فـــى هـــذه الآية الكريمة . أما بقية الآراء ، فهى دون ذلك بكثير (٣) .

هذا هو توجيه رفع " الصابئون " عند جمهور النحاة والمفسرين ، أمـــا توجيهه بلاغة فهو ما يأتى :

إن مخالفة إعراب " الصابئون " عما قبلها سواء كانت مقدمة من تـــأخير على رأى الجمهور أو غير مقدمة على رأى الإمام الشـــوكانى وآخريـــن (٤)

---

(١) الكشاف (٦٣٠/١) .

(٢) فتح القدير (٧١/٢) .

(٣) انظر : تفاصيل هذه الآراء وشواهدها ومناقشتها فى " الدر المصون " للسمين الحلبى (٣٥٢/٤) ومـــا بعدها .

(٤) انظر : المصدر السابق (٣٦٠/٤) .

وعما بعدها إن قدرنا " والنصارى " معطوفاً على " إن الذين آمنوا والذيـــن هادوا ، بأن هذه المخالفة لمحة بلاغية رائعة ؛ تشير إلى وجود فرق كبـــير بين هذه الطوائف الأربع :

- الذين آمنوا .
- الذين هادوا .
- النصارى .
- الصابئون .

فالطوائف الثلاث الأولى يربط بينها رابط قوى هو أن كل طائفة منـــها لها كتاب ورسول من عند الله عز وجل .

فالذين آمنوا لهم كتاب هو القرآن ، ورسول هو محمد ﷺ .

والذين هادوا لهم كتاب هو التوراة ، ولهم رسول هو موسى عليه السلام.

والنصارى لهم كتاب هو الإنجيل ، ولهم رسول هو عيسى عليه السلام .

أما الصابئون ، فليس لهم كتاب ولا رسول ، وهم على ضلال مطبـــق لا ذرة من هداية فيه .

والمقام الذى تتحدث عنه الآية هو فتح باب القبول عند الله لكل من آمـن إيماناً صحيحاً صادقاً وداوم على عمل الصالحات . فالإيمان يمحو ما قبلـــه ولا ينظر الله إلى ماضيهم الذى كانوا عليه من كفر ومعاصٍ ، والآية بـــدأت بالذين آمنوا ليستمروا على إيمانهم الذى هم فيه ، ويلتزموا بعمل الصالحـات والله سيجزيهم خير الجزاء على إيمانهم المستمر ، وصلاحهم الدائم [1] .

---

(١) بعض العلماء يفسر " الذين آمنوا " فى الآية بأنهم المنافقون لأنـــهم غـير مؤمنيـن فـى البـاطن . والأصوب ما أثبتناه ، وهو أن المراد هم الذين آمنوا فعلاً ، ويكون المطلوب منهم أمرين ثباتهم علـى هذا الإيمان . ثم إدامة عمل الصالحات . كما فى قوله تعالى :﴿ **يا أيها الذين آمَنـــوا آمِنـوا بـالله ورسوله** ﴾ النساء : ١٣٦ . أى : دوموا على إيمانكم .

ثم ثنت بالذين هادوا ، يعنى : اليهود ، وهم كانوا فى عصـــــر نـــزول القرآن قد غالوا فى دينهم ، وحادوا عن الحق ، وغيَّروا وبدَّلوا فيما أنزله الله على أنبيائهم فوعدهم الله إذا آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً ، وتابوا إلى الله مـــن كل ما ابتدعوه فى عقائدهم واتبعوا ما أنزل الله على خـــاتم رســـله ؛ بأنـــهم سيكونون فى أمنٍ من عذاب الله ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وكذلك النصارى حيث جعلوا لله صاحبة وولدا وغالوا كثيراً فى دينهم ، إذا آمنوا إيماناً صحيحاً صادقاً ، وبرئوا مـــن عقـــائدهم التـــى ابتدعوهـــا ، وأصلحوا شأنهم ، وآمنوا بما أنزله الله على خاتم رسله ، ولزمـــــوا العمـــل الصالح ، كان سعيهم عند الله مشكورا ، ووقاهم الله عز وجل من الخـــــوف والحزن يوم يقوم الناس لرب العالمين .

ثم زاد الله فى ترغيب هذه الفرق الثلاث فيما عنـــده بـــأن يجعـــل هـــذا الفضل للصابئين الذين خرجوا عن جميع الرسالات السماوية ، وإذا كـــان الله يقبل منهم إيمانهم إذا آمنوا ، ويثيبهَم على عمل الصالحات . فإن الذين آمنـــوا واليهود والنصارى أولى بالقبول عند الله ، إذا آمنوا وعملوا الصالحات .

ومن أجل هذا خولف إعراب و " الصابئون " ليلفت الأذهان عند قـــراءة هذه الآية أو سماعها إلى الوقوف أمام هذه المخالفة ، وليتساءل القـــــارئ أو السامع ما سبب هذه المخالفة ، ثم يقوده هذا التساؤل إلى الحصول على هـــذا المعنى الذى تقدم .

فهذه المخالفة أشبه ما تكون بالنبر الصوتى فى بعض الكلمات ، التـــــى يراد لفت الأنظار إليها عند السامعين ؛ قالوا : والواو فـــــى " والصـــابئون " ليست لعطف المفردات على نظائرها ، وإنما هى لعطف " الجمل " و" الواو " التى تعطف جملة على أخرى لا تعمل فى مفـــــردات الجملـــة المعطوفـــة ، لا رفعا ولا نصبا ولا جرا . بل تربط بين الجملتين المعطوفة والمعطـــــوف عليها فى المعنى دون الحركات الإعرابية .

ولهذه الآية نظائر فى مخالفة إعرابها لما قبلـــها اتخـــذ منـــها خصـــوم القرآن منشأ لشبهات مماثلة وسيأتى الحديث عنها كلا فىموضعه إذا شاء الله تعالى .

والخلاصة :

إن هذه الآية : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصـــارى من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾ تخلو من أى خطأ نحوى أو غير نحوى . بـــل هى فى غاية الصحة والإعجاز ، وقد بينا وجوه صحتها ، والمعانى البيانيـــة التى ألمح إليها رفع " الصابئون "وهؤلاء الذين يلحدون فى آيات الله لا دراية لهم بالنحو ولا بالصرف ولا بالبلاغة ، وليسوا هم طلاب حق ، ولا بـــاحثين عنه ، والذى سيطر على كل تفكيرهم هو البحث " عن العورات " فى كتـــاب لا عورات فيه بل هو أنقى وأبلغ وأفصح وأصح ، وأصدق بيان فى الكـــون كله ، ولا يأتوننا بمثل إلا جئناهم بالحق وما هم بسابقين .

الشبهة الثالثة عشرة

نصب المعطوف على المرفوع

وتكلموا على هذه الشبهة فى آيتين :

الأولى :

هو قوله تعالى : ﴿ **لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً** ﴾ (١) .

نظروا فى هذه الآية، فوقعت أعينهم على كلمة " المقيمين " فقارنوا بينها وبين ما قبلها : " الراسخون " ــ " المؤمنون " وبين ما بعدها " المؤتون " ــ " المؤمنون " فوجدوا ما قبلها وما بعدها مرفوعاً بـ " الواو " لأنه جمع مذكر سالم ؛ أما " المقيمين " فوجدوها منصوبة بـ " الياء " لأنها كذلك جمع مذكر سالم .حقه أن يرفع بـ " الواو " ينصب ويجر بـ " الياء ". وسرعان ما صاحوا وقالوا إن فى القرآن خطأ نحوياً من نوع جديد ، هو " عطف المنصوب على المرفوع ، أو نصب المعطوف على المرفوع " . ثم علقوا قائلين :

" وكان يجب أن يرفع المعطوف على المرفوع فيقول : " والمقيمون الصلاة " ، هذا هو مبلغهم من الجهل ، أو حظهم من العناد وكراهية ما أنزل الله على خاتم رسله ﷺ .

---

(١) النساء : ١٦٢ .

الرد على الشبهة :

هذه الآية وردت فى سياق الحديث عن اليهود تتصف من استحق الإنصاف منهم ، بعد أن ذم الله تعالى من عاند منهم ، وحاد عن الحق ، فى الآيات التى سبقت هذه الآية .

ومجيء " المقيمين " بالياء خلافا لنسق ما قبله وما بعده لفت أنظار النحاة والمفسرين والقراء ، فأكثروا القول فى توجيهه ــ مع إجماعهم على صحته .

وقد اختلفت أراؤهم فيه وها نحن نقتصر على ذكر ما قل ودل منها فى الرد على هؤلاء الكارهين لما أنزل الله على خاتم رسله ﷺ ولن نذكر كل ما قيل توخياً للإيجاز المفهم .

وأشهر الآراء فيها أن " المقيمين " منصوب على الاختصاص المراد منه المدح فى هذا الموضع بدلالة المقام ؛ لأن المؤدين للصلاة بكامل ما يجب لها من طهارة ومبادرة وخشوع وتمكن ، جديرون بأن يُمدحوا من الله والناس .

يقول الإمام الزمخشرى :

" و " المقيمين " نُصِبَ على المدح ، لبيان فضل الصلاة وهو باب واسع ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحناً فى خط المصحف ، وربما التفت إليه من لم ينظر فى الكتاب ، ولم يعرف مذاهب العرب ، وما لهم فى النصب على الاختصاص من الافتنان " [1] .

الزمخشرى أوجز كلامه فى الوجه الذى نُصب عليه " المقيمين " وهو الاختصاص مع إرادة المدح [2] .

---

(١) الكشاف (٥٨٢/١) .

(٢) الاختصاص هو مخالفة إعراب كلمة لإعراب ما قبلها بقصد المدح كما فى هذه الآية ، أو الذم . ويسمى الاختصاص والقطع .

ومع إيجازه فى عبارته كان حكيماً فيها ، ومن الطريف فى كلامه إشارته إلى خطأ من يقول إن نصب " المقيمين " لحن فى خط المصحف ــ لا سمح الله ــ ثم وصفه بالجهل بمذاهب العرب فى البيان ، والتفنن فى الأساليب ، وكأنه ــ رحمه الله ــ يتصدى للرد على هؤلاء الطاعنين فى القرآن ، الذين نرد عليهم فى هذه الرسالة .

والرأى الذى اقتصر عليه الإمام الزمخشرى هو المشهور عند النحاة والمفسرين والقراء .

وقد سبق الزمخشرى فى هذا التوجيه شيخ النحاة سيبويه (١) وأبو البقاء العكبرى (٢) .

وهذا الاختصاص أو القطع بيان لفضل الصلاة التى جعلها الله على الناس كتاباً موقوتاً ، وأمر عباده بإقامتها والمحافظة عليها فى كثير من آيات الكتاب العزيز ومثَّلها رسوله ﷺ ــ كما فى صحيحى البخارى ومسلم ــ بالنهر ، الذى يستحم فيه المكلف فى اليوم خمس مرات ، فيزيل كل ما علق بجسمه من الأدران والأوساخ ، وكذلك الصلوات الخمس فإنها تمحو الخطايا ، وتزيل المعاصى كما يزيل الماء أدران الأجسام .

أما الآراء الأخرى فكثيرة ، ولكنها لا تبلغ من القوة والشيوع ما بلغه هذا الرأى ، وهو النصب على الاختصاص أو القطع .

وقد أوردوا عليه شواهد عدة من الشعر العربى المحتج به لغوياً ونحوياً . ومن ذلك ما أورده سيبويه :

---

(١) الكتاب (٢٤٨/١) .

(٢) إملاء ما من به الرحمن (٢٠٢/١) .

ويــأوى إلى نســوة عُطَّلٍ

وشُعْثاً مراضيع مثل الثعالى

ومنها قول الخرنق بنت هفان :

لا يبعدنْ قومى الذين همو

سَمُّ العــداة وآفــة الجزْر

النازلين بكل معتـــــركٍ

والطيبون معاقد الأُزُر (١)

والشاهد فى هذه الأبيات ، نصب " شُعثا " فى البيتين الأوليـــن وهــو معطوف على مجرور " عُطَّلٍ " .

والشاهد فى البيتين الآخرين نصب " النازلين " وهو معطـــوف علــى مرفوع ، وهو " سمُّ العداة " .

هذا ، وقد قلنا من قبل إن القرآن غير مفتقر إلى شواهد من خارجه على صحة أساليبه ، ومع هذا فإن ورود هذه الشواهد نرحب به ولا نقلـــل مــن شأنه ، ومنهم من جعل " المقيمين " مجروراً لا منصوباً ، وقال إن جره لأنه معطوف على الضمير المجرور محلاً فى " منهم " والمعنى على هذا :

لكن الراسخون منهم والمقيمين الصلاة .

وبعضهم قال إنه مجرور بالعطف على الكـــاف فــى " أنــزل إليــك "

وبعضهم قال إنه مجرور بالعطف على " ما " فى " بما أنزل إليك " .

أو هو مجرور بالعطف على " الكاف " فى " قبلك " (٢) .

---

(١) انظر : فى هذه الشواهد الدر المصون (٤/١٥٤) .

(٢) انظر : الدر المصون (٤/١٥٥) .

والخلاصة :

إن الذى ينبغى الركون إليه ــ لقوته ــ هو الرأى الأول ، المنسوب إلى سيبويه وأبى البقاء العكبرى والزمخشرى وابن عطية ، أما ما عداه من آراء فلا تخلو من التكلف أو الضعف .

أما النصب على الاختصاص فلا مناص من قبوله ؛ لأنه أسلوب شائع فى الاستعمال اللغوى العربى ، وفيه من البلاغة أمر زائد على مجرد التوجيه النحوى ، الذى لا يتجاوز بيان عامل النصب أو الجر .

الثانية :

قوله تعالى : ﴿ .. **والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس** ﴾ (١) .

وشاهدهم على هذه الشبهة هو قوله سبحانه : " والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس " لأنه جاء منصوباً بـ " الياء " بعد قوله تعالى : " والموفون بعهدهم إذا عاهدوا " .

وكان يجب أن يرفع المعطوف ــ يعنى : الصابرين ــ على المرفوع ــ يعنى : الموفون ــ فيقول : والموفون والصابرون "، هذا قولهم .

الرد على الشبهة :

يُحسن بنا أولاً أن نذكر هذه الآية بتمامها لننظر فيها نظرة جُملية قبل مواجهة ما آثاره الخصوم حولها :

---

(١) البقرة : ١٧٧ .

(١) ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ .

(٢) ﴿ وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ﴾ .

(٣) ﴿ وأقام الصلاة وآتى الزكاة ﴾ .

(٤) ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴾ .

(٥) ﴿ والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ .

ترى أننا وزعنا كلمات هذه السورة على وحدات كل وحدة منها تضم معانى وقيماً متجانسة .

- **الوحدة الأولى** : قيم إيمانية تنتظم تحت مفهوم العقيدة وهى : الإيمان بالله ، وباليوم الآخر ، وبالملائكة ، وبالوحى ، ثم بالأنبياء والرسل ﷺ .
- **والوحدة الثانية** : تنتظم عناصرها تحت مبدأ " الإنفاق المالى الحر (غير الزكاة) ويبين الله فيها الصفات التى تتحقق فى المنفق عليه ، وهم :

ـ ذوو القربى من النسب .

ـ اليتامى مهما تباعدت صلتهم عن المنفق .

ـ المساكين ، الذين ليس لهم مصدر رزق كسبى ، إما لعدم وجود عمل ، أو لعجز عنه .

ـ الغرباء الذين تعوزهم الحاجة فى السفر ، وليس معهم مال وإن كانوا أغنياء فى بلادهم .

ـ المحتاجون ـ حقا ـ الذين يستعطفون الناس لسد حاجتهم فى غير معصية .

ـ عتق الرقاب من الرق ، إما تطوعاً ، أو كاتب السيد عبده على مقدار من المال ليصير حراً .

- **والوحدة الثالثة** : يندرج عنصراها : الصلاة والزكاة تحت ركنين عمليين من أركان الإسلام ، والزكاة إنفاق واجب ، وليس حراً .
- **والوحدة الرابعة** : هى حسن المعاملة مع الناس بوفاء الوعد العهد .
- **والوحدة الخامسة** : تنتظم عناصرها تحت مبدأ الصبر الجميل فى كل عمل خير يؤديه المكلف ، وبخاصة فى الشدائد والمحن وملاقاة العدو .
- **أما الوحدة السادسة** : فهى بيان فضل هؤلاء المذكورين فى الآية ، وبخاصة ما ذكر قبل الفاصلة مباشرة ، ومنزلتهم عند الله :

" **أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** " .

وإذا تأملت هذه الوحدات ، وعناصرها المندرجة تحتها ، وجدت أن أشدها وقعاً على النفس ، وأكثرها أعباء ، وأشقها كلفة ، هى الصبر فى المحن والشدائد والأخطار ، وبخاصة فى ملاقاة العدو ، والتعرض لزحفه وسلاحه ، وقد يفضى بالإنسان إما إلى حدوث عاهات مؤلمة فى الجسم ، وإما إلى الموت . فالمقاتل فى ساحات الكر والفر إنما يصارع الموت ، ومقدمات الموت .

ولهذا جاء إعراب " الصابرين " مخالفاً لإعراب ما قبلها ، ليلفت الله أذهان العباد إلى أهمية الصبر فى هذه المجالات ، وهذا الإعراب المخالف لما قبله يفيد مع تركيز الانتباه ، وتوفير العناية بتأمّل هذا الخلق العظيم ، يفيد أمراً آخر مبهجاً للنفوس ، هو مدح هؤلاء الصابرين شديدى العزيمة ، قويى الاحتمال .

فانظر إلى نفائس هذه المعانى ، التى دل عليها نصب " الصابرين " مع كون ما قبله مرفوعاً . إنها بلاغة القرآن المعجز ، وعبقرية اللغة العربية لغة التنزيل الحكيم .

وهذا الإعراب المخالف لإعراب ما قبله ، هو الـــذى يســميه النحــاة واللغويون بـــ " القطع " كما تقدم فى نظيريه فى هذه الدراسة ، إما للمدح كما فى هذه الآية ، وآية النساء " والمقيمين الصلاة " وقد تقدمت .

وإما بقصد الذم ، كما فى قوله تعالى فى سورة المسد " **وامرأته حمالــةَ الحطب** " أى امرأة أبى لهب التى كانت تحمل الشوك وتنـــثره فـــى طريــق رسول الله ﷺ لتؤذيه . لأن كلمة " حمالة " جاءت منصوبة بعد رفع ما قبلها ، وهى " امرأتُه " فهذا قطع كذلك ، القصد منه الذم ، أى : أذم أو ألعن حمالــة الحطب .

وأياً كان القطع للمدح أو الذم ، فإنه من أرقـــى الأســاليب البلاغيــة ، يحتوى على فضيلة الإيجاز وهى أن تكون المعانى أكثر وأوفر من الألفـــاظ التى تدل عليها ، أو المستعملة فيها ، لأن كل كلمة قُطِعَ إعرابها عما قبلـــها نابت هذه الكلمة مناب ثلاثة قيم بيانية ، رامزة إلى وجودها فى المقــلم ، وإن كانت محذوفة وهى :

١ ــ الكلام الذى عمل الإعراب المخالف فى الكلمة المقطوع إعرابها عـــن إعراب ما قبلها ، وهو فى " الصابرين " أمدح أو أخص الصابرين بــالمدح . وفى آية " المسد " أذم أو ألعن .

٢ ــ إفادة المدح أو الذم بغير الألفاظ التى تدل عليهما .

٣ ــ فضيلة الإيجاز البيانى المفعم بالمعانى الآسرة والـــدلالات الســاحرة . فسبحان من هذا كلامه !

والخلاصة :

بعد هذا البيان الموجز ، وإن طال ، لا أرانا فـــى حاجــة إلـــى ذكــر توجيهات النحاة والمفسرين وعلماء القراءات واللغويين ، لمجئ " الصابرين "

منصوباً بعد مرفوع فى هذه الآية ، لأن توجيهاتهم ــ هنا ــ مثل توجيهاتــهم هناك ، ولسنا فى حاجة كذلك إلى الاستشهاد بالمأثور عن العرب الذين يحتج بكلامهم على قواعد اللغة ، وطرائق استعمالاتها ، لسنا فى حاجة إلى ذلــك ، وإن كان مفيداً ، لأن القرآن الكريم حجة فى نفسه ، غير مفتقر لإقامة الدليــل من خارجه على صحة شىء فيه ، فهو النمـــوذج الممتــاز الأعلـــى للغـــة العربية ، قواعدها ، ونحوها ، وصرفها ، وبيانها ، وبلاغتها . وحسبنا فـــى هذه الآية المعانى التى أمطنا عنها اللثام فى مجىء " الصابرين " منصوباً بعد مرفوع .

الشبهة الرابعة عشرة

نصب الفاعل

هذه شبهة خفيفة الوزن ، تدل على أمرين راسخين فيهم :

الأول : جهلهم الفاضح بقواعد اللغة العربية .

الثانى : تهافتهم الأعمى على تصيُّد الشـــبهات ، والبحــث عــن العيــوب والنقائص .

منشأ هذه الشبهة :

هو قوله تعالى : ﴿ **وإذ ابتلي إبراهيم ربه بكلمات فأتمــهن قــال إنــى جاعلك للناس إماماً ، قال : ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين** ﴾ (١) .

اطلعوا على هذه الآية فى المصحف الشريف ، ووقع بصرهم على كلمة " الظالمين " وصورت أوهامهم أن فيها خطأً نحوياً ؛ لأنـــها ــ عندهــم ــ فاعل ، والفاعل حكمه الرفع لا النصب ، فكان حقه أن يكون هكذا .

لا ينال عهدى الظالمون ، لأنه جمع مذكر سالم ، وعلامة رفعه " الـواو " وبهذا تخيلوا ، بل توهموا أن القرآن ــ لا سمح الله ــ قد أخطــأ فنصــب الفاعل " الظالمين " ولم يرفعه " الظالمون " ؟! هذا هو منشأ هذه الشبهة .

---

(١) البقرة : ١٢٤ .

الرد على الشبهة :

الفعل " نال " فعل متعدٍ إلى مفعول واحد ، قال الله تعالى :

﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً** ﴾ (١) .

الفاعل " واو الجماعة " والمفعول " خيراً " .

أما فى هذه الآية التى اتخذوها منشأ لـهذه الشـبهة " لا ينـال عـهدى الظالمين " فالفاعل هو " عهدى " ، مرفوع بضمة مقدرة ، منع من ظـهورها اشتغال المحل (٢) بحركة المناسبة لـ " ياء " المتكلم ، والمفعـول بـه هـو " الظالمين " وعلامة نصبه هى " الياء " لأنه جمع مذكر سالم ، ينصب ويجر بـ " الياء " والمعنى : لا ينفع عهدى الظالمين . ومجئ " الظالمين " منصوباً هو قراءة الجمهور من القراء .

وليس فى مجئ " الظالمين " منصوباً على المفعول بـه خـلاف بيـن العلماء . بل إنهم نصوا على أن خواص الفعل " نـال " أن فاعلـه يجـوز أن يكون مفعولاً ، ومفعوله يجوز أن يكون فاعلاً ، على التبـادل بينـهما ، قالوا : لأن ما نالك فقد نلته أنت .

وقد جاء قوله تعالى : ﴿ **لن ينال الله لحومُها ولا دماؤها ولكـن ينالـه التقوى منكم** ﴾ (٣) .

على خلاف نسق آية البقرة ، التى نحن بصدد الحديث عنها . حيث كان الوالى للفعل فيها هو الفاعل " لا ينال عهدى والواقع بعد الفاعل هو المفعـول " الظالمين " .

---

(١) الأحزاب : ٢٥ .

(٢) المحل هنا هوا " الدال " من " عهدى " .

(٣) الحج : ٣٧ .

أما فى آية الحج فإن الذى ولى الفعل " لن ينال الله " هو المفعول ، ومـا بعده هو الفاعل " لحومُها " .

والمعنى : لن يصل الله لحومُها ولا دماؤها ـ وكذلك قوله " ولكن ينالـه التقوى منكم " فالضمير فى " يناله " هو المفعول به ، أما " التقـوى " فـهى الفاعل .

الشبهة الخامسة عشرة

تذكير خبر الاسم المؤنث

الشبهة :

هو قوله تعالى : ﴿ **ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ (١) .

وموضع الشاهد ــ عند المعترضين ــ فى الآية الكريمة هو كلمة " قريب " وهى " خبر " اسم " إن " " رحمة " .

وحين نظروا فى نظم هذه الآية توهموا ــ كذلك ــ أن فيها خطأً نحوياً منشؤه عدم التطابق بين المبتدأ " رحمة " والخبر " قريب " فى التأنيث ، لأن المبتدأ " رحمت " مؤنث . أما الخبر " قريب " فهو فى الآية مذكر قالوا :

وكان يجب أن يتبع خبر " إن " اسمها فى التأنيث فيقال : قريبة .

الرد على الشبهة :

ذكر علماؤنا فى توجيه هذا " التذكير " الحاصل بحذف علامة التأنيث من الخبر ، عدة وجوه ، لا نريد أن نطيل بذكرها كلها ، لذلك نكتفى بما يرد كيد هؤلاء الطاعنين فى نحورهم .

- بعضهم يجعل " رحمة الله " فى معنى الغفران [أو الرضوان] فلذلك جاء الخبر " قريب " مذكرا .

---

(١) الأعراف : ٥٦ .

وقد اختار هذا الرأى النضر بن شميل والزجاج [1] .

* ومنهم من جعل " قريب " صفة لخبر محذوف مذكر تقديره : شيء أو أمر قريب ، ودليل هذا الحذف هو تذكير " قريب " .

* ومنهم من جعله من باب النسب ، أى ذات قرب ، كقولهم فى حـــائض : ذات حيض .

* ومنهم من جعل " قريب " مصدراً مستعملاً استعمال الأسماء مثل النقيـق ، وهو صوت الضفادع . والضغيب وهو صوت الأرنب . والمصدر يُلتزم فيه الإفراد وإن جرى على جمع ، والتذكير وإن جرى على مؤنث كما فى هـــذه الآية الكريمة .

* ويرى آخرون أن تأنيث " رحمة " لما كان تأنيثاً مجازياً لا حقيقياً جاز فى الاستعمال اللغوى تأنيث خبره وصفته ، وجاز تذكيرهما على حـــدٍ ســـواء . سواء كان فى ضرورة الشعر ، أو فى النثر .

وقال الحلبى تلميذ أبى حيان ، وهما من الأئمة الأعلام فى النحو :

" وهذا يجئ على مذهب ابن كيسان ، فإنه لا يقصر ذلك على ضرورة الشعر ، بل يجيزه فى السعة " [2] .

وقال الفراء : " قريبة وبعيدة إما أن يراد بهما قرابة النسب أو عدمـــها فيؤنثها العرب ليس إلا ، كقولهم : فلانة قريبة منى أى فى النســـب وبعيـــدة منى أى فى النسب . أما إذا أريد بها القرب المكانى أو الزمانى فإنه يجـــوز الوجهان ؛ لأن قريباً وبعيداً قائم مقام المكان أو الزمان ، فتقول :

---

(١) وعلى هذا يكون التذكير قرينة على صحة حمل " رحمـــة الله " علـــى غفـــران الله ، أو رضوانـــه . انظر : معانى القرآن للزجاج (٢/٣٨٠) .

(٢) يعنى فى النثر دون اشتراط ضرورة تدعو إليه . انظر : الدرر المصون (٥/٣٤٥) .

فلانة قريبة وقريب ، وبعيدة وبعيد ، والتقدير هى فى مكـــان قريـب وبعيد . قال الشاعر :

عشية لا عفراء منك قريبة

فتدنو ولا عفراء منك بعيد " (١)

يعنى أن الشاعر جمع بين الوجهين التـــأنيث والتذكـير والموصـوف مؤنث ؛ لأن " قريب " و " بعيد " أريد بهما القرب فى المكان والبعد فيه .

والآية الكريمة ليس القرب المذكور فيها مراداً به قرب النســب فيلـزم تأنيثه ، وإنما المراد قرب الزمان ، والعرب تجيز فيه الوجـهين : التـأنيث والتذكير .

ولأمرئ القيس ، وهو من شعراء الجاهلية ، وشعرهم حُجة فى إثبـات اللغة ، بيت نحا فيه هذا المنحى ؛ فقال :

له الويل إن أمسى ولا أم سالم

قريب ، ولا البسباسة ابنته يُشكرا (٢)

والشاهد فى البيت تذكير " قريب " مع جريانه على مؤنث " أم ســالم " وهو نظير " قريب " فى الآية الكريمة .

والخلاصة :

رأينا فى الرد على هذه الشبهة أن القرآن الكريم لم يخرج عـن سـنن البيان العربى حين ذكَّر " قريب " فى الآية ، وهى مجراة على مؤنث مجازى غير حقيقى " رحمة الله " .

---

(١) معانى القرآن (٣٨٢/٢) والبيت لعروة بن حزام . وقد أورده للغرض نفسه أبـو حيـان فـى البحـر (٣١٣/٤) .

(٢) الدر المصون . الشاهد رقم (٥٦٢) .

وكان أصح وأثبت ما ذكرناه فى الرد على خصوم القرآن ، هو ما قالـه الفراء رحمه الله ، من أن العرب كانوا يفرقون بين القرب والبعد من النسـب وبين القرب والبعد فى المكان والزمان :

فالأول : يلتزم فيه تأنيث ما جرى خبراً أو صفة لمؤنث .

أما الثانى : وهو القرب والبعد فى المكان والزمان فإنهم يجيزون فيـه الوجهين : التأنيث والتذكير ، وقد ذكر ـ رحمـه الله ـ بعـض الشـواهد الشعرية لشعراء هم حُجة فى إثبات اللغة ، وطرائق اسـتعمالاتها . وبـهذا تظهر براءة القرآن الناصعة مما حاول خصومه إلصاقه به من خطأ .

الشبهة السادسة عشرة

تأنيث العدد ، وجمع المعدود

منشأ هذه الشبهة :

هو قوله تعالى : ﴿ **وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرِب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم .. ﴾** (١) .

وشاهدهم على اللغط بهذه الشبهة هو قوله عز وجل " اثنتى عشرة أسباطاً أمماً " والصواب الذى توهموه عبروا عنه بقولهم :

" كان يجب أن يُذَكَّر العدد ، ويأتى بمفرد المعدود فيقول : اثنى عشر سبطا " .

الرد على الشبهة :

وجَّه النحاة تأنيث العدد فى الآية بأن السبط فى بنى إسرائيل كالقبيلة عند العرب . يعنى أنه أراد بالأسباط القبائل ، ولذلك أنث جزئى العدد المركب ، وهما : اثنتى ، وعشرة (٢) .

هذا وجه ، ووجه آخر هو تأويل السبط بالجماعة أو الفرقة أو الطائفة.

أما جمع أسباط ، وكان حقه أن يفرد فقد روعى فيه المعنى دون اللفظ ،

---

(١) الأعراف : ١٦٠ .

(٢) انظر : الدر المصون (٥/٤٨٥) .

ومراعاة المعنى دون اللفظ ، أو اللفظ دون المعنى كثير الورود فـــى النظـــم القرآنى ، ويبدو أن هؤلاء الطاعنين فى سلامة القرآن من كل خطأ يجـــهلون هذه الأساليب فى القرآن خاصة ، وفى اللغة العربيـــــة عامـــة ، ويتشـــبثون بظواهر العبارات حباً فى ترويج ما يريدون ترويجه من الشـــبهات الواهيـــة وكان العرب النازل بلغتهم القرآن يذكِّرون عـــدد المؤنـــث مراعـــاة للفـــظ فيقولون : ثلاثة أنفس ، أى رجال ويقولون عشر أبطن .

ففى الأول " ثلاثة أنفس " ذكَّروا العدد نظراً للمعنى ؛ لأن المعدود مذكر " رجال " وفى الثانى أنثوا العدد " عشر أبطن " لأن المعدود هو القبيلـــة أى عشر قبائل . وهذا باب واسع لا تحصر شواهده [1] . أما جمع المعدود الـذى فى الآية " أسباطاً أمماً فله نظائر فى الاستعمال المأثور الوارد عن العـــرب ومنه قول الشاعر :

فيها اثنتان وأربعون حلوبـــة

سُوداً كخافية الغراب الأسحم

فقد وصف الشاعر " حلوبة " وهى مفرد ، بقوله " سُوداً " وهـــو جمـــع سوداء .

ولهذه .. الشواهد نظائر من المأثور عن العرب الخلَّص .

والخلاصة :

فقد طاحت هذه الشبهة ، وانمحت آثارها ، كما طاحت نظائرهـــا مـــن قبل . ومن الدلائل القوية على صحة تأنيث العـــدد ، فـــوق مـــا تقـــدم ، أن بعض النحاة أضاف إلى بدلية " أمما " من " أسباطا " أن " أمما " وقعت نعتاً

---

(١) ومما رجح التأنيث فى الآية إبدال " أمما " من " أسباطا " مما يؤكد أن الأسباط معناهـــا هنـــا مؤنـــث بمعنى قبائل أو جماعات .

لـــ " أسباطا " و " أمماً " مؤنثة لفظاً . وسواء كـــانت " أممـــاً " بـــدلاً مـــن " أسباطاً " أو كانت نعتاً له . فإن الذى لا نزاع فيه أن المؤنث لا يبدل مـــن المذكر ، ولا يقع نعتاً له . وهذا دليل قاطع على أن المراد مـــن " أســـباطاً " وإن كان مذكَّراً فى اللفظ ، معنى مؤنث لا محالة . ولذلك أنث النظم القرآنى جزئى العدد المركب " اثنتى عشرة " .

أما جمع المعدود " أسباطاً أمماً " وإن وجهه النحاة توجيهاً صائباً ، فقـــد بقى فى مجيئه جمعاً ملمح بلاغى دقيق ذلك الملمح نوضحه فى الآتى :

بدأت الآية الكريمة بهذا الفعل " قطَّعناهم " بتشديد " الطاء " علـــى وزن " فَعَّل " وهذا التشديد يفيد التكثير ، أى كثرة التقطيع والتفريق . وهذا يناســبه بلاغة جمع " أسباطاً أمماً " لا إفرادهما ، والمعانى البلاغية من هذا النـــوع تزال من أجلها كل الموانع والسدود . ولغة القرآن وبلاغته أوسع من قواعـــد اللغة وفنونها البلاغية .

الشبهة السابعة عشرة

جمع الضمير العائد على المثنى

منشأ هذه الشبهة :

هو قوله تعالى : ﴿ **هذان خصمان اختصموا فى ربهم فـــالذين كفــروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم** ﴾ (١) .

يقولون :

كان يجب أن يثنى الضمير العائد على المثنى ، فيقـــول : " خصمـــان اختصما فى ربهما " ! .

الرد على الشبهة :

أشرنا من قبل إلى طريقتين من طرق التعبير اللغوى الفصيح ، وهما :

- طريقة مراعاة اللفظ .
- وطريقة مراعاة المعنى

فحيث جمع القرآن الضمير العائد على المثنى ، فهو مـــن اســتعمالات الطريقة الثانية ، التى يراعى فيها جانب المعنى على جانب اللفظ .

وينبغى أن نعرف أن المثنى نوعان :

- مثنى حقيقى ، ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ **قال رجلان مـــن الذين يخافون أنعم الله عليهما** ﴾ (٢) .

---

(١) الحج : ١٩ .

(٢) المائدة : ٢٣ .

فـ " رجلان " مثنى حقيقى ؛ لأن واحده فرد فـــى الوجــود ؛ أو ذات واحدة ؛ هذا هو المثنى الحقيقى . وإذا وُصِفَ أو استؤنف الحديث عنه وجب تثنية الضمير العائد عليه .

* أما النوع الثانى من المثنى ، فهو المثنى اللفظى ومثاله من القرآن قولـــه تعالى : ﴿ **مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع** ﴾ (١) .

وهذا النوع من المثنى ضابطه أن واحده جمع فرد من عـــدة أفــراد ، وليس فرداً واحداً .

والنوع الأول (المثنى الحقيقى) يسمى مثنى لفظاً ومعنى .

أما الثانى (المثنى غير الحقيقى) فيسمى مثنى فى اللفظ ، وجمعاً فـــى المعنى . وفى وصفه أو استئناف الحديث عنه يجوز أن يراعى فيه جـــانب اللفظ ، أو جانب المعنى .

ومنه ما ورد فى آية " الحج " : " هِذانِ خصمان " لما كان معناه جمعــاً روعى فيه جانب المعنى فقال عز وجل : " اختصموا فى ربهم " ومعـــروف أن مفرد الخصمين خصم ، وهو اسم جنس يندرج تحتـــه ــ هنـــا ــ أفــراد كثيرون وبهذا نزل القرآن فى هذه الآية ، فتحدث عن الخصميـــن بضمــير " الجمع " الذى هو " واو الجماعة " " اختصموا " ثم بضمير الجماعة " هــم " فى قوله تعالى : " فى ربهم " .

ونظيره فى القرآن قوله تعالى :

﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ﴾ (٢) . أعـــاد الضمــير جمعــاً " اقتتلوا " هذا فى جملة الخبر ، مع أن المبتدأ مثنى " طائفتان " وذلك لأن هذا اللفظ مثنى غير حقيقى ، بل هو مثنى فى اللفظ ، جمع فى المعنى .

---

(١) هود : ٢٤ .

(٢) الحجرات : ٩ .

وفى هذه الآية راعى النظم القرآنى المعجز المعنى فى جملـــة الخــبر وحدها " اقتتلوا " ثم راعى اللفظ فى بقية الآية هكذا :

﴿ فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التـــى تبغـــى حتى تفئ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما ﴾ .

وكلا المنهجين فصيح صحيح بليغ .

والذى سوَّغ مراعاة المعنى فى " اقتتلوا " وقوعــه بعــد جمــعٍ ، هــو " المؤمنين " ، وليس فوق ذلك درجة من الصحـــة والإصابـــة ، وإن كـــره الحاقدون .

والخلاصة :

أن " اختصموا " و " فى ربهم " الذوق السليم يشهد أن " اختصموا " أبلغ من اختصما ، وأن " ربهم " أبلغ من ربهما .

لأن " اختصموا " يفيد تبادل الخصومة بين جميع أفراد الـــ " خصمـــلن " من أول وهلة ، وكذلك " ربهم ؛ إن ضمير الجمع فيه " هم " يفيد مـــــن أول وهلة ربوبية الله لكل فرد منهم .

والاختصام هو الحدث الرئيسى فى هذه الواقعة . فعُبِّر عنه بهذا اللفـــظ الفخم " اختصموا " ومحال أن يستقيم لو قيل بعده " فى ربهما " فسبحان مـــن هذا كلامه ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

الشبهة الثامنة عشرة

الإتيان باسم الموصول العائد على الجمع مفرداً

منشأ هذه الشبهة :

ومنشأ هذه الشبهة ــ عندهم ــ قوله تعالى : ﴿ **كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ، وخضتم كالذى خاضوا أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون** ﴾ (١) .

والشاهد ــ عندهم ــ فى الآية هو قوله تعالى : " وخضتم كالذى خاضوا " وآثرنا ذكر الآية بتمامها لأن الرد على هذه الشبهة يقتضى النظر فى الآية كلها لا فى الجزء الذى استشهدوا به وحده .

وكان تعليقهم على قوله عز وجل : ﴿ **وخضتم كالذى خاضوا** ﴾ هو قولهم : " وكان يجب أن يجمع اسم الموصول العائد على ضمير الجمع فيقول : ﴿ **خضتم كالذين خاضوا** ﴾ !

الرد على الشبهة :

هذه الآية ــ بتمامها ــ وردت فى سياق الحديث عن المنافقين ؛ لأن ما قبلها هو قوله عز وجل : ﴿ **وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم** ﴾ (٢) .

---

(١) التوبة : ٦٩ .

(٢) التوبة : ٦٨ .

والآية مسوقة لتهديد المنافقين والكفار ، لعلهم يقلعون عما هم فيه مـــن نفاق وكفر .

وقد أدير الحديث فيها على تشبيه المخاطبين (المنافقين والكفار) بـالأمم الغابرة ، كانت أشد منهم قوة ، وأكثر مالاً وولدا ، وانغمسوا فـــى شـــهواتهم الفانية ، فسار المنافقون والكفار سيرتهم فركنوا إلى متع الحياة الدنيا الفانية ، ولم يبتغوا ما عند الله ، وأن المنافقين والكفار فعلوا كل ما فعله من قبلهم من المعاصى والسيئات .

ثم بين الله عز وجل أنهم الخاسرون فى الدنيا والآخرة فالذى معنا فـــى الآية فريقان :

- فريق سابق فى الزمن ، لم يكن موجوداً فى عصر نزول القرآن .
- فريق كان حاضراً فى عصر نزول القرآن ، وهم الذين خاطبهم الله فـى هذه الآية الكريمة . وليس فى هذه الآيةَ فريق ثالث تحدثت عنه الآية .

ومن هذا يتضح أن تعقيب خصوم القرآن على هذه الآية ، بأن الصواب أن يقال : " وخضتم كالذين خاضوا " فاسد من كل الوجوه ؛ لأن معنـــا فـــى الآية فريقان لا ثلاثة ، ولو قيل : " خضتم كالذين خاضوا " لانفكت رابطـــة الكلام ، ولبرز فى النظم طرف ثالث لا وجود له فى سياق الآية .

بيان ذلك :

أن المقارنة جرت فى الآية بين الفريقين " المنافقين والكفار " و " الأمـم الغابرة " ، ودارت المقارنة على هذا المنهج :

- فاستمتعوا بخلاقهم .
- فاستمتعتم بخلاقكم .
- كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم .
- وخضتم كالذى خاضوا .

والمعنى : وخضتم خوضاً مثل خوضهم [1] .

فالذى فى الآية اسم موصول مفرد ، يعود على المصدر المفهوم من الفعل الماضى " خضتم " فشبه الله عز وجل خوض المنافقين بخوض الذين من قبلهم . وهذا هو النسق الذى دارت عليه المقارنة فى الآية تشبيه سلوك اللاحقين بسلوك السابقين من الأمم الغابرة ، التى عتت عن أمر ربها وعصت رسله .

واختار الإمام الشوكانى أن المعنى : " كالخوض الذى خاضوا " [2] ، ومن قبله قال الإمام الزمخشرى : " وخاضوا فخضتم كالذى خاضوا " [3] .

هذا هو الحق فى هذه العبارة ، لا كما قال خصوم القرآن الكارهون لما أنزل الله عز وجل .

---

(١) انظر : الدر المصون (٨٤/٦) .

(٢) فتح القدير (٤٣٣/٢) .

(٣) الكشاف (٢٠١/٢) .

الشبهة التاسعة عشرة

جزم الفعل المعطوف على المنصوب

منشأ هذه الشبهة :

هو قوله تعالى : ﴿ **وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم المـوت فيقول ربِّ لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدَّق وأكن من الصالحين** ﴾ (١) .

وشاهد هذه الشبهة ــ عندهم ــ هو قوله تعالى : " وأكن " لأنه محذوف الواو ساكن النون ، وهو فعل معتل الوسط بالواو (أجوف) ولا يحذف الواو منه إلا إذا سكن آخره ، ولا يسكن آخره إلا إذا كـــان مجزومـــاً ، ويجـــزم المضارع إذا دخل عليه جازم أو عطف على مجزوم .

ولما لم يدخل على الفعل ــ هنا ــ جازم ، ولم يتقدم عليه مجزوم يصح جزمه بالعطف عليه ، ساغ لخصوم القرآن أن يقولوا إن هذا الفعل " أكـــن " جزم مع أن المعطوف عليه منصوب ، وهو الفعل " فأصدق " وعلقوا علـــى هذا فقالوا : " كان يجب أن ينصب الفعل المعطوف على المنصوب فيقـــال : " فأصدق وأكون " .

الرد على الشبهة :

لفتت هذه الآية أنظار النحاة والمفسرين ، وقد اختلفت توجيهاتهم لـورود الفعل المجزوم مردوفاً على الفعل المنصوب ، مع اتفاقهم جميعاً على صحـــة هذا التركيب نحوياً لأن نظم القرآن مشهود له بالصحة من ألد خصومه الذين

---

(١) المنافقون : ١٠ .

بلغوا الذروة فى الفصاحة والبلاغة ، وهم مشركو العرب ، حيث لـــم يُــرو عنهم أنهم طعنوا فى القرآن فى صحة أساليبه ، وضروب تراكيبه ، والتسليم له بالسمو والرفعة فى هذا المجال .

فعلى كثرة ما اتهموه بأنه سحر ، أو شعر ، أو أساطير الأولين تملـــى على النبى ﷺ بكرة وأصيلا لم يذكروا ــ قط ــ أن به أخطـــاء لغويـــة ، أو نحوية أو صرفية أو بيانية ، بل على العكس من ذلك نراهم أثنوا عليه علـــى لسان الوليد بن المغيرة ، لما سمع من النبى ﷺ الآيات الأولى مـــن ســورة " فصلت " حين نفى عنه كل عيب أو نقص فى أساليبه ونظمه المحكم البديـع ولو كان ما يؤخذه خصوم القرآن ــ الآن ــ من الشبهات التى نعرض لـــها ــ هنا ــ حقاً لبادروا بإعلانها ، ولاتخذوها حرباً ضروساً ضده . وسـكوتهم المطبق عن ذكر عيوب من هذا القبيل تسليم منهم له بالسلامة مـــن جميـع الأخطاء ، وهذه هى عقيدة الأمة وكل العقلاء المنصفين ، وقد أشرنا من قبل إلى أن القرآن أوسع من قواعد اللغة وأسمى من أساليب البيان المعروفة عنـد البشر فإذا ورد فيه شىء على غير قاعدة نحوية أو صرفية معروفـــة لـدى الناس ، فليس معناه أن القرآن قد أخطأ أو سها . لأن القرآن نفسه مصدر من مصادر إثبات اللغة فى نفسها وفى طرق استعمالاتها .

فما جاء منه على ما نعرفه أو نألفه من القواعد فلا مشاحنة فيه . ومـــا جاء على غير ذلك وجب الإيمان بصحته ، وعلينا أن نجتهد فى التماس العلة فيه ، فإن أدركناها فالحمد لله وإلا فوضنا الأمر فيها لله ، كما هو فى بعـض المتشابهات القرآنية من الألفاظ والمعانى ، كما قال عز وجل : **﴿ هو الـــذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأمـــا الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلـــه**

وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ [1] .

وبعد هذه الوقفة الكاشفة الشافية نعود إلى ما قاله النحاة والمفسرون فى توجيه مجىء الفعل المجزوم مردوفاً على الفعل المنصوب فى الآية الكريمة ، التى اتخذ منها الذين فى قلوبهم زيغ وسيلة للطعن فى القرآن ، ابتغاء الفتنة :

وجّه الإمام الزمخشرى مجئ الفعل " وأكن " مجزوماً مردوفاً على الفعل المنصوب " فأصدق " بأن قوله تعالى " لولا أخرتنى .. " فى محل جزم لتضمنه معنى الشرط ، فكأنه قيل : إن أخرتنى أصدقْ وأكن من الصالحين [2] .

وكذلك قال ابن عطية [3] ، وأبو على الفارسى [4] .

الخلاصة :

لم تكن هذه القراءة هى الوحيدة فى جزم الفعل " أكن " فقد قرأه أبو عمرو " وأكون " بالنصب عطفاً على " فأصدق " .

ونرى أن التوجيه بأن هذا الفعل مجزوم على تضمن عبارة التمنى " لولا أخرتنى إلى أجل قريب " أو على الشرط المقدر بـ " إن أخرتنى " هو توجيه سديد ، وقد سبق إلى القول به علمان من أئمة النحو ، هما الخليل وسيبويه [5] .

---

(١) آل عمران : ٧ .

(٢) الكشاف (١١٢/٤) .

(٣) المحرر الوجيز (٢٣/١٦) .

(٤) الحجة فى القراءات (٣٨٦/٤) .

(٥) حاشية الشهاب على البيضاوى (٢٠٠/٨) .

والذى سوَّغ إيثار عبارة التمنى " لولا أخرتنى " على الشرط الصريح " إن أخرتنى " أن قائل هذه العبارة يقولها فى ساعة يملكه فيها اليأس من التأخير وهى ساعة حضور الموت ، والتمنى كما نعلم يستعمل فى طلب المحال أو المتعذر ، أما الشرط فيستعمل فى الأمور التى لا استحالة فيها ولا تعذر . فهو إذن من تبادل الصيغ وإحلال بعضها محل بعض لداع بلاغى . وقرينة إرادة الشرط من عبارة التمنى هو جزم الفعل " أكن " وسره البلاغى أن من حضرته الوفاة وهو مقصر فى طاعة الله تدفعه شدة الحاجة التى نزلت به إلى طمعٍ من نوع ما ، مما هو مستحيل أو متعذر الوقوع . ومما تقدم يظهر لنا استقامة العبارة القرآنية وبُعْدها عن كل خلل ، ووفاؤها بالمعنى المراد نحواً وبياناً .

الشبهة العشرون

جَعْل الضمير العائد على المفرد جمعاً

منشأ هذه الشبهة :

هو قوله تعالى : ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون** ﴾ [1] .

ذكروا هذه الآية ، ووقفوا عند قوله تعَالى : ﴿ **الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله** ﴾ ﴿ **ذهب الله بنورهم** ﴾ وعلقوا عليه قائلين : وكان يجب أن يجعل الضمير العائد على المفرد مفرداً ، فيقول : " استوقد ـ ذهب الله بنوره " !.

الرد على الشبهة :

هذه الآية مضروبة مثلاً لبيان حال المنافقين فى تذبذب أحوالهم وتقلبهم فى مواقفهم ، وانتهازهم الفرص السانحة لتحقيق أغراضهم الدنيوية . وعدم ثباتهم على مبدأ خلقى قويم ، وقد تقدم على هذه الآية آية أخرى تصف سعيهم الضال ، وإيثارهم منافع الدنيا العاجلة الفانية ، على ما عند الله ـ عز وجل ـ مقضياً عليهم بالخسران المبين ، وهى قوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** ﴾ [2] .

ثم استأنف القرآن الحديث عنهم فى : ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون** ﴾ .

---

(١) البقرة : ١٧ .

(٢) البقرة : ١٦ .

والمثل ــ بفتح الثاء ــ هو الشأن والقصة الغريبة التى يكـــون عليـــها المتحدث عنه ، وهو ــ هنا ــ المنافقون ، مَثَّلَ الله حالهم وشأنهم الذي هـــم عليه ، وقصتهم الغريبة الراسخة في طباعهم بمثل رجل ، أو فريق من الناس طلب إيقاد نارٍ للانتفاع بها في تحقيق الرؤية ، وإبصار الطريق للسير فيـــه ، فلما أضاءت النار ما حوله وفرح بها سرعان ما أطفاها الله فـــأظلمت عليـــه الدنيا ، فوقع فى حيرة وارتباك .

وجمع الضمير فى " بنورهم " ليس عائداً على " الذى " المفرد المذكـور فى (**كالذى استوقد ناراً**) ، وقد وجَّه النحاة جمع الضمير بعـــد " الـــذى " فقالوا : إن الذى ليس بمعني المفرد ، بل هو بمعنى " الذيـــن " وذكـــروا أن " الذي " في الاستعمال اللغوي له معنيان :

الأول : أن يكون بمعنى المفرد ، وهو الغالب والكثير فيه .

والثانى : أن يكون بمعنى الجمع ، ويُفرَّق بينهما بالقرائن ، ففى الآية التـــي معنا : " الذى " بمعنى الفريق أو الفوج الذى استوقد النار .

هذا رأى فى توجيه رد الضمير جمعاً علي " الذى " وقد عبروا عن هذا بقولهم : أراد بالذى جنس المستوقد ، لا فرداً معيناً [1] .

ويرى الإمام الزمخشرى أن " الذى " هو ــ هنا ــ "الذين " حذفت منـــه " النون " لاستطالته ، وهو مثل " وخضتم كالذى خاضوا " وليس في الكـــلام تشبيه الجماعة بالواحد على هذا التأويل ، وأن المشبه هو حال المنـــافقين ، بحال الذى استوقد ناراً . تشبيه معنى مركب بمعنى مركب ، وليس تشـــبيه ذوات المنافقين بذات الذى استوقد ناراً ، فهذا غير مقصود ، وإنما المقصـــود هو تشبيه قصة المنافقين المضروب لها المثل ، بقصة المستوقد للنـــار ، وأن

---

(١) انظر : أنوار التنزيل للإمام البيضاوى (٣٠/١) وحاشية الشهاب على البيضاوى (٣٦٥/١) .

وجه الشبه بين القصتين هو : " فبقوا خابطين فى ظلام ، متحيرين متحسرين على فوت الضوء ، خائبين بعد الكدح فى إحياء النار " (١) .

ويقول الإمام الشوكانى :

و " الذى " موضوع موضع الذين ، أى كمثل الذين استوقدوا ، وذلـــك موجود فى كلام العرب ، كقول الشاعر :

وإن الذى حانت بفلج دماؤهم

همُ القوم ، كل القوم ، يا أم خالد

ومنه " وخضتم كالذى خاضوا " و " والذى جاء بالصدق وصدَّق بـــه ، أولئك هم المتقون " (٢) .

والخلاصة :

بعد هذا العرض لأئمة النحاة والمفسرين يتضـــح جليـــاً أن الاســـتعمال القرآنى فى " مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهـــب الله بنورهم " استعمال عربى فصيح فى غاية الفصاحة ، وله شواهد فـــى كـــلام العرب المحتج بكلامهم ، وإن كان القرآن غنياً عن الاستشهاد مـــن خارجـــه على عروبته وسلامته من كل خطأ ؛ لأنه من أصح مصادر اللغة العربيـــة ، ومع هذا فإن ما قاله الأئمة الأعلام يحيل شبهة هؤلاء المتطاولين على كتـــاب الله العزيز هباءً منثوراً ، هذا هو دور النحو فى إبطال هذه الشبهة ، وللبلاغة دور مهم فى الرد عليهم نلخصه فى الآتى :

إن المثل فى الآية مسوق أساساً لتمثيل شأن المنافقين ، أما قوله تعالى : " كمثل الذى استوقد ناراً " ، فأمر عارض اقتضاه مقام الحديث عـــن تمثيـــل

---

(١) الكشاف (١/١٩٩) .

(٢) فتح القدير (١/٥٥) .

حال المنافقين فهو أشبه ما يكون بالجملة الاعتراضية ، لولا أنها مشبه بـــه ، ولما أدت الدور المراد منها تحول الحديث إلى الأصل المسوق مـــن أجلـــه الكلام ، وبدأ هذا التحول من قوله تعـــالى : " ذهـــب الله بنورهـــم " فَجَمْـــعُ الضمير فى " بنورهم " منظور فيه إلى نظيره فى " مثلهم " فكـــان ضمـــير الجمع فى " بنورهم " مطابقاً أصالة لمقام الحديث أما " الذى استوقد نـــاراً " فصار مسكوتاً عنه بعد آداء دوره المراد منه .

وعلى هذا فإن التوجيه البلاغى لجمع الضمير فى " بنورهـــم " يغنـــى عن التوجيهات التى أبداها النحاة والمفسرون إذ لا معول فى التوجيه البلاغى على اعتبار " الذى " بمعنى الذين ، أو هو " الذين " حذف منه النون .

ومحال أن يستقيم ما قاله مثيرو هذه الشبهة أن الصـــواب هـــو إفـــراد الضمير فى " نورهم " لأنه لو قيل : ذهب الله بنوره وتركـــه فـــى ظلمـــات لا يبصر ، لتحول الكلام إلى غير المنافقين المضروب لهم المثل ، ولزالـــت كل الروابط بين صدر الآية وعجزها . وهذا لا يقول به عاقل .

الشبهة الحادية والعشرون

الإتيان بجمع كثرة فى موضع جمع القلة

منشأ هذه الشبهة :

هو قوله تعالى : ﴿ **وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾ (١) .

أخذوا من هذه الآية كلمة "معدودة" وتوهموا أن القرآن أخطأ فيـــها ؛ لأنها ــ عندهم ــ جمع كثرة ، والمقام الذى استعملت فيه يتطلب جمع القلة ، ثم علقوا قائلين :

" وكان يجب أن يجمعها جمع قلة ، حيث إنهم أرادوا القلـــة ، فيقـــول : أياماً معدودات " .

هكذا عبروا عن جهلهم ، وهم يحسبون ــ أو لا يحسبون ــ أنهم العلماء الأفذاذ الذين يعلمون ما لم يعلمه أحد ــ حتى الله ــ من شئون اللغة والبيان ، وهم ــ بحق ــ لا يكادون يفقهون حديثاً .

الرد على الشبهة :

هذه الآية نزلت تحكى قولاً قاله اليهود ، يكشف عن الغرور الذى مـــلأ أنفسهم ، فقد زعموا أنهم إذا دخلوا النار ، فإنها لا تمسهم إلا مســـاً خفيفـــاً ، وأنهم لن يُخلدوا فيها ، بل يقضون عدة أيام .

---

(١) البقرة : ٨٠ .

وهذا تطاول منهم ، لأن شئون الآخرة لا يعلمها إلا الله .

لذلك كذَّبهم الله ، وألزمهم الحُجة البالغة له عليهم وحصر مصدر هـــذا الذى ادعوه فى أمرين :

الأول : أن يكون عندهم من الله عهد بما قالوا ، والله لا يخلف عهده ، وهـــم فى الواقع لا عهد عندهم من الله يحدد فيه مدة مكثهم فى النـــــار ، ودرجـــة العذاب الذى سيصيبهم فيها .

الثانى : أو هُمْ يفترون على الله عز وجل ، ومادامو ا ليس عندهم عهد مـــن الله ، فهم ــ إذاً ــ كاذبون والذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون .

أما مسألة الكثرة والقلة ، التى بنى عليها هؤلاء الكارهون لما أنـــزل الله على خاتم رسله ﷺ ، فلا اعتبار لها هنا ، وُهم وإن حفظوا شيئاً فقد غـــابت عنهم أشياء . ولذلك أوقعهم جهلهم فيما حاولوا أن يفروا منه ؛ لأنهم قالوا إن معدودة ، جمع كثرة ، واستعمال جمع الكثرة ــ هنا ــ خطأ ؟ ؛ لأن اليـــهود أرادوا جمع القلة ــ أى أنهم يمكثون فى النار أياماً قليلة . فجاء تعبير القرآن غير وافٍ بالمعنى الذى كانوا يقصدونه ، وكان الواجب علـــى القـــرآن أن يقول : أياماً معدودات ، بدلاً من ﴿ **أياماً معدودة** ﴾ هذا هو قولـــهم ، وهـــو محض الخطأ لو كانوا يعلمون وذلك للاعتبارات الآتية :

فأولاً : لأن " معدودة " ليست جمعاً بل مفرداً ، ليست جمع كـــثرة ولا جمع قلة . وهؤلاء " العباقرة " جعلوها جمع كثرة ، بســـبب جهلـــهم باللغـــة العربية ، لغة الإعجاز .

وثانياً : أن " معدودات " التى يقولون إنها الصواب وكان حق القرآن أن يعبر بها بدلا من " معدودة " ظانين أن " معدودات " جمع قلة . وهى ليســـت جمع قلة كما توهموا ، فهى على وزن " مفعولات " وهذا الوزن ليس مـــن

أوزان جموع القلة [1] بل من أوزان جموع الكثرة ولا ينفعهم قولهم إن اليهود أرادوا القلة ، لأن هذه القلة يدل عليها سياق الكلام لا المفردات المستعملة فى التركيب .

وثالثاً : إن هذا التعبير لا ينظر فيه إلى جانب قلة أو كثرة ، ولكن ينظر فيه من جانب آخر ليس عند هؤلاء الأدعياء شرف الاتصاف بـــه ؛ لأنـــهم دخلاء على لغة الإعجاز والتنزيل .

هذا الجانب هو : معاملة غير العاقل معاملة العاقل أو عدم معاملته [2] .

ووصف الأيام بـــ " معدودة " فى ما حكاه الله عن اليهود هو وصف لها بما هو لائق بها ، لأن الأيام لا تعقل فأجرى عليها الوصـــف الـــذى لغـــير العقلاء ، وما جاء على الأصل فلا يسأل عنه ، ولكنهم لجهلهم المركب بلغـــة الإعجاز حسبوا الصواب خطأ ، والخطأ صواباً . لأنهم زجوا بأنفسهم فيمـــا لا ناقة لهم فيه ولا جمل .

أما معاملة غير العاقل معاملة العاقل ، فلها دواعٍ بلاغية لا يعرف عنـــها مثيرو هذه الشبهات كثيراً ولا قليلاً .

وهى فى النظم القرآنى من الكثرة بمكان ، ولا يعامل غير العاقل معاملة العاقل إلا بتنزيله منزلة العاقل لداع بلاغى يقتضى ذلك التنزيل .

وإذا كان القرآن قد عبَّر فى وصف " أيامـــاً " فـــى آيـــة البقـــرة هـــذه بـــ " معدودة " وهو وصف غير العاقل جارٍ على الأصل ، فإنه عـــبَّر عـــن وصفها بـــ " معدودات " فى موضع آخر ، هو قوله تعالى :

---

(١) أوزان جموع القلة هى : فِعْلَة ــ أفْعَال ــ أفعُل ــ أفْعِلَة .

(٢) غير العاقل هو ماعدا الإنسان من مخلوقات الله الأرضية .

﴿ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم فى دينـــهم ما كانوا يفترون ﴾ [1] .

فكان ينبغى أن يسأل هؤلاء عن اختلاف التعبير فى الموضعين بـدل أن يخطِّئوا الصواب وهم جاهلون . وها نحن نضع بين أيديهم الحـــق نـاصع البياض .

فى آية البقرة جاء وصف " أياماً " ــ " معدودة " بصيغة الإفراد ، وليس جمع كثرة كما زعموا .

وفى آية آل عمران جاء وصف " أيامًا " ــ " معدودات " جمعاً لا إفراداً.

فلماذا ــ إذاً ــ اختلفت صيغة الوصف ، والموصـــوف واحـد ، هـو " أياماً " ؟

إذا قارنَّا بين الآيتين وجدنا آية البقرة مبنية على الإيجاز هكذا :

" وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة .. " .

ووجدنا آية آل عمران مبنية على الإطناب هكذا :

" ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات " .

وازن بين صدر آية البقرة " وقالوا " .

وبين صدر آية آل عمران " ذلك بأنهم قالوا " .

تجد أن جملة " ذلك بأنهم " هذه العبارة اشتملت علـــى اســم الإشـــارة الموضوع للبعيد ، الرابط بين الكلامين السابق عليه ، واللاحق به .

ثم تجد " الباء " الداخلة على " إن " فى " بأنهم " .

ثم " إن " التى تفيد التوكيد ، ثم ضمير الجماعة " هم " .

---

(١) آل عمران : ٢٤ .

هذه الأدوات لم يقابلها فى آية البقرة ، إلا واو العطـــف " وقـــالوا " إذاً المقامان مختلفان ، أحدهما إيجاز ، والثانى إطناب .

وهذا يبين بكل قوة ووضوح لماذا كان " معدودة " . فى آيـــة البقـــرة ؟ و " معدودات " فى آية آل عمران ؟

كان وصف " أياماً " فى آية البقرة " معدودة " لأن المقـــام فيـــها مقـــام إيجاز كما تقدم فناسب هذا المقام الإيجازى أن يكون الوصف موجزاً هكـــذا " معدودة " .

وكان الوصف فى آية آل عمران مطنباً " معدودات " بزيادة " الألـــف " ليناسب مقام الآية الإطنابى كما تقدم [1] .

فانظر إلى هذه الدقائق واللطائف البيانية المعجزة التـــى عميـــت عنـــها مدارك " الخواجات " المتعالمين .

---

(١) انظر : ملاك التأويل ، القاطع لذوى الإلحاد والتعطيل فى توجيه المتشابه من آى التـــنزيل (٢٨١/١) للعلامة أحمد بن الزبير القرناطى . دار النهضة العربية .

الشبهة الثانية والعشرون

الإتيان بجمع قلة فى موضع جمع الكثرة

منشأ هذه الشبهة :

أما منشأ هذه الشبهة فهو قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياماً معدودات** ﴾ (١) .

والشاهد ــ عندهم ــ هو قوله عز وجل " معدودات " لأنهم يفهمون جهلا ــ أن " معدودات " جمع قلة ، وأن " معدودة " جمع كثرة ، وأيام الصيام فى شهر رمضان ثلاثون يوماً . فهى أيامٌ كثيرة يناسبها جمع الكثرة عندهم وهو " معدودة " ولكن القرآن أخطأ فوضع كلمة جمع قلة عندهم ، موضع " معدودة " وهى جمع كثرة عندهم كما تقدم . ثم عقبوا على هذا فقالوا " وكان يجب أن يجمعها جمع كثرة ، حيث أن المراد جمع كثرة ، عدته ثلاثون يوماً ، فيقول : " أياماً معدودة " .

الرد على الشبهة :

سبق أن عدوا الأربعين جمع قلة ، وهنا جزموا بأن الثلاثين يوماً الرمضانية ، أو التسعة والعشرين يوماً جمع كثرة ، وأن القرآن أخطأ مرة أخرى حين عبَّر عنها بجمع القلة " معدودات " أليست هذه نادرة من نوادر الدهر ؟ كيف تكون الأربعون أقل من الثلاثين أو التسعة والعشرين ؟ هل هذا يصدر عن عاقل على وجه الأرض ؟

---

(١) البقرة : ١٨٣-١٨٤ .

وما عدوه خطأً في هذه الآية ، وهو قوله تعالى : " معـــدودات " فـــهو عين الصواب لغة وبياناً ، وقد أشرنا من قبل إلى أن معاملة غـــير العـــاقل معاملة العاقل أسلوب بلاغى رفيع المستوى ، وهو عند البلاغيين اســتعارة ، شبه فيها غير العاقل بالعاقل لداعٍ بلاغى ، يراعيه البليغ فى كلامه .

وكلمة " معدودات " فى وصف أيام الصيام أتى بها القرآن لخصوصيـــة بيانية ، هى تعظيم شأن تلك الأيام ، حتى لكأنها لرفعـــة منزلتـــها عنـــد الله عز وجل صارت من ذوى العقول ، وهى أوقـــات لا روح فيـــها كالأحيـــاء العاقلين .

فليس المدار فيها اعتبار قلة ، أو كثرة ، بل المراد التنويـــه بفضلـــها ، وعلو منزلتها عند الله تعالى .

أما القلة فتفهم من سياق الكلام ، الذى حدد أيام الصيام بالشهر الواحد :

(شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الـــهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه) [1] .

ولهذا التنزيل مواضع أخرى كثيرة فى القرآن الكريم وحسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق .

---

(١) البقرة : ١٨٥ .

الشبهة الثالثة والعشرون

جَمْعُ اسمِ عَلَمٍ يجب إفراده

منشأ هذه الشبهة :

هو قوله تعالى : ﴿ **وإن إلياس لمن المرسلين * إذْ قال لقومه ألا تتقون * أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين * فكذبوه فإنهم لمحضرون * إلا عباد الله المخلصين * وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على إلياسين** ﴾ (١) .

موضع الشاهد على الشبهة عندهم هو " إلياسين " ولكنهم ــ لسوء قصدهم ــ اتبعوا طريقة حذف مزرية فى هذه الآيات ، وكان يكفيهم بدل هذه الحذوفات أن يقتصروا على " إلياسين " وحدها ، وقد يكون الداعى إلى ذكر ما ذكروا هو أن يقولوا إن القرآن تحدث عن " إلياس " والضمائر العائدة عليه حديث المفرد ، ثم عاد فجمع " إلياس " وهو علم مفرد ، جمع المذكر السالم المجرور بـ " الياء " ، هكذا " إلياسين " ، ثم علقوا على هذا الذى فهموه بقولهم :

" فلماذا قال " إلياسين " بالجمع عن " إلياس " المفرد ؟ فمن الخطأ لغوياً تغيير اسم العَلَم حباً فى السجع المتكلف .

وجاء فى سورة " التين " ﴿ **والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الآمين** ﴾ (٢) .

---

(١) الصافات : ١٢٣-١٣٠ .

(٢) التين : ١-٣ .

فلماذا قال سينين بالجمع عن سيناء ؟ فمن الخطأ لغوياً تغيير اسم العَلَـــمَ حباً فى السجع المتكلف " ؟

هذا قولهم ، ذكرناه بالحرف الواحد . وكما يرى القارئ الكريم أن هــذه الشبهة شبهتان : إحداهما فى " إلياسين " ، والثانية فى " سينين " وإن كـــان المقصود لهم من الشبهتين واحداً .

الرد على الشبهة :

عرض المفسرون واللغويون عدة توجيهات لمجيء إلياس على إلياسين ، فالإمام الزمخشرى قال مرة إن زيادة الياء والنون ربما كان له معنـــى فـــى اللغة السريانية ، وقال مرة إن إلياسين لغة فى إلياس ، كما أن إدريسين لغـــة فى إدريس ، وعلى هذا فإن " إلياسين " ليس جمعاً . وإذا كان جمعـــاً فـــإن المراد إلياس مضموماً إليه من آمن به من قومـــه ، كمـــا قـــالوا الخبيبـــون والمهلبون ، فى الخبيب والمهلب أى تسمية الاتباع اسم المتبوع [1] .

ويقوى هذا قراءة نافع وابن عامر وعلى : آل ياسين ، وياســـين ، وأن " ياسين " هو أبو " إيليا " واحد [2] من أنبياء بنى إسرائيل .

ويرى هذا الرأى آخرون غير من تقدم ذكرهم [3] .

ويرى باحث حديث أن " إلياس " هو " إيليا " أحد أنبياء بنى إســـرائيل ، المذكور فى سفر الملوك الأول بهذا الاسم " إيليا " [4] .

---

(١) الكشاف (٣٥٢/٣) .

(٢) الدر المصون (٣٢٨/٩) .

(٣) معانى القرآن للفراء (٣٩١/٢) وعلل القراءات (٥٧٩) .

(٤) الإصحاح (١٦) الفقرات (٣١-٣٣) .

وأن أصله فى اللغة العبرية " إلياهو " أى " إيل + ى + ياهو :

أى إيلى ياهو ، أو يهو . ومعناه : الله إلهى أو الله ربى .

وأن مجيئه فى القرآن مرتين (إلياس) فى حالة المنع من الصرف للعلمية والعجمة . أما فى سورة الصافات فكان مجيئه مصروفاً هكذا " إلياسين " ، وأن علامة صرفه هى " التنوين " أما " الياء " فتولد عن إشباع الكسرة تحت " السين " أى أن أصله فى حالة الصرف " إلياسن " فلما أشبعت الكسرة صار " إلياسين " وأن المقتضى لصرفه هنا هو رؤوس الآى .

هذا فيما يختص بالشبهة الأولى . أما الشبهة الثانية وهى " طور سنين " فالرد عليها فى الآتى :

ليست " سينين " جمعاً كما توهم مثيرو هذه الشبهات ، الذين يقفون عند ظواهر الكلمات فإن وجدوا فيها ما يشبع رغبتهم فى التشفى من القرآن والتحامل عليه ملأوا الدنيا ضجيجاً ، وإن لم يجدوا ملأت قلوبهم الحسرة ، ورجعوا خائبين .. نعم ليست " سينين " جمعاً كما زعموا ، بل هى لغة فى "سيناء" بكسر السين ، كما أن " سَيناء " بفتح السين لغة فيها . وبهاتين اللغتين : سِيناء ، بالكسر ، وسَيناء بالفتح وردت القراءات ، فهى إذن فى القرآن لها ثلاثة لغات :

- سِيناء بكسر السين .
- سَيناء بفتح السين .

---

(١) انظر : من إعجاز القرآن ، العلم الأعجمى مفسراً بالقرآن (١٦٧/٢) للأستاذ رؤوف سعد .

- وسِنِيين ، بكسر السين وياءين ونونين .

كما أن البلد الحرام لها في القرآن عدة أسماء :

- مكـــــــة
- بكـــــــة
- أم القـــــرى
- البلد الأمين .

الشبهة الرابعة والعشرون

الإتيان بالموصول بدل المصدر

منشأ هذه الشبهة :

هو قوله تعالى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغـرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ..** ﴾ (١) .

وموضع الشاهد على الشبهة ــ عندهم ــ هو قوله عز وجل :

" من آمن بالله " وعلقوا عليه فقالوا : " والصواب أن يقال : ولكن الـــبر أن تؤمنوا بالله ، لأن البر هو الإيمان لا المؤمن " .

الرد على الشبهة :

قالوا فى العنوان الذى وضعوه العبارة الآتية :

" أتى باسم الفاعل بدل المصدر " .

يقصدون قوله تعالى : " ولكن البر من آمن بالله " .

وليس فى هذا القول اسم فاعل على الإطلاق : فلا " البر " اسم فـــاعل ؟ ولا " من " اسم فاعل ؟ ولا " آمن " اسم فاعل ؟ ولا " الله " اسم فاعل ؟

وهم ــ قطعاً ــ يقصدون " من آمن " و " مَنْ " هذا اســـم موصـــول ، وصلته " آمن " أى الذى آمن فمن أين أتوا باسم الفاعل الموضوع موضـــع المصدر فى الآية يا ترى ؟

---

(١) البقرة : ١٧٧ .

إنهم أتوا به من دائرة جهلهم الواسعة ببدهيات اللغة ، التى هم أميـــون فيها ، ومع هذا ينصبُّون أنفسهم قضاة على كتاب الله العزيـــز ذروة البيـــان المعجز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكان يجب عليهم أن يلتحقوا بمدارس أولية يتعلمون فيها " فك الخـــط " إذا أرادوا أن يبحثـــوا لأنفسهم عن مكان مناسب لأوضاعهم . ولهذا الخطـــأ الشـــنيع عدلنـــا عـــن عنوانهم إلى العنوان الذى وضعناه لهذه الشبهة " الإتيان بـــالموصول بـــدل المصدر " .

هذا ، وللعلماء فى توجيه وقوع " من آمن " خبرا عن " الـــبر " وهـــو خلاف الأصل ؛ لأن البر معنى ذهنى و " من آمن " ذات ، والذوات لا يخبر بها عن " المعانى الذهنية " ، للعلماء فى هذه المسألة ستة توجيهات نذكر منها أقواها فى الآتى :

الإمام الزمخشرى أورد فيها ثلاثة توجيهات :

الأول : أن فى الكلام مضافا محذوفا ، والتقدير . ولكن البر بر من آمـــن . وهذا التوجيه اشتهر بين جمهور العلماء ، ورده كثير منهم .

الثانى : تأويل " البر " بـــ " ذو البر " يعنى أن فى الكلام حـــذف مضـــاف لكن تقديره قبل " البر " أما التوجيه الأول فكان تقدير المضاف المحذوف قبل " من آمن " وهذا المضاف خبر " البر " الذى هو اسم " ليس " .

الثالث : أن يكون المصدر ، وهو " البر " موضوع موضـــع اســـم الفـــاعل للمبالغة ، كما فى قول الخنساء تصف فرس أخيها صخر .

ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت

فإنما هى إقبال وإدبار

فإقبال وإدبار مصدران حلا محل اسم الفاعل ، والتقدير ؛ هـــى مقبلـــة مدبرة .

وقد سبق الزمخشرى إلى الرأى الأول . ولكن البر برٌ من آمن ، شيخ النحاة سيبويه . وقد اختار سيبويه هذا الرأى ورجحه لاعتبار قوى فحواه .

أن السابق عليه هو نفى كون البر هو تولية وجوه المخاطبين نحو المشرق والمغرب .

ثم قال : والذى يستدرك ينبغى أن يكون من جنس ما وقع عليه النفى ، وهو ــ هنا ــ البر [٢] .

يريد شيخ النحاة أن يقول :

إن " لكن " أداة استدراك فى المعنى ، وإن طرفى الاستدراك ينبغى أن يكونا متجانسين ، والاستدراك : إما إثبات بعد نفى ، أو نفى بعد إثبات ، فمثلاً قوله تعالى : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾ [٣] .

ما قبل أداة الاستدراك " لكن " هو الإيمان والتقوى ، وما بعدها هو التكذيب ، فبين ما قبلها وما بعد تجانس ظاهر ، لأنهما سلوكيات قلبية وخلقية .

وكذلك ما قبل لكن فى الآية موضوع الدراسة هو البر الظاهرى المنفى ، وما بعدها ينبغى أن يكون هو البر الحقيقى المثبت .

وهذه لمحة طيبة من شيخ النحاة ، ولها صلة وثيقة بالتوجيه البلاغى لهذه المسألة ، سنعرضها فى الخلاصة إن شاء الله .

---

(١) الكشاف (٣٣٠/١) .
(٢) الكتاب (١٠٨/١) .
(٣) الأعراف : ٩٦ .

ومن الآراء التى طرحت فى هذا الصدد أن " البر " وقع موقـــع اســم الفاعل لإرادة المبالغة على وزان قول العرب " رجل عدل " حيث عدلوا عن رجل عادل ، إلى الإخبار عنه بالمصدر ، على اعتبار أن هذا الرجل لما كان كثير العدل صار كأنه العدل نفسه ، لا فـــرق بينـــهما . وهــذا رأى نحـــاة الكوفة [1] .

أما الفراء فقد جعل " من آمن " واقعاً موقع الإيمان وقال :

والعرب تجعل الاسم خبراً للفعل ، واستشهد على هذا بقول الشاعر :

لعمرك ما الفتيان أن تنبت اللحى

ولكنما الفتيان كل فتى نَدِى

حيث جعل الشاعر نبات اللحية خبراً عن الفتيان .

والمعنى : لعمرك ما الفتوة أن تنبت اللحى.[2] .

نكتفى بهذا القدر ــ مما ذكره النحاة ، ويكاد يجمع عليه المفســـرون ــ فى توجيه وقوع " من آمن " خبرا عن البر ، مـــع تســليم الكافــة بصحــة الاستعمال اللغوى فيه ، واجتهادهم هذا كان محاولة لفهم هذا الاستعمال .

والخلاصة :

من خلال النقول التى تقدمت عن النحاة واللغويين والمفسرين ، بطلـــت هذه الشبهة ولم يبق لها أثر ، فلا غرابة فى وضع " من آمن " خـــبراً عـــن " البر " سواء أخذنا بتوجيه شيخ النحاة سيبويه ؛ أن فى الكلام حذف مضـاف تقديره " ولكن البر بر من آمن " أو أخذنا بالتوجيه الذى أجاز وقوع المصدر موقع اسم الفاعل أو الفاعل .. فهذه كلها أساليب عربية فصيحة مســـتعملة ، ومن شواهدها فى القرآن كذلك قوله تعالى : " **وأنت حل بهذا البلد** " فوقـــع المصدر " حل " موقع اسم الفاعل " حالٌّ " أى مقيم بهذا البلد .

فإذا ولينا وجوهنا شطر البلاغة بعد النحو واللغة ، والبلاغة أوسع خطى منهما ، فإننا نلمح فى التعبير القرآنى " ولكن البر من آمن " معنى لطيفاً دقيقاً ذا مغزى كبير لأن "من آمن " يدل على ذوات تمكن الإيمان فـــى قلوبـــها . فالإيمان " حالٌ " فى تلك القلوب ، ولو كان قد قيل : " ولكن البر الإيمـــان " لكان هذا الإيمان مجرد فكرة لا محل لها ، بل هى مفصولة عن الـــذوات . يعنى إيمان نظرى لا عملى . وهذا ليس بسديد ، لكن لما جعل هـــذا وصفـــاً للذوات المدلول عليها بـــ " من " التحم الإيمان بالمؤمن ، والمؤمن بالإيمان ، فتحول إلى إيمان عملى متمكن فى القلوب ، فى مقابلة الإيمان الشكلى الـــذى لم يرضه القرآن ، وهو توجه الوجوه نحو المشرق والمغرب . وهذا ما ألمح إليه سيبويه من قبل .

الشبهة الخامسة والعشرون

وضع الفعل المضارع موضع الماضى

منشأ هذه الشبهة :

هو قوله عز وجل : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ (١) .

ذكروا هذه الآية ، ثم قالوا فى تصويب الخطأ الذى توهموه فيها :

" كان يجب أن يعتبر المقام الذى يقتضى صيغة الماضى ، لا المضارع فيقول : " قال له كُنْ فكان " ؟!

الرد على الشبهة :

وجَّه المفسرون والنحاة قوله تعالى " كُنْ فيكون " فأوجز الزمخشرى القول فيها فقال : هى حكاية حال ماضية (٢) .

وقد أخذ هذه العبارة عن الزمخشرى الإمام البيضاوى ولم يزد عليها (٣) .

وهى عبارة تحتاج إلى بيان ما هى حكاية الحال الماضية ؟

يريد الإمامان أن المضارع " يكون " دلالته فى الآية أن الله عز وجل يصور للمخاطبين ترتيب الأحداث ساعة حدوثها فى الزمن الذى خلق الله فيه آدم ، وفائدته نقل أذهانهم إلى تلك اللحظة كأنهم يعاينونها بأبصارهم .

---

(١) آل عمران : ٥٩ .

(٢) الكشاف (٤٣٣/١) .

(٣) أنوار التنزيل (١٦٢/١) .

وهذه هى دلالة المضارع إذا وضع موضـــع المـــاضى عنـــد علمـــاء المعانى ، هى بعث الماضى وتصويره فى صورة الذى يحدث فى الحال .

ومن أمثلته عندهم قول الشاعر يحكى صراعًا حدث بينه وبين الضَّبُـع ، وهو حيوان مفترس .

فأضربها بلا دهش فخـرَّت
صريعًا لليدين ، وللجران [1]

الشاعر ضرب الضبع فى الماضى ، فلما حكى صراعه معـــها للنـــاس عبَّر عن الماضى " فضربتها " بالمضارع " فأضربها " والدلالـــة البلاغيـــة للعدول عن الماضى إلى المضارع هىَ استحضار صورة الحدث الذى وقـــع فى الماضى ، كأنه يحدث الآن فى زمن التكلم .

هذا ما أراده الشيخان : الزمخشرى والبيضاوى من عبارة " حكاية حال ماضية " ليبينا سر العدول عن " فكان " إلى " فيكون " فى الآية الكريمـــة ، التى ادعى مثيرو هذه الشبهات أن فيها خطأً نحويًـــا ، وهـــم عـــن معرفـــة الصواب والخطأ بمعزل .

وقال بعض المفسرين اللغويين فى توجيه " فيكون " :

" يجوز أن يكون على بابه من الاستقبال ، والمعنى : فيكون كما يـــأمر الله فيكون ، حكاية للحال التى يكون عليها آدم حين خلقه الله ، ويجـــوز أن يكون " فيكون " بمعنى كان ، وعلى هذا أكثر المفكرين والنحويين ، وبـــهذا فسره ابن عباس رضى الله عنه " [2] .

ونعيد السؤال مرة أخرى :

لماذا عُدِل عن معنى الماضى إلى لفظ المضارع ومعناه ؟

---

(١) يعنى سقطت على الأرض على جنبها .

(٢) انظر : الدر المصون (٣/٢٢٠-٢٢١) .

الجواب على هذا السؤال هو ما قدمناه فـــى توضيـــح عبـــارة الإمـــام الزمخشرى ، التى تناقلها عنه النحاة والمفسرون وهو إيثار المضارع علـــى الماضى لاستحضار صورة الحدث فى الذهن ، وكأن الأبصار تراه الآن .

هذه خلاصة أمينة ووافية لما قالـــه العلمـــاء فـــى توجيـــه " فيكـــون " مضارعًا مرفوعًا لا مجزومًا جوابًا للأمر ، ولا ماضيًا .

والخلاصة :

بعد عرض توجيهات المفسرين والنحـــاة ، يطيـــب لنـــا أن نستكشـــف إسهامات البلاغة فى تأصيل التعبير القرآنى " ثم قال له كن فيكون " الـــذى اعتبره مثيرو هذه الشبهات معيبًا بالخطأ النحوى ، والنحو وإن كان أســـاس البلاغة ، وجذورها العميقة ، التى أثمرت كل الإيحاءات البلاغية ، فإن هناك حقيقة يجب الوقوف عليها ، وهى أن البلاغة تبدأ من حيث ينتهى النحـــو ، فالنحو ــ ومعه الصرف ــ يهتم باستقامة الأساليب وصحتها ، أما البلاغـــة فتنظر فى الأساليب ، وتغوص وراء ما فيها من المعانى الخبيئة ، والأسـرار الدفينة وتبحث عن الإيحاءات الكامنة وراء كل لفظ وجملـــة وتركيـــب ، أو تبحث عن معنى المعنى لا معنى اللفظ ، أو المعانى الثانيـــة الخفيـــة غـــير المباشرة الظاهرة .

وإذا كان ما قدمناه من توجيهات كافيًا فى إزالة هذه الشبهة التى توهمها هؤلاء " الخواجات " فإن دور البلاغة فى تأصيل هذا التعبير القرآنى مســـاير لتوجيهات النحاة والمفسرين .

إن هذا التعبير " كن فيكون " هو الواجب بلاغة وبيانًا وإعجازًا ونظمًا أما لوقيل " كن فكان " لخلا هذا التعبير من ثلاثة أرباع الحسن الذى هو فيه ، وذلك للاعتبارات الآتية :

فأولاً : دلالة الماضى الأصل فيها الانقطاع عن الوجود المستمر ، ولذلك يعبر عنه النحويون بأنه : ما دل على حدث وقع وانقطع قبل زمن التكلم .

وهذا غير مراد فى حكاية الله كيفية خلقه لآدم ، لأنه لو قيل : كن فكان لصدق هذا التعبير عن وجوده لحظة واحدة من الزمن ، ولو كان قد مات لحظة خلقه .

أما " كن فيكون " فدلالتها استمرار وجوده حتى أنجب مَنْ أنجب من ذكور وإناث ، وما بث منهما من آباء البشر وأمهاته ، كما قال عز وجل :

﴿ وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساءً ﴾ (١) .

لأن دلالة المضارع تبدأ من الحال ، وتستمر فى الاستقبال .

وثانياً : أن هذا التعبير " كن فيكون " يؤذن بتقدير مسند إليه قيل " فيكون " أى " فهو يكون " وفى هذا تكرار إسناد " الكينونة " لآدم :

مرة يجعل " يكون " خبرًا عن ضمير آدم " هو "

ومرة بإسناد فعل الجملة الخبرية " يكون " إلى ضمير آدم المستكن فى الفعل وجوبًا ، على أنه فاعل له . وتكرار الإسناد من أقوى أساليب التوكيد فى البلاغة العربية .

وثالثاً : فى الفعل المضارع " يكون " تناسب آسر لرءوس الآيات (الفواصل) لأن ما قبله كلها فواصل مبنية على حرف المد إما الياء ، وهو الأكثر ، وإما الواو مع النون ، وهو كثير ، أو مع الميم .

وكذلك ما بعدها ، والتناسق الصوتى فى النظم القرآنى المعجز ، وجه من وجوه إعجازه ، التى باين بها كلام البشر والجن ، وجعل لتلاوته حلاوة جذابة للأسماع ، كما جذبت معانيه القلوب ، وأسرت العقول ، واستولت على ألباب أولى الألباب .

---

(١) النساء : ١ .

الشبهة السادسة والعشرون

عدم الإتيان بجواب " لمَّا "

منشأ هذه الشبهة :

هو قوله تعالى : ﴿ **فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون** ﴾ (١) .

وموطن الشاهد عندهم هو قوله جل شأنه : ﴿ **فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا إليه ..** ﴾ .

بحثوا عن جواب " لما " فلم يجدوه ، فرموا القرآن بالخطأ ؛ لأنه لم يذكر جواب " لما " ثم قالوا :

" فأين جواب لما ؟ ولو حذفت الواو التى قبل لما لاستقام المعنى " .

الرد على الشبهة :

قلنا إن هذه الشبهة تتعلق بفن الحذف ، وهو مبحث بلاغى أكثر منه نحويًّا .

إن كل محذوف عندهم غلط شنيع ، وكل حذف خلط فظيع والناس ــ كما قيل فى المثل ــ أعداء ما جهلوا .

يقول الإمام عبد القاهر الجرجانى ــ شيخ البلاغيين ــ فى وصف الحذف البلاغى ، وروائع ثماره ، وبديع آثاره :

---

(١) يوسف : ١٥ .

" هو بحث دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تُبن " (١) .

هذه هى منزلة الحذف فى البيان العربى ، السارى فى أعطاف الكـــلام سريان النسيم فى الرياض الفيحاء ، وقد شاع شيوعاً لا حصر له فى القــرآن الكريم ، إذ لم تكد تخلو منه سورة من سوره ، ولا آية من آياته والمعـــانى التى يدل عليها الحذف فى القرآن تكاد تعادل ربع معانى القرآن كله . وهـــو منهج واسع وحكيم من مناهج اللغة العربية لا مثيل له .

ولذلك نجد العلامة اللغوى العظيم ابـــن جنـــى ، يســميه فـــى كتابـــه "الخصائص" اسمًا طريفًا ، هو : شجاعة العربية " .

وينتمى الحذف البلاغى إلى فن بلاغى حصر بعض العلمـــاء البلاغـــة فيه ، وهو " فن الإيجاز " أى قلة الألفاظ مع كثرة المعانى .

وله مقامات يتألق فيها ، ومقتضيات يوفى بأغراضها .

ومن مقاماته الحذف الوارد فى آية سورة " يوسف " التـــى رآهـــا مـــن عشا بصره ، وغلظ قفاه ، وضل عقله خطأ ينبغى أن يصوَّب ، ولحنًا يجـــب أن يقوَّم .

إن حذف جواب " لما " هنا المراد منه تهويل وتفظيع ما حدث من إخوة يوسف ليوسف ، بعد أن أذن لهم أبوهم بالذهاب به إلى الصحراء ، وقد روى عنهم أنهم أخذوا يؤذونه بالقول والفعل وهم فى الطريق إلى المكـــان الـــذى قصدوه ، حتى كادوا يقتلونه ، والدليل على هذا قوله تعالى حكاية عن أحـــد إخوته :

---

(١) دلائل الإعجاز (١٤٦) تحقيق الشيخ محمد محمد شاكر .

﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ [1] .

فالنهى عن القتل لا يكون إلا عند العزم عليه ومباشرة أسبابه .

لذلك حذف جواب " لما " لتذهب النفس فى تصوره كل مذهب ، وحذف هذا الجواب فيه دلالة على طول ما حدث منهم ، وعلى غرابته وبشاعته ، لذلك قدره الإمام الزمخشرى فقال :

" فعلوا به ما فعلوا من الأذى .. وأظهروا له العداوة وأخذوا يهينونه ويضربونه ، وإذا استغاث بواحد منهم لم يغثه إلا بالإهانة والضرب .. " [2].

وسار على هذا النهج الإمام البيضاوى [3] .

وذهب غيرهما فى تقدير الجواب مذاهب أخرى ، والذى أتاح لهم هذا الاختلاف فى تقدير الجواب المحذوف هو الحذف نفسه [4] .

أما اقتراح مثيرى الشبهة أن يحذف " الواو " فى " وأوحينا " ليستقيم المعنى فخطأ جسيم ؛ لأن " أوحينا " ليس هو جواب " لما " وإنما هو معطوف على الجواب المقدر لأن جواب " لمَّا " هو ما حدث ليوسف من إخوته بمجرد خروجهم به من عند أبيهم وبعدهم عنه قليلاً .

ودليل ذلك هو العطف بالفاء فى " فلما " لأنها تفيد الفورية والترتيب .

---

(١) يوسف : ٩ .

(٢) الكشاف (٣/٣٠٦-٣٠٧) .

(٣) أنوار التنزيل (١/٣٨٧) .

(٤) الدر المصون (٦/٤٥٣) .

الشبهة السابعة والعشرون

الإتيان بتركيب أدى إلى اضطراب المعنى

منشأ هذه الشبهة :

هو قوله تعالى : ﴿ **إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا لتؤمنـــوا بـــالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً** ﴾ (١) .

وموطن هذه الشبهة ــ عندهم ــ هو الضمائر الثلاثة فى :

" تعزروه " ــ " توقروه " ــ " تسبحوه " .

ذكروا هذا ، ثم قالوا :

" وهنا ترى اضطراباً فى المعنى ، بسبب الالتفات من خطاب محمـــد إلى خطاب غيره ، ولأن الضمير المنصوب فى قوله " وتعزروه وتوقـروه " عائد على الرسول المذكور آخرًا .

وفى قوله " وتسبحوه " عائد على اسم الجلالة المذكور أولاً . هـذا مـا يقتضيه المعنى ، وليس فى اللفظ ما يعينه تعييناً يزيل اللبـس . فـإن كـان القول : وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً عائدًا على الرسول يكـون كفرًا لأن التسبيح لله فقط ، وإن كان القول " وتعزروه وتوقروه وتسـبحوه " عائدًا على الله يكون كفرًا ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يحتاج لمـن يعـزره ويقويه " .

الرد على الشبهة :

لقد أطالوا ــ على خلاف عادتهم ــ فى بيان هذه الشبهة كمـا تـرى . والسبب أنهم أرادوا أن يضيقوا علينا الخناق أو يسدوا علينا الطريق ليحكموا

---

(١) الفتح : ٨-٩ .

علينا قبضتهم ، على رأى المثل العامى " حلِّق حُوشْ " بيان ذلك أنهم يقولون لنا :

إذا جعلتم الضمائر الثلاثة عائدة على الرسول فقد كفرتم لأن الرســـول بشر ، والبشر لا يجوز أن يسبحهم أحد ، لأن التسبيح لا يكون إلا لله .

وإذا جعلتم الضمائر الثلاثة عائدة على الله فقد كفرتم لأن الله غنى عـــن خلقه لا يحتاج منهم إلى تقوية ولا خلافه . فأين ــ إذن ــ أنتم تذهبون ؟

ونقول لهؤلاء الكارهين لما أنزل الله على خاتم رسله :

نحن ــ المسلمين ــ لا نسبح أحداً غير الله ، ولا نعبد أحداً غـــير الله ، ولا نرفع حاجاتنا إلى أحدٍ غير الله ، ولا نطلب غفران ذنوبنا من أحدٍ غـــير الله ، ولا نقدم كشف حساباتنا إلى أحد غير الله ، ولا نرجو ولا نخاف أحـــداً غير الله . والكتاب الذى أنزله الله على خاتم رسله لا لفَّ فيـــه ولا دوران ، ولا قلق ولا اضطراب ، لا فى مبانيه ، ولا فى معانيه ، ولا فـــى مقـــاصده وقيمه ، فمن توَّهم فيه اضطراباً فالاضطراب فى عقله هو ، وفى فهمه هـــو لا يتعداه إلى كتاب الله ، ولا إلى المؤمنين به .

والآية التى وصفوا تركيبها بأنه أدى إلى اضطراب المعنى المؤدى إلـــى الكفر ، أجلى من الشمس فى رائعة النهار ومرجع الضمائر الثلاثة ، التـــــى اتخذوا منها منشأً لهذه الشبهة محددة ــ عقلاً وشرعاً ــ دون أى التواء .

فالضمير فى " وتسبحوه " عائد على الله قطعاً دون أدنـــــى شـــك . لأن التسبيح عبادة ، ولم يؤذن الله لعباده أن يعبدوا أحداً غيره :

(وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) [1] .

---

(١) الإسراء : ٢٣ .

﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ (١) .

﴿ يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ﴾ (٢) .

أما مرجع الضمير فى " وتعزروه " فـــهو الرســول ﷺ دون خلــط أو تشويش .

وأما الضمير فى " وتوقروه " فلا مانع لا عقلاً ، ولا شرعاً أن يكـــون عائداً على الله ، لأن توقير الله هو إكباره وتعظيمه ، وقد قال نـــوح لقومــه موبخاً لهم ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً** ﴾ (٣) .

ويجوز أن يكون عائداً على الرسول ، وتوقيره هو احترامـــه وإنزالــه منزلته من التكريم والطاعة .

هذا هو بيان ما توهموه من لبس ، دون الرجوع إلى ما قاله النحـــاة أو المفسرون فالمسألة لا تحتاج إلى أكثر مما أوجزناه .

والخلاصة :

القرآن خطاب للعقلاء الأذكياء ، وليس خطاباً للمتغابين أو الأغبيـــاء ، وفى الإنسان حاسة كثيراً ما يعوّل عليها القرآن فى خطابه ، تستجلى خفايـــا معانيه ، وتدرك روائع إيماءاته ودقائق أسراره .

تلك الحاسة هى الخصائص العقلية ، والملكـــات الذهنيـــة أو الذوقيـــة المثقفة .

فمثلاً قوله تعالى : ﴿ **وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهــن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف** ﴾ (٤) .

---

(١) الأعراف : ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ .

(٢) النور : ٥٥ .

(٣) نوح : ١٣ ، ١٤ .

(٤) البقرة : ٢٣٢ .

ترى الخطاب فيها واحداً " طلقتم ــ تعضلوهن " والنظرة العجلى تحسب أن المخاطب فى الموضعين صنف واحد من الرجال لكن العقل ــ بمعونـــة الشرع ــ سرعان ما يفرق بين الذين خوطبوا بـــ " طلقتم " والذين خوطبـــوا بـــ " تعضلوهن " فالمخاطب الأول هم الأزواج الذين يطلقـــون زوجاتـــهم ، والمخاطب الثانى هم أولياء أمور المطلقات ، يقول لهم القرآن إذا أراد الزوج المطلق طلاقاً رجعياً فى العدة أو بعد العدة أن يعيد زوجته إليه بالمراجعـــة أو العقد الجديد وكانت الزوجة راغبة فىْ ذلك ، فعلى أولياء أمرها ألا يقفـــوا فى طريقها .

فالذى فرَّق بين مرجعى الضميرين ــ هنا ــ العقل ، بمعونة الشـــرع ، وهذه الآية شبيهة بالآية التى أثيرت حولها الشبهات ، التى فرغنا من الـــرد عليها . ولو كان نظر مثيرى هذه الشبهات وقع على آية البقرة هذه ، لقـــالوا إن فيها تركيباً أدى إلى اضطراب المعنى ، ولا وجود لاضطـــراب إلا فـــى أوهامهم .

الشبهة الثامنة والعشرون

صَرْفُ الممنوع من الصرف

منشأ هذه الشبهة :

هو آيتان من سورة واحدة .

إحداهما قوله تعالى : ﴿ **إنا اعتدنا للكافرين سلاسلاً وأغلالاً وسعيراً** ﴾ (١) .

والثانية : ﴿ **ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا** ﴾ (٢) .

وشاهدهم فى الآية الأولى كلمة " سلاسلا " ذكروها ثم قالوا : فلماذا قال " سلاسلا " بالتنوين مع أنها لا تُنَوَّنُ لامتناعها عن الصرف ؟

وقالوا عن الآية الثانية : لماذا آتى بها ؟ " بالتنوين مع أنها لا تُنَـــوَّنُ ؛ لامتناعها عن الصرف ، لأنها على وزن مصابيح ؟

هذا قولهم ، وهو مبلغ علمهم أو مبلغ جهلهم وافترائهم لأنهم ــ كما تقدم مرات ــ يحفظون شيئاً وتغيب عنهم أشياء ، وما حفظوه ليس بمغنٍ لـــهم ، وكان الصمت استر لهم لو كانوا يحترمون أنفسهم .

الرد على الشبهة :

فى هذه الشبهة افتراء وجهل :

أما الافتراء فهو قولهم إن الكلمتين سلاسلا وقواريرا تقرآن بـــ " التنوين " والتنوين : نون ساكنة فى آخر الكلمة المصروفة تنطق فى الوصـــل دون الوقف ، ولا تكتب ، يعنى لا صورة لها فى الكتابة والخط .

---

(١) الإنسان : ٤ .

(٢) الإنسان : ١٥ .

وهذا افتراء منهم ؛ لأن الكلمتين فى قراءة حفص عن عاصم وغيرهما لا تنونان ، وإنما يوقف عليهما بالفتح لا غير ولا يلتفت إلى " الألف " الذى فى آخر كل منهما هكذا " سلاسلا " ــ " قواريرا " .

وللقراء فى هاتين الكلمتين مذاهب ، وبها نزل القرآن فقد قرأ نافع وابن كثير والكسائى وأبو جعفر " قواريراً " بالتنوين مصروفة منونة فى الموضعين معاً " قواريراً " و " سلاسلاً " .

وقرأ الباقون ، ومنهم حفص عن عاصم " سلاسلا " و " قواريرا " بدون تنوين على المنع من الصرف وعلة المنع من الصرف هى صيغة منتهى الجموع والذين قرأوهما بالتنوين (مصروفتين) لهم سند فى ذلك .

ووجه صرف الكلمتين أن بعض العرب كانت تصرف كل الكلام ، وليس فى لهجتهم كلام مصروف وكلام غير مصروف . بل هو كله مصروف ، والقرآن نزل أصلاً بلغة قريش ، ثم بلهجات القبائل العربية الأخرى [1] .

---

(١) انظر : التوجيهات النحوية والصرفية للقراءات (٥٩٨/١) للدكتور / على محمد فاخر .

الشبهة التاسعة والعشرون

الإتيان بتوضيح الواضح

منشأ هذه الشبهة :

هو قوله جل ثناؤه :

﴿ .. فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة .. ﴾ (١) .

موطن الشاهد على هذه الشبهة عندهم هو قوله تعالى : " تلك عشرة كاملة " بعد قوله عز شأنه : " فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم "

وفى تصوير هذه الشبهة قالوا :

" فلماذا لم يقل : تلك عشرة ؟ مع حذف كلمة " كاملة " تلافياً لإيضاح الواضح ؟ لأنه مَنْ الذى يظن أن العشرة تسعة " ؟!

الرد على الشبهة :

من الآيات الكونية لله حركة القمر فى رحلته الشهرية حيث يظهر ضعيفاً نحيفاً فى أولى لياليه ، حتى لا يكاد يراه أحد إلا بأجهزة الرصد الحساسة ، ثم ينمو ويكبر ليلة وراء ليلة ، وفى كل ليلة تالية تصحبها ظاهرتان فى تطور القمر :

---

(١) البقرة : ١٩٦ .

الظاهرة الأولى : إطالة مكثه بعد غروب الشمس ، فهو فـــى أولـــى لياليـــه لا يمكث إلا لحيظات فى شكله الضعيف النحيف .

أما الظاهرة الثانية : فهى تطور حجمه من الضعف والنحافـــة إلـــى القـــوة والضخامة .

أما فى الليالى التالية فتزيد مدة مكثه بعد غـــــروب الشـــمس ، ويكـــبر حجمه ، ليلة تلو ليلة .

وفى ليلة الخامس عشر من بدء ولادته تصل الظاهرتان إلـــــى أقصـــى درجة لهما .

فيمتد مكثه طول الليل ، منيراً فى الوجود .

ويكتمل قرصه فيملأ الدائرة المخصصة له ويكتمل نوره ١٠٠% ويحيل الليل المظلم إلى نور قوى هادئ فيه منافع للنـــاس ، ويُعجِـــب النـــاظرين ، ويتغنى بجماله الشعراء ، ويشبهون به كل ما يرونه :

- حسناً جميلاً .
- بهياً ساحراً .
- رفيع الشأن شامخاً .

حتى العامة من الناس ــ غير الشعراء المرهفى الحس ــ يفتنون بـــه ، ويعبرون عن بهائه وسحره . ويمجدون بوصفه كل جميل ، فيقولون : " قمر أربع عشرة " أى قمر الليلة التى يرون فيها القمر يوم الرابع عشـــر ، التـــى سيعقبها اليوم الخامس عشر من الشهر ، والقمر فى هذه الليلة يبلـــغ كمـــال شبابه ونضجه .

ومنذ فجر الحياة كان القمر ، وبخاصة فى ليلة كماله مبعث الإعجـــاب والبهارة والابتهاج فى نفس كل من يراه ، ولم يشذ عن هذا الإحساس أحـــد ،

فإن رأيت من يذم القمر فى ليلة كماله فاعلم أنه رجل مريض الحس ، فاسد الذوق ، غريب الأطوار .

والأساليب البيانية شأنها شأن القمر ، فى تدرج أنماطها وتفاوت درجاتها :

فمنها الحديث اليومى العادى ، الذى يخلو من الخصائص الفنية ومنها المتوسط الدرجة ، الذى لا يمدح ولا يذم .

ومنها البيان العالى المؤثر فى النفوس ، الممتع للعواطف المثرى للفكر.

ومنها البيان الأعلى ، المعصوم من النقد ، الذى يحس الناس برونقه وإحكامه وجماله وكماله وجلاله ، وهو القرآن المعجز العظيم .

ومن أساليب هذا البيان الأعلى الذى لا يضارعه بيان ، أسلوب التوكيد كما فى قوله تعالى ﴿ **تلك عشرة كاملة** ﴾ .

ونبدأ بأقوال الأئمة فى بيان قيمة " تلك عشرة كاملة " فى تقوية الأسلوب وتوفير العناية بالمعنى ، نبدأ بما قاله الإمام الزمخشرى :

" فإن قلت : ما فائدة الفذلكة " ؟ قلت : الواو قد تجئ للإباحة فى نحو قولك : جالسى الحسن ، وابن سيرين ، ألا ترى أنه لو جالسهما جميعاً ، أو واحداً منهما كان ممتثلاً ، فَفُذْلِكَتْ [1] نفياً لتوهم الإباحة .

وأيضاً ففائدة الفذلكة فى كل حساب أن يُعْلَم العدد جملة كما عُلِم تفصيلاً ليحاط به من جهتين فيتأكد العلم به .

وفى أمثال العرب :

" علمان خير من علم " .

وكذلك " كاملة " تأكيد آخر ، وفيه زيادة توصية بصيامها ، وألا يتهاون بها ، ولا ينقص من عددها .

---

(١) الفذلكة مصطلح فنى معناه : إجمال المعنى فى عبارة موجزة بعد بسطه فى عبارة طويلة .

وقيل " كاملة فى وقوعها بدلاً من الهدى " [1] .

يعنى أن فى هذه العبارة توكيدين :

الأول فى : تلك عشرة " .

والثانى فى " كاملة " .

وقد بين الإمام ــ رحمه الله ــ المعانى التى أفادها هذا التركيب ولنا إضافة على ما قاله سنوضحها فى الخلاصة التى تعودنا على جعلها خاتمة كل مبحث .

ويتابع الإمام البيضاوى ما قاله الإمام الزمخشرى ويضيف إليه جديداً فيقول : " تلك عشرة " فذلكة الحساب ، وفائدتها ألا يتوهم متوهم أن " الواو " ــ أى فى " وسبعة إذا رجعتم " ــ كقولك جالسى الحسن وابن سيرين ، وأن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلاً .. و " كاملة " صفة مؤكدة تفيد المبالغة فى المحافظة على العدد ، أو مبينة كمال العشرة ، فإنه أول عدد كامل إذ به تنتهى الآحاد وتتم مراتبها " [2] .

وحذا الإمام الشوكانى حذوهما ، ثم قال : إنه مثل " كتبتُ بيدى " والكتابة لا تكون إلا باليد [3] .

ويسوق غيرهم شواهد من الشعر العربى على تأصيل هذا الأسلوب فى لغة العرب ، مثل :

فسرتُ إليهمُ عشرين شهراً

وأربعة فذلك حِجّتان

---

(١) الكشاف (٣٤٥/١) .

(٢) نوار التنزيل (١١١/١) .

(٣) فتح القدير (٢٢٧/١) .

أى : سنتان . وقول الآخر :

ثلاث بالغداة فهُنَّ حسبى

وست حين يدركنى العشاء

فذلك تسعة فى اليوم ربى

وشُرب المرء بعد الرى داء [1]

والخلاصة :

لقد أصاب الأئمة فى الإشارة إلى معنى جملة " تلـــك عشـــرة كاملـــة " وبخاصة فى قولهم إنها أفادت دفع توهم من يحسب أن " الواو " بمعنى " أو " تفيد الإباحة ، فليس ببعيد أن يفهم بعض الناس أن المتمتع بالعمرة إلى الحـــج كفارته الصيام :

فإن صام فى الحج فيكفيه ثلاثة أيام ، ومن لم يصم حتى رجع إلى بلـــده فعليه صيام سبعة أيام ، وأن يفهم الاكتفاء بالثلاثة فى الحج للتخفيـــف علـــى المحرمين بالحج ويؤدون مناسكه ، أما بعد الرجوع إلى الوطن فـــلا داعـــى للتخفيف ، لأنه غير مشغول بالمناسك ، وليس غريباً عن بلده . ليس ببعيد أن يقع هذا الفهم فى أذهان بعض الناس حتى الفقهاء المجتهدين .

لذلك كان قوله تعالى : " تلك عشرة " واصفاً لها بأنها " كاملة " دافعـــاً لذلك الفهم .

وبذكر " كاملة " تحوّل قوله تعالى : " تلك عشرة " إلى نص محكم غـير قابل للاحتمال أو التأويل .

---

(١) الدر المصون (٢/٣٢٠) .

أما من حيث البلاغة والبيان ، فإن كلمة " كاملة " وصفـــاً لـــــ " تلـــك عشرة " تفيد تعظيم هذه الأيام العشرة وكمال فضلها عند الله عز وجل .

بدليل أنه أشار إليها باسم الإشارة الموضـــوع للبعيـــد ، تنويـــهاً ببعـــد منزلتها ، وكان يمكن أن يقال هذه عشرة كاملة ، وهذه اسم إشارة للقريـــــب سواء كان قرباً حسياً أو قرباً معنويًّا .

هذه المعانى والدقائق والأسرار ما كانت لتُفهَم لولا وجود تلك العبـــارة ، التى عدَّها مثيرو الشبهات عيباً من عيوب الكلام .

الشبهة الثلاثون

الالتفات من المخاطب إلى الغائب قبل تمام المعنى

منشأ هذه الشبهة :

هو قوله تعالى : ﴿ **هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين** ﴾ (١) .

وشاهدهم فى الآية هو قوله تعالى : " حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم " .

الرد على الشبهة :

هذه الشبهة المثارة هنا على هذه الآية ، ليست لها صلة ، لا من قريب ، ولا من بعيد ، بالنحو والصرف بل هى مسألة بلاغية صرفة ، والبلاغة ــ عموماً ــ لها عنصران كبيران ، أحدهما خارجى عن شخصية البليغ ، والثانى ممتزج بشخصيته .

---

(١) يونس : ٢٢ .

العنصر الأول الخارجى :

هو مجموعة القواعد والأصول التى تكوِّن علوم البلاغة باعتبارها علماً راقياً من علوم اللسان ؛ لأن لكل علم أو فن أصوله ومبادئه الخاصة به .

وهذه القواعد والأصول يمكن تَعلُّمها وإتقانها لكل راغب صادق الرغبة فيها .

العنصر الثانى الذاتى :

الممتزج بذات البليغ ، والذى يجرى فيه مجرى الروح فى الجسد هـــو الإحساس المرهف بالجمال الفنى ، والقدرة على التذوق ، والخبرة بالأساليب إنشاءً ودراسة ونقداً وتقويماً . وليس بلازم أن يكـــون العــارف بــالقواعد والأصول البلاغية ، ليس بلازم أن يكون بليغاً .

يقول الإمام الزمخشرى البليغ الذواقة ، فى الالتفات من الخطاب إلـــى الغيبة :

" فإن قلت ما فائدة صرف الكلام من الخطـــاب إلـــى الغيبـــة قلـــت : المبالغة ، كأنه يذكر حالهم لغيرهم ليعجبَّهم منها ، ويستدعى منـــهم الإنكـــار والتقبيح " [1] .

هذه العبارة فى حاجة إلى إيضاح ، هو الآتى :

هؤلاء الذين تحدث الله عنهم فى هذه الآية ، أنعم الله عليهم بالتسيير فـــى البر والبحر ، وامتحنهم بالريح العاصف بعد أن أقلعت بهم الفلك تمخر عباب الماء ، فتوجهوا إلى الله يطلبون منه الإنجاء ، واعديـــن الله إذا أنجـــاهم أن يشكروه ويعرفوا فضله . فلما أنجاهم نسوا ما وعدوا الله به ، وعادوا إلـــى معصيته كما قال ربنا عز وجل :

---

(١) الكشاف (٢/٢٣١) .

﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق .. ﴾ (١) .

وكانت فائدة الالتفات عن خطابهم المباشر " كنتم فى الفلك " إلى حكايـــة حالتهم العجيبة إلى غيرهم ، لكى يستثير سخطهم عليهم ، ويقبِّحـــــوا ســـوء صنيعهم مع الله .

والخلاصة :

ما قاله الإمام الزمخشرى فى هذه الآية لمحة طيبة ، ومعنى لطيـــف دل عليه هذا الالتفات من المخاطب إلى الغائب ، وقد تناقله عنه المفسرون مـــن بعده .

أما البلاغيون ــ بعد الزمخشرى ــ فقد أضافوا ملمحًا بلاغيـــاً آخـــر ، يساير ما فهمه الإمام الزمخشرى ولا ينافره ، فقد قالوا :

" إن السر فى الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ، أن " الغيبـــة " تناســـب الفعل " جرين " فهم كانوا على الشاطئ والفلك ترسو إلى جنبه ، وأخذ الناس يركبون الفلك ، حتى إذا تكاملوا على ظهره ، وأقلعت آخذة فى السير السريع (الجرى) غابوا عن الأنظار ، فهم ليسوا حاضرين حتى يُخاطَبُوا . ولكنـــهم غائبون غائبون فجرى الحديث عنهم مجرى الحديث عن الغائب " .

إن كلتا اللمحتين البلاغيتين تنبثقان من هذا التعبـــير " وجريـــن بـــهم " ولا تنافر واحدة منهما الأخرى .

هذا ما لم يكن مثيرو هذه الشبهات أهلاً لفهمه لبلادة حســـــهم ، وفســـاد ذوقهم .

والالتفات ــ عامة ــ فن عريق من فنون البيان فى البلاغة العربيـــــة ، طرقه الشعراء فى الجاهلية ، وشاع فى كلامهم ، ووردت منه نماذج وصور

---

(١) يونس : ٢٣ .

فى الذكر الحكيم ، وفى أحاديث خاتم النبيين ، وأسراره لا تحصر ، ودلالاته لا تنضب ، وكفاه فضلاً أنه يروِّح عن مشاعر السامعين وينتقل بهم من لـون إلى لون ، فى معرض جذاب ، لا يقدره حق قدره إلا من رُزق حسن الفهم ، والقدرة على التذوق لمرامى الكلام .

الشبهة الحادية والثلاثون

الإتيان بفاعلين لفعل واحد [1]

منشأ هذه الشبهة :

هو قوله تعالى : ﴿ **لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هـذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون** ﴾ [2] .

وشاهدهم فى هذه الآية هو الجمع بين : " وأسروا " ، " الذين ظلمـــوا " لأنهم جزموا بأن " الواو " فى " أسروا " فاعل ، كما جزموا بأن " الذين " فى " الذين ظلموا " فاعل كذلك .

ولما كان كل فعل لا يتطلب إلا فاعلاً واحداً ، صاحوا بـــأعلى صـــوت قائلين :

إن القرآن أخطأ فجعل للفعل الواحد فاعلين ؟!

الرد على الشبهة :

قال شيخ المفسرين البيانيين الإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشرى يقول : " أبدل الذين ظلموا من " واو " " وأسروا " إشعاراً بأنهم الموســـومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به .

---

(١) ليست هذه عبارتهم ، بل هى تعبير بديل من عندنا عنها . أما عبارتهم فهى " أتى بضمير فـــاعل مـــع وجود فاعل " وهى خطأ ــ كما ترى ــ لأنه لا مانع من الإتيان بضمير فاعل عائد على الفاعل فى الكـــلام الفصيح مثل : جاء صديقى الكريم خُلقه .

(٢) الأنبياء : ٣ .

أو جاء على لغة من قال : أكلونى البراغيث .

أو هو منصوب المحل على الذم .

أو هو مبتدأ خبره " وأسروا النجوى " قُدِّم عليه والمعنى :

هؤلاء أسروا النجوى . فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلاً علـــى فعلهم بأنه ظلم [1] .

ذكر الإمام ـ رحمه الله ـ فى توجيه هذا التركيب أربعـــة آراء كلـــها صحيح فصيح :

الأول : إن " الذين ظلموا " بدل كل من كل من معنى " الواو " فى " أسـروا " لأنه واو جماعة معناه الجمع .

الثانى : إنه جاء على لغة بعض القبائل العربية ، التى تجمع بين الضمير إذا وقع فاعلاً وبين ما يفسره .

وعليه جاء الحديث الشريف : [**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل ، وملائكـة بالنهار**] [2] .

الثالث : أن يكون فى محل نصب على الذم ، على تقدير فعل محذوف هـو : أذم أو أخص الذين ظلموا بالذم .

الرابع : أن يكون هو المبتدأ ، وما قبله خبر عنه ، أى الذين ظلموا أســـروا النجوى .

أما الذى اقتضى تقديم خبره عليه " أسروا النجوى " فهو التسجيل عليهم بقبح ظلمهم وفحوشته . وهذا كله كلام طيب فى غاية النفاسة .

ويردد الإمام الشوكانى ما قاله الإمام جار الله ـ رحمه الله ـ ويضيـف إلى ما قاله جديداً ، ومن هذا الجديد : " إن الذين ظلموا " فاعل لفعل محذوف تقديره : يقول الذين ظلموا .

---

(١) الكشاف (٥٦٢/٢) .

(٢) ارواه الشيخان : البخارى ومسلم .

ثم يورد على لغة " أكلونى البراغيث " آية أخرى من كتاب الله ، هـــى قوله عز وجل : ﴿ **ثم عموا وصموا كثير منهم** ﴾ [1] .

فقد جُمِعَ فى الآية بين الضمير ، وهو " الواو " فى " عموا " و "صموا " وبين الاسم الظاهر " كثير " .

كما ذكر قول الشاعر :

ولكن ديافى أبـــوه وأمـــــه

بحوران يعصرن السليط أقاربـــه [2]

والشاهد فى البيت حيث جَمَع الشاعر ، وهو عربى فصيح يحتج بكلامه بين نون النسوة فى " يعصرن " وهو فاعل لـــ " يعصر " وبين الاسم الظاهر " أقاربه " وليس فى الكلام إلا فعل واحد يكفى فيه فاعل واحد [3] .

وفى المسألة مذاهب أخرى ، منها :

- إن " الذين ظلموا " هى الفاعل ، أما " الواو " فهى علامة جمع الفـــاعل لا غير ، وأن العرب كانت تفعل ذلك حتى فى المثنى ، فيقولون :

قاما أخواك . كما استشهد من ذهب هذا المذهب بقول الشاعر :

يلومونـنى فى اشتراء النخيـــل

قومى ، فكلهمو يعـــزل

حيث جمع بين " الواو " فى " يلومونـنى " وبين الاسم الظاهر فى " قومى" [4].

هذا ما قاله المفسرون وبعض النحاة فى هذا التركيب وتخريجـــه علـــى عدة وجوه من الصحة . دون أن يكون عندهم علم بأن بعضاً من النـــــاس ،

---

(١) المائدة : ٧١ .

(٢) ديافـ وحوران : موضعان . والسليط : الزيت .

(٣) فتح القدير (٣/٤٦٩-٤٧٠) .

(٤) الدر المصون (٨/١٣٢-١٣٣) .

سيأتون ويقولون مثل ما قال مثيرو هذه الشبهات ، مع جهلهم المركب بلغـــة التنزيل وخصائصها التعبيرية والبيانية ، وهم فيها عوام أو أشباه عوام .

والخلاصة :

ما تقدم من الرد على هذه الشبهة يريك إلى أى مدىً تعســـف هــؤلاء المغالون فى التحامل على القرآن ، المسرفون فـــى إظـــهار الحقـــد عليـــه والطعن فيه ، إنهم مثل الذى يريد أن يعبر محيطاً بقـــارب مصنـــوع مـــن " البوص " ، دون أن يكون لهم رادع من أنفسهم يحفظون به ماء وجوههم إن كان فى وجوههم ماء .

وقبل أن نودع الحديث فى الرد عليهم على ما أثاروه حول الآية نضيف إلى ما ذكره الأئمة إضافتين من حيث التوجيه البلاغى :

إحداهما : إن فى أساليب علم المعانى ، وهو أحد علوم البلاغة الثلاثـــة (المعانى ــ البيان ــ البديع) أسلوباً لا يعرف عنه مثيرو هـــذه الشـــبهات شيئاً ، هو ما يسميه البلاغيون بـــ " الاستئناف البيانى " .

وضابط هذا الأسلوب أن تتقدم جملة من الكلام تثير فى ذهـــن الســـامع تساؤلاً لطيفاً يدب فى نفسه أو يسرى سريان الماء فى العود الأخضر ، فتأتى جملة أخرى تجيب على ذلك التساؤل ، الذى ليس له صورة فى الكلام . بـــل هو يبرق كالشعاع فى ذهن السامع ومن أمثلته فى القرآن :

﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوعٌ مصبحين ﴾ [1] . فجملة " أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين " جواب على سؤال تقديره : ما هو ذلـــك الأمر الذى قضاه الله [2] .

---

(١) الحجر : ٦٦ .

(٢) انظر : الإيضاح للخطيب القزوينى : مبحث الفصل والوصل .

ومثله قوله تعالى : ﴿ **فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك علـــى شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾ [1] .

فجملة " فوسوس إليه الشيطان " أثارت فى النفس تساؤلاً لطيفاً " مـــاذا قال الشيطان لآدم ؟ فكان الجواب :

﴿ **قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾ .

هذا هو الاستئناف البيانى عند البلاغيين وهو ــ مرة أخرى ــ :

" تنزيل جملة منزلة جواب على سؤال تضمنته الجملة التى قبلها " .

والآية التى معنا : ﴿ **وأسروا النجوى الذين ظلموا** ﴾ جرت على نســق الاستئناف البيانى الذى عرفته ، لأن جملة ﴿ **وأسروا النجوى** ﴾ تثـــير فـــى النفس التساؤل نفسه : مَنْ هم الذين ﴿ **أسروا النجوى** ﴾ ؟ فكـــان الجـــواب : ﴿ **الذين ظلموا** ﴾ .

لا يقال : إن هذا السؤال لا يقتضى المقام إثارته لأن مرجع الضمـــير ، وهو " الواو " فى " أسروا " مذكور قبله فى قوله تعالى :

﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون * ما يأتيكم من ذكـــر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم .. ** ﴾ [2] .

لأنا نقول : إن الوقائع المذكورة فى مطلع السورة ، وقائع عامة ، هـــى أحوال للناس جميعاً ، إلا من عصمه الله .

أما إسرار النجوى ، فهى واقعة خاصة وقعت من مشـــركى العـــرب ، فليس " الناس " قبلها هم فاعليها ، بل فاعلوها هم الذين قالوا :

﴿ **هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون** ﴾ [3] .

وعلى هذا فإن " الذين ظلموا ليس فاعلا لـــ " أســـروا " وإنمـــا فـــاعل " أسروا " الواو .

---

(١) طـــه : ١٢٠ .

(٢) الأنبياء : ١-٣ .

(٣) الأنبياء : ٣ .

أما " الذين ظلموا " فواقعه فى كلام جديد ، هو خبر عن جلة الســـؤال : من هم الذين أسروا النجوى ؟

وهذا وجه آخر يرد به على مثيرى هذه الشبهة المتعالمين وهم جاهلون.

أما الإضافة الثانية ، فهى أسلوب آخر من أساليب البلاغـــة العربيـــة ، مفتاح الإعجاز المفحم .

ذلك الأسلوب تحدث عنه شيخ البلاغيين بلا منازع الإمام عبد القـــاهر الجرجانى ، وأسماه :

" الإضمار على شريطة التفسير " [1] .

وضابط هذا الأسلوب هو أن تأتى بالضمير أولاً ثم تفسره بعد ذلك بذكر مرجعه . ومن أمثلته شعرًا قول الشاعر :

هى الدنيا تقول بملء فيهـــــا

حذار حذار من بطشى وفتكـــى

ولا يغرُركمُ منى ابتســـــام

فقولى مضحك والفعل مبكـــــى

وتخريج الآية " وأسروا النجوى الذين ظلموا " على هذا الأسلوب ســائع رائع .

فقد أتى بالضمير أولاً " وأسروا " ثم فسره ثانياً هكذا " الذين ظلموا " . .

وبلاغة هذا الأسلوب هى تحريك الشعور ، وتشويق النفس إلى عقبـــى الكلام كيف تكون ، فيتمكن المعنى المسوق من أجله الكلام فى النفوس كـــل التمكن ؛ لأن النفس إذا ظفرت بالشىء بعد انتظاره استقر ذلك الشىء فيها .

هذه الخصائص البيانية محرومٌ منها مثـــيرو هـــذه الشـــبهات ؛ لأنـــهم يجهلونها . والناس ـــ كما جاء فى المثل ـــ أعداء ما جهلوا .

---

(١) دلائل الإعجاز (١٦٣) تحقيق الشيخ العلامة محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجى ، القاهرة .

الشبهة الثانية والثلاثون

الإتيان بالضمير العائد على المثنى مفردًا

منشأ هذه الشبهة :

هو قوله تعالى : ﴿ **يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحـــق أن يُرضوه إن كانوا مؤمنين** ﴾ (١) .

ذكروا هذه الآية ، ولفت نظرهم ذكر الله ، ثم ذكر رسوله معطوفاً عليه، ثم إيقاع الفعل " يُرضى " على الضمير المفرد، وهو " الهاء " فى " يُرضوه " وهو شاهدهم فى هذه الشبهة ، ثم قالوا :

" فلماذا لم يثنِّ الضمير العائد على الاثنين ، اســـم الجلالـــة ورســـوله فيقول : أن يُرضوهما " ؟!

الرد على الشبهة :

هذه الآية ، والتركيب الذى حسبوه أو عاندوا وقالوا إنه خطـــأ لغـــوى نحوى ، إنما هى لمحة قرآنية تتعلق بعقيدة توحيد الله عز وجل .

ومثيرو هذه الشبهات ، لا يعرفون عـــن حقيقـــة " التوحيـــد " شـــيئاً ، وضوابطهم فيه مثل الغربال إذا وضع فيه سائل لا يبقى فيه منه شىء .

وقد فات هؤلاء أمر عظيم ، ترتب عليه جهل شنيع ذلك أنهم لم يعرفـوا أصلاً ، أو لم يستحضروا فى أذهانهم وهم يسطرون هذه الشبهة ، متى يُثنَّـــى المعدود ، ومتى يجمع ، ومتى يظل مفردا .

---

(١) التوبة : ٦٢ .

وهى من البديهات ، بيان ذلك : أن هناك شرطاً موضوعيًّا فـــى تثنيــة المعدود وجمعه ذلك الشرط هو :

التجانس بين الأفراد فى الواقع ، ففَلَم يثنى فيقال : قلمان ويجمع فيقـــال أقلام .

لكن حماراً ــ مثلاً ــ لا يثنى مع القلم ولا يجمع ، لأنك لو ثنيت القلـــم والحمار ، فقلت قلمان ، أو حماران ، وأنت تريد قلماً وحماراً لم يفهم أحـــدٌ من العقلاء ما تريد .

وحتى الرجل والمرأة ، وهما فردان بينهما تجانس من جهة ، واختــلاف من جهة أخرى . فإنك لا تستطيع أن تثنيهما فتقول : رجلان ، أو تقـــول : امرأتان ، وأنت تريد رجلاً وامرأة . هذا لا يجوز عند العقلاء ، ولا يجـــوز فى الواقع الذى يحسه الناس ويحترمونه .

هذا التمهيد ضرورى جدًّا لبيان لماذا ورد فى القـــرآن " أن يُرضـــوه " دون أن يُرضوهما كما اقترح مثيرو هذه الشبهات ؟

وذلك لأنه ليس بين الله ، وبين رسوله ، ولا بين الله وبين أىِّ شىء فـــى الوجود تجانس من أى نوع من الأنواع .

فالله هو الفرد الصمد ، الواحد الأحد ، الذى لم يلد فليـــس لـــه ولـــد ، ولم يولد فليس له أم ولا أب . هو الخالق البارئ المصوِّر ، ليس لـــه كفـــواً أحد ، وليس كمثله شىء فى الوجود وغيره ، هو المخلوق المبروء المصـــوَّر (اسم مفعول) .

من أجل هذا ؛ فإن الله لا يُجمَع ولا يُثنىَّ . لا فى ذاته ولا مع أحدٍ مـــن خلقه .

وعلى هذا جرى بيان القرآن المعجز ، فلم يقل كمـــا يقـــترح هـــؤلاء الغافلون :

والله ورسوله أحق أن يُرضوهما . لأن الله ليس فرداً من جنس الأفــراد الذين ينتمى إليهم رسوله ﷺ .

بل هو فرد لا مثيل له فى الوجود أبداً ، فلا يكون مع غيره ثانى اثنين ، أو ثالث ثلاثة ، تعالى الله عما يقولون عُلُوًّا كبيرًا .

فالخطأ كل الخطأ هو ما توهمه مثيرو هذه الشبهات . أما ما عليه النظم القرآنى الحكيم ، فهو ليس كل الصواب فحسب ولكنه الإعجاز المفحم ، فــى أَجْلَى معارضه ، وآلق آفاقه ومَنْ أحسن من الله حديثاً .

التوحيد فى القرآن عقيدة متمكنة فى الواقــع الخــارجى مســتقرة كــل الاستقرار فى قلوب المؤمنين .

وهو ــ كذلك ــ عقيدة فى البيان القرآنى ، فلم يأت الله فى لغة القــرآن إلا واحداً أحدًا ، ليس اثنين ، وليس ثلاثة ﴿ **ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار** ﴾ (١) وليس ما لفت أنظار مثيرى هذه الشبهات فــى الآيــة المتقدمة هو الوحيد فى القرآن ، بل له نظــائر عميــت عنــها أبصــارهم وبصائرهم :

ففى الآية الثالثة من سورة التوبة نفسها ، ورد قوله تعالى :

﴿ .. **أن الله برئ من المشركين ورسوله ..** ﴾ (٢) .

لم يقل : إن الله ورسوله بريئان من المشركين ، لأن وصف الله بالبراءة من المشركين ، وصف توحيدى تابع للواحد الأحد ، الذى ليس له مثيل فــى كل الوجود .

ولذلك قال : " أن الله برئ من المشركين ورسوله " أى ورسوله بــرئ منهم ، والذى دل على هذا ، ما ذكره فى جانب الله أولاً .

---

(١) سورة ص : ٢٧ .

(٢) التوبة : ٣ .

كما تقول : محمد ﷺ من أُولى العزم من الرسل ، وموسى عليه السلام ، أى وموسى من أُولى العزم من الرسل . تثبت الوصف المحذوف لموســـى ، استناداً إلى ذكر ذلك الوصف خبراً عن محمد ، عليهما الصلاة والسلام . هذا ما يفهمه العقلاء من بليغ الكلام .

وفى سورة التوبة نفسها ــ كذلك ــ ورد قوله تعـــالى : ﴿ **ولـــو أنـــهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله ســـيؤتينا الله مـــن فضلـــه ورسوله إنَّا إلى الله راغبون** ﴾ (١) .

روعيت عقيدة التوحيد فى النظم القرآنى المعجـــز المفحـــم فـــى ثلاثـــة مواطن :

الأول : " ما آتاهم الله ورسوله " حيث عطف رسوله على اسم الجلالة ، دون عود ضمير مثنى .

الثانى : " حسبنا الله " دون عطف رسوله على اسم الجلالـــة . لأن الحســـب لا يكون إلا لله .

الثالث : " سيؤتينا الله من فضله ورســـوله " دون أن يُثَنِّـــى فيقـــول : مـــن فضلهما .

وإنما عُطِف " رسوله " بعد تمام الجملة الأولى .

ثم حذف من جملة " ورسوله " ما دل عليه الكلام السابق ، أى :

وسيؤتينا رسوله من فضله .

هذا هو التوحيد فى القرآن ، دقة وإحكام ، ومبالغة فى تنزيـــه الله عـــن المساوى والمثيل والكفء حتى فى اللفظ توحيد نقى ، خالص ، مـــبرأ عـــن الشبهات المعنوية ومبرأ عن الشبهات اللفظية .

---

(١) سورة : ٥٩ .

ولم يرد فى القرآن الحكيم اسم يكون ثانياً لله ، ولا اسم يكون ثالثــاً لله ، لا فى المعانى ، ولا فى الألفاظ وذلك هو التوحيد الخـــالص . رســـالة كــل الرسل والأنبياء .

والخلاصة :

أن فى الآية أسلوب الإيجاز البليغ لأن معناها الذى لم يهتدوا إليه هــو : " والله أحق أن يُرضوه ورسوله أحـــق أن يرضـــوه " فحُــذف " أحــق أن يرضوه " من الأول ، لدلالة الثانى " ورسوله أحق أن يرضوه " عليه .

وهذا فن بلاغى يطلقون عليه : " الاحتباك " وهو نوعان :

الأول : أن يحذف كلام من جملة أولى ويذكر ما يدل عليه فـــى جملــة ثانية جاءت بعدها مباشرة . مثل الآية التى اتخذوها منشأ لهذه الشبهة .

والثانى : أن يحذف من جملة ثانية كلام يدل عليه ما ذكر فى الجملـــة التى قبلها ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ **ألم يروا أنا جعلنا الليـــل ليســكنوا فيــه والنهار مبصراً ..** ﴾ [1] .

والمعنى : والنهار مبصراً ليسعوا فيه ، فحذف لأن " ليســـكنوا " دليــل قوى عليه .

وقد تلحظ حذفاً من الأول ــ كذلك ــ لدلالة الثـــانى عليــه ، وهــو : مظلماً ، أى جعلنا الليل مظلماً ، وحذف لأن ما فى الثانى ، وهو " مبصــراً " دليلاً عليه .

---

(١) النمل : ٨٦ .

الشبهة الثالثة والثلاثون

الإتيان بالجمع مكان المثنى

منشأ هذه الشبهة :

هو قوله تعالى : ﴿ **إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين** ﴾ (١) .

والشاهد فى الآية عندهم هو " قلوبكما " حيث جاء المضاف (قلوب) جمعا ، والمضاف إليه " كما " مثنى . والمتحدث عنه فى قوله تعالى : " تتوبا " مثنى كذلك . وقد علقوا على هذا فقالوا : " لماذا لم يقل : قلباكما " لأنه ليس للاثنين أكثر من قلبين " ؟!

الرد على الشبهة :

العرب كانوا يستثقلون اجتماع تثنيين فى كلمة واحدة ، فيعدلون عن التثنية إلى الجمع ، لأن أول الجمع عندهم الاثنان .

ومما قاله أئمة اللغة والنحو فى جمع " قلوب " فى الآية قولهم :

و " قلوبكما " من أفصح الكلام حيث أوقع الجمع موقع المثنى ، استثقالاً لمجئ تثنتين لوقيل " قلباكما " (٢) .

ومثل هذه الآية قوله تعالى :

﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما** ﴾ (٣) .

---

(١) التحريم : ٤ .

(٢) الدر المصون (٣٦٦/١٠) .

(٣) المائدة : ٣٨ .

فقد أوقع الجمع " أيدى " موقع المثنى : يدى . جرياً على سُنة العـــرب فى كلامهم ، والقرآن بلغتهم نزل ولا يُفهم من هذا أن الجمع حل محل التثنية لإصلاح اللفظ فحسب ، وإن كان إصلاح اللفظ وإحلال الخفيف منـــه محـــل الثقيل سببًا مقبولاً كافيًا فى توجيه هذا الاستعمال بيد أننا لو أنعمنا النظـــر ، وأعملنا الفكر لظفرنا بمعانٍ أخرى غير إصلاح اللفظ ، هذه المعانى يومـــئ إليها برفق مجيء الجمع فىمقام التثنية . وسيأتى البيان بعد قليل .

والخلاصة :

اتضح لنا مما تقدم أن قوله تعالى " قلوبكما " من أفصح الكلام ، وليـــس صحيحاً فحسب ، ولكن ضآلة حظ مثيرى هذه الشبهات من اللغة العربيـــة ، هى التى جعلتهم يهرفون بما لا يعرفون ، ويتعالمون وهم أميون .

أما ما يعود على المعنى من وضع الجمع موضع التثنية فوق إصـــلاح اللفظ كما تقدم ، فبيانه فيما يأتى :

ولنبدأ بآية المائدة ، نجد أن لجمع الأيدى دلالة على الجمع فعلاً ، وذلـك من جهتين :

الأولى : أن المراد من " السارق " و " السارقة " ليس فردين ، بل نوعين :

- الذى يسرق من الرجال ، سواء كان واحداً أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو ألف وهكذا ؛ لأن المراد النوع لا الفرد .
- التى تسرق من النساء ، لا على سبيل الفردية (امرأة) واحدة ولكن كل من ينطبق عليها وصف السرقة . فالسارقون لا يحصـــرون فـــى عـــدد معين ، من عصر نزول القرآن إلى يوم القيامة .

---

(١) انظر : المصدر نفسه (٢٦٢/٤) .

والسارقات لا يحصرن فى عدد محدد ، بل هن جمع لا يعلمه إلا الله .

فأنت ترى أن اللفظ فى " السارق " و " السارقة " وإن كان مفرداً ، فهو من حيث المعنى جمع لا حصر له فى النوعين معاً : الذكور والإناث .

الجهة الثانية : إن السارق أو السارقة قد تتكرر منهما السرقة ، فيقام عليهما الحد مرة أخرى بقدر مرات السرقة .

وعلى كلا الوضعين (الجهة الأولى والجهة الثانية) تكون كلمة : " أيدى " جمعا . مضافة إلى الضمير " هما " فيها دلالة ملحوظة على الجمع كما رأيت . وهذا ما لا يهتدى إليه أمثال مثيرى هذه الشبهات .

أما آية " التحريم " فقد فسرها العلماء تفسيرين :

أحدهما : أن " صغت " بمعنى : زاغت وأثمت ، وهذا تفسير ابن عباس رضى الله عنه [1] .

وعلى هذا يكون مجىء القلبين جمعاً فيه تهويل وتفظيع لما حدث من زوجتى النبى ﷺ ، من إفشاء سره عليه السلام، لأن فى ذلك ما يؤذيه ﷺ [2].

أما التفسير الثانى فهو قريب من الأول ، وهو: " إن صغت " بمعنى زاغت أى مالت عن الحق والصواب. [3] وتوجيهه توجيه التفسير الأول .

وفى الآيتين معنى لطيف غاية فى الطرافة والروعة والإعجاز وهو مراعاة اللفظ والمعنى معاً .

مراعاة اللفظ فى تثنية المضاف إليه ، وهو " هما " فى " أيديهما " و"كما" فى " قلوبكما " .

ثم مراعاة المعنى فى جمع الأيدى والقلوب .

---

(١) فتح القدير للإمام الشوكانى (٣٠١/٥) .

(٢) انظر:القصة بتمامها فى كتاب من كتب التفسير: تفسير سورة " التحريم " ؛ وليكن السابق ــ مثلاً .

(٣) الدر المصون (٢٦٥/١٠) .

فتثنية الضمير المضاف إليه فيهما جاءت حملاً على اللفظ فى : "السارق والسارقة " .

وجمع الأيدى والقلوب جاء حملاً على المعنى المفهوم مـــن إيحـــاءات المقام على وجه الحقيقة فى جمع الأيدى .

والمفهوم من المقام على وجه التنزيل التهويلى فى جمع القلوب .

أجل : إن القرآن لا تنتهى عجائبه ، ولا تجف ينابيعه ، لأنه تنزيل مـــن حكيم حميد .

الشبهة الرابعة والثلاثون

نصبُ المضاف إليه !

منشأ هذه الشبهة :

هو قوله تعالى : ﴿ **ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور** ﴾ (١) .

وشاهدهم فى هذه الآية هى كلمة " ضراءَ " وهى مضاف إليه ، والمضاف هو كلمة " بعد " وقد رأوا فتحة بعد " الراء " فوق الهمزة من كلمة " ضراءَ " فأملى عليهم جهلهم أن القرآن أخطأ فنصب المضاف ، وهو من حقه أن يُجر ؟!

ثم قالوا : (وكان يجب أن يجر المضاف إليه فيقول : " بَعْدَ ضراءِ ") .

الرد على الشبهة :

المضاف إليه فى الآية " ضراءَ " مجرور لا منصوب ، وهو ممنوع من الصرف ، والمانع له من الصرف ألف التأنيث الممدودة . وتلاميذ الإعدادى يعرفون أن الممنوع من الصرف يُجر بالفتحة نيابة عن الكسرة . ولذلك وضعت الفتحة فوق الهمزة بعد الراء . فهذه الفتحة علامة جر لا علامة نصب . والممنوع من الصرف لا يجر بالفتحة إلا فى حالتين :

أن يكون مضافاً ، أو معرفاً بالألف واللام .

---

(١) هود : ١٠ .

و " ضراء " فى الآية ليست مضافاً ، ولا معرفة بالألف واللام . وفـــى جر الممنوع من الصرف يقول ابن مالك :

وجر بالفتحة ما لا ينصـــرف

ما لم يضف أو يك بعد أل ردف

الشبهة الخامسة والثلاثون

هل تناقض القرآن فى مادة خلق الإنسان ؟

يعطى القرآن معلومات مختلفة عن خلق الإنسان .. من ماء مهين (المرسلات : ٢٠) من ماء (الأنبياء : ٣٠) .. من نطفة (يس : ٧٧) .. من طين (السجدة : ٧) .. من علق (العلق : ٢) .. من حمأ مسنون (الحجر: ٢٦) .. ولم يك شيئًا (مريم : ٦٧) .

فكيف يكون كل ذلك صحيحًا فى نفس الوقت ؟ (ا . هـ) .

الرد على الشبهة :

ليس هناك أدنى تناقض بل ولا حتى شبهة تناقض بين ما جاء فى القرآن الكريم من معلومات عن خلق الإنسان .. وحتى يتضح ذلك ، يلزم أن يكون هناك منهج علمى فى رؤية هذه المعلومات ، التى جاءت فى عديد من آيات القرآن الكريم .. وهذا المنهج العلمى يستلزم جمع هذه الآيات .. والنظر إليها فى تكاملها .. مع التمييز بين مرحلة خلق الله للإنسان الأول آدم ــ عليه السلام ــ ومرحلة الخلق لسلالة آدم ، التى توالت وتكاثرت بعد خلق حواء ، واقترانها بآدم ، وحدوث التناسل عن طريق هذا الاقتران والزواج ..

* لقد خلق الله ــ سبحانه وتعالى ــ الإنسان الأول ــ آدم ــ فأوجده بعد أن لم يكن موجودًا .. أى أنه قد أصبح " شيئًا " بعد أن لم يكن " شيئًا " موجودًا .

وإنما كان وجوده فقط فى العلم الإلهى .. وهذا هو معنـــى الآيـــة الكريمـــة **﴿ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئًا ﴾** [1] .

* أما مراحل خلق الله ــ سبحانه وتعالى ــ لآدم .. فلقد بدأت بـــ [التراب] الذى أضيف إليه [الماء] فصار [طينًا] ثم تحول هذا الطين إلى [حمـــأ] أى أسود منتنًا ، لأنه تغير والمتغير هو [المسنون] .. فلما يبس هذا الطيـــن من غير أن تمسه النار سمى [صلصالاً] لأن الصلصال هو الطين اليـــابس من غير أن تمسه نار ، وسمى صلصالاً لأنه يصلّ ، أى يُصوِّت ، من يبسه أى له صوت ورنين .

وبعد مراحل الخلق هذه ــ الـــتراب .. فالمـــاء .. فـــالطين .. فالحمـــأ المسنون .. فالصلصال ــ نفخ الله ــ سبحانه وتعالى ــ فى "مادة " الخلـــق هذه من روحه ، فغدا هذا المخلوق " إنسانًا " هو آدم ــ عليه السلام ــ .

* وعن هذه المراحل تعبر الآيات القرآنية ، فتصور تكامل المراحل ــ وليس التعارض المتوهم والموهوم ــ فتقول هذه الآية الكريمة : **﴿ إن مثل عيســـى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ﴾** [2] . فبالتراب كـــانت البدايـــة **﴿ الـــذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طيـــن ﴾** [3] . وذلـــك عندمـــا أضيف الماء إلى التراب **﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقًا أم من خلقنا إنا خلقنـــاهم من طين لازب ﴾** [4] وذلك عندما زالت قوة الماء عن الطين ، فأصبح " لازبًا " أى جامدًا .

---

(١) مريم : ٦٧ .

(٢) آل عمران : ٥٩ .

(٣) السجدة : ٧ .

(٤) الصافات : ١١ .

* وفى مرحلة تغير الطين ، واسوداد لونه ، ونتن رائحته ، سمى [حمأً مسنونًا] ، لأن الحمأ هو الطين الأسود المنتن .. والمسنون هو المتغير .. بينما الذى ﴿ **لم يَتَسَنَّه** ﴾ هو الذى لم يتغير .. وعن هذه المرحلة عبرت الآيات : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم * وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرًا من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين * قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين** ﴾ [1] .

تلك هى مراحل خلق الإنسان الأول ، توالت فيها وتتابعت وتكاملت معانى المصطلحات : التراب .. والماء .. والطين .. والحمأ المسنون .. والصلصال .. دونما أية شبهة للتعارض أو التناقض .

• وكذلك الحال والمنهاج مع المصطلحات التى وردت بالآيات القرآنية التى تحدثت عن خلق سلالة آدم ــ عليه السلام ــ .

فكما تدرج خلق الإنسان الأول آدم من التراب إلى الطين .. إلى الحمأ المسنون .. إلى الصلصال .. حتى نفخ الله فيه من روحه .. كذلك تدرج خلق السلالة والذرية بدءاً من [النطفة] ــ التى هى الماء الصافى ــ ويُعَبَّرُ بها عن ماء الرجل [المنىّ] .. إلى [العَلَقَة] التى هى الدم الجامد ، الذى يكون

---

(١) الحجر : ٢٦ــ٣٥ . انظر معانى المصطلحات الواردة فى هذه الآيات فى : الراغب الأصفهانى أبو القاسم الحسين بن محمد [المفردات فى غريب القرآن] طبعة دار التحرير ــ القاهرة ــ سنة ١٩٩١م و[لسان العرب] ــ لابن منظور ــ طبعة دار المعارف ــ القاهرة .

منه الولد ، لأنه يعلق ويتعلق بجدار الرحم إلى [المضغة] وهى قطعة اللحم التى لم تنضج ، والمماثلة لما يمضغ بالفم .. إلى [العظام] .. إلى [اللحم] الذى يكسو العظام .. إلى [الخلق الآخر] الذى أصبح بقدرة الله فى أحسن تقويم (١) .

ومن الآيات التى تحدثت عن توالى وتكامل هذه المراحل فى خلق وتكوين نسل الإنسان الأول وسلالته ، قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدّكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا** ﴾ (٢) .

وقوله سبحانه : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر * فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ (٣) .

* وإذا كانت [النطفة] هى ماء الرجل .. فإنها عندما تختلط بماء المرأة ، توصف بأنها [أمشاج] ــ أى مختلطة ــ كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا** ﴾ (٤) .

---

(١) انظر فى معانى هذه المصطلحات [المفردات فى غريب القرآن] ــ مصدر سابق ــ .

(٢) الحج : ٥ .

(٣) المؤمنون : ١٢ــ١٤ .

(٤) الإنسان : ٢ .

* كما توصف هذه [النطفة] بأنها [ماء مهين] لقلته وضعفه .. وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة : ﴿ **الذى أحسن كل شىء خَلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين** ﴾ (١) . ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه فى قرار مكين * إلى قَدَرٍ معلوم * فقدرنا فنعم القادرون** ﴾ (٢) .

* وكذلك ، وصفت [النطفة] ــ أى ماء الرجل ــ بأنه [دافق] لتدفقه واندفاعه .. كما جاء فى الآية الكريمة ﴿ **فلينظر الإنسان مِمَّ خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾ (٣) .

هكذا عبر القرآن الكريم عن مراحل الخلق .. خلق الإنسان الأول .. وخلق سلالات وذريات هذا الإنسان ..

وهكذا قامت مراحل الخلق ، ومصطلحات هذه المراحل ، شواهد على الإعجاز العلمى للقرآن الكريم . عندما جاء العلم الحديث ليصدق على هذه المراحل ومصطلحاتها ، حتى لقد انبهر بذلك علماء عظام فاهتدوا إلى الإسلام .

فكيف يجوز ــ بعد ذلك ومعه ــ أن يتحدث إنسان عن وجود تناقضات بين هذه المصطلحات .. لقد صدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا** ﴾ (٤) .

---

(١) السجدة : ٧ــ٨ .

(٢) المرسلات : ٢٠ــ٢٣ .

(٣) الطارق : ٥ــ٧ .

(٤) النساء : ٨٢ .

الشبهة السادسة والثلاثون

حول موقف القرآن من الشرك بالله

يوضح القرآن أن الله لا يغفر أن يشرك به (سورة النساء آية : ٤٨) . ومع ذلك فقد غفر الله لإبراهيم ــ عليه السلام ــ بل جعله نبيّا رغم أنه عبد النجوم والشمس والقمر (الأنعام : ٧٦ــ٧٨) . فما الإجابة ؟ (ا . هـ) .

الرد على الشبهة :

الشرك محبط للعمل : ﴿ **قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون * ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾ [1] ﴿ **إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثمًا عظيمًا** ﴾ [2] .

والأنبياء والرسل هم صفوة الله من خلقه ، يصطفيهم ويستخلصهم ، ويصنعهم على عينه ، وينزههم حتى قبل البعثة لهم والوحى إليهم عن الأمور التى تخل بجدارتهم للنبوة والرسالة .. ومن ذلك الشرك ، الذى لو حدث منهم واقترفوه لكان مبرراً لغيرهم أن يقترفه ويقع فيه .. ولذلك ، لم يرد فى القرآن الكريم ما يقطع بشرك أحد من الأنبياء والرسل قبل بعثته .. بمن فى ذلك أبو الأنبياء وخليل الرحمن إبراهيم ــ عليه السلام ــ .

---

(١) الزمر : ٦٤ــ٦٦ .

(٢) النساء : ٤٨ .

أما الآيات التى يشير إليها السؤال .. وهى قول الله سبحانه وتعـــالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصنامًا آلهة إنى أراك وقومك فى ضــلال مبين * وكذلك نرى إبراهيم ملكـــوت الســموات والأرض وليكــون مــن الموقنين * فلما جن عليه الليل رأى كوكبًا قال هذا ربى فلما أفـــل قــال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغًا قال هذا ربى فلما أفل قــال لئــن لــم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هــذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برئ مما تشركون * إنــى وجــهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين * وحاجّــه قومه قال أتحاجّونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئًا وسع ربى كل شىء علمًا أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا فــأى الفريقيــن أحق بالأمن إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئــك لهم الأمن وهم مهتدون * وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومــــه نرفــع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم** ﴾ [1] .

أما هذه الآيات ، فليس فيها دليل على أن إبراهيم ــ عليه السلام ــ قــد مر بمرحلة شرك ، وحاشا لله أن يقع فى ذلك، وإنما هى تحكى كيف آتى الله إبراهيم الحجة على قومه .. حجة التوحيد ، ودحض الشرك .. فهى حجــاج وحوار يسلم فيه إبراهيم جدلاً ــ كشأن الحوار ــ بما يشركون ، لينقض هـذا الشرك ، ويقيم الحجة على تهاوى ما به يحتجون ، وعلى صــدق التوحيــد المركوز فى فطرته .. ليخلص من هذا الحوار والحجاج والاحتجاج إلــى أن الخيار الوحيد المتبقى ــ بعد هذه الخيارات التى سقطت ــ هو التوحيــد ..

---

(١) الأنعام : ٧٤ــ٨٣ .

فهو حوار التدرج من توحيد الفطرة إلى التوحيد القائم على المنطق والبرهان والاستدلال ، الذى فند دعاوى وحجـــج الخصـــوم .. والاســـتدلال اليقينـــى ﴿ **وليكون من الموقنين** ﴾ وليس فيه انتقال من الشرك إلى التوحيد .

تلك هى الحقيقة التى رجحها المفسرون .

* فالقرطبى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصـــارى [٦٧١هـــ ١٢٧٣م] يقول فى تفسيره [الجامع لأحكام القرآن] ــ مورد الآراء المختلفة حول هذا الموضوع :

قوله تعالى : ﴿ **هذا ربى** ﴾ اختلف فى معناه على أقوال ، فقيل : كان هذا منه فى مُهلة النظر وحال الطفوليّة وقبل قيام الحجة ، وفى تلـــك الحـــال لا يكون كفر ولا إيمان .

وقال قوم : هذا لا يصح ، وقالوا : غير جائز أن يكون لله تعالى رسول يأتى عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله تُعالى موحِّد وبه عارف ، ومن كـــل معبود سواه برئ . قالوا : وكيف يصح أن يتوهم هذا على من عصمـــه الله وأتاه رشده من قبلُ ، وأراه ملكوته ليكون مـــن الموقنيـــن ، ولا يجـــوز أن يوصف بالخلو من المعرفة ، بل عرف الرب أول النظر .. وقـــد أخـــبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال : ﴿ **واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام** ﴾ [(١)] وقال عز وجل : ﴿ **إذ جاء ربه بقلب سليم** ﴾ [(٢)] أى لم يشرك قط .. لقد قال : ﴿ **هـــذا ربى** ﴾ على قول قومه ، لأنهم كانوا يعبدون الأصنـــام والشـــمس والقمـــر . ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ **أين شركائى** ﴾ [(٣)] . وهو جـــل وعـــلا واحـــد لا شريك له ، والمعنى : أين شركائى على قولكم ..

---

(١) إبراهيم : ٣٥ .

(٢) الصافات : ٨٤ .

(٣) القصص : ٧٤ .

وقيل : إنما قال : ﴿ **هذا ربى** ﴾ لتقرير الحُجة على قومه ، فأظهر موافقتهم ، فلما أفل النجم قرّر الحُجة ، وقال : ما تَغَيَّرَ لا يجوز أن يكون ربًّا ، وكانوا يعظمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها .

ومن أحسن ما قيل فى هذا ما صح عن ابن عباس أنه قال فى قوله ــ عز وجل ــ : ﴿ **نور على نور** ﴾ [1] قال : كذلك قلب المؤمن يعرف الله عز وجل ويستدل عليه بقلبه ، فإذا عرفه ازداد نوراً على نور ، وكذلك إبراهيم ــ عليه السلام ــ ، عرف الله عز وجل بقلبه واستدل عليه بدلائله ، فعلم أن له ربًّا وخالقًا . فلما عرَّفه الله عز وجل بنفسه ازداد معرفة فقال : ﴿ **أتحاجونى فى الله وقد هدان** ﴾ .

وقيل : هو على معنى الاستفهام والتوبيخ ، منكرًا لفعلهم ، والمعنى : أهذا ربى ، أو مثل هذا يكون ربًّا ؟! فحذف الهمزة . وفى التنزيل : " ﴿**أفإن مت فهم الخالدون** ﴾ [2] . أى أفهم الخالدون ؟ .. " [3] .

• ومع هذا الرأى أيضًا الزمخشرى ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الخوارزمى [٤٦٧ ــ ٥٣٨هـ ــ ١٠٧٥ ــ ١١٤٤م] ، صاحب تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل] الذى يقول فى تفسير هذه الآيات :

" وكان أبوه آزر وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب ، فأراد أن ينبههم على الخطأ فى دينهم ، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ، ويعرِّفهم أن النظر الصحيح مؤدٍّ إلى أن شيئًا منها لا يصح أن

---

(١) النور : ٣٥ .

(٢) الأنبياء : ٣٤ .

(٣) [الجامع لأحكام القرآن] ج٧ ص ٢٥ ، ٢٦ ، طبعة دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ــ القاهرة ١٣٨٧هـ ــ ١٩٦٧م .

يكون إلها ، لقيام دليل الحدوث فيها ، وأن وراءها مُحْدِثًا أحدثـــها وصانعًـا صنعها ومدبرًا دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها " .

(هذا ربى) : قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل ، فيحكـــى قوله كما هو غير متعصب لمذهبه ، لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجـــى مـــن الشَّغَب ، ثم يكرُّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحُجة .

(لا أحب الآفلين) : لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين من حـــال إلـــى حال ، المنتقلين من مكان إلى مكان ، المحتجبين بستر ، فإن ذلك من صفات الأجْرام .

(لئن لم يهدنى ربى) : تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلها وهـــو نظير الكواكب فى الأفول فهو ضال ، وأن الهداية إلـــى الحـــق بتوفيـــق الله ولطفه ..

(إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض) أى للذى دلت هـذه المحدثات عليه وعلى أنه مبتدئها ومبدعها [1] .

* وعلى هذا الرأى أيضًا من المحدثين ــ الشـــيخ عبـــد الوهـــاب النجـــار [١٢٧٨ــ١٣٦٠هـ ، ١٨٦٢ــ١٩٤١م] ــ صاحب [قصص الأنبيـــاء] ــ الذى يقول : " لقد أتى إبراهيم فى الاحتجاج لدينه وتزييف دين قومه بطريقـة التدرج فى الإلزام أو التدرج فى تكوين العقيدة .. " [2] .

---

(١) [الكشاف] ج٢ ص ٣٠ ، ٣١ طبعة دار الفكر ــ بيروت ــ بدون تاريخ ــ وهى طبعة مصورة عـــن طبعة طهران " انتشارات أفتاب ــ تهران " وهى الأخرى بدون تاريخ للطبع .

(٢) [قصص الأنبياء] ص ٨٠ طبعة دار إحياء التراث العربى ــ بيروت ــ لبنان ــ بدون تاريخ للطبع .

وذلك هو موقف إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ من الشـــرك .. لقــد عصمه الله منه .. وإنما هى طريقة فى الجدال يتدرج بها مع قومـــه ، مــن منطلقاتهم ليصل إلى هدم هذه المنطلقات ، وإلى إقامة الدليل العقلـــى علــى عقيدة التوحيد الفطرية المركوزة فى القلوب .

الشبهة السابعة والثلاثون

حول عصيان إبليس وهو من الملائكة الذين لا يعصون الله

يؤكد القرآن أنه لا يمكن للملائكة أن تعصى الله [التحريم : ٦] ومع ذلك فقد عصى إبليس الذى كان من الملائكة ، كما فى الآية [البقرة : ٣٤] فأيهما صحيح ؟ . (ا . هـ) .

الرد على الشبهة :

الملائكة مخلوقات مجبولة على طاعة الله وعبادته والتسبيح له وبه .. فهم لا يعصون الله سبحانه وتعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ (١) .

ومع تقرير هذه الآية أن هؤلاء الملائكة القائمين على النار [لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون] يقرر القرآن الكريم أن إبليس ـ وهو من الملائكة ـ فى قمة العصيان والعصاة : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾ (٢) .

وهناك إمكانية للجمع بين معانى الآيتين ، وذلك بأن نقول : إن عموم الملائكة لا يعصون الله ـ سبحانه وتعالى ـ فهم مفطورون ومجبولون على

---

(١) التحريم : ٦ .

(٢) البقرة : ٣٤ .

الطاعة .. لكن هذا لا ينفى وجود صنف هم الجن ــ ومنهم إبليس ، شـــملهم القرآن تحت اسم الملائكة ــ كما وصف الملائكة أيضًا بأنهم جِنَّة ــ لخفائـهم واستتارهم ــ وهذا الصنف من الجن ، منهم الطائعون ومنهم العصاة ..

وفى تفسير الإمـــام محمـــد عبـــده [١٢٦٥ ــ ١٣٢٣هـــ ،١٨٤٩ ــ ١٩٠٥م] لآية [لبقرة : ٣٤] يقول :

" أى سجدوا إلا إبليس ، وهو فرد من أفراد الملائكة ، كما يفـــهم مـــن الآية وأمثالها فى القصة ، إلا آية الكهف فإنها ناطقة بأنه كان من الجـــن .. وليس عندنا دليل على أن بين الملائكة والجن فصلاً جوهريًا يميز أحدهمـــا عن الآخر ، وإنما هو اختلاف أصناف ، عندما تختلف أوصاف . فالظـــاهر أن الجن صنف من الملائكة . وقد أطلق القرآن لفظ الجنَّة على الملائكـــة ، على رأى جمهور المفسرين فى قوله تعالى : ﴿ **وجعلوا بينه وبيـــن الجنـــة نسبا** ﴾ [١] . وعلى الشياطين فى آخر سورة الناس " [٢] .

ونحن نجد هذا الرأى أيضًا عند القرطبى ــ فى تفسيره [الجامع لأحكام القرآن] فيقول :

" وقال سعيد بن جبير : إن الجن سِبْط من الملائكة ، خلقوا من نـــار ، وإبليس منهم ، وخُلق سائر الملائكة من نور .. والملائكة قـــد تســـمى جنـــا لاستتارها . وفى التنزيل : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ﴾ [٣] وقال الشاعر أعشى قيس ــ فى ذكر سليمان ــ عليه السلام :

وسَخَّر من جنّ الملائكة تسعة قيامًا لديه يعملون بلا أجر [٤] .

---

(١) الصافات : ١٥٨ .

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٤ ص ١٣٣ ، دراسة وتحقيق . د . محمد عمارة ، طبعـــة دار الشروق . القاهرة ١٤١٤هـ ١٩٩٣م .

(٣) الصافات : ١٥٨ .

(٤) [الجامع لأحكام القرآن] ج١ ص٢٩٤ ، ٢٩٥ مصدر سابق .

فلا تناقض إذاً بين كون الملائكة لا يعصـــــون الله .. وبيـــن عصيـــان إبليس .. وهو من الجن ، الذين أُطلق عليهم اسم الملائكة ــ فهو مثله كمثـــل الجن هؤلاء منهم الطائعون ومنهم العصاة .

الشبهة الثامنة والثلاثون

حول عصيان البشر : مع أنهم من المخلوقات الطائعة القانتة لله

كل المخلوقات فى السموات والأرض طائعة وقانتة لله تعالى [الـــروم : ٢٦] ومع ذلك نجد حالات كثيرة من عدم الطاعة من جانب البشر مثـــــلاً : [الحاقة : ١٠] . (ا . هـــ) .

الرد على الشبهة :

كل المخلوقات فى السموات والأرض ، طائعة وقانتـــــة لله ــ ســبحانه وتعالى ــ ﴿ **وله من فى السموات والأرض كل له قانتون** ﴾ (١) .

فهم قانتون لله ، أى خاضعون ومطيعون لإرادته ــ سبحانه وتعـــالى ــ ومع ذلك يشهد الواقع ، وتحكى الآيات القرآنية الكثير من حالات العصيـــان وعدم الطاعة من جانب البشر وذلك من مثـــل قولـــه ســبحانه : ﴿ **وجـــاء فرعون ومن قَبْلَه والمؤتفكات بالخاطئة * فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية** ﴾ (٢) .

ففى هذه الآية وحدها إشارات إلى عصيان فرعون .. وعصيان من سبقه من المؤتفكات ــ أى قُرى قوم لوط ــ الذين أخذهم الله أخـــذة رابيـــة ، أى زائدة فى الشدة على غيرها .

---

(١) الروم : ٢٦ .

(٢) الحاقة : ٩ ــ ١٠ .

بل إن تاريخ الإنسان هو صراع بين أهل العصيان .. حتى أن المأثور النبوى الشريف قد تحدث عن أن كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون .

فكيف يتسق شيوع العصيان فى البشر ، مع الآية القرآنية التى تحدثت عن أن كل من فى السموات والأرض قانتون ــ أى خاضعون ومطيعون ــ لله سبحانه وتعالى ؟ ..

إن مفتاح الإجابة عن هذا التساؤل ، هو فهم أنواع الإرادة الإلهية والقضاء الإلهى .. فالله سبحانه لا يريد العصيان ، ولا يقضى بالشر .. لكن إرادته وقضاءه نوعان :

١ ــ إرادة وقضاء تكوينى وحتمى للمخلوقات غير المُخَيَّرة .. وذلك مثل القضاء الذى تتحدث عنه الآية : ﴿ **فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها** ﴾ (١) .

﴿ **وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ (٢) .

ففى هذا اللون من الأمر الإلهى والقضاء الربانى تكون المخلوقات غير المختارة مجبولة على القنوت والطاعة والخضوع لله سبحانه وتعالى ..

٢ ــ إرادة وقضاء معهما تخيير ..وذلك خاص بالإنسان المُخَيَّر ..المكلف .. المسئول والذى له ــ بسبب هذا التخيير والحرية ــ حساب وجزاء .

وإلى مثل هذا تشير الآيتان : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريمًا * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة**

---

(١) فصلت : ١٢ .

(٢) البقرة : ١١٧ .

وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ [1] .

فنحن هنا أمام قضاء إلهى ، شاء الله سبحانه وتعالى أن يترك للإنسان المخير إزاءه حرية الطاعة والعصيان ليتميز الخبيث من الطيب ، وليكون الجزاء وفق العمل والإرادة والاختيار .. فالإنسان المُخَيَّر ، الذى هداه الله النجدين ، له قدرات واستطاعات الطاعة والعصيان .. ولذلك كان من جنس الإنسان المؤمن والكافر ، والمطيع والعاصى ومن يبتغى وجه الله ومن يبتغى غير دين الله .. بينما المخلوقات غير المختارة مجبولة على الطاعة والخضوع ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ﴾** [2] ، وقوله تعالى : ﴿ **ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها ﴾** [3] ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾** [4] .

ففى مخلوقات الله مخلوقات مجبولة على الطاعة والخضوع .. وفى هذه المخلوقات مخيرون ، منهم من يطيع ومنهم من يختار العصيان ، فيبتغى غير دين الله ! .

---

(١) الإسراء : ٢٣ــ٢٤ .

(٢) آل عمران : ٨٣ .

(٣) الرعد : ١٥ .

(٤) فصلت : ١١ .

الشبهة التاسعة والثلاثون

حول مدة خلق السموات والأرض

توضح كثير من سور القرآن أن السموات والأرض قد خلقت فى ستة أيام . وهنا مشكلتان :

الأولى : أنه من الثابت علميًا أن خلق السموات والأرض قد استغرق بلايين السنين .

الثانية : أنه فى التعبير القرآنى نفسه كانت مدة الخلق ثمانية أيام بدلاً من ستة [فصلت : ٩ــ١٢] .

فكيف يمكن التوفيق بين هذه الآيات ؟ . (ا . هـ) .

الرد على الشبهة :

فى كثير من السور القرآنية تتحدث آيات كثيرة عن خلق الله سبحانه وتعالى السموات والأرض وتقدير ما فيهما فى ستة أيام .. ومن هذه الآيات :

﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴾ (١) .

﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴾ (٢) .

﴿ الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ﴾ (٣) .

---

(١) الأعراف : ٥٤ ، يونس : ٣ .

(٢) هود : ٧ .

(٣) الفرقان : ٥٩ .

﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ﴾ (١) .

﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ﴾ (٢) .

﴿ هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴾ (٣) .

* وليس هناك تعارض بين تحديد زمن الخلق للسموات والأرض فى ستة أيام ، وبين ما يراه العلم من استغراق ذلك الخلق بلايين السنين ، ذلك أن المدى الزمنى " لليوم " عند الله ، سبحانه وتعالى ليس هو المدى الزمنى " لليوم " فى العرف والتقويم الذى تعارف عليه الإنسان فى هذه الحياة الدنيا .

وفى القرآن الكريم آيات شاهدة على ذلك منها :

﴿ أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يومًا أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير ﴾ (٤) .

فبعض اليوم ، فى حساب الإنسان ــ هنا ــ بلغ مائة عام .. أى قرابة ٣٧٠٠٠ يوم ! وكذلك الحال فى قصة أهل الكهف .. فما حسبوه يومًا أو بعض يوم قد بلغ ثلاثمائة عام بالتقويم الشمسى وثلثمائة وتسعة أعوام بالتقويم القمرى .. ﴿ قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يومًا أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ (٥) ، ﴿ ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا * قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع

---

(١) السجدة : ٤ .

(٢) ق : ٣٨ .

(٣) الحديد : ٤ .

(٤) البقرة : ٢٥٩ .

(٥) الكهف : ١٩ .

ما لهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحدا ﴾ [1] .

* وكذلك الحال يوم ينفخ فى الصور ــ يـــوم البعــث ــ يحســب بعــض المجرمين أن مكثهم فى الدنيا لم يتجاوز عشر ليالٍ .. بينما يحسب آخـــرون منهم أن مكثهم لم يتعد اليوم الواحد : ﴿ **يوم ينفـــخ فـــى الصـــور ونحشـــر المجرمين يومئذ زرقا * يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا * نحن أعلـــم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما ﴾** [2] .

* أما عند الله ، سبحانه وتعالى فإن لمصطلح " اليوم " مدى لا يعلم حقيقـــة طوله وأمده إلا هو : ﴿ **ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾** [3] .

والآية لا تحدده بألف سنة مما نعد نحن فى تقويمنا .. وإنما تستخدم أداة التشبيه ــ الكاف ــ (كأَلْف) ليظل المدى غير معلوم لنا فى هذه الحيـــاة .. وغير ممكن التحديد بوحداتنا نحن فى القياس الزمنى .

فيوم الدين ــ الجزاء ــ .. وأيام الله .. والأيام الستة التى خلق الله فيـــها السموات والأرض .. مداها ــ بمقاييس أيامنا نحـــن ــ لا يعلمـــها إلا الله ، سبحانه وتعالى ..

* ثم إن ما اكتشفه العلم من سرعات للصـــــوت .. وســـرعات للضـــوء .. وزمن للضوء ــ سنة ضوئية ــ يجعل تفاوت واختلاف المفاهيم والمقـــاييس لمصطلح " اليوم " أمرًا مقررًا ومألوفًا .

هذا عن المشكلة الأولى من مشكلتى السؤال ..

---

(١) الكهف : ٢٥ــ٢٦ .

(٢) طه : ١٠٢ــ١٠٤ .

(٣) الحج : ٤٧ .

أما المشكلة الثانية ــ من مشكلتى السؤال ــ والخاصة بحديث بعض الآيات القرآنية عن أن الخلق للسموات والأرض قد يفهم على أنه قد استغرق ثمانية أيام ، وليس ستة أيام .. وهى آيام سورة فصلت : ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادًا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظًا ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ [1] .

هذه " المشكلة " لا وجود لها ! .. فليس هناك تناقض ولا تفاوت بين المدة الزمنية التى جاءت فى هذه الآيات وبين الايات الأخرى التى ورد فيها تحديد الأيام الستة ..

ففى هذه الآيات ــ من سورة فصلت ــ نجد أن الله سبحانه وتعالى يخبرنا بأنه : ﴿ **خلق الأرض فى يومين** ﴾ .

ثم ﴿ **جعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها** ﴾ فى تمام ﴿ **أربعة أيام** ﴾ .. أى فى يومين آخرين يضافان إلى اليومين اللذين خلق فيهما الأرض ، فيكون المجموع أربعة أيام .. وليس وارداً أن يكون خلق الرواسى وتقدير الأقوات قد استغرق أربعة أيام ..

ولعل الشبهة ــ التى جاءت فى السؤال ــ قد أتت من هنا .. أى من توهم إضافة أربعة إلى اليومين اللذين خلقت فيهما الأرض ، فيكون المجموع ستة .. وإذا أضيف إليها اليومان اللذان خلقت فيهما السماء ﴿ **فقضاهن سبع سموات فى يومين** ﴾ يكون المجموع ثمانية أيام ، وليس ستة أيام .. لكن

---

(١) فصلت : ٩ــ١٢ .

إزالة هذه الشبهة متحققة بإزالة هذا الوهم .. فالأرض خلقت فى يوميـــن .. وخلق الرواسى وتقدير الأقوات قد استغرق ما تمم اليومين أربعة أيـــام .. أى استغرق هو الآخر يومين .. ثم استغرق خلق السموات السبع يومين .. فكان المجموع ستة أيام من أيام الله ، سبحانه وتعالى ..

ولقد نبه المفسرون على هذه الحقيقة ــ المزيلة لـــهذا الوهـــم ــ فقـــال القرطبى : " ﴿ **فى أربعة أيام** ﴾ . ومثاله قول القائل : خرجت من البصـــــرة إلى بغداد فى عشرة أيام وإلى الكوفة فى خمسة عشر يومًا ، أى فـــى تتمـــة خمسة عشر يومًا " (١) .

وقال الزمخشرى :

" ﴿ **فى أربعة أيام** ﴾ فذلكة (٢) لمدة خلق الله الأرض وما فيـــها ، كأنـــه قال : كل ذلك فى أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصـــان .. وقـــال الزجاج : فى تتمة أربعة أيام ، يريد بالتتمة اليومين " (٣) .

فهذه الآيات ــ من سورة فصلت ــ تؤكد هى الأخرى ــ على أن خلـق السموات والأرض إنما تم فى ستة أيام .. ومن ثم فلا تنـــاقض بيـــن آيـــات القرآن ولا تفاوت فى مدة الخلق الإلهى للســـموات والأرض .. وحاشـــا أن يكون شىء من ذلك فى الذكر الحكيم .

---

(١) [الجامع لأحكام القرآن] ج١٥ ص ٣٤٣ ــ مصدر سابق .

(٢) الفذلكة : جملة ما فصل وخلاصته .

(٣) [الكشاف] ج٣ ص ٤٤٤ ــ مصدر سابق .

الشبهة الأربعون

حول خلاف القرآن للكتاب المقدس فى أسماء بعض الشخصيات التاريخية

يعطى القرآن أسماء لبعض الشخصيات التاريخيـــة مخالفـــة لأســـمائهم حسب الكتاب المقدس الذى سبق القرآن بعدة قرون . فمثـــلاً والـــد إبراهيـــم ــ عليه السلام ــ كان اسمهمTeral أو " تارح " ، ومع ذلك يسميه القـــرآن آزر . واسم الذى كان يوسف ــ عليه السلام ــ فى بيتـــه Potiphar أمـــا الاسم المعطى له فى القرآن فهو " عزيز " [يوسف : ٣٠] .(ا . هـــ) .

الرد على الشبهة :

أولاً : لا يصح أن نجعل من الكتـــاب المقـــدس حجـــة علـــى القـــرآن ومرجعية له .. لأن الثابت ــ حتى فى الدراسات التى قام بها كثير من علماء اليهود والنصارى أن هذا الكتاب المقدس قـــد أعيـــدت كتابتـــه ، وأصابـــه التحريف .. كما أن ترجماته قد أدخلت عليه تغييرات وتصحيفات وخاصـــة فى أسماء الأماكن والأشخاص ..

وثانيًا : لأن القرآن قد تمتع بمستوى من الحفظ والتوثيق والتواتر فـــى النقل جعله الوحى الوحيد الصحيح على ظهر هذا الكوكـــب الـــذى نعيـــش عليه .. فهو الحاكم والمرجع لكل ما عداه من النصوص الدينية الأخرى ..

وفى هذا الإطار .. ومن هذا المنطلق نناقش الشبهات التى يثيرها هـــذا السؤال .. فنقول :

* بالنسبة لاسم والد الخليل إبراهيم ــ عليه السـلام ــ لا تختلـف معظـم المصادر الإسلامية ــ سواء منها تفاسير القرآن ، أو قصص الأنبياء على أن " آزر " ليس اسم والد إبراهيم .. وعلى أن اسمه " تارح " ومن العلماء مـن يرى أن " آزر " اسم صنم ، وأن الآية خطاب استنكارى لعبادة والد إبراهيـم لهذا الصنم ، تقدم المفعول فى هذا الخطاب .. والمعنـى أتتخـذ آزر إلـها ومعبودا ؟ ..

ومن العلماء من يرى أن " آزر " لقب أطلق على " تارح " بعد أن عمل فى حاشية الملك الذى كان حاكما فى ذلك التاريخ ..

ونحن نقرأ ــ حول هذه القضية ــ فى تفسير القرطبى :

" قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ﴾ تكلم العلماء فى هذا ، فقال أبو بكر محمد بن محمد بن الحسن الجوينى الشافعى الأشعرى فـى النكـت من التفسير له : وليس بين الناس اختلاف فى أن اسم والد إبراهيم تـارح . والذى فى القرآن يدل على أن اسمه آزر .. وقيل : آزر اسم صنم كأنه قال : وإذا قال إبراهيم لأبيه أتتخذ آزر إلها ، أتتخذ أصناما آلهة ..

قلت ــ [أى القرطبى] ما ادعاه من الاتفاق ليس عليه وفاق . فقد قـال محمد بن إسحاق والكلبى والضحاك : إن آزر أبو إبراهيم ــ عليه السـلام ــ وهو تارح ، مثل إسرائيل ويعقوب . قلت : فيكون له اسمان . وقال مقـاتل : آزر لقب ، وتارح اسم . وحكاه الثعلبى عن ابن إسحاق القشيرى . ويجـوز أن يكون العكس .. وقال الجوهرى : آزر اسم أعجمى ، وهو مشتق من آزر فلان فلانا إذا عاونه ، فهو مؤازر قومه على عبادة الأصنام .. وقال مجـاهد ويمان : آزر اسم صنم ، أى أتتخذ آزر إلها . أتتخذ أصناما .. وقال الثعلبـى فى كتاب العرائس : إن اسم أبى إبراهيم الذى سماه به أبوه تارح ، فلما صار مع النمرود قيما على خزانة آلهته سماه آزر . وقال مجاهد إن آزر ليـس

باسم أبيه وإنما هو اسم صنم ، وهو إبراهيم ابن تارح بن ناخور بن ساروع ابن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ــ عليه السلام ــ " [1] .

ونفس التفسيرات الموضحة لهذه الشبهة نجدها فى [قصص الأنبياء] :

" قال السيد المرتضى الزبيدى ــ فى " ص ١٢ ج٢ تاج العروس " : روى عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ آزر **أتتخذ أصناما** ﴾ قال : لم يكن بأبيه ، ولكن آزر اسم صنم ، فموضعه نصب على إضمار الفعل والتلاوة كأنه قال : " وإذ قال إبراهيم أتتخذ آزر إلها ، أى أتتخذ أصناما آلهة " .

وقال الصغانى : " التقدير أتتخذ آزر إلها " .

وقد نقل شيخ العروبة المرحوم أحمد زكى باشا عبارة تاج العروس السابقة فى أول كتابه " **تكملة كتاب الأصنام لابن الكلبى** " .

وهذا القول الذى قاله مجاهد أولى الأقوال عندى بالقبول . وعلى ذلك يكون والد إبراهيم لم يذكر باسم العلمى فى القرآن الكريم . ومما يستأنس له بأن " آزر " اسم إله أننا نجد فى الآلهة القديمة عند المصريين الإله " أوزوريس " ومعناه الإله القوى المعين ، وقد كانت الأمم السالفة يقلد بعضهم بعضا فى أسماء الآلهة .. " [2] .

فليست هناك مشكلة ، إذن ، حول هذا الموضوع .

أما الشبهة الثانية فى هذا السؤال ، والخاصة باسم الذى اشترى وآوى يوسف ــ عليه السلام ــ فى بيته ، والذى أطلق عليه القرآن الكريم اسم " عزيز " بينما سماه الكتاب المقدس Potiphar .. فإنها لا تمثل ، هى الأخرى ، مشكلة من المشكلات .

---

(١) [الجامع لأحكام القرآن] ج٧ ص ٢٢ ، ٢٣ ــ مصدر سابق .

(٢) [قصص الأنبياء] ص ٧٢ ــ مرجع سابق .

ذلك أن منصب هذا الذى آوى يوسف كان " رئاسة الشرطة " .. واسمه " فوطيفار " .. ولقبه " العزيز " فلا تناقض بين أسماء التعريف به هـــذه .. ولقد تناولت ذلك المصادر الإسلامية .. ففى [قصص الأنبياء] :

" وكان سيده رئيس شرطة المدينة ، واسمه " فوطيفار " ، ويعبر عـــن منصبه فى العبرية بـــ " سرها طباحيم " ، أى رئيس الشرطة .. " (١) .

وفى تفسير القرطبى :

" قال الضحاك : هذا الذى اشتراه ملك مصر ، ولقبه العزيز .. واســمه قطفير . وقال ابن إسحاق : إطفير . اشتراه لامرأته .. وقال ابــن عبــاس : إنما اشتراه قطفير وزير ملك مصر ..وكان هذا العزيز الذى اشترى يوسف على خزائن الملك .. " (٢) .

أما الخلافات والاختلافات الطفيفة فى نطق الاسم فهى واردة ، بســبب النقل من لغة إلى لغــة .. ومــن لهجــة إلــى لهجــة .. وبســبب النســخ للمخطوطات . والتصحيف والتحريف .. فلا مشكلة .. ، إذن ، حــول هــذه الأسماء .

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٢ .

(٢) [الجامع لأحكام القرآن] ج٩ ص ١٥٨ ــ مصدر سابق ــ .

الشبهة الحادية والأربعون

حول تسمية القرآن الكريم مريم " أخت هارون " واختلافه فى ذلك مع الكتاب المقدس

يسمى القرآن والدة المسيح ــ عليه السلام ــ باســم " أخــت هــارون " [مريم : ٢٨] ولعل محمدًا ﷺ ، خلط بين مريم أم المسيح ، ومريم أخــرى كانت أختًا لهارون الذى كان أخًا لموسى ــ عليه السلام ــ ومعاصرًا لــه ، ولا يوجد مثل هذا التناقض فى الكتاب المقدس . (ا . هــ) .

الرد على الشبهة :

يتحدث القرآن الكريم عن مريم ــ أم المسيح ــ عليهما السلام ــ ، باسم " أخت هارون " .. وذلك فى سورة مريم ، فيقول مخاطبًا إياها فى الآيــة : ٢٨ : ﴿ **يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سَوْءٍ وما كانت أمــك بغيًّــا** ﴾ .. وليس لهذه التسمية ذكر فى الإنجيل .

بل الثابت ــ فى القرآن والأناجيل ــ أن مريــم هــى ابنــة عمــران ﴿ **ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها** ﴾ [1] .

وعمران هذا هو من نسل داود ــ عليه السلام ــ أى من سبط ونســل " يهوذا " ، وليس من سبط ونسل " هارون " سبط " اللاويين " فكيف دعاهــا القرآن " أخت هارون " ؟ .

---

(١) التحريم : ١٢ .

هذا هو التساؤل والاعتراض الذى يورده البعض شبهة علـــى القــرآن الكريم .. والحقيقة التى تفهم من السياق القرآنى ، أن تسمية مريم بـــ " أخت هارون " ، ليست تسمية قرآنية وإنما هى حكاية لما قاله قومها لـــها ، ومــا خاطبوها ونادوها به عندما حملت بعيسى ــ عليه السلام ــ عندما اسـتنكروا ذلك الحمل ، واتهموها فى عرضها وشرفها وعفافها .. فقالوا لها : ﴿ **يا مريم لقد جئت شيئًا فريًّا * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سَوْء وما كانت أمك بغيًا** ﴾ (١) .

فلماذا نسبها قومها إلى هارون ؟ .

يختلف المفسرون فى التعليل .. فمنهم من يقول إن هارون ـ المشـــار إليه ـ كان رجلاً فاسقًا، اشتهر بفسقه، فنسبها قومها إليه، إعلانًا عن إدانتهم لها.

ومن المفسرين من يقول إن هارون هذا كان رجلاً صالحًا ، مشـــهوراً بالصلاح والعفة .. فنسبها قومها إليه ســـخرية منـــها ، وتـــهكمًا عليـــها ، وتعريضًا بما فعلت ، واستهزاء بدعواها الصـــلاح والتقـــوى والتبتـــل فـــى العبادة بينما هى ــ فى زعمهم ــ قد حملت سفاحًا ..

وقيل : إنه كان لها أخ من أبيها اســـمه هـــارون وكـــان مـــن عُبّـــاد وصلحاء بنى إسرائيل ــ فنسبوها إليه ــ .. واسم هـــارون مـــن الأســـماء الشائعة فى بنى إسرائيل (٢) .

والشاهد ــ من كل ذلك ــ أن هذه التسمية لمريم بـــ " أخت هـــارون " ، ليست خبرًا قرآنيًا ، وإنما هى حكاية من القرآن الكريم لما قالـــه قومـــها .. وهذه الاحتمالات التى ذكرها المفسرون ، تعليلاً لهذه التسمية هى اجتـــهادات مستندة إلى تراث من التاريخ والقصص والمأثورات .

---

(١) مريم : ٢٧، ٢٨ .

(٢) انظر فى ذلك [قصص الأنبياء] ص ٣٨٣ ، ٣٨٤ ــ مرجع سابق ــ و [الجامع لأحكـــام القـــرآن] ج١١ ص ١٠٠ ، ١٠١ ــ مصدر سابق ــ . و [الكشاف] ج٢ ص ٥٠٨ ــ مصدر سابق ــ .

الشبهة الثانية والأربعون

حول خلاف القرآن للكتاب المقدس

فى عصر نمرود

حسب قول القرآن والمفسرين ألقى نمرود بإبراهيم فى النار [الأنبيـــاء : ٦٨ــ٦٩] وليس من المعقول أن يكون نمرود حيًّا فى زمن إبراهيم ــ عليـه السلام ــ [الكتاب المقدس ــ سفر التكوين ٨ : ١٠ ، ١١ ، ١٠ : ٢٢ــ٢٥ ، ١١ : ١٣ــ٢٦] . (ا . هــ) .

الرد على الشبهة :

فى قصص القرآن الكريم عن إبراهيم الخليل ــ عليه السلام ــ مشـــاهد عديدة .. منها معجزة نجاته من التحريق بالنار ، بعد أن حطم أصنام قومـــه التى يعبدونها : ﴿ **قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتـــم فـــاعلين * قلنـــا يا نار كونى بردًا وسلامًا علـــى إبراهيـــم * وأرادوا بـــه كيـــدًا فجعلنـــاهم الأخسرين** ﴾ (١) .

ويحكى القرآن محجّة إبراهيم للملك ــ فى سورة البقرة : ﴿ **ألم تر إلـــى الذى حاجّ إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشـــرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ (٢) .

---

(١) الأنبياء : ٦٨ــ٧٠ .

(٢) البقرة : ٢٥٨ .

والقرآن الكريم لم يسم الملك الذى حاج إبراهيم فى ربـــه ؛ لأن قصـد القرآن من القصص هو مضمون المحاجّة ، والعبرة منها .. واسم الملـك لا يقدم ولا يؤخر فى المضمون والعِبرة . أما تسمية هذا الملك ـ الذى حاجّـه إبراهيم ـ بـ " النّمروذ " والاختلاف فى نطق اسمه . ومدة ملكه .. فجميعها قصص تاريخى ، أورده المفسرون .. فهو غير ملزم للقرآن الكريـم [1] .. ومن ثم لا يصح أن يورد ذلك كشبهة تثار ضد القرآن .. فليس لدينا فـى التاريخ الموثق والمحقق ما يثبت أو ينفى أن اسم الملك الذى حاجّ إبراهيـم الخليل فى ربه هو " النّمروذ " . وإنما هو قصص تـاريخى يحتـاج إلـى تحقيق ..

ولقد راجعتُ العهد القديم ، فى المواضع التى جاء ذكرها فـى السـؤال [سـفر التكويـن الإصحـاح ٨ : ١٠ ، ١١ والإصحـاح ١٠ : ٢٢ـ٢٥ والإصحاح ١١ : ١٣ـ٢٦] وهى تحكى عن قبائل نوح ، ومواليد ابنه سام ، فلم أجد فيها ذكر الملك " النّمروذ " .

وفى [دائرة المعارف الإسلامية] التى كتبها المستشرقون ـ وقد حـرر مادة " إبراهيم " فيها " ج . إيزبرغ " ـ يأتى ذكر الملك نمروذ فـى قصـة إبراهيم دون اعتراض .. وفى أثنائها إشارات إلى مصادر عبرية أشارت إلى النمروذ ـ منها [دلالة الحائرين ـ لموسى بن ميمون ـ الفصـل ٢٩] .. ومنها " سفر هياشار " فصل نوح ..

وتأتى الإشارة إلى " نمرود " الملك فى سفر التكوين ـ بالعـهد القديـم ـ الإصحاح ١٠ : ٨ـ١١ باعتباره " الذى ابتدأ يكون جباراً فى الأرض " ..

---

(١) انظر : القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] ج٣ ص ٢٨٣ـ٢٨٥ ـ مصـدر سـابق ـ والزمخشـرى [الكشاف] ج١ ص ٣٨٧ـ٣٨٩ ـ مصدر سابق ـ .

وبه كان يُضرب المثل فى التجبر .. " وكان ابتداء مملكته بابل وأرك وأكـــدّ وكلنة من أرض شنغار . من تلك الأرض خرج أشور وبنى نينوى .. " إلـــخ .. إلخ ..

وأخيرًا .. فليس هناك ما يمنع تكرار لاسم " نمروذ " لأكثر من ملك فى أكثر من عصر وتاريخ .. ويبقى أن الشبهة ــ إذًا كـــانت هنـــاك شـــبهة ــ خاصة بالقصص التاريخى .. ولا علاقة لها بالقرآن الكريم ..

الشبهة الثالثة والأربعون

حول الإسكندر ذى القرنين .. وهل كان عبدًا صالحًا ؟ أم من عبدة الأوثان ؟

يمدح القرآن الإسكندر الأكبر (ذو القرنين) كعبد صالح يؤمن بالله [الكهف : ٨٧ــ٨٨] . ولكن جميع مؤرخى الإغريق يجمعون على أنه كان من عبدة الأوثان . فكيف يصح ذلك ؟ . (ا . هـ) .

الرد على الشبهة :

فى القرآن الكريم ــ بسورة الكهف : ٨٣ــ٩٨ حكاية ذى القرنين : ﴿ **ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرًا * إنا مكّنّا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سببًا** ﴾ [١] إلى آخر الآيات .

وخلال هذه الآيات يتبدى عدل " ذو القرنين " فيقول : ﴿ **قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يُرد إلى ربه فيعذبه عذابًا نكرا * وأما من آمن وعمل صالحًا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا** ﴾ [٢] . تلك هى تسمية القرآن الكريم لهذا الملك " ذو القرنين " .

أما أن ذا القرنين هذا هو الإسكندر الأكبر المقدونى [٣٥٦ــ٣٢٤ق.م] فذلك قصص لم يخضع لتحقيق تاريخى .. بل إن المفسرين الذين أوردوا هذا القصص قد شككوا فى صدقه وصحته ..

---

(١) الكهف : ٨٣ــ٨٤ .

(٢) الكهف : ٨٧ــ٨٨ .

فابن إسحاق [١٥١هـ ٧٦٨م] ـ مثلاً ـ يروى عن " من يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علم ذى القرنين " أنه كان من أهل مصر ، وأن اسمه " مرزبان بن مردية اليونانى " .

أما الذى سماه " الإسكندر " فهو ابن هشام [٢١٣هـ ٨٢٨م] ـ الذى لخص وحفظ [السيرة] ـ لابن إسحاق ـ .. وهو يحدد أنه الإسكندر الذى بنى مدينة الإسكندرية ، فنسبت إليه .

وكذلك جاءت الروايات القائلة إن " ذو القرنين " هو الإسكندر المقدونى عن " وهب بن مُنبِّه " [٣٤ـ١١٤هـ ٦٥٤ـ٧٣٢م] (١) وهو مصدر لرواية الكثير من الإسرائيليات والقصص الخرافى .

ولقد شكك ابن إسحاق ـ وهو الذى تميز بوعى ملحوظ فى تدوين ونقد القصص التاريخى ـ شكك فيما روى من هذا القصص ـ الذى دار حول تسمية ذى القرنين بالإسكندر ، أو غيره من الأسماء .. وشكك أيضًا فى صدق ما نسب للرسول ﷺ حول هذا الموضوع .. وذلك عندما قال ابن إسحاق : " فالله أعلم أى ذلك كان ؟ .. أقال رسول الله ﷺ ذلك أم لا ؟ " .

ويثنى القرطبى على شك وتشكيك ابن إسحاق هذا ، عندما يورده ، ثم يقول : " والحق ما قال " .. أى أن الحق هو شك وتشكيك ابن إسحاق فى هذا القصص ، الذى لم يخضع للتحقيق والتمحيص وإن يكن موقف ابن إسحاق هذا ، وكذلك القرطبى ، هو لون من التحقيق والتمحيص .

فليس هناك ، إذًا ما يشهد على أن الإسكندر الأكبر المقدونى ـ الملك الوثنى ـ هو ذو القرنين ، العادل ، والموحد لله ..

---

(١) القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] ج١١ ص ٥٠ ـ مصدر سابق ـ .

الشبهة الرابعة والأربعون

حول غروب الشمس فى عين حمئة

ومخالفة ذلك للحقائق العلمية

تغرب الشمس فى عين حمئة ، حسب القرآن [الكـــهف : ٨٦] وهــذا مخالف للعلم الثابت . فكيف يقال إن القرآن لا يتناقض مع الحقائق العلميـــة الثابتة ؟ (ا . هــ) .

الرد على الشبهة :

فى حكاية القرآن الكريم لنبأ " ذو القرنين " حديث عن أنه إبان رحلتــه : **(حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجـــد عندهــا قومًا ..)** [1] .

والعين الحمئة ، هى عين الماء ذات الحمأ ، أى ذات الطيـــن الأســود المنتن .

ولما كان العلم الثابت قد قطعت حقائقه بأن الأرض كروية ، وأنها تدور حول نفسها وحول الشمس ، فإن غروب الشمس ليس اختفاء فى عين أو غير عين ، حمئة أو غير حمئة .. والسؤال : هل هناك تعارض بين حقائق هــذا العلم الثابت وبين النص القرآنى ؟ .

---

(١) الكهف : ٨٦ .

ليس هناك أدنى تعارض ــ ولا حتى شبهة تعــارض ــ بيــن النــص القرآنى وبين الحقائق العلمية .. ذلك أن حديث القرآن هنا هو عــن الرؤيــة البصرية للقوم الذين ذهب إليهم ذو القرنين ، فمنتهى أفق بصرهم قد جعلــهم يرون اختفاء الشمس ــ غروبها ــ فى هذه البحيرة ــ العين الحمئــــة ــ .. وذلك مثل من يجلس منا على شاطئ البحر عند غروب الشمس ، فإن أفــق بصره يجعله يرى قرص الشمس يغوص ــ رويدًا رويدًا ــ فى قلــب مــاء البحر .

فالحكاية هنا عما يحسبه الرائى غروبًا فــى العيــن الحمئــة ، أو فــى البحر المحيط .. وليست الحكاية عن إخبار القرآن بالحقيقة العلمية الخاصــة بدوران الأرض حول الشمس ، وعن ماذا يعنيه العلم فى مسألة الغروب .

وقد نقل القفال ، أبو بكر الشاشى محمد بن أحمد بن الحسين بن عمــر [٤٢٩ــ٥٠٧هـ /١٠٣٧ــ١١١٤م] عن بعض العلماء تفسيرًا لهذه الرؤيــة ، متسقًا مع الحقيقة العلمية ، فقال : " ليس المــراد أنــه [أى ذو القرنيــن] انتهى إلى الشمس مشرقًا ومغربًا حتى وصل إلى جِرْمها ومسَّــها .. فــهى أعظم من أن تدخل فى عين من عيون الأرض ، بل هى أكبر مــن الأرض أضعافًا مضاعفة . وإنما المراد أنه انتهى إلى آخــر العمــارة [أى البقــاع المعمورة والمأهولة] من جهة المغرب ومن جهة المشرق ، فوجدها فى رأى العين تغرب فى عين حمئة ، كما أنا نشاهدها فى الأرض الملساء كأنها تدخل فى الأرض ، ولهذا قال : ﴿ **وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونــها سِترا** ﴾ [1] . ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسّهم وتلاصقهم ، بل أراد أنــهم أول من تطلع عليهم .. " [2] .

---

(١) الكهف : ٩٠ .

(٢) القرطبى [الجامع لأحكام القرآن] ج١١ ص ٤٩ ، ٥٠ ــ مصدر سابق ــ .

فالوصف هو لرؤية العين ، وثقافة الرائى .. وليس للحقيقة العلمية الخاصة بالشمس فى علاقتها بالأرض ودورانها ، وحقيقة المعنى العلمى للشروق والغروب .

فلا تناقض بين النص القرآنى وبين الثابت من حقائق العلوم ..

الشبهة الخامسة والأربعون

حول حفظ الله للذكر وهل الذكر هو كل القرآن ؟ أم بعض القرآن ؟

هناك من لا يؤمنون بأن القرآن قد حفظ ، كما تقول الآيـــة الكريمـــة : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ ، ويقولون : قد يكون الذكر جـــزءاً من القرآن ، وليس كله . ويستدلون بكلام لعمر بن الخطـــاب ــ رضـــى الله عنه ــ بأنه أقسم على أن هناك آية فى القرآن تتحدث عن الرجم ــ وهـــذه الآية غير موجودة ــ وأن غنمه أكلت ورقة من القرآن كانت بيـــد عائشـــة ــ رضى الله عنها ــ .. " (ا . هـ) .

الرد على الشبهة :

وفى الجواب عن هذه الشبهة نسأل :

لماذا بعث الله ــ سبحانه وتعالى ــ الرسل ، وأنزل الكتب ؟ .

لقد كان ذلك رعاية من الله لخلقه .. ولطفاً بهم .. وحتى يكون حســـابه لهم ــ كى لا يتساوى المحسن والمسىء ــ وجزاؤه إياهم على أفعالهم عـــدلاً إلهيًا خالصًا .. ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾ [1] ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ [2] .

﴿ **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** ﴾ [3] .

---

(١) فاطر : ٢٤ .

(٢) الإسراء : ١٥ .

(٣) النساء : ١٦٥ .

وقبل ختم النبوة والرسالة ، كانت مهمة حفظ كتب الرسالات والشـــرائع موكولة إلى أمم هذه الرسالات كجزء من التكليف لهم والاختبار لاســـتقامتهم فى هذا التكليف : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بـــها النبيـــون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتـــاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنًا قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ [1] .لكنهم فرطوا فى القيام بتكليف الحفظ للكتب بالنسيان حينًا وبالتحريف والإخفاء حينًا آخر: ﴿ **فبمـــا نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكَلِمَ عـــن مواضعـــه ونسوا حظًا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليـــلاً منـــهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين * ومن الذين قالوا إنا نصـــارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظًا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون * يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرًا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عـــن كثـــير قـــد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانـــــه ســـبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النـــور بإذنـــه ويهديـــهم إلـــى صـــراط مستقيم** ﴾ [2] .

وعندما كانوا يحرفون هذه الكتب ، أو ينسون بعضها ويخفون البعـــض الآخر ، كان الله يبعث رسولاً جديدًا بكتاب جديد ..

أما عندما أراد الله ــ سبحانه وتعالى ــ مع بلوغ الإنسانية سن الرشد ــ ختم النبوات والرسالات بنبوة ورسالة محمد ﷺ ، فكان لابـــد لحفـــظ كتـــاب

---

(١) المائدة : ٤٤ .

(٢) المائدة : ١٣ــ١٦ .

الشريعة الخاتمة من حافظ لا يجوز عليه الإهمال ، ولا يتأتى منه التحريف ، ولا يليق به النسيان .. أى كان لابد من الحفظ المعصوم الدائم للكتاب المعجز الخالد . لأن ترك حفظ الكتاب الخاتم للبشر ، الذين يجوز عليهم الإهمال والتحريف والنسيان معناه طروء وحدوث التحريف والضياع لهذا الكتاب ، حيث لا وحي سيأتي ولا رسول سيبعث ولا كتاب سينزل .. الأمر الذى لو حدث ــ افتراضًا ــ سيضل الناس ولا رعاية لهم ، ولا حُجة عليهم ، تجعل من حسابهم وجزائهم عدلاً إلهيًا مناسبًا .

ولذلك ، انتقلت مهمة حفظ الوحى الخاتم ــ القرآن الكريم ــ فى الرسالة الخاتمة إلى الله ــ سبحانه وتعالى ــ الذى لا يتخلف حفظه أبدًا ، بعد أن كانت هذه المهمة فى الرسالات السابقة ، استحفاظًا من الله للناس ، أى طلبًا منه لهم أن يحفظوا ما أنزل عليهم من الكتاب . فكان الوعد الإلهى المؤكد : **﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾** (١) .

ولذلك هيأ الله لتدوين القرآن الكريم من كتبة الوحى ما لم يتهيأ لكتاب سابق .. وجعل جمعه وعدًا إلهيًا وإنجازاً ربانيًا : **﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه ﴾** (٢) . فكان الحفظ للقرآن ــ كل القرآن ــ وعدًا إلهيًا . وإنجازاً ربانيًا ، وذلك حتى تستمر حجة الله على عباده ، ويكون حسابه لهم عدلاً خالصًا .

ولم يقل أحد ، ولا جائز فى العقل ــ فضلاً عن النقل ــ أن يقال : إن الذكر ، الذى تعهد الله بحفظه ، هو بعض القرآن ، وليس كل القرآن .. لأن

---

(١) الحجر : ٩ .

(٢) القيامة : ١٦ــ١٩ .

ضياع أى جزء من القرآن إنما يعنى تخلف رعاية الله لخلقه ، وسقوط حُجته على عباده .. ثم إن القرآن لا يقف بالحفظ عندما يطلق عليه الذكر ، فضلاً عن أن مصطلح الذكر إنما يشمل كل القرآن .. تشهد على ذلك الآيات الكثيرة فى كتاب الله .. فالمراد بالذكر القرآن .. كل القرآن .. والكتاب .. كل الكتاب ــ وليس بعضه ــ بدليل قول الله سبحانه وتعالى : ﴿**فاسألوا أهل الذكر** ﴾ [1] ، أى أهل الكتب السابقة .. والله يشير إلى القرآن والتنزيل ــ أى كل ما نزل به الوحى ــ بلفظ الذكر ﴿ **أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم** ﴾ [2] ، ﴿ **وقالوا يا أيها الذى نُزِل عليه الذكر إنك لمجنون** ﴾ [3] ، ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزّل إليهم ولعلهم يتفكرون** ﴾ [4] ، ﴿ **وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون** ﴾ [5] ، ﴿ **إن هو إلا ذكر وقرآن مبين** ﴾ [6] ، ﴿ **وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون * وما هو إلا ذكر للعالمين** ﴾ [7] . والذكر هو كل ما جاء به الوحى ، فالوحى هو الذكر ﴿ **فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم * وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تُسألون** ﴾ [8] . بل إن سياق آية ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر** ﴾ شاهد على أن الذكر والقرآن والكتاب هو الوحى ﴿ **آلر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين** ﴾ ﴿ **وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم** ﴾ ، ﴿ **وقالوا يا أيها الذى نُزل عليه الذكر إنك لمجنون** ﴾ ، ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ [9] .

ثم إن القرآن الكريم يؤكد أن الحفظ ، ونفى الشك والريبة إنما هو لكل القرآن ولجميع التنزيل ، وليس لبعض القرآن : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه**

---

(١) الأنبياء : ٧ . (٢) الأعراف : ٦٩ . (٣) الحجر : ٦ .
(٤) النحل : ٤٤ . (٥) الأنبياء : ٥٠ . (٦) يس : ٦٩ .
(٧) القلم : ٥١ــ٥٢ . (٨) الزخرف : ٤٣ــ٤٤ . (٩) الحجر : ١، ٤، ٦، ٩ .

هدى للمتقين ﴾ [1] ﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ [2] ﴿ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴾ [3] ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه ﴾ [4] ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس ﴾ [5] ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه ﴾ [6] . ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ [7] .. ولو ضاع شىء من هذا الكتاب أى القرآن والتنزيل لحدث التفريط الذى تنفيه هذه الآية ،ولاأنتفت حجة الله على البشر ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون * أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة** ﴾ [8] .. فحجة الله على الناس ــ بعد ختم الوحى القرآن الكريم ــ تنتفى وتسقط إذا حدث جهل بشىء مما أنزل فى الكتاب ــ القرآن ــ : ﴿ **وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم** ﴾ [9] ولو أن القرآن ضاع منه شىء لتخلف وعد الله بتنزيل تبيان كل شىء فيه ، لتتم شهادة الرسول ﷺ على أمته : ﴿ **ويوم نبعث فى كل أمة شهيدًا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدًا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾ [10] .

وختم النبوة والرسالة ، يعنى انتفاء بعث رسول جديد ، ونزول كتاب جديد .. وحتى تقوم حُجة الله على عباده لابد من بقاء القرآن كله مَحفوظًا ،

---

(١) البقرة : ٢ .
(٢) السجدة : ٢ .
(٣) البقرة : ١٧٦ .
(٤) آل عمران : ٣ .
(٥) النساء : ١٠٥ .
(٦) المائدة : ٤٨ .
(٧) الأنعام : ٣٨ .
(٨) الأنعام : ١٥٥ــ١٥٧ .
(٩) الحجر : ٤ .
(١٠) النحل : ٨٩ .

ليكون قيّما على الناس ، أى دائم القيام على هدايتهم وإرشادهم : ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيما لينذر بأسًا شديدًا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا** ﴾ (١) .

وإذا كان الكتاب هو كل القرآن ، فلقد وعد الله سبحانه بأن يحفظه ويورثه للذين اصطفاهم من عباده ، بعد أن أنزله على المصطفى من رسله ، وجمعه وقرأه : ﴿ **والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقًا لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير * ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ (٢) .

ومن صفات القرآن ــ كل القرآن ــ أنه كتاب عزيز ، أى منيع ، محفوظ من العبث به وفيه .. وأنه ممتنع عن الإبطال ، لا يأتيه الباطل من بينه يديه ولا من خلفه ، بأى حال من الأحوال : ﴿ **إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ (٣) . والذكر فى هذه الآية هو كل الكتاب ، العزيز على أى عبث به وفيه ..

ومن صفات القرآن ــ كل القرآن ــ أنه كتاب علىّ حكيم ، فوق تطاول المتطاولين ، بشرًا كانوا أو أزمنة ودهورًا : ﴿ **إن جعلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون * وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم** ﴾ (٤) .

ومن صفات القرآن ــ كل القرآن ــ أنه فى كتاب مكنون : أى مصون ومحفوظ عن اللعب والعبث والتحريف ﴿ **إنه لقرآن كريم * فى كتاب مكنون** ﴾ (٥) .

---

(١) الكهف : ١ــ٢ . (٢) فاطر : ٣١ــ٣٢ . (٣) فصلت : ٤١ــ٤٢ .
(٤) الزخرف : ٣ــ٤ . (٥) الواقعة : ٧٧ــ٧٨ .

ولقد صدّق التاريخ على هذا الحفظ الإلهى لهذا القرآن المجيد .. ومـــن يقرأ تاريخ التوراة ــ حتى ذلك الذى كتبه علماء اليهودية ــ يعلم ما أصابــها بعد سنوات من نزولها .. وكيف أعيدت كتابة أسفارها علـــى النحـــو الـــذى صنعه " عزرا " وغيره من الأحبار ، فى صورة مليئة بـــالتحريف .. ومـــن يتأمل تناقضات الأناجيل ــ حتى الشهيرة منها ــ والفروق الجوهرية بينـــها وبين غير الشهيرة ــ من مثل أنـــاجيل " مخطوطـــات نجـــع حمـــادى " ، و " مخطوطات البحر الميت " ، " إنجيل برنابا " يعلم ما أصاب الإنجيل بعـد سنوات معدودة من بعثة المسيح ــ عليه السلام ــ لكن .. ها هـــو القـــرآن الكريم كما نزل به الروح الأمين على قلب الصادق الأمين ، لم يتغـــير فيـــه حرف ولا رسم ولا حركة ولا غُنّة ولا مدّ وقد مضى على نزوله أكثر مـــن أربعة عشر قرنًا مرت فيها أمته بأطوار من التراجع والانحطاط ، وفقـــدت فيها الذاكرة الإسلامية ملايين المخطوطات التى أبادتها غـــزوات الطغـــاة ، واندثرت فيها مذاهب وفلسفات .. وظل القرآن الكريم عزيزًا منيعًا محفوظًـــا بحفظ الله خير الحافظين .. فالتاريخ ــ هو الآخر ــ قد غدا شاهدًا على هـــذا الحفظ الإلهى لكل القرآن الكريم ..

فبرهان العقل ــ المتعلق بختم الرسالة .. وختم الوحى ــ يجعل حفـــظ القرآن ــ كل القرآن ــ لإقامة الحجة على الناس ــ ضرورة عقلية .

وكذلك النقل المتكرر فى القرآن ــ بلفظ القرآن .. والكتاب .. والتـــنزيل .. والذكر .. ــ شاهد هو الآخر على الحفظ الإلهى لكل حرف وكـــل كلمـــة وكل آية وكل سورة من هذا القرآن الكريم .. فهو وحى الله الخاتم .. تعـــهد سبحانه وتعالى بجمعه وحفظه ، وحجة خالدة ، كى لا يكون للناس علـــى الله حجة إذا ما ضاع شىء من هذا التنزيل العزيز المنيع الحكيم .

* * *

أما بعض المرويات التى يفهم منها البعض شكًا فى حفظ كل مـــا نـــزل على رسول الله ﷺ من القرآن .. فإن منطق العقل ، ومنهاج البحث العلمى ، وقواعد نقد النصوص والمرويات ، التى اتفق عليها العلماء والعقـــلاء مـــن كل الحضارات والفلسفات والأنساق الفكرية .. كلها تؤكـــد علـــى ضـــرورة الموازنة بين المتعارض والمتناقض من الروايات .. والأخذ بالمصدر الأوثق عند تعذر الجمع بين المرويات .. فإذا كان لدينا ــ على نحو مـــا قدمنـــا ــ شهادة العقل الصريح على أن حفظ القرآن ــ كل القرآن ــ هـــو ضـــرورة عقلية ، تقتضيها حقيقة ختم النبوة والرسالة واكتمال الوحـــى .. وإذا كـــانت شهادة العقل الصريح هذه مدعومة بنصوص آيـــات القـــرآن الكريـــم ، أى بالمصدر المعجز ، قطعى الدلالة والثبوت .. فهل يكون عاقلاً مـــن يـــترك شهادة العقل الصريح ، والنقل المعجز الصحيح ، ويلتفت إلى روايـــة مـــن روايات يعلم الله من رواها ؟ ولماذا رواها ؟ .

إن منطق البحث العلمى ، الذى أجمع عليه كل عقـــلاء الدنيـــا ، فـــى التعامل مع النصوص ، قد حسم هذه القضية التى نرجو أن تكون هذه الإجابة حاسمة للشبهة المثارة حولها .. والله من وراء القصد ، منه نلتمس الهدايـــة والحكمة والرشاد ..

الشبهة السادسة والأربعون

حول تاريخية أو خلود أحكام القرآن الكريم

هناك ــ بالنسبة للقرآن الكريم ــ من يعتبرون أنه غير صالح لكل زمان ، وأنه وقتى ، أى أنه جاء لوقت قد مضى ، ولا يتلاءم مع العصر الحالى ، وأنه يجب أن تتغير تفسيراته بما يناسب هذا الوقت . وعلى سبيل المثال :

ــ إرث المرأة ﴿ **للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ يقولون : إن هذه الآية قد جاءت لزمن معين ويجب أن تتغير ، بحيث يتساوى الرجل والمرأة فى الإرث .

ــ وكذلك الأمر بالنسبة لشهادة المرأة حيث يطالبون بمساواة الرجل بالمرأة من حيث الشهادة .. (ا . هـ) .

الرد على الشبهة :

أما القول بتاريخية ــ أو تاريخانية ــ ووقتية أحكام القرآن الكريم .. بمعنى " أنها غير صالحة لكل زمان " .. فإن لنا عليها ملاحظات نسوقها فى عدد من النقاط :

أولها : أن هذه الدعوى ليست جديدة ، فلقد سبق وتبناها فلاسفة التنوير الغربى الوضعى العلمانى ، بالنسبة للتوراة والإنجيل .. فرأوا أن قصصها مجرد رموز ، بل ورأوا أن الدين والتدين إنما يمثل " مرحلة تاريخية " فى عمر التطور الإنسانى ، مثلت مرحلة طفولة العقل البشرى ، ثم تلتها ــ على

طريق النضج ــ مرحلة " الميتافيزيقا " ، التى توارت هى الأخرى لحســـاب المرحلة الوضعية ، التى لا ترى علمًا إلا إذا كان نابعًا من الواقع ، ولا ترى سبلاً للعلم والمعرفة إلا العقل والتجارب الحسية .. وما عدا ذلك ــ من الدين وأحكام شرائعه ــ فهى " إيمان " مَثَّل مرحلة تاريخية علـــى درب التطــور العقلى ، ولم يعد صالحًا لعصر العلم الوضعى ــ اللـــهم إلا لحكــم العامـــة والسيطرة على نزعاتهم وغرائزهم ! .

هكذا بدأت وتبلورت نزعة " تاريخية وتاريخانية " النصـــوص الدينيـــة فى فكر التنوير الغربى العلمانى والنهضة الأوروبية الحديثة ..

وإذا كان هذا القول قد جاز ، ووجد له بعض المبررات ــ فى الغرب ــ بالنسبة لكتب رسالات خاصة بقوم بعينهم ــ بنى إسرائيل ــ الذين جاءتـــهم اليهودية والمسيحية ، ونزلت لهم التوراة والإنجيل ــ .. ولزمان معيـــن .. وبتفاصيل تشريعات ــ وخاصة فى التوراة ــ تجاوزها تطور الواقع ، فـــإن دعوى تاريخية النص الدينى لا مكان لها ولا ضرورة تســـتدعيها بالنســبة للقرآن الكريم ..

ذلك أن القرآن هو كتاب الشريعة الخاتمة ، والرسالة التى ختمت بـــها النبوات والرسالات ، فلو طبقنا عليه قاعدة تاريخية النصوص الدينية لحـــدث " فراغ " فى المرجعية الدينية ، إذ لا رسالة بعد رسالة محمد ﷺ ، ولا وحـــى بعد القرآن .. وإذا حدث هذا " الفراغ " فى المرجعية والحجة الإلهية علـــى الناس ، زالت حجة الله على العباد فى الحساب والجـــزاء ، إذ ســيقولون : يا ربنا ، لقد أنزلت علينا كتابًا نسخه التطور ، فماذا كان علينا أن نطبـــق ، بعد أن تجاوز الواقع المتطور آيات وأحكام الكتاب الذى أنزلته لهدايتنا ؟! .

وثانى هذه النقاط : أن التاريخية والتاريخانية ــ أى وقتية الأحكـــام ــ لا يقول بها أحد فى أحكام العبادات .. وإنما يقول بها أصحابها فى آيـــات

وأحكام المعاملات . وهم يخطئون إذا ظنوا أن هناك حاجة إليها فى أحكـــام المعاملات التى جاء بها القرآن الكريـــم ذلـــك أن القـــرآن الكريـــم ــ فـــى المعاملات ــ قد وقف عند " فلسفة " و " كليات " و " قواعد " و " نظريـــلت " التشريع ، أكثر مما فصّل فى تشريع المعاملات .. فهو قد فصل فى الأمـــور الثوابت ، التى لا تتغير بتغير الزمـــان والمكـــان ، مثـــل منظومـــة القيـــم والأخلاق ، والقواعد الشرعية التى تســـتنبط منـــها الأحكـــام التفصيليـــة ، والحدود المتعلقة بالحفاظ على المقاصد الكلية للشريعة .. ونزل تفصيل أحكام المعاملات لعلم الفقه ، الذى هو اجتهاد محكوم بثوابت الشريعة الإلهية ، ذلك حتى يظل هذا الفقه ــ فقه المعاملات ــ متطوراً دائمًا وأبدًا ، عبر الزمـــان والمكان ، ليواكب تغير الواقع ومستجدات الأحـــداث ، فـــى إطـــار كليـــات الشريعة وقواعدها ومبادئها ، التى تحفظ على أحكامه المتطورة إســـلاميتها ، دائمًا وأبدًا ..

وهذه " الصيغة الإسلامية " الفريدة التى جاءت بالنص الإلـــهى الثـــابت ــ أى الشريعة التى هى وضع إلـــهى ثـــابت ــ تحفـــظ إســـلامية وإلهيـــة المرجعية والمصدر دائمًا وأبدًا .. بينما وكلت أمر المتغـــيرات إلـــى الفقـــه المتجدد والمتطور ــ والفقه هو علم الفروع ــ .. هذه " الصيغة الإســـلامية " هى التى وازنت بين ثبات النص وتطور التفسير البشـــرى للنـــص الإلـــهى الثابت .. وجمعت بين ثبات " الوضع الإلهى " وتطور " الاجتهاد الفقهى " .. أى جمعت بين ثبات المرجعية والنص ، وبيـــن تطـــور الاجتـــهاد الفقـــهى المواكب لمتغيرات الواقع عبر الزمان والمكان ..

ثالث هذه النقاط : تتعلق بالأمثلة التى سيقت وتساق مـــن قبـــل دعـــاة تاريخية وتاريخانية النصوص الدينية ، للتدليل على ضرورة تطبيـــق هـــذه التاريخانية ــ فى زعمهم ــ على أحكام القرآن الكريم فى المعاملات ..

ونحن عندما ننظر فى هذه الأمثلة ــ وهى هنا ــ : " مـــيراث المـــرأة وشهادتها " نزداد يقيناً بخطأ دعوى تطبيق هذه التاريخانيـــة علـــى القـــرآن الكريم ، وعلى الأحكام التشريعية الواردة فيه .. فليس صحيحًا أن توريـــث المرأة فى الإسلام قد جانب الإنصاف لها ، حتى يكون حكمه صالحًا للزمـــان الماضى دون الزمان المعاصر والمستقبل .. فـــالأنثى ــ فـــى الإســـلام ــ لا ترث نصف الذكر دائمًا وأبدًا .. والقـــرآن لـــم يقـــل يوصيكـــم الله فـــى الوارثين للذكر مثل حظ الأنثيين .

وإنما جعل ذلك فى حالة بعينها هى حالة " الأولاد " ، وليس فى مطلـــق وكل الوارثين : ﴿ **يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ (١) . أما عندما كان التقعيد عامًا للميراث فإن القرآن قد استخدم لفظًا عامًا هـــو لفـــظ " النصيب " لكل الذكور والإناث على حد سواء : ﴿ **للرجال نصيب مما تـــرك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلَّ منه أو كثر نصيبًا مفروضًا** ﴾ (٢) .

ومعايير التفاوت فى أنصبة الميراث لا علاقة لها بالجنس ــ ذكـــورة أو أنوثة ــ على الإطلاق ــ على غير ما يحسب ويظن الكثيرون ــ إن لم يكن الأكثرون ! وإنما معايير هذا التفاوت ثلاثة :

١ ــ درجة القرابة . فكلما كان الوارث أقرب إلى المورّث زاد نصيبه فـــى الميراث .

٢ ــ وموقع الجيل الوارث فى تسلسل الأجيال وتلك حكمة إلهية بالغـــة فـــى فلسفة الإسلام للميراث ــ وكلما كان الوارث صغيرًا من جيل يستقبل الحيـــاة

---

(١) النساء : ١١ .

(٢) النساء : ٧ .

وأعباءها ، وأمامه المسئوليات المتنامية ، كان نصيبه من الميراث أكـــبر .. فابن المتوفى يرث أكثر من أب المتوفى ــ وكلاهما ذكر ــ وبنت المتوفـــى ترث أكثر من أمه ــ وكلتاهما أنثى .. بل إن بنت المتوفى ترث أكثر مـــن أبيه .

٣ ــ والعامل الثالث فى تفاوت أنصبة الميراث هو العبء المالى الذى يتحمله ويكلف به الوارث طبقًا للشريعة الإسلامية .. فإذا اتفقت وتســـاوت درجـــة القرابة .. وموقع الجيل الوارث ــ مثل مركز الأولاد ــ أولاد المـــورث ــ مع تفاوت العبء المالى بين الولد الذكر ــ المكلف بإعالة زوجـــة وأســرة وأولاد ــ وبين البنت ــ التى سيعولها هى وأولادها زوج ذكر ــ هنا يكـون للذكر مثل حظ الأنثيين .. وهو تقسيم ليس فيه أية شبهة لظلم الأنثى .. بـــل ربما كان فيه تمييز وامتياز لها ، احتياطًا لاستضعافها ..

وهذه الحقائق فى المواريث الإسلامية ــ التى يجهلها ويتجاهلها دعـــاة تاريخية آيات الميراث ــ هى التى جعلت المرأة ــ فى الجـداول الإجماليـــة لحالات الميراث الإسلامى ــ ترث مثل الرجل ، أو أكـــثر مـــن الرجـــل ، أو ترث ولا يرث الرجل فى أكثر من ثلاثين حالة مـــن حـــالات المـــيراث الإسلامى، بينما هى ترث نصف ما يرث الذكر فى أربع حالات فقط [١] ! .

وكذلك الحال مع " شهادة المرأة " .. ففى الأمور والميادين التى تقل فيها خبرة المرأة عن الرجل ، تكون شهادتها أقل من شهادته .. وحتى لا تـــهدر شهادتها كلية فى هذه الميادين ، سمح القرآن بشهادتها ، على أن تدعم بشهادة واحدة من بنات جنسها ، تذكرها بما تنساه من وقائع الشهادة .. أما الميـــادين

---

(١) لمزيد من التفاصيل ، أنظر : د . محمد عمارة [هل الإسلام هو الحل ؟] طبعة دار الشروق . القـــاهرة ١٩٩٨م . ود . صلاح سلطان [ميراث المرأة وقضية المساواة] طبعة دار نهضة مصر .القاهرة ١٩٩٩م .

التى تختص بالمرأة ، والتى تكون خبرتها فيها أكثر ، فإن شهادتها فيها تكون أعلى ، وأحيانا ضعف شهادة الرجل .. بل إن شهادتها تعتمد حيث لا تعتمد شهادة الرجل فى بعض هذه الميادين .

والذين يظنون أن آية سورة البقرة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم * وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم** ﴾ [1] .

الذين يظنون أن هذه الآية ــ٢٨٢ــ تجعل شهادة المرأة نصف شهادة الرجل بإطلاق ، وفى كل الحالات مخطئون وواهمون .. فهذه الآية تتحدث عن دين خاص .. فى وقت خاص ، يحتاج إلى كاتب خاص ، وإملاء خاص ، وإشهاد خاص ..

---

(١) البقرة : ٢٨٢ــ٢٨٣ .

وهذه الآية ــ فى نصها ــ استثناء : ﴿ .. **إلا أن تكون تجارة حـــاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها** ﴾ .

ثم إنها تستثنى من هذه الحالة الخاصة الإشهاد على البيوع ، فلا تقيدهـا بما قيدت به حالة هذا الدين الخاص .. ثم إنها تتحدث ، مخاطبة ، لصـــاحب الدين ، الذى يريد أن يستوثق لدينه الخاص هذا بأعلى درجات الاســتيثاق .. ولا تخاطب الحاكم ــ القاضى ــ الذى له أن يحكم بالبينة واليمين ، بصـــرف النظر عن جنس الشاهد وعدد الشهود الذين تقوم بهم البينـــة .. فللحـــاكم ــ القاضى ــ أن يحكم بشهادة رجلين .. أو امرأتين .. أو رجل وامـــرأة .. أو رجل واحد .. أو امرأة واحدة .. طالما قامت البينة بهذه الشهادة ..

ومن يرد الاستزادة من الفقه الإسلامى فـــى هـذه القضيـــة ــ التـــى يجهلها الكثيرون ــ فعليه أن يرجع إلى آراء شـــيخ الإســـلام ابـــن تيميـــة [٦٦١ــ٧٢٨هـ/١٢٦٣ــ١٣٢٨م] وتلميذه العظيـــم ابـــن قيـــم الجوزيـــة [٦٩١ــ٧٥١هـ/١٢٦٢ــ١٣٥٠م] فى كتابه [الطرق الحكمية فى السياســـة الشرعية] [1] .. ففيه ــ وفق نص ابن تيمية ــ أن ماجاء عن شهادة المـــرأة فى آية سورة البقرة ، ليس حصرا لطرق الشهادة وطرق الحكم التى يحكـــم بها الحاكم ، وإنما ذكر لنوعين من البينات فى الطرق التى يحفظ بها الإنسان حقه .. فالآية نصيحة لهم وتعليم وإرشاد لما يحفظون به حقوقهم ، وما تحفظ به الحقوق شىء وما يحكم به الحاكم شىء ، فإن طرق الحكم أوســـع مـــن الشاهدين والمرأتين .

ولقد قال الإمام.أحمد بن حنبل [١٦٤ــ٢٤١هـ/٧٨٠ــ٨٥٥م] إن شهادة الرجل تعدل شهادة امرأتين فيما هو أكثر خبرة فيه ، وأن شهادة المرأة تعـدل

---

(١) ص ١٠٣ــ١٠٤ . تحقيق : د . جميل غازى ، طبعة القاهرة ١٩٧٧م .

شهادة رجلين فيما هى أكثر خبرة فيه من الرجل .. فالباب مفتوح أمام الخبرة التى هى معيار درجة الشهادة ، فإذا تخلفت خبرة الرجل فى الميدان تراجع مستوى شهادته فيه .. وإذا تقدمت وزادت خبرة المرأة فى الميدان ارتفع مستوى شهادتها فيه .. وليس هناك فى الفقه الإسلامى تعميم وإطلاق فى هذا الموضوع ، إذ الشهادة سبيل للبينة التى يحكم الحاكم ــ القاضى ــ بناء عليها ، بصرف النظر عن جنس الشهود وعددهم .

ولو فقه الداعون إلى تاريخية وتاريخانية آيات الأحكام فى القرآن حقيقة هذه الأحكام التى توهموا الحاجة إلى تجاوزها ــ فقالوا بتاريخية ووقتية معانى نصوصها القرآنية ــ لأدركوا أن وقوف النص القرآنى عند كليات وفلسفات وقواعد ونظريات التشريع ، مع ترك تفصيلات التشريع لاجتهادات الفقهاء ، هو الذى جعل أحكام القرآن الكريم فى المعاملات ــ فضلا عن العبادات .. والقيم والأخلاق ــ صالحة لكل زمان ومكان ، فكانت شريعته آخر وخاتم الشرائع السماوية ، دونما حاجة إلى هذه " التاريخية " التى استعاروها من الفكر الغربى ، دونما إدراك لخصوصية النص الإسلامى ، وتميز مسيرة الفقه الإسلامى والحضارة الإسلامية .. ولو أنهم فقهوا حقيقة الأمثلة التى توهموها دواعى لهذه التاريخية ــ من مثل ميراث المرأة .. وشهادتها ــ لكفونا مئونة هذا الجهد فى كشف هذه الشبهات ! ..

الشبهة السابعة والأربعون

حول عصمة الرسول ﷺ وموقف القرآن من العصمة

هناك من لا يعترفون بأن الرسول معصوم عن الخطأ ، ويقدمون الأدلة على ذلك بسورة [عبس وتولى] وكذلك عندما جامل الرسول ﷺ ، زوجاته ، ونزلت الآية الكريمة التى تنهاه عن ذلك (ا . هـ) .

الرد على الشبهة :

إن عصمة الرسول ﷺ ،.وكذلك عصمة كل الرسل ـ عليهم السلام ـ يجب أن تفهم فى نطاق مكانة الرسول .. ومهمة الرسالة .. فالرسول : بشر يُوحَى إليه .. أى أنه ـ مع بشريته ـ له خصوصية الاتصال بالسماء ، بواسطة الوحى .. ولذلك فإن هذه المهمة تقتضى صفات يصنعها الله على عينه فيمن يصطفيه ، كى تكون هناك مناسبة بين هذه الصفات وبين هذه المكانة والمهام الخاصة الموكولة إلى صاحبها .

والرسول مكلف بتبليغ الرسالة ، والدعوة إليها ، والجهاد فى سبيل إقامتها وتطبيقها .. وله على الناس طاعة هى جزء من طاعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ﴾ (١) ﴿ **قل أطيعوا الله والرسول** ﴾ (٢) ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ (٣) ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** ﴾ (٤) ولذلك كانت عصمة الرسل فيما يبلغونه عن

---

(١) النساء : ٥٩ .
(٢) آل عمران : ٣٢ .
(٣) النساء : ٨٠ .
(٤) آل عمران : ٣١ .

الله ضرورة من ضرورات صدقهم والثقة فى هذا البلاغ الإلهى الذى اختيروا ليقوموا به بين الناس .. وبداهة العقل ــ فضلاً عن النقل ــ تحكم بأن مُرْسِل الرسالة إذا لم يتخير الرسول الذى يضفى الصدق على رسالته ، كان عابثًا .. وهو ما يستحيل على الله ، الذى يصطفى من الناس رسلاً تؤهلهم العصمـــة لإضفاء الثقة والصدق على البلاغ الإلهى .. والحُجة على الناس بصدق هـذا الذى يبلغون .

وفى التعبير عن إجماع الأمة على ضرورة العصمة للرسول فيما يبلـــغ عن الله ، يقول الإمام محمد عبده [١٢٦٦ــ١٣٢٣هـ/١٨٤٩ــ١٩٠٥م] عن عصمة الرسل ــ كل الرسل ــ : " .. ومن لوازم ذلك بالضرورة : وجـــوب الاعتقاد بعلو فطرتهم ، وصحة عقولهم ، وصدقهم فى أقوالهم ، وأمانتهم فى تبليغ ما عهد إليهم أن يبلغوه ، وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشـــرية ، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار وتنفر منه الأذواق الســـليمة ، وأنـــهم منزهون عما يضاد شيئًا من هذه الصفات ، وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الإلهى بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانيـــة .. إن من حكمة الصانع الحكيم ــ الذى أقام الإنسان على قاعدة الإرشاد والتعليم ــ أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يُعدُّ لها ، بمحض فضله ، بعـض مَنْ يصطفيه من خلقه ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، يمـــيزهم بـــالفطرة السليمة ، ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معـــه للاستشـــراق بـــأنوار علمه ، والأمانة على مكنون سره ، مما لو انكشف لغـــيرهم انكشـــافه لـــهم لفاضت له نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته ، فيشرفون علـــى الغيـــب بإذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونـــون فـــى مراتبـــهم العلوية على نسبة من العالمين ، نهاية الشاهد وبداية الغائب ، فهم فى الدنيـــا كأنهم ليسو من أهلها ، هم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها .. أمـــا

فيما عدا ذلك ــ [أى الاتصال بالسماء والتبليغ عنها] ــ فهم بشر يعتريهم ما يعترى سائر أفراده ، يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام ، ويمرضون وتمتد إليهم أيدى الظلمة ، وينالهم الاضطهاد ، وقد يقتلون " (١) .

فالعصمة ــ كالمعجزة ــ ضرورة من ضرورات صدق الرسالة ، ومن مقتضيات حكمة من أرسل الرسل ــ عليهم السلام ــ ..

وإذا كان الرسول ــ كبشر ــ يجوز على جسده ما يجوز على أجساد البشر .. وإذا كان الرسول كمجتهد قد كان يمارس الاجتهاد والشورى وإعمال العقل والفكر والاختيار بين البدائل فى مناطق وميادين الاجتهاد التى لم ينزل فيها وحى إلهى .. فإنه معصوم فى مناطق وميادين التبليغ عن الله ــ سبحانه وتعالى ــ لأنه لو جاز عليه الخطأ أو السهو أو مجانبة الحق والصواب أو اختيار غير الأولى فى مناطق وميادين التبليغ عن الله لتطرق الشك إلى صلب الرسالة والوحى والبلاغ ، بل وإلى حكمة من اصطفاه وأرسله ليكون حُجة على الناس .. كذلك كانت العصمة صفة أصيلة وشرطًا ضروريًا من شروط رسالة جميع الرسل ــ عليهم السلام ــ .. فالرسول فى هذا النطاق ــ نطاق التبليغ عن الله ــ ﴿ **وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى** ﴾ (٢) . وبلاغة ما هو بقول بشر ، ولذلك كانت طاعته فيه طاعة لله ، وبغير العصمة لا يتأتى له هذا المقام .

أما اجتهادات الرسول ﷺ فيما لا وحى فيه ، والتى هى ثمرة لإعماله لعقله وقدراته وملكاته البشرية ، فلقد كانت تصادف الصواب والأولى ، كما

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٢ ص ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٢٠، ٤٢١ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م .

(٢) النجم :٣ــ٤ .

كان يجوز عليها غير ذلك .. ومن هنا رأينا كيف كان الصحابة ، رضـــوان الله عليهم فى كثير من المواطن وبإزاء كثير من مواقـــف وقـــرارات وآراء واجتهادات الرسول ﷺ يسألونه ــ قبل الإدلاء بمساهماتهم فى الرأى ــ هـــذا السؤال الذى شاع فى السُّنة والسيرة :

" **يا رسول الله ، أهو الوحى ؟ أم الرأى والمشورة ؟ ..** "

فإن قال : إنه الوحى . كان منهم السمع والطاعة له ، لأن طاعته هنـــا هى طاعة لله .. وهم يسلمون الوجه لله حتى ولو خفيت الحكمة من هذا الأمر عن عقولهم ، لأن علم الله ــ مصدر الوحى ــ مطلق وكلى ومحيط ، بينمـــا علمهم نسبى ، قد تخفى عليه الحكمة التى لا يعلمها إلا الله .. أما إن قال لـهم الرسول ــ جوابًا عن سؤالهم ــ : إنه الرأى والمشورة .. فإنهم يجتـــهدون ، ويشيرون ، ويصوبون .. لأنه ﷺ هنا ليس معصومًا ، وإنما هو واحد مـــن المقدمين فى الشورى والاجتهاد .. ووقائع نزوله عن اجتهاده إلى اجتـــهادات الصحابة كثيرة ومتناثرة فى كتب السنة ومصادر الســـيرة النبويـــة ــ فـــى مكان القتال يوم غزوة بدر .. وفى الموقف من أسراها .. وفى مكان القتـــال يوم موقعة أُحد .. وفى مصالحة بعض الأحزاب يوم الخندق .. إلخ .. إلخ .

ولأن الرسول ﷺ قد أراد الله له أن يكون القدوة والأسوة للأمـــة ﴿ **لقـــد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكـــر الله كثيرًا** ﴾ (١) .

وحتى لا يقتدى الناس باجتهاد نبوى لم يصادف الأولى ، كـــان نـــزول الوحى لتصويب اجتهاداته التى لم تصادف الأولى ، بل وعتابه ــ أحيانًـــا ــ على بعض هذه الاجتهادات والاختيارات من مثل : ﴿ **عبـــس وتولـــى * أن**

---

(١) الأحزاب : ٢١ .

جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى ﴾ [1] . ومن مثل : ﴿ يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم * قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم * وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثًا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير ﴾ [2] . ومن مثل : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ [3] .

وغيرها من مواطن التصويب الإلهى للاجتهادات النبوية فيما لم يسبق فيه وحى ، وذلك حتى لا يتأسى الناس بهذه الاجتهادات المخالفة للأولى .

فالعصمة للرسول ﷺ ، فيما يبلغ عن الله شرط لازم لتحقيق الصدق والثقة فى البلاغ الإلهى ، وبدونها لا يكون هناك فارق بين الرسول وغيره من الحكماء والمصلحين ، ومن ثم لا يكون هناك فارق بين الوحى المعصوم والمعجز وبين الفلسفات والإبداعات البشرية التى يجوز عليها الخطأ والصواب .. فبدون العصمة تصبح الرسالة والوحى والبلاغ قول بشر ، بينما هى ــ بالعصمة ــ قول الله ــ سبحانه وتعالى ــ الذى بلغه وبينه المعصوم ــ عليه الصلاة والسلام ــ .. فعصمة المُبَلِّغ هى الشرط لعصمة البلاغ .. بل إنها ــ أيضًا ــ الشرط لنفى العبث وثبوت الحكمة لمن اصطفى الرسول وبعثه وأوحى إليه بهذا البلاغ .

---

(١) عبس : ١ــ١٠ .

(٢) التحريم : ١ــ٣ .

(٣) الأنفال : ٦٧ــ٦٨ .

الشبهة الثامنة والأربعون

دعوى : خلو الكتب السابقة من البشارة برسول الإسلام

زعموا أن محمداً ــ ﷺ ــ ليس برسول . وبنوا هذا الزعم على أربـــع شعب هى :

١ــ إن العهد والنبوة والكتاب محصورة فى نسل إسحق لا إسماعيل . ؟ !

٢ــ إن محمداً ــ ﷺ ــ لم يأت بمعجزات .؟!

٣ــ إن القرآن من نوادر الأعمال الإنسانية ، فليس هو معجزاً [1] .؟!

٤ــ إن الكتب السابقة ــ التوراة وملحقاتها والأناجيل ــ خلت من البشـــارة برسول الإسلام .؟!

الرد على الشبهة :

ولكن قبل أن نواجهها مواجهة مباشرة أريد أن أقدم كلمة موجزة بـــين يدى هذه المواجهة ، رأيت أن تقديمها من أوجب الواجبات فى هذا المجال .

وجود " البشارات " وعدمها سواء ..؟

أجل : إن وجود البشارات وعدمها فى الكتب المشار إليها آنفا ســـواء ، وجودها مثل عدمها ، وعدمها مثل وجودها . فرسالة رســـول الإســـلام ﷺ ليست فى حاجة إلى دليل يقام عليها من خارجها ، بحيث إذا لم يوجد ذلـــك الدليل " الخارجى " بطلت ــ لا سمح الله ــ تلك الرسالة ؛ فهى رسالة دليلها فيها ، ووجود البشارات بها فى كتب متقدمة ــ زمنا ــ عليها لا يضيف إليها جديداً ، وعدم وجود تلك البشارات لا ينال منها شيئاً قط .

---

(١) رددنا على هذه الادعاءات فى " الإسلام فى مواجهة الاستشراق فى العالم " مرجع سبق ذكره .

فهى حقيقة قائمة بذاتها لها سلطانها الغنىعما سواها . ودليلها قائم خالد صالح للفحص فى كل زمان ومكان ، باق بقاء رسالته أبد الدهر أشرق ولـــم يغب ، ظهر ولم يختف ، قوى ولم يضعف . علا ولم يهبط ، إنه دليل صدق الأنبياء كلهم . فكل الأنبياء مضـــوا ولم يبق من أدلة صدقهـــم إلا ما جـــاء فى هذا الدليل " القرآن العظيم " حيث شهد لهم بالصدق والوفاء وأنهم رســـل الله المكرمون ..

فلا يظنن أحدُ أننا حين نتحدث عن بشارات الكتـــب الســـابقة برســـول الإسلام إنما نتلمس أدلة نحن فى حاجة إليها لإثبات صدق رسول الإسلام فى دعواه الرسالة . فرســـول الإسلام ليس فى حاجة إلى " تلك البشارات " حتى ولو سلم لنا الخصوم بوجـــودها فله من أدلة الصدق ما لم يحظ به رســـول غيره .

وستعالج البشارة به ﷺ على قسمين :

١- بشاراته (ﷺ) فى التوراة .

٢- بشاراته (ﷺ) فى الإنجيل .

أولاً : البشارات فى التوراة

تعددت البشارات برسول الإسلام فى التوراة وملحقاتها ، ولكـــن اليهـــود أزالوا عنها كل معنى صريح ، وصيروها نصوصا احتماليـــة تســـمح لهـــم بصرفها عنه ـــ ﷺ ـــ ومع هذا فقد بقيت بعد تعديلها وتحريفها قوية الدلالـــة على معناها " الأصلى " من حملها على رسول الإسلام ـــ ﷺ ـــ لأن حملها على غيره متعذر أو متعسر أو محال .

فهى أشبه ما تكون برسالة مغلقة مُحى " عنوانها " ولكن صاحب الرسالة قادر ـــ بعد فضها ـــ أن يثبت اختصاصها به ، لأن الكلام " الداخلى " الذى فيها يقطع بأنها " له " دون سواه ؛ لما فيها من " قرائن " وبينـــات واضـــحة ونعرض ـــ فيما يلى ـــ بعضاً منها :

ـــ١ـــ

" وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى إســـرائيل قبـــل موته " .

فقال :

" جـــاء الرب من سينـــاء ، وأشـــرق لهم من ساعير ، وتلألأ مـــن جبـــل فاران " [1] . فى هذا النص إشارة إلى ثلاث نبوات :

---

(١) سفر التثنية : الإصحاح (٣٣) الفقرات (١-٢) .

الأولى : نبوة موسى عليه السلام التى تلقاها على جبل سيناء .

الثانية : نبوة عيسى عليه السلام وساعير هى قرية مجاورة لبيت المقـــدس ، حيث تلقى عيسى عليه السلام أمر رسالته .

الثالثة : نبوة محمد (ﷺ) وجبل فاران هو المكان الذى تلقى فيـــه ــ عليـــه الصلاة والسلام ــ أول ما نزل عليه من الوحى وفاران هى مكة المكرمـــة مولد ومنشأ ومبعث محمد (ﷺ) .

وهذه العبارة ــ مرة أخرى ــ تضمنت خبراً وبشارتين :

فالخبر هو تذكير موسى بفضل الله عليه حيث أرسله إليهم رسولاً .

والبشارتان :

الأولى : خاصة بعيسى عليه السلام . **والثانية** خاصة بمحمد (ﷺ) .

وموقـــف اليهـــود منهما النـــفى : فلا الأولى بشارة بعيسى ابن مـــريم ولا الثانية بشارة برسول الإسلام .

أما موقف النصارى فإن النفى ــ عندهم ــ خـــاص ببشـــارة رســـول الإسلام . ولهم فى ذلك مغالطـــات عجيبـــة ، حيث قالـــوا إن " فـــاران " هى " إيلات " وليست مكة . وأجمع على هذا " الباطل " واضـــعو كتـــاب : قاموس الكتاب المقدس . وهدفهم منه واضح إذ لو سَلَّمُوا بأن " فاران " هـــى مكة المكرمة ، للزمهم إما التصديق برسالة رسول الإسلام ، وهـــذا عنـــدهم قطع الرقاب أسهل عليهم من الإذعان له .. ؟! ، أو يلزمهم مخالفـــة كتـــابهم المقدس ، ولم يقتصر ورود ذكر " فاران " على هذا الموضـــع مـــن كتـــب العهـــد القديم ، فقد ورد فى قصة إسماعيل عليه السلام مع أمه هاجر حيـــث تقول التوراة : إن إبراهيم عليه السلام استجاب لسارة بعد ولادة هاجر ابنها إسماعيل وطردها هى وابنها فنزلت وسكنت فى " برية فاران " [1]. على أنه

يلزم من دعوى واضعى قاموس الكتاب المقدس من تفسيرهم فاران بـــإيلات أن الكذب باعترافهم وارد فى التوراة . لأنه لم يبعث نبى من " إيلات " حتى تكون البشارة صادقة . ومستحيل أن يكون هو عيسى عليـــه الســـلام ؛ لأن العـــبارة تتحدث عن بدء الرسالات وعيسى تلقى الإنجيل بســـاعير ولـــيس بإيلات .

فليست " فاران " إلا " مكة المكرمة " وباعتراف الكثير منهم ، وجبـــل فاران هو جبل " النور " الذى به غار حراء ، الذى تلقى فيه رسول الإسلام (ﷺ) بدء الوحى .

وهجـــرة إسماعيل وأمه هـــاجر إلى مكة المكـــرمة " فاران " أشهـــر من الشمس .

وترتيب الأحداث الثلاثة فى العبارة المذكورة :

جاء من سيناء

وأشرق من ساعير

وتلألأ من فـــاران . هـــذا الترتيب الزمنى دليل ثالـــث على أن " تلألأ من جبل فاران " تبشير قطعى برسول الإسلام (ﷺ) .

وفى بعض " النسخ " كانت العبارة : " واســـتعلن من جبل فاران " بدل " تلألأ " .

وأياً كان اللفـــظ فإن " تلألأ " و " استعـــلن " أقـــوى دلالة من " جـــــاء " و " أشرق " وقوة الدلالة هنا ترجع إلى " المدلولات " الثلاثة . فالإشراق جـــزء من مفهوم " المجئ " وهكذا كانت رسالة عيسى بالنســـبة لرســـالة موســـى (عليهما السلام) .

---

(١) سفر التكوين (٢١ – ٢١) .

أما تلألأ واستعلن فهـذا هـو واقع الإسلام ، رسولا ورسالة وأمـة ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

هذه المغالطة (فاران هى إيلات) لها مثيل حيث تـزعم التـوراة أن هاجرأم إسماعيل عندما أجهدها العطـش هى وابنها إسماعيل بعد أن طـردا من وجه " سـارة " طلبت الماء فلم تجـده إلا بعد أن لقيا ملاك " الـرب " فى المكان المعروف الآن " ببئر سبع " ؟! وأنها سميت بذلك لذلك ..؟! وكما كذبت فاران دعوى " إيلات " كذَّبت " زمزم الطهور " دعوى " بئر سبع " ؟

وستظل فاران ــ مكة المكرمة ــ وزمزم الطهور " عملاقين " تـتحطم على صخورهما كل مزاعم الحقد والهوى .

ــ ٢ ــ

ويجئ نص آخر فى التوراة لا محمل له إلا البشارة برسـول الإسـلام (ﷺ) مهما غالط المغالطون . وهو قول الله لموسى حسب ما تروى التوراة :

" أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه فـيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم بـه باسمى أنا أطالبه " [1] .

حدث هذا حسب روايات التوراة وعداً من الله لموسى فى آخـر عهـده بالرسالة ، وكان يهمه أمر بنى إسرائيل من بعده ، فأعلمه الله ــ حسب هذه الرواية التوراتية ــ أنه سيبعث فيهم رسولا مثل موسى عليه السلام .

ولقوة دلالة النص على نبوة محمد (ﷺ) فقد وقف أهل الكتـابين ــ اليهـود والنصارى ــ موقفين مختلفين هدفهما واحد ، وهو أن النص لـيس بشـارة برسول الإسلام .

أما اليهود فلهم فيه رأيان :

الأول : أن العبارة نفسها ليست خبراً بل هى نفى ، ويقدرون قبل الفعل " أقيم " همزة استفهام يكون الاستفهام معها " إنكارياً " وتقدير النص عندهم هكذا " أأقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ..؟ !

---

(١) سفر التثنية : الإصحاح (١٨) الفقرات (١٨ ــ ١٩) .

ويكون المعنى عليه : كيف أقيم لهـــم نبياً من وسط إخوتهم ؟ أى لا أفعـــل هذا .

بطلان هذا الرأى

وهـــذا الرأى باطل ولن نذهـــب فى بيان بطلانه إلى أكثر مـــن كـــلام التوراة نفسها . وذلك ؛ لأنه لو كان النص كما ذكروا بهمزة استفهام إنكارى محذوفة هى فى قوة المذكور لكان الكلام نفياً فعلاً .. ولو كان الكلام نفياً لما صح أن يعطف عليه قوله بعد ذلك :

" ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باســمى أنـــا أطالبه " ؟! فهذا المقطع إثبات قطعاً فهو مرتب على إقامة النبى الذى وعد به المقطع الذى قبله . فدل هذا " العطف " على أن المقطع السابق وعد خبـــرى ثابت لا نفى . ويترتب على ذلك بطلان القـــول الذاهـــب إلـــى تقـــدير الاستفهام ..؟!

الثانى : وقد أحس اليهـــود ببطلان القول بالاستفهـــام فاحتاطوا للأمر وقالوا لا مانع أن يكون النص خبراً ووعداً مثبتاً ، ولكنه ليس المقصود به عيســـى ابن مريم عليه السلام ولا محمد بن عبد الله رسول الإسلام (ﷺ) ، بل المراد به نبى من أنبياء إسرائيل يوشع بن نون فتى موسى ، أو صموئيل ..؟!

موقف النصارى :

أما النصارى فيحملون البشارة فى النص على عيســـى عليـــه الســـلام وينفون أن يكون المراد بها رسول الإسلام (ﷺ) ، وقد علمنا قبلا أن اليهود ينفون أن تكون لعيسى عليه السلام .

وللنصارى مغالطات عجيبة فى ذلك إذ يقولون إن النبى الموعـــود بـــه ليس من بنى إسماعيل بل من بنى إسرائيل . ومحمد إسماعيلى فكيف يرسل الله إلى بنى إسرائيل رجلاً ليس منهم .؟! كما قالوا إن موسى أتى بمعجزات

ومحمد لم يأت بمعجزات فكيف يكون مثله . وقد رددنا على هذه الفرية فيما تقدم .

الحق الذى لا جدال فيه :

والواقع أن كل ما ذهب إليه اليهود والنصارى باطل . باطـــل . ولـــن نذهب فى بيان بطلانه إلى أبعد من دلالة النص المتنازع عليه نفســـه . أمـــا الحق الذى لا جدال فيه فإن هذا النص ليس له محمـــل مقبـــول إلا البشـــارة برسول الإسلام (ﷺ) وإليكم البيان :

إن النص المتنازع عليه يقيد البشارة بالنبى الموعود به فيه بشرطين :

أحدهما : أنه من وسط إخوة بنى إسرائيل .

وثانيهما : أنه مثل موسى عليه السلام صاحب شريعة وجهـــاد لأعـــداء الله وهذان الشرطان لا وجود لهما لا فى يوشع بن نون ، ولا فى صموئيل كمـــا يدعى اليهود فى أحد قوليهم .

ولا فى عيسى عليه السلام كما يدعى النصارى .

أما انتفاء **الشرط الأول** فلأن يوشع وصموئيل وعيسى من بنى إسرائيل وليسو من وسط إخوة بنى إسرائيل . ولو كان المراد واحداً منهم لقـــال فـــى الوعد : أقيم لهم نبياً منهم .. ؟! هذا هو منهج الوحى فى مثل هذه الأمـــور كما قال فى شأن النبى ﷺ :

﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم ... ﴾ (١) . وكما جاء على لســـان إبراهـــيم وإسماعيـــل (عليهما الســـلام) **﴿ ربنا وابعـــث فـــيهم رســـــولاً منهم ... ﴾** (٢) .

وأما انتفاء **الشرط الثانى** ، فلأن : لا صموئيل ولا يوشع ولا عيســـى ابن مريم كانوا مثل " موسى " عليه السلام .

---

(١) الجمعة : ٢ .

(٢) البقرة : ١٢٩ .

فموسى كان صاحب شريعة ، ويوشع وصـــموئيل وعيســـى وجميـــع الرسل الذين جاءوا بعد موسى عليه السلام من بنى إسرائيل لم يكن واحـــداً منهم صاحب شريعة ، وإنما كانوا على شريعة موسىعليه السلام . وحتـــى عيسى ما جاء بشريعة ولكن جاء متمماً ومعدلاً فشريعة موسى هى الأصل . إن عيسى كان مذكراً لبنى إسرائيل ومجدداً الدعوة إلى الله على هـــدى مـــن شريعة موسى عليه السلام !! فالمثلية بين هؤلاء ــ وهى أحد شرطى البشارة ــ وبين موسى عليه السلام لا وجود لها . ؟!

الشرطان متحققان فى رسول الإسلام (ﷺ)

وبنفس القـــوة والوضـــوح اللذين انتفى الشـــرطان بهما عمن ذكـــروا من الأنبياء ثبت ذلك الشرطان لمحمد بن عبد الله (ﷺ) :

فهو من نسل إسماعيل ، وإسماعيل أخو إسحق ، الذى هو أبو يعقـــوب المسمى إسرائيل . فهو من وسط إخوة بنى إسرائيل ــ بنـــو عمـــومتهم ــ وليس من إسرائيل نفسها . وبهذا تحقق الشرط الأول من شرطى البشارة :

ومحمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ صاحب شريعة جليلـــة الشـــأن لهـــا سلطانها الخاص بها ــ جمعت فأوعت ــ مثلما كان موسى ــ أكبـــر رســـل بنى إسرائيل ــ صاحب شريعة مستقلة كانت لها منزلتها التى لم تضارع فيما قبل من بدء عهد الرسالات إلى مبعث عيسى عليه السلام .

وبهذا يتحقق الشرط الثانى من شرطى البشارة وهـــو " المثليـــه " بـــين موسى ومحمد (عليهما صلوات الله وسلامه) ، فعلى القارئ أن يتأمل ثـــم يحكم .

ــ ٣ ــ

فى المزامير المنســـوبة إلى داود عليـــه الســـلام وردت كثيـــر مـــن العبارات التى لا يصح حمل معناها إلا على رسول الإسلام . ومن ذلك قول داود كما تروى التوراة :

ــ أ ــ

" أنت أبرع جمالاً من بنى البشر . انسكبت النعمة على شـــفتيك، لـــذلك باركك الله إلى الأبد . تقلد سيفك على فخذك أيها الجبار ، جلالك وبهـــاؤك .

وبجلالك اقتحم . اركب من أجل الحق والدعة .. بتلك المسنونة فـــى قلـــب أعداء الملك ــ يعنى الله ــ شعوب تحتك يسقطون .. من أجل ذلك مســـحك الله إلهك بدهن الابتهاج أكثر من رفقائك " (١) .

ــ ب ــ

اسمعى يانيت وأميلى أذنك ، وانسى شعبك وبيت أبيك ، فيشتهى الملـــك الملك حسنك ؛ لأنه هو سيدك فاسجدى له . وبنت صـــور أغنـــى الشـــعوب تترضى وجهك بهدية . كلها مجد ابنة الملك فى خدرها . منســـوجة بـــذهب ملابسها مطرزة ، تحضر إلى الملك فى إثرها عذارى صـــاحباتها مقـــدمات إليك يحضرن بفرح وابتهاج يدخلن إلى قصر الملك . عوضاً عن آبائك يكون بنوك نقيمهم رؤساء فى كل الأرض اذكر اسمك فى كل دور فدور من أجـــل ذلك تحمدك الشعوب إلى الدهر والآبد "

وقفة مع هذا الكلام

فى المقطـــع الأول (أ) لا تنطبـــق الأوصـــاف التى ذكـــــرها داود إلا على رسول الإسلام (ﷺ) . فهو الذى قاتل بسيفه فى سبيل الله وســـقطت أمامه شعوب عظيمة كالفرس والروم .

وهو الممسوح بالبركة أكثر من رفقائه الأنبياء ؛ لأنه خـــاتم النبيـــين ، ورسالته عامة خالدة ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ (٢) .

ولم يترك رسول هدى وبيانا مثلما ترك رسول الإســـلام فـــى القـــرآن الحكيم ، وفى أحاديثه وتوجيهاته ، التى بلغـــت مئـــات الآلاف ، وتعـــددت المصادر التى سجلتها ، وفيها من روائع البيان ، وصفاء الألفاظ ، وشـــرف المعانى ما ليس فى غيرها .

أما المقطع الثانى (ب) فهو أوصاف للكعبة الشـــريفة . فهـــى التـــى تترضاها الأمم بالهدايا . وهى ذات الملابس المنسوجة بالذهب والمطـــرزة ، وهى التى يذكر اسمها فى كل دور فدور وتأتيها قوافل" الحجـــيج " رجـــالاً ونساءً من كل مكان فيدخـــل الجميع فى " قصر الملك " ويحمدها الناس إلى

---

(١) المزمور (٤٥) الفقرات (٢ ــ ١٧) مع الحذف اليسير .

(٢) الأنبياء : ١٠٧ .

الأبد ؛ لأن الرسالة المرتبطة بها رسالة عامة : لكل شعوب الأرض الإنـــس والجن . بل والملائكة . وفى مواسم الحج يأتيها القاصدون من جميع بقـــاع الأرض مسلمين ، ورعايا مسلمين من بلاد ليست مسلمة .

خالدة : لم ينته العمل بها بوفاة رسولها ، كما هو الحال فيما تقدم . وإنما هى دين الله إلى الأبد الأبيد .

وأشعيا وسفره من أطول أسفار العهد القديم ملئ بالإشارات الواضـــحة التى تبشر برسول الإسلام (ﷺ) ، ولولا المنهج الذى أخذنا به هنا وهو عدم التطويل لذكرنا من ذلك الكثير ؛ ولذا فإننا نكتفى بهذا المقطع لدلالته القويـــة على ما نقول :

" قومى استنيرى ؛ لأنه قد جاء نورك ، ومجد الرب أشـــرق عليـــك .. لأنه ها هى الظلمة تغطى الأرض والظلام الدامس الأمم . أما عليك فيشرق الرب ، ومجده عليك يرى . فتسير الأمم فى نورك ، والملوك فـــى ضـــياء إشراقك .

ارفعى عينيك حواليك وانظرى . قد اجتمعوا كلهم جاءوا إليك . يـــأتى بنوك من بعيد ، وتحمل بناتك على الأيدى ، حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفـــق قلبك ويتسع ؛ لأنه تحول إليك ثروة البحر ، ويأتى إليك غنى الأمم تغطيـــك كثرة الجمال بكران مديان ، وعيفة كلها تأتى من شبا . تحمل ذهبا ولبانـــا ، وتبشر بتسابيح الرب . كل غنم قيدار تجتمع إليك . كباش نبـــايوت تخـــدمك تصعد مقبولة على **مذبحى** ، وأزين بيت جمالى .

من هؤلاء الطائرون كسحاب وكالحمـــام إلـــى بيوتهـــا . إن الجزائـــر تنتظرنى وسفـــن ترشيش فى الأول لتأتى من بعيد ، وفضتهم وذهبهم معهم لا سم الرب إلهك [1] .

---

(١) مكان النقط هنا كلام لم نذكره هو " قدوس إسرائيل لأنه مجدك " ؟! وهذا مقطع مضـــاف بكـــل تأكيـــد والهدف منه صرف الكلام عن معناه الظاهر !!

وبنو الغريب يبنون أسوارك ، وملوكهم يخدمونك .. وتفتح أبوابك دائما نهاراً وليلاً لا تغلق ، ليؤتى إليك بغنى الأمم وتقاد ملوكهم ... [1] .

دلالة هذه النصوص :

بلا أدنى ريب فإن هذا الكلام المنسوب إلى أشعيا وصف لمكة المكرمة وكعبتها الشامخة .

فالمقطع الأول إنما هو حديث عن موسم الحج المبارك فيه يجتمع بنوها حولها من كل مكان وفيه لمحة قوية جداً إلى نحر الهدى صبيحة العيد . ألم يشر النص إلى غنم قيدار ، وقيدار هوولد إسماعيل عليه السلام الذى تشعبت منه قبائل العرب . ثم ألم ينص على المذبح الذى تنحر عليه الذبائح ؟

كما أشار النص ثلاث إشارات تعد من أوضح الأدلة على أن المراد بهذا النص مكة المكرمة . وتلك الإشارات هى طرق حضور الحجاج إليها . ففى القديم كانت وسائل النقل : ركوب الجمال . ثم السفن . أما فى العصر الحديث فقد جدت وسيلة النقل الجوى " الطائرات " وبشارة أشعيا تضمنت هذه الوسائل الثلاث على النحو الآتى :

١- الجمال ، قال فيها : تغطيك كثرة الجمال .؟!

٢- السفن ، قال فيها : وسفن ترشيش تأتى ببنيك من بعيد ؟!

٣- النقل الجوى ، وفيه يقول : من هؤلاء الطائرون كسحاب وكالحمام إلى بيوتها. ؟!!

أليس هذا أوضح من الشمس فى كبد السماء .

على أن النص ملئ بعد ذلك بالدقائق والأسرار ، ومنها أن مكة مفتوحة الأبواب ليلاً ونهاراً لكل قادم فى حج أو عمرة .. ؟!

---

(١) سفر أشعياء الإصحاح (٦٠) الفقرات (٤-١٢) مع حذف يسير .

ومنها أن خيرات الأمم تجبى إليها من كل مكان ، والقرآن يقرر هذا المعنى فى قول الله تعالى :

﴿ أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء ﴾ (١) .

ومنها أن بنى الغريب (يعنى غير العرب) يبنون أسوارها . وكم من الأيدى العاملة الآن ، وذوى الخبرات يعملون فيها ويشيدون قلاعها فوق الأرض وتحت الأرض ومنها أنه ما من عاصمة من عواصم العالم إلا دخلت فى محنة من أهلها أو من غير أهلها إلا هذه " العاصمة المقدسة " فظلت بمأمن من غارات الغائرين وكيد الكائدين ، ومثلها المدينة المنورة .

ومنها كثرة الثروات التى مَنَّ الله بها عليها . أليس البترول من ثروات البحر العظمى التى تفجرت أرض الحجاز وشبه الجزيرة منه عيوناً دفاقة بمعدل لم تصل إليه أمة من الأمم . أضف إلى ذلك سبائك الذهب والفضة .

والحديث عن مكة المكرمة حديث عن رسول الإسلام ؛ لأن مجدها لم يأت إلا على يدى بعثته (ﷺ) .

هذه الحقائق لا تقبل الجدل . ومع هذا فإن أهل الكتاب (وخاصة اليهود) يحملون هذه الأوصاف على مدينة " صهيون " ولهذا فإنهم عمدوا إلى النص وعدلوه ليصلح لهذا الزعم .

ولكننا نضع الأمر بين يدى المنصفين من كل ملة . أهذه الأوصاف يمكن أن تطلق على مدينة " صهيون " .

لقد خرب " بيت الرب " فى القدس مراراً وتعرض لأعمال شنيعة على كل العصور . أما الكعبة الشريفة والمسجد الحرام فلم يصل أحد إليهما بسوء ، ثم أين ثروات البحر والبر التى تجبى إلى تلك المدينة وأهلها (إلى الآن) يعيشون عالة على صدقات الأمم .

وأين هى المواكب التى تأتى إليها براً وبحراً وجَوّاً ، وهل أبوابها مفتوحة ليلاً ونهاراً ، وأين هم بنوها الذين اجتمعوا حولها .

---

(١) القصص : ٥٧ .

وما صلة غنم قيدار وكباش مدين بها . وأين هو التسبيح الذى يشـــق عنـــان السماء منها .. وأين .. وأين ..؟

إن هذه المغالطات لا تثبت أمام قوة الحق ، ونحن يكفينا أن نقـــيم هـــذه الأدلة من كتبهم على صدق الدعوى ، ولا يهمنا أن يذعن القوم لمـــا نقـــول فحسبك من خصمك أن تثبت باطل ما يدعيه أمام الحق الذى تدافع عنه .

والفاصل بيننا ــ فى النهاية ــ هو الله الذى لا يُبدل القول لديه .

-٥-

وتنسب التوراة إلى نبى يدعى " حبقوق " من أنبياء العهد القديم ، ولـــه سفر صغير قوامه ثلاثة إصحاحات . تنسب إليه التوراة نصوصاً كان يصلى بها . تضمنها الإصحاح الثالث من سفره . وهذا الإصحاح يكاد يكون كلـــه بشارة برسول الإسلام (ﷺ) . وإليكم مقاطع منه : " الله جاء مـــن تيمـــان ، والقدوس من جبل فاران ــ سلاه ــ جلالـــه غطـــى الســـماوات . والأرض امتلأت من تسبيحه وكان لمعان كالنور له من يديه شعاع ، وهناك اســـتتار قدرته .

قدامه ذهب الوبأ . وعند رجليه خرجت الحمى . وقف وقاس الأرض ، نظر فرجفِ الأمم ودكت الجبال الدهرية ، وخسفت آكام القوم .

مسالك الأزل له.....

يسخط دست الأمم ، خرجت لخلاص شعبك ... سحقت رأس بيت الشرير معرياً الأساس حتى العنق ... سلكت البحر بخيلك ..[1] .

دلالات هذه الإشارات :

لا يستطيع عاقل عالم بتاريخ الرسالات ومعانى التراكيب أن يصـــرف هذه النصوص على غير البشارة برسول الإسلام ﷺ . فالجهتان المذكورتان فى مطلع هذا المقطع وهما : تيمان : يعنى اليمن ، وجبل فاران : يعنى جبل النور الذى بمكة المكرمة التى هى فاران . هاتان الجهتان عربيتان . وهمـــا

---

(١) (٣ ــ٣ ــ١٥) مع الحذف .

رمز لشبه الجزيرة العربية التى كانت مسرحاً أولياً لرسالة محمد ﷺ .

فليس المراد إذن نبياً من بنى إسرائيل ؛ لأنه معلـوم أن رسـل بنـى إسرائيل كانت تأتى من جهة الشام شمالاً . لا من جهة بلاد العرب . وهـذه البشارة أتت مؤكدة للبشـارة المماثلة ، التى تقدم ذكرها من سفر التثنيـة ، وقد ذكرت أن الله : تلألأ أو استعلن من جبل فاران .

بيد أن بشارة التثنية شملت الإخبار بمقدم موسىعليه السلام والتبشـير بعيسى عليه السلام وبمحمد (ﷺ) أما بشـارة حبقوق فهى خاصة برسـول الإسلام(ﷺ). ولو لم يكن فى كلام حبقوق إلا هذا " التحديد " لكان ذلك كافياً فى اختصاص بشارته برسول الإسلام (ﷺ)ومع هذا فقد اشتمل كلام حبقوق على دلائل أخرى ذات مغزى :

منها : الإشارة إلى كثرة التسبيح حتى امتلأت منه الأرض .. ؟!

ومنها : دكه(ﷺ) لعروش الظلم والطغيان وقهر الممالك الجائرة .

ومنها : أن خيل جيوشه ركبت البحر ، وهذا لم يحدث إلا فى ظـل رسـالة الإسلام .

على أن كلام حبقوق ملئ بالرمز والإشارات مما يفيدنا فى هذا المجال ولكننا نتجاوزه لأمرين :

أحدهما : أن فى الإشارات الصريحة غناء عنها .

وثانيهما : عدم التطويل ــ هنا ــ كما اتفقنا .

بشاراته ﷺ فى العهد الجديد

أسفار العهد الجديد (الأناجيل والرسائل) حافلة بالنصوص التى يتعين أن تكون " بشارات " برسول الإسلام (ﷺ) .

تلك البشـارات تعـلن أحياناً فى صورة الوعـد بملكوت الله أو ملكوت السماوات . وأحيانا أخـرى بالـروح القـدس . ومرات باسـم المعـزى أو الفارقليط ، وهى كلمة يونانية سيأتى فيما بعد معناها ، تلك هى صـورة البشارات فى الأناجيل فى صيغها المعروفة الآن .

ــ ١ ــ

ففى إنجيل متى وردت هذه العبارة مسـندة إلى يحيـى عليـه السـلام المسمى فى الأناجيل : يوحنا المعمدان . وفيها يقول : " توبوا ؛ لأنـه قـد اقترب ملكوت السماوات " [1] .

---

(١) الإصحاح (٣) الفقرة (٢) .

فمن هو ملكوت السماوات الذى بشر به يحيى ؟! هل هو عيسى عليه السلام ــ كما يقول النصارى ..؟!

هذا احتمال .. ولكن متّى نفسه يدفعه حيث روى عن عيسى عليه السلام نفس العبارة : " توبوا ؛ لأنه قد اقترب ملكوت السماوات " (١) .

فلو كان المراد بملكوت السماوات ــ هذه ــ عيسى عليه السلام لما وردت هذه " البشارة " على لسان عيسى ؛ إذ كيف يبشر بنفسه ، وهو قائم موجود ، والبشارة لا تكون إلا بشئ محبوب سيأتى ، كما أن الإنذار ــ قسيمه ــ لا يكون إلا بشىء " مكروه " قد يقع . فكلاهما : التبشير والإنذار ــ أمران مستقبلان .

إن ورود هذه العبارة عن عيسى نفسه تخصيص لذلك العموم المستفاد من عبارة يحيى عليهما السلام . فدل ذلك على أن المراد بملكوت السماوات رسول آخر غير عيسى . ولم يأت بعد عيسى ــ باعتراف الجميع ــ رسول غير رسول الإسلام (ﷺ) .

فدل ذلك على أنه هو المراد بملكوت السماوات فى عبارة عيسى عليه السلام ــ قولاً واحداً ــ وباحتمال أرجح فى عبارة يحيى ،إذ لا مانع عندنا ــ أن يكون يحيى عليه السلام قد بشر بها بعيسى عليه السلام .

أما بشارة عيسى فلا موضع لها إلا الحمل ــ القطعى ــ على رسول الإسلام (ﷺ) .

ــ٢ــ

وفى صيغة الصلاة التى علمها المسيح لتلاميذه ــ كما يروى مَتّى نفسه ــ بشارة أخرى بنبى الإسلام . وهذا هو نص مَتّى فى هذا " فصلوا أنتم هكذا : أبانا الذى فى السماوات ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك " (٢) .

ووردت هذه الصيغة فى إنجيل لوقا هكذا :

" متى صليتم فقولوا : أبانا الذى فى السماوات ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك .. " (٣) .

---

(١) الإصحاح (٤) الفقرة (١٧) .

(٢) الإصحاح (٦) الفقرة (٩ــ١٠) .

(٣) الإصحاح (١١) الفقرة (٢) .

ويذكر لوقا أن المسيح جمع تلاميذه ، وعلمهم كيف يقهرون الشياطين ، ويشفـــون الأمراض ثم قال : " وأرسلهم ليكرزوا ــ أى يبشروا ــ بملكوت الله " [1] .

أما مرقس فيسند هذه البشارة إلى المسيح نفسه إذ يقول : " جاء يســوع إلى الجبل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول : قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله " [2] .

فهــؤلاء ثلاثة من التلامذة يتفقــون على أن يحيى وعيسى (عليهمــا السلام) قد بشرا بملكوت الله الذى اقترب . فمن المراد بملكوت الله إذا لــم يكن هو رسول الإسلام ﷺ ؟

وأكاد أجزم بأن عبارة " المسيح، قد كمل الزمان " لا تعنى سوى انتهاء عصر الرسالات الموقوتة وإقبال الرسالة الخالدة..!

ــ ٣ ــ

أما يوحنا صاحب رابع الأناجيل . فإنه يذكر هذه البشارات فى مواضع متعددة من إنجيله . ومن ذلك ما يرويه عن المسيح عليه السلام " الــذى لا يحبنى لا يحفظ كلامى ، والكلام الذى تسمعونه ليس لى بل لــلأب الــذى أرسلنى . بهذا كلمتكم وأنا عندكم . وأما المعزى (اسم فاعــل مــن الفعــل المضعف العين عزى) [3] الروح القدس ، الذى سيرسله الأب باسمى فهــو يعلمكم كل شىء ويذكركم بما قلته لكم " [4] .

---

(١) الإصحاح (٩) الفقرة (٢) .

(٢) الإصحاح (١) الفقرة (١٤ ــ١٥) .

(٣) هذا إيضاح وليس من النص .

(٤) الإصحاح (١٤) الفقرات (٢٤ ــ ٢٦) .

كما يروى يوحنا قول المسيح ــ الآتى ــ مع تلاميذه : " إنه خير لكم أن انطلق . إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم . ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية ، وعلى بر وعلى دينونة " (١) .

ويروى كذلك قول المسيح لتلاميذه : " وأما إذا جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق ؛ لأنه لا يتكلم من نفسه . بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية " .. ؟! (٢) .

فمن هو المعزى أو روح القدس أو روح الحق الذى بشر به المسيح عليه السلام حسبما يروى يوحنا ..؟!

إن المسيح يقول :

إن ذلك المُعَزِّى أو الروح القدس لا يأتى إلا بعد ذهاب المسيح ، والمسيح ــ نفسه ــ يُقِرُّ بأن ذلك المُعَزِّى أو الروح أَجَلُّ منه شأنا ، وأعم نفعاً وأبقى أثراً ، ولذلك قال لتلاميذه : خير لكم أن أنطلق . إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعَزِّى .

وكلمة " خير " أفعل تفضيل بمعنى أكثر خيراً لكم ذهابى ليأتيكم المعزى ولو كان " المُعَزَّى " مساويا للمسيح فى الدرجة لكانا مستويين فى الخيرية ولما ساغ للمسيح أن يقول خير لكم أن أنطلق .

ومن باب أولى لو كان " المعزَّى " أقل فضلاً من المسيح . فعبارة المسيح دليل قاطع على أنه بشر بمن هو أفضل منه ، لا مساوٍ له ولا أقل .

ثم يصف المسيح ذلك المُعَزَّى أو الروح بأوصاف ليست موجودة فى المسيح نفسه عليه السلام . ومن تلك الأوصاف :

أــ إنه يعلم الناس كل شىء .وهذا معناه شمول رسالته لكل مقومات الإصلاح فى الدنيا والدين . وذلك هو الإسلام .

---

(١) الإصحاح (١٦) الفقرتان (٧ ــ ٨) .

(٢) الإصحاح (١٦) الفقرة (١٣) .

ب ــ إنه يبكت العالم على خطية . والشاهد هنا كلمة " العــالم " وهــذا معناه شمول الإسلام لكل أجــناس البشر ، عربا وعجماً ، فى كــل زمــان ومكان . ولم توصف شريعة بهذين الوصفين إلا الإسلام .

جـ ــ إنه يخــبر بأمور آتية ، ويذكــر بما مضى . وقد تحقق هــذا فى رسالة محمد (ﷺ) .

فأخبر بأمور آتية لم يخبر بها من سبقه أو أخبروا ولكن ليس على وجه التفصيل والتأكيد الذى كان على يديه (ﷺ) فكم فى القرآن من أمور أخبر بها قبل أن تقع فوقعت كما أخبر ، وكم فيه من الإخبار بما سيكون فــى الحيــاة الآخرة من أوصاف الجنة ، والنار ، والبعث ، وعلامات الساعة ، وتخاصم أهل النار ، وحوار أصحاب الجنة مع " رجال الأعراف " ، وندم من بــاعوا دينهم بدنياهم . إلخ .. إلخ .

وذكر بما مضى من أحوال الأمم ، وقيام الحضــارات ثــم ســقوطها وأحوال المرسلين وما بلغوا به أقوامهم والشهادة لهــم بالصــدق والأمانــة والإخلاص والوفاء ، ومسلك بعض الأقوام من رسلهم والصراع الــذى دار بين المحقين وأهل الباطل ، وعاقبة بعض المكذبين .. إلخ ..إلخ .

ثم استوعبت رسالته الحياة كلها فأرست قواعد الاعتقاد الصحيح وسنت طرق العبادة المثمرة ، ووضعت أصول التشريع فى كل ما هو متعلق بالحياة عاجلها وآجلها ، ووضحت العلاقة السليمة بين المخلوق والخــالق ، وبــين الناس بعضهم بعضاً . وحررت العقول ، وطهرت القلوب ورسمت طريــق الهدى لكل نفس ولكل جماعة ولكل أمة . أى أنها أرشدت إلى كل شــىء . وعلمت كل شىء مما يحتاج تعلمه إلى وحى وتوقيف ..!

ذلك هو الإسلام ، ولا شىء غير الإسلام .

وشهدت ــ فيما شهدت ــ للمسيح عليه السلام بأنه رسول كريم أمين أدى رسالته وبشر وأنذر بنى إسرائيل . وأنه عبده ورسوله ﴿ **ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون** ﴾ (١) .

وشهادة رسول الإسلام لعيسى عليه السلام منصوص عليها فى بشارات عيسى نفسه به (ﷺ) . فاسمع إلى يوحنا وهو يروى عن المسيح عليه السلام قوله الآتى . " ومتى جاء المعزّى الذى سأرسله " أنا " إليكم من الأب روح الحق من عند الأب ينبثق فهو يشهد لى .. وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معى من الابتداء " (٢) .

روح القدس هذا ، أو المعزّى ، أو روح الحق لا يمكن أن يكون عيسى ؛ لأن عيسى لم يبشر بنفسه ، وهو كان موجوداً ساعة قال هذا ولا يمكن أن يكون المراد به نبياً بعد عيسى غير محمد (ﷺ) لأننا متفقون على أن عيسى لم يأت بعده نبى قبل رسول الإسلام (ﷺ) .

فتعين أن يكون روح القدس ، أو المعزّى ، أو روح الحق تبشيرا بمحمد (ﷺ) إذ فيه تجتمع تلك الأوصاف ، كما يتحقق فيه معنى " الأفضلية " إذ هو خاتم النبيين ، الذى جاء بشريعة خالدة عامة ، وعلى هذا حملنا قبلا قول عيسى : خير لكم أن أنطلق . إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعَزِّى "

وهذا إقرار من عيسى بأن المبشر به أفضل من المُبَشِّر وكفى بذلك شواهد .

ــ ٤ ــ

أما البشارة باسم " الفارقليط " فقد خلت منها الترجمات العربية المعاصرة للكتاب المقدس . ومعلوم أن الكتاب المقدس خضع للترجمات وطبعات متعددة ؛ لدرجة أن الترجمات العربية لتختلف من نسخة إلى أخرى اختلافا بيناً .

---

(١) مريم : ٣٤ .

(٢) الإصحاح (١٥) فقرتا (٢٦ ــ ٢٧) .

وتحت يدى ــ الآن ــ نسختان من الطبعــات العربية كلتاهما خاليتــان من كلمة الفارقليط ، وموضوع مكانها كلمة المعزى .

بيد أننى وجدت أن ابن القيم ، وابن تيمية ، كل منهما قد نقل عن نسخ خطية كانت معاصرة لهما نصوصاً فيها التصريح باسم" الفارقليط " كما أن الشــيخ رحمت الله الهندى (رحمه الله) نقل فى كتابه " إظهار الحق " نصوصــاً " عن ترجمات عربية ترجع إلى أعوام : ١٨٢١ ــ ١٨٣١ ــ ١٨٤٤م وتمت فى لندن

معنى " الفارقليط ":

كلمة يونانية معناها واحد مما يأتى :

الحامد ــ الحماد ــ المحمود ــ الأحمد .

أو معناها كل ما تقدم . فمعنى " فارقليط " يدور حول الحمــد وجميــع مشتقاته المشار إليها .

وكل واحد منها يصح إطلاقه على رسول الإسلام (ﷺ) فهــو الحامــد والحمّاد والمحمود والأحمد ، والمحمد .

وفى الطبعات ــ اللندنية ــ المتقدم ذكرها ورد النص هكذا : " إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى . وأنا أطلب من الآب فيعطيكم فارقليط آخــر ، ليثبت معكم إلى الأبد " .

" الفارقليط " روح القــدس الذى يرسله الآب باسمى هو يعلمكــم كــل شىء ، وهو يذكركم كل ما قلته لكم " (١) .

ومقارنة هذين النصــين بالنص المقابل لهما الذى نقلناه آنفا عن إنجيل يوحنا من الطبعات العربية الحديثة تريك أن الطبعات الحديــثة حــذفت كلمة " الفارقليط " ووضعت مكانها كلمة " المعزى " كما تريك أن الطبعات الحديثة حذفت جملة : " ليثبت معــكم إلى الأبد " وهو نص على خلود الإسلام على أنهم عادوا واعترفوا بأن كلمة " المعزى " التى فى الطبعات الحديثة للكتــاب المقــدس أصلها مترجــم عن كلمة يونانية لفظاً ومعنى وهى " باراكليتس " ومعناها المعزى ، وليست " فارقليط " أو " بارقليط " التى معناهــا الحمــاد والحامد ... والتى يتمسك بها المسلمون .. ؟!

---

(١) انظر كتاب " إظهار الحق " ص ٥٢٨ للشيخ رحمت الله الهندى تحقيق الدكتور أحمد حجازى الســقا . نشر دار التراث .

وهذه المحاولات مردودة لسببين :

أولهما : ليس نحن ــ المسلمين ــ الذين قاموا بعمل الطبعات القديمة التى فيها " الفارقليط " وإنما طبعها النصارى قديماً . فعملهم حجة على الطبعات الحديثة وهم غير متهمين فى عملهم هذا .

وثانيهما : ولو كانت الكلمة " هى : الباراكليتس " فلماذا خلت منها الطبعات القديمة والنسخ المخطوطة ؟!

بل ولماذا خلت منها الطبعات الحديثة ..؟!

وأيا كان المدار : فارقليط ، أو باراكليتس ، أو المعزى ، أو الروح القدس فنحن لا نعول على الكلمة نفسها بقدر ما نعول على الأوصاف التى أجريت عليها . مثل يعلمكم كل شىء ــ يمكث معكم إلى الأبد . فهذه الأوصاف هى لرسول الإسلام ﷺ ومهما اجتهدتم فى صرفها عنه فلن تنصرف .

ولهم " شبهة " أخرى يحلو لهم ترداداها وهى : محمد ﷺ عربى الجنس واللسان ، فكيف يرسله الله إلى أمم وأجناس غير عربية .. وكيف يكلف الله الناس برسالة لا يعرفون لغتها ولا عهد لهم بالتحدث معها . وكيف يستطيعون أن يفهموا القرآن ، وتوجيهات رسول الإسلام ، وهما باللغة العربية .؟!

رد الشبهة نرد عليها من طريقين :

الأول : وهو مستمد من واقع القوم أنفسهم . فهم يدعون تبعاً لما قال " بولس " أن عيسى عليه السلام مرسل لخلاص العالم كله . وأنه أمر حواريه أن يكرزوا كل العالم برسالة الخلاص ، وفى أيامنا هذه كثرت المنشورات التى تقول : المسيح مخلص العالم . وهنا نسأل القوم سؤالاً : أية لغة كانت لغة المسيح عليه السلام وحواريه ؟! هل هى العبرانية أم اليونانية ؟! وأيا كان الجواب فإن المسيح كان يتكلم لغة واحدة . وأوحى إليه

الإنجيل بلغة واحدة .. فعلى أى أساس إذن قلتم : إنه منقذ لكل العالم ؟! هل كل العالم كان وما يزال يعرف لغة المسيح ؟! أم أن العالم أيام المسيح كـــان يتكلم بعدة لغات .. والآن يتكلم بمئات اللغات ..؟! فإن كنتم قـــد ادعيـــتم أن المسيح هو منقذ كل العالم مع تسليمكم بأنه كان يتكلم بلغـــة واحـــدة فلمـــاذا تنكرون على رسول الإسلام أن يكون مرسلاً لكل العالم .؟! وما الفرق بـــين رسول الإسلام (ﷺ) والمسيح عليه السلام حتى تحظروا عليه ما اســـتبحتموه للمسيح ؟! أهذا عدل .. أهذا إنصاف !!

الثانى : وهو مستمد من طبيعة الإسلام . ومن تاريخه الطويل الحافـــل بكل عجيب .

نعم : إن محمداً (ﷺ) عربى اللسان ، والجنس ، والقرآن العظيم الـــذى جاء به عربى اللسان ، عالمى التوجيه والتشريع والسلطان . ووحدة اللغة فى الإسلام مثل وحدة العقيدة فيه . ولم يحل دون انتشار الإســـلام بـــين الأمـــم والشعوب غير العربية أن لغة رسالته عربية ورسوله عربى ورواده الأوائل عرب . هذه الاعتبارات لم تحل دون نشر الإسلام لجميـــع شـــعوب الأرض باختلاف لغاتها وعقائدهـــا وأجناسها . وكان سلوك الـــدعوة إلـــى الإســـلام حكيما ، وهذه أبرز ملامحه .

أولاً : إن صاحب الدعوة (ﷺ) أرسل رسله يحملون رسائله وكتبه إلـــى كل رؤساء القبائل وملوك الأمم والشعوب ، وقد بدأت هذه الطريقة بعد وقوع صلح الحديبية ، وكل حامل رسالة أو كتاب إلى رئيس أو ملك كان على علم بلغة من هم المبعوث إليهم .

فقد أرسل النبى (ﷺ) إلى هرقل دحية بن خليفة الكلبى .

وأرسل إلى المقوقس عظيم القبـــط بمصـــر حاطب بن أبى بلتعة . وأرســـل إلى كسرى عبد الله بن حذافة السهمى .

وأرسل إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى شجاع بن ذهب الأسدى . وكـــان هؤلاء الرسل عالمين بلغات من أرسلوا إليهم .

كما كان (ﷺ) يحتفظ بمترجمين يترجمون له ما يرد من رسائل لغتهـــا غير العربية .

ثانيا : إن الملوك والرؤساء كان لديهم مترجمون ــ كذلك ــ يترجمون لهم ما يرد من رسول الإسلام أو يقومون بالترجمة من العربية إلى غيرها ، ومن غير العربية إلى العربية فى حالة ما إذا كان " المرسل " وفـــداً يحمـــل رسائل شفوية للتبليغ .

ثالثاً : إن اليهود وكثيراً من النصارى كانوا يعرفون اللســـان العربـــى ، ومن النصارى من هم عـــرب خلص كنصـــارى نجـــران ، كما أن العجـــم من الفرس والروم كان من بينهم عرب يعايشونهم ويقيمون بينهم .

رابعاً : كان صاحب الدعوة (ﷺ) يحض أصحابه على تعلم لغات الأمـــم ومما يروى عنه ــ عليه الصلاة السلام ــ قوله : من تعلم لغة قـــوم أمـــن غوائلهم .

خامساً : لما اجتازت الدعوة مرحلة الدعوة بالرسالة والكتاب والوفـــد ، والبعث ، ودخلت فى مرحلة الفتح كان الجنود المسلمون ينشـــرون اللغـــة العربية كما ينشرون الإسلام نفسه . وما من أرض حل بها الإسلام إلا وقـــد حلت بها اللغة العربية تعضده ، وتؤازره فى انسجام عجيب ، فقضت اللغـــة العربية على لغات الأمم والشعوب وحلت هى محلها . قضت على القبطيـــة فى مصر وعلى الفارسية فى الشام وعلى البربرية فى شمال غرب أفريقيـــا كما قضت على السريانية وغيرها من اللغات ، وأصبحت هى لغـــة الحيـــاة والإدارة والكتابة والنشر والتأليف .

سادساً : قام العرب المسلمون بترجمة ما دعت إليه المصلحة من تراث الأمم المفتوحة ، ففتحوا نوافذ الفكر ، والثقافة ، والمعرفة لمن لا يعرف غير العربية من العرب المسلمين . كما ترجموا من الفكر الإسلامى مـــا يصـــلح

ضرورة لغير العرب من المسلمين فنقلوه من العربية إلى غير العربية وفـاءً بحق الدعوة والتبليغ .

سابعاً : أقبل غير العرب من الذين دخلوا الإسلام على تعلـم العربيـة وتركوا لغاتهم الأصلية وأصبحوا عربى اللسان واللغة . ومن هـؤلاء أعلام لا يحصون كان لهم فضل عظيم فى إنماء الفكر الإسلامى منهم اللغويـون ، والنحويون ، والبيـانيون ، والفقـهاء ، والأصـوليون ، والمفسـرون ، والمحدثون ، والمتكلمـون ، والفلاسـفة ، والمناطـقة ، والرياضـيون ، والأطباء ، والفلكيون ، بل والشعراء والأدبـاء والرحالـة والجغرافيـون ، وغيرهم ، وغيرهم .

إن كل مجال من مجـالات النشـاط العلمى فى الإسلام نبغ فيه كثيـر من غير العرب بعد تعلمهم اللغة العربية التى كانوا فيها مثل أنجب وأحـذق وأمهر أبنائها . ولو رحنا نحصى هؤلاء لضاق بنا السهل والوعر ، فلـتكن الإشارة إليهم نائباً عن ذلك التفصيل غير المستطاع .

إن وحدة اللغة فى الإسلام لم تحل دون نشر الإسلام ، فلم يمض طويل من الزمن حتى بلغت الدعوة مشارق الأرض ومغاربها .

وصلت إلى الهند والصين فى أقصى الشرق ، وإلى شـواطئ المحـيط الأطلسى فى أقصى الغرب وإلى بلاد النوبة جنوباً وإلـى جبـال البـرانس جنوبى فرنسا شمالاً . وتوطدت فى قلب الكون :

الحجاز واليمن والشام وفارس وبلاد ما بين النهرين وما وراء النهرين ومصر وجنوب الوادى ، وتركت اللغة العربية الواحدة آثارها فى كل قطـر أشرقت فيه شمس الإسلام ، وحتى ما فارقه الإسلام ــ كأسبانيا ــ ما تـزال حضارة الإسلام وآثار العربية تغزو كل بيت فيها . وكما استوعب الإسـلام مناهج الإصلاح فى كل مجالات الحياة الإنسـانية استوعـبت شقيقته الكبرى " اللغة العربية " كل أنماط التعبير ووسعت بسلطانها كل وسـائل التسـجيل

والتدوين .. وامتلكت ناصية البيان الرائع الجميل ، فهى لغة علم ، ولغة فن ومشاعر ، ووجدان . وقانون وسلام وحرب ، ودين ودنيا .

إن أكثر من ألف مليون مسلم ينتشرون فى ربوع الأرض الآن لم يعجز الكثير منهم من غير العرب عن حفظ كتاب الله " القرآن العظيم " ويتلونه كما أنزل بلسان عربى فصيح . فإذا عاد إلى حديثه اليومى لجأ إلى لغة أمه وأبيه وبيئته .

ومسلم غير عربى استطاع أن يحفظ أو يقرأ القرآن بلغته العربية الفصحى لهو قادر ــ لو أدى المسلمون العرب واجبهم نحو لغة التنزيل ــ أن يقرأ بها كتب الحديث ، والفقه ، والتشريع ، والنحو ، والصرف ، والبلاغة ، والأدب وسائر العلوم والفنون .

ولكنه ذنب العرب المسلمين لا ذنب اللغة . فهى مطواعة لمن يريد أن يتقنها إن وجد معلماً مخلصاً . والأمل كبير ــ الآن ــ فى أن يلتقى كل المسلمين على لغة واحدة ، كما التقوا على عقيدة واحدة .

إن رسول الإسلام (ﷺ) عالمى الدعوة وإن كان عربى اللسان والجنس .

وإن الإسلام الحنيف عالمى التوجيه والسلطان وإن كانت لغة تنزيله عربية ورسوله عربياً ، ورواده الأوائل عرباً .

الشبهة التاسعة والأربعون

قوم النبى محمد ﷺ زناة من أصحاب الجحيم !

الرد على الشبهة :

ما ذنب النبى محمدﷺ أن يقع قومه ومن أرسل إليهم فى خطيئة الزنـا أو أن يكونوا من أصحاب الجحيم ؟ مادام هو صلوات الله وسلامه عليه قـد برئ من هذه الخطيئة ولاسيما فى مرحلة ما قبل النبوة ، وكـانت مرحلـة الشباب التى يمكن أن تكون إغراء له ولأمثاله أن يقعوا فى هذه الخطيئـة ؛ لاسيما وأن المجتمع الجاهلى كان يشجع على ذلك وكان الزنا فيه من الأمور العادية التى يمارسها أهل الجاهلية شباناً وشيبًا أيضًا . وكان للزنا فيه بيـوت قائمة يعترف المجتمع بها ، وتُعلق على أبوابها علامات يعرفها بها البـلحثون عن الخطيئة ، وتعرف بيوت البغايا باسم أصحاب الرايات .

ومع هذا الاعتراف العلنى من المجتمع الجاهلى بهذه الخطيئة ، ومع أن ممارستها للشباب وحتى للشيب لم تكن مما يكره المجتمـع أو يعيـب مـن يمارسونه ؛ فإن محمدًا ﷺ لم يقع فيها أبدًا بل شـهدت كـل كتـب السـير والتواريخ له ﷺ بالطهارة والعفة وغيرهما من الفضائل الشخصية التى يزدان بها الرجال وتحسب فى موازين تقويمهم وتقديرهم ، وأرسـله الله سـبحانه ليغير هذا المنكر .**هذه واحدة ، والثانية:** أن الرسالة التى دعا بها ودعا إليها محمد ﷺ حرّمت الزنا تحريماً قاطعاً وحملت آياتها فى القرآن الكريم عقابـاً شديداً للزانى والزانية يبدأ بعقوبة بدنية هى أن يجلد كل منهما مائـة جلـدة قاسية يتم تنفيذها علناً بحيث يشهدها الناس لتكون عبرة وزجراً لـهم عـن التورط فيها

كما تقول الآية الكريمة : ﴿ **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائـــة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخـــر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين** ﴾ (١) .

فإذا كان الزانيان محصنين أى كل منهما متزوج ارتفعت العقوبة إلى حدّ الإعدام رمياً بالحجارة حتى الموت .

ولا تقف العقوبة عند ذلك بل نرى أن رســـالة محمـــدﷺ تضـــع مَـــنْ يمارسون هذه الخطيئة فى مرتبة دونية من البشر حتى لكأنهم صنف منحـــط وشاذ عن بقية الأطهار الأسوياء فتقول الآيـــة الكريمـــة عنـــهم : ﴿**الزانـــى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين** ﴾ (٢) .

من الذى يحمل المسئولية عن الخطيئة ؟

فإذا كان محمد ﷺ قد طهر من هذه الخطيئة فى المجتمع الـــذى كـــان يراها عادية ومألوفة ، ثم كـــــانت رســـالتهﷺ تحرمـــها التحريـــم القـــاطع والصريح ، وتضع مرتكبيها فى مرتبة الانحطاط والشذوذ عن الأسوياء مـــن البشر ..

فلِمَ يُعَيّر محمد ﷺ بأن بعض قومه زناة ؟ وهل يصح فى منطق العقلاء أن يعيبوا إنساناً بما فى غيره من العيوب ؟ وأن يحملـــــوه أوزار الآخريـــن وخطاياهم ؟ .

وهنا يكون للمسألة وجه آخر يجب التنويه إليه وهو خاص بالمســـئولية عن الخطيئة أهى فردية خاصة بمن يرتكبونـــها ؟ أم أن آخريـــن يمكـــن أن يحملوها نيابة عنهم ويؤدون كفارتها ؟ !

---

(١) النور : ٢ .

(٢) النور : ٣ .

أن الإسلام يمتاز بأمرين مهمين :

أولهما : أن الخطيئة فردية يتحمل من وقع فيها وحده عقوبتها ولا يجـوز أن يحملها عنه أو حتى يشاركه فى حملها غيره وصريح آيات القرآن يقـــول : **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليه ما اكتسبت﴾** (١) . ثـــم : **﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾** (٢) . وورد هـذا النص فى آيات كثيرة .

أما الأمر الثانى : فيما أقره الإسلام فى مسألة الخطيئة فهو أنها لا تـــورث ، ولا تنقل من مخطئ ليتحمل عنه وزره آخر حتى ولو بين الآبـــاء وأبنائـــهم وفى هذا يقول القرآن الكريم :**﴿واتقوا يوماً لا تجـــزى نفـــس عـــن نفـــس شيئاً ﴾** (٣) .

﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ﴾ (٤) .

﴿ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب﴾ (٥) .

﴿يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ (٦) .

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .

(٢) الأنعام : ١٦٤ .

(٣) البقرة ٤٨ .

(٤) يونس : ٣٠ .

(٥) إبراهيم : ٥١ .

(٦) النحل : ١١١ .

﴿ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ (١).

﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ (٢) .

وغير هذا كثير مما يؤكد ما أقرَّه الإسلام من أن الخطايا فردية وأنها لا تورث ولا يجزى فيها والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً .

وما دام الأمر فلا أن فلم يلام محمد ﷺ ولا يعاب شخصه أو تعاب رسالته بأن بعض أهله أو حتى كلهم زناة مارسوا الخطيئة التى كان يعترف بها مجتمعه ولا يجزى فيها شيئاً أو ينقص الشرف والمروءة أو يعاب بها عندهم من يمارسها .

وحسب محمد ﷺ أنه لم يقع أبداً فى هذه الخطيئة لا قبل زواجه ولا بعده ، ثم كانت رسالته دعوة كبرى إلى التعفف والتطهر وإلى تصريف الشهوة البشرية فى المصرف الحلال الذى حض الإسلام عليه وهو النكاح الشرعى الحلال ، ودعا المسلمين إلى عدم المغالاة فى المهور تيسيراً على الراغبين فى الحلال ، حتى كان الرسول ﷺ يزوج الرجل بأقل وأيسر ما يملك من المال ، وأثر عنه ﷺ أن شاباً جاءه يرغب إليه فى الزواج وما كان معه ما يفى بالمراد فقال له ﷺ : **[التمس ولو خاتماً من حديد]** (٣) .

أكثر من هذا أنه ﷺ كان يزوج بعض الصحابة بما يحفظ من القرآن الكريم .

لهذا لم تقع خطايا الزنا فى المجتمع فى العهد النبوى كله إلا فى ندرة نادرة ، ربما لأن الحق سبحانه شاء أن تقع وأن يقام فيها الحد الشرعى ليسترشد بها المجتمع فى مستقبل الأيام ؛ كتشريع تم تطبيقه فى حالات محددة يكون هادياً ودليلاً فى القضاء والحكم .

---

(١) الجاثية : ٢٢ .

(٢) المدثر : ٣٨ .

(٣) رواة البخارى [كتاب النكاح] .

هذا عن اتهام محمد ﷺ بأن أهله زناة ، وهو كما أوضحنا اتهام متهافت لا ينال من مقام النبوة ولا يرتقى إلى أقدام صاحبهاﷺ . وقد أتينا عليه بما تستريح إليه ضمائر العقلاء وبصائر ذوى القلوب النقية .

أما عن اتهامه ﷺ بأن أهله من أصحاب الجحيم ، فهى شهادة لجلال التشريع الذى أنزله الحق – على محمد فأكمل به الدين وأتم به النعمة .

بل إن ما يعيبون به محمدا ﷺ من أن أهله من أصحاب الجحيم ليس أبدا عيبا فى منطق العقلاء ذوى النصفة والرشد ؛ بل إنه وسام تكريم لمحمدﷺ ولرسالته الكاملة والخاتمة فى أن التشريع الذى نزلت به سوى بين من هم أقرباء محمد ﷺ وبين من هم غرباء عنه فى جميع الأحكام ثوابا وعقوبة .

بل إن التشريع الذى نزل على محمد ﷺ نص صراحة على التزام العدل خاصة حين يكون أحد أطرافه ذا قربى فقال القرآن :﴿**ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم**﴾ (١) . وقوله : ﴿**وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى**﴾ (٢) .

أما فى السنة النبوية فحديث المرأة المخزومية ــ من بنى مخزوم ذوى الشرف والمكانة ــ التى ارتكبت جريمة السرقة وهى جريمة عقوبتها حد السرقة وهو قطع يد السارق كما تنص عليه آيات القرآن ، وشغل بأمرها مجتمع المدينة لئلا يطبق عليها الحد فتقطع يدها وهى ذات الشرف والمكانة فسعوا لدى أسامة بن زيد – حب رسول الله ﷺ – أن يشفع لها لدى رسول الله ﷺ فكلم رسول الله ﷺ فقال : [**أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب فقال : يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق**

---

(١) التوبة : ١١٣ .

(٢) الأنعام : ١٥٢ .

فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها] (١) .

وعليه فكون بعض آل محمد وذوى قرباه من أصحاب الجحيم كأبى لهب عمه الذى نزلت فيه سورة المسد : **﴿تبت يدا أبى لهب وتب ﴾** (٢) وغيره ممن كان نصيرًا لهم مع بقائه على شركه ..

كون هؤلاء من أصحاب الجحيم لأنهم بقوا على شركهم ولم تنفعهم قرابتهم لمحمد ﷺ هو فى الواقع شهادةٌ تقدير تعطى لمحمد ورسالته التى سوَّت فى العدل بين القريب وبين الغريب ، ولم تجعل لعامل القرابة أدنى تأثير فى الانحياز ضد الحق لصالح القريب على الغريب . وما قاله المبطلون هو فى الحق وسام وليس باتهام .

وصلى الله وسلم على النبى العظيم .

---

(١) رواة البخارى [كتاب أحاديث الأنبياء] .

(٢) المسد : ١ .

الشبهة الخمسون

مات النبـــى ﷺ بالســـم

الرد على الشبهة :

حين تصاب القلوب بالعمى بسبب ما يغشاها من الحقد والكراهية يدفعـها حقدها إلى تشويه الخصم بما يعيب ،.وبما لا يعيب ، واتهامه بما لا يصلـــح أن يكون تهمة ، حتى إنك لترى من يعيب إنساناً مثلاً بأن عينيـــه واســعتان أو أنه أبيض اللون طويل القامة ، أو مثلاً قد أصيب بالحمى ومـــات بـــها ، أو أن فلاناً من الناس قد ضربه وأسال دمه ؛ فهذا كأن أو أن تعيب الـــورد بأن لونه أحمر مثلاً ؛ وغير ذلك مما يستهجنه العقلاء ويرفضونه ويرونـــه إفلاسًا وعجزًا .

أن محمداً ﷺ قدمت له امرأة من نساء اليهود شاة مسمومة فـــأكل منـــها فمات ﷺ .

وينقلون عن تفسير البيضاوى :

أنه لما فتحت خيبر واطمأن الناس سألت زينب بنت الحارس – وهـــى امرأة سلام بن مشكم (اليهودى) – عن أى الشاة أحب إلى محمدﷺ ؟ فقيل لها : إنه يحب الذراع لأنه أبعدها عن الأذى فعمدت إلى عنزة لها فذبحتها ثم عمدت إلى سمّ لا يلبث أن يقتل لساعته فسمَّت به الشاة ، وذهبت بها جارِيـــة لها إلى الرسول ﷺ وقالت له : يا محمد هذه هدية أهديها إليك .

وتناول محمد الذراع فنهش منها .. فقالﷺ : ارفعوا أيديكم فـــإن هـــذه الذراع والكتف تخبرنى بأنها مسمومة ؛ ثم سار إلى اليهودية فسألها لم فعلـت

ذلك ؟ قالت : نلت من قومى ما نلت ... وكان ذلك بعد فتح " خيبر " أحـــد أكبر حصون اليهود فى المدينة ــ وأنهﷺ ــ قد عفا عنها .

ثم يفصحون عن تفسير البيضاوى :

أنه ﷺ لما اقترب موته قال لعائشة ــ رضى الله عنها ــ يا عائشة هـــذا أوان انقطاع أبهرى [1] .

فليس فى موته ﷺ بعد سنوات متأثرًا بذلك السُّم إلا أن جمع الله له بيـــن الحسنيين ، أنه لم يسلط عليه من يقتله مباشرة وعصمه من النـــاس وأيضًـــا كتب له النجاة من كيد الكائدين وكذلك كتب له الشهادة ليكتب مع الشهداء عند ربهم وما أعظم أجر الشهيد .

وأيضًا .. لا شك أن عدم موته بالسم فور أكله للشاة المسمومة وحياتـــه بعد ذلك سنوات يُعد معجزة من معجزاته ، وعَلَمًا من أعلام نبوتـــه يـــبرهن على صدقه ، وعلى أنه رسول من عند الله حقًا ويقينًا .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يموت فى الأجل الذى أجله لـــه رغـــم تأثره بالسم من لحظة أكله للشاة المسمومة حتى موته بعد ذلك بسنوات .

---

(١) الأبهران عرقان متصلان بالقلب وإذا قطعا كانت الوفاة .

الشبهة الحادية والخمسون

تعدد زوجات النبى محمد ﷺ .

قالوا إنه ﷺ :

* تزوج زوجة ابنه بالتبنى (زيد بن حارثة) .
* أباح لنفسه الزواج من أى امرأة تهبه نفسها (الخلاصة أنه شهوانى) .

الرد على الشبهة :

الثابت المشهور من سيرته ﷺ أنه لم يتزوج إلا بعد أن بلـــغ الخامســة والعشرين من العمر .

والثابت كذلك أن الزواج المبكر كان من أعراف المجتمع الجاهلى رغبة فى الاستكثار من البنين خاصة ليكونوا للقبيلة عِزًّا ومنعة بين القبائل .

ومن الثابت كذلك فى سيرته الشخصية ﷺ اشتهاره بالاستقامة والتعفــف عن الفاحشة والتصريف الشائن الحرام للشــهوة ، رغــم امتــلاء المجتمــع الجاهلى بشرائح من الزانيات اللاتى كانت لهن بيوت يستقبلن فيــها الزنــاة ويضعن عليها " رايات " ليعرفها طلاب المتع المحرمة .

ومع هذا كله ــ مع توفر أسباب الانحراف والسقوط فى الفاحشــة فــى مجتمع مكة ــ لم يُعرَف عن الرسول محمد ﷺ إلا التعفف والطــهارة بيــن جميع قرنائه ؛ ذلك لأن عيــن الســماء كــانت تحرســه وتصــرف عنــه كيد الشيطان .

ويُرْوَى فى ذلك أن بعض أترابه الشباب أخذوه ذات يوم إلى أحد مواقع المعازف واللهو فغشَّاه الله بالنوم فما أفاق منه إلا حين أيقظه أترابه للعودة إلى دورهم .

هذه واحدة ..

أما الثانية فهى أنه حين بلغ الخامسة والعشرين ورغب فى الزواج لم يبحث عن " البكر " التى تكون أحظى للقبول وأولى للباحثين عن مجرد المتعة . وإنما تزوج امرأة تكبره بحوالى خمسة عشر عامًا ، ثم إنها ليست بكرًا بل هى ثيب ، ولها أولاد كبار أعمار أحدهم يقترب من العشرين ؛ وهى السيدة خديجة وفوق هذا كله فمشهور أنها هى التى اختارته بعد ما لمست بنفسها ــ من خلال مباشرته لتجارتها ــ من أمانته وعفته وطيب شمائله ﷺ .

والثالثة أنه ﷺ بعد زواجه منها دامت عشرته بها طيلة حياتها ولم يتزوج عليها حتى مضت عن دنياه إلى رحاب الله . وقضى معها – رضى الله عنها – زهرة شبابه وكان له منها أولاده جميعًا إلا إبراهيم الذى كانت أمه السيدة " مارية " القبطية .

والرابعة أنه ﷺ عاش عمره بعد وفاتها – رضى الله عنها – محبًّا لها يحفظ لها أطيب الذكريات ويعدد مآثرها وهى مآثر لها خصوص فى حياته وفى نجاح دعوته فيقول فى بعض ما قال عنها : [**صدقتنى إذ كذبنى الناس وأعانتنى بمالها**] . بل كان ﷺ لا يكف عن الثناء عليها والوفاء لذكراها والترحيب بمن كن من صديقاتها ، حتى أثار ذلك غيرة السيدة عائشة – رضى الله عنها .

أما تعدد زوجاته ﷺ فكان كشأن غيره من الأنبياء له أسبابه منها :

أولاً : كان عُمْرُ محمد ﷺ فى أول زواج له ﷺ بعد وفاة خديجة تجاوز الخمسين وهى السنّ التى تنطفىء فيها جذوة الشهوة وتنام الغرائز الحسية بدنيًّا ، وتقل فيها الحاجة الجنسية إلى الأنثى وتعلو فيها الحاجة إلى من يؤنس الوحشة ويقوم بأمر الأولاد والبنات اللاتى تركتهم خديجة – رضى الله عنها – .

وفيما يلى بيان هذا الزواج وظروفه .

الزوجة الأولى : سودة بنت زمعة : كان رحيل السيدة خديجة – رضى الله عنها – مثير أحزان كبرى فى بيت النبى ﷺ وفى محيط الصحابة – رضوان الله عليهم – إشفاقًا عليه من الوحدة وافتقاد من يرعى شئونه وشئون أولاده . ثم تصادف فقدانه ﷺ عمه أبا طالب نصيره وظهيره وسُمِّىَ العام الذى رحل فيه نصيراه خديجة وأبو طالب عام الحزن .

فى هذا المناخ .. مناخ الحزن والوحدة وافتقاد من يرعى شئون الرسول وشئون أولاده سعت إلى بيت الرسول واحدة من المسلمات تُسمى خولة بنت حكيم السلمية وقالت : له يا رسول الله كأنى أراك قد دخلتك خلّة لفقد خديجة فأجاب ﷺ : [**أجل كانت أم العيال وربة البيت**] ، فقالت يا رسول الله : ألا أخطب عليك ؟ .

فقال الرسول ﷺ : **ولكن – من بعد خديخة** ؟! فذكرت له عائشة بنت أبى بكر فقال الرسول : **لكنها ما تزال صغيره** فقالت : تخطبها اليوم ثم تنتظر حتى تنضج .. قال الرسول **ولكن من للبيت ومن لبنات الرسول يخدمهن** ؟ فقالت خولة : إنها سودة بنت زمعة ، وعرض الأمر على سودة ووالدها : فتم الزواج ودخل بها ﷺ بمكة .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن سودة هذه كانت زوجة للسكران بن عمـــرو وتوفى عنها زوجها بمكة فلما حلّت تزوجها الرسولﷺ وكـــانت أول امــرأة تزوجها ﷺ بعد خديجة ، وكان ذلك فى رمضان سنة عشر من النبوة .

وعجب المجتمع المكى لهذا الزواج لأن " سودة " هذه ليست بذات جمال ولا حسب ولا تصلح أن تكون خلفاً لأم المؤمنين خديجة التى كـــانت عنــد زواج الرسول ﷺ بها جميلة وضيئة وحسيبة تطمح إليها الأنظار .

وهنا أقول للمرجفين الحاقدين : هذه هى الزوجة الأولى للرســول بعــد خديجة ، فهى مؤمنة هاجرت الهجرة الأولى مع من فرّوا بدينهم إلى الحبشــة وقد قَبِلَ الرسول زواجها حماية لها وجبرًا لخاطرها بعد وفاة زوجـــها إثــر عودتهما من الحبشة .

وليس الزواج بها سعارَ شهوة للرسول ولكنه كان جبرًا لخاطر امـــرأة مؤمنة خرجت مع زوجها من أهل الهجرة الأولى إلى الحبشة ولما عادا توفى زوجها وتركها امرأة تحتاج هى وبنوها إلى من يرعاهم .

الزوجة الثانية بعد خديجة : **عائشة بنت أبى بكر** الذى يقول عنه الرســول ﷺ : " إن من آمن الناس علىّ فى ماله وصحبته أبا بكر ، ولو كنت متخـــذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام .." .

ومعروف من هو أبو بكر الذى قال عنه الرسولﷺ متحدثاً عن عطائـــه للدعوة " ما نفعنى مالٌ قط ما نفعنى مال أبى بكـــر " ، وأم عائشـــة هـــى أم رومان بنت عامر الكنانى من الصحابيات الجليلات ، ولما توفيت نزل رسول الله ﷺ إلى قبرها واستغفرلها وقال : " اللهم لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفى رسولك ﷺ " ، وقال عنها يوم وفاتها :

" من سرّه أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومـــان " ولم يدهش مكة نبأ المصاهرة بين أعز صاحبين ؛ بل استقبلته كما تســـتقبل أمرًا متوقعاً ؛ ولذا لم يجد أى رجل مـــن المشـــركين فـــى هـــذا الـــزواج أى مطعن – وهم الذين لم يتركوا مجالاً للطعن إلا سلكوه ولـــو كـــان زوراً وافتراء .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن زواج الرسولﷺ بفتاة بينه وبينـــها قرابـــة خمسين عامًا ليس بدعا ولا غريبًا لأن هذا الأمر كـــان مألوفًـــا فـــى ذلـــك المجتمع . لكن المستشرقين ومن تحمل قلوبهم الحقد من بعض أهل الكتـــاب – على محمد ﷺ – جعلوا من هذا الزواج اتهامًا للرسول وتشهيرًا به بأنـــه رجل شهوانى غافلين بل عامدين إلى تجاهل ما كان واقعًا فى ذلك المجتمـــع من زواج الكبار بالصغيرات كما فى هذه النماذج :

– فقد تزوج عبد المطلب جد الرسولﷺ من هالة بنت عم آمنـــة التـــى تزوجها أصغر أبنائه عبد الله ــ والد الرسولﷺ .

– وتزوج عمر بن الخطاب ابنة على بن أبى طالب وهو أكبر سنًّا مـــن أبيها .

ـــ وعرض عمر على أبى بكر أن يتزوج ابنته الشابة " حفصة " وبينهما من فارق السن مثل الذى بين المصطفى ﷺ وبين " عائشة " [1] .

كان هذا واقع المجتمع الذى تزوج فيه الرســـول ﷺ بعائشـــة . لكـــن المستشرقين والممتلئة قلوبهم حقدًا من بعض أهل الكتاب لـــم تـــرَ أعينـــهم إلا زواج محمد بعائشة والتى جعلوها حدث الأحداث – على حد مقولاتـــهم – أن يتزوج الرجل الكهل بالطفلة الغريرة العذراء [2] .

قاتل الله الهوى حين يعمى الأبصار والبصائر !

الزوجة الثالثة : حفصة بنت عمر الأرملة الشابة :

توفى عنها زوجها حنيس بن حذافة السهمى وهو صحابى جليـــل مـــن أصحاب الهجرتين – إلى الحبشة ثم إلى المدينة – ذلك بعد جراحة أصابتـــه فى غزوة أُحد حيث فارق الحياة وأصبحت حفصة بنت عمر بـــن الخطـــاب أرملة وهى شابة .

وكان ترمّلها مثار ألم دائم لأبيها عمر بن الخطاب الذى كان يحزنـــه أن يرى جمال ابنته وحيويتها تخبو يومًا بعد يوم ..

وبمشاعر الأبوة الحانية وطبيعة المجتمع الذى لا يتردد فيه الرجل مـــن أن يخطب لابنته من يراه أهلاً لها ..

بهذه المشاعر تحدث عمر إلى الصديق " أبى بكر " يعرض عليه الزواج من حفصة لكن أبا بكر يلتزم الصمت ولا يرد بالإيجاب أو بالسلب .

فيتركه عمر ويمضى إلى ذى النورين عثمان بن عفان فيعرض عليـــه الزواج من حفصة فيفاجئه عثمان بالرفض ..

---

(١) تراجم لسيدات بيت النبوة للدكتورة بنت الشاطئ : ص ٢٥٠ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق .

فتضيق به الدنيا ويمضى إلى الرسولﷺ يخبره بما حـــدث فيكـــون رد الرسول ﷺ عليه هو قوله : [**يتزوج حفصةَ خيرٌ من عثمان ويتزوج عثمان خيرًا من حفصة**] [1] .

وأدركها عمر – رضى الله عنه – بفطرته إذ معنـــى قـــول الرســـول ﷺ فيما استشعره عمر هو أن من سيتزوج ابنته حفصة هو الرســـول نفســـه وسيتزوج عثمان إحدى بنات الرسولﷺ.

وانطلق عمر إلى حفصة والدنيا لا تكاد تسعه من الفرحة وارتياح القلب إلى أن الله قد فرّج كرب ابنته .

الزوجة الرابعة : أم سلمة بنت زاد الراكب :

من المهاجرين الأولين إلى الحبشة وكان زوجها (أبو سلمة) عبـــد الله ابن عبد الأسد المخزومى أول من هاجر إلى يثرب (المدينة) من أصحـــاب محمد ﷺ . جاءت إلى بيت النبى ﷺ كزوجة بعد وفاة " أم المساكين زينـــب بنت خزيمة الهلالية " بزمن غير قصير .

سليلة بيت كريم ، فأبوها أحد أجـــواد قريـــش المعروفيـــن بلقـــب زاد الراكب ؛ إذ كان لا يرافقه أحد فى سفر إلا كفاه زاده .

وزوجها الذى مات عنها صحابى من بنى مخزوم ابن عمة المصطفـــى ﷺ وأخوه من الرضاعة ذو الهجرتين إلى الحبشة ثم إلى المدينة . وكـــانت هى و زوجها من السابقين إلى الإسلام . وكانت هجرتهما إلى المدينة معًا وقد حدث لها ولطفلها أحداث أليمة ومثيرة ذكرتها كتب الســـير [1] . رضـــى الله عن أم سلمة .. ولا نامت أعين المرجفين .

---

(١) انظر سيدات بيت النبوة للدكتورة بنت الشاطىء ص ٣٢٤ .

الزوجة الخامسة : زينب بنت جحش :

لم أرَ امرأة قط خيرًا فى الديـــن مــن زينـــب ، وأتقـــى الله وأصـــدق حديثًا وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد تبديلا إلا لنفسها فى العمـــل الـــذى تتصدق وتتقرب به إلى الله عز وجل ؟ (١) .

هكذا تحدثت أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها– عـــن " ضرّتـــها " زينب بنت جحش . أما المبطلون الحاقدون من بعض أهل الكتاب فقالوا :

أُعْجِب محمد ﷺ ــ وحاشا له – بزوجة متبناه " زيد بن حارثة " فطلقها منه وتزوجها .

ويرد الدكتور هيكل فى كتابه " حياة محمد " (٢)ﷺ على هذا فيقول : إنها شهوة التبشير المكشوف تارة والتبشير باسم العلم تارة أخرى ، والخصومـــة القديمة للإسلام تأصلت فى النفوس منذ الحروب الصليبية هى التى تملى على هؤلاء جميعًا ما يكتبون .

والحق الذى كنا نود أن يلتفت إليه المبطلون الحاقدون علـــى الإســـلام ورسولهﷺ .. هو أن زواج محمدﷺ من زوجة ابنه بالتبنى زيد بن حارثـــة إنما كان لحكمة تشريعية أرادها الإسلام لإبطال هذه العادة ــ عادة التبنـــى ــ التى هى فى الحقيقة تزييف لحقائق الأمور كان لها فى واقع الناس والحيـــاة آثار غير حميدة .

ولأن هذه العادة كانت قد تأصلت فى مجتمع الجاهلية اختارت الســـماء بيت النبوة بل نبى الرسالة الخاتمة نفسهﷺ ليتم على يديه وفى بيته الإعـــلان العلمى عن إبطال هذه العادة .

وتجدر الإشارة هنا إلى مجموعة الآيات القرآنية التى جاءت إعلاناً عـــن هذا الحكم المخالف لعادات الجاهلية وتفسيرًا للتشـــريع الجديـــد فـــى هـــذه

---

(١) صحيح مسلم كتاب الفضائل .

(٢) حياة محمد ص ٢٩ .

المسألة و فى موضوع الزواج بزينب حيث تقول :

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ (١) .

﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فـــإخوانكم فـــى الدين ومواليكم ﴾ (٢) .

﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتــق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشـــاه فلمـــا قضى زيد منها وطرًا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فـــى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرًا وكان أمر الله مفعولاً﴾ (٣) .

مرة أخرى نذكر بأن زواج الرسولﷺ من زينب لم تكـــن وراءه أبـــدًا شهوة أو رغبة جنسية وإنما كان أمرًا من قدر الله وإرادته لإبطال عادة التبنى من خلال تشريع يتردد صداه بأقوى قوة فى المجتمع الجاهلى الـــذى كـــانت عادة التبنى أصلاً من أصوله وتقليدًا مستقرًا فيه ، فكان السبيل لأبطالـــها أن يتم التغيير فى بيت النبوة وعلى يد الرسول نفسهﷺ .

وقد فطنت السيدة " زينب بنت جحش " نفسها إلى هذا الأمـــــر فكـــانت تباهى به ضراتها وتقول لهن : " زوجكن أهاليكن وزوجنى ربى من فـــــوق سبع سمَوات " (٤) .

---

(١) الأحزاب : ٤٠ .

(٢) الأحزاب : ٥ .

(٣) الأحزاب : ٣٧ .

(٤) رواه البخارى (كتال التوحيد ٦١٠٨).

أما لماذا كان زيد بن حارثة نفسه يتردد على الرسول معربًا عن رغبتـه فى تطليق زينب ؛ فلم يكن – كما زعم المرجفون – أنه شعر أن الرســـول يرغب فيها فأراد أن يتنازل عنها له ..

ولكن لأن حياته معها لم تكن على الوفاق أو التواد المرغوب فيه ؛ ذلك أن زينب بنت جحش لم تنس أبدًا ــ وهى الحسيبة الشريفة والجميلة أيضًـــا أنها أصبحت زوجًا لرجل كان رقيقًا عند بعض أهلها وأنه ــ عنـــد الـــزواج بها ــ كان مولىً للرسولﷺ أعتقه بعد ما اشتراه ممن أسره من قريش وباعه بمكة .

فهو ــ وإن تبناه محمد وبات يسمى زيد بن محمد فى عرف المجتمـــع المكى كله ، لكنه عند العروس الحســـيبة الشـــريفة والجميلـــة أيضـــا مـــا يزال ــ كما كان بالأمس – الأسير الرقيق الذى لا يمتّ حُلم من تكون فـــى مثل حالها من الحسب والجمال وليس هذا بغريب بل إنه من طبائع الأشياء .

ومن ثم لم تتوهج سعادتها بهذا الزواج ، وانعكس الحال على زيد بـــن حارثة فانطفأ فى نفسه توهج السعادة هو الآخر ، وبات مهيأ النفس لفراقـــها بل لقد ذهب زيد إلى الرسولﷺ يشكو زينب إليه كما جاء فى البخارى مـــن حديث أنس قال : **جاء زيد يشكو إلى الرسول فجعلﷺ يقول له : [أمســـك عليك زوجك واتق الله]** [1] قال أنس : لو كان النبى كاتمًا شيئًا لكتـــم هـــذا الحديث .

لكن الرسول ﷺ كان يقول له كما حكته الآية : أمسك عليـــك زوجـــك ولا تسارع بتطليقها .

وزينب بنت جحش هى بنت عمة الرسولﷺ – كما سبقت الإشـــارة – وهو الذى زوجها لمولاه " زيد " ولو كانت به رغبة فيها لاختارها لنفســـه ؛

---

(١) رواه االبخارى (كتاب التوحيد).

وخاصة أنه رآها كثيراً قبل فرض الحجاب ، وكان النساء فى المجتمع الجاهلى غير محجبات فما كان يمنعه – إذاً – من أن يتزوجها من البداية ؟! ؛ ولكنه لم يفعل .

فالأمر كله ليس من عمل الإرادة البشرية لهم جميعًا : لا لزينب ولا لزيد ولا لمحمدﷺ ، ولكنه أمر قدرى شاءته إرادة الله لإعلان حكم وتشريع جديدين فى قضية إبطال عادة " التبنى " التى كانت سائدة فى المجتمع آنذاك .

يؤكد هذا ويدل عليه مجموع الآيات الكريمة التى تعلقت بالموضوع فى سورة الأحزاب .

أما الجملة التى وردت فى قوله تعالى :﴿ **وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه**﴾ (١) . فإن ما أخفاه النبى ﷺ هو كتم ما كان الله قد أخبره به من أن زينب ــ يومًا ما ــ ستكون زوجًا له ؛ لكنه لم يصرح به خشية أن يقول الناس : إنه تزوج زوجة ابنه بالتبنى (٢) .

الزوجة السادسة : جويرية بنت الحارث الخزاعية :

الأميرة الحسناء التى لم تكن امرأة أعظم بركة على قومها منها فقد أعتق الرسول ﷺ بعد زواجه بها أهل مائة بيت من بنى المصطلق (التى هى منهم) .

كانت ممن وقع فى الأسر بعد هزيمة بنى المصطلق من اليهود فى الغزوة المسماة باسمهم . وكاتبها من وقعت فى أسره على مال فذهبت إلى الرسول ﷺ فقال لها : " أو خير من ذلك ؟ .

---

(١) الأحزاب : ٣٧ .

(٢) انظر فتح البارى ٨ / ٣٧١ عن سيدات بيت النبوة لبنت الشاطئ ص ٣٥٤ .

قالت : وما هو ؟ قال : أقضى عنك كتابتك وأتزوجك .

قالت : وقد أفاقت من مشاعر الهوان والحزن : نعم يا رسول الله .

قال : قد فعلت " [1] .

وذاع الخبر بين المسلمين : أن رسولﷺ قد تزوج بنت الحارث بن ضرار زعيم بنى المصطلق وقائدهم فى هذه الغزوة ..

معنى هذا أن جميع من بأيديهم من أسرى بنى المصطلق قد أصبحوا بعد هذا الزواج كأنهم أصهار رسول الله ﷺ .

وإذا تيار من الوفاء والمجاملة من المسلمين للرسولﷺ تجسد فى إطلاق المسلمين لكل من بأيديهم من أسرى بنى المصطلق وهم يقولون : أصهار رسول الله ، فلا نبقيهم أسرى .

ومع أن زواج الرسولﷺ بهذه الأسيرة بنت سيد قومها والذى جاءته ضارعة مذعورة مما يمكن أن تتعرض له من الذل من بعد عزة .. فإذا هو يرحمها بالزواج ، ثم يتيح لها الفرصة لأن تعلن إسلامها وبذا تصبح واحدة من أمهات المؤمنين .

ويقولون : إنه نظر إليها .

وأقول : أما أنه نظر إليها فهذا لا يعيبه ــ وربما كان نظره إليها ضارعة مذعورة – هو الذى حرك فى نفسهﷺ عاطفة الرحمة التى كان يأمر بها بمن فى مثل حالتها ويقول : [**ارحموا عزيز قوم ذل**] ، فرحمها وخيرها فاختارت ما يحميها من هوان الأسر ومذلة الأعزة من الناس .

على أن النظر شرعًا مأذون به عند الإقدام على الزواج – كما فى هذه

---

(١) رواه البخارى : فتح البارى _ كتال النكاح باب ١٤ .

الحالة – وكما أمر بهﷺ أحد أصحابه عند رغبته فى الزواج – قـائلاً لـه : **[انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما]** (١) .

وقد توفيت فى دولة بنى أمية وصلى عليها عبد الملك بن مروان وهـى فى السبعين من العمر – رضى الله عنها .

الزوجة السابعة : صفية بنت حُيىّ ــ عقيلة بنى النضير :

إحدى السبايا اللاتى وقعن فى الأسر بعد هزيمة يهود بنى النضير أمـام المسلمين فى الوقعة المسماة بهذا الاسم ، كانت من نصيب النبىﷺ فأعتقـها وتزوجها : فماذا فى ذلك ؟ ولم يكن عتقه إياها وتزوجها بدعًا فـى ذلـك ؛ وإنما كان موقفًا جانب الإنسانية فيه هو الأغلب والأسبق .

فلم يكن هذا الموقف إعجابًا بصفية وجمالها ؛ ولكنه موقـف الإنسـانية النبيلة التى يعبر عنها السلوك النبيل بالعفو عند المقدرة والرحمة والرفق بمن أوقعتهن ظروف الهزيمة فى الحرب فى حالة الاستضعاف والمذلة لا سـيما وقد أسلمن وحسن إسلامهن .

فقد فعل ذلك مع " صفية بنت حُيىّ " بنت الحارس عقيلة بنـى النضـير (اليهود) أمام المسلمين فى الموقعة المعروفة باسم (غزوة بنى قريظة) بعد انهزام الأحزاب وردّهم مدحورين من وقعة الخندق .

الزوجة الثامنة : أم حبيبة بنت أبى سفيان نجدة نبوية لمسلمة فى محنة :

إنها أم حبيبة " رملة " بنت أبى سفيان كبير مشركى مكة وأشـد أهلـها خصومة لمحمد صلوات الله وسلامه عليه .

كانت زوجًا لعبيد الله بن جحش وخرجا معًا مهاجرين بإسـلامهما فـى

---

(١) رواه البخارى : فتح البارى ــ كتاب النكاح باب ٣٦ .

الهجرة الأولى إلى الحبشة ، وكما هو معروف أن الحبشة فى عهد النجاشـــى كانت هى المهجر الآمن للفارين بدينهم من المسلمين حتى يخلصوا من بطش المشركين بهم وعدوانهم عليهم ؛ فإذا هم يجدون فى – ظل النجاشى – رعاية وعناية لما كان يتمتع به من حس إيمانى جعله يرحب بأتباع النبـــى الجديـــد الذى تم التبشير بمقدمه فى كتبهم على لسان عيسى بن مريم– عليه السلام – كما تحدث القرآن عن ذلك فى صورة الصف فى قوله :﴿ **وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقًا لما بين يدى من التـــوراة ومبشرًا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد**﴾ (١) .

لكن أم حبيبة بنت أبى سفيان كانت وحدها التى تعرضت لمحنة قاسية لم يتعرض لمثلها أحد من هؤلاء المهاجرين الأوائل إلـــى الحبشـــة ؛ ذلـــك أن زوجها عبيد الله بن جحش قد أعلن ارتـــداده عـــن الإســـلام ودخولـــه فـــى النصرانية وما أصعب وأدق حال امرأة باتت فى محنة مضاعفة : محنتها فى زوجها الذى ارتد وخان .. ومحنتها السابقة مع أبيها الذى فارقته مغاضبـــة إياه فى مكة منذ دخلت فى دين الله (الإسلام) ..

وفوق هاتين المحنتين كانت محنة الاغتراب حيث لا أهل ولا وطن ثـــم كانت محنة حملها بالوليدة التى كانت تنتظرها والتى رزقت بـــها مـــن بعـــد وأسمتها " حبيبة " .. كان هذا كله أكبر من عزم هذه المسلمة الممتحنة مـــن كل ناحية والمبتلاة بالأب الغاضب والزوج الخائن !!

لكن عين الله ثم عين محمدﷺ سخرت لها من لطف الرعاية وســـخائها ما يسّر العين ويهون الخطب ، وعادت بنت أبى سفيان تحمل كنية جديـــدة ، وبدل أن كانت " أم حبيبة " أصبحت " أم المؤمنين " وزوج سيد المســلمين – صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١)الصف : ٦ .

والحق أقول : لقد كان نجاشى الحبشة من خلّص النصارى فأكرم وفـــادة المهاجرين عامة وأم المؤمنين بنت أبى سفيان بصفة خاصة . فأنفذ فى أمرها مما بعث به إليه رسول الله ﷺ أن يخطبها له .

وكانت خطبة الرسول ﷺ لأم حبيبة بنت أبى سفيان نعم الإنقاذ والنجـــدة لهذه المسلمة المبتلاة فى الغربة ؛ عوضتها عن الزوج الخائن برعاية ســـيد البشر ﷺ ؛ وعوضتها عن غضب الأب " أبى سفيان " برعاية الزوج الحانى الكريم صلوات الله عليه .

كما كانت هذه الخطبة فى مردودها السياسى ــ لطمة كبيرة لرأس الكفر فى مكة أبى سفيان بن حرب الذى كان تعقيبه على زواج محمد لابنته هـــو قوله : " إن هذا الفحل لا يجدع أنفه " ؛ كناية عن الاعتراف بأن محمدًا لـــن تنال منه الأيام ولن يقوى أهل مكة – وهو على رأســـهم – علـــى هزيمتـــه والخلاص منه لأنه ينتقل كل يوم من نصر إلي نصر .

كان هذا الاعتراف من أبى سفيان بخطر محمد وقوته كأنه استشـــفاف لستر الغيب أو كما يقول المعاصرون : تنبؤ بالمستقبل القريب وتمام الفتح .

فما لبث أن قبل أبو سفيان دعوة الرسول ﷺ إياه إلـــى الإســـلام وشـــهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

وتقدم أحد الصحابة إلى رسول الله ﷺ يسأله قائلاً : " إن أبا سفيان رجـــل يحب الفخر فهلا جعلت له ما يحل عقدته ويســـكن حقـــده وغيظـــه ، فقـــال صلوات الله وسلامه عليه فى ضمن إعلانه التاريخى الحضارى العظيم لأهل مكة عند استسلامهم وخضوعهم بين يديه :

* من دخل داره فهو آمن .
* ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن .

* ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن "[1] .

وانتصر الإسلام وارتفع لواء التوحيد ودخل الناس فى دين الله أفواجًا . وفى مناخ النصر العظيم .. كانت هى سيدة غمرتها السعادة الكبرى بانتصار الزوج ونجاة الأب والأهل من شر كان يوشك أن يحيط بهم .

تلكم هى أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبى سفيان التـــى أحاطتـــها النجـــدة النبوية من خيانة الزوج وبلاء الغربة ووضعتها فى أعز مكـــان مـــن بيـــت النبوة .

الزوجة التاسعة : ميمونة بنت الحارث الهلالية أرملة يسعدها أن يكون لـــها رجل :

آخر أمهات المؤمنين .. توفى عنها زوجها أبو رهم بن عبـــد العـــزى العامرى ؛ فانتهت ولاية أمرها إلي زوج أختـــها العبـــاس الـــذى زوجـــها رســـول الله ﷺ ؛ حيـــث بنـــى بـــها الرســـول ـ فـــى " ســـرف " قرب " التنعيم" على مقربة من مكة حيث يكون بدء الإحرام للمعتمرين مـــن أهل مكة والمقيمين بها .

وقيل : إنه لما جاءها الخاطب بالبشرى قفزت من فوق بعيرها وقـــالت : البعير وما عليه لرسول الله ﷺ ، وقيل : إنها هى التى وهبت نفســـها للنبـــى والتى نزل فيها قوله تعالى : ﴿ **وامرأة مؤمنة إن وهبت نفســـها للنبـــى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين ..**﴾ [2] .

كانت آخر آمهات المؤمنين وآخر زوجاته صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) رواه البخارى – فتح البارى – " كتاب المغازى " .

(٢) الأحزاب : ٥٠ .

الشبهة الثانية والخمسون

محاولة النبى محمد ﷺ الانتحار

الرد على الشبهة :

الحق الذى يجب أن يقال .. أن هذه الرواية التى استندتم إليها ــ يا خصوم الإسلام ــ ليست صحيحة رغم ورودها فى صحيح البخارى ــ رضى الله عنه ــ ؛ لأنه أوردها لا على أنها واقعة صحيحة ، ولكن أوردها تحت عنوان " البلاغات " يعنى أنه بلغه هذا الخبر مجرد بلاغ ، ومعروف أن البلاغات فى مصطلح علماء الحديث : إنما هى مجرد أخبار وليست أحاديث صحيحة السند أو المتن (١) .

وقد علق الإمام ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (٢) بقوله :

" إن القائل بلغنا كذا هو الزهرى ، وعنه حكى البخارى هذا البلاغ ، وليس هذا البلاغ موصولاً برسول الله ﷺ ، وقال الكرمانى : وهذا هو الظاهر " .

هذا هو الصواب ، وحاش أن يقدم رسول الله ــ وهو إمام المؤمنين ــ على الانتحار ، أو حتى على مجرد التفكير فيه .

وعلى كلٍ فإن محمداً ﷺ كان بشراً من البشر ولم يكن ملكاً ولا مدعيًا للألوهية .

---

(١) انظر صحيح البخارى ج٩ ص ٣٨ ، طبعة التعاون .

(٢) فتح البارى ج١٢ ص ٣٧٦ .

والجانب البشرى فيه يعتبر ميزة كان ﷺ يعتنى بها ، وقد قـــال القــرآن الكريم فى ذلك :﴿**قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً**﴾ (١) .

ومن ثم فإذا أصابه بعض الحزن أو الإحساس بمشاعر ما نسميه – فـــى علوم عصرنا – بالإحباط أو الضيق فهذا أمر عادى لا غبار عليه ؛ لأنه من أعراض بشريته ﷺ.

وحين فتر (تأخر) الوحى بعد أن تعلق به الرسولﷺ كان يذهب إلـــى المكان الذى كان ينزل عليه الوحى فيه يستشرف لقاء جبريل ، فهو محـــبّ للمكان الذى جمع بينه وبين حبيبه بشىء من بعض السكن والطمأنينة ، فماذا فى ذلك أيها الظالمون دائماً لمحمد ﷺ فى كل ما يأتى وما يدع ؟

وإذا كان أعداء محمدﷺ يستندون إلى الآية الكريمة : ﴿ **فلعلك باخع نفســك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً**﴾ (٢) .

فالآية لا تشير أبداً إلى معنى الانتحار ، ولكنها تعبير أدبى عن حزن النبـــى محمد ﷺ بسبب صدود قومه عن الإسلام ، وإعراضهم عن الإيمان بـــالقرآن العظيم ؛ فتصور كيف كان اهتمام الرسول الكريم ﷺ بدعوة الناس إلـــى الله ، وحرصه الشديد على إخراج الكافرين من الظلمات إلى النور .

وهذا خاطر طبيعى للنبى الإنسان البشر الذى يعلن القرآن على لسانهﷺ اعترافه واعتزازه بأنه بشر فى قوله – رداً على مـــا طلبـــه منـــه بعـــض المشركين– : ﴿**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعـــاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجـــيراً * أو تســـقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أوتأتى بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لـــك**

---

(١) الإسراء : ٩٣ .

(٢) الشعراء : ٣ .

بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه﴾ . فكان رده :﴿ **سبحان ربى** ﴾ متعجباً مما طلبوه ومؤكداً أنه بشرٌ لا يملك تنفيذ مطلبهم :﴿ **هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾** (١).

أما قولهم على محمد ﷺ أنه ليست له معجزة فهو قول يعبر عن الجـــهل والحمق جميعاً .

حيث ثبت فى صحيح الأخبار معجزات حسية تمثل معجـــزة الرسـول ﷺ، كما جاءت الرسل بالمعجزات من عند ربها ؛ منها نبع الماء مـــن بيـــن أصابعه ، ومنها سماع حنين الجذع أمام الناس يوم الجمعة ، ومنـــها تكثـــير الطعام حتى يكفى الجم الغفير ، وله معجزة دائمة هى معجزة الرسالة وهـــى القرآن الكريم الذى وعد الله بحفظه فَحُفِظَ ، ووعد ببيانه ؛ لذا يظهر بيانه فى كل جيل بما يكتشفه الإنسان ويعرفه .

---

(١) الإسراء : ٩٣ .

الشبهة الثالثة والخمسون

ولادة النبى محمد ﷺ عادية

الرد على الشبهة :

لأن ولادة السيد المسيح ــ عليه السلام ــ تمت على هبة من الله تبارك وتعالى للسيدة العذراء مريم ــ عليها السلام ــ وليس من خلال الزواج بينها وبين رجل . فبعض أهل الكتاب (النصارى منهم خاصة) يتصورون أن كل نبى لا بد أن يولد بمثل هذه الطريقة .

وإذا كانت ولادة محمدﷺ مثل غيره من ملايين خلق الله فإن هذا عندهم مما يعيبونه بهﷺ ويطعنون فى صحة نبوته .

(١) فلم يدركوا أن بشرية محمدﷺ هى واحدة من القسمات التى شاركه فيها كل رسل الله تعالى منذ نوح وإبراهيم وغيرهما من بقية رسل الله إلى موسى ــ عليه السلام ــ الذين ولدوا جميعاً من الزواج بين رجل وامرأة . ولم يولد من غير الزواج بين امرأة ورجل إلا عيسى ــ عليه السلام ــ وكان هذا خصوصية له لم تحدث مع أى نبى قبله ، ولم تحدث كذلك مع محمدﷺ .

(٢) كانت ولادة محمدﷺ إعلاناً لكونه بشراً من البشر يولد كما يولد البشر ويجرى عليه من الأحوال فى أكله وشربه ، وفى نومه وصحوه ، وفى رضاه وغضبه وغير ذلك مما يجرى على البشر كالزواج والصحة والمرض والموت أيضاً .

(٣) كان محمد ﷺ يعتز بهذه البشرية ويراها سبيله إلى فهم الطبيعة البشرية وإدراك خصائصها وصفاتها فيتعامل معها بما يناسبها ، وقد اعتبر

القرآن ذلك ميزة له فى قوله تعالى : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم**﴾ (١) .

كما أعلن محمد ﷺ اعتزازه بهذه البشرية وعجزها حين أعلن قومه أنهم لن يؤمنوا به إلا إذا فجر لهم ينابيع الماء من الأرض ، أو أن يكون له بيت من زخرف ، أو أن يروه يرقى فى السماء وينزل عليهم كتاباً يقرأونه ، فكان رده ﷺ كما حكاه القرآن : ﴿ **قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً**﴾ (٢) .

(٤) لقد قرر القرآن قاعدة كون الرسل من جنس من يرسلون إليهم ؛ بمعنى أن يكون المرسلون إلى الناس بشراً من جنسهم ، ولو كان أهل الأرض من جنس غير البشر لكانت رسل الله إليهم من نفس جنسهم وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً** ﴾ (٣) .

وعلى المعنى نفسه جاءت دعوة إبراهيم عليه السلام :﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك** ﴾ (٤). وقوله تعالى: ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا** ﴾ (٥). وقوله تعالى ﴿ **لقد مَنّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم** ﴾ (٦) . وقوله تعالى ﴿ **فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله .. ** ﴾ (٧) . وقوله تعالى ﴿ **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم** ﴾ (٨) .

وغير هذا كثير مما أكده القرآن وهو المنطق والحكمة التى اقتضتها مشيئته ــ تعالى ــ لما هو من خصائص الرسالات التى توجب أن يكون

---

(١) التوبة : ١٢٨ .

(٢) الإسراء : ٩٣ .

(٣) الإسراء : ٩٥ .

(٤) البقرة : ١٩٥ .

(٥) البقرة ١٥١ .

(٦) آل عمران : ١٦٤ .

(٧) المؤمنون : ٣٢ .

(٨) الجمعة : ٢ .

المرسل إلى الناس من جنسهم حتى يحسن إبلاغهم بما كلفه الله بإبلاغه إليـهم وحتى يستأنسوا به ويفهموا عنه .

ومن هنا تكون " بشرية الرسول " بمعنى أن يجرى عليه مـــا يجـرى على الناس من البلاء والموت ومن الصحة والمرض وغيرها من الصفـــات البشرية فيكون ذلك أدعى لنجاح البلاغ عن الله .

الشبهة الرابعة والخمسون

يحتاج محمد ﷺ إلى الصلاة عليه

الرد على الشبهة :

الحق أن الصلاة على محمد ﷺ من ربه ومن المؤمنين ليست دليل حاجة بل هى مظهر تكريم واعتزاز وتقدير له من الحق سبحانه وتقدير له من أتباعه ، وليست كما يزعم الظالمون لسد حاجته عند ربه لأن ربه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

لأن أى مقارنة منصفة بين ما كان عليه ﷺ وبين غيره من أنبياء الله ورسله ترتفع به ليس فقط إلى مقام العصمة ؛ بل إلى مقام الكمال الذى أتم به الله الرسالات ، وأتم به التنزيل ، وأتم به النعمة ، فلم تعد البشرية بعد رسالته ﷺ بحاجة إلى رسل ورسالات .

لذلك فإن رسالته ﷺ وهى الخاتمة والكاملة حملت كل احتياجات البشرية وما يلزمها من تشريعات ونظم ومعاملات وما ينبغى أن تكون عليه من أخلاق وحضارة مما افتقدت مثل كماله كل الرسالات السابقة .

وحسب رسالة محمد ﷺ أنها جاءت رحمة عامة للبشرية كلها كما قال القرآن : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ (١) . فلم تكن كما جاء ما قبلها رسالة خاصة بقوم رسولهم كما قال تعالى:﴿ **وإلى عاد أخاهم هودًا قال يا قوم اعبدوا الله** ﴾ (٢) .

﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحًا قال يا قوم اعبدوا الله** ﴾ (٣) .

﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله** ﴾ (٤) .

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

(٢) الأعراف : ٦٥ .

(٣) الأعراف : ٧٢ .

(٤) الأعراف : ٨٥ :

وهكذا كل رسول كان مرسلاً إلى قومه ..

لت كانت رسالة محمدﷺ إلى العالمين وإلى الناس كافة كما جـــاء فـــى قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعـــالمين**﴾ (١)، ﴿ **ومـــا أرســـلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً**﴾ (٢) .

ورسالة محمدﷺ كانت فوق كونها عالمية فقد كانت هى الخاتمة والكاملة التى ــ كما أشرنا ــ تفى باحتياجات البشر جميعاً وتقـــوم بتقنيـــن وتنظيـــم شئونهم المادية والمعنوية عبر الزمان والمكان بكل ما فيه خيرهم فى الدنيـــا والآخرة .

وفى هذا قال الله تعالى :﴿ **ما كان محمد أبا أحد مـــن رجـــالكم ولكـــن رسول الله وخاتم النبيين**﴾ (٣).

وقال فى وصفه لإكمال الدين برسالة محمد ﷺ (الإسلام) : ﴿ **اليـــوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ (٤) .

إن عموم رسالة محمد إلى العـــالمين ، وبإعتبارهـــا الرســـالة الكاملـــة والخاتمة ؛ يعنى امتداد دورها واستمرار وجودها إلى أن يـــرث الله الأرض ومن عليها مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالـــهدى وديـــن الحق ليظهره على الدين كله**﴾ (٥).

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

(٢) سبأ : ٢٨ .

(٣) الأحزاب : ٤٠ .

(٤) المائدة : ٣ .

(٥) التوبة : ٣٣ ــ الفتح : ٢٨ ــ والصف : ٩ .

الشبهة الخامسة والخمسون

محمد ﷺ أُمّى فكيف علّم القرآن ؟

الرد على الشبهة :

والأمى إما أن يكون المراد به من لا يعرف القراءة والكتابة أخذاً من " الأمية " ، وإما أن يكون المراد به من ليس من اليهود أخذاً من " الأمية " حسب المصطلح اليهودى الذى يطلقونه على من ليس من جنسهم .

فإذا تعاملنا مع هذه المقولة علمنا أن المراد بها من لا يعرف القراءة والكتابة فليس هذا مما يعاب به الرسول ، بل لعله أن يكون تأكيدًا ودليلاً قويًا على أن ما نزل عليه من القرآن إنما هو وحى أُوحى إليه من الله لم يقرأه فى كتاب ولم ينقله عن أحد ولا تعلمه من غيره . بهذا يكون الاتهام شهادة له لا عليه ﷺ .

وقد رد القرآن على هذه المقولة رداً صريحًا فى قوله :

(وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السّر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيمًا) [1] .

وحسب النبى الأمى الذى لا يعرف القراءة ولا الكتابة أن يكون الكتاب الذى أنزل عليه معجزًا لمشركى العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة ؛ بل ومتحديًا أن يأتوا بمثله أو حتى بسورة من مثله .

كفاه بهذا دليلاً على صدق رسالته وأن ما جاء به ــ كما قال بعض كبارهم ــ " ليس من سجع الكهان ولا من الشعر ولا من قول البشر " .

---

(١) الفرقان : ٥-٦ .

أما إذا تعاملنا مع مقولتهم عن محمدﷺ أنه " أُمّى " على معنى أنه مـــن الأمميين ــ أى من غير اليهود ــ فما هذا مما يعيبه . بل إنه لشرف له أنـــه من الأمميين أى أنه من غير اليهود .

ذلك لأن اعتداد اليهود بالتعالى على مـــن عداهـــم مـــن " الأمميـــن " واعتبار أنفسهم وحدهم هم الأرقى والأعظم وأنهم هم شعب الله المختـــار ــ كما يزعمون .

كل هذا مما يتنافى تمامًا مع ما جاء به محمد ﷺ من المساواة الكاملة بين بنى البشر رغم اختلاف شعوبهم وألوانهم وألسنتهم على نحـــو مـــا ذكـــره القرآن ؛ الذى اعتبر اختلاف الأجناس والألوان والألسنة هو لمجرد التعارف والتمايز ؛ لكنه ــ أبدًا ــ لا يعطى تميزًا لجنس على جنـــس ، فليـــس فـــى الإسلام ــ كما يزعم اليهود ــ أنهم شعب الله المختار .

ولكن التمايز والتكريم فى منظور الإسلام ؛ إنما هو بالتقوى والصـــلاح كما فى الآية الكريمة : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنـــاكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم** ﴾ [1] .

---

(١) الحجرات : ١٣ .

الشبهة السادسة والخمسون

محمد ﷺ يحرّم ما أحل الله

الرد على الشبهة :

استند الظالمون لمحمد ﷺ فى توجيه هذا الاتهام إلى ما جاء فى مفتتح سورة التحريم من قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى لم تحرّم ما أحلّ الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم** ﴾ (١) .

وهذه الآية وآيات بعدها تشير إلى أمر حدث فى بيت النبى ﷺ عاتبته نساؤه وتظاهرن عليه بدوافع الغيرة المعروفة عن النساء عامة إذ كان ﷺ قد دخل عند إحداهن وأكل عندها طعامًا لا يوجد فى بيوتهن ، فأسر إلى إحداهن بالأمر فأخبرت به أخريات فعاتبنه فحرّم ﷺ تناول هذا الطعام على نفسه ابتغاء مرضاتهن .

والواقعة صحيحة لكن اتهام الرسول بأنه يحرم ما أحل الله هو تصيّد للعبارة وحمل لها على ما لم ترد له ..

فمطلع الآية ﴿ **لم تحرم ما أحل الله لك** ﴾ هو فقط من باب " المشاكلة " لما قاله النبى لنسائه ترضية لهن ؛ والنداء القرآنى ليس اتهامًا له ﷺ بتحريم ما أحل الله ؛ ولكنه من باب العتاب له من ربه سبحانه الذى يعلم تبارك وتعالى أنه ﷺ يستحيل عليه أن يحرّم شيئًا أو أمرًا أو عملاً أحلّه الله ؛ ولكنه يشدد على نفسه لصالح مرضاة زوجاته من خلقه العالى الكريم .

ولقد شهد الله للرسول بتمام تبليغ الرسالة فقال :﴿ **ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾ (٢) .

---

(١) التحريم : ١.

(٢) الحاقة : ٤٤- ٤٧ .

وعليه فالقول بأن محمدًا ﷺ يحرّم ما أحل الله من المستحيلات على مقام نبوته التى زكاها الله تبارك وتعالى وقد دفـــع عنـــه مثـــل ذلـــك بقولـــه : **(وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى)** [1] .

فمقولة بعضهم أنه يحرّم هو تحميل اللفظ على غير ما جاء فيه ، ومـــا هو إلا وعد أو عهد منهﷺ لبعض نسائه فهو بمثابة يمين له كفارته ولا صلـة له بتحريم ما أحل الله .

---

(١) النجم : ٣- ٤ .

الشبهة السابعة والخمسون

تعلّم محمد ﷺ من غيره

الرد على الشبهة :

وهى من أسوأ المفتريات على محمدﷺ الذى قال ربه عز وجل عنـــه : **(وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى)** (١) .

لكن الحقد حين يتمكن من قلوب الحاقدين يدفعهم إلى المنكر من القـــول ومن الزور ، حتى إنهم ليتجرأون على قولٍ لا يقبله عقل عاقل ، ولا يجـــرؤ على مثله إلا المفترون .

فى هذه المقولة زعموا أنه حين كان ينزل عليه الوحى بالآيـــات التـــى أثبت العلم الحديث المعاصر أنها من أبرز آيات الإعجاز العلمى فى القـــرآن فيما تتصل بمراحل خلق الإنسان من سلالة من طين ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ثم يكون إنشاؤه خلقا آخر ..

زعموا أن كاتب وحيه قال مادحًا مَنْ هذا خلقه :**(تبـــارك الله أحســـن الخالقين)** (٢) .

ثم أفرطوا فى زعمهم فقالوا إن محمدًا ﷺ قال له : اكتبها فهكذا نزلـــت علىّ .. ؟! وهنا لابد من وقفة :

فأولاً : مما هو ثابت أن الرسول ﷺ كان إذا نزل عليه الوحى يأخذ العـــرق يتصبب من جسده ويكون فى غيبة عمن حوله .. فإذا انقضى الوحى أخذ فى ذكر وتلاوة ما نزل عليه من القرآن ، وهذا ما تقرره كل كتب السيرة .

---

(١) النجم : ٣ــ٤ .

(٢) المؤمنون : ١٤ .

ثانياً : معنى ما سبق أنه ﷺ لا يأخذ فى الإملاء على كاتب وحيـــه إلا بعـد اكتمال نزول الوحى واكتمال نزول الآيات المتعلقة بمراحل خلق الإنسان فى سورة " المؤمنون " .

ثالثًا : وبهذا يتضح كذب المقولة أن كاتب وحيهﷺ هو الذى أملاها عليه وأنه أمر بإثباتها .

رابعًا : أن لفظة " تبارك الله " تكررت فى القرآن الكريم تسع مرات ، تلتقـى جميعها فى مواضع يكون الحديث فيها عن قدرة الخالق فيما خلق من مثـــل قوله تعالى :

(ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) (١) .

(تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكونَ للعالمين نذيـرًا) (٢). **(تبـارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجًا وقمرًا منيرًا)** (٣) .

(تبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما) (٤) .

(تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير) (٥) .

فلماذا تعلم محمد ﷺ من كاتب وحيه آية " المؤمنون " دون غيرها ممـــا جاء فى بقية السور ؟!!

---

(١) الأعراف : ٥٥ .

(٢) الفرقان : ١ .

(٣) الفرقان : ٦١ .

(٤) الزخرف : ٨٥ .

(٥) الملك : ١ .

الشبهة الثامنة والخمسون

محمد ﷺ يعظم الحجر الأسود

الرد على الشبهة :

إنهم فى هذه المقولة ــ يريدون أن يتهموه بأنه كـــان يعظـم الحجـر الأسود ــ بل ويعظم الكعبة كلها بالطواف حولها وهى حجر لا يختلف فـــى زعمهم عن الأحجار التى كانت تصنع منها الأوثان فى الجاهلية وكأن الأمـر سواء !!

وحقيقة الأمر أن من بعض ما استبقاه الإسلام من أحوال السابقين مـــا كان فيه من تعاون على خير أو أمر بمعروف ونهى عن منكر ، مـن ذلـك ثناء الرسول ﷺ على حلف كان فى الجاهلية يسمى " حلف الفضول " وهـــو عمل إنسانى كريم كان يتم من خلاله التعاون على نصرة المظلوم ، وفـــداء الأسير ، وإعانة الغارمين ، وحماية الغريب من ظلم أهل مكة وهكذا ..

وقد أثنى الرسولﷺ على هذا الحلف وقال : لو دعيت إلى مثله لأجبت .

وأيضًا كان مما استبقاه الإسلام من فضائل السابقين مما ورثـــوه عـن إبراهيم – عليه السلام – تعظيمهم للبيت الحرام وطوافهم به ؛ بل وتقبيلـــهم للحجر الأسود .

وهناك بعض مرويات تقول إن هذا الحجر من أحجار الجنة .

وهنا فقط لا يكون أمامنا إلا ما ثبت من أن الرسولﷺ كان يقبل الحجـر الأسود عند طوافه بالبيت ، وهو ما تنطق به الرواية عن عمر بن الخطـــاب ــ رضى الله عنه ــ أنه قال عن تقبيله لهذا الحجر : (والله إنى لأعلم أنـــك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك) .

وهنا نقول :

من المستحيل أن يكون تقبيل الرسولﷺ للحجر الأسود من باب المجاراة أو المشاكلة لعبدة الأصنام فيما كانوا يفعلون .

ومستحيل أيضًا أن يكونﷺ قد فعل ذلك – أى تقبيل الحجر الأســـود – دون وحى أو إلهام وجهه ﷺ إلى تقبيل الحجر بعيدًا بعيدًا عن أى شبهة وثنية أو مجاراة لعبدة الأصنام .

ولأنهﷺ قال : **[خذوا عنى مناسككم]** فقد أصبح تقبيل الحجر الأســـود من بعض مناسك الحجاج والعمار للبيت الحرام .

كما أن تعظيم الحجر الأسود هو امتثال لأوامر الله الذى أمر بتعظيم هـذا الحجر بالذات ، وهو سبحانه الذى أمر برجم حجر آخر كمنسك من مناســك الحج فالأمر بالنسبة للتعظيم أو الرجم لا يعدو كونه إقراراً بالعبودية لله تعالى وامتثالاً لأوامره عز وجل واستسلامًا لأحكامه .

الشبهة التاسعة والخمسون

كاد محمد ﷺ أن يفتن

الرد على الشبهة :

أخذوا ذلك من فهم مغلوط لآيات سورة الإسراء :﴿ **وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذًا لاتخذوك خليلا * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلاً * إذًا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرًا** ﴾ [1] .

بعض ما قيل فى سبب نزول هذه الآية أن وفد ثقيف قالوا للرسولﷺ أجّلنا سنة حتى نقبض ما يهدى لآلهتنا من (الأصنام) فإذا قبضنا ذلك كسرناها وأسلمنا ، فهَمّ ﷺ بقبول ذلك فنزلت الآية .

قوله تعالى : " كدت تركن إليهم " أى هممت أو قاربت أن تميل لقبول ما عرضوه عليك لولا تثبيت الله لك بالرشد والعصمة ، ولو فعلت لعذبناك ضعف عذاب الحياة وعذاب الممات ؛ يعنى : قاربت أن تستجيب لما عرضوه لكنك بتثبيت الله لم تفعل لعصمة الله لك .

وكل مَنْ هُمْ على مقربة من الثقافة الإسلامية يعرفون أن " الهمّ " أى المقاربة لشىء دون القيام به أو الوقوع فيه لا يعتبر معصية ولا جزاء عليه وهو مما وضع عن الأمة وجاء به ما صح عن النبى ﷺقوله :

(وضع عن أمتى ما حدثت به نفسها ما لم تعمل به أو تتكلم به) ، وعليه .. فإنه لا إثم ولا شىء يؤخذ على محمدﷺ فى ذلك .

---

(١) الإسراء : ٧٣-٧٥ .

الشبهة الستون

قاتل محمد ﷺ فى الشهر الحرام

الرد على الشبهة :

وذلك لما ورد فى آيات سورة البقرة :

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قل قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ (١) .

والمسلمون جميعاً وعلى رأسهم إمامهم ورسولهم محمدﷺ هم أحفظ الناس لحرمة الأشهر الحرم وعدم القتال فيها واعتبار القتال فيها حدثًا كبيرًا أو كأنه كبيرة من الكبائر ..

لكن ما الذى يفعله المسلمون إذا ما ووجهوا من أعدائهم من المشركين بالقتال والعدوان على الأنفس والأموال والأعراض ، ليس هذا فحسب بل ماذا يفعل المسلمون إذا فوجئوا بمن يخرجهم من المسجد الحرام وهم أهله وهم أولى به من غيرهم ؟!

إن قانون " الدفع الحضارى " الذى يقره القرآن الكريم لحماية الكون من إفساد المتجبرين والظلمة ، ثم لحماية بيوت العبادة للمسلمين والنصارى واليهود أيضًا ، والذى عبرت عنه الآيتان الكريمتان : **﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾** (٢) . وقوله : **﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ولينصرن الله من**

---

(١) البقرة : ٢١٧ .

(٢) البقرة : ٢٥١ .

ينصره إن الله لقوى عزيز﴾ [1] . هذا القانون القرآنى ــ وليس قـــانون مـــن ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ــ هو وحده الـــذى يحمـــى الكون والناس من إفساد المتجبرين وظلم الظالمين .

وذلك على أساس أن من يمكن الله لهم فى الأرض بما يمنحهم من القـوة والثروة والعلم يجب – وبحسب القانون القرآنـــى – أن يكونـوا صـالحين وأخياراً ؛ بمعنى : أن يستخدموا قوتهم وثروتهم وعلمهم لا فـــى الطغيـان والتجبر ولكن فى حماية القيم النبيلة التى تحمى بها العدل والحق وتمكن لكل ما هو خير ، وتنفى كل ما هو شر حتى تنعم البشرية بالأمن والاســتقرار ، وتعتدل أمور الحياة والناس .

وهذا ما جاءت الآية التالية للآيتين الســابقتين لتقـره حيـث يقـول : **﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقـــاموا الصـــلاة وآتـوا الزكـاة وأمـروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾** [2] .

ولأن إقرار حقوق عباد الله فى أرض الله وحماية المســـتضعفين مـــن بطش المتجبرين لا يقل حرمة عند الله من حرمة الأشهر الحرم فقـــد أبيـح القتال فيها لمن ظُلموا من المسلمين ومن فُتنوا فى دينهم وأُخرجوا من ديارهم ظلمًا وعدوانًا .

وهذا ما تقرره الآية :**﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكـبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾** [3] .

---

(١) الحج : ٤٠ .

(٢) الحج : ٤١ .

(٣) البقرة : ٢١٧ .

الشبهة الحادية والستون

محمد ﷺ مذنب كما فى القرآن

الرد على الشبهة :

أخذوها من فهمهم الخاطئ فى مفتتح سورة " الفتح " : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطًا مستقيمًا** ﴾ (١) .

فقالوا : كتاب محمد يعترف عليه ويصفه بأنه مذنب !!

وسيرة محمد سيد الخلق وخاتم الأنبياءﷺ كتاب كبير مفتوح استوفى فيه كُتَّاب سيرته كل شىء فى حياته . فى صحوه ونومه وفى حربه وسلمه ، وفى عبادته وصلواته ، فى حياته مع الناس بل وفى حياته بين أهله فى بيته.

ليس هذا فحسب بل إن صحابته حين كانوا يروون عنه حديثًا أو يذكرون له عملاً يصفونهﷺ وصفًا بالغ الدقة وبالغ التحديد لكافة التفاصيل حتى ليقول أحدهم : قالﷺ كذا وكان متكئاً فجلس ، أو قال كذا وقد امتلأ وجهه بالسرور وهذا ما يمكن وصفه بلغة عصرنا : إنه تسجيل دقيق لحياتهﷺ بالصوت والصورة ..

ثم جاء القرآن الكريم فسجل له شمائله الكريمة فقال عنه : إنه الرحمة المهداة إلى عباد الله : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ (٢) . ووصفه بأنه الرؤوف الرحيم بمن أرسل إليهم :﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾ (٣) . ثم لخص القرآن مجمل شمائلهﷺ فى قوله : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ (٤) .

---

(١) الفتح : ٢ .
(٢) الأنبياء ١١٧ .
(٣) التوبة : ١٢٨ .
(٤) القلم : ٥ .

أكثر من هذا أن تكفل القرآن بإذاعة حتى ما هو من خلجات الرسول وحديث نفسه الذى بينه وبين الله مما لا يطلع الناس عليه على نحو ما جاء فى سورة الأحزاب فى أمر الزواج بزينب بنت جحش والذى كان القصد التشريعى فيه إبطال عادة التبنى من قوله تعالى :﴿ **وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرًا و كان أمر الله مفعولاً**﴾ (١) .

أقول : مع أن سيرة محمدﷺ هى كتاب مفتوح لم يخف التاريخ منه شيئاً بل وتدخل القرآن ليكشف حتى ما يحدث به نفسهﷺ مما لا يطلع عليه الناس ، ولم يذكر لهﷺ ذلةً ولا ذنبًا فى قول أو عمل .

أفبعد هذا لا يتورع ظالموه من أن يقولوا أنه " مذنب " ؟ !!!

ولو كان هؤلاء الظالمون لمحمدﷺ على شيء من سلامة النظر وصفاء القلوب لانتبهوا إلى بقية سورة الفتح ، والتى كانت كلها تثبيتا للمؤمنين وللرسول وتبشيرًا لهم بالتأييد والنصر .. لو كان محمدﷺ – كما ادعيتم – من المذنبين والعاصين لكان من المستحيل أن يجعله الله تعالى ممن يؤيدهم بنوره ويتم عليهم نعمته ويهديهم صراطًا مستقيماً ؛ لأن النصر يكون للصالحين لا للمذنبين .

ونقف أمام الذنب فى منطوق الآية :﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ فالذنب هنا ليس مما تعارف عليه الناس من الخطأ والآثام ؛ لأن سنة الله تبارك وتعالى هى عصمة جميع أنبيائه وفى قمتهم خاتمهمﷺ . وهذا مما يعرفه ويقره ويقرره أتباع كل الرسالات إلا قتلة الأنبياء ومحرّفى الكلم

---

(١) الأحزاب : ٣٧ .

عن مواضعه من اليهود الذين خاضوا فـــي رســـل الله وأنبيائـــه بمـــا هـــو معروف .

فالذنب هو ما يمكن اعتباره ذنباً على مستوى مقام نبوتهﷺ ذنبًـــا ممـــا تقدره الحكمة الإلهية ــ لا ما تحدده أعراف الناس .

ومع هذا كله فإن سيرة محمدﷺ قبل البعثة كانت محـــل تقديـــر قومـــه وإكبارهم له لما اشتهر بهﷺ من العفة والطهر والتميز عن جميع أترابه مـــن الشباب حتى كان معروفًا بينهم بالصادق الأمين .

أفبعد هذا لا يستحي الظالمون لمحمدﷺ والحاقدون عليه من أهل الكتاب أن يقولوا : إنه مذنب ؟!!

﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾ (١) .

---

(١) الكهف : ٥ .

الشبهة الثانية والستون

الشيطان يوحى إلى محمد ﷺ

الرد على الشبهة :

الظالمون لمحمد ﷺ يستندون فى هذه المقولة إلى أكذوبة كانت قد تناقلتها بعض كتب التفسير من أنه ﷺ كان يقرأ فى الصلاة بالناس سورة " النجـــم : فلما وصل ﷺ إلى قوله تعالى : ﴿ **أفرأيتم اللات والعـــزى* ومنـــاة الثالثـــة الأخرى**﴾ [1] ؛ تقول الأكذوبة :

إنه ﷺ قال : ــ حسب زعمهم ــ تلك الغرانيق [2] العلى وإن شـــفاعتهن لترتجى .

ثم استمر ﷺ فى القراءة ثم سجد وسجد كل من كانوا خلفه من المســلمين وأضافت الروايات أنه سجد معهم من كان وراءهم من المشركين !!

وذاعت الأكذوبة التى عرفت بقصة " الغرانيق " وقال ــ مـــن تكـــون أذاعتها فى صالحهم ــ : إن محمداً أثنى على آلهتنا وتراجع عما كان يوجهه إليها من السباب . وإن مشركى مكة سيصالحونه وسيدفعون عن المؤمنين به ما كانوا يوقعونه بهم من العذاب .

وانتشرت هذه المقولة حتى ذكرها عدد من المفسرين حيث ذكـــروا أن المشركين سجدوا كما سجد محمد ﷺ وقالوا له : ما ذكرت آلهتنا بخير قبـــل اليوم ولكن هذا الكلام باطل لا أصل له .

وننقل هنا عن الإمام ابن كثير فى تفسيره الآيات التى اعتبرها المرتكـز الذى استند إليه الظالمون للإسلام ورسوله وهى فى سورة الحج حيث تقول :

---

(١) النجم : ١٩ – ٢٠ .

(٢) المراد بالغرانيق : الأصنام ؛ وكان المشركون يسمونها بذلك تشبيهًا لها بالطيور البيض التى ترتفع فـــى السماء .

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فـــى أمنيته فينسخ الله ما يلقـــى الشـــيطان ثـــم يحكـــم الله آياتـــه والله عليـــم حكيم﴾ [1] وبعد ذكره للآيتين السابقتين يقول : " ذكر كثير من المفسرين هنـــا قصة " الغرانيق وما كان من رجوع كثير ممن هاجروا إلى الحبشـــة " ظنًّـــا منهم أن مشركى مكة قد أسلموا .

ثم أضاف ابن كثير يقول : ولكنها – أى قصة " الغرانيق " – من طرق كثيرة مرسلة ولم أرها مسندة من وجه صحيح ، ثم قال ابن كثير : [2] عـــن ابن أبى حاتم بسنده إلى سعيد بن جبير قال : " قرأ رســـول اللهﷺ بمكـــة " سورة النجم " فلما بلغ هذا الموضع .﴿ **أفرأيتم الـــلات والعـــزّى * ومنـــاة الثالثة الأخرى** ﴾. قال بن جبير : فألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيـــق العلا وإن شفاعتهن لترتجى .

فقال المشركون : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم .. فأنزل الله هـــذه الآيـــة : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فـــى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عزيـــز حكيـــم﴾ ليقرر العصمة والصون لكلامه سبحانه من وسوسة الشيطان .

وربما قيل هنا : إذا كان الله تعالى ينسخ ما يلقى الشيطان ويحكم آياته فلماذا لم يمنع الشيطان أصلاً من إلقاء ما يلقيه من الوساوس فى أمنيـــات الأنبياء

والجواب عنه قد جاء فى الآيتين اللتين بعد هذه الآية مباشرة :

---

(١) الحج : ٥٢ .

(٢) عن : التفسير الوسيط للقرآن لشيخ الأزهر د . طنطاوى ج٩ ص ٣٢٥ وما بعدها .

أولاً : ليجعل ما يلقيه الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض من المنـــافقين والقاسية قلوبهم من الكفار وهو ما جاء فى الآية الأولى منهما :﴿ ليجعـــل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض﴾ (١) .

ثانياً : لميز المؤمنين من الكفار والمنافقين فيزداد المؤمنـــون إيمانـــا علـــى إيمانهم ؛ وهو ما جاء فى الآية الثانية :﴿ **وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحـق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهادى الذيـــن آمنـــوا إلـــى صراط مستقيم** ﴾ (٢) .

هذا : وقد أبطل العلماء قديمًا وحديثًا قصة الغرانيـــق . ومـــن القدمـــاء الإمام الفخر الرازى الذى قال ما ملخصه (٣) :

" قصة الغرانيق باطلة عند أهل التحقيق وقد اســـتدلوا علـــى بطلانـــها بالقرآن والسنة والمعقول ؛ أما القرآن فمن وجوه: منها قوله تعالى :﴿ **ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتيـــن * فما منكم من أحد عنه حاجزين**﴾ (٤) .

وقوله سبحانه :﴿ **وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحـــى**﴾ . (٥)

وقوله سبحانه حكاية عن رسولهﷺ :﴿ **قل ما يكون لى أن أبدله من تلقـــاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ** ﴾ (٦) .

وأما بطلانها بالسنة فيقول الإمام البيهقى :

روى الإمام البخارى فى صحيحه أن النبىﷺ قرأ سورة " النجـــم " فســـجد وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنـــس والجـــن وليـــس فيـــها حديـــث " الغرانيق " وقد روى هذا الحديث من طرق كثيرة ليس فيها ألبتـــة حديـــث الغرانيق .

---

(١) الحج : ٥٣ .
(٢) الحج : ٥٤ .
(٣) التفسير السابق : ص ٣٢١ .
(٤) الحاقة : ٤٤ ــ ٤٧ .
(٥) النجم : ٣- ٤ .
(٦) يونس : ١٥ .

فأما بطلان قصة " الغرانيق " بالمعقول فمن وجوه منها :

أ ــ أن من جوّز تعظيم الرسول للأصنام فقد كفر لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سعيه ﷺ كان لنفى الأصنام وتحريم عبادتها ؛ فكيف يجوز عقلاً أن يثنى عليها ؟

ب ــ ومنها : أننا لو جوّزنا ذلك لارتفع الأمان عــــن شرعـــــهﷺ فإنــه لا فرق – فى منطق العقل – بين النقصـــان فـــى نقــل وحـــى الله وبيــن الزيادة فيه .

الشبهة الثالثة والستون

حول الاستغناء بالقرآن عن السنة وعلاقة السنة بالقرآن

هناك مَنْ يكتفون بالقرآن الكريم .. ويشككون فى صحـــة الأحـــاديث ، ويظهرون التناقضات بينها ، ويذكرون الحديث الذى ينص على عدم زيـــارة المرأة للقبول ، والحديث الذى يقول (فىمعناه) أن الرسول ﷺ قال إننى قـد أمرتكم بعدم زيارة القبور من قبل ، والآن أسمح لكـــم بزيـــارة القبـــور .. فيشيرون إلى ذلك بأنه تناقض .. ويدللون على ذلك بأن الأمة قد فقدت الكثير من الأحاديث النبوية عبر الزمان ، أو أن هذه الأحاديث قـــد حرفـــت عـــن معانيها الصحيحة .. (ا . هـــ) .

الرد على الشبهة :

فى بداية الجواب عن شبهة هؤلاء الذين يشككون فى الأحاديث النبوية . ننبه على مستوى جهل كل الذين يثيرون مثل هذه الشبهات حـــول الحديـــث النبوى الشريف .. ذلك أن التدرج والتطور فى التشريع الذى يمثله حديـــث النهى عن زيارة القبور ثم إباحتها .. هذا التدرج والتطـــور فـــى التشـــريع لا علاقة له بالتناقض بأى وجه من الوجوه ، أو أى حال من الأحوال .

ثم إن التشكيك فى بعض الأحاديث النبوية ، والقول بوجود تناقضات بين بعض هذه الأحاديث ، أو بينها وبين آيات قرآنية .. بل والتشكيك فى مجمل

الأحاديث النبوية ، والدعوة إلى إهدار السـنة النبويـة والاكتفـاء بـالقرآن الكريم .. إن هذه الدعوة قديمة وجديدة ، بل ومتجددة .. وكما حذّر رسـول الله ﷺ من الكذب عليه .. فلقد حذّر من إنكار سنته ، ومن الخروج عليها .

ونحن بإزاء هذه الشبهة نواجه بلونين من الغلو :

أحدهما : يهدر كل السنة النبوية ، اكتفاء بالقرآن الكريم .. ويـرى أن الإسلام هو القرآن وحده .

وثانيهما : يرى فى كل المرويات المنسوبة للرسول ﷺ سـنة نبويـة ، يكفر المتوقف فيها ، دونما فحص وبحث وتمحيص لمسـتويات " الروايـة " و " الدراية " فى هذه المرويات . ودونما تمييز بين التوقـف إزاء الـراوى وبين إنكار ما ثبت عن رسول الله ﷺ ..

وبين هذين الغلوين يقف علماء السنة النبوية ، الذيـن وضعـوا علـوم الضبط للرواية ، وحددوا مستويات المرويات:، بناء على مستويات الثقة فـى الرواة .. ثم لم يكتفوا ــ فى فرز المرويات ــ بعلم " الروايـة " والجـرح والتعديل للرجال ــ الرواة ــ وإنما اشترطوا سلامة " الدراية " أيضًا لـهذه المرويات التى رواها العدول الضابطون عن أمثالهم حتى رسول الله ﷺ .

أى أن هؤلاء العلماء بالسـنة قـد اشـترطوا " نقـد المتـن والنـص والمضمون " بعد أن اشترطوا " نقد الرواية والرواة " وذلـك حتـى يسـلم المتن والمضمون من " الشذوذ والعلة القادحة " ، فلا يكون فيـه تعـارض حقيقى مع حديث هو أقوى منه سندًا ، وألصق منه بمقاصد الشريعة وعقـائد الإسلام ، ومن باب أولى ألا يكون الأثر المروى متناقضًا تناقضًا حقيقيًّا مـع محكم القرآن الكريم ..

ولو أننا طبقنا هذا المنهاج العلمى المحكم ، الذى هو خلاصـة علـوم السنة النبوية ومصطلح الحديث ، لما كانت هناك هذه المشكلة ــ القديمـة ..

المتجددة ــ .. ولكن المشكلة ــ مشكلة الغلو ، بأنواعه ودرجاته ــ إنما تأتى من الغفلة أو التغافل عن تطبيق قواعد هذا المنـــهج الــذى أبدعتــه الأمــة الإسلامية ، والذى سبقت به حضارتنا كل الحضارات فـــى ميــدان " النقــد الخارجى والداخلى للنصوص والمرويات " .. وهذه الغفلة إنما تتجلـــى فـــى تركيز البعض على " الرواية " مع إهمال " الدراية " أو العكس .. وفى عــدم تمييز البعض بين مستويات المرويات ، كأن يطلب مـــن الأحــاديث ظنيــة الثبوت ما هو من اختصاص النصوص قطعية الثبوت .. أو من مثل تحكيــم " الهوى " أو " العقل غير الصريح " فى المرويات الصحيحة ، الخالية متونها ومضامينها من الشذوذ والعلة القادحة ..

وهناك أيضًا آفة الذين لا يميزون بين التوقف إزاء " الرواية والــرواة " ــ وهم بشر غير معصومين ، وفيهم وفى تعديلهم وقبول مروياتهم اختلـــف الفقهاء وعلماء الحديث والمحدثون ــ وبين التوقف إزاء " الســـنة " ، التـــى ثبتت صحة روايتـــها ودرايتـــها عـــن المعصـــوم ﷺ .. فتوقـــف العلمـــاء المتخصصين ــ وليس الهواة أو المتطفليـــن ــ إزاء " الروايـــة والـــرواة " شىء ، والتوقف إزاء " السنة " التى صحت وسلمت مـــن الشـــذوذ والعلـــل القادحة شىء آخر .. والأول حق من حقوق علماء هذا الفن ، أما الثانى فـــهو تكذيب للمعصوم ﷺ ، والعياذ بالله ..

أما الذين يقولون إننا لا حاجة لنا إلى السنة النبوية ، اكتفـــاء بـــالبلاغ القرآنى ، الذى لم يفرط فى شىء .. فإننا نقول لهم ما قاله الأقدمون ــ مـــن أسلافنا ــ للأقدمين ــ من أسلافهم ــ :

إن السنة النبوية هى البيان النبوى للبلاغ القرآنى ، وهى التطبيق العملى للآيات القرآنية ، التى أشارت إلى فرائض وعبـــادات وتكـــاليف وشـــعائر ومناسك ومعاملات الإسلام .. وهذا التطبيق العملى ، الذى حوّل القرآن إلـــى

إلى حياة معيشة ، ودولة وأمة ومجتمع ونظام وحضارة ، أى الـــذى " أقـــام الدين " ، قد بدأ بتطبيقات الرسول ﷺ للبلاغ القرآنى ، ليس تطوعًا ولا تزيّـدًا من الرسول ، وإنما كان قيامًا بفريضة إلهية نص عليـــها القـــرآن الكريـــم **﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليـــهم ولعلـــهم يتفكـــرون ﴾** (١) .

فالتطبيقات النبوية للقرآن ــ التى هى السنة العملية والبيان القولى الشـــارح والمفسر والمفصّل ــ هى ضرورة قرآنية ، وليست تزيّـــدًا علـــى القـــرآن الكريم .. هى مقتضيات قرآنية ، اقتضاها القرآن.. ويســـتحيل أن نســـتغنى عنها بالقرآن .. وتأسيًا بالرسول ﷺ ، وقيامًا بفريضة طاعته ــ التى نـــص عليها القرآن الكريم : **﴿ قل أطيعوا الله والرسول ﴾** (٢) **﴿ أطيعوا الله وأطيعـوا الرسول ﴾** (٣) **﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾** (٤) **﴿ قل إن كنتم تحبـــون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾** (٥) **﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبـــايعون الله ﴾** (٦) .

تأسيًا بالرسول ﷺ ، وطاعة له ، كان تطبيق الأمة ــ فى جيل الصحابة ومن بعده ــ لهذه العبادات والمعاملات .. فالسنة النبوية ، التى بدأ تدوينـــها فـــى العهد النبوى ، والتى اكتمل تدوينها وتمحيصها فى عصر التابعين وتابعيهم ، ليست إلا التدوين للتطبيقات التى جسدت البلاغ القرآنـــى دينًـــا ودنيـــا فـــى العبادات والمعاملات .

فالقرآن الكريم هو الذى تَطَلَّبَ السنة النبوية ، وليست هى بالأمر الزائـد الذى يغنى عنه ويستغنى دونه القرآن الكريم .

أما العلاقة الطبيعية بين البلاغ الإلهى ــ القرآن ــ وبين التطبيق النبوى لهذا البلاغ الإلهى ــ السنة النبوية ــ فهى أشبه مـــا تكـــون بالعلاقـــة بيـــن

---

(١) النحل : ٤٤ .
(٢) آل عمران : ٣٢ .
(٣) النساء : ٥٩ .
(٤) النساء : ٨٠ .
(٥) آل عمران : ٣١ .
(٦) الفتح : ١٠ .

" الدستور " وبين " القانون " . فالدستور هو مصـــدر ومرجـــع القـــانون .. والقانون هو تفصيل وتطبيق الدستور ، ولا حُجة ولا دستورية لقانون يخالف أو يناقض الدستور .. ولا غناء ولا اكتفاء بالدستور عن القانون .

إن رسول الله ﷺ ، ليس مجرد مبلّغ فقط ، وإنما هـــو مبلّـــغ ، ومبيـــن للبلاغ ، ومطبق له ، ومقيم للدين ، تحول القرآن على يديه إلى حياة عمليـــة ــ أى إلى سنة وطريقة يحياها المسلمون .

وإذا كان بيان القرآن وتفسيره وتفصيله هو فريضـــة إســـلامية دائمـــة وقائمة على الأمة إلى يوم الدين .. فإن هذه الفريضة قد أقامها ــ أول مـــن أقامها ــ حامل البلاغ ، ومنجز البيان ، ومقيم الإســـلام ــ عليـــه الصـــلاة والسلام .

والذين يتصورون أن الرسول ﷺ مجرد مبلِّغ إنما يضعونه فى صـــورة أدنى من صورتهم هم ، عندما ينكرون عليه البيان النبوى للبلاغ القرآنـــى ، بينما يمارسون هم القيام بهذا البيان والتفسير والتطبيق للقرآن الكريـــم ! .. وهذا " مذهب " يستعيذ المؤمن بالله منه ومن أهله ومن الشيطان الرجيم ! .

الشبهة الرابعة والستون

حول تناقض النقل ـ القرآن ـ مع العقل

هناك مَنْ يقيمون التناقض بين " العقل " و " النقل " ، ويدعون أن الثقافة الإسلامية نقلية لا عقلية ، ويعتقدون أن جميع علماء الأمة بدون استثناء غير مؤهلين ، لأنهم اعتمدوا على النقل وليس التفكير .. وأنه يجب التفكير فى كل أمور الدين ، الأصل قبل الفرع .. وإلغاء كل الأساسيات الموجـــودة التـــى تعتبرها الأمة من المسلمات ، والبحث من جديد عن الحقيقة ، معتمدين علـــى العقل فقط .. (ا . هـــ) .

الرد على الشبهة :

إن القول بالاعتماد على العقل فقط ــ أى دون النقل ، الذى هو الوحـــى الإلهى ، فى بلاغه القرآنى وبيانه النبوى ــ .. واستخدام العقل وحـــده أداة لإعادة النظر فى كل ما تعتبره الأمة من المسلمات .. هو قول يحتـــاج إلـــى ضبط .. وإلى تصويب .. ويمكن أن يتم ذلك من خلال إشارات إلى عدد من الحقائق :

أولاها : أن مقام العقل فى الإسلام هو مكان عال وفريد ، ولا نظير لـــه فى الشرائع السابقة على الشريعة الإسلامية الخاتمة .. فالعقل فـــى الإســـلام هو مناط التكليف بكل فرائض وأحكام الإسلام .. أى شـــرط التديـــن بديـــن الإسلام .

وثانيتها : أن النقل الإسلامى ــ وخاصة معجزته القرآنية ــ هو معجزة عقلية ، قد ارتضت العقل حكمًا فى فهمها وفى التصديق بها ، وفى التمييز بين المحكم والمتشابه فى آياتها ، وأيضًا فى تفسير هذه الآيات .. فليس للقرآن كهنوت يحتكر تفسيره ، وإنما هو ثمرة لنظر عقول العلماء المفسرين .. وعلى حين كانت معجزات الرسالات السابقة معجزات مادية ، تدهش العقول ، فتشلها عن التفكير والتعقل ، جاءت معجزة الإسلام ــ القرآن الكريم ــ معجزة عقلية ، تستنفر العقل كى يتعقل ويتفكر ويتدبر ، وتحتكم إليه باعتباره القاضى فى تفسير آياتها .. فكان النقل الإسلامى سبيلاً لتنمية العقلانية الإسلامية .. وكان هذا التطور فى طبيعة المعجزة متناسبًا ومتسقًا مع مرحلة النضج التى بلغتها الإنسانية ، ومع ختم السماء سلسلة الرسالات والوحى إلى الأنبياء والرسل وأمم الرسالات ..

وثالثتها : أن العقل ــ فى الإسلام ــ هو سبيل الإيمان بوجود الله ووحدانيته وصفاته .. لأن الإيمان بالله سابق على التصديق بالرسول وبالكتاب الذى جاء به الرسول ، لأنه شرط لهما ، ومقدم عليهما ، فالتصديق بالكتاب ــ النقل ــ متوقف على صدق الرسول الذى أتى به ، والتصديق بالرسول متوقف على وجود الإله الذى أرسل هذا الرسول وأوحى إليه .. والعقل هو سبيل الإيمان بوجود الله ــ سبحانه وتعالى ــ وذلك عن طريق تأمل وتدبر بديع نظام وانتظام المصنوعات الشاهدة على وجود الصانع المبدع لنظام وانتظام هذه المصنوعات .. فالعقل ــ فى الإسلام ــ هو أداة الإيمان بجوهر الدين ــ الألوهية ــ وبعبارة الإمام محمد عبده : " .. فأول أساس وضع عليه الإسلام هو النظر العقلى ، والنظر عنده هو وسيلة الإيمان الصحيح ، فقد أقامك منه على سبيل الحُجة ، وقاضاك إلى العقل ، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته .. " [1] .

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٣ ص ٣٠١ .

وذلك على حين كان العقل غريبًا ومستبعدًا من سبل الإيمان فى حقب الرسالات السابقة على الإسلام .. حقب المعجزات المدهشة للعقول ، عندما كانت الإنسانية فى مراحل الطفولة " خرافًا ضالة " ، تؤمن بما يُلقى إلى قلبها ، دون إعمال عقل ، لأن الإيمان لا يحتاج إلى إعمال عقل .. وفق عبارة القديس والفيلسوف النصرانى " أنسيلم " [١٠٣٣ــ١١٠٩م] .

ورابعتها : أن المقابلة بين " العقل " و " النقل " هى أثر من آثار الثنائيات المتناقضة التى تميزت بها المسيرة الفكرية للحضارة الغربية ، تلك التى عرفت لاهُوتًا كنسيًا ــ نقلاً ــ لا عقلانيًا ، فجاءت عقلانيتها ، فى عصر النهضة والتنوير الوضعي العلمانى ، ثورة على النقل اللاعقلانى ونقضًا له .. أما فى الإسلام ، والمسيرة الفكرية لحضارته وأمته ــ وخاصة فى عصر الازدهار والإبداع ــ فإن النقل لم يكن أبدًا مقابلاً للعقل ، لأن المقابل للعقل هو الجنون ، وليس النقل .. ولأن النقل الإسلامى ــ القرآن الكريم ــ هو مصدر العقلانية المؤمنة ، والباعث عليها ، والداعى لاستخدام العقل والتفكر والتدبر فى آيات الله المنظورة والمسطورة جميعًا .. وآيات القرآن التى تحض على العقل والتعقل تبلغ تسعًا وأربعين آية .. والآيات التى تتحدث عن " اللُّب " ــ بمعنى عقل وجوهر الإنسان ــ هى ست عشرة آية . كما يتحدث القرآن عن " النُّهى " ــ بمعنى العقل ــ فى آيتين .. وعن الفكر والتفكر فى ثمانية عشر موضعًا .. وعن الفقه والتفقه ــ بمعنى العقل والتعقل ــ فى عشرين موضعًا .. وعن " التدبر " فى أربع آيات .. وعن " الاعتبار " فى سبع آيات .. وعن " الحكمة " فى تسع عشرة آية .. وعن " القلب " كأداة للفقه والعقل ــ فى مائة واثنين وثلاثين موضعًا.. ناهيك عن آيات العلم والتعلم والعلماء التى تبلغ فى القرآن أكثر من ثمانمائة آية .. فالنقل الإسلامى ــ أى الشرع الإلهى ــ هو الداعى للتعقل والتدبر والتفقه

والتعلّم .. والعقل الإنسانى هو أداة فقه الشرع ، وشرط ومناط التدين بـــــهذا الشرع الإلهى .. ولذلك لا أثر للشرع بدون العقل ، كما أنه لا غنى للعقـــــل عن الشرع ، وخاصة فيما لا يستقل العقل بإدراكه من أمور الغيب وأحكـــــام الدين .

ذلك أن العقل ، مهما بلغ من العظمة والتألق فى الحكمة والإبداع ، هـــو ملكة من ملكات الإنسان ، وكل ملكـــــات الإنســـان ــ بـــالخبرة التاريخيـــة والمعاصرة ــ هى نسبة الإدراك والقدرات ، تجهل اليوم ما تعلمه غدًا ، وما يقصر عنه عقل الواحد يبلغه عقل الآخر .. وإذا كانت ميادين عالم الشـــهادة ــ النفس والكون .. أى الدنيا .. مفتوحة على مصاريعها أمام العقل وأمـــــام التجربة ــ بالنسبة للإنسان ــ فإن هناك ميادين ــ وخاصة فى معارف عـــالم الغيب ــ سبيل معرفتها النقل ــ أى الوحى ــ والوجدان ــ القلب والإلهام ــ فالهدايات التى يهتدى بها الإنسان هي " العقل " و " النقـــل " و " التجربـــة " و " الوجدان " .. وليست العقل وحده دون سواه .. وبتنوع الهدايات وســـبل المعرفة الإنسانية ، مع تنوع مصادر المعرفة الإنسانية ــ الوحى وآيـــات الله المسطورة ، مع الكون وآيات الله المنظورة ــ تتكامل وتتـــــوازن المعرفـــة الإنسانية ــ وهذه هى نظرية المعرفة الإسلامية ــ بينما يختل توازن هـــــذه المعرفة إذا هى وقفت ــ فى المصادر ــ عند الكون وعالم الشهادة وحـــده ــ وفى الوسائل وإدراك المعرفة عند العقل وحده ، أو العقل والتجربة وحدهما ، دون النقل والوجدان .. ولقد عبر عن هذا التكامل والتوازن فى ــ نظريـــــة المعرفة الإسلامية الإمام محمد عبده [١٢٦٥ــ١٣٢٣هـــ/١٨٤٩ــ١٩٠٥م] عندما تحدث ــ فى تفسيره لآية ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ ــ من ســـــورة الفاتحة ــ عن " الهدايات الأربع " ــ العقل ، والنقل ، والتجربة ، والوجدان

كما عبر عن التلازم الضرورى بين العقل والنقل ، لتكامل المعرفة الإسلامية عندما قال : " .. فالعقل هو ينبوع اليقين فى الإيمان بالله ، وعلمه وقدرتـــه ، والتصديق بالرسالة .. أما النقل ، فهو الينبوع فيما بعد ذلك من علم الغيـب ، كأحوال الآخرة والعبادات .. والقرآن ــ وهو المعجز الخارق ــ دعا الإسلامُ الناس إلى النظر فيه بعقولهم .. فهو معجزة عُرضت على العقل ، وعرفتـــه القاضى فيها ، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها ، ونشر مـــا انطـــوى فـــى أثنائها .. وإذا قدّرنا عقل البشر قدره ، وجدنا غاية ما ينتهى إليه كماله إنمـــا هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقـــع تحـــت الإدراك الإنسانى .. أما الوصول إلى كنه حقيقته فمما لا تبلغه قوته .. ومن أحـــوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده .. لهذا كان العقل محتاجًا إلى مُعين يستعين به فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة .. " (١) .

فالإسلام لا يعرف ــ على الإطلاق ــ هذه الثنائيـــة المتناقضـــة بيـــن العقل والنقل .. وصريح المعقول لا يمكن أن يتعارض مع صحيح المنقول .. ولقد عبر الإمام محمد عبده عن ما قد يتوهمه البعض تعارضًا عندما صـــاغ حقيقة هذه القضية فقال : " لقد تقرر بين المسلمين أن الدين إن جاء بشىء قد يعلو على الفهم ، فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل .. " (٢) .. ففـــارق بين ما يعلو على إدراك العقل ، من بعض أمور الدين ، وبين ما يستحيل فى العقل الذى برئ ويبرأ منه الدين .

ومن بين علماء الإسلام الذين عبروا ــ بصدق وعبقرية ــ عن تكـــامل العقل والنقل ــ الحكمة والشريعة ــ حُجة الإسلام ــ أبـــو حـــامد الغزالـــى

---

(١) المصدر السابق ج٣ ص ٣٢٥ ، ٣٧٩ ، ٣٩٧ .

(٢) [الأعمال الكاملة] ج٣ ص ٢٥٧ .

[٤٥٠ــ٥٠٥هـ/١٠٥٨ــ١١١١م] عندما قال : " إن أهل السنة قد تحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول ، وعرفوا أن من ظن وجـــوب الجمود على التقليد واتباع الظواهر ، ما أُتوا به إلا من ضعف العقول وقلـــة البصائر . وأن من تغلغل فى تصرف العقل حتى صادموا به قواطع الشرع ، ما أُتوا به إلا من خبث الضمائر . فميل أولئك إلى التفريط ، وميل هؤلاء إلى الإفراط ، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط .. فمثال العقل : البصر السليم عن الآفات والآذاء ، ومثال القرآن : الشمس المنتشـــرة الضيـــاء ، فـــأخْلِق أن يكون طالب الاهتداء المستغنى إذا استغنى بأحدهمـــا عـــن الآخـــر فـــى غمار الأغبياء ، فلا فرق بينه وبين العميان . فالعقل مع الشرع نور علـــى نور .. " (١) .

وهذه العلاقة بين العقل والنقل ــ علاقة التكامل والتآخى ــ هى التـــى أكد عليها أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠ــ٦٥٤هـ/١١٢٦ــ١١٩٨م] عندما قال : " .. فإنا ــ معشر المسلمين ــ نعلم على القطـــع ، أنـــه لا يـــؤدى النظـــر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحق لا يضـــاد الحـــق ، بـــل يوافقه ويشهد له .. فالحكمة هى صاحبة الشريعة ، والأخـــت الرضيعـــة .. وهما المصطحبتان بالطبع ، المتحابتان بالجوهر والغريزة .. " (٢) .

فالباب مفتوح على مصراعيه أمام العقل فى سائر ميادين عالم الشهادة . وهو سبيل الفقه والفهم والتكليف فى الشرع والدين .. لكن لابد من مـــؤازرة الشرع والنقل للعقل فيما لا يستقل العقل بإدراكه من أخبـــار عـــالم الغيـــب والحكم والعلل من وراء بعض أحكام العبادات فى الدين .. وما قد يبدو مـــن

---

(١) [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ٢، ٣ . طبعة القاهرة . مكتبة صبيح بدون تاريخ .

(٢) [فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة مـــن الاتصـــال] ص ٣١، ٣٢، ٦٧ . دراســـة وتحقيـــق د . محمد عمارة . طبعة دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٩٩م .

تعارض ــ عند البعض ــ أحياناً بين العقل والنقل ، فـــهو تعـــارض بيـــن العقل وبين " ظاهر " النقل وليس حقيقة معنى النقل أو مرجعه إلـــى تخلـــف " صحة " النقل .. أو تخلف " صراحة " العقل .. أو وجود ما يعلـــو علـــى الفهم ، لا ما يتعارض مع العقل .. فالعقل مع الشرع ــ كمـــا قـــال حُجـــة الإسلام الغزالى ــ " نور على نور " .. وما الحديث عن التعارض بينهما إلا أثر من آثار الغلو فى أحدهما ، تفريطًا أو إفراطًا .

وإذا كانت البداهة والخبرة البشـــرية ــ وحتـــى الحكمـــة الفلســـفية ــ تقول : إن من مبادئ الدين والشرائع ما لا يستقل العقل بإدراك كنهه وحقيقـــة جوهره ، فكيف يجوز لعاقل أن يدعو إلى تحكيم العقل وحده فى كل أساسيات الدين ؟! لقد قال الفيلسوف الفقيه أبو الوليد ابن رشـــد وهـــو الـــذى احـــترم عقلانيته المتألقة الأوروبيون والمسلمون جميعًا . قال عـــن رأى الفلاســـفة القدماء فى مبادئ الشرائع التى لا يستقل العقل بإدراكها : " إن الحكماء مـــن الفلاسفة ليس يجوز عندهم التكلم ولا الجدل فى مبادئ الشرائع مثل : هل الله تعالى موجود ؟ وهل السعادة موجودة ؟ وهل الفضائل موجودة ؟ . وفـــاعل ذلك عندهم محتاج إلى الأدب الشديد ، ولذلك وجب قتل الزنادقة .. فيجـــب على كل إنسان أن يسلم بمبادئ الشرائع ، لأن مبادئها أمـــور إلهيـــة تفـــوق العقول الإنسانية ، وكيفية وجودها هو أمـــر معجـــز عـــن إدراك العقـــول الإنسانية ، فلابد أن يعترف بها مع جهل أسبابها .. " [1] .

فليس هناك عاقل يحكم العقل فيما لا يستقل العقل بإدراكه مـــن مبـــادئ الشرائع والمعجزات ، وكنه وجوهر وحقائق المغيبات .

---

(١) [تهافت التهافت] ص١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣م .

وليس هناك عاقل يغفل أو يتغافل عن مكانة ودور العقـــل فـــى ديـــن الإسلام .

وإدراك وظيفة العقل .. وميدان عمله .. وحدود قدراتـــه ، هـــو لـــب الاحترام للعقل ، وليس فيه انتقاص من سلطانه ، الذى تألق فى دين الإســـلام وفكر المسلمين .

الشبهة الخامسة والستون

الإسلام انتشر بالسيف ، ويحبذ العنف

الرد على الشبهة :

وهى من أكثر الشبه انتشاراً ، ونرد عليها بالتفصيل حتى نوضح الأمـر حولها :

يقول الله تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿ **ومـــا أرســـلناك إلا رحمـــة للعالمين** ﴾ (١) .

إن هذا البيان القرآنى بإطاره الواسع الكبير ، الذى يشمل المكان كله فلا يختص بمكان دون مكان ، والزمان بأطواره المختلفة وأجياله المتعاقبة فـــلا يختص بزمان دون زمان ، والحالات كلها سلمها وحربها فلا يختص بحالـــة دون حالة ، والناس أجمعين مؤمنهم وكافرهم عربهم وعجمهم فلا يختـــص بفئة دون فئة ؛ ليجعل الإنسان مشدوها متأملاً فى عظمة التوصيف القرآنـــى لحقيقة نبوة سيد الأولين والآخرين ، ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعـالمين** ﴾ ، رحمة عامة شاملة ، تجلت مظاهرها فى كل موقف لرســـول الله ﷺ تجـاه الكون والناس من حوله .

والجهاد فى الإسلام حرب مشروعة عند كل العقلاء من بنى البشـــر ، وهى من أنقى أنواع الحروب من جميع الجهات :

(١) من ناحية الهدف .

(٢) من ناحية الأسلوب .

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ .

(٣) من ناحية الشروط والضوابط .

(٤) من ناحية الإنهاء والإيقاف .

(٥) من ناحية الآثار أو ما يترتب على هذه الحرب من نتائج .

وهذا الأمر واضح تمام الوضوح فى جانبى التنظير والتطبيق فى ديـــن الإسلام وعند المسلمين .

وبالرغم من الوضوح الشديد لهذه الحقيقة ، إلا أن التعصب والتجـــاهل بحقيقة الدين الإسلامى الحنيف ، والإصرار على جعله طرفاً فى الصـــــراع وموضوعاً للمحاربة ، أحدث لبساً شديداً فى هذا المفهوم ــ مفهوم الجهاد ــ عند المسلمين ، حتى شاع أن الإسلام قد انتشر بالسيف ، وأنه يدعـــو إلـــى الحرب وإلى العنف ، ويكفى فى الرد على هذه الحالة من الافتراء ، ما أمـــر الله به من العدل والإنصاف ، وعدم خلط الأوراق ، والبحث عن الحقيقة كما هى ، وعدم الافتراء على الآخرين ، حيث قال سبحانه فى كتابه العزيـــز : ﴿ **لِمَ تَلبِسُونَ الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون** ﴾ (١) .

ولقد فطن لبطلان هذا الادعاء كاتب غربى كبير هو توماس كـــارليل ، حيث قال فى كتابه " **الأبطال وعبادة البطولة** " ما ترجمته: " إن اتهامه ــ أى سيدنا محمد ﷺ ــ بالتعويل على السيف فى حمل النـــاس علـــى الاســـتجابة لدعوته سخف غير مفهوم ؛ إذ ليس مما يجوز فى الفهم أن يشهر رجل فـــرد سيفه ليقتل به الناس ، أو يستجيبوا له ، فإذا آمن به من يقدرون على حـــرب خصومهم ، فقد آمنوا به طائعين مصدقين ، وتعرضوا للحرب من غـــيرهم قبل أن يقدروا عليها " (٢) .

---

(١) آل عمران : ٧١ .

(٢) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٦٦ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ويقول المؤرخ الفرنسى غوستاف لوبون فى كتابه " حضارة العـــرب " وهو يتحدث عن سر انتشار الإسلام فى عهده ﷺ وفى عصور الفتوحات من بعده ــ : " قد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة ، ولم ينتشر الإســلام إذن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقتـــه الشـــعوب التى قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول ، وبلغ القرآن من الانتشار فـــى الهند ــ التى لم يكن العرب فيها غير عابرى سبيل ــ ما زاد عدد المســلمين إلى خمسين مليون نفس فيها .. ولم يكن الإسلام أقل انتشاراً فى الصين التـى لم يفتح العرب أى جزء منها قط ، وسترى فى فصل آخر ســـرعة الدعـــوة فيها ، ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليونا فى الوقت الحاضر " (١) .

هذا وقد مكث رسول الله ﷺ بمكة ثلاثة عشر عامـــاً ، يدعـــو إلـــى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد كان نتاج هذه المرحلة أن دخل فى الإســلام خيار المسلمين من الأشراف وغيرهم ، وكان الداخلون أغلبهم من الفقـــراء ، ولم يكن لدى رسول الله ﷺ ثروة عظيمة يغرى بها هؤلاء الداخلين ، ولـــم يكن إلا الدعوة ، والدعوة وحدها ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تحمَّـــل المسلمون ــ لاسيما الفقراء والعبيد ومن لا عصبية له منهم ــ من صنـــوف العذاب وألوان البلاء ما تعجز الجبال الرواسى عن تحمله ، فما صرفهم ذلـك عن دينهم وما تزعزعت عقيدتهم ، بل زادهم ذلـــك صلابـــة فـــى الحـــق ، وصمدوا صمود الأبطال مع قلتهم وفقرهم ، وما سمعنا أن أحداً منهم ارتـــدّ سخطاً عن دينه ، أو أغرته مغريـــات المشـــركين فـــى النكـــوص عنـــه ، وإنما كانوا كالذهب الإبريز لا تزيده النار إلا صفاء ونقاء ، وسنتكلم هنا على

---

(١) غوستاف لوبون حضارة العرب ص ١٢٨ ، ١٢٩ ط الهيئة المصرية للكتاب .

الجانبين التنظيرى والتطبيقى ، ونقصد بالتنظيرى ما ورد فى مصادر الإسلام (الكتاب والسنة) ، ونعنى بالتطبيقى ما حدث عبر القـــرون ابتـداء مـن الحروب التى شارك فيها النبى ﷺ ، وانتهاء بعصرنا الحاضر ، ثـم نختـم ببيان هذه النقاط الخمسة التى ذكرناها سابقاً .

أولاً : الجانب التنظيرى

ورد فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية آيات وأحـــاديث تبيـــن شـــأن الجهاد فى الإسلام ، ويرى المطالع لهذه الآيات والأحاديث ، أن المجاهد فـــى سبيل الله ، هو ذلك الفارس النبيل الأخلاقى المدرب على أخلاق الفروســـية العالية الراقية ؛ حتى يستطيع أن يمتثل إلى الأوامر والنواهى الربانية التـــى تأمره بضبط النفس قبل المعركة وأثناء المعركـــة وبعـــد المعركـــة ، فقبـــل المعركة يجب عليه أن يحرر نفسه من كل الأطماع ، وألا يخرج مقاتلا من أجل أى مصلحة شخصية ، سواء كانت تلك المصلحة من أجل نفسه أو مـــن أجل الطائفة التى ينتمى إليها ، أو من أجل أى عرضٍ دنيوى آخر ، وينبغـــى أن يتقيد بالشروط التى أحل الله فيها الجهاد ، وأن يجعـــل ذلـــك لوجـــه الله تعالى ، ومعنى هذا أنه سوف يلتزم بأوامر الله ، ويســـتعد لإنـــهاء الحـــرب فوراً ، إذا ما فقدت الحرب شرطاً من شروط حلها أو ســـــبباً مـــن أســـباب استمرارها ، وسواء أكان ذلك الفارس منتصراً ، أو أصابه الأذى من عدوه ، فإن الله يأمره بضبط النفس ، وعدم تركها للانتقام ، والتأكيد على الالـــــتزام بالمعانى العليا ، وكذلك الحال بعد القتال ، فإنه يجب عليه أن يجاهد نفســـــه الجهاد الأكبر ؛ حتى لا يتحول الفارس المجاهد إلى شخصٍ مؤذٍ لمجتمعـــه أو لجماعته أو للآخرين ، وبالرغم من أن لفظة الجـــهاد إذا أطلقـــت انصـــرف الذهن إلى معنى القتال فى سبيل الله . إلا أن الرسول ﷺ قد أسماه بالجـــــهاد الأصغر ، وسمى الجهاد المستمر بعد القتال بالجهاد الأكـــــبر ؛ لأن القتـــال يستمر ساعات أو أيام ، وما بعد القتال يستغرق عمر الإنسان كله .

وفيما يلى نورد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تحدثت عن هـذه القضية ، ثم بعد ذلك نســـتخرج منـــها الأهـــداف والشـــروط والضوابـــط والأساليب ، ونعرف منها متى تنتهى الحرب ، والآثار المترتبة على ذلك :

أولاً : القرآن الكريم :

(١) ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقـــاتلونكم ولا تعتـــدوا إن الله لا يحـــب المعتدين * واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقـــاتلوكم فيـــه فـــإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين﴾ [١] .

(٢) ﴿فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ [٢] .

(٣) ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خـــير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [٣] .

(٤) ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصـــد عـــن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنـــة أكبر من القتل ﴾ [٤] .

(٥) ﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾ [٥] .

(٦) ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحيـــاء عنـــد ربـــهم يرزقون ﴾ [٦] .

---

(١) البقرة : ١٩٠-١٩١ .

(٢) البقرة : ١٩٢، ١٩٣ .

(٣) البقرة : ٢١٦ .

(٤) البقرة : ٢١٧ .

(٥) آل عمران : ١٤٦ .

(٦) آل عمران : ١٦٩ .

(٧) ﴿ فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فـــى ســبيلى وقــاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ﴾ [١] .

(٨) ﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقــاتل فى سبيل الله فيُقتل أو يَغلِب فسوف نؤتيه أجرا عظيماً ﴾ [٢] .

(٩) ﴿ وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنســاء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنــا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾ [٣] .

(١٠) ﴿ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعـــل الله لكــم عليهم سبيلاً ﴾ [٤] .

(١١) ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكـــم وتــودون أن غــير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكــافرين * ليحق الحق ويبطل الباطل ولوكره المجرمون ﴾ [٥] .

(١٢) ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلـــهم ومـــا رميـــت إذ رميـــت ولكـــن الله رمى ﴾ [٦] .

(١٣) ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فـــإن الله بما يعملون بصير﴾ [٧] .

(١٤) ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصــدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط ﴾ [٨] .

---

(١) آل عمران : ١٩٥ .

(٢) ، (٣) النساء : ٧٤ ، ٧٥ .

(٤) النساء : ٩٠ .

(٥) الأنفال : ٧ــ٨ .

(٦) الأنفال : ١٧ .

(٧) الأنفال : ٣٩ .

(٨) الأنفال : ٤٧ .

(١٥) ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنـــه هــو الســميع العليم ﴾ [١] .

(١٦) ﴿ يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكـم خيرا يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾[٢] .

(١٧) ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفــور رحيم * وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كــلام الله ثــم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ [٣] .

(١٨) ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بـــأن لـــهم الجنـــة يقاتلون فى سبيل الله فَيَقتُلُون وَيُقتَلُون ﴾ [٤] .

(١٩) ﴿أُذِنَ للذين يُقَاتَلُون بأنهم ظُلِمُوا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أُخْرِجُوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا رَبُّنَا الله﴾ [٥].

ثانياً : الأحاديث النبوية الشريفة :

(١) عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : " تكفل الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه من بيته إلا جهاد فى سبيله وتصديق كلمتـــه بـــأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال مـــن أجـــر أو غنيمة " [٦] .

---

(١) الأنفال : ٦١ .

(٢) الأنفال : ٧٠ .

(٣) التوبة : ٥ــ٦ .

(٤) التوبة : ١١١ .

(٥) الحج : ٣٩-٤٠ .

(٦) رواه مسلم ــ كتاب الإمارة ــ باب فضل الجهاد والخروج فى سبيل الله .

(٢) عن وهب بن منبه ، قال : سألت جابراً عن شأن ثقيف إذ بايعت ، قال : اشترطت على النبى ﷺ أن لا صدقة عليها ولا جهاد ، وأنه سمع النبى ﷺ بعد ذلك يقول : " **سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا** " (١) .

(٣) عن سعد بن زيد بن سعد الأشهلى أنه أهدى إلى رسول ﷺ سيفاً من نجران فلما قدم عليه أعطاه محمد بن مسلمة ، وقال : " جاهد بهذا فى سبيل الله فإذا اختلفت أعناق الناس فاضرب به الحجر ، ثم ادخل بيتك وكن حلساً ملقى حتى تقتلك يد خاطئة أو تأتيك منية قاضية . قال الحاكم : فبهذه الأسباب وما جانسها كان اعتزال من اعتزل عن القتال مع على ــ رضى الله عنه ــ وقتال من قاتله " (٢) .

(٤) عن سعيد بن جبير قال : " خرج علينا أو إلينا ابن عمر فقال رجل كيف ترى فى قتال الفتنة فقال وهل تدرى ما الفتنة كان محمد ﷺ يقاتل المشركين وكان الدخول عليهم فتنة وليس كقتالكم على الملك " (٣) .

(٥) عن عبد الله بن عمرو ــ رضى الله عنهما ــ قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إنى أريد الجهاد فقال : " أحى والداك ؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد " (٤) .

ويتضح من هذه الآيات والأحاديث أن هدف الحرب فى الإسلام يتمثل فى الآتى :

(١) رد العدوان والدفاع عن النفس .

(٢) تأمين الدعوة إلى الله وإتاحة الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها .

---

(١) رواه أبو داود فى سننه ــ كتاب الخراج والإمارة والفئ ــ باب ما جاء فى خبر الطائف .

(٢) رواه الحاكم فى مستدركه ــ كتاب معرفة الصحابة رضى الله عنهم ــ ذكر إسلام أمير المؤمنين على ــ رضى الله عنه ــ .

(٣) رواه البخارى ــ كتاب التفسير ــ باب قول الله تعالى ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ .

(٤) مصنف عبد الرازق ــ كتاب الجهاد ــ باب الرجل يغزو وأبوه كاره .

(٣) المطالبة بالحقوق السليبة .

(٤) نصرة الحق والعدل .

ويتضح لنا أيضا أن من شروط وضوابط الحرب :

(١) النبل والوضوح فى الوسيلة والهدف .

(٢) لا قتال إلا مع المقاتلين ولا عدوان على المدنيين .

(٣) إذا جنحوا للسلم وانتهوا عن القتال فلا عدوان إلا على الظالمين .

(٤) المحافظة على الأسرى ومعاملتهم المعاملة الحسنة التى تليق بالإنسان .

(٥) المحافظة على البيئة ويدخل فى ذلك النهى عن قتل الحيوان لغير مصلحة وتحريق الأشجار ، وإفساد الزروع والثمار ، والمياه ، وتلويث الآبار ، وهدم البيوت .

(٦) المحافظة على الحرية الدينية لأصحاب الصوامع والرهبان وعدم التعرض لهم .

الآثار المترتبة على الجهاد

يتضح لنا مما سبق أن الجهاد فى الإسلام قد اتسم بنبل الغاية والوسيلة معا ، فلا غرو أن تكون الآثار والثمار المتولدة عن هذا الجهاد متناسقة تماما فى هذا السياق من النبل والوضوح ؛ لأن النتائج فرع عن المقدمات ، ونلخص هذه الآثار فى النقاط التالية :

(١) تربية النفس على الشهامة والنجدة والفروسية .

(٢) إزالة الطواغيت الجاثمة فوق صدور الناس ، وهو الشر الذى يؤدى إلى الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها .

(٣) إقرار العدل والحرية لجميع الناس مهما كانت عقائدهم .

(٤) تقديم القضايا العامة على المصلحة الشخصية .

(٥) تحقيق قوة ردع مناسبة لتأمين الناس فى أوطانهم .

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الحج :

﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ (١) .

قال الإمام القرطبى عند تفسيره لهذه الآية :

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ أى لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء ، لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما بينته أرباب الديانات من مواضع العبادات ، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة . فالجهاد أمر متقدم فى الأمم ، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبدات ؛ فكأنه قال : أذن فى القتال ، فليقاتل المؤمنون . ثم قوى هذا الأمر فى القتال بقوله : **﴿ ولولا دفع الله الناس ﴾** الآية ؛ أى لولا القتال والجهاد لتغلب على الحق فى كل أمة . فمن استشبع من النصارى والصابئين الجهاد فهو مناقض لمذهبه ؛ إذ لولا القتال لما بقى الدين الذى يذب عنه . وأيضاً هذه المواضع التى اتخذت قبل تحريفهم وتبديلهم وقبل نسخ تلك الملل بالإسلام إنما ذكرت لهذا المعنى ؛ أى لولا هذا الدفع لهُدمت فى زمن موسى الكنائس ، وفى زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفى زمن محمد ﷺ المساجد . " لهدمت " من هدمت البناء أى نقضته فانهدم . قال ابن عطية : هذا أصوب ما قيل فى تأويل الآية " (٢) .

---

(١) الحج : ٤٠ .

(٢) القرطبى ج ١٢ تفسير سورة الحج .

ثانياً : الناحية التطبيقية

(١) حروب النبى ﷺ :

(أ) الحرب ظاهرة اجتماعية :

الحرب ظاهرة إنسانية قديمة قدم الإنسان على ظهر هذه البسيطة ، فمنذ وُجد الإنسان وهو يصارع ويحارب ، وكعلاقة من العلاقات الاجتماعية الحتمية نشأت الحرب ، فالاحتكاك بين البشر لابد وأن يُولِّد صداماً من نوع ما ، لقد جبل الإنسان على غريزة التملك التى تدعوه إلى التشبث بما يملكه ، حيث إن هذه الغريزة هى التى تحفظ عليه البقاء فى الحياة ، وهى بالتالى التى تتولد عنها غريزة المقاتلة ، فى أبسطَ صورها دفاعاً عن حقه فى الاستمرار والحياة ، وقد تتعقد نفسية الإنسان وتصبح حاجاته ومتطلباته مركبة ، فلا يقاتل طالباً للقوت أو دفاعاً عنه فقط ، وإنما يقاتل طلباً للحرية ورفعاً للظلم واستردادا للكرامة . ويُفَصِّل العلامة ابن خلدون هذه الحقيقة فى مقدمته فيقول : " اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة فى الخليقة منذ برأها الله ، وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصبيته ، فإذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان ؛ إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع ، كانت الحرب وهو أمر طبيعى فى البشر ، إما غيرة ومنافسة وإما عدوان وإما غضب لله ولدينه ، وإما غضب للملك وسعى فى تمهيده " (١) .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢٢٦/١ فصل فى الحروب ومذاهب الأمم فى ترتيبها .

(ب) الحرب فى الكتب المقدسة قبل الإسلام :

إذا ما تجاوزنا الأمم والحضارات البشرية ، وتأملنا فى الكتب السماوية المقدسة (التوراة ــ الإنجيل) ، نرى أن هذه الكتب المقدسة قد تجاوزت الأسباب المادية الغريزية التى يقاتل الإنسان من أجلها إلى أسباب أكثر رُقِيًّا وحضارة ، فبعد أن كان الإنسان يقاتل رغبة فى امتلاك الطعام أو الأرض ، أو رغبة فى الثأر الشخصى من الآخرين ، أو حتى ردا للعدوان ، نرى أن الكتب المقدسة قد أضافت أسباباً أخرى ، أسباباً إلهية تسمو بالبشرية عن الدنايا وظلم الآخرين ، إلى بذل النفس إقامة للعدل ، ونصرة للمظلوم ، ومحاربة للكفر والخروج عن منهج الله ، لقد حددت الكتب السماوية المناهج والأطر التى يُسْمَح فيها بإقامة القتال وعبرت بالإنسان مرحلة بناء المجد الشخصى المؤسس على الأنا ، إلى مرحلة التضحية من أجل المبادئ والمثل الإلهية العليا ، التى تعمل فى إطار الجماعة البشرية لا فى محيط الفرد الواحد .

الحرب فى العهد القديم :

وردت أسباب الحرب فى ست وثلاثين آية تقع فى ثمانية أسفار من أسفار العهد القديم هى : (التكوين ــ العدد ــ التثنية ــ يوشع ــ القضاة ــ صموئيل الأول ــ الملوك الثانى ــ حزقيال) .

(١) **ففى سفر العدد ــ الأصحاح الثالث عشر** ، ورد ما يفيد أن موسى ــ عليه السلام ــ بعد خروجه بقومه من مصر بعث رسلا يتحسسون أمر أرض كنعان ــ فلسطين ــ ليستقروا فيها :

" فساروا حتى أتوا موسى وهارون وكل جماعة بنى إســـرائيل إلـــى برية فاران إلى قادش ، وردوا إليهما خبرًا وإلى كل الجماعـــة ، وأروهـــم ثمر الأرض وأخبروه ، وقالوا : قد ذهبنا إلى الأرض التى أرسلتنا إليها وحقا إنها تفيض لبناً وعسلاً وهذا ثمرها غير أن الشعب الساكن فى الأرض معـتز والمدن حصينة عظيمة جداً وأيضا قد رأينا بنى عناق هناك " (١) .

(٢) وجاء فى سفر صموئيل الأول ــ الإصحاح الخامس والعشرون :

" فأجاب نابال عبيد داود وقال : من هو داود ومن هو ابن يسى قـــد كـــثر اليوم العبيد الذين يقحصون كل واحد من أمام سيده ، آآخذ خـــبزى ومـــائى وذبيحى الذى ذبحت لجارى وأعطيه لقوم لا أعلم من أين هم ؟ فتحول غلمان داود إلى طريقهم ورجعوا وجاءوا وأخبروه حسب كل هذا الكلام ، فقال داود لرجاله : ليتقلد كل واحد منكم سيفه وتقلد داود سيفه وصعد وراء داود نحـــو أربعمائة رجل ومكث مائتان مع الأمتعة " (٢) .

(٣) وفى سفر الملوك الثانى ــ الإصحاح الثالث :

" وكان ميشع ملك موآب الثانى صاحب مواش ، فأدى لملك إسرائيل مائـــة ألف خروف ومائة ألف كبش بصوفها ، وعند موت آخاب عصى ملك موآب على ملك إسرائيل وخرج الملك يهورام فى ذلك اليوم من السامرة وعد كـــل إسرائيل وذهب وأرسل إلى يهو شافاط ملك يهوذا يقول : قد عصى على ملك موآب ، فهل تذهب معى إلى موآب للحرب ؟ " (٣) .

---

(١) سفر العدد ــ الإصحاح الثالث عشر ــ الآيات : ٢٦-٢٩ .

(٢) سفر صموئيل الأول ــ الإصحاح الخامس والعشرون آية ١٠-١٤ .

(٣) سفر الملوك الثانى ــ الإصحاح الثالث ، الآيات ٤ ــ ٨ .

(٤) جاء فى حزقيال الإصحاح الواحد والعشرون :

" وكان إلى كلام الرب قائلا : يا ابن آدم اجعل وجهك نحو أورشليم وتكلـــم على المقادس وتنبأ على أرض إسرائيل وقل لأرض إسرائيل هكذا قال الرب هأنذا عليك وأستل سيفى من غمده فأقطع منه الصديق والشرير من حيث إنى أقطع منك الصديق والشرير فلذلك يخرج سيفى من غمده على كل بشر مـــن الجنوب إلى الشمال فيعلم كل بشر أنى أنا الرب سللت ســـيفى مـــن غمـــده لا يرجع أيضاً " (١) .

(٥) وجاء فى سفر يوشع الإصحاح الثالث والعشرون :

" وأنتم قد رأيتم كل ما عمل الرب إلهكم هو المحارب عنكم انظـــروا : قـــد قسمت لكم بالقرعة هؤلاء الشعوب الباقين ملكاً حسب أسباطكم مـــن الأردن وجميع الشعوب التى قرضتها والبحر العظيم نحو غروب الشـــمس والـــرب إلهكم هو ينفيهم من أمامكم ويطردهم من قدامكم فتملكون أرضهم كما كلمكـــم الرب إلهكم " (٢) .

(٦) وجاء فى سفر القضاة الإصحاح الأول :

" وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوا بحد السيف وأشعلوا المدينـــة بالنار وبعد ذلك نزل بنو يهوذا لمحاربة الكنعانيين ســـكان الجبـــل وســـكان الجنوب والسهل " .

(٧) وفى سفر القضاة الإصحاح الثامن عشر :

" فأما هم فقد أخذوا ما صنع ميخاً والكاهن الذى له وجاءوا إلى لايش إلـــى شعب مستريح مطمئن فضربوهم بحد السيف وأحرقوا المدينة بالنار ولم يكن مَنْ ينقذ لأنها بعيدة عن صيدون ولم يكن لهم أمر مع إنسان وهى فى الوادى

---

(١) سفر حزقيال ــ أصحاح ٢١ آيات ١ ــ٥ .

(٢) سفر يوشع ــ الإصحاح الثالث والعشرون ــ الآيات ٣ــ٥ .

الذى لبيت رحوب فبنوا المدينة وسكنوا بها ودعوا اسم المدينة دان باسم دان أبيهم الذى ولد لإسرائيل ولكن اسم المدينة أولا: لايش " [1] .

(٨) وفى صموئيل الأول الإصحاح الرابع :

" وخرج إسرائيل للقاء الفلسطينيين للحرب ونزلوا عند حجر المعونة ، وأما الفلسطينيون فنزلوا فى أفيق واصطف الفلسطينيون للقاء إسرائيل واشتبكت الحرب فانكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين وضربوا من الصف فى الحقل نحو أربعة آلاف رجل " [2] .

(٩) وفى التكوين الإصحاح الرابع والثلاثون :

" فحدث فى اليوم الثالث إذ كانوا متوجعين أن ابنى يعقوب شمعون ولاوى أخوى دينة أخذ كل واحد منهما سيفه وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف لأنهم بخسوا أختهم ، غنمهم وبقرهم وكل ما فى المدينة وما فى الحقل أخذوه وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما فى البيوت " [3] .

(١٠) وفى سفر التكوين الإصحاح الرابع عشر :

" فلما سمع إبرام أن أخاه سبى جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاثمائة وثمانية عشر وتبعهم إلى دان وانقسم عليهم ليلا هو وعبيده فكسرهم وتبعهم إلى حوبة التى من شمال دمشق واسترجع كل الأملاك واسترجع لوطا أخاه أيضا وأملاكه والنساء أيضا والشعب " [4] .

---

(١) سفر القضاة ــ الإصحاح الثامن عشر ــ الآيات ٢٧ــ٣٠ .

(٢) سفر صموئيل الأول ــ الإصحاح الرابع ، الآيات ١ــ٤ .

(٣) سفر التكوين ــ الإصحاح الرابع والثلاثون ــ الآيات ٢٥ــ٢٩ .

(٤) سفر التكوين ــ الإصحاح الرابع عشر ــ الآيات ١٤ ــ ١٦ .

(١١) وفى سفر العدد الإصحاح الواحد والعشرون :

" فقال الرب لموسى لا تخف منه لأنى قد دفعته إلى يدك مع جميـــع قومــه وأرضه فتفعل به كما فعلت بسيحون ملك الأموريين الساكن فـــى حبشــون فضربوه وبنيه وجميع قومه حتى لم يبق لهم شارد وملكوا أرضه " (١)

(١٢) وفى سفر العدد الإصحاح الخامس والعشرون :

" ثم كلم الرب موسى قائلا ضايقوا المديانيين واضربوهم لأنـــهم ضــايقوكم بمكايدهم التى كادوكم بها " (٢) .

(١٣) وفى سفر العدد الإصحاح الثالث والثلاثون :

تطالعنا التوراة ، أن الله قد أمر موسى ــ عليه السلام ــ أن يشن حربا علــى أقوام قد عبدوا غير الله ــ سبحانه وتعالى ــ : " وكلم الــرب موســى فــى عربات مو آب على أردن أريحا قائلا : " كلم بنى إسرائيل وقل لهم : إنكـــم عابرون الأردن إلى أرض كنعان فتطردون كل سكان الأرض من أمـــامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة وتخربون جميـــع مرتفعاتهم " (٣) .

(١٤) وشبيه به ما ورد فى سفر صموئيل الإصحاح السابع عشر آية ٤٥ : ٤٧

" فقال داود للفلسطينى : أنت تأتى إلى بسيف وبرمح وبترس ، وأنا آتى إليك باسم رب الجنود إله صفوف إسرائيل الذين عيرتهم ... فتعلم كــل الأرض أنه يوجد إله لإسرائيل " (٤) .

---

(١) سفر العدد ــ الإصحاح الواحد والعشرون الآيتان ٣٤ــ٣٥ .

(٢) سفر العدد ــ الإصحاح الخامس والعشرون الآية ١٦ .

(٣) الإصحاح الثالث والثلاثون الآيات ٥٠ــ٥٣ .

(٤) سفر صموئيل ــ الإصحاح السابع عشر الآيات ٤٥ــ٤٧.

(١٥) وفى سفر صموئيل الأول الإصحاح الثالث والعشرون :

" فذهب داود ورجاله إلى قعيلة وحارب الفلسطينيين وساق مواشيهم وضربهم ضربة عظيمة وخلص داود سكان قعيلة " (١) .

(١٦) فى سفر المزامير المزمور الثامن عشر :

يسبح داود الرب ويمجده لأنه يعطيه القوة على محاربة أعدائه : " الذى يعلم يدى القتال فتحنى بذراعى قوس من نحاس .. أتبع أعدائى فأدركهم ولا أرجع حتى أفنيهم أسحقهم فلا يستطيعون القيام ، يسقطون تحت رجلى تمنطقنى بقوة للقتال تصرع تحتى القائمين على وتعطينى أقفية أعدائى ومبغضى أفنيهم " (٢) .

هذه بعض من حروب بنى إسرائيل التى سجلتها نصوص كتبهم وأسفارهم ، فمفهوم الحرب والقتال ، ليس مفهوما كريها من وجهة النظر التوراتية ، وكأنها حروب مستمدة من الشريعة الدينية التوراتية ، وهى كانت دائما تتم بمباركة الرب ومعونته وكأن الربّ ــ حسب تعبير التوراة ــ قد استل سيفه من غمده فلا يرجع (٣) .

الحرب فى العهد الجديد :

كذلك نرى الإنجيل لم يهمل الكلام عن الحروب بالكلية ، بل جاء نص واضح صريح ، لا يحتمل التأويل ولا التحريف يقرر أن المسيحية على الرغم من وداعتها وسماحتها التى تمثلت فى النص الشهير " من ضربك على

---

(١) سفر صموئيل الأول ــ الإصحاح الثالث والعشرون الآية ٦ .

(٢) سفر المزامير ــ المزمور الثامن عشر الآيات ٣٥-٤١ .

(٣) سفر حزقيال الإصحاح الواحد والعشرون آية ٥ .

خدك الأيمن فأدر له الأيسر " ــ إلا أنها تشير إلى أن السيد المسيح ــ عليه السلام ــ قد يحمل السيف ويخوض غمار القتال إذا دعته الظروف لذلك ؛ فجاء فى الإنجيل على لسان السيد المسيح :

" لا تظنوا أنى جئت لأرسى سلاما على الأرض ، ما جئت لأرسى سلاما ، بل سيفا ، فإنى جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه ، والبنت مع أمها والكنة مع حماتها وهكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته " (١)

ولعلنا نلاحظ التشابه الكبير بين هذه المقولة وحديث الرسول ﷺ:

[بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده] (٢)

مما سبق يتبين لنا واضحا وجليا أن الحرب والقتال سنة كونية سرت فى الأمم جميعا، ولم نر فى تاريخ الأمم أمة خلت من حروب وقتال ، ورأينا من استعراض الكتب المقدسة ــ التوراة والإنجيل ــ أنه سنة شرعية لم تخل شريعة من الشرائع السماوية السابقة على الإسلام من تقريره والقيام به كما مر .

لقد كان هذا القدر كافيا فى إثبات أن محمدا ﷺ سائر على سنن من سبقه من الأنبياء ، وأن الجهاد لتقرير الحق والعدل مما يمدح به الإسلام ؛ لا مما به يشان ، وأن ما هو جواب لهم فى تبرير هذه الحروب وسفك الدماء كان جوابا لنا فى مشروعية ما قام به النبى ﷺ من القتال والجهاد .

ولنشرع الآن فى تتميم بقية جوانب البحث مما يزيل الشبهة ويقيم الحجة ويقطع الطريق على المشككين ، فنتكلم عن غزوات النبى ﷺ ، ممهدين لذلك بالحالة التى كانت عليها الجزيرة العربية من حروب وقتال وسفك للدماء لأتفه الأسباب وأقلها شأنا ، حتى يبدو للناظر أن القتال كان غريزة متأصلة فى نفوس هؤلاء لا تحتاج إلى قوة إقناع أو استنفار

---

(١) إنجيل متى ــ الإصحاح العاشر آية ٣٤-٣٦

(٢) رواه أحمد وأبو داود .

الحرب عند العرب قبل الإسلام

سجلت كتب التاريخ والأدب العربى ما اشتهر وعرف بأيـــام العـــرب ، وهى عبارة عن مجموعة من الملاحم القتالية التى نشبت بين العـــرب قبـــل مبعث النبى ﷺ ، وليس يعنينا سرد هذه الملاحم وتفاصيلها ولكن الذى يعنينـــا هنا أن نقف على بعض الجوانب التى تصلح للمقارنة (الأسباب ــ الزمـــن المستغرق ــ الآثار التى خلفتها هذه الحروب) .

قال العلامة محمد أمين البغدادى : " اعلم أن الحـــروب الواقعـــة بيـــن العرب فى الجاهلية أكثر من أن تحصر ، ومنها عدة وقائع مشهورة لا يتسـع هذا الموضع لذكرها ولنذكر بعضاً منها على سبيل الإجمال " (١) .

وقد ذكرت كتب التواريخ أياماً كثيرة للعرب (البســـوس ــ وداحـــس والغبراء ــ يوم النسار ــ يوم الجفار ــ يوم الفجار ــ يوم ذى قار ــ يـــوم شعب جبلة ــ يوم رحرحان ... إلخ) والمتأمل فى هذه الملاحـــم والأيـــام يرى أن الحماسة الشديدة والعصبية العمياء وعدم الاكتراث بعواقب الأمـــور والشجاعة المتهورة التى لا تتسم بالعقل ، كانت هى الوقود المحـــرك لـــهذه الحروب ، هذا فضلاً عن تفاهة الأسباب التى قامت من أجلها هذه المجازر ، والمدة الزمنية الطويلة التى استمرت فى بعضها عشرات السنين ، والآثـــار الرهيبة التى خلفتها هذه الحروب ، وعلى الرغم من أننا لم نقف على إحصاء دقيق لما خلفته هذه الحروب إلا أن الكلمات التى قيلت فى وصف آثارها مـن الفناء والخراب وتيتم الأطفال وترمل النساء ... إلخ لتوقفنا علـــى مـــدى ما أحدثته الحرب فى نفوس الناس من اليأس والشؤم ، ويصف لنا الشـــاعر

---

(١) سبائك الذهب ٤٤٣ .

زهير بن أبى سلمى طرفاً من ذلك فى معلقتـــه المشـــهورة وهـــو يخـــاطب الساعين للسلام بين عبس وذبيان :

تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

فهو يقول للساعين للسلام : إنكما بتحملكما ديات الحرب من مالكمـــا ، أنقذتما عبسا وذبيان بعدما يأسوا ، ودقوا بينهما عطر منشم ، ومنشم هو اسم لامرأة كانت تبيع العطر يضرب بها المثل فى التشاؤم ، دليل علـــى عظـــم اليأس الذى أصاب نفوس الناس من انتهاء هذه الحرب (١) .

هذه إطلالة سريعة ومختصرة على الحروب وأسبابها لدى العرب قبـــل الإسلام والآن نشرع فى الكلام على تشريع الجهاد فى الإسلام ثم نتبع ذلـــك بتحليل موثق لغزوات النبى ﷺ .

الجهاد فى شرعة الإسلام :

لما استقر النبى ﷺ بالمدينة وأسس حكومته النبوية بها ، بعد ثلاثة عشـر عاما من الدعوة إلى الله وتحمل الأذى والعذاب فى سبيل ذلك تخللتها ثـــلاث هجرات جماعية كبيرة ــ هاجت ثائرة قريش وحقدوا على رسول الله ﷺ لما أحرزه من استقرار ونجاح لهذه الدولة الوليـــدة ــ دون ظلـــم أو اســـتبداد أو سفك للدماء ــ ولذلك فقد كان ﷺ مقصوداً بالقتل ، إذ ليس معقولاً أن تتـــلم أعينهم على هذا التقدم والنمو ، ومصالحهم قائمة على الزعامة الدينية فـــى جزيرة العرب ، وهذه الدولة الجديدة قائمة على أساس دينى ربما يكون ســبباً فى زوال هذه الزعامة الدينية الوثنية الموروثة . وإذا كان الإسلام ديناً بلغـت الميول السلمية فيه مداها فى قوله تعالى : ﴿ **فاصفح عنهم وقل ســـلام** ﴾ (٢) إلا أن الميول السلمية لا تتسع لمنـــع القـــائمين بـــهذا الديـــن الجديـــد مـــن

---

(١) شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ٨٣ ، ط مصطفى الحلبى .

(٢) الزخرف : ٨٩ .

الدفاع عن أنفسهم وعن دينهم الذى أنزله الله للإنسانية كافة ، فى عالم يضيع فيه الحق والعدل إن لم يكن لهما قوة تحميهما، فكان لا مناص من السماح للمسلمين بحماية أنفسهم ودينهم بالسلاح الذى يشهره خصومهم فى وجوههم ، ولذلك كان التعبير بقوله تعالى :﴿ **أُذِنَ للذين يُقَاتَلُونَ بأنهم ظُلِمُوا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز** ﴾ (١) .

أقول : كان التعبير بالإذن الذى يدل على المنع قبل نزول الآية يدل على طروء القتال فى الإسلام وأنه ظل ممنوعاً طيلة العهد المكى وبعضاً من العهد المدنى .

" هذا ولم يغفل الإسلام حتى فى هذا الموطن ــ موطن الدفاع عن النفس والدين ــ أن ينصح لأتباعه بعدم العدوان ؛ لأن الموضوع حماية حق لا موضوع انتقام ولا شفاء حزازات الصدور ، وهذا من مميزات الحكومة النبوية ، فإن القائم عليها من نبى يكون كالجراح يضع مشرطه حيث يوجد الداء لاستئصاله ، مع عدم المساس بالأعضاء السليمة ، ومقصده استبقاء حياة المريض لا قتله ، والعالم كله فى نظر الحكومة النبوية شخص مريض تعمل لاستدامة وجوده سليماً قوياً .. إن طبيعة هذا العالم مبنية على التدافع والتغالب ليس فيما بين الناس فحسب ، ولكن فيما بينهم وبين الوجود المحيط بهم ، وبين كل فرد والعوامل المتسلطة عليه من نفسه ، ولا أظن أن قارئاً من قرائنا يجهل الناموس الذى اكتشفه دارون وروسل ولاس ودعوه ناموس

---

(١) الحج : ٣٩-٤٠ .

تنازع البقاء وبنوا عليه كل تطور أصاب الأنواع النباتية والحيوانية والإنسان أيضاً " (١) .

" ألم تر كيف تصدى خصوم الدين النصرانى للمسيح ، وما كان يدعو إلا للصلاح والسلام حتى إنهم استصدروا أمراً بصلبه فنجاه الله منهم ، وما زالوا بالذين اتبعوه يضطهدونهم ويقتلونهم حتى مضت ثلاثة قرون وهم مشردون فى الأرض لا تجمعهم جامعة ، إلى أن حماهم من أعدائهم السيف على يد الإمبراطور قسطنطين الذى أعمل السيف فى الوثنيين من أعدائهم .. أفيريد مثيرو هذه الشبهة أن يقوم دين على غير السنن الطبيعية فى عالم مبنى على سنن التدافع والتنازع واستخدام القوة الحيوانية لطمس معالم الحق ودك صروح العدل " ؟

" يقول المعترضون : وماذا أعددتم من حجة حين تجمع الأمم على إبطال الحروب وحسم منازعاتها عن طريق التحكيم ، وهذا قرآنكم يدعوكم إلى الجهاد وحثكم على الاستبسال فيه ؟

نقول : أعددنا لهذا العهد قوله تعالى : ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم** ﴾ " (٢) .

" هذه حكمة بالغة من القرآن ، بل هذه معجزة من معجزاته الخالدة ، وهى أدل دليل على أنه لم يشرع الحرب لذاتها ، ولكن لأنها من عوامل الاجتماع التى لابد منها ما دام الإنسان فى عقليته ونفسيته المأثورتين عنه ، غير أنه لم ينف أن يحدث تطور عالمى يتفق فيه على إبطال الحرب فصرح

---

(١) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة لمحمد فريد وجدى ص ١٦٤ ، ١٦٣ بتصرف .

(٢) الأنفال : ٦١ .

بهذا الحكم قبل حدوثه ليكون حُجة لأهله من ناحية ، وليدل على أنه لا يريد الحرب لذاتها من ناحية أخرى ، ولو كان يريدها لذاتها لما نوه لهذا الحكم " [1] .

ثانياً : نظرة تحليلية لغزوات النبى ﷺ :

إذا تتبعنا هذه الغزوات وقسمناها حسب الطوائف التى ضمتها ، أمكننا التعرف على القبائل التى حدثت معها هذه المعارك وهى كالآتى :

(١) قريش مكة :

وهى القبيلة التى ينتمى إليها النبى ﷺ ، حيث أن قريش هو فهر بن مالك ، وقيل النضر بن كنانة ، وعلى كلا القولين فقريش جد للنبى ﷺ ، وكانت معهم الغزوات : سيف البحر ــ الرابغ ــ ضرار ــ بواط ــ سفوان ــ ذو العشيرة ــ السويق ــ ذو قردة ــ أحد ــ حمراء الأسد ــ بدر الآخرة ــ الأحزاب ــ سوية العيص ــ سرية عمرو بن أمية ــ الحديبية ــ سيف البحر الثانية ٨هـ ــ فتح مكة .

(٢) قبيلة بنو غطفان وأنمار :

غطفان من مضر ، قال السويدى : " بنو غطفان بطن من قيس ابن عيلان بن مضر ، قال فى العبر : وهم بطن متسع كثير الشعوب والبطون " [2] ، قال ابن حجر فى فتح البارى : " تميم وأسد وغطفان وهوازن جميعهم من مضر بالاتفاق " [3] ، أما أنمار فهم يشتركون فى نفس

---

(١) السيرة النبوية لمحمد فريد وجدى ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٢) سبائك الذهب ص ١٢٠ ط دار الكتب العلمية ، موسوعة القبائل العربية لمحمد سليمان الطيب ٥١/١ دار الفكر العربى .

(٣) فتح البارى ٥٤٣/٦ دار المعرفة ــ بيروت .

النسب مع غطفان ، قال ابن حجر : " وسيأتى بعد باب أن أنمار فى قبـــائل منهم بطن من غطفان " [١] ، أى أن أنمار ينتسبون إلى مضر أيضاً ونسـبهم كالتالى : أنمار بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بـــن مضر [٢] .

والغزوات التى ضمتها هى : قرقرة الكدر ــ ذى أمر ــ دومة الجنـــدل ــ بنى المصطلق ــ الغابة ــ وادى القرى ــ سرية كرز بن جـــابر ــ ذات الرقاع ــ تربة ــ الميفعة ــ الخربة ــ سرية أبى قتـــادة ــ عبـد الله بـــن حذافة [٣] .

(٣) بنو سليم :

قال السويدى : " بضم السين المهملة قبيلة عظيمة مـــن قيـــس عيـــلان والنسبة إليهم سلمى ، وسليم من أولاد خصفة بن قيـــس بـــن عيـــلان بـــن مضر [٤] ، والغزوات التى خاضها ﷺ مع بنى سليم هى : بـــئر معونـــة ــ جموم ــ سرية أبى العوجاء ــ غزوة بنى ملوح وبنى سليم [٥] .

(٤) بنو ثعلبة :

ثعلبة هو ابن سعد بن ضبة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضـــر [٦] ، نسبه الدكتور على الجندى إلى مر بن أد هكذا : ثعلبة بن مـــر بـــن أد بـــن طابخة بن إلياس بن مضر [٧] ، والغزوات التى غزاها ﷺ معهم هى : غزوة ذى القصة ــ غزوة بنى ثعلبة ــ غزوة طرف ــ سرية الحسمى [٨] .

---

(١) فتح البارى ٤٢٤/٧ .

(٢) تاريخ الأدب الجاهلى د . على الجندى ٤٧٢ .

(٣) رحمة للعالمين للمنصور فورى ص ٤٦٢ .

(٤) فى تاريخ الأدب الجاهلى ٤٧٣ .

(٥) رحمة للعالمين للمنصور فورى ص ٤٦٢ .

(٦) سبائك الذهب ٨ .

(٧) تاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٧٠ .

(٨) رحمة للعالمين المنصور فوزى ص ٤٦٢ .

(٥) بنو فزارة وعذرة :

قال فى سبائك الذهب : " بنو فزارة بطن من ذبيان من غطفان ، قال فى العبر : وكانت منازل فزارة بنجد ووادى القرى ، ونسب فزارة : فزارة بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر .

أما بنو عذرة : بنوه بطن من قضاعة ، ونسبهم هكذا : عذرة بن سعد بن جهينة بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافى بن قضاعة [١] . ونسبهم إلى قضاعة أيضاً الدكتور على الجندى معتمداً على أنساب ابن حزم هكذا : عذرة بن سعد بن أسلم بن عمران بن الحافى بن قضاعة [٢] ، وعلى هذا فبنو عذرة ليسو من مضر وإنما كانوا موالين لبنى فزارة وهم من مضر . وكان معهما الغزوات والسرايا الآتية :

سرية أبى بكر الصديق ــ سرية فدك ــ سرية بشير بن سعد ــ غزوة ذات أطلح [٣] .

(٦) بنو كلاب وبنو مرة :

أما بنو كلاب فهم : بنو كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، وبنو مرة هم أبناء كعب بن لؤى فيكون كلاب بطن من مرة ، وهذه نفس سلسلة النسب التى ذكرها الدكتور على الجندى معتمداً على أنساب ابن حزم [٤] ، والغزوات التى كانت معهم : غزوة قريظة ــ غزوة بنى كلاب ــ غزوة بنى مرة ــ سرية ضحاك [٥] .

---

(١) سبائك الذهب ٨٧ .

(٢) تاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٦٦ .

(٣) رحمة للعالمين للمنصور فورى ص ٤٦٣ .

(٤) سبائك الذهب ٢٩٥ ، تاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٦٧ .

(٥) رحمة للعالمين ص ٤٦٣ .

(٧) عضل والقارة :

قال فى سبائك الذهب : "عضل بطن من بنى الهون من مضر" ، ونسبهم هكذا : عضل بن الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضـــر ، وأمـــا القارة فلم يذكرها السويدى فى السبائك ولا الدكتور الجندى ، إلا أن الأســـتاذ الشيخ محمد الخضرى نسبها إلى خزيمة بن مدركة ، وذكر الفـــارة بالفـــاء الموحدة لا بالقاف المثناة [١] وقد غزاهم النبى ﷺ غزوة واحدة هـــى غـــزوة الرجيع [٢] .

(٨) بنو أسد :

قال السويدى : " بنو أسد حى من بنى خزيمة ، ونسبهم هكذا : أسد بـــن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر [٣] ، والغزوات التى غزاهم رسول الله ﷺ هى : سرية قطن ــ سرية عمر مرزوق ــ غزوة ذات السلاسل [٤] .

(٩) بنو ذكوان :

قال السويدى : " بنو ذكوان بطن من بهتة من سليم ، وهم مـــن الذيـــن مكث النبى ﷺ شهراً يقنت فى الصلاة يدعو عليهم وعلى رعل [٥] ونســـبهم هكذا : ذكوان بن بهتة بن سليم بن منصور بن عكرمة خصفـــة بـــن قيـــس عيلان بن مضر [٦] ، ولم يغزهم رسول الله ﷺ إلا غزوة واحدة هى غـــزوة بئر معونة .

---

١) تاريخ الدولة الأموية للشيخ محمد الخضرى ص ١٥٦ .
٢) رحمة للعالمين ص ٤٦٣ .
٣) سبائك الذهب ص ٢٥٦ ، تاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٦٧ .
٤) رحمة للعالمين ص ٤٦٣ .
٥) سبائك الذهب ص ١٢٧ .
٦) سبائك الذهب ص ١٢٦ .

(١٠) بنو لحيان :

من المعروف أن بنى لحيان من هذيل ، وهذيل هو : ابـــن مدركـــة بـــن مضر[١]، وغزاهم النبى ﷺ غزوة واحدة هى:غزوة بنى لحيان [٢].

(١١) بنو سعد بن بكر :

نسبهم : سعد بن بكر بن هوازن بن سليم بن منصور بن عكرمة ابـــن خصفة بن قيس عيلان بن مضر [٣] ، وقد أرسل لهم النبى ﷺ سرية واحـدة هى سرية فدك .

(١٢) بنو هوازن :

بنو هوازن بطن من قيس عيلان ، ونسبهم هكذا : هوازن بن سليم بـــن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر [٤]، وقد غزاهـم ﷺ غزوة ذات عرق .

(١٣) بنو تميم :

بنو بطن من طابخة ، قال فى العبر : " وكانت منازلهم بـــأرض نجـد دائرة من هنالك على البصرة واليمن ، ونسبهم هكذا : تميم بن مر بن أد بـن طابخة بن إلياس بن مضر " [٥] .

---

(١) تاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٦٧ .

(٢) رحمة للعالمين ص ٤٦٣ .

(٣) سبائك الذهب ص ١٤٨ ، تاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٧٣ .

(٤) سبائك الذهب ص ١٢٤ ، وتاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٧٣ .

(٥) سبائك الذهب ص ٨٥ ، ٨٦ ، تاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٧٠ .

(١٤) بنو ثقيف :

بنو ثقيف بطن من هوازن اشتهروا باسم أبيهم ثقيف ، ونسبهم : ثقيف بن منبه بن بكر بن بهتة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر [1] ، وقد غزاهم النبى ﷺ غزوتين هما : غزوة حنين ـ غزوة الطائف .

* * *

ونستطيع من خلال هذا التتبع أن نقول : إن هذه القبائل كانت جميعها تنتسب إلى مضر وهو جد النبى ﷺ أو من والاهم ، وبالمعنى الأدق كانت نتيجة غضب إخوته من أجداده ، أما اليهود فقد كانوا مع قريش حسب معاهدتهم معهم ، وبذلك ظهر جلياً أن الغزوات والسرايا التى خاضها أو أرسلها النبى ﷺ ، كانت موجهة فى نطاق ضيق هو نسل مضر ، فلا يمكن أن يقال حينئذ : أن النبى ﷺ قد أشعل نار الحرب ضد العرب جميعاً ، أو أنه خاض الحروب لإكراه الناس على اعتناق الإسلام ، ولو كان الأمر كما يقولون لوقعت حرب عدوانية أو دفاعية ضد أى قبيلة من مئات القبائل العربية ، وهذه الحقيقة تحتاج إلى مزيد من التعمق والتحليل فى بعض خصائص القبائل العربية ؛ إذ قد يقول قائل أو يعترض معترض : إن هذا الذى توصلنا إليه بالبحث ـ ألا وهو انحصار القتال مع المضريين ـ لم يحدث إلا اتفاقاً ، والأمور الاتفاقية لا تدل على شىء ولا يستخرج منها قانون كلى نحكم به على جهاد النبى ﷺ ، إذ كان من الممكن أن يقاتل النبى ﷺ ربيعة بدلاً من مضر ، أو يقاتل ربيعة ومضر معاً ، أو يقاتل القحطانية بدلاً من العدنانية أو يقاتلهما معاً ، وهكذا .

---

(١) سبائك الذهب رقم ١٤٧ ، ١٤٨ ، تاريخ الأدب الجاهلى ص ٤٧٣ .

ذلك المتوقع أن تزيد الألفة والمودة بين أفراد وقبائل الجد الواحـــد لا أن تشتعل نار الحرب والقتال بينهم ، فما الذى عكس هذا التوقع وقلـــب الأمـــر رأساً على عقب ؟!

وللإجابة على هذه الشبهة نقول :

كان من أشهر الأمثلة العربية المثل المشهور " **انصر أخـــاك ظالمـــاً أو مظلوماً** " وقد كان العرب يطبقون هذا المثل تطبيقـــاً حرفيـــاً ــ دون هـــذا التعديل الذى أضافه الإسلام عليه ــ فكانوا ينصرون إخوانهم وبنى أعمامـــهم نصراً حقيقياً على كل حال فى صوابهم وخطئهم وعدلـــهم وظلمـــهم ، وإذا دخلت قبيلتان منهم فى حلف كان لكل فرد من أفراد القبيلتين النصرة علـــى أفراد القبيلة الأخرى ، وهذا الحلف قد يعقده الأفراد وقد يعقده رؤساء القبـــائل والأمر واحد فى الحالين .

بينما هم كذلك فى بنى أبيهم وفى حلفائهم ، إذ بك تراهم حينما تتشـــعب البطون قد نافس بعضهم بعضاً فى الشرف والثروة ، فنجـــد القبـــائل التـــى يجمعها أب واحد كل واحدة قد وقفت لأختها بالمرصاد تنتهز الفرصة للغـض منها والاستيلاء على موارد رزقها ، وترى العداء قد بلغ منها الدرجة التـــى لا تطاق ، كما كان بين بطنى الأوس والخزرج ، وبين عبس وذبيان ، وبيـن بكر وتغلب ابنى وائل ، وبين عبد شمس وهاشم ، ... إلخ ، فكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة ، تزيدها العصبية حياة ونمـــواً ، وكـــانت مفقودة تماماً بين القبائل المختلفة ؛ فكانت قواهم متفانية فى قتالهم وحروبـــهم ونزاعاتهم .

وقد علل الشيخ محمد الخضرى بك هذه الحقيقة العجيبة بأمرين :

الأمر الأول :

التنافس فى مادة الحياة بين بنى الأب الواحد ، إذ أن حياتهم كانت قائمـــة على المراعى التى يسيمون فيها أنعامهم ، والمناهل التى منها يشربون .

الأمر الثانى :

تنازع الشرف والرياسة ، وأكثر ما يكون ذلك إذا مات أكبر الإخوة وله ولد صالح لأن يكون موضع أبيه ، فينازع أعمامه رياسة العشيرة ولا يسلم أحد منهما للآخر ، وقد يفارق رئيس أحد البيتين الديار مضمراً فى نفسه ما فيها من العداوة والبغضاء ، وقد يبقيا متجاورين ، وفى هذه الحالة يكون التنافر أشد كما كان الحال بين الأوس والخزرج من المدينة ، وبين هاشم وأمية من مكة ، وبين عبس وذبيان من قيس ، وبين بكر وتغلب من ربيعة . ومتى وجد النفور بين جماعتين أو بين شخصين لا يحتاج شبوب نار الحرب بينهما إلى أسباب قوية ، بل إن أيسر النزاع كاف لنشوب نار الحرب وتيتم الأطفال وتأيم النساء ؛ لذلك كانت الجزيرة العربية دائمة الحروب والمنازعات (١) .

هذه الحقيقة التى توصلنا إليها ــ وهى أن نار الحرب سريعة النشوب بين أبناء الأب أو الجد الواحد ــ تدعم ما توصلنا إليه من أن الحرب إنما كانت نتيجة غضب إخوته من أجداده ، وإذا كان الخلاف محصوراً فى السببين السابقين ، فأى سبب هو الذى أجج نار الغيرة والحقد على رسول الله ﷺ ؟ هل السبب هو التنافس فى مادة الحياة الدنيا ، أم الخوف من انتزاع الشرف والسيادة التى تؤول إلى النبى ﷺ إذ هم أذعنوا له بالرسالة والنبوة ؟

أما عن السبب الأول فليس وارداً على الإطلاق ، فلقد ضرب كفار مكة حصاراً تجويعياً على رسول الله ﷺ وعلى بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، فانحازوا إلى شعب أبى طالب ثلاث سنوات كاملة ، عاشوا فيها الجوع والحرمان ما لا يخطر ببال ، حتى إنهم من شدة الجوع قد أكلوا ورق الشجر

---

(١) تاريخ الدولة الأموية الشيخ محمد الخضرى بك ص ٣٢ ، ٣٣ ، ط دار القلم ، بيروت .

وكان يسمع من بعيد بكاء أطفالهم وأنين شيوخهم ، ومع ذلك فقد التزم النبـــى ﷺ الصبر والثبات ، ولم يأمر أصحابه أن يشنوا حرباً أو قتـــالاً لفـــك هـــذا الحصار ، والخبير يعلم ما الذى يمكن أن يفعله الجوع بالنفس البشـــرية ، إن لم يصحبها نور من وحى أو ثبات من إيمان .

كان السبب الثانى إذن كفيلاً بإشعال هذه النار فى قلوب هؤلاء وعلى حد تعبير الأستاذ العلامة محمد فريد وجدى : " كان مقصوداً بالقتل من قريـش ، وليس يعقل أن تغمض قريش عينها ، ومصلحتها الحيوية قائمة على زعامـــة الدين فى البلاد العربية ، وعن قيام زعامة أخرى فى البلاد كيثرب يصبـــح منافسا لأم القرى ، وربما بزها سلطانا على العقول ، وكر على قريش فأبـــاد خضراءها وسلبها حقها الموروث " [1] ، والذى يؤيد هذا ويقويه ذلك الحـوار الذى دار بين الأخنس بن شريق وبين أبى جهل ؛ إذ قال له الأخنس : يا أبـــا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ ــ يعنى القرآن ــ فقال ما ســمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنـــا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان قـــالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذا ؟! والله لا نؤمن به أبـــدا ولا نصدقه .

ليست الصدفة إذن ولا محض الاتفاق هما اللذان دفعا النبـــى ﷺ لقتـــال أبناء أجداده من مضر دون ربيعة أو غيرها من العرب ، بل الطبيعة العربية المتوثبة دائما ، لمن ينازعها الشرف والسيادة من أبناء الأب الواحد ــ علـــى ما بيناه آنفا ــ كانت هى السبب الرئيسى لاشتعال هذه الحـــروب ولولاهـــا

---

(١) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة الأستاذ محمد فريد وجدى ص ١٦٢ ، ط الهيئة المصريـــة العامة للكتاب .

لما اضطر ﷺ للقتال بعد ثلاثة عشر عاماً من الدعوة والصبر تخللـــها مـــن المشاق والعنت ما الله به عليم ، ومع ذلك فقد كان هجيراه ــ بأبى هو وأمـــى ــ " **اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون** " .

وثمة أمر آخر ينبغى الإشارة إليه ، يتعلق بالآثار الناجمـــة عـــن هـــذا القتال ، من حيث أعداد القتلى التى نجمت عن هذه الغزوات والجدول الآتـــى يعطينا صورة بيانية عن هذه الآثار كالآتى :

الغزوة	شهداء المسلمين	قتلى المشركين	الملاحظـــــة
بـــدر	١٤	٧٠	
أُحـــد	٧٠	٢٢	
الخندق	٦	٣	
بنو المصطلق	ــ	٣	
خيبر بئر مونة	١٩ ٦٩	ــ	لم يدخل اليهود فى هذه الإحصائيـــة لأن لهم حكم آخر بسبب خيانتـــهم ، فهم قُتلوا بناء على حكم قضـــائى ، بسبب الحرب .
مؤتـــة	١٤	١٤	
حنيـــن	٤	٧١	
الطائف	١٣	ــ	
معارك أخرى	١١٨	٢٥٦	
المجموع	٣١٧	٤٣٩	٧٥٦ من الجانبين .

وبعد فقد بدا للناظرين واضحًا وجليًا أن الإسلام متمثـــلاً فـــى شـــخص رسول الله ﷺ أبعد ما يكون عن حمل الناس على اعتناق الإسلام بالســـيف ،

وهو الذى قال ﷺ لأعدائه بعدما قدر عليهم : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " هكـــذا دون شرط أو قيد ، أقول حتى دون اشتراط الإسلام .

والنتائج الحقيقية :

(١) تحويل العرب الوحوش إلى عرب متحضريـــن ، والعــرب الملحديـــن الوثنيين إلى عرب مسلمين موحدين .

(٢) القضاء على أحداث السلب والنهب وتعزيز الأمن العام فى بلاد تفـــوق مساحتها مساحة فرنسا بضعفين .

(٣) إحلال الأخوة والروحانية محل العداوة والبغضاء .

(٤) إثبات الشورى مكان الاستبداد [١] .

هذا وقد وضع رسول الله ﷺ ضوابط وقيود كان من شـــأنها أن تحــدد وظيفة الجهاد فى نشر الإسلام فىْ ربوْع المعمورة ، دون سفك للدمـــاء مـــا استطعنا إلى ذلك سبيلا .

ومن هذه الضوابط قوله تعالى : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانـــة فـــانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين** ﴾ [٢] .

فإن كان بين المسلمين والكفار عهد أو أمان فلا يجوز للمسلمين الغـــدر حتى ينقضى الأمد ، فإن خاف المسلمون من أعدائهم خيانة بأن ظـــهر مـــن قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم ، فحينئذ يخـــبرهم المسلمون أنه لا عهد بيننا وبينكم حتى يستوى علم المسلمين وعلم أعدائـــهم بذلك .

---

(١) رحمة للعالمين ص ٤٦٩ .

(٢) الأنفال : ٥٨ .

ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة من الأعداء لم يحتـــج أن ينبذ إليهم عهدهم ، لأنه لم يخف منهم بل علم ذلك .

ودل مفهوم الآية أيضاً على أنه إذا لم يخف منهم خيانة بأن يوجد منـــهم ما يدل على عدم الخيانة ، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم ، بل يجب الوفاء إلـــى أن تتم مدته [1] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٢١ .

انتشار الإسلام

أ ــ معدلات انتشار الإسلام :

الذى يؤكد على الحقيقة التى توصلنا إليها ــ وهى أن انتشار الإســـــلام كان بالدعوة لا بالسيف ــ أن انتشار الإسلام فى الجزيرة العربية وخارجها ، كان وفق معدلات متناسبة تماماً من الناحيتين الكمية والكيفية ، مع التطـــور الطبيعى لحركة الدعوة الإسلامية ، ولا يوجد فى هذه المعدلات نسب غـــير طبيعية أو طفرات تدل على عكس هذه الحقيقة ، والجدول الآتى يوضح هـذه النسب :

السنوات بالهجرى	فارس	العراق	سورية	مصر	الأندلس
نسبة المســـلمين مـــع نهاية أول مائة عام	٥%	٣%	٢%	٢%	أقل من ١%
السنوات التى صـــارت النسبة فيها ٢٥% مـــن السكان	١٨٥	٢٢٥	٢٧٥	٢٧٥	٢٩٥
السنوات التى صـــارت النسبة فيها ٥٠% مـــن السكان	٢٣٥	٢٨٠	٣٣٠	٣٣٠	٣٥٥
السنوات التى صـــارت النسبة فيها ٧٥% مـــن السكان	٢٨٠	٣٢٠	٣٨٥	٣٨٥	٤٠٠

* حسبت السنوات منذ عام ١٣ قبل الهجرة عندما بدأ تنزيل القرآن الكريم .

وتوضح معلومات أخرى أن شعب شبه الجزيرة العربية كـــان الشـــعب الأول فى الدخول فى الإسلام ، وقد أصبح معظمهم مســـلمين فـــى العقـــود الأولى بعد تنزيل القرآن الكريم .

وهكذا كان عدد العرب المسلمين يفوق عدد المسلمين من غير العـــرب فى البداية ، ومهدوا الطريق للتثاقف الإسلامى والتعريب من أجل المســـلمين غير العرب ، ولم يمض وقت على هؤلاء فى أصولهم من أديان ومذاهـــب متعددة من كل الأمم والحضارات السابقة .

كان على هؤلاء جميعا أن يوظفوا بشكل موحد عمليات توأميـــة للتقليـــد والابتكار فى وقت واحد وذلك حسب خلفياتهم الأصلية تحت التأثير الثـــورى والمتحول الأكثر عمقا للفكر الإسلامى ومؤسساته ، وقاموا عن طريق عملية التنسيق المزدوجة بتنقية تراثهم من علوم وتكنولوجيا وفلسفات عصر ما قبل القرآن الكريم وذلك إما بالقبول الجزئى أو الرفض الجزئى ، وقاموا كذلـــك بالابتكار من خلال انطلاقهم من أنظمتهم الفكرية الحسية وتراثهم فى ضـــوء القرآن الكريم والسنة .

ومن هنا ولدت العلوم الإسلامية والتكنولوجيـــا الإســـلامية والحضـــارة الإسلامية الحديثة متناسبة مع الأيدولوجية والرؤية الإسلامية الشاملة [1] .

خصائص ذلك الانتشار :

ـــ عدم إبادة الشعوب .

ـــ جعلوا العبيد حكاما .

---

(١) الفكر الإسلامى فى تطوير مصادر المياه والطاقة ، د . سيد وقار أحمد حسينى ـــ عالم زائر في جامعـــة ستانفورد ٧١–٧٥ ، ترجمة د . سمية زكريا زيتونى طبعة : فصلت للدراسات والترجمة والنشر .

and emergence of a Muslim Society in Richard W . bulliet, Conversion of Islam Meier & ed . Nehemia Levtzion (New York Holmes Iran in Conversion to Islam, (Publ ., Inc, 1979) Pp. 30-51, p31 for fig 1.1.

ـ لم يفتحوا محاكم تفتيش .

ـ ظل اليهود والنصارى والهندوك فى بلادهم .

ـ تزاوجوا من أهل تلك البلاد وبنوا أُسراً وعائلات على مر التاريخ .

ـ ظل إقليم الحجاز ـ مصدر الدعوة الإسلامية ـ فقيراً إلى عصر البترول فى الوقت الذى كانت الدول الاستعمارية تجلب خيرات البلاد المستعمرة إلى مراكزها .

ـ تعرضت بلاد المسلمين لشتى أنواع الاعتداءات (الحروب الصليبية ـ الاستعباد فى غرب إفريقيا ـ إخراج المسلمين من ديارهم فى الأندلس وتعذيب من بقى منهم فى محاكم التفتيش) **ونخلص من هذا كله أن تاريخ المسلمين نظيف وأنهم يطالبون خصومهم بالإنصاف والاعتذار ، وأنهم لم يفعلوا شيئاً يستوجب ذلك الاعتذار حتى التاريخ المعاصر .**

الشبهة السادسة والستون

هل الجبال تحفظ توازن الأرض ؟ والأرض تدور حول نفسها ؟

الرد على الشبهة :

فى المزمور ٧٥: ٢ [أنا وزنت أعمدتها]

وفى مز ١٠٤ : ٥ [المؤسس الأرض على قواعد فلا تتزعزع إلـــى الدهر والأبد]

وفى علم الجيولوجيا أن الله جعل الجبال لحفظ الأرض ؛ وذلـــك مثـل الفقاعات تشاهد كالقبة على سطح المياه وتدور مع المياه وهى مثبتة فى جميع أطرافها ، وأن الجبال آخر مراحل تكوين الأرض فى بدء الخليقة .

وللدكتور زغلول النجار كتاب مستقل عن الجبال .

وصدق الله : ﴿ **لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ [١] .

وصدق الله : ﴿ **وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ [٢] .

---

(١) النساء : ٨٣ .

(٢) العنكبوت : ٤٣ .

الشبهة السابعة والستون

هل النجوم رجوم الشياطين ؟

الرد على الشبهة :

إن الإسلام دين ، وهو موحى به من رب العالمين يخبرنا عن صـــدق ويقين ، وهو القائل سبحانه : ﴿ **ما أشهدتهم خلـــق الســموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا** ﴾ [1] . والإسلام ليس بدعاً مـن الأديان ولذلك نرى أن الكتب المقدسة تذكر ذلك ؛ فإن الله تعالى يقول :

﴿ **وأنا لمسنا السماء فوجدناها مُلئت حرساً شديداً وشهباً * وأنا كنـــا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا** ﴾ [2] . قـــال ذلك حكاية عن الجن . وليس المعنى كما فهم المؤلف ، وإنما المعنى هـو أن الله جعل على السماء حراساً من الملائكة ، وخلق لهم أدوات عقاب تناســب أجسام الشياطين . وهى الشهب . فإذا جاء شيطان رماه أحد الملائكة بشـهاب وليست الشهب كواكب كالقمر والشمس ، وإنما هى أدوات عقاب كالسيف فى يد الجندى المحارب .

وفى الإصحاح الثالث من سفر التكوين ؛ أن الله لما طرد آدم من الجنـة وهى جنة عدن ، ليعمل الأرض التى أُخذ منها ، أقام شرقى جنة عدن ملائكة تسمى الكروبيم ، ووضع لهيب سيف متقلب فى أياديهم لحراسة طريق شجرة الحياة : " فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أُخذ منـــها ؛

---

(١) الكهف : ٥١ .

(٢) الجن : ٨ــ٩ .

فطرد الإنسان ، وأقام شرقى جنة عدن الكروبيم ، ولـــهيب ســيف متقلــب لحراسة طريق شجرة الحياة " [1] .

ويقول المفسرون : " إن الكروبيم من الملائكة المقربيــن . وهــو فــى الفارسية بمعنى الحارس " . وكان عملهم وقــت طــرد آدم هــو " حراســة الفردوس ؛ لئلا يرجع الإنسان إليه " .

وفى القرآن تفسير الشهب بشواظ من نار . فى قوله تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فــانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران** ﴾ [2] .

فقد جعل للجن غير ما جعل للإنس من أدوات العقاب . ولـــم يجعــل للجن كواكب تُرمى بها كالقمر والشمس ، وإنما جعل للجـــن " شــواظ " أى " شهب " .

---

(١) تك ٣ : ٢٣-٢٤ .

(٢) الرحمن : ٣٣ــ٣٥ .

الشبهة الثامنة والستون

القرآن يتناقض مع العلم

إنه جاء فى القرآن أن الله خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن. فكيف يقول عن أرضنا وهى واحدة من ملايين الكواكب ــ إنه يوجد سبعة مثلها ؟

وفى القرآن : (أن السماء سقفاً محفوظاً) ، وأن الله يمسكها لئلا تقــع . فكيف يقول عن الفضاء غير المتناهى : إنه سقف قابل للسقوط ؟

وفى القرآن أن الله زين السماء الدنيا بمصابيح . فكيف يقول عن ملايين الكواكب التى تسبح فى هذا الفضاء غير المتناهى إنها مصابيح ؟

الرد على الشبهة :

هذا السؤال مكون من ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : هو أنه ليس فى العالم سبعة أرضين . فكيف يقول عــن الأرض : إنها سبعة كما أن السموات سبعة ؟ وقــول المؤلــف إن الأرض سبعة ؛ أخذه من بعض مفسرى القرآن الكريم . وهــو يعلــم أن المفســرين مجتهدون ، ويصيبون ويخطئون . والرد عليه فى هذا الجزء مــن الســؤال هو : أن نص الآية هو : ﴿ **الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلــهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكــل شىء علماً** ﴾ [1] .

إنه أتى بــ (مِنْ) التى تفيد التبعيض ؛ لينفــى العــدد فــى الأرض . وليثبت المثلية فى قدرته . فيكون المعنى : أنا خلقت سبع سموات بقدرتــى ،

---

(١) الطلاق : ١٢ .

وخلقت من الأرض مثل ما خلقت أنا السماء بالقدرة . ولهذا المعنـــى علّـل بقوله : ﴿ **لتعلموا أن الله على كل شيء قدير** ﴾ .

وبيان التبعيض فى الأرض : هو أن السماء محكمة ، وأن الأرض غـير محكمة . وهى غير محكمة لحدوث الزلازل فيها ، وللنقص من أطرافـــها . وقد عبّر عن التبعيض فى موضع آخر فقال : ﴿ **أفلا يرون أنا نـــأتى الأرض ننقصها من أطرافها** ﴾ [1] . والنقص من الأطراف يدل على أن الباقى مـــن الأرض ممسوك بقدرة الله ، كما يمسك السماء كلها .

والجزء الثانى : هو أن السماء سقف قابل للسقوط . والرد عليه فى هذا الجزء من السؤال هو : أن كل لغة فيها الحقيقة وفيها المجاز . والتعبير على المجاز . فإن السماء شبه سقف ألبيت ، والمانع للسقف من السـقوط علـى الحقيقة هو الأعمدة ، وعلى المجاز هو الله ؛ لأن كل شيء بقدرته . ولذلـك نظير فى التوراة وفى الإنجيل : " بالكسل يهبط السـقف " . وفـى ترجمـة أخرى : " من جراء الكسل ينهار السقف . وبتراخى اليدين يسـقط البيـت " [جامعة ١٠ : ١٨] يريد أن يقول : إن الكسل يؤدى إلى الفقر ، والفقر يـؤدى إلى خراب البيوت . وعبر عن الخراب بانهيار السقف . والسقف لا ينـهار بالكسل ، وإنما بهدّ الأعمدة التى تحمله . وفى سفر الرؤية : " فسـقط مـن السماء كوكب " [رؤ ٨ : ١٠] كيف يسقط كوكب من السماء بغير إرادة الله ؟ وفى سفر الرؤية : " ونجوم السماء سقطت " (رؤ ٦ : ١٣] ، ويقول عيسـى عليه السلام : إن العصفور لا يقع إلى الأرض إلا بإرادة الله : " أمـا يبـاع عصفوران بفَلْس واحد . ومع ذلك لا يقع واحد منهما إلى الأرض خفية عـن

---

(١) الأنبياء : ٤٤ .

أبيكم " [متى ١٠ : ٢٩] . وفى الرسالة إلى العبرانيين : " حقـاً مـا أرهـب الوقوع فى يدى الله الحى ؟ " [عب ١٠ : ٣١] .

والجزء الثالث : وهو أنه كيف يقول عن الكواكـب إنـها مصـابيح ؟ والمؤلف دل بقوله هذا على إنكار الواقع والمشاهد فى الحيـاة الدنيـا ، ودل أيضاً بقوله هذا على جهله بالتوراة وبالإنجيل . ففى سفر الرؤية : " كوكـب عظيم متقد كمصباح "[رؤ ٨ : ١٠]، "وأمام العرش سبعة مصابيح "[رؤ ٤ : ٥]، وجاء المصباح على المجاز فى قول صاحب الأمثال : " الوصيـة مصبـاح والشريعة نور " [أم ٦ : ٢٣] .

الشبهة التاسعة والستون

كيف يكون العلم كفرًا ؟

يعترض على قوله : ﴿ **إنما النسئ زيادة فى الكفر** ﴾ [1] أن النسئ الـذى فى السنة القبطية من الحساب الفلكى .. فكيف يكون العلم كفراً ؟

الرد على الشبهة :

أن النسئ فى الآية هو ما كان يفعله المشركون من تبديل الأشهر الحـرم مكان الأشهر الحلال ليستحلوا بذلك القتال فيها ، ولا علاقة له بالأيام التـــى تضبط السنة القبطية للزراعة ، ومن هنا يتبين مدى محاولة التلبيس والتدليس الذى يضحك منها العارفون مع حزنهم أن يصل الـــترصد ضـــد كـــلام الله سبحانه والعمل على أن لا يصل إلى الخلق باعتبـــاره ــ الكلمـــة الأخـــيرة للعالمين ــ إلى هذا الحد الرخيص من التلاعب بالألفاظ والمصطلحات.

---

(١) التوبة : ٣٧ .

الشبهة السبعون

ريّ مصر بالغيث !

إن أرض مصر تُروى بالنيل ، ولا تروى بالمطر . وفى القرآن : ﴿ **ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون** ﴾ [1] .

وهذا يدل على غوثهم بالمطر . فكيف ينسب خصب مصر للغيث والمطر ؟

الرد على الشبهة :

هنا كلمتان : (١) ﴿ يغاث ﴾ (٢) ﴿ يعصرون ﴾ . وكلمة الغوث على الحقيقة تدل على نزول ماء من السماء . وكلمة العصر على الحقيقة تدل على عصير العنب . لأن الشائع بين الناس فى العصر هو العنب . والمؤلف يوجه النقد على المعنى الحقيقى فى نزول المطر ، ولم يوجه النقد لعصير العنب . وكلمة الغيث جاءت على الحقيقة مثل : " فامتنع الغيث ولم يكن مطر " [إرمياء ٣ : ٣] ، وجاءت على المجاز مثل : " لأعرف أن أغيث المعيى " [إشعياء ٥٠ : ٤] . أما على المجاز فالشبهة منتفية . وأما على الحقيقة فهذا هو غرض المعترض وهو مغرض فى ذلك .

وذلك لأن الأمر كله خارج على المألوف . وبيان خروجه على المألوف : أن المدة خمس عشرة سنة . سبع شداد يأكلن سبعًا سمانًا أو : سبع

---

(١) يوسف : ٤٩ .

سمان يأكلهن سبع عجاف . والسنة الأخيرة يأتى فيها الخير قليلاً . والمناسب لقلة الخير ؛ نزول المطر . وقلة المياه تكفى لرى العنب والفواكه فى أماكن زراعته ، وتكفى لإنبات قمح يكون بذره بذرا للسنوات الآتية التى سيكثر فيها ماء النيل . وهذا أمر غير مستبعد فى العقل . فكيف يكون شبهة ؟

أما عن العصر . فإنه يكون على الحقيقة مثل : " فأخذت العنب وعصرته فى كأس فرعون، وأعطيت الكأس فى يد فروع " [تكوين ٤٠ : ١١]، ويكون على المجاز مثل : " فألقاه إلى معصرة غضب " [رؤية١٤ : ١٩] .

وإذا ثبت وجود العصر ، وليس لماء النيل وجود . فكيف حيى النبات وعاش ؟ وفى السنوات السبع العجاف كانت سنابل القمح تخرج من الأرض خروجا هزيلا . فكيف خرجت وهى هزيلة والنيل لا يروى الأراضى ؟

لابد من القول بوجود مصدر للمياه غير النيل . إما آبار عيون ، وإما مطر. ففى حلم فرعون : " وهو ذا سبع سنابل طالعة فى ساق واحد سمينة وحسنة . ثم هو ذا سبع سنابل رقيقة وملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها " [تكوين ٤١ : ٥-٦]، وكرر الكلام وقال فيه: " نابتة وراءها "[تك ٤١ : ٢٣] كيف تكون نابتة وليس لماء النيل من سواقى ؟

الشبهة الحادية والسبعون

الرعد ملك من الملائكة

إن في القرآن أن الرعد يسبح الله . وإن فى الأحاديث النبوية أن الرعد ملك من ملائكة الله . ونحن نعلم أن الرعد هو الكهرباء الناشئة عن تصـــادم السحاب فكيف يكون الرعد ملكاً ؟

الرد على الشبهة :

إن المؤلف لا ينكر تسبيح الرعد لله ؛ وذلك لأن فى التوراة أن الرعـــد يسبح لله . وكلُّ شيء خلقه ؛ فإنه يسبحه . وإنما هو ينكر كون الرعد مَلَكـاً . فمن أكّد له أن الرعد ملك ؟ ليس فى القرآن أنه ملك . والأحـــاديث النبويـــة تذكر أن للرعد ملكًا ؛ وليس أن الرعد ملك ، والفرق واضح . ففى التـــوراة عن التسابيح لله : " شعب سوف يُخلق ؛ يسبح الرب " ؛ يقصد شعب محمـــد ﷺ [مزمور ١٠٢ : ١٨] ،وفى سفر الزبـــور : " تســبحه الســموات والأرض والبحار وكل ما يدب فيها " [مز ٦٩ : ٣٤] . وفى سفر الزبـــور : " ســبحوا الرب من السموات ، سبحوه فى الأعالى ، سبحوه يا جميع ملائكته ، سـبحوه يا كل جنوده ، سبحيه يا أيتها الشمس والقمر ، سبحيه يـــا جميـــع كواكـــب النور ، سبحيه يا سماء السموات ، ويا أيتها المياه التى فـــوق الســموات . لتسبح اسم الرب . لأنه أمر فخُلقت ، وثبتها إلى الدهر والأبد . وضع لها حداً فلن تتعداه .

سبحى الرب من الأرض يا أيتها التنانين وكل اللجج . النار والـــبرد . الثلج والضباب . الريح العاصفة كلمته ، الجبال وكل الآكام ، الشجر المثمـر وكل الأرز . الوحوش وكل البهائم ، الدبابات والطيـــور ذوات الأجنحـة . ملوك الأرض وكل الشعوب ، الرؤساء وكـــل قضـــاة الأرض . الأحـداث والعذارى ، أيضًا الشيوخ مع الفتيان . ليسبحوا اسم الرب ؛ لأنه قد تعـــالى اسمه وحده . مجده فوق الأرض والسموات " [مزمور ١٤٨] .

وفى الأناجيل الأربعة : " يسبحون الله بصوت عظيم " [لوقـا ١٩ : ٣٧] ، " وهم يمجدون الله ويسبحونه " [لو ٢ : ٢٠] ، " وظهر بغتـــة مـــع المـــلاك جمهور من الجند السماوى مسبحين الله وقائلين : المجد لله فـــى الأعـــالى ، وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرة " [لو ٢ : ١٣] ، وكان عيسى ــ عليه السلام ــ يسبح الله تعالى مع الحواريين . ففى مرقس : " ثم سبحوا وخرجوا إلى جبل الزيتون " [مر ١٤ : ٢٦] ، وفى متى : " ثم سبّحوا وخرجوا إلى جبل الزيتون "[متى ٢٦ : ٣٠] . ومن يسبح الله كيف يكون هو الله أو إله مع الله ؟.

وفى القرآن الكريم : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ [١] ، وفـــى الزبـــور : " سبحوا اسم الرب . سبحوا يا عبيد الرب " إلى أن قال : " كل ما شاء الرب صنع فى السموات وفى الأرض . فى البحار وفى كـــل اللجـــج . المصعـــد السحاب من أقاصى الأرض . الصانع بروقا للمطر . المخرج الريـــح مـــن خزائنه [٢] .. " [مز ١٣٥] .

---

(١) الأعلى : ١ .

(٢) فى سورة الحجر : ﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح** ﴾ [آية رقم ٢٢] ــ ﴿ **وإن من شئ إلا عندنا خزائنـــه** ﴾ [آية رقم ٢١] .

الشبهة الثانية والسبعون

الوادى طوى

إنه لا يوجد وادى اسمه " طوى " فى سيناء. فمن أين جاء به القرآن ؟ .

الرد على الشبهة :

إنه فهم من قوله تعالى : ﴿ **إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى** ﴾ [1] أن (طوى) اسم للوادى المقدس . وفهمه خاطئ . وذلك لأن الله لما عبر عن السموات بأنها ﴿ **مطويات بيمينه** ﴾ [2] يعنى بذلك : أن لا إلـــه غيره يملك من أمر السموات من شيء . عبر عن الأرض بأنها فـــى ملكـــه وليس لإله آخر فيها من شيء . فالطى فى السماء كناية عن القدرة والطـــى فى الأرض كناية عن القدرة . والكناية مناسبة للواد المقـــدس ؛ والمقصـــود الأرض كلها لئلا يُظن أن التقديس لغيره . وكرر الله المعنى فى الســـموات فقال : ﴿ **يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب** ﴾ [3] . وشـــبهه أن تكـــون الأرض (طوى) أى فى قبضته .

وفى الرسالة إلى العبرانيين : " وأنت يا رب فى البدء أسست الأرض ، والسموات هى عمل يديك . هى تبيد ولكن أنت تبقى وكلها كثـــوب تبلـــى ، وكرداء تطويها؛ فتتغير، ولكن أنت أنت، وسنوك لن تفنى " [عب ١ : ٢٠ــ٢٢] فقد عبر عن طيها بطى الرداء .

---

(١) طـــه : ١٢ .

(٢) الزمر : ٦٧ .

(٣) الأنبياء : ١٠٤ .

فيكون المعنى ﴿ إنك بالوادى المقدس ﴾ الذى سيصير (طوى) بمعنى مطوى كما أن السماء ستكون مطوية بقدرته .

وهنا هو لا يعترض على القرآن بل على التفاسير ، وهو جانب آخر من إعجاز القرآن يزيد فى إثباته وذلك أن كلام البشر من العلماء والمفسرين قد يختلف ويؤخذ منه ويُرد ؛ ولكن كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، شىء عجيب حقاً ذلك القرآن الذى يقف أمام هؤلاء جميعاً بكل ذلك الفهم الخاطئ والتصيد المستمر وإذ به يتعالى عليهم ويبقى فى علبائه معجزاً للبشر إلى يوم الدين .

الشبهة الثالثة والسبعون

هل الزيتون يخرج من طور سيناء ، وهو يخرج من فلسطين ، فكيف ذلك ؟

الرد على الشبهة :

أن سيناء من فلسطين وفلسطين والشام هى شمال مصر ، وهذا المعنى يوجد فى التوراة ففى سفر الزبور : [سينا فى القدس] مز ٦٨ : ١٧ .

ولا تعتمد التقسيمات السياسية الحديثة التى فصلت الديار بعضها عن بعض بل إن مصر فى الأصل كانت تمتد إلى هذا الحد ، أما تقسيمات سايكس بيكون فلا يمكن تفسير النصوص المقدسة عليها .

الشبهة الرابعة والسبعون

جبل قاف المحيط بالأرض كلها

إنه جاء فى القرآن الكريم : ﴿ ق . والقرآن المجيـــد ﴾ [1] ونقـل مـن كتاب عرائس المجالس : أن معنى (ق) جبل يقال له جبل قاف . ونقل مـن كتاب قصص الأنبياء أن رسول الله ﷺ قال : إن أعلى قمة فى الأرض هـى جبل قاف .

وقال المؤلف : إن الكلمة العبرانية " تاو " ومعناه " الخط " لما سـمعها الصحابة لم يعرفوا أن معناها " الخط " بل توهموا أنها سلسلة جبال عظيمـة اسمها قاف . فكيف يعتبر بعض القرآن ما نسـميه الأفـق ــ وهـو خـط وهمى ــ جبلاً حقيقياً ؟

الرد على الشبهة :

إن كلام مؤلف عرائس المجالس ليس حُجة على صحة القـرآن ، وإن الأحاديث الموضوعة ليست حُجة على صحة القرآن . ولم يجمع المسـلمون على معنى (ق) فإن لهم فى المعنى آراء كثيرة . منها أن (ق) حرف من حروف الهجاء مثل الألف والياء والتاء .. إلخ . فاعتراض المؤلـف علـى القرآن ليس فى موضعه .

---

(١) سورة ق : ١ .

الشبهة الخامسة والسبعون

هامان وزير فرعون

جاء فى القرآن أن هامان كان وزيراً لفرعون . وهذا خطأ تـــاريخى ؛ لأن هامان كان وزيراً لأحشويرش ملك الفرس فى مدينـــة بـــابل . وبيـــن فرعون وأحشويرش زهاء ألف سنة .

الرد على الشبهة :

من أعلم المؤلف بأن هامان كان وزيراً لفرعون ؟ وهذا السؤال علـــى معنى أن هامان اسم شخص . ولا أحد أعلمه بأن هامان اســـم شـــخص إلا الرواة الذين لا يوثق بمروياتهم . وإذا أصرّ على أن هامان اسم شـــخص . فليسلّم بأن فرعون اسم شخص . ومعلوم أنه لقب " الملـــك " كـــان لرئيـــس المصريين فى زمن يوسف ــ عليه السلام ــ وأن لقـــب " فرعـــون " كـــان لرئيس المصريين فى زمن موسى ــ عليه السلام ــ مما يدل على تغير نظام الحكم .

وإذا صح أن " هامان " لقب لكل نائب عن الملك ، لا اسم شخص . فإنه يصح أن يُطلق على النائب عن فرعون أو عن أى ملك من الملوك . وعلـــى ذلك يكون معنى : ﴿ **إن فرعون وهامان وجنودهما** ﴾ [1] هو إن رئيس مصر الملقب بفرعون ، ونائبه الملقب بـــهامان (وجنودهمـــا كـــانوا خـــاطئين) ومثل ذلك : مثل لقب الملك الذى يُطلق على رؤساء البلاد ؛ فإنه يطلق علـــى

---

(١) القصص : ٨ .

رؤساء فارس واليونان ومصر واليمن وسائر البلاد ، ولا يتوجه على إطلاقه خطأ من أخطاء التاريخ .

وفى الإنجيل أن اليهود كانوا يطلقون لقب " المضلّ " على من يخالفهم فى الرأى . وإذا أطلقه العبرانيون على رجل منهم يقولون له : يا سامرى ، بدل قولهم يا مضل . وذلك لأنهم يعتبرون السامريين كفاراً . وإذا أطلقه السامريون على رجل منهم يقولون له : يا عبرانى ، بدل قولهم يا مضل . وذلك لأنهم يعتبرون العبرانيين كفاراً . وإذا سمع العبرانى عنهم كلمة " سامرى " لا يفهم منها أنها اسم شخص ، وإنما يفهم منها أنها لقب للذم . وعن هذا المعنى جاء فى إنجيل يوحنا أن علماء اليهود قالوا لعيسى ــ عليه السلام ــ : " إنك سامرى ، وبك شيطان " ورد عليهم بقوله : " أنا ليس بى شيطان ، لكنى أكرم أبى وأنتم تهينوننى . أنا لست أطلب مجدى . يُوجد من يطلب ويدين " [يو ٨ : ٤٨ــ٥٠] .

الشبهة السادسة والسبعون

قارون وهامان مصريان

إن قارون يهودى ، وفرعون مصرى ، وهامان فارسى فكيـــف قـــاوم هامان نبى الله موسى وهو لم يكن فى زمانه ؟

الرد على الشبهة :

إن هامان ليس اسم شخص ، وإنما هو لقب يدل على نائب الرئيـــس . وبهذا المعنى يكون هامان ــ أى النائب عن فرعون ــ قـــد قـــاوم نبـــى الله موسى ــ عليه السلام ــ .

الشبهة السابعة والسبعون

العجل الذهبى من صنع السامرى

إن مدينة السامرة فى فلسطين لم يكن لها وجود لما خرج بنو إســـرائيل من مصر ، مع موسى ، وسكنوا أرض سيناء . وفيها عمـــل لـــهم هـــارون العجل الذهبى كطلبهم . فكيف نتخيل سامرياً يضع لهم العجل قبل أن يكـــون للسامريين وجود ؟

الرد على الشبهة :

١ ــ إنه ليس فى فلسطين مدينة تسمى بمدينة السامرة . وإنما كان للسامريين مملكة فى فلسطين ، عاصمتها " نابلس " المسماة قديماً " شكيم " وكانت هـــذه المملكة مكونة من عشرة أسباط . وكان للســـبطين مملكـــة فـــى فلســـطين عاصمتها " القدس " المسماة قديماً " أورشليم " .

٢ ــ ولما صعد موسى عليه السلام إلى جبل الطور وتلقى التـــوراة ، نـــزل فوجد اليهود يعبدون عجلاً جسداً له خوار . فسأل عن ذلك فدلوه على مـــن أغراهم بعبادتهم . فأمسك به وسأله ﴿ **ما خطبك يا سامرى** ﴾ أى ما هذا الذى فعلته أيها المضل ؟ لأن كلمة (سامرى) تطلق على المضـــل . ولا تطلـــق على شخص كاسم من الأسماء .

وبهذا المعنى لا يكون الذى أضلهم رجل مسمى بالسامرى ، حتى يتوجه الإشكال . وإلا يلزم أن يكون السامرى من أسماء المسيح عيســـى ــ عليـــه السلام ــ فإن اليهود قالوا له : " إنك سامرى ، وبك شيطان " [يو ٨ : ٤٨] .

الشبهة الثامنة والسبعون

أبو إبراهيم آزر

إن فى التوراة أن أبا إبراهيم اسمه تارح . وقد أخطأ القرآن فى قوله إن أباه اسمه آزر .

الرد على الشبهة :

إن الأنساب مختلفة بين التوراة السامرية والعبرانيـــة واليونانيـــة . وإن عدد السنين لكل أب من آدم إلى إبراهيم مختلف فيه بين نسخ التوراة الثلاثة ، ولوقا كاتب الإنجيل أزاد على الأسماء قينان . نقلا عن اليونانية . ومعنى هذا أنه كان يجب على المؤلف تصحيح كتبه قبل أن يوجه نقده . ولذلك جاء فـــى القرآن الكريم : ﴿ **إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيـــه يختلفون** ﴾ [1] .

---

(١) النمل : ٧٦ .

الشبهة التاسعة والسبعون

مريم العذراء بنت عمران

إن القرآن نسب مريم العذراء إلى عمران أبى موسى النبى . وقال : إنها أخت هارون النبى ــ عليه السلام ــ وهذا يخالف ما جاء فى إنجيل لوقا أنها بنت هالى [لوقا ٣ : ٢٣] ويخالف التاريخ لأن بين مريم وهارون ألف وستمائة سنة .

الرد على الشبهة :

إن المؤلف نقل عن الإنجيل أن مريم بنت هالى . ونقله خطأ . والنص هو : " ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة . وهو على ما كان يُظن ابن يوسف بن هالى بن متثات بن لاوى بن ملكى بن ينّا بن يوسف " إلى أن أوصل نسبه إلى " ناثان بن داود " عليه السلام . وهذا النص لا يدل على أنه نسب مريم كما قال المؤلف ، وإنما يدل على أنه نسب المسيح . فكيف يكذب القرآن بنسب ليس لها ؟ وكيف ينسبون المسيح إلى يوسف بن هالى . وفى الإنجيل أنه لا أب له ولا سبط له ؟ ذلك قوله عن يوسف : " ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر " [متى ١ : ٢٤] ، وكيف يكذبون القرآن بنسب على سبيل الظن ؟ ذلك قوله : " وهو على ما كان يُظن " وفى إنجيل متى أن المسيح ابن يوسف بن يعقوب بن متّان بن اليعازر بن آليود . إلى أن أوصل نسبه إلى سليمان ــ عليه السلام ــ [متى ١] .

والحق : أن مريم ابنة عمران الأب المباشر لموسى ــ عليه السلام ــ وهو أب مباشر لموسى ، وهو أب لمريم لأنه رئيس العائلة التى تناسلت هى منها . وهارون ابن عمران . وهى من نسل هارون ــ عليه السلام ــ فيكون هو أخوها على معنى أنها من نسله . أما أبوها المباشر فاسمه " يهويا قيم " وأمها اسمها " حنة " كما جاء فى إنجيل يعقوب الذى لا يعترف به النصارى.

والنسب هكذا :

إبراهيم ــ إسحاق ــ يعقوب ــ لاوى وهو الابن الثالث ليعقوب . وأنجب لاوى ثلاثة هم جرشون وقهات ومرارى . وبنوقهات عمرام ويصهار وحبرون وعزئيل . وبنو عمرام هارون وموسى ومريم .

وقد وصى موسى عن أمر الله تعالى أن تتميز الأسباط التى تريد الإرث فى بنى إسرائيل . وذلك بأن تتزوج كل بنت فى سبطها . ففى سفر العدد : " وكل بنت ورثت نصيباً من أسباط بنى إسرائيل ؛ تكون امرأة لواحد من عشيرة سبط أبيها ؛ لكى يرث بنو إسرائيل كلٌ واحد نصيب آبائه " [عدد٣٦: ٨] . ووصى بأن يتفرغ سبط لاوى للعلم والدين ، ولا يكون له نصيب فى الأرض ، وإنما يسكن بين الأسباط فى مدنهم ، ووصى بأن تكون الإمامة فى نسل هارون وحده . وعلى هذه الشريعة نجد فى بدء إنجيل لوقا : أن " أليصابات " زوجة زكريا ــ عليه السلام ــ كانت من نسل هارون من سبط لاوى ، وكان زكريا من نسل هارون من سبط لاوى . وتزوجت أليصابات زكريا . وأن مريم العذراء كانت قريبة لأليصابات . وإذا ثبت أنها قريبة لها ؛ يثبت أن مريم هارونية من سبط لاوى . يقول لوقا : " كان فى أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبِيّا ، وامرأته من بنات هارون ، واسمها أليصابات .. إلخ " ويقول لوقا : " وهو ذا أليصابات نسيبتك .. إلخ " ؛ قال لها الملاك ذلك وهو يبشرها بالحمل بعيسى

ــ عليه السلام ــ فإذا صح أنها قريبة لها ونسيبة لها . فكيف يخطئ المؤلف القرآن فى نسبتها إلى هارون ــ عليه السلام ــ ؟

وفرقة أبِيّا هى فرقة من بنى هارون ، وهى الفرقة الثامنة من الفرق التى عدها داود ــ عليه السلام ــ للعمل فى المناظرة على بيت الرب . وخــبرهم فى الإصحاح الرابع والعشرين من سفر أخبار الأيام الأول .

الشبهة الثمانون

يوسف همّ بالفساد

إن يوسف ــ عليه السلام ــ هم بالامرأة وهمت به حسبما جـــاء فـــى القرآن . وأنه لم يهم بها ولم تهم به حسبما جاء فى التوراة . وما جاء فـــى التوراة هو المناسب لأحوال الأنبياء .

الرد على الشبهة :

١ ــ يوجد فرق بين رجل عرف الله ورجل لم يعرفه . فالعارف بالله لا يقدم على معصية لله ولا يقدم على ضرر للبشر . والذى لا يعرفه لا يســتحيى أن يفعل ما يشاء من المعاصى والضرر . وعلى هذا المعنى يوجد فـــرق بيـــن امرأة العزيز التى تعبد مع قومها غير الله وبين يوسف ــ عليـــه الســـلام ــ الذى عرف ربه بواسطة البراهين التى قادت إلى معرفته فى كونـــه ، وبمـــا سمعه عن الله من آبائه . فامرأة العزيز همت به أن يفعل الفاحشة بها ، وهو قد قال لها : ﴿ **معاذ الله** ﴾ وعلّل عدم الفعل بأنه يكون مسيئاً لمن أحسن إليه . وهو سيده . والإساءة إلى المحسن نوع من أنواع الظلم .

٢ ــ انظر إلى قوله : ﴿ **وراودته** ﴾ وإلى قوله ﴿ **معاذ الله** ﴾ تجد أنـــها لمـــا راودته ﴿ **همت به** ﴾ فيكون الهم منها بمعنى طلب فعل الفاحشة . وتجد أنـــها لما ﴿ **همت به** ﴾ صار منه هم بها . يفسره قوله ﴿ **معاذ الله** ﴾ كما فسر همـــها ﴿ **وراودته** ﴾ فيكون همه بها ؛ دفعا لها وامتناعا عنها .

٣ ــ ولو فرضنا أن يوسف غير عارف بالله وغير مقر به مثلـــها ؛ فإننـــا نفرض أنه لو همت به للفعل بها ؛ لهم بها للفعـــل بـــها . ولـــولا أنـــه رأى برهان وجود الله فى كونه ، لكان قد فعل بها . إذ هذا شأن الوثنيين . وكـــهذا البرهان ؛ أريناه براهين فى الآفاق وفى الأنفس ﴿ **لنصـــرف عنـــه الســـوء والفحشاء** ﴾ [١] .

٤ ــ ولا يمكن تفسير ﴿ **برهان ربه** ﴾ بعلامة مجىء سيده إلى بيتـــه ؛ لأنـــه لو ظهرت علامة مجئ سيده ؛ ما استبقا الباب : هى للطلب ، وهو للدفـــع . فاستباقهما معناه : أنها تغلق الأبواب وتمنع من الإفلات وهو يحاول الدفـــع ، حتى أنها جذبته من خلف ظهره من ثوبه ، وعندئذ ﴿ **ألفـــيا ســـيدها لـــدى الباب** ﴾ [٢] وصرح بأنه غير مذنب ، وشهد شاهد بالقرائن من أهل الشـــهادة أنه غير مذنب .

٥ ــ على هذا يكون القرآن مقراً ببراءة يوسف ــ عليه السلام ــ ويكون لفظ الهم فى جانبه على سبيل المشاكلة لأنه صرح قبله بقوله ﴿ **معاذ الله** ﴾ [٣] .

---

(١) يوسف : ٢٤ .

(٢) يوسف : ٢٥ .

(٣) يوسف : ٢٣ .

الشبهة الحادية والثمانون

نوح يدعو للضلال

إن نوحاً ــ عليه السلام ــ قال الله تعالى : ﴿ **ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً** ﴾ [1] ؛ فكيف يدعو نوح ربه أن يزيد الناس ضلالاً ؟

الرد على الشبهة :

إن نوحاً لم يدع ربه أن يزيد الناس ضلالاً ، وإنما دعا على الظالمين من الناس . ومثل ذلك : ما فى التوراة عن الأنبياء فإنهم دعوا على الظالمين ، ولم يدعوا على كل الناس . ففى المزمور الثامن عشر : " من الرجل الظالم تنقذنى " ــ " مثل طين الأسواق ؛ اطرحهم " ، وفى الإنجيل يقول المسيح لله عن الذين آمنوا به : " احفظهم فى اسمك الذين أعطيتنى " [يو ١٧ : ١١] ولم يدع للكل .

---

(١) نوح : ٢٤ .

الشبهة الثانية والثمانون

فرعون ينجو من الغرق

إن فى القرآن تناقض فى نهاية فرعون . ففى سورة يونس : ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك** ﴾ [1] وهذا يدل على نجاته من الغرق ، وفى سورة القصص : ﴿ **فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم** ﴾ [2] وهذا يدل على غرقه .

الرد على الشبهة :

إن المؤلف لم يفسر ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك** ﴾ على المعنى الظاهرى . وهو إبعاد الجثة عن الهبوط فى اليم ، وتركها على الشاطئ حتى يضعها المحنطون فى المقبرة فيراها كل المصريين فيعتبروا ويتعظوا . وفسر على المعنى المجازى كناية عن إفلاته من الغرق . ووجّه الشبهة على المعنى المجازى وليس على المعنى الحقيقى .

والمعنى المجازى الذى به وجّه الشبهة ؛ موجود فى التوراة عن فرعون . ففيها أنه لم يغرق ، وموجود فيها ما يدل على غرقه . وهذا هو التناقض الذى نسبه إلى القرآن . وسوف نبين ما فى التوراة من التناقض عن غرق فرعون . ونسأله هو أن يوفق بين المعنيين المتناقضين . وما يجيب به فى التوفيق ؛ يكون إجابة لنا .

---

(١) يونس : ٩٢ .

(٢) القصص : ٤٠ .

ففى الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج : " فرجع المـــاء وغطـــى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءهم فى البحر . لم يبـق منهم ولا واحد " وفى الإصحاح الخامس عشر من نفس السفر : " تغطيـــهم اللجج . قد هبطوا فى الأعماق كحجر " وفى تفسير التوراة ما نصـــه : " ولا سبيل لنا هنا إلى الحكم بغرق فرعون ، إذ لا دلالة عليه فى هذا النبـــأ ، ولا من قول المرنِّم [مز ٧٨ : ٥٣ و ١٠٦ : ١١] وساق المفسرون أربع حجج على عدم غرقه . ومعنى قولهم : إن قول المرنِّم لا يدل على غرقه هو : أن داود ــ عليه السلام ــ فى المزمور ٧٨ والمزمور ١٠٦ قال كلاماً عن فرعـــون لا يدل صراحة على غرقه .

ونص ٧٨ : ٣ هو " أما أعداؤهم فغمرهم البحر " ونص ١٠٦ : ١١ هو " وغطّت المياه مضايقيهم . واحد منهم لم يبق " .

هذا عن عدم غرق فرعون . وأما عن غرقه ففى المزمـور ١٣٦ : ١٥ " ودفع فرعون وقوته فى بحر يوسف ؛ لأنه إلى الأبد رحمته " وفى ترجمـــة أخرى : " أغرق فرعون وجيشه فى البحر الأحمر إلى الأبـــد رحمتـــه [١] " ومفسرو الزبور ــ وهم أنفسهم الذين صرحوا بعدم غرق فرعون ــ كتبـــوا عن فرعـــون : " فـــإن هـــذا الأخـــير قـــد حـــاول جـــهد المســـتطاع أن يرجع الإسرائيليين إلى عبوديتهم ؛ فما تم له مـــا أراد ، بـــل اندحـــر شـــر اندحار " ا.هـــ .

ومن هذا الذى قدمته يكون من الواجب على المؤلـــف حـــل التنـــاقض الموجود عنده فى أمر فرعون ، قبل أن يوجه كلامه إلى القرآن .

---

(١) جمعية الكتاب المقدس فى لبنان سنة ١٩٩٣م .

الشبهة الثالثة والثمانون

انتباذ مريم

إن فى القرآن : أن مريم انتبذت من أهلها مكاناً شرقيًّا ، واتخذت لـــــها حجاباً من قبل أن تحبل بالمسيح . فلماذا انتبذت ؟ هل كانت فى مشاجرة مــع أهلها وهم المشهورون بالتقوى ؟ ولماذا تسكن فتاة عذراء بعيدة عن أهلها ؟

فى القرآن تناقض فى هذا المعنى . وهو أنه صرح بأنـــها كـــانت فـــى المحراب فى كفالة زكريا ، وصرح بأنها انتبذت . أى خرجت منـــــهم بعـــد مشاجرة .

وقال المؤلف : إن القرآن قد خالف الإنجيل فى مكان سكناها من قبـــــل الحبل بعيسى ــ عليه السلام ــ ففى القرآن : أنها كانت تسكن فى محـــــراب أورشليم ، أو فى أى مكان مجهول . وفى الإنجيل أنها كـــانت تســكن فـــى " الناصرة " [لو ١ : ٢٦ــ٢٣] .

الرد على الشبهة :

١ ــ جاء فى إنجيل يعقوب : أن مريم وهى فى سن الثالثة : ذهبت بها أمـــها بصحبة أبيها إلى " أورشليم " وسلماها إلى كهنة هيكـــل ســـليمان ، وكـــانت علامات السرور تبدو عليها . ثم تركاها ورجعا إلى أورشليم ، وعاشت مـــع الراهبات المنذورات إلى أن حبلت .

٢ ــ وإن أنت نظرت فى خريطة فلسطين . تجد حبرون أســـــفل أورشـــليم وقريبة منها ، وتجد الناصرة على نفس الخط وبعيدة عن أورشليم . فتكـــــون أورشليم غرب الناصرة ، وشرق حبرون .

٣ ــ وفى الإنجيل : " وفى ذلك الوقت ولد موسى وكان جميلاً جدًّا . فربى هذا ثلاثى أشهر فى بيت أبيه . ولما نُبذ ؛ اتخذته ابنة فرعون ، وربته لنفسها ابناً " [أعمال ٧ : ٢١]

قوله " ولما نبذ " لا يدل على أن أهله كرهوه وإنما يدل على أنهم وضعوه فى التابوت وهم لوضعه كارهون . ومن ينتبذ عن قوم ؛ لا يدل انتباذه عنهم على كرهه لهم ، وإنما يدل على ابتعاده عنهم لسبب أو لأسباب . وإذ صح وثبت أن ابتعادها عنهم كان لعبادة الله ؛ يثبت أنها لم تنتبذ لمشاجرة .

٤ ــ وقد تبين أن " الناصرة " من نصيب سبط زبولون ــ وهو من أسباط السامريين ــ وهى من سبط يهوذا ــ على حد زعمه ــ فكيف تكون من سكان الناصرة ؟ وإذا كانت من سكان الناصرة ، فلماذا أتت إلى أورشليم لتعدّ مع سكانها . وسكان أورشليم من سبطى يهوذا وبنيامين ؟ فالحق ما قاله القرآن أنها كانت هارونية . ومعلوم أن زكريا وامرأته ويوحنا المعمدان كانوا من التابعين لأهل أورشليم .

الشبهة الرابعة والثمانون

مريم تلد فى البرية ووليدها يكلمها من تحتها

لقد ولدت مريم السيد المسيح فى بيت لحم كما تنبأ أنبياء التوراة بذلـــك قبل حدوثه بمئات السنين ، وليس بجوار جذع نخلة . ووضعت مريم وليدهـا فى مذود [لوقا ٢ : ٢ــ٢٠] وغريب أن يكلمها وليدها من تحتها : أن تهز جذع النخلة وتأكل من البلح وتشرب من الجدول . فإذا مرّ بها أحد تقول : ﴿ **إنـــى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا** ﴾ [1] فأين الصوم وهـــى الآكلـة الشاربة المُتكلمة ؟

الرد على الشبهة :

١ ــ ولادة المسيح فى بيت لحم ــ كما قال المؤلف ــ تدل على أن مريم من سكان الخليل التى هى حبرون ، ولا تدل على أنها من سكان الناصرة . ففـى خريطة فلسطين تجد بيت لحم تحت أورشليم ، وبعدها حبرون . وعلى هـــذا تكون مريم بعد حملها بالمسيح وإحساسها بدنو الوضع . قـــد اتجـــهت إلـــى حَبرون ﴿ فأجاءها المخاض ﴾ عند بيت لحم . ولو كانت من الناصرة وأحست بالحمل وبالوضع . لاتجهت إلى الناصرة . وعندئذ يكون الوضع فى مكـــان بين أورشليم وبين الناصرة . فقولهم بالمخاض فى بيت لحم يصدق القـــرآن فى أنها كانت من نسل هارون الساكنين فى حبرون .

---

(١) مريم : ٢٦ .

٢ ــ وقول المعترض : إن التوراة تنبأت بولادة المسيح فى بيت لحم . يقصد به ما جاء فى سفر ميخا وهو " أما أنت يا بيت لحم أفراتة وأنت صغيرة أن تكونى بين ألوف يهوذا ، فمنك يخرج لى الذى يكون متسلطاً على إسرائيل ، ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل " [ميخا ٥ : ٢] .

والنبوءة موضوعة وليست من النص الأصلى . بدليل : أن المسيح كان من الهارونيين من جهة أمه ، وبيت لحم من مدن سبط يهوذا . ولو كان له أب لأمكن للنصارى نسبته إلى سبط أبيه . ولكنه لا أب له ؛ فكيف ينتسب إلى سبط يهوذا أو غير سبط يهوذا ؟ وبدليل : أن المتسلط على إسرائيل وهو النبى الأمى الآتى على مثال موسى . يكون ملكاً وفاتح بلاد . ولم يكن المسيح ملكاً ولا فاتح بلاد .. وبدليل : أن سفر ميخا مرفوض من السامريين . وبدليل أن شراح سفر ميخا يصرحون بالتناقض فيه.والنبوءة من مواضع التناقض التى صرحوا بها. يقول الشراح : "هناك تعليمان متشابكان فى كتاب ميخا : الأول : الله يدين شعبه ويعاقبه [ف١ ــ ٣ : ٦ : ١ ــ ٧ : ٧] الله يعد شعبه بالخلاص [ف ٤ــ ٥ و ٧ : ٨ــ٢٠] حين يُعيده إلى حاله السابقة ويجعله بقيادة رئيس من نسل داود [٥ : ١ــ٤] .

٣ ــ وقد جاء فى إنجيل متى الأبوكريفى معجزة النخلة .

٤ ــ وكلام المسيح فى المهد جاء فى برنابا وفى إنجيل الطفولية العربى ، وجاء فى تاريخ يوسيفوس .

٥ ــ وقال المعترض : إن المسيح كلم أمه من تحتها : أن تهز جذع النخلة .. إلخ . وهو قد قال بذلك على قراءة " مِن تحتها " والحق : أن الذى ناداها هو ملاك الله نفسه . وسياق الكلام يدل على أنه الملاك . فإنه قد قال لها : ﴿ **كذلك قال ربك هو علىّ هيّن ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان**

أمراً مقضياً ﴾ [1]، ولما حملته وانتبذت به وأجاءها المخاض وتمنّت الموت ؛ عاد إلى خطابه معها فقال : ﴿ **ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سـريا وهـزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً فكلـى واشـربى وقـرى عينـاً فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليـوم إنسيا** ﴾ [2] .

وأما كلام المسيح فهو لم يقل إلا ﴿ **إنى عبد الله أتانى الكتاب وجعلنـى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيًّا وبـرا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويـوم أبعث حيا** ﴾ [3] .

٦ ــ المعترض قد غالط فى نقل المعنى بقوله : " وغريب أن يكلمها وليدهـا من تحتها : أن تهز جذع النخلة وتأكل من البلح وتشرب من الجدول ؛ فـإذا مر بها أحد تقول : ﴿ **إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسـيا** ﴾ [4] فأين الصوم وهى الآكلة الشاربة المتكلمة ؟ " .

ووجه المغالطة : أنه يقول فإذا مر بها أحد تقول .. إلـخ . والمعنـى الصحيح : أنها لا تقول لكل أحد يمر عليـها إنـها صائمـة عـن الطعـام والشراب . وإنما تقول : لا أتكلم مع أحد فى أمر ابنى فى هذه الأيام . فجملة ﴿ فإما ترين من البشر .. ﴾ جملة مستأنفة لا صلة لها بالطعام وبالشـراب . وقولها : ﴿ إنى نذرت للرحمن صوما ﴾ تعنى به المعنـى المجـازى وهـو الإمساك عن الكلام بدليل : ﴿ فلن أكلم ﴾ ولم تقل فلن آكل .

---

(١) مريم : ٢١ .

(٢) مريم : ٢٤ــ٢٦ .

(٣) مريم : ٣٠ــ٣٣ .

(٤) مريم : ٢٦ .

الشبهة الخامسة والثمانون

لكل أمة رسول منها إليها

إنه جاء فى القرآن أن لكل أمة رسول منها . وهـــذا ينـــاقض الكتـــاب المقدس فى أن الأنبياء والرسل هم من بنى إسرائيل وإليهم وإلى كل العـــالم . فإذا صدق ما فى القرآن فكيف لم يخرج للأمم فى إفريقيا وأوروبا وأمريكـــا واستراليا وآسيا : أنبياء منهم وإليهم ؟ ولو كان لهذه الأمم أنبيـــاء ــ منـــها وإليها ــ لجاز أن يكون للعرب رسول منهم .

الرد على الشبهة :

إن كلمة الرسول تأتى على الحقيقة وتأتى على المجاز . فعيسى ــ عليه السلام ــ رسول على الحقيقة . وإذا هو أرسل واحداً من الحواريين إلى قرية من القرى فإنه يكون رسول رسول الله عيسى على المجاز . ففـــى إنجيـــل متى : " هؤلاء الإثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً : " إلى طريق أمـــم لا تمضوا .. " [متى ١٠ : ٥] .

وابتداء الدعوة إلى الله كان فى زمن أنوش بن شعيث بن آدم ؛ لقولـــه : " حينئذ ابتُدئ أن يُدعى باسم الرب " [تك ٤ : ٢٦] وظل الحـــال علـــى هـــذه الدعوة التى كانت دعوة إلى مكارم الأخلاق وعدم سفك الدماء ظلمـــاً إلـــى زمان نوح ــ عليه السلام ــ ولم يكن من المطعومات شىء محرم فلما خرج نوح من السفينة أعطاه الله شريعة فيها أن كل الطعام حـــلال ، وأن يحـــب المرء لأخيه ما يحبه هو لنفسه ، وليس فيها شريعة تبين أن هذا حلال وهذا

حرام . ففى الإصحاح التاسع من سفر التكوين : " كل دابة حية تكون لكم طعاماً . كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع .. " وظلت شريعة نوح سائدة على العالم إلى أن جاء موسى ــ عليه السلام ــ وأعطاه الله التوراة ﴿ **موعظة وتفصيلاً لكل شىء** ﴾ وأمره أن يخصص سِبط لاوِى من بين الأسباط ليعرفها ويعرّفها للناس .

وهذا الذى ذكرته هو ما يقول به أهل الكتاب جميعاً ، ونص عليه أهل الكتاب فى كتبهم . وعنه فى القرآن الكريم : ﴿ **كل الطعام كان حلاً لبنى إسرائيل** ﴾ [1] وهو حلال من أيام نوح ــ عليه السلام ــ وعلى ذلك نسأل المؤلف هذا السؤال وهو أن الناس من آدم أبى البشر إلى موسى الكليم كانت رسلهم من بنى إسرائيل أم من غير بنى إسرائيل ؟ إن قلت إن رسلهم كانت من بنى إسرائيل يكذبك الواقع والكتب التى تقدسها ، وإن قلت كانت من غير بنى إسرائيل فلماذا وجهت السؤال إلى المسلمين ؟

أما من موسى إلى محمد ﷺ فإن علماء بنى إسرائيل من اللاويين والهارونيين كانوا يبلغون التوراة لليهود وللأمم ، وإذا انطلق واحد منهم إلى الأمم ؛ فإنه يكون رسولاً إلى الأمم . ليس على الحقيقة ، وإنما على المجاز بمعنى أنه رسول رسول الله موسى ــ عليه السلام ــ وظلوا على هذا الحال إلى زمان سبى بابل سنة ٥٨٦ق.م فإنهم وهم فى بابل حرفوا التوراة ، وقصروا شريعة موسى على اليهود من دون الناس ، وابتعدوا عن دعوة الأمم ، وتعصبوا لجنسهم وتآمروا على الأمم ﴿ **ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل** ﴾ [2] .

---

(١) آل عمران : ٩٣ .

(٢) آل عمران : ٧٥ .

ومن قبل سبى بابل كان علماؤهم يدعون العرب إلـــى الله علـــى وفـــق شريعة موسى . فيكون العالم الداعى رسولاً مجازاً . وهكذا فى سائر بـــلاد العالم . أما من بعد السبى وتخلى العلماء عن الدعوة فإن كل أمة سارت على ما عندها من العلم . وقد وبخهم المسيح عيسى ــ عليـــه الســلام ــ علـــى إهمالهم فى دعوة الأمم بقوله : " لكن ويل لكـــم أيـــها الكتبـــة والفَرِّيسِـــيُّون المراءون ؛ لأنكم تُغلقون ملكوت السماوات قدام الناس ؛ فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون " [متى ٢٣ : ١٣] .

ثم حث أتباعه بالانطلاق إلى بلاد اليهود أولاً بأمرين همـــا أن يعملـــوا بالتوراة ، وأن يستعدوا لتركها إذا ما ظهر محمد رسول الله الذى يبشر بـــه . وإذا فرغوا من دعوة اليهود فى بلادهم ينطلقـــون إلـــى الأمـــم ، وســـماهم رسلاً مجازاً . فقال : " إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينـــة للســـامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرىّ إلى خُراف بيت إسرائيل الضالة . وفيما أنتـــم ذاهبون ، اكْرزوا قائلين : " إنه قد اقترب ملكوت السموات " [متـــى ١٠ : ٥] . وملكوت السماوات هى مجئ محمد ﷺ بعد مملكة الروم كما أنبأ النبى دانيـــال فى الإصحاح السابع من سفره .

الشبهة السادسة والثمانون

خَلْط الأسماء

ذكروا آيتين من سورة الأنعام ، وأوردوا الشبهة على نص الآيتين حيث قالوا :

جاء فى سورة الأنعام ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحـــاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهــارون وكذلك نجــزى المحســنين * وزكريــا ويحيــى وعيســى وإليــاس كــل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونسَ ولوطــاً وكــلاً فضلنــا علــى العالمين** ﴾ (١) .

والترتيب التاريخى هو :

أيوب ــ إبراهيم وابن أخته لوط وابناه إسماعيل وإسحاق وحفيــده يعقــوب وابن حفيده يوسف ومن بعده موسى ــ هارون ــ داود ــ سليمان ــ إليــاس ــ اليسع ــ يونس ــ زكريا ــ يحيى ــ عيسى .

الرد على الشبهة :

١ ــ إن الضمير فى ﴿ ومن ذريته ﴾ يعود إلى نوح ، ولا يعود إلى إبراهيــم وذلك لأن ﴿ لوطا ﴾ ليس من ذرية إبراهيم ، وإنما خرج معه مــهاجراً إلــى الله ، بعدما آمن له . وفى التوراة " ولوطاً ابن أخيه " [تك ١٢ : ٥] .

---

(١) الأنعام : ٨٤-٨٦ .

٢ ــ إن الترتيب التاريخى غير حاصل لأسباب منها : أنه يريد بيان فضلهم وصلاحهم ؛ ليقتدى الناس بهم .

وفى التوراة أنبياء لا يعرفون تواريخهم ولا يعرفون نسبهم ، ومنهم " أيوب " فإن منهم من يقول إنه من العرب ومنهم من يقول إنه من الأدوميين ومنهم من يجعله اسماً فرضيًّا . بل إن الأنبياء أصحاب الأسفار كإشعياء وإرمياء وملاخى وحَبقّوق وميخا ؛ لا يعرفون هم أنفسهم السابق منهم عن اللاحق .

وقد جمعوا أسفارهم فى وقت واحد . ففى الكتاب المقدس الصادر عن دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط سنة ١٩٩٣م ما نصه : " كانت أول لائحة وضعت فى سبيل " قانونية " العهد القديم وأسفاره تضم أسفار الشريعة الخمسة فى أيام عِزْرا [نح ٨ : ١] حوالى عام ٤٠٠ ق.م ثم زاد المعلمون الأسفار النبوية من يشوع والقضاة حتى إشعياء وإرمياء وحوالى سنة ٩٠ ق.م التقى معلمو الشريعة اليهود من مختلف البلدان ، فى بلدة " يمنية " الواقعة فى " فلسطين " وثبتوا لائحة نهائية وكاملة للأسفار المقدسة .. إلخ [١] .

---

(١) ص ٣ الكتاب المقدس طبعة لبنان سنة ١٩٩٣م .

الشبهة السابعة والثمانون

أخنوخ وليس إدريس

إنه فى القرآن اسم إدريس . واسمه فى التوراة أخنوخ . وقال البيضـــلوى فى تفسيره : إن إدريس هو أخنوخ . ونحن نسأل من أين جاء فى القرآن اسم إدريس ؟ والصواب أنه أخنوخ .

الرد على الشبهة :

إن اسمه فى التوراة السامرية " حنوك " والنص هو :

وسلك حنوك فى طاعة الله وفُقد ؛ إذ تولته الملائكـــة " [تلـك ٥ : ٢٤] والتوراة اليونانية تضيف حرف السين فى آخر الاسم ليعلم أنـــه اســـم مثـــل يوسيفوس ــ إدريانوس .وإدريس ؛ فى آخره السين ، وكذلك يونس . وهـــو فى العبرى يونان . وعيسى ــ عليه السلام ــ فى اليونانى " إيسوس " ، وفى العبرى " يهو شوّع " وينطق أحياناً " أيشوع " و " يسوع " .

وأخنوخ له سفر لا يعترف به النصارى . ومع ذلك نقل منه يهوذا فـــى رسالته : " انظروا جاء الرب مع ألوف قديسيه ؛ ليحاسب جميـــع البشـــر ، ويدين الأشرار جميعاً على كل شر فعلوه ، وكل كلمة سوء قالها عليه هـؤلاء الخاطئون الفجار " [يهو ١ : ١٤ــ١٥] .

وهذا النص يثبت أن كل امرئ بما كســـب رهيـــن ، خلافـــاً لاعتقـــاد النصارى فى موت المسيح على الصليب لِيُكَفِّر عن خطايا آدم .

ومفسرو التوراة يستدلون من نقله على ثبوت الحياة من بعـــد المـــوت ورأى فيلبسون من قوله " الله أخذه " أن ذلك تلطف بالتعبير عن الوفاة قبـــل إكمال العمر ، وأن فى ذلك دليلاً علـــى وجـــود حيـــاة وراء هـــذه الحيـــاة الأرضية . ونزيد على ذلك : أن نقل أخنوخ فـــى متوســـط العصـــر الـــذى قبل الطوفان ، وأن حياته كانت على الأرض ٣٦٥سنة وهـــو عـــدد الأيـــام فى السنة الشمسية وكانت سنة العـــبرانيين ٣٥٤ يومـــاً وســـنة الكلدانييـــن ٣٦٠ يوماً " ا.هـــ

الشبهة الثامنة والثمانون

نوح لم يتبعه الأراذل

إن في القرآن أن نوحاً عليه السلام نجا معه جماعة من المؤمنين من غير أولاده . وهذا يخالف ما فى التوراة وما فى الإنجيل من أنه لم ينج معه من المؤمنين أحد غير أولاده . وأن القرآن بين أن الكافرين بنوح وصفوا المؤمنين به بأنهم أراذل .

الرد على الشبهة :

١ ــ إن الذين خرجوا من السفينة حسب نص التوراة العبرانية :

(١ ــ سام ٢ ــ حام . ٣ ــ يافث . ٤ ــ نوح . ٥ ــ امرأته . ٦ ــ زوجة سام . ٧ ــ زوجة حام . ٨ ــ زوجة يافث) فيكون العدد ثمانية .

٢ ــ والدليل على صحة ما فى القرآن : هو أن قابين لما قتل هابيل ؛ ولد حنوك ولد عيراد ، وعيراد ولد محويائيل ، ومحويائيل ولد متوشائيل ، ومتوشائيل ولد لامك ، ولامك ولد يابال . الذى كان أباً لساكنى الخيام ورعاء المواشى . واسم أخيه يوبال الذى كان أباً لكل ضارب بالعود والمزمار ، واسم أخيه توبال قابين . الضارب كل آلة من نحاس وحديد [تكوين ٤] .

قوله عن الثلاثة : الذى كان أباً لساكنى الخيام ورعاء المواشى ــ الذى كان أباً لكل ضارب بالعود والمزمار ــ الضارب كل آلة من نحاس وحديد ؛ يدل على أنه كان من الناجين غير أبناء نوح . ولذلك قال مفسرو التوراة : " وسلالة قابين سلالة الحياة المدنية ، وسلالة شعث سلالة الحياة القدسية " .

الشبهة-التاسعة والثمانون

تهاويل خيالية حول برج بابل

قال المؤلف : إنه جاء في سورة النحل ﴿قد مكر الذين من قبلهم ..﴾ [1] ثم قال : قال البيضاوى : قيل : المراد به نمرود بن كنعان فإنه بنى صرحاً ببابل .

الرد على الشبهة :

إنه وجه الشبهة على كلام مفسر . وهذا المفسر لم يجزم بأن تفسيره هو الصحيح بدليل قوله : " قيل " فكيف يورد شبهة على كلام مفسر ؟

الشبهة التسعون

اختراع طفل ينطق بالشهادة

إنه في سورة يوسف ﴿ **وشهد شاهد من أهلها** ﴾ [2] وذكر تفسير الشيخ البيضاوى وهو أنه قيل إنه ابن عمٍّ لها صبيًّا في المهد .

الرد على الشبهة :

إن المعنى المراد هو : وشهد شاهد من أهل الشهادة بقرينة الحال . ومع هذا فإنه لا يصح توجيه شبهة على قول مُفَسَّر ، خاصة أنه قال : " قيل " .

---

(١) النحل : ٢٦ .

(٢) يوسف : ٢٦ .

الشبهة الحادية والتسعون

الكعبة بيت زحل

فى سورة البقرة : ﴿ **وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا** ﴾ إلى قولـــه : ﴿ **إنك أنت السميع العليم** ﴾ [1] .

ثم قال : كيف تكون الكعبة بيت الله ، وقد بنيت أول الأمر لعبادة كوكب زحل ؟ واستدل على قوله هذا بأقوال مؤرخين .

وقال : إن فى الكتاب المقدس : أن إبراهيم دُعى من " أُور " الكلدانيين إلى أرض كنعانْ ، وتَعَرَّب فيها .

الرد على الشبهة :

١ ــ إن أقوال المؤرخين ليستْ حُجة .

٢ ــ إن إبراهيم ــ عليه السلام ــ لم يُدع من " أور " كما قال هذا المعترض . وإنما خرج من أرض آبائه وهو لا يعلم أين يذهب . ففى الإصحاح الثانى عشر من سفر التكوين : " وقال الرب لأبرام : اذهب من أرضك ، ومن عشيرتك ، ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أُريك ؛ فأجعلك أمة عظيمة ، وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة " [تك ١٢ : ٢] وكان خروجه عن " حاران " والدليل على أنه من " حاران " : " وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران " [تك ١٢ : ٤] وفى سفر أعمال الرسل : " فخرج حينئذ من أرض الكلدانيين ، وسكن فى حلوان " [أع ٧ : ٤] ففى التوراة أنه خرج من حاران ، وفى الإنجيل أنه خرج من أرض الكلدانيين . فأى النصين هو الصحيح ؟

---

(١) البقرة : ١٢٥ــ١٢٧ .

الشبهة الثانية والتسعون

إسماعيل بين الأنبياء

إن القرآن ذكر أن إسماعيل كان ﴿ رسولاً نبيًّا ﴾ وفـــى التـــوراة أنـــه إنسان وحشى . وهذا تناقض .

الرد على الشبهة :

١ ــ أما أنه كان رسولاً فهذا لا إشكال فيه . فإن الشريعة التى كان عليـــها هى شريعة نوح ــ عليه السلام ــ وكان يبلغها للناس كما يبلغها غيره .

٢ ــ وأما أنه كان نبيًّا فهذا هو الإشكال عند المؤلف ، وهو ليس بإشـــكال ؛ لأن النبى هو المنبئ بغيب ، ويقع الغيب من بعده كما أنبأ به . فلننظر فـــى إسماعيل ــ بحسب تفسير كلمة النبى عندهم ــ هل أنبأ بغيب أم لا ؟ إنه من إبراهيم الذى سار مع الله ، ودعا إليه ، ورغب فيه . ولســـيره ، وعـــده الله بالبركة فى إسماعيل وإسحاق . والبركة ملك ونبوة وإذ وعد إسماعيل بنبـــى من نسله ، وأنبأ بتحقق هذا الوعد . ووقع كما قال . فإنه قـــد ظـــهر منـــه محمد ﷺ فإنه يكون نبيًّا .

ففى التوراة : " ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ؛ ظـــهر الـــرب لأبرام وقال له : " أنا الله القدير . سر أمامى ، وكن كاملاً ؛ فأجعل عـــهدى بينى وبينك وأكثرك كثيراً جداً " [تك ١٧ : ١ــ٢] وعن البركة فى إســـحاق : " وأباركها وأعطيك أيضاً منها أبناء أُباركها فتكون أمماً وملوك شعوب منـــها يكونون " [تك ١٧ : ١٦] ، وعن البركة فى إسماعيل : " وأما إســـماعيل فقـــد سمعت لك فيه . ها أنا أباركهُ وأثمره وأكثره كثيراً جداً .. " [تـــك ١٧ : ٢٠] وقد قام ببركة إسحاق نبى الله موسى ، وقام ببركة إسماعيل نبى الله محمـــد . وإسماعيل قد أنبأ به من قبل ظهوره .

الشبهة الثالثة والتسعون

أبناء يعقوب يطلبون أن يلعب يوسف معهم

إنه جاء فى سورة يوسف من القرآن الكريم أن إخوة يوسف احتالوا على أبيهم فى أخذ يوسف منه بقولهم : ﴿ **أرسله معنا غدا يرتع ويلعب** ﴾ [1] وليس فى التوراة هذه الحيلة .

الرد على الشبهة :

إن ما جاء فى القرآن ، ولم يجئ فى التوراة ؛ لا يدل على إيراد شبهة على القرآن ، وذلك لأن نسخ التوراة الثلاثة العبرانية واليونانية والسامرية لا تتفق على القصة اتفاقاً تامًّا . ففى اليونانية صواع الملك . وليس فى العبرانية صواع الملك . ففى التوراة العبرانية ترجمة البروتستانت : " ولما كانوا قد خرجوا من المدينة ولم يبتعدوا ؛ قال يوسف للذى على بيته : قم اسع وراء الرجال ، ومتى أدركتهم فقل لهم : " لماذا جازيتم شرًّا عوضاً عن خير ؟ أليس هذا هو الذى يشرب سيدى فيه . وهو يتفاءل به ؟ أسأتم فيما صنعتم " [تك ٤٤ : ٤ــ٥] وفى الكتاب المقدس ترجمة ١٩٩٣م بلبنان الصادر عن دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط : " فما أن خرجوا من المدينة ، وابتعدوا قليلاً حتى قال يوسف لوكيل بيته : قم اتبع هؤلاء الرجال . فإذا لحقت بهم فقل لهم : لماذا كافأتم الخير بالشر ؟ لماذا سرقتم كأس الفضة التى يشرب بها سيدى . وبها يرى أحوال الغيب ؟ أسأتم فيما فعلتم " .

فكأس الفضة فى نسخة ، وهو غير موجود فى نسخ أخرى .

---

(١) يوسف : ١٢ .

الشبهة الرابعة والتسعون

وليمة نسائية وهمية

إنه جاء فى سورة يوسف أن امرأة العزيز هيأت وليمة لبعض السيدات وأنهن قطعن أيديهن . وهذا غير معقول .

الرد على الشبهة :

كانت دعوة موسى ــ عليه السلام ــ فى الأصل عالمية لليهود وللأمم . وكان فيها الدعوة إلى حميد الصفات . وكان فيها عدم احتقار اليهودى للأممى ، وعدم التعدى على أمواله وحرماته . وكان فيها الحث على دعوة الأممى إلى معرفة الله وعبادته . وفى زمان سبى بابل حَرَّف اليهود التوراة ، وامتنعوا عن دعوة الأمم إلى معرفة الله ، وأباح اليهود لأنفسهم أخذ الربا من الأميين ، والزنا بنسائهم ، وسفك دمائهم وما شابه ذلك من الصفات الذميمة . وكتبوا ما يدل على ذلك فى التوراة ، وحذفوا من التوراة حال تحريفهم لها ما يمنعهم عن ظلم الأميين . ومن هذا الذى حذفوه : دعوة يوسف ــ عليه السلام ــ للمصريين الذين كانوا معه فى السجن إلى عبادة الله تعالى وترك الآلهة المتعددة ، وحذف قول النسوة ليوسف : ﴿ **ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم** ﴾ [1] لأن هذا يتعارض مع تخليهم عن دعوة الأمم ، ويتعارض مع ما اتفقوا عليه من العبث بنسائهم . وألا يكن هذا صحيحاً . فما هذه الترهات المكتوبة فى التوراة عن الأنبياء وغيرهم ؟ ففى التوراة أن لوطاً

---

(١) يوسف : ٣١ .

ـ عليه السلام ـ زنا بابنتيه [تك ١٩] وأن سليمان ـ عليه السلم ـ أحب نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون [الملوك الأول ١١] .

وقال كاتب التوراة : إن سليمان ـ عليه السلام ـ هو ابن داود من زوجة أُورِيّا الحِثِّى . أى أنه تعدى على زوجة رجل من الأمم هو من قبيلة بنى حث وليس من اليهود . وإذا كان هذا هو المكتوب بغية التعدى على نساء الأمم ؛ فإن العقل لا يتصور أن يضع فى التوراة عفة يوسف عن نسلء الأمم . ولا يتصور العقل أن يكتب عن يوسف أنه فسر حلم الملك من قبل أن يخرج من السجن . لأنه لو كتبْ ذلك لكان معناه أن يوسف يحسن إلى من سيئ إليه . وهو يريد لليهود أن يسيئوا لمن يحسن ولمن لا يحسن .

وإن أصر مورد الشبهة على إيرادها . ففى نسخ التوراة زيادة ونقص ، وفى نسخ الإنجيل أيضاً . ومن أمثلة ذلك : المزمور المائة والحادى والخمسين ؛ فإنه فى النسخة القبطية فقط .

الشبهة الخامسة والتسعون

عدم سجن بنيامين

إن فى القرآن أن يعقوب قال لأبنائه بعد رحيل بنيامين إلى مصر : ﴿ **بل سولت لكم أنفسكم أمرًا فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعـــاً** ﴾ (١).

وقال المؤلف : إن المفسر البيضاوى يقول : إنه يقصد بقوله ﴿ **بهم جميعـــاً** ﴾ يوسف وبنيامين وأخيهما الذى توقف بمصر .

وإن القرآن جعل عدد مرات مجئ إخوة يوسف لمصر أربع مرات بـــدل ثلاث كما جاء فى التوراة ، وأن فى القرآن أن يوسف حبس بنيـــامين ، وأن إخوة يوسف رجعوا إلى أبيهما بدون شمعون وبنيامين .

الرد على الشبهة :

الخلاف بين التوراة وبين القرآن فى سرد حوادث القصة لا يدل علـــى عيب فى القرآن ، ويدل على ذلك : ما فى التوراة من زيـــادة ونقـــص فـــى النسخة الواحدة ، وفى النسخ الثلاث . ومع هذا ففى التوراة ما يـــدل علـــى ما جاء فى القرآن ومن ذلك :

١ ــ أن يوسف كان قد أنجب ولدين فـــى مصـــر همـــا أفرايـــم ومنسّـــى [تك ٤٦ : ٢٠] ويعقوب أبوه من الأنبياء الملهمين ، ويدل على ذلك أنه يقول :

---

(١) يوسف : ٨٣ .

﴿ إنى لأجد ريح يوسف ﴾ [1] ــ **﴿ يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ﴾** [2] فإذا قال (بهم) بضمير الجمع . وقد صرح من بعد بفقد اثنين هما : يوسف وأخيه فقط ؛ لا يدل ضمير الجمع على ولد ثالث محبوس فى مصر ، وإنما يدل على ولدى يوسف .

٢ ــ أن فى التوراة ما يدل على سجن بنيامين وهو أنه لما دبر حيلته فى استبقائه وتمت الحيلة ، طلبوا منه أن يطلقه فرد عليهم بقوله : " حاشا لى أن أفعل هذا . الرجل الذى وُجد الكأس فى يده ؛ هو يكون لى عبداً ، وأما أنتم فاصعدوا بسلام إلى أبيكم " [تك ٤٤ : ١٧] .

فقوله : " هو يكون لى عبداً " معناه : أنه استبقاه فى " مصر " .

٣ ــ وفى التوراة ما يدل على بقاء كبيرهم فى مصر ، مع يوسف وبنيامين . وكبيرهم هو " راوبين " لا شمعون كما قال المؤلف إنه أخذه رهينة ، ولا يهوذا كما قال كاتب التوراة .

ومما يدل على بقاء كبيرهم : أنه استعطف يوسف بقوله : " فالآن ليمكث عبدك عوضاً عن الغلام عبداً لسيدى ، ويصعد الغلام مع إخوته ؛ لأنى كيف أصعد إلى أبى والغلام ليس معى ؟ لئلا أنظر الشر الذى يصيب أبى " [تك ٤٤ : ٣٣ــ٣٤] .

---

(١) يوسف : ٩٤ .

(٢) يوسف : ٨٧ .

الشبهة السادسة والتسعون

قميص سحرى

إنه جاء فى القرآن أن قميص يوسف لما رآه يعقوب ؛ أتى بصيراً إلـــى مصر مع أهله ، وقد كان قد عمى من الحزن .

ونقل من كتب التفسير أنه كان قميص إبراهيم .. إلخ .

واستبعد شفاء يعقوب برؤية القميص .

الرد على الشبهة :

إن التوراة مصرحة بعمى يعقوب ، وأنه سيبصر إذا وضع يوسف يـــده على عينيه . ذلك قوله : " أنا أنزل معك إلى مصر ، وأنا أصعدك أيضـــاً . ويضع يوسف يده على عينيك " [تك ٤٦ : ٤] هذه ترجمة البروتستانت . وفـــى ترجمة الكتاب المقدس بلبنان : " أنا أنزل معك إلى مصر ، وأنـــا أصعـــدك منها . ويوسف هو يغمض عينيك ساعة تموت " فيكون النص فى عدم العمى صراحة فى هذه الترجمة .

واتفقت التراجم على ضعف بصر يعقوب " وكانت عينا يعقوب كليلتيـــن من الشيخوخة ، ولم يكن يقدر أن يبصر " [تك ٤٨ : ١٠] .

واستبعاد شفاء يعقوب برؤية القميص ؛ لا محل له . وذلـــك لأن فـــى التوراة من هذا كثير . فنبى الله اليسع ــ عليه السلام ــ لما مات ودفنوه فـــى قبره ؛ دفنوا معه بعد مدة ميتاً . فلما مست عظامه عظام اليسع ؛ ردت إليـــه روحه . وهذا أشد فى المشابهة من قميص يعقوب ففى الإصحاح الثالث عشر

من سفر الملوك الثانى : " ومات اليشع فدفنوه . وكان غزاة مـــوآب تدخـــل على الأرض عند دخول السنة ، وفيما كانوا يدفنون رجلاً إذا بهم قـــــد رأوا الغزاة ؛ فطرحوا الرجل فى قبر اليشع . فلما نزل الرجـــــل ومـــسَّ عظـــام اليشع ؛ عاش وقام على رجليه " [٢مل ١٣ : ٢٠ــ٢١] .

الشبهة السابعة والتسعون

ابنة فرعون أو زوجته

إن في القرآن أن امرأة فرعون هي التـــي التقطـــت موســـى ـــ عليـــه السلام ـــ ويقول : إن فى التوراة أن الملتقطة له هى ابنة فرعـــون وليســـت امرأته . وهذا تناقض .

الرد على الشبهة :

إن كلمات التوراة مشكوك فيها . والدليل على ذلك : أن اسم الرجل فـــى موضع ، يأتى فى موضع آخر باسم آخر . وكذلك المرأة . وهـــذا يتكـــرر كثيراً . فإسماعيل ـــ عليه السلام ـــ كانت له ابنة اسمها " محلث " وتزوجـت " العيس " بن إسحاق ـــ عليه السلام ـــ [تك ٢٨ : ٩] وفى ترجمـــة لبنـــان " محلة " وفى نفس الترجمة " وبسمة " وفى ترجمة البروتستانت " بســـمة " [تك ٣٦ : ٣].

وفىكتب تفسير التوراة تصريح بكلمات ملتبسة مثل " ثم يذبحـــه كـــل جماعة إسرائيل فى العشية " [خر ١٢ : ٦] يقولون : " العشية " هـــذه اللفظـــة ملتبسة .. " والشيخ الكبير فى أرض مدين مختلف فى اسمه . ففى الخـــروج [٢ : ١٨] " رعوئيل " وفى الخروج [٤ : ١٨] " ثيرون " والابن الأول لموسى فى ترجمة " جرشوم " وعند يوسيفوس " جرشام " وفـــى ترجمـــة الســـبعين " جرسام " [خر ٢ : ٢٢] .

الشبهة الثامنة والتسعون

طرح الأولاد فى النهر صدر قبل ولادة موسى لا بعد إرساليته

إن فى سورة الأعراف : أن الملأ من قوم فرعون بعد ولادة موسى وظهور نبوته قالوا لفرعون : أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ؟ وقد رد عليهم بقوله : ﴿ **سَنُقَتِّلُ أبناءهم وتستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون** ﴾ (١) .

وفى سورة القصص : أن قتل الأبناء واستحياء النساء كانا من قبل ولادة موسى وهذا تناقض .

الرد على الشبهة :

إن قتل الأبناء واستحياء النساء كانا من قبل ولادة موسى ـ عليه السلام ـ وهو فيما بعد يهدد باستمرار القتل والزيادة فيه .

---

(١) الأعراف : ١٢٧ .

الشبهة التاسعة والتسعون

صَدَاق امرأة موسى

إن فى سورة القصص أن موسى أصدق امرأته من مدين خدمة ثمانى أو عشر لأبيها . وفى التوراة أنه كان له سبع بنات لا اثنتين ، وأنه لم يصـــدق المرأة . لا بالخدمة ولا بما يقوم مقامها .

الرد على الشبهة :

هب أنه كان عنده سبعة . وقدم له اثنتين لائقتين بحاله لينتقـــى واحـــدة منهما . فما هو الإشكال فى ذلك ؟ وحال يعقوب مع خاله " لابان " ، كحـــال موسى مع كاهن مديان . فإنهما كانا يتعيشان من رعى الغنم . وخدم يعقـوب خاله سبع سنين صداقاً لابنته الأولى " ليئة " وخدم سبع سنين أخرى صداقـــاً لابنته الأخرى " راحيل " وموسى هارب من أرض مصر بلا مال . فكيـــف يتزوج فى أرض غريبة بلا مال .

وفى النص ما يدل على ما اتفقا عليه . وهو " فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل . فأعطى موسى صفورة ابنته " ارتضى على ماذا ؟ ولماذا قـــال بعد الارتضاء : " فأعطى موسى صفورة ابنته " ؟ والنص كله هو : " وكـــان لكاهن مديان سبع بنات . فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيـــهن . فأتى الرعاة فطردوهن . فنهض موسى وأنجدهن وسقى غنمهن . فلما أتيـــن إلى رعوئيل أبيهن قال : ما بالكن أسرعتن فى المجئ اليوم ؟ فقلن : رجـــل

مصرى أنقذنا من أيدى الرعاة ، وإنه استقى لنا أيضاً وسقى الغنـــم . فقـــال لبناته : وأين هو ؟ لماذا تركتن الرجل ؟ ادعونه ليأكل طعامـــاً . فـــارتضى موسى أن يسكن مع الرجل ، فأعطى موسى صفورة ابنته " [خر ٢ : ١٦] وفى النص السامرى : " فلما أمعن موسى فى السكنى مع الرجل ؛ أعطاه صفورة ابنته لموسى زوجة " .

الشبهة المائة

لم ترث إسرائيل مصر

إن فى القرآن أن بنى إسرائيل ورثوا أرض مصر بعد هلاك فرعــون . وهذا خطأ فإنهم لم يرثوا إلا أرض كنعان .

الرد على الشبهة :

١ ــ على قوله : إن دعوة موسى كانت خاصة لبنى إسرائيل . فإن حـــدود مصر تبدأ من " رفح " وهم يقولون : إن المواعيد هى من النيل إلى الفرات . فيكون الجزء من رفح إلى النيل داخلاً فى الإرث .

٢ ــ والإرث ليس لاستغلال خيرات الأرض وتسخير أهلها فـــى مصـــالح اليهود . ولكنه " إرث شريعة " فإن الله قال لإبراهيم ــ عليـــه الســـلام ــ : " سر أمامى وكن كاملاً " [تك ١٧ : ١] أى امشى أمامى فى جميع البلاد لدعوة الناس إلى عبادتى وترك عبادة الأوثان . وقد سار إبراهيـــم ودعـــا بـــالكلام وبالسيوف . ولذلك سرّ الله منه ، ووعده بمباركة الأمم فى نسل ولديه إسحاق وإسماعيل . والبركة معناها : ملك النسل على الأمم إذا ظهر منـــه نبـــى . وسلمه الله شريعة . ولما ظهر موسى ــ عليه السلام ــ وسلمه الله التـوراة . أمره بنشرها بين الأمم . وإذا نشرها بين أمة فإنه يكون وارثاً لـــهذه الأمـــة " إرث شريعة " إذ هو بنشرها يكون بنو إسرائيل والأمم متساوون أمـــام الله فيها . وما فائدة بنو إسرائيل إلا التبليغ فقط . وبه امتازوا عن الأمم . ويـــدل على ذلك : إرثهم لأرض كنعان ــ كما يقولون ــ فإنهم ورثوها لنشر شريعة

التوراة فيها ، وكان الإرث على يد طالوت وداود ــ عليهما السلام ــ وقد قال داود ــ عليه السلام ــ لجالوت وهو يحاربه : إن الحرب للرب . أى أن القتال فى سبيل الله . ذلك قوله : " وتعلم هذه الجماعة كلها أنه ليس بسيف ولا برمح يخلّص الرب ؛ لأن الحرب للرب . وهو يدفعكم ليدنا "[صموئيل الأول ١٧: ٤٧] .

وإذا أراد الله نسخ التوراة يكون معنى النسخ إزالة ملك النسل اليهودى عن الأمم ليقوم النسل الجديد بتبليغ الشريعة التى أقرها الله فيهم لتبليغها إلى الأمم. وهذا ما حدث فى ظهور الإسلام. فإن بنى إسماعيل ــ عليه السلام ــ حاربوا وملكوا ونشروا القرآن وعلموه للأمم . ولهم بركة . فإن الله قال لإبراهيم عن إسماعيل : " وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه " [تك ١٧ : ٢٠] .

وفى التوراة عن بركة إبراهيم : " وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض " [تك ١٢ : ٣] ومعنى مباركة جميع أمم الأرض فى إبراهيم : هو أن نسله يبلغون للناس شرائع الله .

وفى التوراة عن إرث بني إسماعيل للأمم : " ويرث نسلك أمماً ، ويعمر مدناً خربة " [إش ٥٤ : ٣] .

٣ ــ وكتب المؤرخين تدل على أن بنى إسرائيل أقاموا فى مصر . وقد نقل صاحب تفسير المنار فى سورة يونس عن يونانيين قدماء أن موسى ــ عليه السلام ــ رجع إلى مصر بعد هلاك جنود فرعون وحكم فيها ثلاث عشرة سنة .

الشبهة الحادية بعد المائة

ضربات مصر عشر لا تسع

إن فى التوراة أن الآيات البينات عشر . وفى القرآن تسع [1] . وهذا تناقض .

الرد على الشبهة :

إن مفسرى التوراة صرحوا بالاختلاف فى عدد هذه الآيات . فالآية الثانية وهى الضفادع ؛ يوجد من يقول إنها التماسيح .

والآية الثالثة قال بعضهم إنها ضربة القمل ، وقال بعضهم إنها ضربة البعوض .

والآية الرابعة قال بعضهم إنها ذباب الكلب خاصة ، وقيل مطلق ذباب .

الشبهة الثانية بعد المائة

الطوفان على المصريين

إن فى القرآن أن الآيات التسع فيها آية الطوفان ، وليس فى التوراة هذه الآية .

الرد على الشبهة :

إن مفسرى التوراة مختلفون فى البيان ــ كما نقلنا عنهم سابقاً ــ .

---

(١) المقصود بالآيات التسع ما جاء فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات** ﴾ [سورة الإسراء : ١٠١] ، وقد ورد ذكر آية الطوفان فى قوله تعالى :﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قومًا مجرمين** ﴾ [سورة الأعراف : ١٣٣] ، أما بقية الآيات التسع فقد وردت فى آيات قرآنية أخرى .

الشبهة الثالثة بعد المائة

صخرة حوريب وليست آبار إيلّيم

جاء في سورة البقرة : ﴿ **وإذ استسقى موسى لقومـــه فقلنـــا اضـــرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً** ﴾ (١) .

وفى التوراة أن الاثنتى عشرة عيناً فى " إيليم " وفى القرآن أنـــهم فـــى " حوريب " وهذا تناقض .

الرد على الشبهة :

لم يذكر القرآن أن الاثنتى عشرة عيناً فى " حوريب " .

---

(١) البقرة : ٦٠ .

الشبهة الرابعة بعد المائة

لوحا الشريعة

إن الله كتب لموسى فى الألواح من كل شيء . وهـذا علـى مـا فـى القرآن . وعلى ما فى التوراة كتب لوحين اثنين ، وكتب عليـهما الوصايـا العشر فقط .

الرد على الشبهة :

١ ــ إن الألواح الأولى قد كسرت . وحل محلها ألواح جديدة .

٢ ــ والألواح الأولى كانت مكونة من :

أ ــ لوحين للعهد للعمل بالتوراة .

ب ــ ومن عدة ألواح مكتوب عليها كل أحكام التوراة .

ففى الأصحاح التاسع عشر من سفر الخروج وما بعده إلى الإصحـاح الرابع والعشرين كل أحكام التوراة وبعدها " فجاء موسى وحـدث الشـعب بجميع أقوال الرب وجميع الأحكام " .

ثم صعد إلى جبل الطور فأعطاه الله :

أ ــ لوحى الحجارة .

ب ــ والشريعة والوصية .

ومن قبل نزوله من على الجبل ؛ عبدوا العجل من دون الله .

ولما سمع موسى بالخبر كسر لوحى العهد فى أسـفل الجبـل . ولكـن كاتب سفر التثنية يقول : " إنه كسر لوحين كان عليهما كل أحكام الشـريعة

وعليهما مثل جميع الكلمات التى كلمكم بها الرب فى الجبل من وسط النـــار فى يوم الاجتماع " [تث ٩ : ١٠] ولا يمكن للوحى العهد أن يحملا مع العـــهد كل أحكام الشريعة التى نزلت فى يوم الاجتماع " .

ولما كسر الألواح . أعطى الله له بدلهم ألواح جديـــدة [خـر ٣٢ : ٢٩] والمكتوب على الألواح الجديدة ؛ أحكام الشريعة الموجودة فـــى الإصحـــاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية . وفيها : " لا تطبخ جديًا بلبن أمه " .

والمناسب لأحكام الشريعة (الألواح) بالجمع . ومنها لوحى العهد .

الشبهة الخامسة بعد المائة

هل طلبوا رؤية الله ؟

إن فى القرآن أن بنى إسرائيل طلبوا رؤية الله . وفى التوراة أنهم قـالوا لموسى : " تكلم أنت معنا ، ولا يتكلم معنا الله ؛ لئلا يموت " [خـر ٢٠ : ١٩] فعكس القرآن الموضوع .

الرد على الشبهة :

إن المؤلف جاهل بما فى كتابه .. وإن فيه :

أ ــ أن اليهود رأوا الله .

ب ــ وأن موسى طلب رؤية الله .

جـ ــ وأنهم طلبوا أن لايروا الله .

(أ) فموسى لما أخذ العهد على اليهود أن يعملوا بالتوراة ، بكّر فى الصباح وبنى مذبحاً فى أسفل الجبل . وأخذ العهد . ثم قال الكاتب : " ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرئيل ورأوا إلـه إسـرائيل ، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكـذات السـماء فـى النقاوة ، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بنى إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا " [خروج ٢٤ : ٩ــ١١] .

(ب) وطلب موسى رؤية الله " فقال : أرنى مجـدك " ورد عليـه بقولـه : " لا تقدر أن ترى وجهى .لأن الإنسان لا يرانى ويعيش " [خر ٣٣ : ١٨].

(ج) ولما تجلى الله للجبل ؛ حدث من هيبته حال التجلى نار ودخان وارتجف كل الجبل جداً . فارتعب بنو إسرائيل من هذا المنظر ، وقالوا لموســـى : إذا أراد الله أن يكلمنا مرة أخرى ؛ فليكن عن طريقك يا موسى ونحن لك نســمع ونطيع . فرد الله بقوله : أحسنو فيما قالوا . وسوف أكلمـــهم فـــى مســـتقبل الزمان عن طريق نبى مماثل لك يا موسى من بين إخوتهم وأجعل كلامى فى فمه ؛ فيكلمهم بكل ما أوصيه به [تث ١٨ : ١٥ــ٢٢] .

الشبهة السادسة بعد المائة

سليمان أو أبشالوم

إن داود وسليمان ــ كما فى القرآن ــ حكما فى الحرث ، وإن سليمان راجع داود فى الحكم .

ثم ذكر كلام المفسرين فى هذه القضية . وعقب عليه بقوله : القضية تليق بأبشالوم بن داود ؛ لأنه كان دائماً يعارض أقوال أبيه ولا تليق بسليمان .

الرد على الشبهة :

إن فى التوراة أن سليمان كان حكيماً . أحكم من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته . واللائق بحكمته هو الحكم فى الحرث . ففى الإصحاح الرابع من سفر الملوك الأول : " وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بنى المشرق ، وكل حكمة مصر ، وكان أحكم من جميع الناس من إيثان الأرزاحى ، وهيمان وكلكول ودردع بنى ماحول ، وكان صيته فى جميع الأمم حواليه وتكلم بثلاثة آلاف مثل ، وكانت نشائده ألفا وخمسا . وتكلم عن الأشجار من الأرز الذى فى لبنان ، إلى الزوفا الثابت فى الحائط ، وتكلم عن البهائم وعن الطير وعن الدبيب وعن السمك . وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته " [امل ٤ : ٣٠ــ٣٤] .

الشبهة السابعة بعد المائة

هاجر أو السيدة العذراء

إنه جاء فى سورة مريم : أن مريم لما حملت بالمسيح انتبذت به مكاناً قصيًّا . وعندئذ قد جعل الله لها تحتها (سريًّا) أى نهرا جارياً لتشرب منه . وهذا فى التوراة عن هاجر أم إسماعيل ؛ فإنها لما عطشت هيأ الله لها عين ماء . وقد وضعه القرآن على مريم .

الرد على الشبهة :

إنه فسر السرى بالنهر الجارى . وليس كذلك . فإن الملاك ناداها بعدم الحزن ؛ لأن الله قد جعل تحت كفالتها ورعايتها غلاماً سيكون سيّدا . فالسرى هو السيد وليس هو جدول الماء . وقد تحقق هذا الوعد ؛ فإن المسيح صار سيِّدًا . أى معلماً للشريعة . وقال للحواريين عن هذا المعنى : " أنتم تدعوننى معلماً وسيداً . وحَسَناً تقولون ؛ لأنى أنا كذلك " [يو ١٣ : ١٣] .

الشبهة الثامنة بعد المائة

لم تنزل مائدة من السماء

إن فى سورة المائدة : أن الحواريين قد طلبوا مائدة من الســـماء . وأن الله قال ﴿ إنى منزلها عليكم ﴾ ولا يقول الإنجيل : إن تلاميذ المسيح طلبـــوا منه آية من السماء ، ولا يقول : إن مائدة نزلت من السماء .

الرد على الشبهة :

إن المعترض غير دارس للإنجيل وغير دارس للتوراة . وذلك لأن فـــى إنجيل يوحنا أن الحواريين طلبوا آية من السماء " فقالوا له : فأية آية تصنع ؛ لنرى ونؤمن بك ؟ ماذا تعمل ؟ آباؤنا أكلوا المنّ فـــى البريـــة . كمـــا هـــو مكتوب : أنه " أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا " [يو ٦ : ٣٠ــ٣١] .

إنهم طلبوا مائدة من السماء ؛ لأنهم قالوا : " آباؤنا أكلـــوا المـــن فـــى البرية " بعد قولهم " فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك ؟ " واستدلوا على أكـــل آبائهم للمن بقولهم مكتوب فى التوراة أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليـــأكلوا . وهذا يدل على أن آباءهم أكلوا المن والسلوى فى ســـيناء . والنـــص هـــو : " وأمطر عليهم منّا للأكل وبرّ السماء أعطاهم " [مزمور ٧٨ : ٢٤] .

فهل نزل المن من السماء ؟ وقد سماه داود ــ عليه السلام ــ مائدة فـــى قوله عنهم : " قالو : هل يقدر الله أن يرتب مائدة فى البرية ؟ " [مز ٧٨ : ١٩] فمعنى نزوله من السماء : أنه من جهة الله لا من جهة إله آخـــر . ونـــص إنجيل يوحنا يبين أنهم طلبوا مائدة من السماء . ذلك قوله : " أنه أعطـــاهم

خبزاً من السماء ليأكلوا " فإذا بارك الله فى طعام من الأرض ليشـــبع خلقــاً كثيراً ؛ فإنه يكون مائدة من السماء . كالمن النازل من السماء . وهو لم ينزل من السماء وإنما كان على ورق الشجر ، وكالسلوى .

ومن أعجب العجب : أن مؤلف الإنجيل قال كلاماً عن المسيح فى شــأن محمد رسول الله لا يختلف اثنان فى دلالته عليه ﷺ . وقد استدل المسيح فيــه عليه ﷺ بنص فى الإصحاح الرابع والخمسين من سفر إشعياء .

ويقول المعترض : ولعلّ قصة القرآن عن نزول مائدة من السماء نشأت عن عدم فهم بعض آيات الإنجيل الواردة فى متى ٢٦ ومرقس ٢٤ ولوقا ٢٢ ويوحنا ١٣ . وغرضه من قوله هذا أن لا يعرف المسلمون موضع المـــائدة من الأناجيل لأنها بصدد كلام من المسيح فـــى شـــأن محمـــد رســـول الله ، وموضعها الإصحاح السادس من إنجيل يوحنا .

الشبهة التاسعة بعد المائة

قصة ذى الكفل

يقول المعترض : إنه جاء فى القرآن ذكر نبى اسمه (ذا الكفل) وليس فى التوراة مسمى بهذا الاسم . وذكر من كلام البيضاوى كلاماً فى شـــأنه ، وذكر أيضاً كلاماً لغيره .

الرد على الشبهة :

هو أنه جاء فى كتاب " نزهة المشتاق " ومؤلفه يهودى يحكى فيه تاريخ يهود العراق : أن (ذا الكفل) الذى ورد اسمه فى القـــرآن هـــو نبـــى الله حزقيال . وكان معاصراً لسبى اليهود فى بابل .

الشبهة العاشرة بعد المائة .

أصحاب الرس

جاء في سورة الفرقان (وأصحاب الرس) ثم ذكر كـــلام البيضـــاوى المفسر ، ووجه الإشكال عليه .

الرد على الشبهة :

إن كلام المفسر ليس بحجة ، ويوجد فى أرض العرب مدينـــة تســمّى مدينة " الرس " وهذا يدل على ذكر اسم قديم فى بلاد العرب . ربما يكـــون من اسم الأوائل .

الشبهة الحادية عشرة بعد المائة

حتى لقمان نبى

إنه جاء فى القرآن ﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة ..** ﴾ [1] . ونقل عن البيضاوى المفسر أنه كان معاصراً لداود ــ عليه السلام ــ وحرف المؤلف قول البيضاوى وهو أنه من أولاد آزر ابن أخت أيوب إلا أن لقمان كان معاصراً لأيوب . ووجه نقده على هذا بقوله كيف يكون معاصراً لأيوب وداود ، وبين أيوب وداود ما يقرب من ٩٠٠ سنة ؟ والبيضاوى لا يقصد معاصرته وإنما يقصد نسبه . ولم يقل البيضاوى إن لقمان كان نبيًّا ولم يقل القرآن وإنما قال ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة ﴾ ولكن المؤلف وجه الإشكال على النبوة فقال : فكيف يكون لقمانِ نبيًّا ؟

الرد على الشبهة :

إنه قال كيف يكون لقمان نبياً ؟ وليس فى القرآن أنه كان نبيًّا وإنما كان حكيماً . واسمه " لوكيوس " فى اليونانى و " لقمان " فى العبرانية . وفى سفر أعمال الرسل : " وكان فى أنطاكية فى الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون برنابا وسمعان الذى يدعى نيجر ولوكيوس القيروانى ومناين .. " [أع ١٣ : ١] وفى سفر الرسالة إلى أهل روما : أنه كان معاصراً لبولس ، وصديقا له : " يسلم عليكم تيموثاوس العامل معى ، ولوكيوس وياسون .. " [رو ١٦ : ٢١].

واللغة اليونانية تضيف حرف السين فى آخر الاسم مثل يوسيفوس ــ هيرودس ــ أغسطس قيصر . بير كلينوس وهو اسم أحمد رسول الله فى إنجيل يوحنا . وفى العبرانية " يونان " بالألف والنون . وفى اليونانية " يونس " .

---

(١) لقمان : ١٢ .

الشبهة الثانية عشرة بعد المائة

الكعبة مقام إبراهيم

إنه جاء فى القرآن أن الكعبة أول بيت وضع للناس . وأنها كانت مقـــام إبراهيم ، ومعلوم أن الكعبة من بناء الوثنيين كما جاء فى الكتب التاريخية .

الرد على الشبهة :

أولاً : إن الكعبة ليست من بناء الوثنيين كما جاء فى الكتب التاريخية التـــى لا يشك أحد فى أن لليهود دخل فيها . وإنما هى من بنـــاء نـــوح ــ عليـــه السلام ــ فإنه لما خرج من السفينة ، ونجا من الغرق هو ومن آمـــن معـــه. بنى " مذبحاً " لذبح الحيوانات عنده قربانا لله تعالى . ففى التوراة : " وبنـــى نوح مذبحاً للرب . وأخذ من كل البهائم الطـــاهرة ، ومـــن كـــل الطيـــور الطاهرة ، وأصعد محرقات على المذبح " [تك ٨ : ٢٠] وهذا المذبح كان فـــى أرض مكة المكرمة المدينة التى استقر الفلك فيها على الجُودِىّ . والدليل على ذلك قول التوراة : إن الناس من بعد نوح ارتحلوا شرقاً إلـــى أرض شـــنعار التى هى أرض العراق . فارتحالهم إلى الشرق إلى العراق يـــدل علـــى أن السفينة كانت فى بلاد العرب . ذلك قوله : " وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة . وحدث فى ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا بقعة فى أرض شـنعار ، وسكنوا هناك " [تك ١١ : ١ــ٢] .

وليس فى القرآن نصوص صريحة على أن العرب قد عبدوا الأصنـــام حتى يقال : إن الكعبة كانت لصنم رُحل . وفى التوراة نصـــوص صريحـــة على أن اليهود وأدوا نبيهم وبناتهم فى النار للعرافة والسحر وأنـــهم عبـــدوا الأصنام . بل وفى القرآن نصوص صريحة على أن اليهود عبدوا صنم البعل فى أيام إلياس ــ عليه السلام ــ ففى الزمور المائة والسادس : " وأهرقوا دماً زكيًّا . دم نبيهم وبناتهم الذين ذبحوا لأصنام كنعان وتدنست الأرض بالدماء " [مز ١٠٦ : ٣٨] . وفى الإصحاح الخامس والستين من سفر إشعياء : " أما أنتم الذين تركوا الرب ونسوا جبل قدسى ، ورتبوا للسعد الأكبر مائدة ، ومـــلأوا للسعد الأصغر خمراً ممزوجة .. " [إش ٦٥ : ١١] .

فى ترجمة الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط سنة ١٩٩٥م تحت كلمـــة السعد الأكبر : لجاد وهو المشترى ، وتحت كلمة السعد الأصغر : لمَنَى وهو الزهرة .

وفى ترجمة ١٩٩٥م بلبنان : " ونسيتم جبلى المقدس . وهيـــأتم مـــائدة للإله جاد ، ومزجتم الخمر للإلهة مناة " والتعليق عندهم هكذا : جاد ومنـــاة إلهان عند الكنعانيين .

هذا مما فى التوراة عن عبادة اليهود للأصنام ومما فيها : " بعدد مدنـــك صارت آلهتك يا يهوذا ، وبعدد شوارع أورشليم وضعتـــم مذابـــح للخـــزى ومذابح للتبخير للبعل " [إرمياء ١١ : ١٣] .

ويمكن الفهم من آيات فى القرآن أن العرب بنـــى إســـماعيل ــ عليـــه السلام ــ لم يعبدوا الأصنام قط . فإبراهيم ــ عليه الســـلام ــ وهـــو يبنـــى الكعبة ولم يكن له من ولد غير إسماعيل ، يطلب من الله طلبين فى ذريته : **أولهما** : أن يجنبهم عبادة الأصنام ، **وثانيهما** : أن يبعث فيهم نبيًّا منهم .

وإذ شهد الواقع بتحقيق الطلب الثانى فإن محمداً قد أرسل ؛ يكون الطلب الأول قد تحقق أيضاً .

وفى القرآن أن الله قد عاهد إبراهيم وإسماعيل بتطـــهير الكعبـــة مـــن الأصنام ولم يذكر أنهم نقضوا العهد . كما ذكر أن اليهود نقضوا فـــى قولـــه **﴿ فبما نقضهم ميثاقهم.. ﴾** [1] .

وأما قوله تعالى : **﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومنـــاة .. ﴾** [2] فـــإن فـــى التوراة أن اليهود عبدوا صنم مناة . والضمير فى (أفرأيتم) يحتمـــل أنـــه للعرب ويحتمل أنه لليهود . واحتمال عوده إلى اليهود أقوى لوجود شـــواهد فى التوراة عليه . ولا يقدر عاقل على اتهام بدليل محتمل .

وأما قوله تعالى : **﴿ وإذا الموءودة سُئلت بأى ذنب قتلـــت ﴾** [3] ففـــى التوراة أن اليهود وأدوا نبيهم وبناتهم . وليس فى القرآن من نـــص صريـــح على نسبة الوأد إلى العرب .

---

(١) النساء : ١٥٥ ، المائدة : ١٣ .

(٢) النجم : ١٩ــ٢٠ .

(٣) التكوير : ٨ــ٩ .

الشبهة الثالثة عشرة بعد المائة

فرعون بنى برج بابل بمصر

إن فى القرآن أن فرعون طلب من هامان أن يبنى له برجاً . وهذا خطأ لأن البرج من بناء الناس فى " بابل " من بعد نوح .

الرد على الشبهة :

إن فرعون طلب من وزيره الملقب بهامان أن يوقد له على الطين ليجعل له صرحًا . ولم يرد فى القرآن أنه أوقد له على الطين وجعل له صرحًـــا . ولو أنه أوقد وجعل فما هو الدليل على أن صرح مصر هو برج بابل ؟ ومن المحتمل أنه أراد ببناء الصرح ؛ التهكم على موسى .

الشبهة الرابعة عشرة بعد المائة

شاول الملك أو جدعون القاضى

جاء فى سورة البقرة : ﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً .. ﴾ إلخ [1] .

وهذه القصة هى قصة طالوت وداود لما فتحا فلسطين .

ووجه الإشكال أنه قال فيها : إن الله امتحن جيش طالوت بالشرب من النهر . والامتحان لم يكن لجيش طالوت وإنما كان لجيش جدعون وهو يحارب أهل مدين [قضاة ٧ : ١ــ٨] .

الرد على الشبهة :

إن سفر القضاة سفر تاريخى ، وسفر صموئيل الأول الذى أورد قصة طالوت وداود سفر تاريخى . فأى مانع يمنع من خطأ المؤرخ فى نقل جزء من قصة إلى قصة أخرى مشابهة لها . خاصة وأنه ليس معصوماً كالنبيين والمرسلين الحقيقيين ؟

ولهذا أمثلة كثيرة منها أن هذا النص مذكور مرتين : مرة فى سفر الخروج ، ومرة فى سفر التثنية من التوراة السامرية . ومذكور مرة واحدة فى سفر التثنية من التوراة العبرانية واليونانية . وهو : " نبيًّا أقمت لهم من حملة إخوتهم مثلك وجعلت خطابى بغيه ؛ فيخاطبهم بكل ما أوصيه به .

---

(١) البقرة : ٢٤٧ .

ويكون الرجل الذى لا يسمع من خطابه الذى يخاطب باسمى ؛ أنا أطالبـــه . والمتنبئ الذى يتقح على الخطاب باسمى ما لم أوصه من الخطـــاب ، ومـــن يخاطب باسم آلهة أخرى ؛ فليقتل ذلك المتَنبئ . وإذ تقول فى سرك : كيـــف يتبين الأمر الذى لم يخاطبه الله ؟ ما يقوله المتنبئ باسم اللهو لا يكون ذلـــك الأمر ولا يأتى ؛ هو الأمر الذى لم يقله الله . باتّقاح قاله المتنبئ . لا تخـــف منه " .

الشبهة الخامسة عشرة بعد لمائة

يتكلم فى المهد

إنه قد جاء فى القرآن أن المسيح قد تكلم فى المهد . وليس فى الأناجيل ما يدل على كلامه فى المهد .

الرد على الشبهة :

إن مريم لم تكن مخطوبة ولا متزوجة . وقد أحصنت فرجها . أى منعت نفسها عن الزواج طيلة حياتها وسلكت فى سلك الرهبنة . ثم إنها ابنة كاهن من نسل هارون ــ عليه السلام ــ وابنة الكاهن إذا زنت فإنها تحرق بالنار . لما جاء فى سفر الأخبار : " وإذا تدنست ابنة كاهن بالزنا ؛ فقد دنست أباها ، بالنار تحرق " [لا ٢١ : ٩] . ومريم قد أتت بولد وهى غير متزوجة . وهذا هو دليل الاتهام فلماذا لم تحرق ؟ إن عدم حرقها يدل على أن ابنها تكلم فى المهد . ومع ذلك فقد جاء فى بعض الأناجيل المرفوضة أنه تكلم فى المهد . ومن ذلك : " وبينما كانوا نياماً ؛ حذرهم الطفل من الذهاب إلى هيرودس " [بر ٧ : ١٠] .

الشبهة السادسة عشرة بعد المائة

يصنع من الطين طيراً

إن القرآن يصرح بأن المسيح خلق من الطين كهيئة الطير ، وليس فـي الأناجيل المعتمدة هذه المعجزة .

الرد على الشبهة :

إن هذه المعجزة وردت فى إنجيل توما . فإنه قد صنع من الطين هيئـــة اثنى عشر عصفوراً ، وأمرهم أن يطيروا ؛ فطاروا والناس ينظرون إليهم .

الشبهة السابعة عشرة بعد المائة

إنكار الصَّلب

إن القرآن ينكر صلب المسيح . والتاريخ يثبته .

الرد على الشبهة :

إن العلّة المترتبة على صلب المسيح هى غفران خطايا من يؤمن بـــه ربًّا مصلوباً والغفران لكل من كان فى المدة من آدم إلى المسيح إذا قدّر أنــهم لو كانوا له مشاهدين ، لكانوا به مؤمنين . فهل هذه العلة صحيحة ؟

بالتأكيد ليست بصحيحة . وذلك لأن آدم لما أخطـــأ هدتـــه الحكمـــة أن يعترف بخطئه وأن يتوب . فتاب الله عليه . وإذ هو قد تاب ، فأى فائدة مـــن سريان خطيئة آدم فى بنيه ؟ ففى سفر الحكمة : " والحكمة هى التى حمـــت الإنسان الأول أب العالم الذى خلق وحده لما سقط فى الخطيئة ؛ رفعته مـــن سقوطه ، ومنحته سلطة على كل شىء" [حك ١٠ : ١ــ٢] .

وفى التوراة : أن نجاة المرء من غضب الله يكـــون بـــالعمل الصـــالح حسبما أمر الله . ومن لا يعمل بما أمر الله ؛ فإنه لا يكون له نجاة . ففى سفر الحكمة عن نوح ــ عليه السلام ــ وولده : " وعندما غـــاصت الأمـــم فـــى شرورها ؛ تعرفت الحكمة برجل صالح ، وحفظته من كل عيب فـــى نظـــر الله ، وجعلته قويًّا يفضل العمل بأمر الله على الاستجابة إلى عاطفتـــه تُجـــاه ولده " [حكمة ١٠ : ٥] .

انظر إلى قوله " تجاه ولده " أى ولده الذى غرق لعدم إيمانه وعملـــه . وهذا النص من سفر الحكمة عن " ولده " ليس له نظير فـــى قصـــة نـــوح الموجودة فى التوراة العبرانية .

ويقول المسيح عيسى ــ عليه السلام ــ : " كل كلمـــة فارغـــة يقولـــها الناس؛ يُحاسبون عليها يوم الدين. لأنك بكلامك تُـــبرّر، وبكلامـــك تُـــدان " [متى ١٢: ٣٦ــ٣٧] .

وفى التوراة : " لا يُقتل الآباء عـــن الأولاد ، ولا يقتـــل الأولاد عـــن الآباء . كل إنسان بخطيئته يُقتل " [تث ٢٤ : ١٦] .

وفى الأناجيل أن المسيح بعد حادثة القتل والصلب ؛ ظهر أربعين يومـــاً للحواريين ، وتكلم عن ملكوت الله معهم . وهو ملكوت محمد رســـول الله ﷺ ففى بدء سفر أعمال الرسل : " الذين أراهم أيضاً نفسه حيًّا ببراهين كثـــيرة بعدما تألم ، وهو يظهر لهم أربعين يوماً ، ويتكلم عـــن الأمـــور المختصـــة بملكوت الله " [أع ١ : ٣] وظهوره وكلامه عـــن الملكـــوت ؛ يـــدلان علـــى استمراره فى الدعوة .

الشبهة الثامنة عشرة بعد المائة

تحليل إنكار الله

جاء فى سورة النحل : أن الإكراه على الكفـــر مـــع اطمئنـــان القلـــب بالإيمان ؛ يجوز . وهذا لا يصح لأنه ليس من الأمانة أن يزور الإنسان فـــى عقيدته .

الرد على الشبهة :

إن الضرورات تبيح المحظورات . وهذا موجود بكثرة فى التوراة وفـــى الإنجيل ومن ذلك : ما جاء فى الإصحاح الثالث عشر من سفر الملوك الأول أن رجلاً من رجال الله جاء إلى مدينة " بيت إيل " وتنبأ عليه . وقـــال لـــه الملك ادخل إلى بيتى لأعطيك أجرة ؛ فأبى بحجة أنه أمر من الله أن يعـــود مسرعاً . وكان نبى شيخ ساكناً فى بيت إيل . فأتى إليه بنوه وقصّوا عليـــه قصة رجل الله . فقال لهم : دلونى على الطريق التى رجع منها . فلما لحقـه قال له : ارجع معى لتتقوت . فأبى . فقال له النبى الشيخ : " أنا أيضاً نبـــى مثلك . وقد كلمنى ملاك بكلام الرب قائلاً : ارجع به معـــك إلـــى بيتـــك . فيأكل خبزاً ويشرب ماء . كذب عليه . فرجع معه وأكل خبزاً وشرب مـــاء [١مل ١٣ : ١٧ــ١٩] .

فقد استعمل الحيلة فى إرجاعه و " كذب عليه "

وفى الأناجيل والرسائل أن بولس كان ذا لسانين وذا وجهين .

فإنه لما ردوه للسياط ، كذب وقال : إننى رومانى الجنسية وقد ولـــدت حرًّا [أعمال ٢٢: ٢٨] وقال : أنا رجل يهودى من سبط بنيامين [رومية ١١ :١]. ولما مثل أمام رئيس الكهنة وضربه على فمه قال له بولس : " سيضربك الله أيها الحائط المبيض " ولما شتمه بهذا القول وفى التوراة أنه لا يجوز شـــتم رئيس الكهنة وَوَجَّه إليه اللوم على مخالفته للتوراة . قال بولس : لـــم أكـــن أعرف أيها الأخوة أنه رئيس كهنة ؛ لأنه مكتوب : رئيس شعبك لا تقل فيـــه سوءا [أع ٢٣ : ١ــ٥] ، [خروج ٢٢: ٢٨] .

وفى التوراة أن الإكراه على كسر حكم من أحكام الشريعة يسقط العقاب على كسر الحكم . فإن الفتاة العذراء المخطوبة لرجل ، إن وجدها فى الحقـل وأمسكها الرجل واضطجع معها ؛ يموت الرجل الذى اضطجع معها وحـــده " وأما الفتاة فلا تفعل بها شيئاً . ليس على الفتاة خطية للموت ، بل كما يقـوم رجل على صاحبه ويقتله قتلاً . هكذا هذا الأمر ، إنه فى الحقـــل وجدهـــا ؛ فصرخت الفتاة المخطوبة فلم يكن من يخلصها " [تث ٢٢ : ٢٦ــ٢٧] .

وفى الإنجيل ينصح المسيح تلاميذه بالحذر من الناس فيقول : " ها أنـــا أرسلكم كغنم فى وسط ذئاب . فكونوا حكماء كالحيات ، وبسطاء كالحمـــام . ولكن احذروا من الناس " [متى ١٠ : ١٦ــ١٧] .

الشبهة التاسعة عشرة بعد المائة

تحليل الحنث فى القَسَم

إنه جاء فى سورة البقرة : ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخكم بما كسبت قلوبكم** ﴾ [1] وليس هذا من مقومات النبل والشرف ؛ فإن المسيح قد نهى عن الحلف مطلقاً .

الرد على الشبهة :

تنص التوراة على " لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً " [خر ٢٠ : ٧] .

وفى سفر اللاويين : " ولا تحلقوا باسمى للكذب " [لا ١٩ : ١٢] .

ومفسروالتوراة يقولون : " اختلف المفسرون فى معنى هذه الوصية فقال قوم : إنها تنهى عن القسم بالله على صحة ما هو كاذب ، وقيل : إنها تنهى عن التهاون والاستخفاف باسمه تعالى ، حتى تحظر على الإنسان أن ينطق باسمه بدون مراعاة الرهبة والاحترام " .

ونَهْىُ المسيح عن القسم ليس عن كل شىء . بل عن القسم على ما هو باطل ، يقول المفسرون : " وقد أبان المسيح فى موعظته على الجبل أن الشريعة منعت عن القسم على صحة ما هو باطل فقط " .

وفى القرآن أن القسم مشروط ﴿ **أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس** ﴾ [2] وليس على الكذب . فيكون اللغو فى الآية مفسراً بغير الكذب .

---

(١) البقرة : ٢٢٥ .

(٢) البقرة : ٢٢٤ .

كبناء مسجد . هل يبنى أو لا يبنى ؟ فإنه إذا حسم التردد بيمين ، ثم بدا له أن يرجع فى الحال؛ فله ذلك. أما إذا حسم التِردد بيمين. وعزم عليـــــه وعقــده وأكده ؛ فليس له أن يرجع فيه. وإن رجع فيه يلزمه التكفير عنه. وعلى قوله ﴿ **أن تبروا وتتقوا وتصلحوا** ﴾ لايكون الكذب داخلاً فى الموضوع علـــى أى تفسير للغو .

الشبهة العشرون بعد المائة

تحليل الإغراء بالمال

إن فى القرآن أن من مصارف الزكاة ﴿ **والمؤلفة قلوبهم** ﴾ وهذا إغـراء بالمال للدخول فى الإسلام .

الرد على الشبهة :

إذا كان الإحسان إلى الناس إغراء لهم بالدخول فى الإسلام . فما بـــال النصارى ينشئون المستشفيات والمبرات الخيرية فى بلاد المسلمين وفى غير بلاد المسلمين لغرض التنصير والصد عن سبيل الله ؟ وفى الدين الإســـلامى أخذ الجزية من اليهود والنصارى إذا أصروا على ما نشأوا عليه . ولو كـــان التأليف إغراء ؛ لما أخذ المسلمون منهم أموال الجزية . ذلك قوله تعـــالى :

﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حـــرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزيـــة عن يد وهم صاغرون ﴾ [1] .

وهل يسمى النصارى مكارم الأخلاق إغراء ؟ والمؤلفة قلوبهم هم الذين ألف الله بين قلوبهم لقوله : **﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت مـــا فـــى الأرض جميعاً ما ألف بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾** [2] وللتأليف أسبابه . ومنها

---

(١) التوبة : ٢٩ .

(٢) الأنفال : ٦٣ .

الإنفاق على طلاب العلم الذين يتولون هدايتهم إلى الله . وذلك بفتح دور للعلم فيها ليتعلم الطلاب لغات الأمم ، ثم ينتشرون لتعليمهم وإزالة شبه الشـــيطان عن دينهم ، ووضع القرآن بينهم ، وما شابه ذلك . وهذا يُنفق عليه من أموال الزكاة .

الشبهة الحادية والعشرون بعد المائة

تحليل القتل

إن فى القرآن شريعة القتال من أجل إسلام الأُمم . وهذا يُعـــدّ إكراهـــاً للناس على قبول الدين بالسيف .

الرد على الشبهة :

إن إبراهيم ــ عليه السلام ــ كان يدعو إلى الله ، ومن يســـتجيب لـــه يكون مساوياً لجميع المؤمنين بالله . ومن لا يستجيب له ويصد عـــن ســـبيل الله ؛ كان يحاربه ، وإبراهيم هو أب اليهود والنصارى والمسلمين . ففى سفر التكوين : " بعد هذه الأمور صار كلام الرب إلى أبرام فى الرؤيا قـــائلاً : لا تخف . أنا تُرس لك ، أجرك كثيرًا جدًا " [تك ١٥:١] أى حارب أعـــداء الله وأنا أحميك كما يحمى الترس الجندى من ضربات الســـيوف . وفـــى ســـفر الزبور نبوءة ﷺ ومن أوصافه فيها : " أما أنت يا رب فترس لى ، مجـــدى ورافع رأسى .. " [مز : ٣] ويقول النصارى إن نبوءة عن المســـيح , وهـــم يعلمون أن المسيح لم يحارب ولم يفتح بلاداً . وفى هذه النبوءة يصرخ النبى إلى الله أن ينصره ، وقد أجابه من جبل قدسه " بصوتى إلى الرب أصـــرخ فيجيبنى من جبل قدسه " وجبل قدسه فى مكة المكرمة .

وفى التوراة أنه لا يحل لليهود أن يملك عليهم وثنى . فلو فرضنا أن ملكاً وثنيا قصد ديارهم وملك عليهم ؛ تفرض أنهم مأمورون بقتاله ، ذلك قولـــه :

" لا يحل لك أن تجعل عليك رجلا أجنبيا ليس هو أخاك " [تث ١٧:١٥] وفى التوراة : " إذا خرجت للحرب على عدوك ، ورأيت خيلا ومراكب قوما أكثر منك ؛ فلا تخف منهم ؛ لأن معك الرب إلهك" [تث ٢٠ : ١] وهو معهم إذا كانوا يحاربون من أجل دينه ، ونبذ عبادة الأوثان . وذلك لأن داود ــ عليه السلام ــ وهو يحارب جالوت ؛ قال له : ´فتعلم كل الأرض أنه يوجد إله لإسرائيل ، وتعلم هذه الجماعة كلها أنه ليس بسيف ولا برمح يخلص الرب ؛ لأن الحرب للرب وهو يدفعكم ليدنا " [صموئيل الأول ١٧ : ٤٦ــ٤٧] .

وفى سفر المكابيين الثانى فى قصة الأم وأولادها السبعة أنها كانت تحرض أولادها على الشهادة فى سبيل الله . ومن كلامها : " لا أعلم كيف نشأتم فى أحشائى . فأنا لم أمنحكم الروح والحياة ، ولا أنا كونت أعضاء جسد كل واحد منكم ، بل الذى فعل ذلك هو خالق العالم . فهو الذى جبل الإنسان وأبدع كل شىء . وهو لذلك سيعيد إليكم برحمته الروح والحياة . لأنكم الآن تضحون بأنفسكم فى سبيل شريعته " [٢مك ٧ : ٢٢ــ٢٣] . وفى إنجيل لوقا : أن المسيح أرسل تلاميذه إلى مدن بنى إسرائيل وأمرهم أن لا يحملوا زادا ولا مالا ولا يلبسوا أحذية . وأن يبشروا باقتراب ملكوت الله . فلما رجعوا " قال لهم : حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية . هل أعوزكم شىء ؟ فقالوا : لا . فقال لهم : لكن الآن من له كيس ؛ فليأخذه ، ومزود كذلك . ومن ليس له فليبع ثوبه ، ويشتر سيفا " [لو ٢٢ : ٣٥ــ٣٦] فقد أمرهم بشراء السيوف للحرب . وما يزال النصارى إلى هذا اليوم يحاربون أعداءهم .

وفى إنجيل متى يقول المسيح : " سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر . بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا " [متى ٥ : ٣٨ــ٣٩] .

يريد أن يقول : إن التوراة مكتوب فيها العين بـــالعين والســـن بالســـن [خر ٢١ : ٢٤] وأنا أقول لكم : " لا تقاوموا الشر " فى هذا الزمان الفاسد الذى ليس فيه قاض عادل ولا ملك منصف . كما قال صاحب سفر الأمثـــال فـــى زمانه : " لا تقل كما فعل بى هكذا افعل به . أرد على الإنسان مثل عملـــه " [أم ٢٤ : ٢٩] فهو وصاحب سفر الأمثال لم يخالفا شريعة موسى فى أوقـــات العدل . وهما ينصحان أنه إذا عم الظلم . فإنه يجب على المظلوم أن يفـوض أمره إلى الله . وقد وافق هو النبى إشعياء ومؤلف سفر مراثى إرمياء علـــى قولهما فى أيام الفساد واشتداد الظلم : " من لطمك على خدك الأيمن ، فحـول له الآخر أيضا " وهذا يدل على أنه فى إرشاداته ونصحه لم يأت بجديد ، مع قوله : " ما جئت لأنقصن الناموس أو الأنبياء " [متى ٥ : ١٧] .

ففى سفر إشعياء : " بذلت ظهرى للضاربين ، وخدى للناتفين . وجـــهى لم أستر عن العار والبصق " [إش ٥٠ : ٦] وفى سفر المراثى : " يعطى خـــده لضاربه ، يشبع عارا " [مرا ٣ : ٣٠] .

الشبهة الثانية والعشرون بعد المائة

تحليل النهب

إن الله حلل الغنائم ، وهذا أمر بقتل الناس ونهب أموالهم .

الرد على الشبهة :

إن تحليل الغنائم فى التوراة . ففى سفر التثنية : " وغنيمة المدن التى أخذنا .. الجميع دفعه الرب إلهنا أمامنا " [تث ٢ : ٣٥ـ٣٦] ، وفى سفر التكوين فى صفات بنيامين : " فى الصباح يأكل غنيمة ، وعند المساء يقسم نهباً " [تك ٤٩ : ٢٧] أى محارب .

ومن أوصاف محمد رسول الله فى التوراة أنه يقسم غنائم . ففى نبوءة العبد المتألم : " ومع العظماء يقسم غنيمة " [إش ٥٣ : ١٢] ولكن النصارى يفسرونها على المسيح مع أنه لم يحارب أحداً . وفى المزمور الثامن والستين عن محمد ﷺ : " الملازمة البيت تقسم الغنائم " [مز ٦٨ : ١٢] .

الشبهة الثالثة والعشرون بعد المائة

تحليل الحلف

إن فى القرآن أن صاحب القرآن يقسم بالفجر والليالى العشر . فلمـــــاذا يحلف ؟ وهل يحتاج صاحب القول الصادق إلى قسم يؤكد به كلامه ؟

الرد على الشبهة :

إن المعترض يعنى بصاحب القرآن محمداً ﷺ ولا يعنى مُنَزِّلـــة وهــو الله ــ عز وجل ــ والقسم من الله نفســـه بمخلوقاتـــه هــو للدلالـــة علـــى عظمها وأهميتها ومنافعها للناس . وفى التوراة : " الذى حلف الرب لهم أنه " [يشوع ٥ : ٦] " حلف الرب بيمينه " [إشعياء ٦٢ : ٨] وفـــى الإنجيـــل " ومـــن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه ، ومن حلف بالســـماء فقـــد حلـــف بعرش الله وبالجالس عليه " [متى ٢٣ : ٢١ــ٢٢] وفى الزبور: " أقسم الـــــرب ولن يندم "[مز ١١٠ : ٤] وفى سفر التكوين : " بذاتى أقسمت ، يقول الـــرب " [تك ٢٢ : ١٦] وفى سفر أعمال الرسل أن كاهناً وأولاده كانوا يقسمون باســـم يسوع المسيح " قائلين نقسم عليك بيسوع " [أع ١٩ : ١٣] .

الشبهة الرابعة والعشرون بعد المائة

تحليل الانتقام

يقول المؤلف : إن القرآن يحلل الانتقام بقوله : ﴿ **فمن اعتـــدى عليكـــم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ [1] .

الرد على الشبهة :

قد بينا فى إجابة السؤال الرابع من الجزء الثالث معنى قـــول المســيح " لطمك على خدك الأيمن فَحَوِّل له الآخر أيضاً " .

ونبين هنا : أن رد الاعتداء ليس فرضاً على المسلمين . فالفرض هـــو إما رد الاعتداء ، وإما الصفح عن الجانى . ورد الاعتداء فرض فى التـــوراة والصفح عن الجانى فى العدل مرفوض فى التوراة . ففى التـــــوراة : " وإن حصلت أذية ؛ تعطى نفساً بنفس وعيناً بعين وسِنًّا بسن ويداً بيد ورجلاً برجل وكيًّا بكى وجرحاً بجرح ورضاً برضى " [خر ٢١ : ٢٣ــ٢٥] .

وليس عندهم دفع الدية فى مقابل العفو عن القاتل . أما فى القرآن الكزيم ففيه ﴿ **فمن عُفى له من أخيه شىء ؛ فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحســـان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة** ﴾ [2] أى تخفيف من الحكم القديم الذى كان فـــى التوراة وهو عدم قبول الدية .

---

(١) البقرة : ١٩٤ .

(٢) البقرة : ١٧٨ .

الشبهة الخامسة والعشرون بعد المائة

تحليل الشهوات

١ ــ إن القرآن أباح للمسلمين أكثر من زوجة .

٢ ــ إن الله فى الجنة سيرزق المؤمنين بنساء من الحور العيـــن . وليســت الجنة مكاناً للشهوات الحسية ، ولا يبيح دين من عند الله تعدد الزوجات .

الرد على الشبهة :

إن هذه الشبهة مكونة من جزأين :

الجزء الأول : تعدد الزوجات ،

والجزء الثانى : إباحة الشهوات الحسية فى الجنة .

والرد على الجزء الأول هو :

إن إبراهيم ــ عليه السلام ــ كان متزوجاً من سارة وهاجر وقطــورة . وهو أب لليهود والنصارى والمسلمين ،وأيضاً كانت له سرارى كثيرة لقوله : " وأما بنو السرارى اللواتى كانت لإبراهيم فأعطاهم إبراهيم عطايا وصرفهم عن إسحاق ابنه شرقاً إلى أرض المشرق وهو بعـــد حـــى " [تــك ٢٥ : ٦] وموسى كان متزوجاً من مديانية وحبشية [عدد ١٢ : ١] ويعقـــوب ــ عليــه السلام ــ كان متزوجاً من حرتين وأمنين وهما ليئة وراحيل وزلفة وبلهة [تك ٢٩ وما بعده] وكان لداود نساء هن : أخينوعـــم اليزرعبليــة ــ أبيجــايل ــ معكة ــ حجيث ــ أبيطال ــ عجلة . الجميع ستة عدا بثشبع امرأة أوريـــا

الحثى التى أنجب منها سليمان ــ عليه السلام ــ [صموئيــل الثــانى ٣ : ١ــ٥] وكان لسليمان " سبع مائة من النساء السيدات ، وثلاث مائة من الســـرارى " [الملوك الأول ١١ : ٣] .

وفى الإنجيل أنه كان للمسيح أربع إخوة هم : يعقوب وموسيى ويـــــهوذا وسمعان [مرقس ٦ : ٣] واتفق النصارى على أن مريم أتت بـــــه بغــير زرع بشر . وإذ هذا حاله . فهل هؤلاء الأربعة على الحقيقة إخوة أم على المجاز؟ اختلفوا . لأن متى قال عن يوسف النجار : " ولم يعرفها حتى ولدت ابنـــــها البكر " [مز ١ : ٢٤] فيكون قد عرفها بعد ولادته . وإن منهم لفريقاً يقولــون : " إنها ظلت عذراء إلى أن ماتت ، وإن الأربعة أولاد ليوسف عـــن زوجــة سابقة له على مريم " . وعلى أية حال فإن غرضنا وهو إثبات تعدد الزوجات بإخوة المسيح الأربعة . وفى تفاسير الإنجيل أنه كان له أختان أيضـــاً همــا أستير وثامار ؛ يكون ملزماً لهم بإثبات التعدد .

والرد على الجزء الثانى هو :

إن التوراة تصرح بالبعث الجسدى والروحى معاً . فيكون النعيم حسيًّا ، والعذاب حسيًّا . والإنجيل يصرح بالبعث الجسدى والروحى معـــاً . ولكــن بُولُوس صرح بالبعث الروحى لغرض اللغو فى حقيقة ملكوت الســـماوات . ولسنا ههنا بصدد مناقشته . وإنما نحن ههنا بصدد إثبات البعـــث الجســدى والروحى . ففى إنجيل مرمقس يقول المسيح : " وإن أعثرتك يدك فاقطعــها، خير لك أن تدخل الحياة أقطع من أن يكون لك يدان وتمضى إلى جهنم . إلى النار التى لا تطفأ . حيث دودهم لا يموت والنار لا تطفأ .. إلــخ " [مــر ٩ : ٤٣ــ٤٤] وفى إنجيل متى " وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعـــــها وألقــها عنك ؛ لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائه ، ولا يلقى جسدك كله فى جــهنم " [متى ٥ : ٣٠] .

وفى سفر إشعياء عن المُسرّات فى الجنة : " لم تر عينا إنسان ولم تسمع أذناه ولم يدرك قلب بشر ما أعده الله للذين يحبونه " [إش ٦٤ : ٤] واستدل بـه بولس فى الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس [٢ : ٩] ، وفى سفر أيـــوب : " أعلم أن إلهى حى ، وأنى سأقوم فى اليوم الأخير بجسدى وسأرى بعينى الله مخلّصى " [أى ١٩ : ٢٥ــ٢٧] وفى ترجمة البروتستانت : " وبدون جسدى " .

وفى سفر إشعياء عن عذاب جهنم : " يجلس خدمى على مـــائدتى فـــى بيتى ، ويتلذذون بابتهاج مع حبور ومع صوت الأعواد والأراغن ولا أدعـهم يحتاجون شيئاً ما ، أما أنتم أعدائى فتطرحون خارجاً عنى حيث تموتون فـــى الشقاء ، وكل خادم لى يمتهنكم " [إش ٦٠ : ١٣] .

الشبهة السادسة والعشرون بعد المائة

الحدود فى الإسلام

الرد على الشبهة :

إن الدارس للإسلام وأحكامه يدرك حقائق أساسية لتشريع الحدود فـــى الإسلام نحاول أن نشير إلى بعضها بإيجاز :

أولاً : الحدود فى الإسلام إنما هى زواجر تمنع الإنسان المذنب أن يعود إلـى هذه الجريمة مرة أخرى .

وهى كذلك تزجر غيره عن التفكير فى مثل هذه الفعلة وتمنع من يفكـر من أن يقارف الذنب ، وهى أيضًا نكال " مانع " من الجريمة على مســتوى الفرد وعلى مستوى الجماعة .

ثانيًا : إن من المقرر لدى علماء الإسلام قاعدة " درء الحدود بالشـبهات " أى جعل الظن والشك فى صالح المتهم .

ثالثًا : ليس المراد بالحدود التشفى والتشهى وإيقاع الناس فى الحرج وتعذيبهم بقطع أعضائهم أو قتلهم أو رجمهم .

إنما المراد هو أن تسود الفضيلة ، ومن هنا نجد الشرع الشريف ييســر فى هذه الحدود .

فإذا اشتدت الظروف فى حالات الجـــوع والخـــوف والحاجـــة تعطـــل الحدود ، كما فعل سيدنا عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فـــــى عـــام الرمادة .

ومن التيسير أيضًا أن الإسلام يأمر بالستر قبل الوصول إلى الحاكم قال رسول الله ﷺ لرجل يشهد على الزنا **[لو سترته بثوبك كان خيرًا لك]** (١) .

رابعًا : الشريعة الإسلامية شريعة عامة لكل زمان ومكان ، والناس مختلفون فى ضبط نفوسهم ، فلابد من وجود عقاب رادع يضبط أصحـــــاب النفـــوس الضعيفة من الوقوع فى الجرائم والحدود والردة عن الإســـلام حتـــى يســـلم المجتمع من الفساد ظاهرًا وباطنًا .

خامسًا : الحدود إنما هى جزء من النظام الإسلامى العام ، فلابد مـــن فـــهم النظام ككل حتى تفهم الحدود ولا يمكن تطبيق الحدود إلا مع تطبيق النظـــام الإسلامى ككل وإلا لا ينسجم الأمر ولا تستقيم حكمة الله من تشريعه .

سادسًا : الحدود دعوة صريحة للتخلق بالأخلاق الحســـنة التـــى هـــى مـــن مقاصد الدين وهى أيضًا طريق إلى التوبة إلـــى الله ، فـــالمذنب إذا عوقـــب بعقاب الشارع الذى هو منسجم مع تكوينه وواقع وفق علـــم الله تعـــالى بـــه وبنفسيته فإن هذا يخاطب قلبه ومشاعره بوجوب الرجوع إلى ربه .

ويكفى ارتداع المسلم عن الجريمة ودخوله فى رحمة ربه معرفته بـــأن ربه هو الذى شرع له هذا الحكم ، فإن هذا وحده من شأنه أن يجعله يتـــوب

---

(١) رواه أبو داود .

وينجذب إلى ربه ويصير مؤمنًا بالله جل جلاله خاصة إذا علم أن هذا الحـــد يكفر عنه هذا الذنب .

سابعًا : الإسلام دين ، والحدود والتعاذير إنما هى فى كل دين بل وفى كـــل نظام قانونى ومن أراد على ذلك مثال فالتوراة مثلاً تـــأمر بحـــرق الزانيـــة والزانى إذا كانت ابنة كاهن .

ذلك قولهم " وإذا تدنست ابنة كاهن بالزنا فقد دنست أباها ، بالنار تحرق [اللاويين ٢١ : ٩] .

ومن النظم القانونية من يأمر بقتل الخارج على النظام إلى غير ذلك .

ثامنًا : الحدود عقوبات واعية تتناسب مع النفس البشرية والعقوبات البديلـــة خالية من هذه القيم .

الشبهة السابعة والعشرون بعد المائة

حد السرقة

الرد على الشبهة :

إن النظام الإسلامى كلٌ متكامل ، فلا تفهم حكمة الجزئيات التشـــريعية فيه حق فهمها إلا أن ينظر فى طبيعة النظـــام وأصولـــه ومبادئـــه ، كذلـــك لا تصلح هذه الجزئيات فيه للتطبيق إلا أن يؤخذ النظام كاملاً ويعمل به جملة واحدة هذا بصفة عامة .

أما بالنسبة لحد السرقة :

فإن الإسلام يقرر حق كل فرد فى الحياة وحقه فى كل الوسائل لحفـــظ حياته ، ومن حق كل إنسان أن يحصل على هذه الوسائل :

أولاً عن طريق العمل مادام قادراً على العمل ، فإن لم يستطع أن يحصِّـــل أسباب الحياة فعلى المجتمع المسلم أن يوفر له ما يحفظ حياته أولاً من النفقـة التى تفرض له شرعاً على القادرين فى أسرته .

ثانياً على القادرين من أهل محلته .

ثالثاً من بيت مال المسلمين من حقه المفروض له فى الزكاة فى نظام تكافلى للرعاية الاجتماعية والأمن الاجتماعى .

والإسلام كذلك يتشدد فى تحديد وسائل جمع المال فـــلا تقـــوم الملكيـــة الفردية فيه إلا على حلال ، ومن ثم لا تثير الملكية الفرديـــة فـــى المجتمـــع المسلم أحقاد الذين لا يملكون،حيث يمكن لكل أحد أن يصبح غنيًّا بالوســـائل

المشروعة المتاحة والسوق التنافسية الشريفة . والإسلام يربى ضمائر الناس وأخلاقهم ، فيجعل تفكيرهم يتجه إلى العمل والكسب لا إلى السرقة ، وبذلك يحفظ مصالح الفرد والمجتمع معاً .

إذن فلماذا يسرق السارق فى ظل هذا النظام ؟

إنه لا يسرق إلا للطمع فى الثراء من غير طريق العمل ، والثراء لا يطلب من هذا الوجه الذى يروع الجماعة المسلمة فى دار الإسلام ، ويحرمها الطمأنينة التى من حقها أن تستمتع بها ، ويحرم أصحاب المال الحلال أن يطمئنوا على مالهم الحلال .

فإذا سرق إنسان بعد هذا فإنه لا يسرق وله عذر ، ولا ينبغى لأحد أن يرأف به متى ثبت عليه الجريمة وأحيل أمره إلى النظام .

ونفس الإنسان فطرت على حب المال ولعل هذا هو الذى يدفع معظم الناس إلى العمل والكد . والإسلام دائماً يقوّم دوافع النفس حتى تنضبط إما بالترغيب أو بالترهيب . من هنا حض الإسلام على الكسب الحلال ورغّب فيه ورهّب من السرقة بهذه العقوبة ، حتى يستقيم المجتمع بما فيه من بار وفاجر . يقول رسول الله ﷺ **[إن الله ليدع بالسلطان ما لا يدع بالقرآن]** .

ولما كان قطع يد السارق يفضحه ويسمه بسمة السرقة ويطلع الناس على ما كان منه . فقد أقام الإسلام حراسة على من يتهم بالسرقة ، فلا تقطع يده مع وجود شبهة فى أنه سرق كما لا تقطع يده فى الشىء المسروق إذا كان تافهاً لا يعتد به ، أو كان فى غير حرز بل إن السارق فى تلك الحالة يعزر بالضرب أو الحبس ، ولا تقطع يده .

ومن تلك الضوابط التى وضعتها الشريعة لإقامة حد القطع على السارق :

أولاً : أن يكون المسروق شيئاً ذا قيمة أى أن له اعتباراً اقتصاديًا فى حيـــاة الناس . عن السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ عن النبى ﷺ أنـــه قـــال : **[تقطع اليد ــ أى يد السارق ــ بربع دينار فصاعداً]** (١) .

ثانياً : أن يكون المسروق محروزاً ، أى محفوظاً فى حرز .

ثالثاً : أن ما أخذ للأكل بالفم من التمر فهذا لا قطع فيه ولا تعزير .

رابعاً : السرقة فى أوقات المجاعات لا قطع فيها ولذلك أبطل عمر ــ رضى الله عنه ــ القطع فى عام الرمادة حينما عمت المجاعة .

خامساً : العبد إذا سرق شىء ينظر هل سيده يطعمه أم لا ؟ فإن كـــان لا ، غرم سيده ضعف ثمن المسروق كما فعل سيدنا عمر بن الخطاب ــ رضـــى الله عنه ــ فى غلمان ابن حاطب بن أبى بلتعة حينما سرقوا ناقة رجل مـــن مزينة فقد أمر بقطعهم ولكن حين تبين له أن سيدهم يجيعهم درأ عنهم الحـــد وغرم سيدهم ضعف ثمن الناقة تأديباً له .

والقاعدة أن الحدود تُدْرَء بالشبهات .

وهكذا ينبغى أن تفهم حدود الإسلام فى ظل نظامه المتكامل الذى يتخـــذ أسباب الوقاية قبل أن يتخذ أسباب العقوبة .

فالحدود تمنع من وقوع الجريمة ولذلك نرى على مر التاريخ الإســلامى وعلى مساحة واسعة من بلاد المسلمين أن حد السرقة لم يطبق إلا فى أضيق الحدود وبعدد محدود جداً لا يتجاوز العشرات مع كل هذه الملايين من البشر حيث استقر فى وجدان المسلمين أن السرقة جريمة من الجرائم السيئة التـــى تهدد الأمن الاجتماعى والمجتمع فى ذاته بحيث تستحق مثل هـــذه العقوبـــة البدنية التى تشبه عقوبة الإعدام،وعلى قدر عظم الذنب والجرم يكون عظـــم العقاب .

---

(١) رواه أبو داود .

وبعض المعاصرين ينطلقون من نموذج معرفى آخر يقدم بدن الإنســـان فى ذاته بغض النظر عن أفعاله وجرائمه . وقد خفى عليهم كل هدى ســـــليم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الشبهة الثامنة والعشرون بعد المائة

حـد الزنـا

الرد على الشبهة :

إن جريمة الزنا لهى من أقذر الجرائم حتى أنكرهـــا كـــل ديـــن ، بـــل وأنكرها العقلاء والراشدون من الناس ، كما أنكرها أصحاب المدنية الغربيـــة جهرًا وإن قبلوها سرًا وذلك لما فيها من عدوان على حقوق الأزواج ومـــــن اختلاط للأنساب وحل لروابط الأسرة وقتل لما فى قلوب الآباء من عطـــــف وحنان على الأبناء ، ورعاية وبذلٍ سخى لهم بما يبلغ حد التضحية بالراحـــة والنفس ، الأمر الذى لا يكون إلا إذا ملأت عاطفة الأبوة قلوب الآباء وذلـــك لا يكون إلا إذا وقع فى قلوب الآباء وقوعًا محققًا أن هـــؤلاء الأبنـــاء مـــن أصلابهم .

ثم لعلك لا تعجب لما تقرأ من الأخبار الواردة إلينا من أمريكا وأوروبـــا عن آباء قتلوا أولادهم بأيديهم وأتوا على الأسرة كلها فى لحظة واحـــدة دون أن ينبض فيهم شعور بالتردد قبل الجريمة أو الندم بعدها ، وذلك شفاء لما فى نفوسهم من شكوك فى صحة نسب هؤلاء الأبناء إليهم حتى لقد تحولت هـــذه الشكوك إلى عواطف من الجنون الذى أفقد هؤلاء الآباء كل شعور إنســـــانى نحو الأبناء المشكوك فى نسبهم ، وهيهات أن يخلو شعور أوروبى من الشك فى نسبة أبنائه إليه مع هذه الإباحية المطلقة للجمع بين النساء والرجال فـــى أى مكان وأى زمان .

فإن أراد الإسلام أن يحارب هذه الجريمة برصد هذه العقوبة الرادعـــة ــ الرجم للمحصن ، والجلد لغير المحصن ــ كان ذلك عند أعداء الإســـــلام

تهمة شنيعة يرمونه بها ويحاكمونه عليها ليخرجوه مـــن حـــدود الإنســـانية المتحضرة إلى عالم سكان الأدغال ورعاة الإبل والشياه فى الصحارى .

ويقولون : كيف يحكم الإسلام بإهدار آدمية الإنسان حتى يـــأمر بجلـــده على مرائى ومسمع من الناس ؟ ثم كيف تصل الوحشية فى قسوتها إلـــى أن يُلقى بالإنسان فى حفرة ثم تتناوله الأيدى رجماً بالحجارة إلى أن يموت .

هكذا يقولون ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً** ﴾ (١) .

ولا ننكر أن فى شريعة الإسلام حكم الجلد والرجم يقـــول الله تعـــالى : ﴿ **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفـــة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة مـــن المؤمنين** ﴾ (٢) .

وقال رسول الله ﷺ [**لا يحل دم امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيـــب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة**] (٣) .

والنظام الإسلامى كل متكامل لا تفهم جزئياته إلا فى نسق واحد .

فإن الإسلام قد حرّم النظر إلى " الأجنبيات " قال رسول الله ﷺ [**النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة فمن تركها من خوف الله أثابه إيماناً يجـــد حلاوته فى قلبه**] (٤) . وكذلك أمر النساء ألا يظهرن الزينة إلا لـــلأزواج أو الأقارب من الصلب الذين لا يُخشى منهم فتنة.قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن مـــن جلابيبـــهن** ﴾ (٥) ، وقال :

---

(١) الكهف : ٥ .

(٢) النور : ٢ .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه الحاكم فى المستدرك .

(٥) الأحزاب : ٥٩ .

﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ﴾ [1] . وأمر أيضاً ألا يختلى رجل بامرأة لا تحل له قال رسول الله ﷺ **[ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما]** .

وحرم أيضاً أن يمس الرجل امرأة لا تحل له فقال رسول الله ﷺ **[لئن تضرب بمخيط فى رأسك فتدمى به رأس خير لك من أن تمس امرأة لا تحل لك]** . وقبل هذا كله فقد استطاع الإسلام أن يربى الضمير فى الرجل والمرأة على حد سواء على ضوء ما جاء فى قصة ماعزو الغامدية .

والإسلام كذلك حض الشباب على إخراج هذه الشهوة فى منفذها الشرعى بالزواج . فقال رسول الله ﷺ : **[يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحفظ للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء]** [2] أى قاطع للشهوة .

وكذلك رخص للرجل أن يتزوج بامرأة واحدة أو اثنين أو ثلاثة أو أربع مادام يملك النفقة ويستطيع العدل .

وأمر أولياء الأمور أن لا يغالوا فى مهور بناتهم فقال رسول الله ﷺ **[إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير]** [3] . وأمر الأغنياء أن يساعدوا الشباب فى نفقات الزواج . وقد قام الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز بتزويج الشباب والفتيات من بيت مال المسلمين .

هذا كله هو بعض ملامح الإسلام فى تيسير أمر إخراج هذه الشهوة بطريق مشروع ، والحقيقة أن مثل هذه الشنيعة لا تحصل فى المجتمع المسلم

---

(١) النور : ٣١ .

(٢) رواه البخارى .

(٣) رواه ابن ماجه .

ــ الذى تسوده الفضيلة ــ إلا بعد تدبير عظيم من كلا الطرفين يــدل علــى إجرام كلا الطرفين ولكن مع كل هذا فإن شريعة الإسلام قد وضعت شــروط من الصعب جدًا توافرها قبل إيقاع العقوبة .

فإن لم تتوفر مجتمعة لا يقام الحد على صاحب هذه الفعلة جلداً كــان أو رجماً وهذه هى الشروط :

١ ــ لابد حتى تثبت الجريمة من شهادة أربعة شهود عدول يشهدون بأنــهم رأوا من الرجل والمرأة ما يكون بين الرجل وزوجته من اتصال مباشــر ، الأمر الذى لا يكاد يراه أحدٌ من البشر .

وكأن الشريعة لا ترصد هذه العقوبة على هذه الفعلة بوصفــها ولكنــها ترصدها على شيوع هذه الفعلة على الملأ من الناس بحيث لا يبغــى بيــن الناس من يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً .

٢ ــ إن الشريعة الإسلامية تقرر درء الحدود بالشبهات بمعنى أن أى شــك فى شهادة الشهود يفسر لصالح المتهم فيسقط بذلك الحد . قال رســول الله ﷺ **[ادرءوا الحدود بالشبهات]** (١) .

٣ ــ فرضت الشريعة عقوبة الجلد ثمانين جلدة على من قذف محصنة ثم لــم يأت بأربعة يشهدون بأنهم رأوا منها ومن المقذوف بها ما يكون بين الــزوج وزوجته قال الله تعالى : ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يــأتوا بأربعــة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شــهادة أبــداً وأولئــك هــم الفاسقون** ﴾ (٢) .

٤ ــ رغبت الشريعة الإسلامية فــى التســتر علــى عــورات المســلمين وإمساك الألسنة عن الجهر بالفواحش وإن كانت وقعت ، قال رســول الله ﷺ

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) النور : ٤ .

[لرجل جاء يشهد : هلا سترتهما بثوبك] يقول الله تعـــالى : **﴿ إن الذيـــن يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخـــرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾** [1] .

أبعد هذا كله يتخرص متخرص ويقول : إن الإســـلام يظلـــم الإنســـان ويهدر أدميته حين يأخذ أولئك الذين يأتون الفاحشة على أعين بما يأخذهم بـــه من جلد بالسياط . وفضح بين الملأ من الناس .

أفلا يسأل هؤلاء المتخرصون أنفسهم ماذا يبقى للإنسان مـــن آدميتـــه وكرامته إذا تركت هذه الفاحشة يعالى بها بعض الآدميين من غير استحياء ثم لا يضرب على أيديهم أحد . إن إنساناً توفرت له كل هذه الميسرات وتجـــرأ على الترتيب لهذه الفعلة الشنيعة . ثم افتضح حاله حين يراه هذا العدد فـــى هذا الوضع . إن إنساناً فى مثل هذا الحال لهو إنسان مفسد ضال مضل ولـــو لم يتم بتره أو تربيته فإن هذا يشكل خطراً على المجتمع كله .

والمتحدثون عن حقوق الإنسان يقولون لا بأس من أن يحبس فترة مـــن الزمن ثم يخرج لكى يمارس عمله ولا يعلمون أن مثل هذا الحبـــس ســـوف يمكنه من أن يخالط من هو أجرم منه ليتعلم منه ويعلمـــه ويخرجـــان إلـــى المجتمع بعد أن أصبحا إمامين فى الضلال ليضلا الناس عـــن طريـــق رب الناس وهذا هو المشاهد .

فضلاً عن الذى يترتب على الحد من تكفير لهذا الذنب .

وإن المتتبع لا يجد هذه العقوبة قد نفذت " حال تنفيذ العقوبات " إلا فـــى أعداد محدودة ولا ضرر فى هذا مادام قد وفر الأمن والاستقرار للمجتمع .

---

(١) النور : ١٩ .

الشبهة التاسعة والعشرون بعد المائة

حـد الـردة

الرد على الشبهة :

إن الإسلام يقرر حرية اختيار الدين ، فالإسلام لا يكره أحداً علـــى أن يعتنق أى دين يقول الله تعالى **(لا إكراه فى الدين)** [1] .

غاية ما هنالك أن الإسلام لا يقبل الشرك بالله ولا يقبل عبادة غـــير الله وهذا من صلب حقيقة الإسلام باعتبار كونه دين من عند الله جل وعلا ، ومع ذلك يقبل النصارى واليهود ولا يقاتلهم على ما هم عليه ولكن يدعوهم إلـــى الإسلام . كما أن الإسلام لا يبيح الخروج لمن دخل فى دين الله لا يكلـــف أحداً أن يجهر بنصرة الإسلام ، ولكنه لِا يقبل من أحدٍ أن يخذل الإســـلام ، والذى يرتد عن الإسلام ويجهر بذلك فإنه يكون عدواً للإســـلام والمســـلمين ويعلن حرباً على الإسلام والمسلمين ولا عجب أن يفـــرض الإســـلام قتـــل المرتد ، فإن كل نظام فى العالم حتى الذى لا ينتمى لأى دين تنص قوانينـــه أن الخارج عن النظام العام له عقوبة القتل لا غير فيما يســـمونه بالخيانـــة العظمى .

وهذا الذى يرتد عن الإسلام فى معالنة وجهر بارتداده ، إنما يعلن بـــهذا حرباً على الإسلام ويرفع راية الضلال ويدعو إليها المنفلتين من غير أهـــل الإسلام وهو بهذا محارب للمسلمين يؤخذ بما يؤخذ به المحاربون لدين الله .

والمجتمع المسلم يقوم أول ما يقوم على العقيـــدة والإيمـــان . فـــالعقيدة أساس هويته ومحور حياته وروح وجوده ، ولهذا لا يسمح لأحد أن ينال من هذا الأساس أو يمس هذه الهوية . ومن هنا كـــانت الـــردة المعلنـــة كـــبرى

---

(١) البقرة : ١٥٦ .

الجرائم فى نظر الإسلام لأنها خطر على شخصية المجتمع وكيانه المعنوى ، وخطرعلى الضرورة الأولى من الضرورات الخمس " الدين والنفس والنسل والعقل والمال " .

والإسلام لا يقبل أن يكون الدين ألعوبة يُدخل فيه اليوم ويُخرج منه غداً على طريقة بعض اليهود الذين قالوا : ﴿ **آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون** ﴾ (١) .

والردة عن الإسلام ليست مجرد موقف عقلى ، بل هى أيضاً تغير للولاء وتبديل للهوية وتحويل للانتماء . فالمرتد ينقل ولاءه وانتماءه من أمة إلى أمة أخرى فهو يخلع نفسه من أمة الإسلام التى كان عضواً فى جسدها وينقم بعقله وقلبه وإرادته إلى خصومها ويعبر عن ذلك الحديث النبوى بقول رسول الله ﷺ فيه : [**التارك لدينه المفارق للجماعة**] (٢) ، وكلمة المفارق للجماعة وصف كاشف لا منشئ ، فكل مرتد عن دينه مفارق للجماعة .

ومهما يكن جرم المرتد فإن المسلمين لا يتبعون عورات أحدٍ ولا يتسورون على أحدٍ بيته ولا يحاسبون إلا من جاهر بلسانه أو قلمه أو فعله مما يكون كفراً بواحاً صريحاً لا مجال فيه لتأويل أو احتمال فأى شك فى ذلك يفسر لمصلحة المتهم بالردة .

إن التهاون فى عقوبة المرتد المعالن لردته يعرض المجتمع كله للخطر ويفتح عليه باب فتنة لا يعلم عواقبها إلا الله سبحانه . فلا يلبث المرتد أن يغرر بغيره ، وخصوصاً من الضعفاء والبسطاء من الناس ، وتتكون جماعة مناوئة للأمة تستبيح لنفسها الاستعانة بأعداء الأمة عليها وبذلك تقع فى

---

(١) آل عمران : ٧٢ .

(٢) رواه مسلم .

صراع وتمزق فكرى واجتماعى وسياسى ، وقد يتطور إلى صراع دموى بل حرب أهلية تأكل الأخضر واليابس .

وجمهور الفقهاء قالوا بوجوب استتابة المرتد قبل تنفيذ العقوبة فيه بـــل قال شيخ الإسلام ابن تيمية هو إجماع الصحابة ــ رضى الله عنه ــ وبعض الفقهاء حددها بثلاثة أيام وبعضهم بأقل وبعضهم بأكثر ومنهم من قال يُستتاب أبداً ، واستثنوا من ذلك الزنديق ؛ لأنه يظهر خلاف ما يبطن فلا توبـــة لـــه وكذلك سابّ الرسول ﷺ لحرمة رسول الله وكرامته فلا تقبل منه توبة وألَّـف ابن تيمية كتاباً فى ذلك أسماه " **الصارم المسلول على شاتم الرسول** " .

والمقصود بهذه الاستتابة إعطاؤه فرصة ليراجع نفسه عسى أن تـــزول عنه الشبهة وتقوم عليه الحُجة ويكلف العلماء بالرد على ما فى نفســـه مـــن شبهة حتى تقوم عليه الحُجة إن كان يطلب الحقيقة بإخلاص وإن كـــان لـــه هوى أو يعمل لحساب آخرين ، يوليه الله ما تولى .

—ooo—

الشبهة الثلاثون بعد المائة

ميراث الأنثى نصف ميراث الذكر

الرد على الشبهة :

صحيح وحق أن آيات الميراث فى القرآن الكريم قد جاء فيهـــا قـــول الله سبحانه وتعالى :﴿ **للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ [1] ؛لكن كثيرين مـــن الـــذين يثيرون الشبهات حول أهـــلية المرأة فى الإســـلام ، متخـــذين من التمـــايز فى الميراث سبيلاً إلى ذلك لا يفقـــهون أن توريث المـــرأة على النصـــف من الرجل ليس موقفًا عامًا ولا قاعدة مطّردة فى توريث الإسلام لكل الذكور وكل الإناث . فالقرآن الكريم لم يقل : يوصيكم الله فى المواريث والـــوارثين للذكر مثل حظ الأنثيين .. إنما قال : ﴿ **يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثـــل حظ الأنثيين**﴾.. أى أن هذا التمييز ليس قاعدة مطّردة فـــى كـــل حـــالات الميراث ، وإنما هو فى حالات خاصة ، بل ومحـــدودة مـــن بـــين حـــالات الميراث .

بل إن الفقه الحقيقى لفلسفة الإسلام فى الميراث تكشف عن أن التمايـــز فى أنصبة الوارثين والوارثات لا يرجع إلى معيار الذكورة والأنوثة .. وإنما لهذه الفلسفة الإسلامية فى التوريث حِكَم إلهية ومقاصد ربانية قد خفيت عـــن الذين جعلوا التفاوت بين الذكور والإناث فى بعض مسائل الميراث وحالاتـــه شبهة على كمال أهلية المرأة فى الإسلام . وذلك أن التفاوت بـــين أنصـــبة الوارثين والوارثات فى فلســـفة الميراث الإسلامى ـــ إنما تحكمـــه ثلاثـــة معايير : ـ

---

(١) النساء : ١١.

أولها : درجة القرابة بين الوارث ذكرًا كان أو أنثـــى وبيــن المُــوَرَّث المتوفَّى فكلما اقتربت الصلة .. زاد النصيب فى الميراث .. وكلما ابتعـــدت الصلة قل النصيب فى الميراث دونما اعتبار لجنس الوارثين ..

وثانيها : موقع الجيل الوارث من التتابع الزمنى للأجيـــال .. فالأجيـــال التى تستقبل الحياة ، وتستعد لتحمل أعبائها ، عادة يكون نصيبها فى الميراث أكبر من نصيب الأجيال التى تستدبر الحياة . وتتخفف من أعبائـــها ، بــل وتصبح أعباؤها ــ عادة ــ مفروضة على غيرها ، وذلك بصرف النظر عن الذكورة والأنوثة للوارثين والوارثات .. فبنت المتوفى ترث أكثر من أمــه ــ وكلتاهما أنثى ــ .. وترث البنت أكثر من الأب ! حتى لو كانت رضيعة لم تدرك شكل أبيها .. وحتى لو كان الأب هو مصدر الثروة التـــى للابــن ، والتى تنفرد البنت بنصفها ! ــ .. وكذلك يرث الابــن أكــثر مــن الأب ــ وكلاهما من الذكور ..

وفى هذا المعيار من معايير فلسفة الميراث فى الإسلام حِكـــم إلهيـــة بالغـــة ومقاصد ربانية سامية تخفى على الكثيرين !..

وهى معايير لا علاقة لها بالذكورة والأنوثة على الإطلاق ..

وثالثها : العبء المالى الذى يوجب الشرع الإسلامى على الــوارث تحملــه والقيام به حيال الآخرين .. وهذا هو المعيار الوحيد الذى يثمر تفاوتــاً بيــن الذكر والأنثى .. لكنه تفــاوت لا يفــضى إلى أى ظــلم للأنثى أو انتقــاص من إنصافها .. بل ربما كان العكس هو الصحيح ! ..

ففى حالة ما إذا اتفق وتساوى الوارثون فى درجة القرابـــة .. واتفقــوا وتساووا فى موقع الجيل الوارث من تتابع الأجيال – مثل أولاد المتوفـــى ، ذكوراً وإناثاً – يكون تفاوت العبء المالى هو السبب فى التفاوت فى أنصبــة الميراث .. ولذلك ، لم يعمم القرآن الكريم هذا التفاوت بين الذكر والأنثى فى عموم الوارثين ، وإنما حصره فى هذه الحالة بالذات ، فقالت الآية القرآنية :

﴿ **يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ .. ولم تقل : يوصيكم الله فى عموم الوارثين .. والحكمة فى هذا التفاوت ، فى هذه الحالة بالذات ، هى أن الذكر هنا مكلف بإعالة أنثى ــ هى زوجه ــ مع أولادهما .. بينما الأنثى الوارثة أخت الذكر ــ إعالتها ، مع أولادها ، فريضة على الذكر المقترن بها .. فهى ــ مع هذا النقص فى ميراثها بالنسبة لأخيها ، الذى ورث ضعف ميراثها ، أكثر حظًّا وامتيازاً منه فى الميراث .. فميراثها ــ مع إعفائها من الإنفاق الواجب ــ هو ذمة مالية خالصة ومدخرة ، لجبر الاستضعاف الأنثوى ، ولتأمين حياتها ضد المخاطر والتقلبات .. وتلك حكمة إلهية قد تخفى على الكثيرين ..

وإذا كانت هذه الفلسفة الإسلامية فى تفاوت أنصبة الوارثين والوارثات وهى التى يغفل عنها طرفا الغلو ، الدينى واللادينى ، الذين يحسبون هذا التفاوت الجزئى شبهة تلحق بأهلية المرأة فى الإسلام فإن استقراء حالات ومسائل الميراث ــ كما جاءت فى علم الفرائض (المواريث) ــ يكشف عن حقيقة قد تذهل الكثيرين عن أفكارهم المسبقة والمغلوطة فى هذا الموضوع .. فهذا الاستقراء لحالات ومسائل الميراث ، يقول لنا :

١ ــ إن هناك أربع حالات فقط ترث فيها المرأة نصف الرجل .

٢ ــ وهناك حالات أضعاف هذه الحالات الأربع ترث فيها المرأة مثل الرجل تماماً .

٣ ــ وهناك حالات عشر أو تزيد ترث فيها المرأة أكثر من الرجل .

٤ ــ وهناك حالات ترث فيها المرأة ولا يرث نظيرها من الرجال .

أى أن هناك أكثر من ثلاثين حالة تأخذ فيها المرأة مثل الرجل ، أو أكثر منه ، أو ترث هى ولا يرث نظيرها من الرجال ، فى مقابلة أربع حالات محددة ترث فيها المرأة نصف الرجل .. [1] "!! .

---

(١) د . صلاح الدين سلطان "ميراث المرأة وقضية المساواة " ص١٠ ، ٤٦ ، طبعة القاهرة ، دار نهضة مصر سنة ١٩٩٩م ــ " سلسلة فى التنوير الإسلامى " .

تلك هى ثمرات استقراء حالات ومسائل الميراث في علم الفرائض (المواريث) ، التى حكمتها المعايير الإسلامية التى حددتها فلسفة الإسلام فى التوريث .. والتى لم تقف عند معيار الذكورة والأنوثة ، كما يحسب الكثيرون من الذين لا يعلمون ! ..

وبذلك نرى سقوط الشبهة الأولى من الشبهات الخمس المثارة حول أهلية المرأة ، كما قررها الإسلام .

***

الشبهة الحادية والثلاثون بعد المائة

شهادة المرأة نصف شهادة الرجل

الرد على الشبهة :

أما الشبهة الثانية والزائفة التى تثار حول موقف الإسلام من شهادة المرأة .. التى يقول مثيروها : إن الإسلام قد جعل المرأة نصف إنسان ، وذلك عندما جعل شهادتها نصف شهادة الرجل ، مستدلين على ذلك بآية سورة البقرة :﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دُعُوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرًا أو كبيرًا إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم**﴾ (١).

ومصدر الشبهة التى حسب مثيروها أن الإسلام قد انتقص من أهلية المرأة ، بجعل شهادتها على النصف من شهادة الرجل : [فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان] هو الخلط بين " الشهادة " وبين " الإشهاد " الذى تتحدث عنه هذه الآية الكريمة .. فالشهادة التى يعتمد عليها القضاء فى اكتشاف العدل المؤسس على البينة ، واستخلاصه من ثنايا دعاوى الخصوم ، لا تتخذ من الذكورة أو الأنوثة معيارًا لصدقها أو كذبها ، ومن ثم قبولها أو رفضها .. وإنما معيارها تحقق اطمئنان القاضى لصدق الشهادة بصرف النظر عن

---

(١) البقرة : ٢٨٢ .

جنس الشاهد ، ذكرًا كان أو أنثى ، وبصرف النظر عن عـــدد الشـــهود .. فالقاضى إذا اطمأن ضميره إلى ظهور البينة أن يعتمد شـــهادة رجليـــن ، أو امرأتين ، أو رجل وامرأة ، أو رجل وامرأتين ، أو امرأة ورجلين ، أو رجل واحد أو امرأة واحدة .. ولا أثر للذكورة أو الأنوثة فى الشهادة التى يحكـــم القضاء بناءً على ما تقدمه له من البينات ..

أما آية سورة البقرة ، والتى قالت : [**واستشهدوا شهيدين من رجـالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشـــهداء أن تضـــل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى**] فإنها تتحدث عن أمر آخر غير" الشـــهادة " أمام القضاء .. تتحدث عن " الإشهاد " الذى يقوم به صاحب الدين للاستيثاق من الحفاظ على دَيْنه ، وليس عن " الشهادة " التى يعتمد عليها القاضى فـــى حكمه بين المتنازعين .. فهى – الآية – موجهة لصاحب الحق ــ الدَّيْـــن ــ وليس إلى القاضى الحاكم فى النزاع .. بل إن هذه الآية لا تتوجه إلى كـــل صاحب حق ــ دَيْن ــ ولا تشترط ما اشترطت من مستويات الإشهاد وعـــدد الشهود فى كل حالات الدَّيْن .. وإنما توجهت بـــالنصح والإرشـــاد ــ فقـــط النصح والإرشاد ــ إلى دائن خاص ، وفى حالات خاصة من الديون ، لـــها ملابسات خاصة نصت عليها الآية .. فهو دين إلى أجل مسمى .. ولابد مـــن كتابته .. ولابد من عدالة الكاتب . ويحرم امتناع الكاتب عن الكتابة..ولابـــد من إملاء الذى عليه الحق .. وإن لم يستطع فليملل وليه بالعدل .. والإشـــهاد لا بد أن يكون من رجلين من المؤمنين .. أو رجل وامرأتين من المؤمنين .. وأن يكون الشهود ممن ترضى عنهم الجماعة .. ولا يصح امتناع الشـــهود عن الشـــهادة .. وليســـت هذه الشـــروط بمطلوبة فى التجارة الحـــاضرة .. ولا فى المبايعات ..

ثم إن الآية ترى فى هذا المستوى من الإشهاد الوضع الأقسط والأقوم .. وذلك لا ينفى المستوى الأدنى من القسط ..

ولقد فقه هذه الحقيقة ــ حقيقة أن هذه الآية إنما تتحدث عن " الإشـــهاد" فى دَيْن خــاص ، وليس عن الشهادة .. وإنها نصيحــة وإرشاد لصـــاحب الدَّيْن ــ ذى المواصفات والملابسات الخاصة ــ وليست تشــريعاً موجـــهاً إلى القاضى ــ الحاكم ــ فى المنازعات .. فقه ذلك العلماء المجتهدون ..

ومن هؤلاء العلماء الفقهاء الذين فقهوا هذه الحقيقة ، وفصّلوا القول فيـــها شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ــ٧٢٨هـ /١٢٦٣ ــ١٣٢٨] وتلميذه العلامـــة ابن القيم [٦٩١ــ٧٥١هـ/ ١٢٩٢ ــ١٣٥٠م] ــ من القدماء ــ والأســـتاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ــ١٣٢٣هـ] والإمام الشيخ محمود شـلتوت [١٣١٠ــ١٣٨٣هـ /١٨٩٣ــ١٩٦٣م] ــ من المحدثين والمعاصرين ــ فقال ابن تيمية ــ فيما يرويه عنه ويؤكد عليه ابن القيم :

قال عن " البينة " التى يحكم القاضى بناء عليها .. والتى وضع قاعدتـها الشـرعية والفقهية حديث رســول الله ﷺ : " البينة على المدعى ، واليمين على المدعى عليه " ــ رواه البخارى والترمذى وابن ماجه : ــ

" إن البينة فى الشرع ، اسم لما يبيّن الحق ويظهره ، وهى تارة تكـــون أربعة شهود ، وتارة ثلاثة ، بالنص فى بينة المفلـــس ، وتـــارة شـــاهدين ، وشاهد واحد ، وامرأة واحدة ، وتكــون نُكولاً [1] ، ويمينًا، أو خمسين يمينـــاً أو أربعة أيمان ، وتكون شاهد الحال .

---

(١) النكول : هو الامتناع عن اليمين .

فقــوله ﷺ : " البينة على المدعى " ، أى عليه أن يظهر ما يبيّـــن صحـــة دعواه ، فإذا ظهر صدقه بطريق من الطرق حُكِم له .. " [1] فكما تقوم البينـــة بشهادة الرجل الواحد أو أكثر ، تقوم بشهادة المرأة الواحدة ، أو أكثر، وفـــق معيار البينة التى يطمئن إليها ضمير الحاكم – القاضى – ..

* ولقد فصّل ابن تيمية القول فى التمييز بين طرق حفظ الحقـــوق ، التـــى أرشدت إليها ونصحت بها آية الإشهاد – الآية ٢٨٢ من ســـورة البقـــرة ــ وهى الموجهة إلى صاحب " الحق ــ الدَّين " وبين طرق البينة ، التى يحكـــم الحاكم القاضى بناء عليها .. وأورد ابن القيم تفصيل ابن تيمية هـــذا تحـــت عنوان [الطرق التى يحفظ بها الإنسان حقه] .. فقال :

" إن القرآن لم يذكر الشاهدين ، والرجل والمرأتين فى طرق الحكم التى يحكم بها الحاكم ، وإنما ذكر النوعين من البينات فى الطرق التى يحفظ بـــها الإنسان حقه ، فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجـــل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمـــه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهـــداء** ﴾ [2] .. فأمرهم ، ســـبحانه ، بحفـــظ حقوقـــهم بالكتاب [3] ، وأمر من عليه الحق أن يملى الكاتب ، فإن لم يكن ممن يصـــح إملاؤه أملى عنه وليه ، ثم أمر من له الحق أن يستشهد على حقه رجليـــن ، فإن لم يجد فرجل وامرأتان ، ثم نهى الشهداء المتحملين للشهادة عن التخلـف عـــن إقامتـــها إذا طُلـــبوا لذلك ، ثم رخّـــص لهـــم فى التجارة الحـــاضرة ألا يكتبوها ، ثم أمرهم بالإشهاد عند التبايع ، ثم أمرهم إذا كانوا على ســـفر ولم يجدوا كاتباً ، أن يستوثـــقوا بالرهان المقبوضة .

---

(١) ابن القيم [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص٣٤ . تحقيق محمد جميل غازى . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٢ .

(٣) أى الكتابة .

كل هذا نصيحة لهم ، وتعليم وإرشاد لما يحفظون به حقوقـــهم ، ومـــا تحفظ به الحقوق شئ وما يحكم به الحاكم [القاضى] شئ ، فإن طرق الحكم أوسع من الشاهد والمرأتين ، فإن الحاكم يحكم بالنكول ، واليمين المـــردودة ولا ذكر لهما فى القرآن ــ وأيضاً : فإن الحاكم يحكم بالقرعـــة بكتـــاب الله وسنة رسوله الصريحة الصحيحة .. ويحكم بالقافة (١) ــ بالسنة الصريحـــة الصحيحة ــ التى لا معارض لها ــ ويحكم بالقامة (٢) بالســـنة الصحيحـــة الصريحة ، ويحكم بشاهد الحال إذا تداعى الزوجان أو الصانعان متاع البيت والدكان ، ويحكم ، عند من أنكر الحكم بالشاهد واليمين ــ بوجود الآجر فـــى الحائـــط ، فيجعـــله للمدعى إذا كان جهـــته ــ وهذا كله ليس فى القـــرآن ، ولا حكم به رسول الله ﷺ ، ولا أحد من أصحابه ..

فإن قيل : فظاهر القرآن يدل علِى أن الشـــاهد والمرأتيـــن بـــدلٌ عـــن الشاهدين ، وأنه لا يُقْضَى بهما إلا عند عدم الشاهدين .

قيل : القرآن لا يدل على ذلك ، فإن هذا أمر لأصحاب الحقـــوق بمـــا يحفظون به حقوقهم ، فهو سبحانه أرشدهم إلى أقوى الطرق ، فإن لم يقدروا على أقواها انتقلوا إلى ما دونها .. وهو ــ سبحانه ــ لم يذكر ما يحكم.بـــه الحاكم ، وإنما أرشدنا إلى ما يحفظ به الحق ، وطرق الحكم أوسع من الطرق التى تُحفظ بها الحقوق " (٣) ..

وبعد إيراد ابن القيم لهذه النصوص ــ نقلاً عن شيخه وشيخ الإسلام ابـــن تيمية ــ علق عليها ، مؤكداً إياها ، فقال: " قلت ــ [أى ابـــن القيـــم] ــ: وليس فى القرآن ما يقتضى أنه لا يُحْكَم إلا بشـــاهدين ،أو شاهد وامرأتين ،

---

(١) القافة : ــ مفـــردها قائف ــ هو الذى يعـــرف الآثار ــ آثار الأقدام ــ ويعرف شبه الرجـــل بأخيـــه وأبيه ..

(٢) القامة : الأيمان ، تقسم على أهل المحلة الذين وجد المقتول فيهم .

(٣) [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية]ص ١٠٣-١٠٥ ، ٢١٩،٢٣٦ .

فإن الله سبحانه إنما أمر بذلك أصحاب الحقوق أن يحفظوا حقوقهم بهذا النِّصاب ، ولم يأمر بذلك الحكام أن يحكموا به ، فضلاً عن أن يكون قد أمرهم ألا يقضوا إلا بذلك . ولهذا يحكم الحاكم بالنكول ، واليمين المردودة ، والمرأة الواحدة ، والنساء المنفردات لا رجل معهن ، وبمعاقد القُمُط [1] ، ووجوه الآجرّ ، وغير ذلك من طرق الحكم التى تُذكر فى القرآن ..فطرق الحكم شئ ، وطرق حفظ الحقوق شئ آخر ، وليس بينهما تلازم ، فتُحفظ الحقوق بما لا يحكم به الحاكم مما يعلم صاحب الحق أنه يحفظ به حقه ، ويحكم الحاكم بما لا يحفظ به صاحب الحق حقه ، ولا خطر على باله .. " [2] .

فطرق الإشهاد ، فى آية سورة البقرة ــ التى تجعل شهادة المرأتين تعدل شهادة رجل واحد ــ هى نصيحة وإرشاد لصاحب الدَّين ــ ذى الطبيعة الخاصة – .. وليست التشريع الموجه إلى الحاكم ــ القاضى ــ والجامع لطرق الشهادات والبينات .. وهى ــ أيضاً ــ خاصة بدَيْن له مواصفاته وملابساته ، وليست التشريع العام فى البينات التى تُظهر العدل فيحكم به القضاة ..

* وبعد هذا الضبط والتمييز والتحديد .. أخذ ابن تيمية يعدد حالات البينات والشهادات التى يجوز للقاضى ــ الحاكم ــ الحكم بناء عليها .. فقال : " إنه يجوز للحاكم [القاضى] الحكم بشهادة الرجل الواحد إذا عرف صدقه فى غير الحدود ، ولم يوجب الله على الحاكم ألا يحكم إلا بشاهدين أصلاً ، وإنما أمر صاحب الحق أن يحفظ حقه بشاهدين ، أو بشاهد وامرأتين ، وهذا لا يدل علىأن الحاكم لا يحكم بأقل من ذلك ، بل قد حكم رسول اللهﷺ ، بالشاهد واليمين ، وبالشاهد فقط ، وليس ذلك مخالفا لكتاب الله عند من فهمه ، ولا بين حكم الله وحكم رسوله خلاف .. وقد

---

(١) مفردها قمط ــ بكسر القاف وسكون الميم ــ : ما تشد به الإخصاص ومكونات البناء ولبناته .

(٢) [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ١٩٨ .

قبل النبى ﷺ شهادة الأعـــرابى وحده على رؤية هلال رمضان ، وتســـمية بعض الفقهاء ذلك إخباراً ، لا شهادة ، أمر لفظى لا يقدح فـــى الاســـتدلال ، ولفظ الحديث يردّ قوله ، وأجـــازﷺ شهادة الشـــاهد الواحـــد فـــى قضيـــة السَّلَب [1] ، ولم يطالب القاتل بشاهد آخـــر ، واســـتحلفه ، وهـــذه القصـــة [وروايتها فى الصحيحين] صريحة فى ذلك .. وقد صـــرح الأصحاب : أنـــه تُقبل شهادة الرجل الواحد من غير يمين عند الحاجة ، وهـــو الـــذى نقلـــه الخِرَقى [٣٣٤هـــ ـــ ٩٤٥م] فى مختصره ،فقال : وتِقبل شـــهادة الطبيـــب العدل فى الموضحة [2] إذا لم يقدر على طبيبين ، وكذلك البيطـــار فـــى داء الدابة .." [3] .

* وكما تجوز شهادة الرجل الواحد ـــ فى غير الحدود ـــ .. وكمـــا تجـــوز شهادة الرجال وحدهم في الحدود ، تجوز ـــ عند البعض ـــ شـــهادة النســـاء وحدهن فى الحدود .. وعن ذلك يقول ابن تيمية ، فيما نقله ابن القيم : " وقـــد قبل النبى ﷺ شهادة المرأة الواحدة فى الرضاع ، وقد شهدت علـــى فعـــل نفسها ، ففى الصحيحين عن عقبة ابن الحارث : " أنه تزوج أم يحيى بنـــت أبى إهاب ، فجاءت أَمَةٌ سوداء ، فقالت : قد أرضعتكمـــا . فذكـــرتُ ذلـــك للنبىﷺ ، فأعرض عنى ، قال : فتنحيتُ فذكرتُ ذلك له ، قال : فكيف ؟ وقد زعمتْ أنْ قد أرضعتكما ! ".

وقـــد نص أحـــمد على ذلك فى رواية بكر بن محمد عن أبيه ، قـــال: فى المرأة تشهد على مالا يحضره الرجال من إثبات اســـتهلال الصبـــى [4]، وفى الحمّام يدخله النساء ، فتكون بينهن جراحات .

---

(١) السَّلب ـــ بفتح الســـين مشـــددة ، وفتح اللام –: هو متاع القتيل وعدته ، يأخذه قاتله .. وفى الحديـــث : " من قتل قتيلاً فله سَلَبُهُ " .

(٢) الموضحة : هى الجراحات التى هي دون قتل النفس .

(٣) [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ٩٨ ، ١١٣ ، ١٢٣ .

(٤) استهلال الصبى : هو أن يحدث منه ما يدل على حياته ـــ ساعة الولادة ـــ من رفع صوت أو حركـــة عضو أو عين ، وهو شرط لتمتعه بحقوق الأحياء .

وقال إسحاق بن منصور : قلتُ لأحمد فى شهادة الاستدلال : " تجـــوز شهادة امرأة واحدة فى الحيض والعدة والسقط والحمّام ، وكل مالا يطلع عليه إلا النساء ".

فقال : "تجوز شهادة امرأة إذا كانت ثقة ، ويجوز القضاء بشـــــهادة النســـاء منفردات فى غير الحدود والقصاص عند جماعة من الخلف والسلف ". وعن عطاء [٢٧-١١٤هـــ/٦٤٧ ــ٧٣٢م] أنه أجاز شهادة النساء فى النكـــــاح . وغن شريح [٧٨هـــ/ ٦٩٧م] أنه أجاز شهادة النساء فى الطلاق . وقـــــال بعض الناس : تجوز شهـــادة النساء فى الحدود . وقال مهنا : قال لى أحمـــد بن حنبل : قال أبو حنيفة : تجوز شهـــادة القـــــابلة وحدهـــا ، وإن كـــانت يهودية أو نصرانية .." (١) .

ذلك أن العبرة هنا ــ فى الشهادة ــ إنما هى الخبرة والعدالـــة ، وليســت العـــبرة بجنس الشاهـــد ــ ذكراً كان أو أنثى ــ ففى مهن مثـــل الطـــب .. والبيطـــرة .. والترجمة أمام القاضى .. تكـــون العـــــبرة "بمعرفـــة أهـــل الخبرة " (٢) .

* بل لقد ذكر ابن تيمية ــ فى حديثه عن الإشهاد الذى تحدثت عنه آية سورة البقرة ــ أن نسيان المرأة ، ومن ثم حاجتها إلى أخرى تذكرها ﴿ **أن تضـــل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى** ﴾ ليس طبعًا ولا جبلة فى كل النساء ، وليس حتمًا فى كل أنواع الشهادات .. وإنما هو أمر له علاقة بالخبرة والمـــران ، أى أنه مما يلحقه التطور والتغيير .. وحكى ذلك عنه ابن القيم فقال :

" قال شيخـــنا ابن تيمية ، رحـــمه الله تعالى : قوله تعالى : :﴿ **فإن لم يكونا**

---

(١) [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ١١٥-١١٧ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٨٨ ، ١٩٣ .

رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكـــر إحداهما الأخرى﴾ فيه دليل على أن استشهاد امرأتين مكان رجل واحد إنمـــا هو لإذكار إحداهما للأخرى ، إذا ضلت ، وهذا إنما يكون فيما فيه الضـــلال فى العادة ، وهو النسيان وعدم الضبط .. فما كان من الشهادات لا يُخافُ فيه الضلال فى العادة لم تكن فيه على نصف الرجل .." [1] .

فحتى فى الإشهاد ، يجوز لصاحب الدَّيْن أن يحفظ دَينه ــ وفق نصيحـــة وإرشاد آية سورة البقرة ــ بإشهاد رجل وامرأة ، أو امرأتين ، وذلك عنـــد توافر الخبرة للمرأة فى موضوع الإشهاد .. فهى ــ فى هذا الإشهاد ــ ليست شهادتها دائماً على النصف من شهادة الرجل ..

ولقد كرر ابن القيم ــ وأكد ــ هذا الذى أشرنا إلى طرف منه ، فى غـير كتابه [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] فقـــال فـــى كتابـــه " إعـــلام الموقعين عند رب العالمين" ــ أثناء حديثه عن " البينة " وحديث رســـول الله ﷺ: " البينة على المدعى واليمين على من أنكر " ــ خلال شرحه لخطـــاب عمر بن الخـــطاب إلى أبى موسى الأشـــعرى [٢١ق هـــ٤٤هـــ ٦٠٢-٦٦٥م] فى قواعد القضـــاء وآدابه – قـــال : " إن البينـــة فـــى كـــلام الله ورســـوله ، وكلام الصحابة اسم لكل ما يبين الحق .. ولم يختص لفظ البينـــة بالشاهدين .. وقال الله فى آية الدَّيْن : ﴿ **واستشهدوا شهيدين مـــن رجـــالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان** ﴾ فهذا فى التَّحمل والوثيقة التى يحفـــظ بها صاحب المال حقـــه ، لا فى طـــرق الحكم وما يحكم به الحاكم ، فـــإن هذا شئ وهذا شئ ، فذكر ــ سبحـــانه ــ ما يحفظ به الحقوق من الشـــهود ، ولم يذكر أن الحكام لا يحكمون إلا بذلك .. فإن طرق الحكم أعم من طـــرق حفظ الحقوق .. وقال سبحانه : ﴿ **ممن ترضون من الشهداء**﴾ لأن صـــاحب الحق هو الذى يحفظ ماله بمن يرضاه .. " .

وعلل ابن تيمية حكمة كون شهادة المرأتين ــ فى هذه الحالة ــ تعـدلان شهادة الرجل الواحد ، بأن المرأة ليست مما يتحمل عادة مجالس وأنواع هـذه المعاملات .. لكن إذا تطورت خبراتها وممارساتها وعاداتها ، كانت شهادتها

ـــ حتى فى الإشهاد على حفظ الحقوق والديون ـــ مساوية لشهادة الرجـــل .. فقال :

" ولا ريب أن هذه الحكمة فى التعدد هى فى التحمل ، فأما إذا عقلـــت المرأة ، وحفظت وكانت ممن يوثق بدينها فإن المقصود حاصل بخبرها كمـا يحصل بأخبار الديانات ، ولهذا تُقبل شهادتها وحدها فى مواضـــع ، ويُحكـم بشهادة امرأتين ويمين الطالب فى أصح القولين ، وهو قـــول مـــالك [٩٣-١٧٩هـــ٧١٢-٧٩٥م] وأحد الوجهين فى مذهب أحمد .. "

والمقصود أن الشارع لم يَقِف الحكم فى حفظ الحقوق البتة على شـــهادة ذكرين ، لا فى الدماء ولا فى الأموال ولا فى الفروج ولا فـــى الحـــدود .. وسر المسألة ألا يلزم من الأمر بالتعدد فى جانب التحمل وحفـــظ الحقـــوق الأمر بالتعدد فى جانب الحكم والثبوت ، فالخبر الصادق لا تـــأتى الشـــريعة برده أبداً (١) .

وهذا الذى قاله ابن تيمية وابن القيم ـــ فى حديثهما عن آية سورة البقـــرة ـــ هو الذى ذكره الإمام محمد عبده ، عندما أرجع تميز شهادة الرجال على هذا الحق ـــ الذى تحدثت عنه الآية ـــ على شهادة النساء ، إلى كون النســـاء ـــ فى ذلك التاريخ ـــ كن بعيدات عن حضور مجالس التجـــارات ، ومـــن ثـــم بعيدات عن تحصيل التحمل والخبرات فى هذه الميادين .. وهو واقع تاريخى خاضع للتطور والتغير ، وليس طبيعة ولا جبلة فى جنس النساء علـــى مـــر العصور.. ولو عاش الإمام محمد عبده إلى زمننا هذا ، الذى زخر ويزخـــر بالمتخصصات فى المحاسبة والاقتصاد وإدارة الأعمـــال ، وبـــ " ســـيدات الأعمال " اللائى ينافسن " رجال الأعمال " لأفاض وتوسع فيما قال ، ومـــع ذلك ، فحسبه أنه قد تحدث ـــ قبل قرن من الزمان ـــ فى تفسيره لآية ســـورة البقرة هذه رافضاً أن يكون نسيان المرأة جبلة فيها وعامًّا فى كل موضوعات الشهادات ، فقال :

---

(١) [إعلام الموقعين عن رب العالمين] جـــ١ ص ٩٠-٩٢، ٩٤-٩٥ ،١٠٣،١٠٤ . طبعة بيروت ســـنة ١٩٧٣م .

" تكلم المفســـرون فى هذا ، وجعــلوا سببه المزاج ، فقـــــالوا : إن مـــزاج المرأة يعتريه البرد فيتبعه النسيان ، وهذا غير متحقق ، والسبب الصحيح أن المرأة ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات ، فلذلك تكون ذاكرتها ضعيــفة ،ولا تكــون كذلك فى الأمور المنزلية التـــــى هى شغلها ، فإنها أقوى ذاكرة من الرجل ، يعنى أن من طبع البشر ــ ذكراناً وإناثاً ــ أن يقوى تذكرهم للأمور التى تهمهم ويكثر اشتغالهم بها " (١) .

ولقد سار الشيخ محمود شلتوت ــ الذى استوعب اجتهادات ابن تيميـــة وابن القيم ومحمد عبده ــ مع هذا الطريق ، مضيفاً إلى هذه الاجتهادات علماً آخر عندما لفت النظر إلى تساوى شهادة الرجل فى " اللعان " .. فكتب يقـول عن شهادة المرأة وكيف أنها دليل على كمال أهليتها ، وذلك على العكس من الفكر المغلوط الذى يحسب موقف الإسلام من هذه القضيـــة انتقاصًـــا مـــن إنسانيتها .. كتب يقول :

إن قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان** ﴾ ليـس وارداً فى مقام الشهادة التى يقضى بها القاضى ويحكم ، وإنما هو فى مقـــام الإرشاد إلى طرق الاستيثاق والاطمئنان على الحقوق بين المتعاملين وقـــت التعامل﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتـب بينكم كاتب بالعــدل ولايأب كاتب أن يكــتب كما علمه الله** ﴾ إلى أن قـــال : ﴿ **واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجـــل وامرأتـــان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى** ﴾ (٢) .

فالمقام مقام استيثاق على الحقوق ، لا مقام قضاء بها . والآية ترشـــد إلـــى أفضل أنواع الاستيثاق الذى تطمئن به نفوس المتعاملين على حقوقهم .

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ٤ ص٧٣٢ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمـــارة . طبعـة القاهرة سنة ١٩٩٣م .

(٢) البقرة : ٢٨٢

وليس معنى هذا أن شهادة المرأة الواحدة أو شهادة النساء اللاتى ليس معهن رجل ، لايثبت بها الحق ، ولا يحكم بها القاضى ، فإن أقصى ما يطلبه القضاء هو " البينة " .

وقد حقق العلامة ابن القيم أن البينة فى الشرع أعم من الشهادة ، وأن كل ما يتبين به الحق ويظهره ، هو بينة يقضى بها القاضى ويحكم . ومن ذلك : يحكم القاضى بالقرائن القطعية ، ويحكم بشهادة غير المسلم متى وثق بها واطمأن إليها .

واعتبار المرأتين فى الاستيثاق كالرجل الواحد ليس لضعف عقلها ، الذى يتبع نقص إنسانيتها ويكون أثراً له ، وإنما هو لأن المرأة ــ كما قال الشيخ محمد عبده ــ " ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات ، ومن هنا تكون ذاكرتها فيها ضعيفة ، ولا تكون كذلك فى الأمور المنزلية التى هى شغلها ، فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل ، ومن طبع البشر عامة أن يقوى تذكرهم للأمور التى تهمهم ويمارسونها ، ويكثر اشتغالهم بها .

والآية جاءت على ما كان مألوفاً فى شأن المرأة ، ولا يزال أكثر النساء كذلك ، لا يشهدن مجالس المداينات ولا يشتغلن بأسواق المبايعات ، واشتغال بعضهن بذلك لا ينافى هذا الأصل الذى تقضى به طبيعتها فى الحياة .

وإذا كانت الآية ترشد إلى أكمل وجوه الاستيثاق ، وكان المتعاملون فى بيئة يغلب فيها اشتغال النساء بالمبايعات وحضور مجالس المداينات ، كان لهم الحق فى الاستيثاق بالمرأة على نحو الاستيثاق بالرجل متى اطمأنوا إلى تذكرها وعدم نسيانها على نحو تذكر الرجل وعدم نسيانه .

هذا وقد نص الفقهاء على أن من القضايا ما تقبل فيه شهادة المرأة وحدها ، وهى القضايا التى لم تجر العادة بإطلاع الرجال على موضوعاتها ، كالولادة والبكارة ، وعيوب النساء والقضايا الباطنية .

وعلى أن منها ما تقبل فيه شهادة الرجل وحده ، وهى القضايا التـــى تثـير موضوعاتها عاطفة المرأة ولا تقوى على تحملها ، على أنهم قـدروا قبـول شهادتها فى الدماء إذا تعينت طريقاً لثبوت الحق واطمئنان القاضى إليـــها . وعلى أن منها ما تقبل شهادتهما معاً .

ومالنا نذهب بعيداً ، وقد نص القرآن على أن المرأة كالرجل ــ سـواء بسواء ــ فى شهادات اللعان ، وهو ما شرعه القرآن بين الزوجيـن حينمـا يقذف الرجل زوجه وليس له على ما يقول شهود ﴿ **والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمـن الصادقين * والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين * ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين * والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين**﴾ (١) .

أربع شهادات من الرجل ، يعقبها استمطار لعنة الله عليه إن كان مـن الكاذبين ، ويقابلها ويبطل عملها ، أربَع شهادات من المرأة يعقبها اسـتمطار غضب الله عليها إن كان من الصادقين .. فهذه عدالة الإسلام فـى توزيـع الحقوق العامة بين الرجل والمرأة ، وهى عدالة تحقق أنهما فـى الإنسـانية سواء .. (٢) .

هكذا وضحت صفحة الإسلام .. وصفحات الاجتهاد الإسلامى فـى قضيـة مساواة شهادة المرأة وشهادة الرجل ، طالما امتلك الشاهد أو الشاهدة مقومات ومؤهلات وخبرة هذه الشهادة .. لأن الأهلية الإنسانية بالنسبة لكـل منـهما واحدة ، ونابعة من وجدة الخلق ، والمسـاواة فى التكاليف ، والتناصـر فى

---

(١) النور :٦ــ٩ .

(٢) [الإسلام عقيدة وشريعة] ص ٢٣٩- ٢٤١ . طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠هـ سنة ١٩٨٠م .

المشاركة بحمل الأمانة التى حملها الإنسان ، أمانة استعمار وعمـــران هـــذه الحياة .

*وأخيراً ــ وليس آخراً ــ فإن ابن القيم يستدل بالآية القرآنية : ﴿ **وكذلـــك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهـــداء على الناس ويكون الرســـــول عليكـــم شهيداً**﴾ (١) . على أن المرأة كالرجل فى هذه الشهادة على بـــلاغ الشـــريعة ورواية السنة النبوية .. فالمرأة كالرجل فى " رواية الحديث " ، التـــى هـــى شهادة على رسول الله ﷺ ..

وإذا كان ذلك مما أجمعت عليه الأمة ، ومارسته راويات الحديث النبوى جيلاً بعد جيل " والرواية شهادة " فكيف تقبل الشهادة ــ من المرأة ــ علـــى رســـول اللهﷺ ولا تقـــبل على واحـــد من الناس ؟ .. إن المرأة العـــدل ــ [بنص عبارة ابن القيم] ــ كالرجل في الصدق والأمانة والديانة (٢) .

ذلكم هو منطق شريعة الإسلام ــ وكلها منطق ــ وهذا هوعدلها بين النســـاء والرجال ــ وكلها عدل ــ وكما يقول ابن القيم :" وما أثبت الله ورسوله قـــط حكماً من الأحكام يُقطع ببطلان سببه حسًّا أو عقلاً ، فحاشا أحكامه ســـبحانه من ذلك ، فإنه لا أحـــسن حـــكمًا منه ــ سبحـــانه وتعالى ــ ولا أعـــدل . ولا يحكم حكماً يقول العقل : ليته حكم بخلافه ، بل أحكامه كلها مما يشـــهد العقل والفِطَر بحســـنها ، ووقـــوعها على أتم الوجـــوه وأحسنها ، وأنـــه لا يصلح فى موضعها سواها " (٣) .

***

(١) البقرة : ١٤٣ .

(٢) [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص٢٣٦، ٢٤٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص٣٢٩ .

هـــــذا .. ولقد تعمدنا فى إزالة هذه الشبهة أمران :

أولهما : أن ندع نصوص أئمة الاجتهاد الإسلامى هى التى تبدد غيـــوم هذه الشبهة ، لا نصوصنا نحن .. وذلك حتى لا ندع سبيلاً لشبهات جديدة فى هذا الموضوع !

وثانيهما : أن تكون هذه النصوص للأئمة المـــبرزين فـــى إطـــار الســـلف والسلفيين .. وذلك حتى نقطع الطريق على أدعياء الســـلفية الذيـــن حملـــوا العادات الراكدة لمجتمعاتهم على دين الإسلام ، فاستبدلوا هذه العادات بشريعة الإسلام ! .. وحتى نقطع الطريـــق ــ كذلـــك ــ علـــى غـــلاة العلمـــانيين والعلمانيات ، الذين استبدلوا البدع 'الفكرية' الوافدة بحقائق وحقيقة الإســـلام ، والذين يتحسسون مسدساتهم إذا ذكرت مصطلحات السلفية والسلفيين ! ..

فإنصاف المرأة ، وكمال واكتمال أهليتها هو موقف الإسلام ، الذى نـــزل به الروح الأمين على قلب الصادق الأمين .. وهـــو موقـــف كـــل تيـــارات الاجتهاد الإسلامى ، على امتداد تاريخ الإسلام .

* * *

الشبهة الثانية والثلاثون بعد المائة

النساء ناقصات عقل ودين

الردعلى الشبهة :

المصدر الحقيقى لهذه الشبهة هو العادات والتقاليد الموروثة ، والتى تنظر إلى المرأة نظرة دونية .. وهى عادات وتقاليد جاهلية ، حرر الإسلام المرأة منها .. لكنها عادت إلى الحياة الاجتماعية ، فى عصور التراجع الحضارى مستندة ــ كذلك ــ إلى رصيد التمييز ضد المرأة الذى كانت عليه مجتمعات غير إسلامية ، دخلت فى إطار الأمة الإسلامية والدولة الإسلامية ، دون أن تتخلص تماماً من هذه المواريث .. فسرعة الفتوحات الإسلامية ــ التى اقتضتها معالجة القوى العظمى المناوئة للإسلام ــ قوى الفرس والروم ــ وما تبعها من سرعة امتداد الدولة الإسلامية ، قد أدخلت فى الحياة الإسلامية شعوباً وعادات وتقاليد لم تتح هذه السرعة للتربية الإسلامية وقيمها أن تتخلص تلك الشعوب من تلك العادات والتقاليد ، والتى تكون ــ عادة ــ أشد رسوخاً وحاكمية من القيم الجديدة .. حتى لتغالب فيه هذه العادات الموروثة العقائد والأنساق الفكرية والمثل السامية للأديان والدعوات الجديدة والوليدة ، محاولة التغلب عليها ! .

ولقد حاولت هذه العادات والتقاليد ــ بعد أن ترسخت وطال عليها الأمد ، فى ظل عسكرة الدولة الإسلامية ــ فى العهدين المملوكى والعثمانى ــ أن تجد لنظرتها الدونية للمرأة " غطاء شرعيًّا " فى التفسيرات المغلوطة لبعض الأحاديث النبوية وذلك بعد عزل هذه الأحاديث عن سياقها ، وتجريدها من ملابسات ورودها ، وفصلها عن المنطق الإسلامى ــ منطق تحرير المرأة كجزء من تحريره للإنسان ، ذكراً كان أو أنثى هذا الإنسان ــ فلقد جاء الإسلام ليضع عن الناس إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ،

وليحيى ملكات وطاقات الإنسان ــ مطلق جنس ونوع الإنسان ــ وليشـــرك الإناث والذكور جميعاً فى حمل الأمانة التى حملها الإنسان ، وليكون بعضهم أولياء بعض فى النهوض بالفرائض الاجتماعية ، الشاملة لكل ألوان العمـــل الاجتماعى والعام ..

لكن العادات والتقاليد الجاهلية ــ فى احتقار المرأة ، والانتقـــاص مـــن أهليتها ، وعزلها عن العمل العام ، وتعطيل ملكاتها وطاقاتها الفطرية ــ قـــد دخلت فى حرب ضروس ضد القيم الإسلامية لتحرير المرأة .. وسعت إلـــى التفسيرات الشاذة والمغلوطة لبعض الأحاديث النبوية والمأثورات الإســـلامية كى تكون " غطاءً شرعياً " لهذه العادات والتقاليد ..

فبعد أن بلغ التحرير الإسلامى للمرأة إلى حيث أصبحت به وفيه :

* طليعة الإيمان بالإسلام .. والطاقةِ الخلاقة الداعمة للدين ورسوله ﷺ كمـــا كان حال أم المؤمنين خديجة بنت خويلد [٦٨ ــ ٣ق هـــ / ٥٥٦ ــ٦٢٠م] رضى الله عنها.. حتى لقد كان عام وفاتها عام حـــزن المســـلمين ورســـول الإسلام ودعوة الإسلام ..

* وطليعة شهداء الإسلام .. كما جسدتها شهادة سمية بنت خياط [٧ق هـــــ ــ٦١٥م] ، أم عمار بن ياسر [٥٧ ق هـــ ــ ٣٧هـــ /٥٦٧ــ ٦٥٧م] ..

* وطليعة المشاركة فى العمل العام ــ السياسى منه ، والشورى ، والفقهى ، والدعوى ، والأدبى ، والاجتماعى . بل والقتالى – كما تجسدت فى كوكبـــة النخبة والصفوة النسائية التى تربت فى مدرسة النبوة ..

بعد أن بلغ التحرير الإسلامى للمرأة هذه الآفـــاق .. أعـــادت العـــادات والتقاليد المرأة ــ أو حاولت إعادتها ــ إلى أسر وأغلال منظومة من القيـــم الغربية عن الروح الإسلامية .. حتى أصبحت المفاخرة والمباهاة بـــأعراف ترى :

* أن المرأة الكريمة لا يليق بها أن تخرج من مخدعها إلا مرتان : **أولاهما** : إلى مخدع الزوجية .. **وثانيتهما** : إلى القبر الذى تُدفن فيه ! ..

* فهى عورة ، لا يسترها إلا " القبر " ! .

ولم أر نعمة شملت كريماً *** كنعمة عورة سُترت بقبر !

وإذا كان الإسلام قد حفظ حياتها من الوأد المادى ــ القتل ــ فإن المجد والمكرمات ــ فى تلك العادات ــ هى فى موتها !

ومن غاية المجد والمكرمات *** بقاء البنين وموت البنات !

تهوى حياتى وأهوى موتها شفقا *** والموت أكرم نزّال على الحرم !

* وشوراها شؤم يجب اجتنابها .. وإذا حدثت فلمخالفتها ، وللحذر من الأخذ بها ! .

والأكثر خطورة من هذه الأعراف والعادات والتقاليد ، التى سادت أوساطا ملحوظة ومؤثرة فى حياتنا الاجتماعية ، إبان مرحلة التراجع الحضارى ، هى التفسيرات المغلوطة لبعض المرويات الإسلامية بحثاً عن مرجعية إسلامية وغطاء شرعى لقيم التخلف والانحطاط التى سادت عالم المرأة فى ذلك التاريخ .. لقد كان الحظ الأوفر فى هذا المقام للتفسير الخاطىء الذى ساد وانتشر لحديث رسول الله ﷺ الذى رواه البخارى ومسلم عن نقص النساء فى العقل والدين .. وهو حديث رواه الصحابى الجليل أبو سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ فقال : " خرج رسول الله ﷺ فى أضحى أو فِطْر ــ إلى المصلى فمرّ على النساء ، فقال :

– " يا معشر النساء ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن " .

– قلن : وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ .

– قال : " أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل " ؟ .

– قلن : بلى .

– قال : " فذلك من نقصان عقلها . أليس إذا حاضت لم تصلّ ولم تصم ؟ " .

– قلن : بلى .

– قال : " فذلك من نقصان دينها " .

ذلكم هو الحديث الذى اتّخذَ تفسيره الملغوط ــ ولا يـــزال ــ " غطـــاء شرعيًّا " للعادات والتقاليد التى تنتقص من أهلية المرأة .. والذى ينطلق منـــه نفر من غلاة الإسلاميين فى " جهادهم " ضد إنصاف المرأة وتحريرها مـــن أغلال التقاليد الراكدة .. وينطلق منه المتغربون وغلاة العلمانيين فى دعوتهم إلى إسقاط الإسلام من حســابات تحــرير المرأة ، وطــلب هــذا التحريــر فى النماذج الغربية الوافدة ..

الأمر الذى يستوجب إنقاذ المرأة من هذه التفسيرات المغلوطة لهذا الحديث .. بل إنقاذ هذا الحديث الشريف من هذه التفسيرات ! ..

وذلك من خلال نظرات فى متن " الحديث و " مضمونه " نكتفها فى عدد من النقاط :

أولاها : أن الذاكرة الضابطة لنص هذا الحديث قد أصابها ما يطرح بعـــض علامات الاستفهام .. ففى رواية الحديث شك ــ من الروای ــ حول مناســبة قوله .. هل كان ذلك فى عــيد الأضحى ؟ أم فى عــيد الفطر؟ .. وهو شك لا يمكن إغفاله عند وزن المرويات والمأثورات.

وثانيتها : أن الحديث يخاطب حالة خاصة من النساء ، ولا يشرّع شـــريعة دائمة ولا عامة فى مطلق النساء .. فهو يتحدث عن "واقــع " والحــديث عن " الواقع " ــ القابل للتغير والتطور ــ شىء ، والتشريع " للثوابت "ــ عبادات وقيمًا ومعاملات ــ شىء آخر ..

فعندما يقول الرسول ﷺ " إنا أمة أُمية ، لا نكتب ولا نحســـب " . رواه البخارى ومسلم والنسائى وأبو داود والإمام أحمد ــ فهو يصف " واقعــاً " ، ولا يشرع لتأييد الجهل بالكتابة والحساب ، لأن القرآن الكريم قد بدأ بفريضة

" القراءة " لكتاب الكون ولكتابات الأقلام ﴿ **اقرأ باسم ربك الـــذى خلـــق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علـــــم بـــالقلم * علـــم الإنسان ما لم يعلم**﴾[1] ولأن الرسول ﷺ الذى وصف " واقع " الأمية الكتابية والحسابية ، وهو الذى غير هذا الواقع ، بتحويل البدو الجهلاء الأميين إلـــى قراء وعـــلماء وفقهاء ، وذلك امتثالاً لأمر ربه ، فى القرآن الكريم ، الـــذى علمنا أن من وظائف جعل الله ــ سبحانه وتعالى ــ القمر منازل أن نتعلـــم عدد السنين والحســـاب ﴿ **هو الذى جـــعل الشمس ضياء والقمر نوراًوقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بـــالحق يفصـــل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ [2] . فوصف " الواقع " كما نقول الآن مثلاً : " نحن مجتمعات متخلفة "ــ لا يعنى شرعنة هذا " الواقع " ولا تأييده ، فضلاً عـــن تأبيده ، بأى حال من الأحوال .

وثالثتها : أن فى بعض روايات هذا الحديث ــ وخاصة رواية ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ ما يقطع بأن المقصود به إنما هى حالات خاصة لنســـاء لهن صفات خاصة ، هى التى جعلت منهن أكثر أهل النار ، لا لأنهن نساء ، وإنما لأنهن ــ كما تنص وتعلل هذه الرواية ــ" يكفرن العشير " ، ولو أحسن هذا العشير إلى إحداهن الدهر كله ، ثم رأت منه هِنَةً أو شـــيئاً لا يعجبـــها ، كفرت ــ كفر نعمة ــ بكل النعم التى أنعم عليها بها ، وقالت ــ بسبب النزق أو الحـــمق أو غلبة العاطـــفة التى تنسيها ما قدمه لها هذا العـــــشير مـــن إحسان ــ: " ما رأيت منك خيراً قط " ! ــ رواه البخارى ومسلم والنســـائى ومالك ــ فى الموطأ ــ ..

فهذا الحديث ــ إذن ــ وصف لحالة بعينها ، وخاص بهذه الحالة .. وليـــس تشريعاً عامًّا ودائماً لجنس النساء ..

---

(١) العلق : ١-٥ .

(٢) سورة يونس : الآية ٥ .

ورابعتها : أن مناسبة الحديث ترشح ألفاظه وأوصافـــه لأن يكون المقصـــود من ورائها المدح وليس الذم .. فالذيـــن يعرفون خُلق من صنعـــه الله علـــى عينه ، حتى جعله صاحب الخُلق العظيم﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ (١) ..

والذين يعرفون كيف جعل الرسولﷺ من " العيد " ــ الذى قال فيه هـذا الحديث ــ" فرحة " أشرك فى الاستمتاع بها ــ مع الرجال ــ كل النســـاء ، حتى الصغيرات ، بل وحتى الحُيَّض والنفساء ! .. الذين يعرفون صـــاحب هذا الخلق العظيم ، ويعرفون رفقه بالقوارير ، ووصاياه بهن حتى وهو على فراش المرض يودع هذه الدنيا .. لا يمكن أن يتصوروهﷺ ذلك الذى يختـــار يوم الزينة والفرحة ليجابه كل النساء ومطلق جنس النساء بـــالذم والتقريـــع والحكم المؤبد عليهن بنقصان الأهلية ، لنقصانهن فى العقل والدين ! ..

وإذا كانت المناسبة ــ يوم العيد والزينة والفرحة ــ لا ترشح أن يكـون الذم والغم والحزن والتبكيت هو المقصود .. فإن ألفاظ الحديث تشهد على أن المقصود إنما كان المديح ، الذى يستخـدم وصـف " الواقع " الذى تشـترك فى التحلى بصفاته غالبية النساء .. إن لم يكن كل النساء ..

فالحديث يشير إلى غلبة العاطفة والرقة على المرأة ، وهى عاطفة ورقة صارت " سلاحاً " تغلب به هذه المرأة أشد الرجال حزماً وشدة وعقلاً .. وإذا كانت غلبة العاطفـــة إنما تعنى تفوقها علـــى الحســـابات العقليـــة المجـــردة والجامدة ، فإننا نكون أمام عملة ذات وجهين ، تمثلها المرأة .. فعند المـــرأة تغلب العاطفة على العقلانية ، وذلك على عكس الرجل ، الذى تغلب عقلانيته وحساباته العقلانية عواطفه .. وفى هذا التمايز فقرة إلهية ، وحكمة بالغـــة ، ليكون عطاء المرأة فى ميادين العاطفة بلا حدود وبلا حسابات .. وليكـــون عطاء الرجل فى مجالات العقـــلانية المجـــردة والجامدة مكملاً لمـــا نقـــص عند " الشق اللطيف والرقيق ! " ..

---

(١) القلم : ٤ .

فنقص العقل ــ الذى أشارت إليه كلمات الحديث النبــوى الشــريف ــ هــو وصف لواقع تتزين به المرأة السوية وتفخر به ، لأنه يعنى غلبة عاطفتـــها على عقلانيتها المجردة .. ولذلك ، كانت " مداعبة " صاحب الخُلق العظيـــم الذى آتاه ربه جوامع الكلم للنساء ، فى يوم الفرحة والزينة ، عندما قـــال : لهن : " إنهن يغلبن بسلاح العاطفة وسلطان الاستضعاف أهل الحزم والألباب من عقلاء الرجال ، ويخترقن بالعواطف الرقيقة أمنع الحصون ! :

– " ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن "

فهو مدح للعاطفة الرقيقة التى تذهب بحزم ذوى العقول والألباب .. ويـا بؤس وشقاء المرأة التى حرمت من شرف امتلاك هذا السلاح الذى فطــر الله النساء على تقلده والتزين به فى هذه الحياة ! بل ــ وأيضاً ــ يا بؤس أهـــل الحزم والعقــلانية ــ من الرجــال ــ الذين حــرموا ــ فى هذه الحيـــاة ــ من الهزيمة أمام هذا السلاح .. سلاح العاطفة والاستضعاف ! ..

وإذا كان هذا هو المعنى المناسب واللائق بالقائل وبالمخاطب وبالمناسبة ــ وأيضاً المحبب لكل النساء والرجال معاً ــ الذى قصدت إليه ألفاظ " نقص العقل " فى الحديث النبوى الشــريف .. فإن المراد " بنقص الدين " ــ هـــو الآخر ــ وصف الواقع غير المذموم ، بل إنه الواقع المحمود والممدوح ! ..

فعندما سألت النسوة رسول اللهﷺ عن المقصود من نقصهن فى الديــن ، تحدث عن اختصاصهن " برخص " فى العبادات تزيد على " الرخص " التــى يشاركن فيها الرجال .. فالنساء يشاركن الرجال فى كل " الرخـــص " التـــى رخّص فيها الشارع ٠٠ من إفطار الصائم فى المرض والسفر .. إلى قصـــر الصلاة وجمعها فى السفر .. إلى إباحة المحرمات عند الضرورات .. إلخ .. إلخ ٠٠ثم يزدن عن الرجال فى " رخص" خاصة بالإناث ، من مثل ســـقوط فرائض الصلاة والصيام عن الحيَّض والنفساء .. وإفطار المرضـــع ، عنـــد الحاجة ، فى شهر رمضان .. إلخ .. إلخ ..

وإذا كان الله ــ سبحانه وتعالى ــ يحب أن تُؤتَى رخصه كما يحب أن تُؤتَى عزائمه ، فإن التزام النساء بهذه " الرخص " الشرعية هو الواجب المطلوب والمحمود ، وفيه لهن الأجر والثواب .. ولا يمكن أن يكون بالأمر المرذول والمذموم .. ووصف واقعه ــ فى هذا الحديث النبوى ــ مثله كمثل وصف الحديث لغلبة العاطفة الرقيقة الفياضة على العقلانية الجامدة ، عند النساء ، هو وصف لواقع محمود .. ولا يمكن أن يكون ذمًّا للنساء ، ينتقص من أهلية المرأة ومساواتها للرجال ، بأى حال من الأحوال .

إن العقل ملكة من الملكات التى أنعم الله بها على الإنسان ، وليس هناك إنسان ــ رجلاً كان أو امرأة ــ يتساوى مع الآخر مساواة كلية ودقيقة فى ملكة العقل ونعمته .. ففى ذلك يتفاوت الناس ويختلفون .. بل إن عقل الإنسان الواحد وضبطه ــ ذكراً كان أو أنثى ــ يتفاوت ــ زيادة ونقصاً ــ بمرور الزمن ، وبما يكتسب من المعارف والعلوم والخبرات .. وليست هناك جبلة ولا طبيعة تفرق بين الرجال والنساء فى هذا الموضوع ..

وإذا كان العقل ــ فى الإسلام ــ هو مناط التكليف ، فإن المساواة بين النساء والرجال فى التكليف والحساب والجزاء شاهدة على أن التفسيرات المغلوطة لهذا الحديث النبوى الشريف ، هى تفسيرات ناقصة لمنطق الإسلام فى المساواة بين النساء والرجال فى التكليف .. ولو كان لهذه التفسيرات المغلوطة نصيب من الصحة لنقصت تكاليف الإسلام للنساء عن تكليفاته للرجال ، ولكانت تكاليفهن فى الصلاة والصيام والحج والعمرة والزكاة وغيرها على النصف من تكاليف الرجال ! .

ولكنها " الرخصة "، التى يُؤجر عليها الملتزمون بها والملتزمات ، كما يُؤجرون جميعاً عندما ينهضون بعزائم التكاليف .. إن النقص المذموم ــ فى أى أمر من الأمور ــ هو الذى يمكن إزالته وجبره وتغييره ، وإذا تغير وانجبر كان محموداً .. ولو كانت " الرخص " التى شرعت للنساء ــ بسقوط الصلاة والصيام للحائض والنفساء ــ مثلاً ــ نقصًا مذمومًا ، لكان صيامهن وصلاتهن وهن حُيّض ونفساء أمرًا مقبولاً ومحموداً ومأجوراً .. لكن الحال ليس كذلك ، بل إنه على العكس من ذلك .

وأخيرًا ، فهل يعقل عاقل .. وهل يجوز فـــى أى منطــق ، أن يعــهد الإسلام ، وتعهد الفطرة الإلهية بأهم الصناعات الإنســـانية والاجتماعيــة ــ صناعة الإنسان ، ورعاية الأسرة ، وصياغة مستقبل الأمة ــ إلى ناقصـــات العقل والدين ، بهذا المعنى السلبى ، الذى ظلم به غلاة الإســـلاميين وغـــلاة العلمانيين الإسلام ، ورسوله الكريم ، الذى حرر المرأة تحريـــره للرجـــل ، عندما بعثه الله بالحياة والإحياء لمطلق الإنسان ﴿ **يـــا أيـــها الذيـــن آمنـــوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾ (١) فوضع بهذا الإحياء ، عـــن الناس ــ كل الناس ــ ما كانوا قد حُمِّلوا من الآصار والأغـــــلال ﴿ **الذيـــن يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبـــاً عندهـــم فـــى التـــوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحـــرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم..**﴾ (٢) .

إنها تفسيرات مغلوطة ، وساقطة ، حاول بها أسرى العـــادات والتقـــاليد إضفاء الشرعية الدينية على هذه العـــادات والتقـــاليد التـــى لا علاقـــة لـــها بالإسلام .. والتى يبرأ منها هذا الحديث النبوى الشريف ..

وإذا كان لنا ــ فى ختام إزالة هذه الشبهة ــ أن نزكى المنطق الإســـلامى الذى صوبنا به معنى الحديث النبوى الشـــريف ، وخاصـــة بالنســـبة للذيـــن لا يطمئنون إلى المنطق إلا إذا دعمته وزكته " النصوص " ، فإننـــا نذكـــر بكلمات إمام السلفية ابن القيم ، التى تقول : " إن المـــرأة العـــدل كالرجـــل فى الصدق والأمانة والديانة " (٣).

وبكلمات الإمام محمد عبده ، التى تقول :

---

(١) الأنفال : ٢٤ .

(٢) الأعراف : ١٥٧ .

(٣) [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ٢٣٦ .

" إن حقوق الرجـــل والمرأة متبادلـــة ، وإنهما أكفـــاء .. وهـــما متمـــاثلان في الحقوق والأعمال ، كما أنهـــما متماثلان فى الذات والإحساس والشـــعور والعقل ، أى أن كلا منهما بشر تام له عقل يتفكر فى مصالحه ، وقلب يحـــب ما يلائمه ويُسَرُّ به ، ويكره ما لا يلائمه وينفر منه ..[1] " .

وبكلمات الشيخ محمود شلتوت ، التى تقول :

" لقد قرر الإسلام الفطرة التى خلقت عليها المرأة .. فطرة الإنســانية ذات العقل والإدراك والفهم .. فهى ذات مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجـــل ، مسئولة عن نفسها ، وعن عـــبادتها ، وعن بيتها ، وعن جماعتها .. وهى لا تقل فى مطلق المسئولية عن مسئولية أخيها الرجل ، وإن منزلتها فى المثوبة والعقوبة عند الله معقودة بما يكون منها من طاعة أو مخالفة ، وطاعة الرجل لا تنفعها وهى طالحة منحرفة ، ومعصيتـــه لا تضرهـــا ، وهـــى صالحـــة مستقيمة﴿ **ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمـــن فـــأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيرا**﴾ [2] ــ ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض**﴾ [3] .

وليقف المتأمل عند هذا التعبير الإلهى " بعضكم من بعض " ، ليعـــرف كيف سما القرآن بالمرأة حتى جعلها بعضاً من الرجل ، وكيـــف حـــدَّ مـــن طغيان الرجل فجعله بعضاً من المرأة . وليس فى الإمكان ما يُؤدَّى به معنى المساواة أوضح ولا أسهل من هذه الكلمة التى تفيـــض بهاطبيعـــة الرجـــل والمـــرأة ، والتى تتجلى فى حياتهـــما المشتركة ، دون تفـــاضل وسلطـــان ﴿ **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن**﴾ [4] .

---

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـــ٤ ص ٦٠٦ . دراسة وتحقيق د . محمـــد عمـــارة . طبعـــة القاهرة ١٩٩٣م .

(٢) النساء : ١٢٤.

(٣) آل عمران : ١٩٥ .

(٤) النساء : ٣٢.

وإذا كانت المرأة مسئولة مسئولية خاصة فيما يختص بعبادتها ونفســـها ، فهى فى نظر الإسلام أيضاً مسئولة مسئولية عامة فيما يختص بالدعوة إلـــى الخير والأمر بالمعروف والإرشاد إلى الفضائل ، والتحذير من الرذائل . وقد صرح القــرآن بمسئوليتها فى ذلك الجـــانب ، وقرن بينها وبين أخيها الرجل فى تلك المســـئولية ، كما قرن بينها وبينه فى مسئولية الانحراف عن واجب الإيمان والإخلاص لله وللمسلمين ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أوليـــاء بعض يـــأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتـــون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عـــزيز حكيم** ﴾[1] ﴿ **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينـــهون عـــن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون * وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هـــى حســـبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم** ﴾ [2] .

فليس من الإسلام أن تلقى المرأة حظـــها مـــن تلـــك المســـئولية ــ الأمـــر بالمعروف والنهى عن المنكر ــ وهى أكبر مسئولية فى نظر الإسلام ــ على الرجل وحده ؛ بحجة أنه أقدر منها عليها ، أو أنها ذات طابع لا يسمح لها أن تقوم بهذا الواجب ، فللرجل دائرته ، وللمرأة دائرتها ، والحياة لا تستقيم إلا بتكاتف النوعين فيما ينهض بأمتهما ، فإن تخاذلا أو تخاذل أحدهما انحرفـــت الحياة الجادة عن سبيلها المستقيم ..

والإسلام ــ فوق ذلك ــ لم يقف بالمرأة عند حد اشتراكها مـــع أخيـــها الرجل فى المسئوليات ــ جميعها خاصها وعامها ــ بل رفع مـــن شـــأنها ، وكرر تلقاء تحملها هذه المسئوليات احترام رأيها فيما تبدو وجاهته ، شأنه فى رأى الرجل تماماً سواءً بسواء . وإذا كان الإسلام جاء باختيار آراء بعـــض الرجال ، فقد جاء أيضاً باختيار رأى بعض النساء .

---

(١) التوبة : ٧١ .

(٢) التوبة : ٦٧- ٦٨ .

وفى سورة المجادلة احترم الإسلام رأى المرأة ، وجعلها مجادلة ومحاورة للرسول ، وجمعها وإياه فى خطاب واحد﴿ **والله يسمع تحاوركما**﴾ [1] وقرر رأيها ، وجعله تشريعاً عامًّا خالداً .. فكانت سورة المجادلة أثراً من آثار الفكر النسائى ، وصفحة إلهية خالدة نلمح فيها ــ على مر الدهور ــ صورة احترام الإسلام لرأى المرأة ، فالإسلام لا يرى المرأة مجرد زهرة ، ينعم الرجل بشم رائحتها ، وإنما هى مخلوق عاقل مفكر ، له رأى ، وللرأى قيمته ووزنه .

وليس هناك فارق دينى بين المرأة والرجل فى التكليف والأهلية ، سوى أن التكليف يلحقها قبل أن يلحق الرجل ، وذلك لوصولها - بطبيعتها - إلى مناط التكليف ، وهو البلوغ ، قبل أن يصل إليه الرجل [٢] .

هكذا تضافرت الحجج المنطقية مع نصوص الاجتهاد الإسلامى على إزالة شبهة الانتقاص من أهلية المرأة ، بدعوى أن النساء ناقصات عقل ودين ..

وهكذا وضحت المعانى والمقاصد الحقة لحديث رسول الله ﷺ ، الذى اتخذت منه التفسيرات المغلوطة " غطاءً شرعيًّا " للعادات والتقاليد الراكدة ، تلك التى حملها البعض ــ من غلاة الإسلاميين ــ على الإسلام ، زوراً وبهتاناً .. والتى حسبها غلاة العلمانيين ديناً إلهيًّا ، فدعوا - لذلك - إلى تحرير المرأة من هذا الإسلام ! .

لقد صدق الله العظيم إذ يقول :﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد** ﴾ [٣] .

---

(١) المجادلة : ١.

(٢)[الإسلام عقيدة وشريعة] ص ٢٢٣-٢٢٨ . طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م .

(٣) فصلت : ٥٣ .

إننا نلح منذ سنوات طوال ــ وقبلنا ومعنا الكثـــيرون مــن علمــاء الإسلام ومفكريه ــ على أن هذا الدين الحنيف إنما يمثل ثورة كبرى لتحرير المرأة ، لكن الخلاف بيننا وبين الغرب والمتغربين هو حول " نموذج "هــذا التحرير.. فهم يريدون المرأة ندًّا مساوياً للرجل .. ونحن ــ مع الإســلام ــ نريد لها " مساواة الشقين المتكاملين ، لا النديـــن المتمــاثلين " .. وذلــك ، لتتحرر المرأة ، مع بقائها أنثى ، ومع بقاء الرجل رجلاً ، كى يثمر هـــذا التمايز الفطــرى بقاء ، ويجدد القــبول والرغــبة والجـــاذبية والســعادة بينهما سعادة النوع الإنسانى .

ونلح على أن هذا " التشابه .. والتمايز " بين النساء والرجال ، هو الذى أشــار إليه القرآن الكــريم عــندما قــرن المســاواة بالتمايز ، فقالت آياتــه المحكمات : ﴿ **ولهن مثل الذى عليهن بالمعـــروف وللرجـــال عليهــن درجة**﴾ (١) ﴿ **وليس الذكر كالأنثى**﴾ (٢) .

نلح على ذلك المنهاج فى التحرير الإسلامى للمرأة .. ولقد شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يشــهد شاهد من أهلها على صـــدق هــذا المنــهاج الإسلامى ، فتنشر صحيفة [الأهرام] تقريراً علمياً عن نتائج دراسة علميــة استغرقت أبحاثها عشــرين عــاماً ، وقــام بها فـــريق من علماء النفــس فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وإذا بها تكشف عن مصداقية حقــائق هــذا المنهاج القرآنى ــ فى تشابه الرجال والنساء فى اثنيــن وثلاثيــن صفــة .. وتميّز المرأة عن الرجل فى اثنتين وثلاثين صفة .. وتميز الرجل عن المرأة ــ كذلك ــ فى اثنتين وثلاثين صــفة فهــناك التشابه : ﴿ **ولهن مثل الــذى عليهن بالمعــروف**﴾ ،﴿ **خلقــكم من نفس واحدة وجعل منها زوجــها**﴾ (٣) ﴿ **بعضكم من بعض**﴾ (٤). وهناك التمايز الفطرى ﴿ **وليس الذكر كالأنثى**﴾ .. فهما يتشابهان فى نصف الصفات ، ويتمايزان فى نصفها الآخر ..

---

(١) سورة البقرة : ٢٢٨ .

(٢) سورة آل عمران : ٣٦ .

(٣) سورة الأعراف : ١٨٩ .

(٤) سورة آل عمران : ١٩٥ .

فالنموذج الأمثل لتحررهما معاً هو " مساواة الشقين المتكاملين ، لا الندين المتماثلين " .. ولذلك ، آثرت أن أقدم للقارئ خلاصة هذه الدراسة العلميـــة ، كما نشرتها [الأهرام] – تحت عنوان [اختلاف صفات الرجل عن المـــرأة لمصلحة كليهما] – ونصها :

" فى دراسة قام بها علماء النفس فى الولايات المتحدة الأمريكية ، علـــى مدى عشرين عاماً ، تم حصر عدد الصفات الموجودة فى كل مـــن الرجـــل والمرأة ، ووجد أن هناك ٣٢ صفة مشتركة فى كل منهما ، وأن ٣٢ صفـــة أخرى موجودة فى الرجل ، و ٣٢ صفة أخـــرى موجـــودة عنـــد المـــرأة ، بدرجات مختلفة فى الشدة ، ومن هنا جاءت الفروق بين صفـــات الرجولـــة والأنوثة .

وتوصل العلماء من خلال هذه التجارب إلى أن وجـــود نصـــف عـــدد الصفات مشتركة فى كل من الرجل والمرأة يعمـــل علـــى وجـــود الأســـس المشتركة بينهما ، لتسهيل التفاهم والتعامل مع بعضهما البعض ..

أما وجود عدد آخر من الصفات متساوياً بينهما ومختلفاً عند كل منـــهما فى الدرجة والشهرة فمعناه تحقيق التكامل بينهما . كما توصلوا إلى أنه كـــى يعيش كل من الرجل والمرأة فى انسجام وتناغم تام ، لابد أن يكون لدى كـــل منهـــما الصفات السيكولوجية المختلفة ، فمثلاً الرجل العصبى الحاد المـــزاج لا يمكنه أن يتعايش مع امرأة عصبـــية حادة المزاج ، والرجل البخيل عليـــه ألا يتزوج امرأة بخيلة ، والرجل المنطوى ، الذى لا يحب الناس ، لا يجـــوز أن يتزوج من امرأة منطوية ولا تحب الناس . وهكذا .

وكان من نتائج هذه الدراسات الوصول إلى نتيجة مهمة ، ألا وهـــى أن كل إنسان يحب ألا يعيش مع إنسان متماثل معه فى الصفات وكل شىء ، أى صورة طبق الأصل من صفاته الشخصية ، ومن هنا جاءت الصفات المميزة للرجولة متمثلة فى : قوة العضلات وخشونتها والشهامة ، والقوة فى الحـق ،

والشجاعة فى موضع الشجاعة ، والنخـــوة ، والاهتمـــام بمســـاندة المـــرأة وحمايتها والدفاع عنها وجلب السعادة لها . كما تتضمن أيضاً صفات الحب ، والعطاء ، والحنان ، والكرم ، والصدق فى المشاعر وفى القـــول وحســـن التصرف .. إلخ .

أما عن صفات الأنوثة ، فهى تتميز بالدفء ، والنعومة ، والحساســـية ، والحنان ، والتضحية ، والعطاء ، وحب الخير ، والتفانى فى خدمة أولادها ، والحكمة ، والحـــرص على تماسك الأسرة وترابطـــها ، وحـــب المديـــح ، والذكاء ، وحسن التصرف ، وغير ذلك من الصفات ..

ولذلك ، فمن المهم أن يكون لدى كل من الرجل والمـــرأة درايـــة كافيـــة بطبيعة الرجل وطبيعة المرأة ، وبذلك يسهل على كل منـــهما التعـــامل مـــع الطرف الآخر فى ضوء خصائص كل منهما .. فعندما يعـــرف الرجـــل أن المرأة مخلوق مشحون بالمشاعر والأحاسيس والعواطف ، فإنه يســـتطيع أن يتعامل معها على هذا الأساس . وبالمثل ، إذا عرفت المرأة طبيعة الرجـــل ، فإن هذا سيساعدها أيضاً على التعامل معه .. (١) .

تلك هى شهادة الدراسة العلمية ، التى قام بها فريق من علماء النفـــس ــ فى الولايات المتحدة الأمريكية ــ والتى استغـــرق البحـــث فيها عشـــرون عاماً .. والتى تصدق على صدق المنهاج القرآنـــى فـــى عـــلاقة النســـاء بالرجال : الاشـــتراك والتماثل فى العديد من الصفات .. والتمايز فى العديـــد من الصفات ، لتكـــون بينهما " المساواة " و " التمايز " فى ذات الوقت ..

ومرة أخرى ــ لا أخيرة ــ صدق الله العظيم إذ يقول :﴿ **سنريهم آياتنا فـــى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كـــل شىء شهيد** ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) [الأهرام] فى ٢٩- ٤-٢٠٠١- ص ٢ .

(٢) فصلت : ٥٣

الشبهة الثالثة والثلاثون بعد المائة

ما أفلح قوم ولُّوا أمرهم امرأة

الرد على الشبهة :

إن " الـــولاية " ــ بكســـر الواو وفتحها ــ هى " النُّصْرَة " .. وكل مـــن ولى أمر الآخر فهو وليه[١] ﴿ **الله ولىُّ الذين آمنوا** ﴾ [٢] ﴿ **إن وَلِيِّىَ الله** ﴾ [٣] ﴿ **والله ولىُّ المؤمنين** ﴾ [٤] ﴿ **قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لِلَّهِ من دون الناس فتمنوا الموت** ﴾ [٥] ﴿ **ما لكم من وَلايتهم من شىء** ﴾ [٦] .

وإذا كانت " النصرة " هى معنى " الولاية " ، فلا مجال للخلاف على أن للمرأة نصرة وسلطاناً ، أى ولاية ، فى كثير من ميادين الحياة ..

فالمسلمون مجمعون على أن الإسلام قد سبق كل الشـــرائع الوضـــعية والحضارات الإنسانية عندما أعطى للمرأة ذمـــة ماليـــة خاصـــة ، وولايـــة وسلطانا على أموالها ، ملكا وتنمية واستثمارا وإنفاقاً ، مثلها فى ذلـــك مثـــل الرجل سواء بسواء .. والولاية المالية والاقتصادية مـــن أفضـــل الولايـــات والسلطات فى المجتمعات الإنسانية ، على مر تاريخ تلك المجتمعات .. وفى استثمار الأموال ولاية وسلطان يتجاوز الإطار الخاص إلى النطاق العام .. والمسلمون مجمعون على أن للمرأة ولاية على نفسها ، تؤسس لهـــا حريـــة وسلطانا فى شئون زواجها ، عندما يتقدم إليها الراغبون فى الاقتران بهـــا ، وسلطانها فى هذا يعـــلو سلطـــان وليها الخاص والولى العـــام لأمـــر أمـــة الإسلام ..

---

(١) الراغب الأصفهانى ، أبو القاسم الحسين بن محمد [المفردات فى غريب القرآن] طبعة دار التحرير ، القاهرة ١٩٩١م .

(٢) البقرة : ٢٥٧ .

(٣) الأعراف : ١٩٦ .

(٤) آل عمران : ٦٨ .

(٥) الجمعة : ٦ .

(٦) الأنفال : ٧٢ .

والمسلمون مجمعون على أن للمرأة ولاية ورعاية وسلطاناً فى بيـــت زوجها ، وفى تربية أبنائها .. وهى ولاية نص على تميزها بها وفيها حديث رسول الله ﷺ الذى فصّل أنواع وميادين الولايـــات : [**كلكـــم راع وكلكـــم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذى على الناس راع عليهم وهـــو مســئول عنهم ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمـــرأة راعيـــة على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم ، ألا فكلكم راع وكلكم مســـئول عن رعيته**] (١) .

لكن قطاعا من الفقهاء قد وقف بالولايات المباحة والمفتوحـــة ميادينـــها أمام المرأة عند " الولايات الخاصة " ، واختاروا حجب المرأة عن " الولايات العامة "، التى تلى فيها أمر غيرها من الناس ، خارج الأسرة وشئونها ..

ونحن نعتقد أن ما سبق وقدمناه ــ فى القسم الأول من هذه الدراســـة ــ من وقائع تطبيقات وممارسات مجتمع النبوة والخلافة الراشـــدة لمشـــاركات النساء فى العمل العام ــ بدءا من الشورى فى الأمور العامة .. والمشـــاركة فى تأسيس الدولة الإسلامية الأولى . وحتـــى ولايـــة الحســـبة والأســـواق والتجارات ، التى ولاّها عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ " للشِّفاء بنت عبد الله بن عبد شـــمس [٢٠هـــ /٦٤١م] .. وانتهاء بالقتال فـــى ميـــادين الوغى .. وأيضًا ما أوردناه من الآيات القرآنية الدالـــة علـــى أن المـــوالاة والتناصر بين الرجال والنساء فى العمل العام ــ سائر ميادين العمل العام ــ وهى التى تناولها القرآن الكريم تحت فريضة الأمر بالمعروف والنهى عـــن المنكر ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بـــالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورســـوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم**﴾ (٢).

---

(١) رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد ..

(٢) التوبة : ٧١ .

نعتقد أن ما سبق وأوردناه حول هذه القضية – قضيـــة ولايـــة المـــرأة ومشاركتها مع الرجل فى ولايات العمل العام كاف وواف فى الردِّ على الذين يمارون فى ولاية المرأة للعمل العام .

أما الإضافة التى نقدمها فى هذا القسم من هذه الدراسة ــ قســـم إزالـــة الشبهات ــ فهى خاصة بمناقشة الفهم المغلوط للحديث النبوى الشريف : [**ما أفلح قوم يلى أمرهم امرأة**] .. إذ هو الحديث الذى يستظل بظله كل الذيـــن يحرّمون مشاركة المرأة فى الولايات العامة والعمل العام ..

ولقد وردت لهذا الحديث روايات متعددة ، منها : [**لن يفلح قوم تملكهم امرأة**] .. [**لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة**] .. [**ولن يفلح قـــوم أســـندوا أمرهم إلى امرأة**] ــ رواها : البخـــارى والتـــرمذى والنســـائى والإمـــــام أحمد ــ..

وإذا كانت صحة الحديث ــ من حيث " الرواية " ــ هى حقيقة لا شبهة فيها .. فإن إغفال مناسبة ورود هذا الحديث يجعل " الدراية " بمعناه الحقيقـــى مخالفة للاستدلال به على تحريم ولاية المرأة للعمل العام ..

ذلك أن ملابسات قول الرسولﷺ ، **لهذا الحديث تقول : إن نفـــراً قـــد قدموا من بلاد فارس إلى المدينة المنورة ، فسألهم رسول الله ﷺ :**

- " من يلى أمر فارس " ؟

- " قال ــ [أحدهم] : امرأة .

- فقال ﷺ " ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة " .

فملابسات ورود الحديث تجعله نبوءة سياسية بزوال ملك فارس وهـــى نبوءة نبوية قد تحققت بعد ذلك بسنوات أكثر منه تشريعاً عاما يحرم ولايـــة المرأة للعمل السياسى العام ..

ثم إن هذه الملابسات تجعل معنى هذا الحديث خاصاً " بالولاية العامـــة " أى رئاسة الدولة وقيادة الأمة .. فالمقام كان مقام الحديث عن امرأة تولـــــت عرش الكسروية الفارسية ، التى كانت تمثل إحدى القوتين الأعظم فى النظام العالمى لذلك التاريخ .. ولا خلاف بين جمهور الفقهاء ــ باستثناء طائفة من الخوارج ــ على اشتراط " الذكورة " فيمن يلى " الإمامة العظمى " والخلافة العامة لدار الإسلام وأمة الإسلام .. أما ماعدا هذا المنصب ــ بما فى ذلـــك ولايات الأقـــاليم والأقطار والدول القوميـــة والقـــطرية والوطـــنية ــ فإنـــها لا تدخل فى ولاية الإمامة العظمى لدار الإسلام وأمته .. لأنها ولايات خاصة وجزئية ، يفرض واجـــب الأمر بالمعـــروف والنهى عن المنكر المشـــاركة فى حمل أماناتها على الرجال والنساء دون تفريق ..

فالشبهة إنما جاءت من خلط مثل هذه الولايات ــ الجزئية والخاصـــة ــ بالإمامة العظمى والولاية العامة لدار الإسلام وأمته ــ وهى الولايـــة التـــى اشترط جمهور الفقهاء " الذكورة " فيمن يليها ــ .. ولا حديث للفقه المعاصر عن ولاية المرأة لهذه الإمامة العظمى ، لأن هذه الولاية قد غابت عن متناول الرجال ، فضلاً عن النساء ، منذ سقـــوط الخـــلافة العثمانية [١٣٤٢هـــ ــ ١٩٢٤م] وحتى الآن ! ..

وأمر آخر لابد من الإشارة إليه ، ونحن نزيل هذه الشبهة عـــن ولايـــة المرأة للعمل العام ، وهو تغير مفهوم الولاية العامة فى عصرنا الحديـــث ، وذلك بانتقاله من :" سلطان الفرد " إلى " سلطان المؤسسة " ، والتى يشـــترك فيها جمع من ذوى السلطان والاختصاص ..

لقد تحوّل " القضاء " من قضاء القاضى الفرد إلى قضـــاء مؤسســـى ، يشترك فى الحكم فيه عدد من القضاة .. فإذا شاركت المـــرأة فـــى " هيئـــة المحكمة " فليس بوارد الحديث عن ولاية المرأة للقضاء ، بالمعنى الذى كـــان وارداً فى فقه القدماء ، لأن الولاية هنا ــ الآن ــ لمؤسسة وجمع ، وليســـت

لفرد من الأفراد ، رجلاً كان أو امرأة .. بل لقد أصبحت مؤسسة التشـــــريع والتقنين مشاركة فى ولاية القضاء ، بتشريعها القوانين التى ينفذها القضاة .. فلم يعد قاضى اليوم ذلك الذى يجتهد فى استنباط الحكم واستخلاص القانون ، وإنما أصبح " المنفذ " للقانون الذى صاغته وقننته مؤسسة ، تمثل الاجتـــــهاد الجماعى والمؤسسى ــ لا الفردى ــ فى صياغة القانون ..

وكذلك الحال مع تحول التشريع والتقنين من اجتهاد الفرد إلى اجتـــــهاد مؤسسات الصياغة والتشريع والتقنين .. فإذا شـــــاركت المـــرأة فـــى هـــذه المؤسسات ، فليس بوارد الحديث عن ولاية المرأة لسلطة التشريع بـــــالمعنى التاريخى والقديم لولاية التشريع ..

وتحولت سلطات صنع " القرارات التنفيذية " ــ فـــى النظـــم الشـــورية والديمقراطية ــ عن سلطـــة الفرد إلى سلطـــان المؤسســـــات المشـــــاركة فى الإعداد لصناعة القرار .. فإذا شاركت المرأة فى هذه المؤسسات ، فليس بوارد الحديث عن ولاية المرأة لهذه السلطات والولايات ، بالمعنى الذى كان فى ذهن الفقهاء الذين عرضوا لهذه القضية فى ظل " فرديـــة " الولايـــات ، وقبل تعقد النظم الحديثة والمعاصرة ، وتميزها بالمؤسسية والمؤسسات ..

لقد تحدث القرآن الكريم عن ملكة سبأ – وهى امرأة – فـــأثنى عليـــها وعلى ولايتها للولايـــة العـــامة ، لأنهـــا كانت تحكم بالمؤسسة الشـــورية ــ لا بالولاية الفردية ــ ﴿ **قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعـــة أمراً حتى تشهدون**﴾ [1].. وذم القرآن الكريم فرعون مصر – وهو رجـل ــ لأنه قد انفرد بسلطان الولاية العامة وسلطة صنع القرار﴿ **قال فرعـــون مـــا أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشـــاد** ﴾ [2].. فلـــم تكـــن العـــبرة بالذكورة أو الأنوثة فى الولاية العامة ــ حتى الولاية العامة ــ وإنما كـــانت العبرة بكون هذه الولاية " مؤسسة شورية " ؟ أم " سلطانا فردياً مطلقاً " ؟

***

---

(١) النمل : ٣٢ .

(٢) غافر : ٢٩ .

أما ولاية المرأة للقضاء .. والتى يثيرها البعض كشبهة علـــى اكتمـــال أهلية المرأة فى الرؤية الإسلامية .. فإن إزالة هذه الشبهة يمكن أن تتحقـــق بالتنبيه على عدد من النقاط :

أولها : أن ما لدينا فى تراثنا حول قضـــية ولاية المرأة لمنصب القضاء هـو " فكر إسلامى " و " اجتهـــادات فقهية " أثمرت " أحكاماً فقهيـــة " .. وليـــس "دينا " وضعه الله ــ سبحانه وتعالى ــ وأوحى به إلى رسوله ﷺ ، فـــالقرآن الكريم لم يعرض لهذه القضية ، كما لم تعرض لـــها الســـنة النبويـــة ، لأن القضية لم تكن مطروحة على الحياة الاجتماعية والواقع العملى لمجتمع صدر الإسلام ، فليس لدينا فيها نصوص دينية أصلاً ، ومن ثم فإنها من مواطـــن ومسائل الاجتهاد ..

ثم إن هذه القضية هى من " مسائل المعاملات " وليست مـــن " شـــعائر العبادات " .. وإذا كانت " العبادات توقيفية " تُلْتَمس من النص وتقف عنـــد الوارد فيه ، فإن " المعاملات " تحكمها المقاصد الشرعية وتحقيق المصـــالح الشـــرعية المعـــتبرة ..والموازنة بيـــن المصالـــح والمفاسد فيها .. ويكفـــى فى " المعاملات " أن لا تخـــالف ما ورد فى النص ، لا أن يكون قـــد ورد فيها نص ..

ومعلوم أن " الأحكام الفقهية " التى هى اجتهادات الفقهاء ، مثلها كمثـــل الفتاوى ، تتغير بتغير الزمان والمكان والمصالح الشرعية المعتبرة ..

فتولى المرأة للقضاء قضية فقهية ، لم ولن يُغْلَق فيـــها بـــاب الاجتـــهاد الفقهى الإسلامى ..

وثانيها : أن اجتهادات الفقهاء القدماء حول تولى المرأة لمنصب القضاء هى اجتهادات متعددة ومختلفة باختلاف وتعدد مذاهبهم واجتهاداتـــهم فـــى هـــذه المسألة ، ولقد امتـــد زمن اختلافهم فيها جيلاً بعد جيل .. ومن ثـــم فليـــس هناك " إجماع فقهى " فى هذه المسألة حتى يكون هناك إلزام للخلف بإجماع السلف ، وذلك فضلاً عن أن إلزام الخلف بإجماع السلف هو أمر ليس محـــل

إجماع .. ناهيكم عن أن قضية إمكانية تحقق الإجماع ــ أى اجتماع ســـائر فقهاء عصر ما على مسألة من مسائل فقه الفروع ــ كهذه المسألة ــ هو مما لا يُتَصَوَّر حدوثه ــ حتى لقد أنكر كثير من الفقهاء إمكانية حدوث الإجمـــاع فى مثل هذه الفروع أصلاً . ومن هؤلاء الإمام أحمد بـــن حنبـــل [١٦٤ــ ٢٤١هـــ٧٨٠ ــ ٨٥٥ م] الذى قال : " من ادعى الإجماع فقد كذب ! ".

فباب الاجتهاد الجديد والمعاصر والمستقبلى فى هذه المسألة ــ وغيرهـا من فقه الفروع ــ مفتوح .. لأنها ليست من المعلوم من الدين بالضرورة أى المسائل التى لم ولن تختلف فيها مذاهب الأمة ولا الفِطـــر الســـليمة لعلمـــاء وعقلاء الإسلام ..

وثالثها : أن جريان " العادة " فى الأعصر الإسلامية السابقة ، علـــى عـــدم ولاية المرأة لمنصـــب القضاء لا يعنى " تحريـــم " الديـــن لولايتـــها هـــذا المنصب ، فدعـــوة المرأة للقتال ، وانخراطها فى معاركه هو مما لم تجربـــه " العادة " فى الأعصر الإسلامية السابقة ، ولم يعن ذلك " تحريم " اشـــتراك المرأة فى الحرب والجهاد القتالى عند الحاجة والاستطاعة وتعيُّـــن فريضـــة الجهاد القتالى على كل مسلم ومسلمة .. فهى قد مارست هذا القتال وشاركت فى معـــاركه على عصـــر النـــبوة والخـــلافة الراشـــدة .. من غـــزوة أُحد [٣هـــ ــ ٦٢٥م] إلى موقعـــة اليمامة [١٢هـــــ ــ٦٣٣ م] ضـــد ردة مسيلمة الكذاب [١٢هـــ ــ ٦٣٣ م] .. وفى " العادة " مرتبطة " بالحاجات " المتغيرة بتغير المصالح والظروف والملابسات ، وليست هى مصدر الحـــلال والحرام ..

رابعها : أن علة اختلاف الفقهاء حول جواز تولى المرأة لمنصب القضـــاء ، فى غيبة النصوص الدينية – القرآنية والنبوية – التى تتناول هذه القضيـــة ، كانت اختلاف هؤلاء الفقهاء فى الحكم الذى " قاسوا " عليه توليها للقضـــاء . فالذين " قاسوا " القضاء على : "الإمامة العظمى " ــ التى هى الخلافة العامة على أمة الإسلام ودار الإسلام ــ مثل فقهاء المذهب الشافعى قد منعوا توليها للقضاء ، لاتفاق جمهـــور الفقهـــاء ــ باستثناء بعض الخوارج ــ على جعل " الذكـــورة " شـــرطا من شـــروط الخليفـــة والإمام ، فاشـــــترطوا هـــذا الشرط ــ " الذكورة " – فى القاضى ، قياساً على الخلافة والإمامة العظمى .

ويظل هذا " القياس " قياســاً على " حــكم فقهى " ليس عليه إجماع وليـس " قياساً " على نص قطعى الدلالة والثبوت ..

والذين أجازوا توليها القضاء ، فيما عدا قضاء " القصاص والحدود " مثل أبى حنفية " [٨٠ ــ ١٥٠هـ / ٦٩٩ ــ ٧٦٧ م] وفقهاء مذهبــه ــ قــالوا بذلك " لقياســهم " القضاء على " الشهادة " ، فأجازوا قضاءها فيما أجــازوا شهادتها فيه ، أى فيما عدا " القصاص والحدود ".

فالقياس هنا ــ أيضاً ــ على " حكم فقهى " وليس علــى نــص قطعــى الدلالة والثــبوت ..وهــذا الحكم الفقــهى المقيس عليه وهو شهادة المــرأة فى القصاص والحدود .. أى فى الدماء ــ ليس موضع إجماع .. فلقد ســبق وذكرنا ــ فى رد شبهــة أن شهادة المرأة هى على النصــف مــن شــهادة الرجل ــ إجازة بعض الفقهاء لشهادتها فى الدمــاء ، وخاصــة إذا كــانت شهادتها فيها هى مصدر البينة الحافظة لحدود الله وحقوق الأولياء ..

أما الفقهاء الذين أجازوا قضاء المرأة فى كل القضايا ــ مثل الإمام محمد بن جــرير الطــبرى [٢٢٤ــ ٣١٠هـ / ٨٣٩ ــ٩٢٣م] ــ فقــد حكموا بذلك " لقياسهم " القضاء على " الفتيا " .. فالمسلمون قد أجمعوا على جــواز تولى المرأة منصب الإفتاء الدينى ــ أى التبليغ عن رسول الله ﷺ ــ وهــو من أخطر المناصب الدينية ــ وفى توليها للإفتاء سنة عملية مارستها نســاء كثيرات على عهد النبوة ــ من أمهات المؤمنين وغيرهن ــ فقاس هــؤلاء الفقهاء قضاء المرأة على فتياها ، وحكموا بجواز توليها كل أنواع القضــاء ، لممارستها الإفتاء فى مختلف الأحكام .

وهم قد عللوا ذلك بتقريرهم أن الجوهرى والثابت فى شروط القــاضى إنما يحكمه ويحدده الهدف والقصد من القضاء ، وهو : ضمان وقوع الحكــم بالــعدل بين المتقاضــين .. وبعــبارة أبى الولــيد بن رشــد ــ الحــفيد ــ [٥٢٠ــ ٥٩٥هـ / ١١٢٦ ــ١١٩٨م] : فإن " من رأى حكم المرأة نــافذا

فى كل شئ قال : إن الأصل هو أن كل من يأتى منه الفصل بيـــن النـــاس فحكمه جائز ، إلا ما خصصه الإجماع من الإمامة الكبرى " [1] .

وخامسها : أن " الذكورة " لم تكن الشرط الوحيد الذى اختلف حوله الفقـــهاء من بين شروط من يتولى القضاء .. فهـم ــ مثلا ــ اخـتلفوا فى شـــرط " الاجتهاد " فأوجب الشافعى [١٥٠ــ٢٠٤هـ / ٧٦٧ــ٨٢٠م] وبعـض المالكية أن يكون القاضى مجتهداً .. على حين أسقط أبو حنيفة هذا الشـرط ، بل وأجاز قضاء " العامى " أى الأمى فى القراءة والكتابـــة ــ وهـو غـير الجاهل ــ ووافقه بعض الفقهاء المالكية قياسا على أمية النبى ﷺ [2] .

واختلفوا ــ كذلك ــ فى شرط كون القاضى " عاملا " وليس مجرد " عـالم " بأصول الشرع الأربعة : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس .. فاشترطه الشافعى ، وتجاوز عنه غيره من الفقهاء [3] .

كما اشـترط أبو حـنيفة ، دون سواه أن يكون القاضى عربيـــا مـن قريش [4] .

فشرط " الذكورة " فى القاضى ، هو واحد من الشروط التى اختلف فيها الفقهاء ، حيث اشترطه البعض فى بعض القضايا دون البعض الآخر ، وليس فيه إجماع .. كما أنه ليس فيه نصوص دينيـــة تمنـــع أو تقيـــد اجتـــهادات المجتهدين ..

---

(١) [بداية المجتهد ونهاية المقتصد] جـ٢ ص ٤٩٤ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤م . والمـــاوردى [أدب القاضى] جـ١ ص ٦٢٥-٦٢٨ طبعة بغداد سنة ١٩٧١م . والأحكام السلطانية ص٦٥ طبعة القاهرة سـنة ١٩٧٣م .

(٢) [بداية المجتهد ونهاية المقتصد] جـ٢ ص ٤٩٣،٤٩٤ .

(٣)[أدب القاضى] جـ 1 ص ٦٤٣ .

(٤) محمد محمد سعيد [كتاب دليل السالك لمذهب الإمام مالك] ص ١٩٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٣ م .

وسادسها : أن منصب القضاء وولايته قد أصابها هى الأخرى مـــا أصـــاب الولايات السياسية والتشريعية والتنفيذية من تطور انتقل بها مـــن " الولايـــة الفردية " إلى ولاية " المؤسسة " فلم تعد " ولاية رجل " أو " ولاية امـــرأة " ، وإنما أصبح " الرجل " جزءاً من المؤسسة والمجموع ، وأصبحت " المـــرأة " جزءاً من المؤسسة والمجـــموع .. ومن ثم أصبـــحت القضية فـــى " كيـــف جديد " يحتاج إلى " تكييف جديد " يقدمه الاجتـــــهاد الجديـــد لـــهذا الطـــور المؤسسى الجديد الذى انتقلت إليه كل هذه الولايات .. ومنها ولايـــة المـــرأة للقضاء ..

الشبهة الرابعة والثلاثون بعد المائة

الرجال قوَّامون على النساء

الرد على الشبهة :

في المدينة المنـــورة نزلـــت آيات " القـــوامة " ــ قـــوامة الرجـــــال على النساء.. وفى ظل المفهوم الصحيح لهذه القوامة تحررت المرأة المسلمة من تقاليد الجاهلية الأولى ، وشاركت الرجال فى العمل العـــام ــ مختلـــف ميادين العمل العام ــ على النحـــو الذى أشرنا إلى نماذجه فى القســـم الأول من هذه الدراسة ؛ فكان مفهوم القوامة حاضراً طوال عصر ذلك التحرير .. ولم يكن عائقاً بين المرأة وبين هذا التحرير ..

ولحكمة إلهيةٍ قرن القرآن الكريم ــ فى آيات القوامة ــ بـــين مســـاواة النساء للرجال وبين درجة القوامة التى للرجال على النساء ، بل وقدم هـــذه المساواة على تلك الدرجة ، عاطفاً الثانية على الأولى بـــ " واو " العطـــف ، دلالة على المعية والاقتران .. أى أن المساواة والقوامة صنوان مقترنـــان ، يرتبط كل منهما بالآخر ، وليسا نقيضين ، حتى يتـــوهم واهـــم أن القوامـــة نقيض ينتقص من المساواة ..

لحـــكمة إلهية جاء ذلك فى القرآن الكريم ، عنـــدما قـــال الله ســـبحانه وتعالى ــ فى الحديث عن شئون الأسرة وأحكامها ــ :

﴿ **ولهنَّ مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجـــة والله عزيـــز حكيم** ﴾ (١) .

---

(١) البقـــــرة : ٢٢٨ .

وفى سورة النساء جاء البيان لهذه الدرجة التى للرجـــال على النساء ــ فى سياق الحديث عن شئون الأسرة ، وتوزيع العمل والأنصبة بين طرفـــى الميثاق الغليظ الذى قامت به الأسرة ــ الرجل والمرأة ــ فإذا بآية القوامـــة تأتى تالية للآيات التى تتحدث عن توزيع الأنصبة والحظوظ والحقوق بيـــن النساء وبين الرجال ، دونما غبن لطرف ، أو تمييز يخل بمبدأ المســـاواة ، وإنما وفــق الجهــد والكســب الذى يحصِّــل به كل طــرف ما يســـتحق من ثمرات ..﴿ **ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كـان بكل شئ عليماً * ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربـــون والذيـــن عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شئ شـــهيداً * الرجـــال قوّامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبمـــا أنفقـــوا مـــن أموالهم ..﴾** (١) .

ولقد فقه حبر الأمة ، عبد الله بن عباس [٣ق هـــ ــ ٦٨هـــ / ٦١٩ ــ ٦٨٧م] ــ الذى دعا له الرسول ﷺ ربه أن يفقهه فى الدين ــ فهم الحكمـــة الإلهية فى اقتران المساواة بالقوامة ، فقال ــ فى تفسيره لقول الله ، ســبحانه وتعالى – :﴿ **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** ﴾ تلك العبارة الإنســـانية ، والحكمة الجامعة : " إننى لأتزين لامرأتى ، كما تتزين لى ، لهذه الآية " !

وفهم المســلمون قبل عصـــر التراجع الحضارى ، الذى أعاد بعضـــاً من التقاليد الجاهلية الراكدة إلى حياة المرأة المسلمة مرة أخرى أن درجـــة القوامة هى رعاية رُبّان الأسرة ــ الرجل ــ لسفينتها ، وأن هذه الرعاية هى مسئولية وعطاء .. وليســت ديكتاتــورية ولا اســتبدادا ينقص أو ينتقـــص من المساواة التى قرنها القرآن الكريم بهذه القوامة ، بل وقدمها عليها ..

---

(١) النساء : ٣٢-٣٤ .

ولم يكـــن هـــذا الفهـــم الإســـلامى لهـــذه القوامة مجـــرد تفســـيرات أو استنتاجات ، وإنما كان فقهاً محكوماً بمنطق القواعد القرآنيـــة الحاكمـــة لمجتمع الأسرة ، وعلاقة الزوج بزوجه .. فكل شئون الأسرة تُدار ، وكـــل قراراتها تُتَّخذ بالشورى ، أى بمشاركة كل أعضاء الأسرة فى صنع واتخـــاذ هذه القرارات ، لأن هؤلاء الأعضاء مؤمنون بالإسلام والشورى صفة أصيلة من صفات المؤمنين والمؤمنات ﴿ **والذين يجتنبون كبـــائرالإثم والفواحـــش وإذا ما غضبوا هم يغفرون *والذين اســـتجابوا لربـــهم وأقـــاموا الصـــلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون * والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون**﴾ (١) .

فالشورى واحدة من الصفات المميزة للمؤمنين والمؤمنات ، فـــى كـــل ميادين التدبير وصناعة القرار .. والأسرة هى الميدان التأسيسى والأول فـــى هذه الميادين .. تجبُ هذه الشورى ، ويلزم هذا التشاور فى مجتمع الأســـرة لتتأسس التدابير والقرارات على الرضا ، الذى لا سبيل إليه إلا بالمشـــاركة الشورية فى صنع القرارات .. يستوى فى ذلك الصغير والخطير مـــن هـــذه التدابير والقرارات .. حتى لقد شاءت الحكمة الإلهية أن ينص القرآن الكريـــم على تأسيس قرار الرضاعة للأطفال – أى سقاية المستقبل وصناعة الغـــد ـــ على الرضا الذى تثمره الشورى .. ففى سياق الآيات التى تتحدث عن حدود الله فى شئون الأسرة .. تلك الحـــدود المؤسســـة علـــى منظومـــة القيـــم .. والمعروف .. والإحسان .. ونفى الجُناح والحرج .. وعدم المضارة والظلـــم والعـــدوان .. والدعوة إلى ضبـــط شـــئون الأســـرة بقيم التزكية والطـــهر ، لا " بترسانة " القوانين الصماء ! .. فى هذا السياق ينص القرآن الكريم على أن تكون الشورى هى آلية الأسرة فى صنع كل القـــرارات : ﴿ **والوالـــدات**

---

(١) الشورى : ٣٧ – ٣٩ .

يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولـود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضـار والـدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصـالاً عـن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكـم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما أتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾ (١).

هكذا فهم المسلمون معنى القوامة .. فهى مسـئولية وتكـاليف للرجـل ، مصاحبة لمساواة النساء بالرجال .. وبعبارة الإمام محمـد عبـده : " إنهـا تفرض على المرأة شيئاً وعلى الرجل أشياء " .

وكانت السنة النبوية ــ فى عصر البعثة ــ البيان النبوى للبلاغ القرآنى فى هذا الموضوع .. فالمعصوم ﷺ الذى حمّله ربه الحمـل الثقيـل ــ فـى الـدين .. والـدولة .. والأمة .. والمجـتمع - ﴿ **إنا سنلقى عليـك قـولاً ثقيلاً** ﴾ (٢) ــ. هو الذى كان فى خدمة أهله - أزواجه - وكانـت شـوراهن معه وله صفة من صفات بيت النبوة ، فى الخـاص والعـام مـن الأمـور والتدابير .. ويكفى أن هذه السنة العملية قد تجسدت تحريراً للمرأة ، شاركت فيه الرجال بكل ميادين الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربيـة .. وحتـى القتال .. كما كانﷺ دائم التأكيد على التوصـية بالنساء خيـراً ..فحـريتهن حديثة العهد ، وهـن قريبات من عبودية التقاليد الجاهليـة ، واستضـعافهن يحتاج إلى دوام التوصية بهن والرعاية لهن .. وعنهﷺ تروى أقرب زوجاته إليه عائشة ــ رضى الله عنها ــ : " **إنما النساء شقائق الرجـال** " ــ رواه أبو داود والترمذى والدارمى والإمام أحمد ــ وعندما سئلت :

ــ ما كان رسول الله ﷺ يعمل فى بيته ؟

---

(١) البقرة : ٢٣٣ .

(٢) المزمل : ٥ .

ــ قالت : " **كان بشــراً من البشر ، يغلى ثوبه ، ويحلب شـــاته ، ويخــدم نفسه** " ــ رواه الإمام أحمد ــ يفعل ذلك ، وهو القَوَّام على الأمة كلها ، فى الدين والدولة والدنيا جميعاً ! ..وفى خطبته ﷺ بحجة الوداع [١٠هـــ / ٦٣٢ م] وهى التى كانت إعلانا عالميا خالداً للحقوق والواجبـــات الدينيــة والمدنية ــ كما صاغها الإسلام ــ أفرد ﷺ للوصيـــة بالنســـاء فقــرات خاصة ، أكد فيها على التضامن والتناصر بين النساء والرجال فى المســاواة والحقوق والواجبات **فقال : " ألا واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنـــهن عــوان عندكم ، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينـــة . ألا إن لكم على نسائكم حقاً ولنســائكم عليكم حقاً .. فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيراً ، ألا هل بلغت ! . اللهم فاشهد** " [١] .

هكذا فُهــمت القوامة فى عصـــر التنـــزيل .. فكانت قــيادة للرجـــل فـــى الأسرة ، اقتضتها مؤهلاته ومسئولياته فى البذل والعطـــاء .. وهـــى قيـــادة محكومة بالمساواة والتناصر والتكافل بين الـــزوج وزوجـــه فـــى الحقـــوق والواجبات ومحكومة بالشورى التى يسهم بها الجميع ويشاركون فى تدبـــير شئون الأسرة .. هذه الأسرة التى قامت على " الميثاق الغليظ " ميثاق الفطرة والذى تأســس على المودة والرحــمة ، حتى غدت المـــرأة فيـــها الســكن والســكينة لزوجها حيث أفضى بعضهم إلى بعض ، هنَّ لباس لكـــم وأنتـــم لباس لهن ، فهى بعــض الرجل والرجل بعــض منـــها :﴿ **بعضكـــم مـــن بعض**﴾ [٢] ــ ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليـــها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ [٣] ــ ﴿ **هـــنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾ [٤] ــ ﴿ **وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخـــذن منكم ميثاقا غليظا** ﴾ [٥] .

---

(١) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص٢٨٣. جمعها وحققها : د . محمد حميـــد الله . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م .

(٢) آل عمران : ١٩٥ .

(٣) الروم : ٢١ .

(٤) البقرة : ١٨٧ .

(٥) النساء : ٢١ .

وإذا كانت الـــقوامة ضرورة من ضروريات النظام والتنظيم في أية وحـــدة من وحدات التنظيم الاجتماعى ، لأن وجود القائد الـــذى يحســـم الاخـــتلاف والخلاف ، هو مما لا يقوم النظام والانتظام إلا به .

فلقد ربط القرآن هذه الدرجة فى الريادة والقيادة بالمؤهلات وبالعطاء ، وليس بمجرد " الجنس " فجاء التعبير : ﴿ **الرجال قوامون علـــى النســـاء** ﴾ وليس كل رجل قوّام على كل امرأة .. لأن إمكانات القوامـــة معهـــودة فـــى الجملة والغالب لدى الرجال ، فإذا تخلفت هذه الإمكانات عنـــد واحـــد مـــن الرجال ، كان الباب مفتوحاً أمام الزوجة ــ إذا امتلكت من هـــذه المقومـــات أكثر مما لديه لتدير دفـــة الاجـــتماع الأسرى ــ على نحـــو ما هو حـــادث فى بعض الحالات ! ..

هكذا كانت القوامة ــ فى الفكر والتطبيق ــ فى عصر صدر الإسلام .. لكن الذى حدث بعد القرون الأولى وبعد الفتوحات التى أدخلت إلى المجتمـــع الإسلامى شعوباً لم يذهب الإسلام عاداتها الجاهلية ، فى النظر إلى المـــرأة والعلاقة بها ، قد أصاب النموذج الإسلامى بتراجعات وتشوهات أشاعت تلك العادات والتقاليد الجاهلية فى المجتمعات الإسلامية من جديد ..

ويكفى أن نعرف أن كلمة " **عَوَان** " التى وصف الرسولﷺ بها النســـاء ، فى خطبة حجة الوداع ، والتى تعنى ــ فى [لسان العرب] ــ : " النَّصـــف والوسط " [1] ــ أى الخيار ــ وتعنى ذات المعنى فى موسوعات مصطلحات الفنون [2] .. قد أصبحت تعنى – فى عصر التراجع الحضارى – أن المرأة أسيرة لدى الرجل ، وأن النساء أسرى عند الرجال .. وأن القوامة هى لـــون من " القهر " لأولئك النساء الأسيرات !! حتى وجدنا إماماً عظيماً مثل ابـــن القيم ، يعبر عن واقع عصره ــ العصر المملوكى ــ فيقـــول هـــذا الكـــلام الغريب والعجيب : " إن السيد قاهر لمملوكه ،حاكم عليه ، مالك له. والزوج قاهر لزوجته ، حاكم عليها ، وهى تحت سلطانه وحكمه شبه الأسير " [3] !!

---

(١) ابن منظور [لسان العرب] طبعة دار المعارف . القاهرة .

(٢) انظر : الراغب الأصفهانى [المفردات فى غريب القرآن] طبعة دار التحرير . القاهرة سنة ١٩٩١م . وأبو البقاء الكفوى [الكليات] ق٢ ص٢٨٧. تحقيق : د . عدنان درويش ، طبعة دمشق سنة ١٩٨٢م .

(٣) [إعلام الموقعين] جـــ٢ ص١٠٦ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م .

وهو فهم لمعنى القوامة ، وعلاقة الزوج بزوجه ، يمثل انقلاباً جـــذريا على إنجازات الإسلام فى علاقة الأزواج بالزوجـــات ! .. انقـــلاب جـــذريًّا فالعادات والتقاليد الجاهلية التى أصبحت تغالب قيم الإسلام فى تحرير المرأة ومساواة النساء للرجال ..

ووجـــدنا كذلك فى ـــ عصـــور التقلـــيد والجـــمود الفقهى ـــ تعريف بعض " الفقهاء " لعقد النكاح ، فإذا به : " عقد تمليك بضع الزوجـــة " !! .. وهو انقـــلاب على المعـــانى القرآنية الســـامية لمصطلـــــحات " الميثـــاق الغليظ " و " المودة " .. والرحمة .. والسكن والسكينة .. وإفضاء كل طرف إلى الطرف الآخر ، حتى أصبح كل منهما لباساً له " ..

هكذا حدث الانقلاب ، فى عصور التراجع الحضـــارى لمســـيرة أمـــة الإسلام ..

ولذلك ، كان من مقتضيات البعث الحضارى ، الحـــديث والمعاصـــر ، لنموذج الإسلام فى تحرير المرأة وإنصافها ، كبديل للنموذج الغربى ـــ الذى اقتحم عالم الإسلام فى ركاب الغزوة الاستعمارية الغربية لبلادنا ـــ والـــذى شقيت وتشقى به المرأة السوية فى الغرب ذاته ـــ كان من مقتضـــيات ذلـــك إعادة المفاهيم الإسلامية الصحيحة لمعنى قوامة الرجال على النساء.. وهـــى المهمة التى نهضت بها الاجتهادات الإسلامية الحديثة والمعاصـــرة لأعـــلام علماء مدرسة الإحياء والتجديد ..

فالإمام محمد عبده ، قد وقف أمام آيات القوامة ﴿ **ولهن مثل الذىعليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة**﴾ [1] فإذا به يقول :

" هذه كلمة جليلة جداً ، جمعت على إيجازها مالا يُؤَدى بالتفصيـــل إلا فى سفر كبير ، فهى قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل فى جميـــع الحقوق ، إلا أمراً واحداً عبّر عنه بقوله :﴿ **وللرجال عليهن درجـــة**﴾ وقـــد أحال فى معرفة ما لهن وما عليهن على المعروف بين الناس فى معاشراتهن

---

(١)البقرة : ٢٢٨ .

ومعاملاتهن فى أهليهن ، وما يجرى عليه عرف الناس هو تابع لشـــرائعهم وعقائدهم وآدابهم وعاداتهم ..

فهذه الجملة تعطى الرجل ميزانا يزن به معاملته لزوجه فـــى جميـــع الشئون والأحوال ، فإذا همّ بمطالبتها بأمر من الأمور يتذكر أنه يجب عليـــه مثله بإزائه ، ولهذا قال ابن عباس ، رضى الله عنهما : إننى لأتزين لامرأتى كما تتزين لى ، لهذه الآية .

وليسَ المراد بالمثل المثل بأعيان الأشياء وأشخاصها ، وإنما المراد : أن الحقوق بينهما متبادلة ، وأنهما كفئان ، فما من عمل تعمله المرأة للرجـل إلا وللرجل عمل يقابله لهـــا ، وإن لم يكن مثله فى شخصه ، فهو مثلـــــه فـــى جنسه ، فهما متماثلان فى الذات والإحساس والشعور والعقل ، أى أن كـــلا منهما بشر تام له عقل يتفكر فى مصالحه ، وقلب يحب ما يلائمه ويسر به ، ويكره مالا يلائمه وينفر منه ، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذه عـــبدا يستذله ويســـتخدمه فى مصـــالحه ، ولا ســـيما بعـــد عقـــد الزوجية والدخـــول فى الحـــياة المشـــتركة التى لا تكون سعيدة إلا بـــلحترام كل من الزوجين الآخر والقيام بحقوقه .ٔ.

هذه الدرجة التى رُفع النساء إليها لم يرفعهن إليها دين سابق ولا شريعة من الشرائع ، بل لم تصل إليها أمة من الأمم قبل الإسلام ولا بعده ..

لقد خاطب الله تعالى النساء بالإيمان والمعرفة والأعمال الصـــــالحة ، فى العبادات والمعاملات ، كما خاطب الرجال ، وجعل لهن مثل مـــا جعلـــه عليهن ، وقرن أسماءهن بأسمائهم فى آيـــات كثـــيرة ، وبـــايع النبـــى ﷺ المؤمنات كما بايع المؤمنين ، وأمرهن بتعلم الكتاب والحكمة كما أمرهـــم ، وأجمعـــت الأمة على ما مضى به الكـــتاب والســـنة من أنهـــن مجزيـــات على أعمالهن فى الدنيا والآخرة ..

وأما قوله تعالى : ﴿ **وللرجال عليهن درجة**﴾ فهو يوجب على المـــرأة شيئاً ، وذلك أن هذه الدرجة درجة الرياسة والقيام على المصالح ، المفســـرة

بقوله تعالى ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم**﴾ (١).

إن الحياة الزوجية حياة اجتماعية ، ولا بد لكل اجتماع من رئيس ، لأن المجتمعين لابد أن تختلف آراؤهم ورغباتهم فى بعض الأمور ، ولا تقوم مصلحتهم إلا إذا كان لهم رئيس يُرجع إلى رأيه فى الخلاف ، لئلا يعمل كل ضد الآخر فتفصم عروة الوحدة الجامعة ويختل النظام ، والرجل أحق بالرياسة لأنه أعلم بالمصلحة ، وأقدر على التنفيذ بقوته وماله ، ومن ثم كان هو المطالب شرعاً بحماية المرأة والنفقة عليها ، وكانت هى مطالبة بطاعته فى المعروف .

إن المراد بالقيام ــ" القوامة "ــ هنا هو الرياسة التى يتصرف فيها المرؤوس بإرادته واختياره ، وليس معناه أن يكون المرؤوس مقهورا مسلوب الإرادة لا يعمل عملا إلا ما يوجهه إليه رئيسه .

إن المرأة من الرجل والرجل من المرأة بمنزلة الأعضاء من بدن الشخص الواحد ، فالرجل بمنزلة الرأس والمرأة بمنزلة البدن .

أما الذين يحاولون بظلمَ النساء أن يكونوا سادة فى بيوتهم ، فإنما يلدون عبيدًا لغيرهم " (٢) !! .

" وإذا كانت عصور التراجع الحضارى ــ كما سبق وأشرنا ــ قد استبدلت بالمعانى السامية لعقد الزواج المودة ، والرحمة ، والسكن والميثاق الغليظ " ذلك المعنى الغريب ــ "عقد تمليك بُضع الزوجة " ! وعقد أسر وقهر ! . فلقد أعاد الاجتهاد الإسلامى الحديث والمعاصر الاعتبار إلى المعانى القرآنية السامية .. وكتب الشيخ محمود شلتوت [١٣١٠ــ١٣٨٣هـ ــ ١٨٩٣ــ ١٩٦٣م] ــ فى تفسيره للقرآن الكريم ــ تحت عنوان [الزواج ميثاق غليظ] يقول :

---

(١) النساء : ٣٤ .

(٢) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جـ ٤ ص ٦٠٦ ٦١١- وجـ٥ ص ٢٠١، ٢٠٣ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة ١٩٩٣م .

" لقد أفرغت سورة النساء على عقد الزواج صبغة كريمة ، أخرجته عن أن يكون عقد تمليك كعقد البيع والإجارة ، أو نوعا من الاسترقاق والأسر حيث أفرغت عليه صبغة " الميثاق الغليظ " .

ولهذا التعبير قيمته فى الإيحاء بموجبات الحفظ والرحمـــة والمـــودة . وبذلك كان الزواج عهدا شريفاً وميثاقاً غليظاً ترتبط به القلوب ، وتختلط به المصالح ، ويندمج كل من الطرفين فى صاحبه ، فيتحد شعورهما ، وتلتقـــى رغباتهما وآمالهما . كان علاقة دونها علاقة الصداقة والقرابـــة ، وعلاقـــة الأبوة والبنوة﴿ **هنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهن**﴾ (١) ﴿ **ومن آياته أن خلـــق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلـــك لآيات لقوم يتفكرون**﴾ (٢). يتفكرون فيدركون أن سعادة الحياة الزوجية إنمـــا تُبنى على هذه العناصر الثلاثة : السكن والمودة والرحمة ..

وإذا تنبهنا إلى أن كلمة (ميثاق) لم ترد فى القرآن الكريم إلا تعبيرًا عما بين الله وعباده من موجبات التوحيد ، والتزام الأحكام ، وعما بـــين الدولـــة والدولة من الشئون العامة والخطيرة ، علمنا مقدار المكانة التى سما القـــرآن بعقد الزواج إليها ، وإذا تنبهنا مرة أخرى إلى أن وصف الميثاق " بالغليظ " لم يرد فى موضع من مواضعه إلا فى عقد الزواج وفيمـــا أخـــذه الله علـــى أنبيائه من مواثيق﴿ **وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً**﴾ (٣). تضاعف لدينا سمو هذه المكانة التى رفع القرآن إليها هذه الرابطة السامية " .

ثم تحدث الشيخ شلتوت عن المفهوم الإسلامى الصحيح " للقوامة " فقال :

" .. وبينت السورة الدرجة التى جعلها الله للرجال على النساء ، بعـــد أن سوى بينهما فى الحقوق والواجبات ، وأنها لا تعدو درجة الإشراف والرعاية بحكم القدرة الطبيعية التى يمتاز بها الرجل على المرأة ، بحكم الكد والعمـــل فى تحصـــيل المال الذى ينفـــقه فى سبيل القيـــام بحقوق الزوجة والأسرة ،

---

(١) البقرة : ١٨٧ .

(٢) الروم : ٢١ .

(٣) النساء : ٢١ .

وليست هذه الدرجة درجة الاستعباد والتسخير ، كما يصورها المخـــادعون المغرضون " [1] .

تلك هى شبهة الفهم الخاطىء والمغلوط لقوامة الرجال على النســـاء .. والتى لا تعدو أن تكون الانعكاس لواقع بعض العادات الجاهلية التى ارتـــدت ــ فى عصور التراجع الحضارى لأمتنا الإســـلامية ــ فغالبـــت التحريـــر الإسلامى للمرأة ــ حتى انتقلت بالقوامة من الرعاية والريـــادة ، المؤسســـة على إمكانات المسئولية والبذل والعطاء ، إلى قهر السيد للمسود والحر للعبد والمالك للمملوك !.

ولأن هذا الفهم غريب ومغلوط ، فإن السبيل إلى نفيه وإزالـــة غبـــاره وآثاره هو سبيل البديل الإســـلامى ــ الذى فقهه الصـــحابة ، رضـــوان الله عليهم ــ للقوامه .. والذى بعثه ــ من جديد ــ الاجتهاد الإسلامى الحـــديث والمعاصر ، ذلك الذى ضربنا عليه الأمثال من فكر وإبداع الشيخ محمد عبده والشيخ محمود شلتوت .

بل إننا نضيف ، للذين يرون فى القوامة استبدادا بالمرأة وقهرا لهـــا ــ سواء منهم غلاة الإسلاميين الذين ينظرون للمرأة نظرة دونية ، ويعطلـــون ملكاتها وطاقاتها بالتقاليد ــ أو غلاة العلمانيين ، الذين حسبوا ويحســـبون أن هذا الفهم المغلوط هو صحيح الإسلام وحقيقته ، فيطلبـــون تحريـــر المـــرأة بالنموذج الغربى .. بل وتحريرها من الإسلام ! .. أقول لهؤلاء جميعاً :

إن هذه الرعاية التى هى القوامة ، لم يجعلها الإسلام للرجل بـــإطلاق .. ولم يحرم منها المرأة بإطلاق .. وإنما جعل للمرأة رعاية أى " قوامـــة " فى الميادين التى هى فيها أبرع وبها أخبر من الرجال .. ويشهد على هـــذه الحقيقة نص حديث رسول الله ﷺ " **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيتـــه ، فالأمير الذى على الناس راع عليهم ، وهو مسئول عـــنهم ، والرجـــل راع على أهـــل بيته ، وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية علـــى بيـــت بعلهـــا وولده ، وهى مسئولة عنهم .. ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته** " ــ رواه البخارى والإمام أحمد ــ .

---

(١) [تفسير القرآن الكريم] ص ١٧٢ ــ ١٧٤ . طبعة القاهرة ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م .

فهذه الرعايةــ"القوامة "–هى فى حقيقتها " تقسيم للعمل " تحدد الخــبرةُ والكفاءةُ ميادين الاختصاص فيه .. فالكل راع ومسئول–وليس فقط الرجـــال هم الرعاة والمسئولون–وكل صاحب أو صاحبة خبرة وكفاءة هو راع وقوّام أو راعية وقوّامة على ميدان من الميادين وتخصص من التخصصات .. وإن تميزت رعاية الرجال وقوامتهم فى الأسر والبيوت والعائلات وفقاً للخـــبرة والإمكانات التى يتميزون بها فى ميادين الكد والحماية ..فإن لرعاية المـــرأة تميزاً فى إدارة مملكة الأسرة وفى تربية الأبناء والبنات .. حتى نلمح ذلـــك فى حديث الرسول ﷺ الذى سبق إيراده – عندما جعل الرجل راعياً ومسئولاً على " أهل بيته " بينما جعل المرأة راعية ومســـئولة علـــى " بيـــت بعلـــها وولده " ..

فهذة " القوامة " – توزيع للعمل ، تحدد الخبرة والكفـــاءة ميادينـــه .. وليست قهراً ولا قَسْراً ولا تملكا ولا عبودية ، بحال من الأحوال ..

هكذا وضحت قضية القوامة .. وسقطت المعانى الزائفة والمغلوطـــة لآخـــر الشبهات التى يتعلق بها الغلاة .. غلاة الإسلاميين .. وغلاة العلمانيين .

فالطريق مفتوح أمام إنهاض المرأة بفكر متزن يرى أنها مع الرجل قـــد خلقا من نفس واحدة وتساويا فى الحقوق والواجبات واختلفت وظـــائف كـــل منهما إختلاف تكامل كتكامل خصائصهما الطبيعية لعمارة الدنيا وعبـــادة الله الواحد الأحد .

الشبهة الخامسة والثلاثون بعد المائة

قضية الحِجاب

الرد على الشبهة :

السياق القرآنى لآية الخمار يبين أن العلة هى العفاف وحفظ الفـروج ، حيث يبدأ بالحديث عن تميز الطيبين والطيبات عن الخبيثين والخبيثـات .. وعن آداب دخـول بيوت الآخرين ، المأهول منها وغير المأهول .. وعـن غض البصر .. وحفظ الفروج ، لمطلق المؤمنين والمؤمنات ..وعن فريضة الاختمار ، حتى لا تبدو زينة المرأة ــ مطلق المرأة ــ إلا لمحـارم حددتهم الآية تفصيلاً . فالحديث عن الاختمار حتى فى البيوت ، إذا حضـر غيـر المحارم .. ثم يواصل السياق القرآنى الحـديث عـن الإحصـان بالنكـاح (الزواج) وبالاستعفاف للذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله :

﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبـون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم * يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكـم خير لكم لعلكم تَذكَّرون * فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يـؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملـون علـيم * ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون * قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون * وقل للمؤمنات يغضضـن مـن أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضـربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آبـاء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنـى أخواتهن أو نسائهـن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن

ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيهـــا المؤمنـــون لعلكـــم تفلحون * وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم * وليستعفف الذين لا يجـــدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمـــانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ولا تكرهـــوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عـــرض الحيـــاة الـــدنيا ومـــن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ (١) .

فنحن أمام نظام إسلامى ، وتشريع إلهى مفصل ، فى العفة وعلاقتها بستر العورات عن غير المحارم . وهو تشريع عام ، فى كل مكان توجد فيه المرأة مع غير محرم .

بل إن ذات السورة ــ (النور) تستأنف التشريع لستر العورات داخل البيوت ــ نصاً وتحديداً ــ فتقول آياتها الكريمة :﴿ **يا أيهـــا الـــذين آمنـــوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات مـــن قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشـــاء ثلاثُ عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوّافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم * وإذا بلـــغ الأطفـــال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياتـــه والله عليم حكيم * والقواعد من النساء اللاتى لا يرجـــون نكاحـــاً فلـــيس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم﴾** (٢) .

---

(١) النور : ٢٦- ٣٣.

(٢) النور : ٦٨ : ٧٠ .

فنحن أمام تشريع لستر العورات ، حتى داخل البيـــوت ، عـــن غيـــر المحارم ــ الذين حددتهم الآيات ــ ومنهم الصبيان إذا بلغوا الحلم .. فحيـــث أمر الله بالعفاف وحرم الزنا وأقر الزواج وأباح إمكانية التعدد فكـــان لابـــد لكمال التشريع من الأمر بدرء ما يوصل إلى عكس ذلك كله فأمر بالحجـــاب وبغض البصر وبعدم الخلوة وهو أَمْرٌ له سبحانه فى كل دين .

الشبهة السادسة والثلاثون بعد المائة

الـــــرِّق

الرد على الشبهة :

الرِّق ــ لغة ــ : هو الشئ الرقيق ، نقيض الغليظ والثخين .

ــ واصطلاحًا ــ : هــو المِلْك والعــبودية ، أى نقيض العِــتْق والحــرية .

والرقيق ــ بمعنى العبد ــ يطلق على المفرد والجمع ، وعلى الذكر والأنثى أما العبد ، فهو : الرقيق الذكر ، ويقابله : الأَمَة للأنثى . ومن الألفاظ الدالة على الرقيق الذكر لفظى : الفتى أو الغلام .. وعلى الأنثى لفظى : الفتــاة ، والجارية . أما القنّ فهو أخص من العبد ، إذ هو الذى مُلِك هو وأبواه .

ومالك الرقيق هو : السيد ، أو المولى .

والرق نظام قديم قدم المظالم والاستعباد والطبقية والاستغلال فى تاريخ الإنسان ، وإليه أشار القرآن الكريم فى قصة يوسف عليه السلام :﴿ **وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بُشْرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه مــن الزاهدين . وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثــواه عســى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً**﴾ [1] وكان الاسترقاق من عقوبات السرقة عند العبرانيين القدماء ، وعندما سئل إخوة يوسف عن جزاء السارق لصواع الملك﴿ **قــالوا جزاؤه من وُجد فى رحله فهو جزاؤه ..**﴾ [2] .

وفى الحضارات القديمة كان الرق عماد نظام الإنتاج والاستغلال ، وفى بعض تلك الحضارات ــ كالفرعونية المصرية والكسروية الفارسية ــ كــان النظام الطبقى المغلق يحول دون تحرير الأرقاء ، مهما توفرت لأى مــنهم الرغبة أو الإمكانات .. وفى بعض تلك الحضارات ــ كالحضارة الرومانية ــ

---

(١) يوسف : ١٩ــ٢١ .

(٢) يوسف : ٧٥ .

كان السادة هم الأقلية الرومانية ، وكانت الأغلبية ــ فى الإمبراطورية ــ برابرة أرقاء ، أو فى حكم الأرقاء .. وللأرقاء فى تلك الحضارات ثورات من أشهرها ثورة " اسبارتاكوس " [٧٣ــ٧١ق.م] .

وعندما ظهر الإسلام كانت للمظالم الاجتماعية والتمييز العرقى والطبقى منابع وروافد عديدة تغذى " نهر الرق " فى كل يوم بالمزيد من الأرقاء .. وذلك من مثل :

١ــ الحرب ، بصرف النظر عن حظها من الشرعية والمشروعية ، فالأسرى يتحولون إلى أرقاء ، والنساء يتحولن إلى سبايا وإماء ..

٢ــ والخطف ، يتحول به المخطوفون إلى رقيق ..

٣ــ وارتكاب الجرائم الخطيرة ــ كالقتل والسرقة ــ والزنا ــ كان يحكم على مرتكبيها بالاسترقاق ..

٤ــ والعجز عن سداد الديون ، كان يحوّل الفقراء المدينين إلى أرقاء لدى الأغنياء الدائنين ..

٥ــ وسلطان الوالد على أولاده ، كان يبيح له أن يبيع هؤلاء الأولاد ، فينتقلون من الحرية ــ إلى العبودية .

٦ ــ وسلطان الإنسان على نفسه ، كان يبيح له بيع حريته ، فيتحول إلى رقيق ..

٧ ــ وكذلك النسل المولود من كل هؤلاء الأرقاء يصبح رقيقا ، حتى ولو كان أباه حرا ..

ومع كثرة واتساع هذه الروافد التى تمد نهر الرقيق ــ فى كل وقت ــ بالمزيد والمزيد من الأرقاء ، كانت أبواب العتق والحرية إما موصدة تماما ، أو ضيقة عسيرة على الولوج منها ..

وأمام هذا الواقع ، اتخذ الإسلام ، إبان ظهوره ، طريق الإصلاح الذى يتغيا تحرير الأرقاء ، وإلغاء نظام العبودية ، وطى صفحته من الوجود ،

لكن فى " واقعية ــ ثورية " ــ إذا جاز التعبير ــ .. فهو لم يتجاهل الواقـــع ولم يقفز عليه .. وأيضا لم يعترف به على النحو الذى يبقيه ويكرسه ..

لقد بدأ الإسلام فأغلق وألغى وحرّم أغلب الروافد التى كانت تمد نـــهر الرقيق بالمزيد من الأرقاء .. فلم يبق منها إلا أسرى الحـــرب المشـــروعة والشرعية ، والنسل إذا كان أبواه من الأرقاء .. وحتـــى أســرى الحــرب المشروعة فتح الإسلام أمامهم باب العتق والحرية ــ المــنّ أو الفــداء ــ : **﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثـــاق فإما منًّا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها..﴾** [1] فعندما تضع الحرب أوزارها ، يتم تحرير الأسرى ، إما بالمن عليهم بالحريـــة وإمـــا بمبادلتـــهم بالأسرى المسلمين لدى الأعداء ..

ومع إغلاق الروافد ــ روافد الاسترقاق ومصادره ــ التفت الإسلام إلى " كتلة " واقع الأرقاء ، فسعى إلى تصفيتها بالتحرير ، وذلك عندمـــا عــدد ووسع مصابّ نهر الرقيق ..ولقد سلك الإسلام إلـــى ذلـــك المقصـــد ســبيل منظومة القيم الإسلامية . وسبيل العدالة الاجتماعية الإسلامية . فحبب إلـــى المسلمين عتق الأرقاء تطوعا، إذ في عتق كل عضو من أعضاء الرقيـــق عتق لعضو من أعضاء سيده من النار ، فتحرير الرقيـــق ســبيل لتحريـــر الإنسان من عذاب النار يوم القيامة .. كما جعل الإسلام عتق الأرقاء كفــارة للكثير من الذنوب والخطايا .. وجعل للدولة والنظام العام مدخلاً فى تحريـــر الأرقاء عندما جعل هذا التحرير مصرفا من المصارف الثمانيـــة لفريضـــة الزكاة ــ فهو جزء من أحد أركان الإسلام ــ **﴿ إنمـــا الصدقـــات للفقـــراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفـــى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾** [2] . كمـــا جعـــل الحرية هى الأصل الذى يولد عليه الناس ، والرق هو الاستثناء الطارئ الذى يحتاج إلى إثبات ، فمجهولوا الحكم هم أحرار ، وعلى مدعى رقـــهم إقامـــة البينات ، وأولاد الأمة من الأب الحر هم أحرار .ــ و" متى استعبدتم النـــاس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ! " ..

---

(١) محمد : ٤ .

(٢) التوبة : ٦٠ .

كذلك ، ذهب الإسلام فساوى بين العبد والحر فى كل الحقوق الدينية ، وفـــى أغلب الحقوق المدنية ، وكان التمييز فقط ، فى أغلب حالاته بسبب التخفيف عن الأرقاء مراعاة للاستضعاف والقيود التى يفرضـــها الاســـترقاق علـــى الإرادة والتصرف .. فالمساواة تامة فى التكاليف الدينية ، وفـــى الحســـاب والجزاء .. وشهادة الرقيق معتبرة فى بعض المـــذاهب الإســـلامية ــ عنـــد الحنابلة ــ وله حق الملكية فى ماله الخاص ، وإعانته على شراء حريتـــه ــ بنظام المكاتبة والتدبير ــ مرغـــوب فيها دينياً ﴿ **والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خـــيراً وآتوهم من مـــال الله الـــذى آتاكم** ﴾ [1] . والدماء متكافئة فى القصاص ..

وبعد أن كان الرق من أكبر مصادر الاستغلال والثراء لملاك العبيـــد ، حوّله الإسلام ــ بمنظومة القيم التى كادت أن تسوى بين العبد وسيده ــ إلى ما يشبه العبء المالى على ملاك الرقيق .. فمطلوب من مالـــك الرقيـــق أن يطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل مالا يطيـــق .. بـــل ومطلوب منه ــ أيضاً ــ إلغـــاء كلمة " العبـــد " و الأمة " واستبدالها بكلمة " الفتى " و " الفتاة " :

بل لقد مضى الإســـلام فى هذا السبيل إلى ما هو أبعـــد مـــن تحريـــر الرقيق ، فلم يتركهم فى متاهة عالم الحرية الجديـــد دون عصـــبية وشـــوكة وانتماء ، وإنما سعى إلى إدماجهم فى القبائل والعشائر والعصبيات التى كانوا فيها أرقاء ، فأكسبهم عزتها وشرفها ومكانتها ومنعتها وما لها من إمكانات ، وبذلك أنجز إنجازاً عظيماً ــ وراء وفوق التحرير ــ عنـــدما أقـــام نســـيجاً اجتماعياً جديداً التحم فيه الأرقاء السابقون بالأحرار ، فأصـــبح لهـــم نســـب قبائلهم عن طريق " الولاء " ، الذى قال عنه الرسول ﷺ : [**الـــولاء لُحْمَـــةٌ كلُحْمَة النسب**] ــ رواه الدارمى ــ . حتى لقد غدا أرقاء الأمس " ســـادة " فى أقوامهم ، بعد أن كانوا " عبيداً " فيهم .. وقال عمر بن الخطاب ــ وهو من هو فى الحسب والنسب ــ عن بلال الحبشى ، الذى اشتراه أبـــو بكـــر الصديق وأعتقه : " سيدنا أعتق سيدنا " ! .. كما تمنى عمر أن يكون ســـالم مولى أبى حذيفة حياً فيختاره لمنصب الخلافة .. فالمولى ، الذى نشأ رقيقاً ، قد حرره الإسلام ، فكان إماماً فى الصلاة وأهلاً بخلافة المسلمين .

---

(١) النور: ٣٣ .

ولقد ساعد على هذا الاندماج فى النسيج العربى ــ فضلاً عن الإســـلامى ــ ذلك المعيار الذى حدده الإسلام للعروبة وهو معيار اللغة وحدها ، فباستبعاد " العرق .. والدم " غدت الرابطة اللغوية والثقافية انتماءً واحـــداً للجميـــع ، بصرف النظر عن ماضى الاسترقاق وعن هذا المعيـــار للعروبـــة تحـــدث الرسول ﷺ ــ فى معرض النقد والرفض للذين أرادوا إخراج الموالى ، ذوى الأصول العرقية غير العربية ، من إطار العروبة ، فقال : [**أيها الناس ، إن الرب واحد ، والأب واحد .. وليست العربية بأحدكم من أب أو أم ، وإنمـــا هى اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى ..**] ..

هكذا كان الإسلام إحياء وتحريراً للإنسان ، مطلق الإنسان ، يضع عن الناس إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، ويحرر الأرقاء ، لأن الـــرق ــ فى نظره ــ " موت " ، والحرية " حياة وإحياء " .. ولقد أبصر هذه الحكمـــة الإسلامية الإمام النسفى [٧١٠هـــ /١٣١٠م] وهو يعلل جعل الإســـلام كفارة القتل الخطأ تحرير رَقبة : ﴿ **ومن قتل مؤمناً خطـــأ فتحريـــر رقبـــة مؤمنة**﴾ [١] . . فقال : إن القاتل " لما أخرج نفساً مؤمنة من جملة الأحيـــاء لزمة أن يدخل نفساً مثلها فى جملة الأحرار ، لأن اطلاقها من قيـــد الـــرق كإحيائها ، من قِبَل أن الرقيق ملحق بالأموات ، إذ الرق أثر من آثار الكفر ، والكفر موت حكماً .." [٢] .. فالإسلام قد ورث نظام الرق عن المجتمعـــات الكافرة فهو من آثار الكفر ، ولأنه موت لروح وملكات الأرقـــاء ، وســـعى الإسلام إلى إلغائه ، وتحرير ــ أى إحياء ــ موات هؤلاء الأرقاء ، كجزء من الإحياء الإسلامى العام ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم**﴾ [٣] .

* * *

---

(١) النساء : ٩٢ .

(٢) [تفسير النسفى] طبعة القاهرة ، الأولى .

(٣) الأنفال : ٢٤

ومع أن مقاصد الإسلام فى تصفية نهر الرقيــق ــ بــإغلاق روافــده وتجفيف منابعه ، وتوسيع مصباته ــ لم تبلغ كامل آفاقها ، إذ انتكس "الواقع التاريخى" للحضارة الإسلامية ، بعد عصر الفتوحات ، وسيطرة العسكر المماليك على الدولة الإسلامية .. إلا أن . حــال الأرقــاء فــى الحضــارة الإسلامية قد ظلت أخف قيوداً وأكثر عدلاً ــ بما لا يقارن ــ من نظائرهــا خارج الحضارة الإسلامية ، بما فى ذلك الحضارة الغربية ، التى تزعمت ــ فى العصر الحديث ــ الدعوة إلى تحرير الأرقاء ..

فلقد اقترن عصر النهضة الأوروبية بزحفها الاستعمارى على العالمين القديم والجديد ، وبعد أن استعبد المســتعمرون ــ الأســبان والبرتغــاليون والإنجليز والفرنسيون ــ سكان أمريكا الأصليين ، وأهلكوهم فــى ســخرة البحث عن الذهب وإنشاء المزارع ، مارسوا أكبر أعمال القرصنة والخطف فى التاريخ ، تلك التى راح ضحيتــها أكثر من أربعين مليوناً مــن زنــوج إفريقيا ، سلسلوا بالحديد ، وشحنوا فى سفن الحيوانات ، لتقوم على دمــائهم وعظامهم المزارع والمصانع والمناجم التى صنعت رفاهية الرجل الأبــيض فى أمريكا وأوروبا .. ولا يزال أحفــادهم يعــانون من التفرقة العنصــرية فى الغرب حتى الآن.

وعندما سعت أوروبا ــ فى القرن التاســع عشر ــ إلى إلغاء نظــام الرق ، وتحريم تجارته ، لم تكن دوافعها ــ فى أغلبها ــ روحية ولا قيميــة ولا إنسانية ، وإنما كانت ــ فى الأساس ــ دوافــع ماديــة ، لأن نظامهــا الرأسمالى قد رأى فى تحرير الرقيق سبيلاً لجعلهم عمالاً أكثر مهارة ، وأكثر قدره على النهوض باحتياجات العمل الفنى فى الصناعات التى أقامها النظام الرأسمالى .. فلقد غدا الرق ــ بمعايير الجدوى الاقتصادية ــ عبئــاً علــى فائض رأس المال ــ الذى هو معبــود الحضــارة الرأســمالية الماديــة ــ وأصبحت حرية الطبقة العاملة أعون على تنمية مبادراتها ومهاراتهــا فــى عملية الإنتاج ..

ولقد كان ذات القرن الذى دعت فيه أوروبا لتحرير الرقيق هو القــرن الذى استعمرت فيه العالم ، فاسترقّت بّهــذا الاســتعمار الأمــم والشــعوب استرقاقاً جديداً ، لا تزال الإنسانية تعانى منه حتىالآن ..

***

الشبهة السابعة والثلاثون بعد المائة

التَّسَرِّى

الرد على الشبهة :

هذا عن الرق فى التاريخ الإنسانى وفى الإسلام : الدين .. الحضـــارة .. والتاريخ ..

أما التسرى ، فهو : اتخاذ مالك الأمة منها سَـرِيَّةِ يعاشـــرها معاشـــرة الأزواج فى الشرع الإسلامى ..

وكما لم يكن الرق والاسترقاق تشريعاً إسلامياً مبتكـــراً ، ولا خاصـــية شرقية تميزت به الحضارات الشرقية عن غيرها من الحضارات ، وإنما كان موروثاً اجتماعياً واقتصادياً إنسانياً ، ذاع وشاع فى كل الحضارات الإنسانية عبر التاريخ .. فكذلك كان التسرى ــ الذى هو فـــرع مـــن فـــروع الـــرق والاسترقاق ــ نظاماً قديماً ولقد جاء فى المـــأثورات التاريخيـــة المشـــهورة والمتواترة أن خليل الله إبراهيم ، عليه السلام ، قد تسرى بهاجر المصرية ، عندما وهبه إياها ملك مصر ، ومنها وُلد له إسماعيل ــ عليه الســـلام ــ .. فمارس التسرى أبو الأنبياء ، وولد عن طريق التســـرى نبـــى ورســـول .. وكذلك جاء فى المأثورات التاريخية أن نبى الله سليمان ــ عليه السلام ــ قد تسرى بثلاثمائة سرية !.. وكما شاع التسرىعند العرب قبل الإسلام ، فلقـــد مارسه ، فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، غير المســـلمين مثـــل المسلمين ..

وإذا كان التسرى ، هو اتخاذ مالك الأمة منها سريّة ، أى جعلـــه لهـــا موضعاً للوطء ، واختصاصها بميل قلبى ومعاشـــرة جنســـية ، وإحصـــان واستعفاف .. فلقد وضـــع الإسلام له ضوابط شرعية جعلت منـــه زواجـــاً حقيقياً ، تشترط فيه كل شروط الزواج ، وذلك باستثناء عقد الـــزواج ، لأن عقد الزواج هو أدنى من عقد الملك ، إذ فى الأول تمليك منفعة ، بينما الثانى يفضى إلى ملك الرقبة ، ومن ثم منفعتها ..

ولقد سميت الأمة ــ التى يختارها مالكها ســرية له ــ سُميت " سَرِيَّةً " . " لأنها موضع سروره ، ولأنه يجعلها فى حالٍ تســرها " دون ســواها ، أو أكثر من سواها .. فالغرض من التسرى ليس مجرد إشباع غرائز الرجــل ، وإنما أيضاً الارتفاع بالأَمة إلى مايقرب كثيراً من مرتبة الزوجة الحرة ..

والإسلام لا يبيح التسرى ــ أى المعاشرة الجنسية للأَمــة ــ بمجــرد امتلاكها .. وإنما لابد من تهيئتها كما تهيأ الزوجة .. وفقهاء المذهب الحنفى يشترطون لتحقيق ذلك أمرين :

أولهما : تحصين السرية ، بأن يخصص لها منزل خاص بها ، كمــا هــو الحال مع الزوجة ..

وثانيهما : مجامعتها ، أى إشباع غريزتها ، وتحقيق عفتها .. طالما أنها قد أصبحت سرية ، لا يجوز لها الزواج من رقيق مثلها ، أو أن يتســرى بهــا غير مالكها ..

ولأن التسرى ــ إن فى المعاشرة الجنسية أو التناســل ــ مثلــه مثــل الزواج من الحرائر .. فلقــد اشترط الإسلام براءة رحم الأمة قبل التسرى بها ، فإباحة التسرى قد جاءت فى آية إباحة الزواج : **وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألاّ تعولوا** ﴾ [1] .. والتكليــف الإسلامى بحفظ الفروج عام بالنسبة لمطلق الرجال والنساء ، أحراراً كانوا أم رقيقاً ، مسلمين كانوا أم غير مسلمين : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين**﴾ [2] .. ولقد قــال رسول الله ﷺ ــ فى سبايا " أوطاس " ــ أى حنين ــ : [**لا توطأ حامل حتى تضع ، ولا غير ذات حمل حتى تحيض حيضة ..**] [3] .

وكذلك الحال مع المقاصد الشرعية والإنسانية مــن وراء التســرى .. فهى ذات المقاصد الشرعية والإنسانية من وراء الزواج :

---

(١) النساء : ٣ .

(٢) المؤمنون : ٥ ، ٦ .

(٣) رواه أبو داود .

تحقيق الإحصان والاستعفاف للرجل والمرأة ، وتحقيق ثبوت أنساب الأطفال لآبائهم الحقيقيين .. ففى هذا التسرى ــ كما يقول الفقهاء ــ " استعفاف مالك الأمة .. وتحصين الإماء لكيلا يملن إلى الفجور ، وثبوت نسب أولادهن " . وأكاد ألمح فى التشريع القرآنى أمراً إلهياً بالإحصان العام للرجال والنساء ، أحرارًا كانوا أو أرقاء .. ففى سياق التشريع لغض البصر ، وحفظ الفروج ، جاء التشريع للاستعفاف بالنكاح ــ الزواج ــ للجميع .. وجاء النهى عن إكراه الإماء على البغاء ، لا بمعنى إجبارهن على الزنا ــ فهذا داخل فى تحريم الزنا ، العام للجميع ــ وإنما بمعنى تركهن دون إحصان واستعفاف بالزواج أو التسرى ــ أكاد ألمح هذا المعنى عندما أتأمل سياق هذه الآيات القرآنية : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون * وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليُعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيَّة المؤمنون لعلكم تفلحون * وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم * وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم** ﴾ [1] . فالتشريع للاستعفاف والإحصان بالنكاح ــ الزواج ــ والتسرى عام وشامل للجميع ..

( ) النور : ٣٠ ــ٣٣.

بل لقد جعل الإسلام من نظام التسرى سبيلاً لتحقيق المزيد من الحريـــة للأرقاء ، وصولاً إلى تصفية نظام العبودية والاسترقاق .. فأولاد السرية فى الشرع الإسلامى ، يولدون أحراراً ــ بعد أن كانوا يظلون أرقاء فى الشرائع والحضارات غير الإسلامية ــ والسرية ، بمجرد أن تلد ، ترتفع إلى مرتبـــة أرقى هى مرتبة " أم الولد " ثم تصبح كاملة الحرية بعد وفاة والد أولادها ..

وكما اشترط الشرع الإسلامى ــ للتسرى ــ استبراء الرحم ، كما هو الحال فى الزواج من الحرائر ، اشترط فى السرية ما يشترط فـــى الزوجـــة الحرة : أن تكون ذات دين سماوى ، مسلمة أو كتابية .. وأن لا تكون مـــن المحارم اللاتى يحرم الزواج بهن ، بالنسب أو الرضـــاعة .. فـــلا يجـــوز التسرى بالمحارم ، بل ولا يحل استرقاقهم أصلاً ، إناثاً كـــانوا أم ذكـــوراً ، فامتلاكهم يفضى إلى تحريرهم بمجرد الامتلاك .. وفـــى الحـــديث النبـــوى الشريف : [**من ملك ذا رحِمٍ مَحْرَمٍ فهو حر**] (١) .

وكما هو الحال فى اختيار الزوجة الحرة ، استحسن الشرع الإســـلامى تخير السرية ذات الدين ، التى لا تميل إلى الفجور ، وذلك لصيانة العرض . وأن تكون ذات عقل ، حتى ينتقل منها إلى الأولاد . وأن تكون ذات جمال يحقق السكينة للنفس والغض للبصر . فالتخيُّر للنُّطَف ــ وفق حديث رسول الله ﷺ : [**تخيَّروا لنطفكم**](٢) ــ هو تشريع عام فى الحرائر والإماء (٣) ..

وكما لا يجوز الاقتران بأكثر من أربع زوجات حرائر ، اشترط بعض الفقهاء الالتزام بذات العدد فى السرارى ، أو فيهن وفى الزوجات الحرائر .. وإذا كان جمهور الفقهاء لا يقيدون التسرى بعدد الأربعة ، فإن الإمام محمـــد

---

(١) رواه أبو داود .
(٢) رواه ابن ماجة .
(٣) انظر : [الموسوعة الفقهية] ــ مادة " التسرى " ــ طبعة الكويت ١٤٠٨هـــ ــ ١٩٨٨م .

عبده ــ فى فتواه عن تعدد الزوجات ــ قد قال ــ عنــد تفســيره لقــول الله سبحانه وتعالى :﴿ **أو ما ملكت أيمانكم**﴾ [1] . " لقد اتفق المسلمون عَلى أنــه يجوز للرجل أن يأخذ من الجوارى ما يشاء بدون حصر ولكن يمكن لفاهم أن يفهم من الآية غير ذلك ، فإن الكلام جاء مرتبطاً بإباحة التعدد إلى الأربعــة فقط .. " [2].

ويؤيد هذا الاجتهاد ما كان عليه العمل فى صدر الإسلام ، إذ لم يكــن الرجل يتسرى بغير سرية واحدة وكما يجب العدل بين الزوجات الحرائر عند تعددهن .. قال بعض الفقهاء : إن ما يجب للزوجة يستحب للسرية ، وجعل الحنابلة الإحصان للأرقاء ــ ذكوراً وإناثاً ــ أمراً واجباً .. [3] .

هكذا رفع الإسلام ، بالشروط التى اشترطها فى التســرى ، مــن شــأن السرارى ، وذلك عندما جعلهن ــ فى الواقع العملى ــ أقرب ما يكــن إلــى الزوجات الحرائر . وعندما جعل من نظام التسرى بابًا من أبواب التحريــر للإماء ولأولادهن ، بعد أن كان رافداً من روافد الاسترقاق والاستعباد ..

***

أما الواقع التاريخى ، الذى تراجع عن هذا النموذج الإسلامى للتسرى ، عندما كثرت السبايا ، وتعددت مصادر الاسترقاق .. فمن الخطأ البين ــ بل والتجنى ــ حمل هذا الواقع التاريخى على شرع الإسلام ..

---

(١) النساء : ٣.

(٢) [الأعمال الكاملة] ج٢ ص ٩١ طبعة القاهرة ١٩٩٣م .

(٣) المصدر السابق : ج٢ ٩١ .

فالإسلام ــ كما قدمنا فى الحديث عن الرق ــ قد ألغى وجفف كــل روافــد ومصادر الاسترقاق ، ولم يستثن من ذلك إلا الحرب الشرعية المشــروعة . ولذلك ، فإن تجارة الرقيق ، وأسواق الأرقاء ، وشيوع التسرى الــذى جــاء ثمرة لاختطاف الفتيات والفتيان ، وللحروب غير المشروعة ، وغيرها مــن سبل الاسترقاق التى حرمها الإسلام .. كل ذلك إن حُسب علــى " التــاريخ الإسلامى " فلا يمكن أن يُحسب على " دين الإسلام " .. وعن هذه الحقيقــة الهامة يقول الإمام محمد عبده : " لقد ساء استعمال المسلمين لما جــاء فــى دينهم من هذه الأحكام الجليلة ، فأفرطوا فى الاستزادة من عدد الجــوارى ، وأفسدوا بذلك عقولهم وعقول ذراريهم بمقدار ما اتسعت لذلك ثرواتهم ..

أما الأسرى اللاتى يصح نكاحهن فهن أسرى الحرب الشــرعية التــى قصد بها المدافعة عن الدين القويّم أو الدعوة إليه بشروطها ، ولا يَكُنَّ عنــد الأسر إلا غير مسلمات .. وأما ما مضى المسلمون على اعتياده من الرق ، وجرى عليه عملهم فى الأزمان الأخيرة ، فليس من الدين فى شــىء ، فمــا يشترونه من بنات الجراكسة أو من السودانيات اللاتى يخــتطفهن الأشــقياء السَّلبَة المعروفون "بالأسيرجية"، فهو ليس بمشروع ولا معروف فــى ديــن الإسلام ، وإنما هو من عادات الجاهــلية ، لكن لا جاهلية العرب بل جاهلية السودان والجركس .. " (١) .

وإذا كان من العبث الظالم حمل تاريخ الحضارة الغربيــة مــع الــرق والاسترقاق على النصرانية ، كدين ، فالأكثر عبثية والأشد ظلماً هو حمــل التاريخ الإسلامى ــ فى هذا الميدان ــ على شريعة الإسلام !..

* * *

(١) المصدر السابق : ج٢ ص ٩١، ٩٢ .

الشبهة الثامنة والثلاثون بعد المائة

هل تحريم زواج المسلمة بغير المسلم يُعد نزعة عنصرية ؟

الرد على الشبهة :

١ ــ صحيح أن الإسلام يجيز زواج المسلم من غير المسلمة (مسيحية أو يهودية) ولا يجيز زواج المسلمة من غير المسلم . وللوهلة الأولى يُعد ذلك من قبيل عدم المساواة ، ولكن إذا عرف السبب الحقيقى لذلك انتفى العجب ، وزال وَهْمُ انعدام المساواة . فهناك وجهة نظر إسلامية فى هذا الصدد توضح الحكمة فى ذلك . وكل تشريعات الإسلام مبنية على حكمة معينة ومصلحة حقيقية لكل الأطراف .

٢ ــ الزواج فى الإسلام يقوم على " المودة والرحمة " والسكن النفسى . ويحرص الإسلام على أن تبنى الأسرة على أسس سليمة تضمن الاستمرار للعلاقة الزوجية . والإسلام دين يحترم كل الأديان السماوية السابقة ويجعل الإيمان بالأنبياء السابقين جميعًا جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية . وإذا تزوج مسلم من مسيحية أو يهودية فإن المسلم مأمور باحترام عقيدتها ، ولا يجوز له ــ من وجهة النظر الإسلامية ــ أن يمنعها من ممارسة شعائر دينها والذهاب من أجل ذلك إلى الكنيسة أو المعبد . وهكذا يحرص الإسلام على توفير عنصر الاحترام من جانب الزوج لعقيدة زوجته وعبادتها . وفى ذلك ضمان وحماية للأسرة من الانهيار .

٣ ــ أما إذا تزوج غير مسلم من مسلمة فـــإن عنصـــر الاحـــترام لعقيـــدة الزوجة يكون مفقوداً . فالمسلم يؤمن بالأديان السابقة ، وبأنبياء الله السابقين ، ويحترمهم ويوقرهم ، ولكن غير المسلم لا يؤمن بنبى الإسلام ولا يعـــترف به ، بل يعتبره نبيًّا زائفًا ويُصدِّق ــ فى العادة ــ كل ما يشاع ضد الإســـلام وضد نبى الإسلام من افتراءات وأكاذيب ، وما أكثر ما يشاع .

وحتى إذا لم يصرح الزوج غير المسلم بذلك أمام زوجته فإنها ســـتظل تعيش تحت وطأة شعور عدم الاحترام من جانب زوجها لعقيدتها . وهذا أمر لا تجدى فيه كلمات الترضية والمجاملة . فالقضية قضية مبـــدأ . وعنصـــر الاحترام المتبادل بين الزوج والزوجة أساس لاستمرار العلاقة الزوجية .

٤ ــ وقد كان الإسلام منطقيًّا مع نفسه حين حرّم زواج المسلم مـــن غـــير المسلمة التى تدين بدين غير المسيحية واليهودية ، وذلك لنفس السبب الـــذى من أجله حرّم زواج المسلمة بغير المسلم .

فالمسلم لا يؤمن إلا بالأديان السماوية وما عداها تُعـــد أديانًـــا بشـــرية . فعنصر التوقير والاحترام لعقيدة الزوجة فى هـــذه الحالـــة ــ بعيـــدًا عـــن المجاملات ــ يكون مفقوداً . وهذا يؤثر سلبًا على العلاقـــة الزوجيـــة ، ولا يحقق " المودة والرحمة " المطلوبة فى العلاقة الزوجية .

الشبهة التاسعة والثلاثون بعد المائة

هل صحيح أن الإسلام ضد حرية الاعتقاد ؟

الرد على الشبهة :

١ ــ لقد كفل الإسلام للإنسان حرية الاعتقاد . وجاء ذلك فى وضوح تام فى القرآن الكريم : ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾ (١) . فلا يجوز إرغام أحد على تــرك دينه واعتناق دين آخر . فحرية الإنسان فى اختيار دينه هى أساس الاعتقاد . ومن هنا كان تأكيد القرآن على ذلك تأكيدًا لا يقبل التأويل فى قوله : ﴿ **فمــن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ (٢) .

٢ ــ وقد أقر النبى ﷺ الحرية الدينية فى أول دستور للمدينة حينما اعــترف لليهود بأنهم يشكلون مع المسلمين أمة واحدة .

ومن منطلق الحرية الدينية التى يضمنها الإسلام كان إعطــاء الخليفــة الثانى عمر بن الخطاب للمسيحيين من سكان القدس الأمان " علــى حياتــهم وكنائسهم وصلبانهم ، لا يضار أحد منهم ولا يرغم بسبب دينه " .

٣ ــ لقد كفل الإسلام أيضًا حرية المناقشات الدينية على أساس موضوعــى بعيد عن المهاترات أو السخرية من الآخرين . وفى ذلــك يقــول القــرآن : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحســنة وجادلــهم بــالتى هــى أحسن** ﴾ (٣). وعلى أساس من هذه المبادئ السمحة ينبغى أن يكون الحــوار

---

(١) البقرة : ٢٥٦ . (٢) الكهف : ٢٩ . (٣) النحل : ١٢٥ .

بين المسلمين وغير المسلمين ، وقد وجه القرآن هذه الدعوة إلى الحوار إلى أهل الكتاب فقال : ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله * فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ (١) . ومعنى هذا أن الحوار إذا لم يصل إلى نتيجة فلكل دينه الذى يقتنع به . وهذا ما عبرت عنه أيضًا الآية الأخيرة من سورة (الكافرون) التى ختمت بقوله تعالى للمشركين على لسان محمد ﷺ : ﴿ **لكم دينكم ولى دين** ﴾ (٢) .

٤ ــ الاقتناع هو أساس الاعتقاد : فالعقيدة الحقيقية هى التى تقوم على الإقناع واليقين ، وليس على مجرد التقليد أو الإرغام . وكل فرد حر فى أن يعتقد ما يشاء وأن يتبنى لنفسه من الأفكار ما يريد ، حتى ولو كان ما يعتقده أفكاراً إلحادية . فلا يستطيع أحد أن يمنعه من ذلك طالما أنه يحتفظ بهذه الأفكار لنفسه ولا يؤذى بها أحدًا من الناس . أما إذا حاول نشر هذه الأفكار التى تتناقض مع معتقدات الناس ، وتتعارض مع قيمهم التى يدينون لها بالولاء ، فإنه بذلك يكون قد اعتدى على النظام العام للدولة بإثارة الفتنة والشكوك فى نفوس الناس . وأى إنسان يعتدى على النظام العام للدولة فى أى أمة من الأمم يتعرض للعقاب ، وقد يصل الأمر فى ذلك إلى حد تهمة الخيانة العظمى التى تعاقب عليها معظم الدول بالقتل . فقتل المرتد فى الشريعة الإسلامية ليس لأنه ارتد فقط ولكن لإثارته الفتنة والبلبلة وتعكير النظام العام فى الدولة الإسلامية . أما إذا ارتد بينه وبين نفسه دون أن ينشر ذلك بين الناس ويثير الشكوك فى نفوسهم فلا يستطيع أحد أن يتعرض له بسوء ، فالله وحده هو المطلع على ماتخفى الصدور .

---

(١) آل عمران : ٦٤ .

(٢) الكافرون : ٦ .

وقد ذهب بعض العلماء المحدثين إلى أن عقاب المرتد ليس فى الدنيـــا وإنما فى الآخرة ، وأن ما حدث من قتل للمرتدين فى الإسلام بنـــاء علـــى بعض الأحاديث النبوية فإنه لم يكن بسبب الارتداد وحـــده ، وإنمـــا بســـبب محاربة هؤلاء المرتدين للإسلام والمسلمين [1] .

---

(١) راجع : الحرية الدينية فى الإسلام للشيخ عبد المتعال الصعيدى ص ٣،٧٢، ٧٣، ٨٨ ــ دار الفكـــر العربى ــ الطبعة الثانية (دون تاريخ) .

الشبهة الأربعون بعد المائة

ما موقف الإسلام من الديمقراطية وحقوق الإنسان ؟

الرد على الشبهة :

١ ــ يُعد الإسلام أول من نادى بحقوق الإنسان وشدد على ضرورة حمايتها . وكل دارس للشريعة الإسلامية يعلم أن لها مقاصد تتمثل فى حماية حياة الإنسان ودينه وعقله وماله وأسرته . والتاريخ الإسلامى سجل للخليفة الثانى عمر بن الخطاب مواجهته الحاسمة لانتهاك حقوق الإنسان وقوله فى ذلك : " **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا** " ؟ .

٢ ــ تنبنى حقوق الإنسان فى الإسلام على مبدأين أساسيين هما : مبدأ المساواة بين كل بنى الإنسان ، ومبدأ الحرية لكل البشر . ويؤسس الإسلام مبدأ المساواة على قاعدتين راسختين هما : وحدة الأصل البشرى ، وشمول الكرامة الإنسانية لكل البشر . أما وحدة الأصل البشرى فإن الإسلام يعبر عنها بأن الله قد خلق الناس جميعًا من نفس واحدة . فالجميع إخوة فى أسرة إنسانية كبيرة لا مجال فيها لامتيازات طبقية . والاختلافات بين البشر لا تمس جوهر الإنسان الذى هو واحد لدى كل البشر . ومن هنا فهذه الاختلافات ينبغى ــ كما يشير القرآن الكريم ــ أن تكون دافعًا إلى التعارف والتآلف والتعاون بين الناس وليس منطلقًا للنزاع والشقاق : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا * إن أكرمكم**

عند الله أتقاكم ﴾ [1] .

أما القاعدة الأخرى للمساواة فهى شمول الكرامة الإنسانية لكل البشـــر وقد نص القرآن على ذلك فى قوله : **﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾** [2]. فالإنســـان بهذا التكريم جعله الله خليفة فى الأرض ، وأسجد له ملائكته ، وجعله ســـيدًا فى هذا الكون ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض . فالإنسان بذلـــك له مكانته ومكانه المفضل بين الخلق جميعًا . وقد منح الله هذه الكرامة لكـــل الناس بلا استثناء لتكون سياجًا من الحصانة والحماية لكل فرد مـــن أفـــراد الإنسان ، لا فرق بين غنى وفقير وحاكم ومحكوم . فالجميع أمام الله وأمـــام القانون وفى الحقوق العامة سواء .

أما المبدأ الثانى الذى ترتكز عليه حقوق الإنسان فهو مبدأ الحرية . فقـد جعل الله الإنسان كائنًا مكلفًا ومسئولاً عن عمارة الأرض وبنـــاء الحضـــارة الإنسانية . وليست هناك مسئولية دون حرية ، حتى فى قضية الإيمان والكفر التى جعلها الله مرتبطة بمشيئة الإنسان **﴿ فمن شاء فليؤمـــن ومـــن شـــاء فليكفر ﴾** [3] . وهكذا تشمل الحرية كل الحريات الإنسانية دينيـــة كـــانت أم سياسية أم فكرية أم مدنية .

٣ ــ الحكم فى تعاليم الإسلام لابد أن يقوم على أساس من العدل والشورى . وقد أمر الله الناس فى القرآن بالعدل وألزمهم بتطبيقه **﴿ إن الله يأمر بـــالعدل والإحسان ﴾** [4] . **﴿ وإذا حكمتم بيـــن النـــاس أن تحكمـــوا بـــالعدل ﴾** [5] . والآيات فى ذلك كثيرة . أما الشورى فهى مبدأ أساسى ملزم . وكان النبى ﷺ يستشير أصحابه ويأخذ برأى الأغلبية وإن كان مخالفًا لرأيه . وأظهر مثل

---

(١) الحجرات : ١٣ .
(٢) الإسراء : ٧٠ .
(٣) الكهف : ٢٩ .
(٤) النحل : ٩٠ .
(٥) النساء : ٥٨ .

على ذلك خروج المسلمين إلى غزوة أُحد . فقد كان الرسول يرى عدم الخروج ، ولكن الأكثرية كانت ترى الخروج . فنزل على رأيهم وخرج ، وكانت الهزيمة للمسلمين . ومع ذلك شدد القرآن على ضرورة الشورى فقال مخاطبًا النبى : ﴿ **فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر** ﴾ (١) . ولا يلتفت فى هذا الصدد إلى رأى قلة من الفقهاء الذين يزعمون أن الشورى غير ملزمة . فهذا الزعم مخالف للنصوص الدينية الصريحة .

وقد ترك الإسلام للمسلمين حرية اختيار الشكل الذى تكون عليه الشورى طبقا للمصلحة العامة . فإذا كانت المصلحة تقتضى أن تكون الشورى بالشكل المعروف الآن فى الدول الحديثة فالإسلام لا يعترض على ذلك . وكل ما فى الأمر هو التطبيق السليم مع المرونة طبقا لظروف كل عصر وما يستجد من تطورات محلية أو دولية .

ومن ذلك يتضح مدى حرص الإسلام على حقوق الإنسان وصيانتها ، وحرصه على التطبيق السليم لمبدأ الشورى أو الديمقراطية بالمفهوم الحديث .

٤ ــ الإسلام أتاح الفرصة لتعددية الآراء ، وأباح الاجتهاد حتى فى القضايا الدينية طالما توافرت فى المجتهد شروط الاجتهاد . وجعل للمجتهد الذى يجتهد ويخطئ أجرا وللذى يجتهد ويصيب أجران . والدارس لمذاهب الفقه الإسلامى المعروفة يجد بينها خلافا فى وجهات النظر فى العديد من القضايا . ولم يقل أحد : إن ذلك غير مسموح به . ومن هنا نجد أن الإسلام يتيح الفرصة أمام الرأى الآخر ليعبر عن وجهة نظره دون حرج مادام الجميع يهدفون إلى ما فيه خير المجتمع والحفاظ على أمنه واستقراره .

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

الشبهة الحادية والأربعون بعد المائة

ما موقف الإسلام من الفنون ؟

الرد على الشبهة :

١ ــ الإسلام دين يحب الجمال ويدعو إليه فى كـــل شـــىء . والنبـــى ﷺ يقول : **[إن الله جميل يحب الجمال]** (١) . والفن هو فى حقيقته إبداع جمالى لا يعاديه الإسلام . وغاية ما فى الأمر أن الإسلام يجعل الأولويـــة للمبـــدأ الأخلاقى على المبدأ الجمالى ، بمعنى أنه يجعل الثانى مترتبًـــا علـــى الأول ومرتبطًا به . وهذا هو الموقف المبدئى للإسلام إزاء جميع أشكال الفنـــون . وهناك معيار إسلامى للحكم على أى فن من الفنون يتمثل فى قاعدة تقـــول : **حَسَنُه حسن وقبيحه قبيح** .

والقرآن الكريم فى العديد من آياته يلفت الأنظار إلى ما فى الكون مـــن تناسق وإبداع وإتقان ، وما يتضمنه ذلـــك مـــن جمـــال وبهجـــة وســـرور للناظرين (٢) . ومن هنا لا يعقل أن يرفض الإسلام الفن إذا كـــان جميـــلاً . أما إذا اشتمل على القبح بما يعنيه ذلك من قبح مادى ومعنوى فإن الإســـلام يرفضه ولا يوافق عليه .

٢ ــ وترتيبًا على ما تقدم فإن الفن إذا كان هدفه المتعة الذهنيـــة ، وترقيـــق الشعور ، وتهذيب الأحاسيس ، فلا اعتراض عليه . ولكن إذا خرج عن ذلـــك وخاطب الغرائز الدنيا فى الإنسان ، وخرج عن أن يكون فنًـــا هادفًـــا فإنـــه

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان .

(٢) انظر : الحجر : ١٦ ، النحل : ٦ ، فصلت : ١٢ .

حينئذ لا يساعد على بناء الحياة ، بل يعمل على هدمها ، وبذلك يخرج عن أن يكون فنًّا ، بل يصير نوعًا من اللهو المذموم والعبث المرفوض . وهذا أمر لا يقره الإسلام .

٣ ــ إذا كانت الموسيقى والغناء تحمل إلينا ألحانًا جميلة وكلمات مهذبة وأنغامًا راقية ، وأصواتًا جميلة ، فذلك لا يرفضه الإسلام طالما كان في إطار المبدأ الأخلاقى ، أى طالما كان هدف الفن هو السمو بالإنسان وبأحاسيسه ووجدانه ومشاعره . وقد امتدح النبى ﷺ صوت أبى موسى الأشعرى ــ وكان صوته جميلاً ــ وهو يتغنى بالقرآن . وكان النبى يختار من بين أصحابه للأذان أجملهم صوتًا . وقد سمع النبى ﷺ صوت الدف والمزمار دون تحرج . وفى يوم عيد دخل أبو بكر على ابنته عائشة زوجة الرسول ولديها جاريتان تغنيان وتضربان بالدفوف فاعترض أبو بكر على ذلك . ولكن النبى ﷺ رفض ما أبداه أبو بكر من احتجاج فى هذا الصدد قائلاً : **[دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد]** (١) . وقد أوصى النبى ﷺ نفسه السيدة عائشة أن ترسل من يغنى فى حفل زفاف قريبة لها زُفت إلى رجل من الأنصار .

وهناك مرويات أخرى عديدة عن النبى ﷺ تبين أن الغناء والموسيقى ليسا من المحرمات فى الإسلام ما لم يصحبهما أمور منكرة غير أخلاقية (٢).

٤ ــ أما الرقص : فالإسلام يفرق فيه بين رقص المرأة ورقص الرجل . فالرقصات الشعبية التى يؤديها الرجال مثلاً لا ضير فيها ، وقد سمح النبى ﷺ للسيدة عائشة بمشاهدة الأحباش وهم يرقصون فى يوم عيد .

---

(١) متفق عليه .

(٢) راجع : الحلال والحرام فى الإسلام للدكتور القرضاوى ص ٢٩١ وما بعدها ــ الدوحة ، قطر ١٩٧٨م ، والشيخ محمد الغزالى : مائة سؤال عن الإسلام ج١ ص ١٧٤ وما بعدها .

ورقص المرأة أمام النساء لا حرج فيه . أما رقصها أمـــام الرجـــال فذلـــك لا يقره الإسلام لما فيه من محاذير كثيرة .

٥ ــ أما التمثيل فإنه ليس حرامًا مادام فى إطار المبدأ الأخلاقى ، ولا ينكـــر أحد ما للتمثيل الهادف من دور فعال فى معالجة الكثـــيز مـــن المشـــكلات والقضاء على العديد من السلبيات فى المجتمع . ولا حرج أيضًا أن يشـــتمل التمثيل على ألوان من اللهو البرئ والترويح المقبول والترفيه الذى لا يخـــرج عن نطاق المعقول . وكذلك التصوير لا ضير فيه ، بل أصبح فـــى حياتنـــا المعاصرة يمثل فى أحيان كثيرة ضرورة لا غنى عنها .

٦ ــ أما النحت أو التماثيل المجسمة فهناك نصوص واضحة فى تحريمـــها . ويرجع السبب فى تحريم الإسلام لذلك بالدرجة الأولى إلى ما يخشـــى مـــن توقير هذه التماثيل أو عبادتها كما كان يفعل عباد الأصنام قديمًا . فإذا لم يكن ذلك وارداً على الإطلاق نظرًا لارتفاع درجة الوعى لدى الناس فلا ضـــرر منه ولا حرج فيه لانعدام سبب التحريم . غير أن الإسلام مـــن بـــاب ســـد الذرائع لا يريد أن يفتح هذا الباب لما يمكن أن يترتب عليه من محاذير فـــى أزمنة مستقبلية . فالإسلام يشرع لكل الأجيال ولمختلـــف العصـــور . ومـــا يستبعد فى بيئة قد يقبل فى أخرى ، وما يعتبر مستحيلاً فى عصر قد يصبـــح حقيقة واقعة فى عصر آخر قريب أو بعيد .

الشبهة الثانية والأربعون بعد المائة

ما أسباب تفرق المسلمين رغم دعوة الإسلام للوحدة ؟

الرد على الشبهة :

١ ــ لا ينكر أحد أن الشعوب الإسلامية فـــى عصرنـــا الحـــاضر متفرقـــة ومتنازعة فيما بينها ، فهذا واقع ملموس لا يحتاج إلى برهان . ولكـــن هـــذا يُعد مرحلة فى تاريخ المسلمين شأنهم فى ذلك شأن بقية الشـــــعوب والأمـــم الأخرى . ولا يعنى ذلك أنهم سيظلون كذلك إلى الأبد . وكمـــــا اســـتطاعت الشعوب الأوروبية أن تتغلب على عوامل الفرقة والتنازع فيما بينها والتـــــى أدت إلى حربين عالميتين شهدهما القرن العشرون ــ فإن الشعوب الإسلامية سوف تستطيع فى مستقبل الأيام أن تتغلب أيضًا على عوامل الفرقـــــة فيمـــا بينها ، والبحث عن صيغة ملائمة للتعـــاون المثمـــر مـــن أجـــل مصلحـــة المجتمعات الإسلامية كلها .

وهناك محاولات مستمرة فى هذا الصدد وإن كانت بطيئة وذات تـــأثير محدود ومتواضع مثل منظمة المؤتمر الإسلامى التـــى تضـــم كـــل الـــدول الإسلامية ؛ إلا أنه يمكن تطوير العمل فى هذه المنظمة وغيرها من منظمات إسلامية أخرى للوصول بها إلى مرحلة متقدمة من التعاون الأوثق . وللأمـــة الإسلامية فى تعاليم الإسلام فى الوحدة والتعاون والتآلف والتكافل أعظم ســند يضمن لها نجاح هذه المحاولات فى مستقبل الأيام .

٢ ــ فالإسلام فى مصادره الأصلية يدعو إلى الوحدة والتضامن ويحذر من الفرقة والتنازع ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا** ﴾ (١) ، ويدعو إلى الشعور بآلام الآخرين والمشاركة فى تخفيفها ، ويجعل الأمة كلها مثل الجسد الواحد ــ كما يقول النبى ﷺ ــ **[إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى]** (٢) . ويعتبر الإسلام رابطة العقيدة بمنزلة رابطة الأخوة : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ (٣) . وحينما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار ، فأصبحوا إخوة متحابين متضامنين فى البأساء والضراء . وآيات القرآن وأحاديث النبى ﷺ فى ذلك أكثر من أن تحصى .

٣ ــ هناك أسباب خارجية كثيرة أدت إلى الانقسام والفرقة بين المسلمين فى العصر الحديث . وترجع هذه الأسباب فى قدر كبير منها إلى الفترة التى هيمن فيها الاستعمار على بلاد العالم الإسلامى . وعندما رحل ترك مشكلات عديدة كان هو سببًا فيها مثل مشكلات الحدود ، وكانت القاعدة التى على أساسها خطط لسياساته هى مبدأ : " **فَرِّق تَسُد** " . ومن هنا عمل على إحياء العصبيات العرقية بين شعوب البلاد المستعمَرة . وقام بنهب خيرات هذه البلاد ، وأدى ذلك إلى إفقارها وتخلفها الحضارى الذى لا تزال آثاره باقية حتى اليوم . ولا تزال معظم شعوب العالم الإسلامى تعانى من المشكلات التى خلفها الاستعمار .

٤ ــ انشغل المسلمون بالمشكلات الكثيرة التى خلفها الاستعمار وغفلوا عن تعاليم الإسلام فى الوحدة والتضامن .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) رواه الإمام مسلم وغيره (راجع : فيض القدير ج٥ ص ٥١٤ وما بعدها) .

(٣) الحجرات : ١٠ .

ولكن الشعوب الإسلامية لا تزال تحن إلى وحدة جهودها ، وتضامنـــها فيما بينها ، وتجميع قواها فى سبيل الخير لهذه الشعوب جميعها . ولا يـــزال المسلم فى أى بلد إسلامى يشعر بآلام المسلمين فىمناطق العـــالم المختلفـــة بوصفه جزءاً من الأمة الإسلامية . وهذا من شأنه أن يعمـــل علـــى توفـــير أساس راسخ لمحاولات إعادة التضامن والوحدة بين أقطار العالم الإسلامى ، بمعنى توحيد الجهود والتكامل فيما بينها فـــى ميـــادين الثقافـــة والاقتصـــاد والسياسة والأمن ، وتبادل الخبرات والمنافع ، وكل ما يعود على المســـلمين بالخير ، مما يجعلهم أقدر على القيام بدور فعّال فى ترسيخ قواعـــد الســـلام والأمن فى العالم كله .

الشبهة الثالثة والأربعون بعد المائة

هل الإسلام مسئول عن تخلف المسلمين ؟

الرد على الشبهة :

١ ــ حقائق التاريخ تبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام قد استطاع بعد فترة زمنية قصيرة من ظهوه أن يقيم حضارة رائعة كانت من أطول الحضارات عمرًا فى التاريخ . ولا تزال الشواهد على ذلك ماثلة للعيان فيما خلفه المسلمون من علم غزيز فى شتى مجالات العلوم والفنون ، وتضم مكتبات العالم آلافًا مؤلفة من المخطوطات العربية الإسلامية تبرهن على مدى ما وصل إليه المسلمون من حضارة عريقة . يضاف إلى ذلك الآثار الإسلامية المنتشرة فى كل العالم الإسلامى والتى تشهد على عظمة ما وصلت إليه الفنون الإسلامية .

وحضارة المسلمين فى الأندلس وما تبقى من معالمها حتى يومنا هذا شاهد على ذلك فى أوروبا نفسها . وقد قامت أوروبا بحركة ترجمة نشطة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر لعلوم المسلمين . وكان ذلك هو الأساس الذى بنت عليه أوروبا حضارتها الحديثة .

٢ ــ يشتمل القرآن الكريم على تقدير كبير للعلم والعلماء وحث على النظر فى الكون ودراسته وعمارة الأرض . والآيات الخمس الأولى التى نزلت من الوحى الإلهى تنبه إلى أهمية العلم والقراءة والتأمل [١] . وهذا أمر كانت له

---

(١) العلق : ١ــ٥ .

دلالة هامة انتبه إليها المسلمون منذ البداية . وهكذا فإن انفتاح الإسلام على التطور الحضارى بمفهومه الشامل للناحيتين المادية والمعنوية لا يحتاج إلى دليل .

٣ ــ أما تخلف المسلمين اليوم فإن الإسلام لا يتحمل وزره ، لأن الإسلام ضد كل أشكال التخلف . وعندما تخلف المسلمون عن إدراك المعانى الحقيقية للإسلام تخلفوا فى ميدان الحياة . ويعبر مالك بن نبى ــ المفكر الجزائرى الراحل ــ عن ذلك تعبيرًا صادقًا حين يقول : " إن التخلف الذى يعانى منه المسلمون اليوم ليس سببه الإسلام ، وإنما هو عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يظن بعض الجاهلين " . فليست هناك صلة بين الإسلام وتخلف المسلمين .

٤ ــ لا يزال الإسلام وسيظل منفتحاً على كل تطور حضارى يشتمل على خير الإنسان . وعندما يفتش المسلمون عن الأسباب الحقيقية لتخلفهم فلن يجدوا الإسلام من بين هذه الأسباب ، فهناك أسباب خارجية ترجع فى جانب كبير منها إلى مخلفات عهود الاستعمار التى أعاقت البلاد الإسلامية عن الحركة الإيجابية ، وهذا بدوره ــ بالإضافة إلى بعض الأسباب الداخلية ــ أدى أيضا إلى نسيان المسلمين للعناصر الإيجابية الدافعة لحركة الحياة فى الإسلام .

٥ ــ لا يجوز الخلط بين الإسلام والواقع المتدنى للعالم الإسلامى المعاصر . فالتخلف الذى يعانى منه المسلمون يعد مرحلة فى تاريخهم ، ولا يعنى ذلك بأى حال من الأحوال أنهم سيظلون كذلك إلى نهاية التاريخ . ولا يجوز اتهام الإسلام بأنه وراء هذا التخلف ، كما لا يجوز اتهام المسيحية بأنها وراء تخلف دول أمريكا اللاتينية .

إن الأمانة العلمية تقتضي أن يكون الحكم على موقف الإسلام من الحضارة مبنيًّا على دراسة موضوعية منصفة لأصول الإسلام وليس على أساس إشاعات واتهامات وأحكام مسبقة لا صلة لها بالحقيقة .

الشبهة الرابعة والأربعون بعد المائة

هل صحيح أن الصوم يقلل حركة الإنتاج ؟

الرد على الشبهة :

١ ــ الصوم من العبادات التى لم ينفرد بها الإسلام . فقد أخبر القرآن الكريم أن الصوم كان مفروضًا أيضًا على الأمم السابقة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم** ﴾ (١) . ولا تزال هناك ديانات أخرى حتى يومنا هذا تَعرِف شعيرة الصوم . ولكن هناك فرقًا واضحًا بين الصوم فى الإسلام والصوم فى غيره من الديانات . ويتمثل هذا الفرق فى أن الصوم فى الإسلام يأتى فى شهر معين من العام طبقًا للتقويم الهجرى ، ويبدأ صيام كل يوم بالامتناع التام عن الطعام والشراب وعن كل الشهوات من طلوع الفجر حتى غروب الشمس . وهذا يعنى أن المسلم يقضى نهار يومه كله ــ وهو وقت العمل المعتاد ــ وهو صائم على النحو المشار إليه . ولعل هذا هو السبب الذى من أجله يتوهم البعض أن الصوم الإسلامى بهذه الطريقة يقلل حركة الإنتاج لدى الفرد والمجتمع .

٢ ــ والصوم فى حقيقة الأمر برئ من هذه التهمة . فالصوم يفترض فيه أنه يعمل على تصفية النفوس والتسامى بالأرواح . وهذا من شأنه أن يمد الفرد بطاقة روحية تجعله أقدر على الإنتاج والعمل أكثر مما لو لم يكن صائمًا . وهذه الطاقة الروحية قوة لا يستهان بها. وقد حارب المسلمون فى غزوة بدر

---

(١) البقرة : ١٨٣ .

أيام الرسول ﷺ وهم صائمون وانتصروا ، وحارب الجنود المصريون عـــام ١٩٧٣م وهم صائمون حيث كان ذلك فى شهر رمضان وانتصروا . ولم يقلل الصوم من نشاطهم ، بل كان العكس هو الصحيح تمامًا .

٣ ــ ما نراه فى بعض البلاد الإسلامية من قلة الإنتاج فى شـــهر الصـــوم يرجع إلى أسباب أخرى غير الصوم . فمن عادة الكثيرين أن يظلوا متيقظين فى شهر الصوم معظم الليل . ولا يأخذون قسطًا كافيًا من النـــوم ، فنجدهـــم ــ نظرًا لذلك ــ متعبين أثناء النهار . ومن هنا يقل إنتاجهم ، ويقبلون علـــى أعمالهم ببطء وفى تثاقل . ويعتذرون عن ذلك بأنهم صائمون . وقد يكـــون اعتذارهم هذا فى أول النهار . فلو كان للصوم أى تأثير على النشاط ــ كمـــا يزعمون ــ فإن ذلك لا يكون فى أول النهار ، بل يكون فى فـــترة متـــأخرة منه .

٤ ــ لقد ثبت أن للصوم فوائد كثيرة صحية وروحية واجتماعية وتربويـــة . فالمفروض أنه فرصة سنوية للمراجعة والتأمل والتقييم والنقد الذاتـــى علـــى المستويين الفردى والاجتماعى بهدف القضاء على السلبيات والتخلص مـــن الكثير من الأمراض الاجتماعية ، وهذا من شأنه أن يدفع حركـــة المجتمـــع بخطى أسرع ، وبإخلاص أكثر ، وبوعى أفضل .

الشبهة الخامسة والأربعون بعد المائة

هل صحيح أن الزكاة تتيح للغنى فرصة عند الله أفضل من فرصة الفقير ؟

الرد على الشبهة :

١ ــ تُعد الزكاة فى الإسلام أول ضريبة نظامية فى تاريخ الاقتصـــاد فـــى العالم . فالذى كان يحدث قبل ذلك هو أن الحكام كانوا يفرضون الضرائـــب حسب أهوائهم ، وبقدر حاجتهم إلى الأموال تحقيقًا لأغراضهم الشـــخصية . وكان عبء هذه الضرائب يقع على كاهل الفقراء أكثر مما يقع على كـــاهل الأغنياء ، أو يقع على كاهل الفقراء وحدهم . ولما جاء الإســـلام وفـرض الزكاة قام بتنظيم جمعها وحدد لها نسبة معينة ، وجعلها تقـــع علـــى عـــاتق الأغنياء والمتوسطين ، وأعفى منها الفقراء [1] . وتشريع الزكاة ليس فقـــط نظامًا ماليًا ، وإنما هو فى الوقت نفسه عبادة كالصلاة والصيـــام والحـــج ، يؤديها المسلم القادر على دفعها ، ليس خوفًا من السلطة التنفيذيـــة ، ولكـــن تقربًا إلى الله واستجابة لتعاليم دينه .

٢ ــ شعر الفقراء فى زمن الرسول ﷺ بعجزهـــم عـــن أداء الزكـــاة مثـــل الأغنياء . ورأوا أن هذا من شأنه أن يعطى للأغنياء ميزة الحصـــول علـــى الثواب من الله بأدائهم للزكاة وحرمان الفقراء من هذا الثواب مع أنه لا ذنـــب

---

(١) راجع : محمد قطب : شبهات حول الإسلام ــ ص٩١ ــ مكتبة وهبة سنة ١٩٦٠م .

لهم فى فقرهم . وقام الفقراء بعرض ما يشعرون به على النبى ﷺ ، فأوصاهم بالتسبيح والتحميد والتكبير (أى بقول سبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر) ثلاثًا وثلاثين مرة عقب كل صلاة ، وبين لهم أن هذا من شأنه أن يرفع من درجاتهم عند الله ويجعل منزلتهم عنده لا تقل عن منزلة الأغنياء الذين يؤدون الزكاة [1] .

٣ ــ المعيار الذى اعتمده القرآن فى المفاضلة بين الناس بصفة عامة هو معيار التقوى والعمل الصالح كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ [2] . والتقوى مفهوم عام يشمل كل عمل يقوم به الإنسان ــ أيًّا كان هذا العمل دينيًا أم دنيويًا ــ طالما قصد به وجه الله ونفع الناس ودفع الأذى عنهم . فالقرب من الله لا يتوقف على أداء الزكاة أو غيرها من الشعائر الإسلامية فحسب ، بل يتوقف أيضًا على التوجه العام من جانب الإنسان فى كل ما يقوم به فى حياته من أعمال ، وما يصدر عنه من سلوك وما يخرج من فمه من أقوال . والإسلام يعلق أهمية كبيرة على النية . فالأعمال بالنيات كما يقول النبى ــ عليه الصلاة والسلام ــ [**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**] [3] . وهذا يعنى أن الفقير الذى لا يستطيع إخراج الزكاة ويتمنى أن لو كان لديه مال ليزكى به فإنه يثاب على هذه النية مادامت صادقة . وقد يُخرج الغنى الزكاة ويقصد من وراء ذلك التظاهر أمام الناس والحصول على مكانة بينهم فلا يثاب على ذلك بشىء .

---

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج٢ ص ٣٢٥ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى . المطبعة السلفية .

(٢) الحجرات : ١٣ .

(٣) البخارى . باب الوحى رقم ١ ، والإيمان ٤١ ، والنكاح ٥ ، والطلاق ١١ ، والترمذى فضائل الجهاد ١٦ ، والنسائى طهارة ٥٩ .

الشبهة السادسة والأربعون بعد المائة

لماذا حرّم الإسلام أكل لحم الخنزير ؟

الرد على الشبهة :

١ ــ لم يكن الإسلام أول الأديان التى حرمت أكل لحم الخــنزير . فالديانــة اليهودية تحرّم أكل لحم الخنزير . ولا يوجد حتى الآن يهودى فــى أوروبــا وأمريكا يأكل لحم الخنزير إلا فيما ندر . ولم يعب أحد على اليهود ذلك ، بل يحترم الغرب العادات الدينية لليهود . وعندما جاء السيد المســيح ــ عليــه السلام ــ صرح ــ كما جاء فى الإنجيل ــ بأنه لم يأت لينقض الناموس بــل ليكمله ، أى أنه لم يأت ليغير التشريعات اليهودية . ومن بينها بطبيعة الحــال تحريم أكل لحم الخنزير . والأمر المنطقى بناء على ذلك أن يكون الخــنزير محرما فى المسيحية أيضا [١] .

٢ ــ عندما جاء الإسلام حرم أيضا أكل لحم الخنزير . وهذا التحريم امتــداد لتحريمه فى الديانات السماوية السابقة . وقد نص القرآن الكريم عليه صراحة فى أربعة مواضع [٢] . وهناك من ناحية أخرى ــ بجــانب هــذا التحريــم الدينى ــ أسباب ومبررات أخرى تؤكد هذا التحريم . ومن ذلك مــا أثبتــه العلماء المسلمون من أن أكل لحم الخنزير ضار بالصحــة ولا ســيما فــى المناطق الحارة . وفضلا عن ذلك فإن الآيات القرآنية التى ورد فيها تحريــم لحم الخنزير قد جمعت هذا التحريم مع تحريم أكل الميتة والــدم . وضــرر

---

(١) راجع : الحلال والحرام للدكتور القرضاوى ص٤٢ ــ قطر ١٩٧٨م .

(٢) البقرة : ١٧٣ ، والمائدة : ٣ ، والأنعام : ١٤٥ ، والنحل : ١١٥ .

أكل الميتة والدم محقق لما يتجمع فيهما من ميكروبات ومواد ضارة ، ممـــا يدل على أن الضرر ينسحب أيضا على أكل لحم الخنزير .

وإذا كانت الوسائل الحديثة قد تغلبت على ما فى لحم الخـــنزير ودمـــه وأمعائه من ديدان شديدة الخطورة (الدودة الشريطية وبويضاتها المتكلســة) فمن الذى يضمن لنا بأنه ليست هناك آفات أخرى فى لحم الخنزير لم يكشـف عنها بعد ؟ فقد احتاج الإنسان قرونا طويلة ليكشف لنا عن آفة واحــدة . والله الذى خلق الإنسان أدرى به ويعلم ما يضره وما ينفعه . ويؤكد لنا القرآن هذه الحقيقة فى قوله : ﴿ **وفوق كل ذى علم عليم** ﴾ (١) .

٣ ــ يحسب الإسلام حساب الضرورات فيبيح فيها المحرمات . وفى ذلـــك قاعدة مشهورة تقول : " **الضرورات تبيح المحظورات** " . ومـــن هنـــا فـــإن المسلم إذا ألجأته الضرورة الملحة ــ التى يخشى منها على حياته ــ لتنـــاول الأطعمة المحرمة ومنها الخنزير فلا حرج عليه . كما يشير إلى ذلك القـــرآن الكريم : ﴿ **فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه** ﴾ (٢) . ولكـــــن هـــذه الإباحة لا يجوز أن تتعدى حدود تلك الضرورة وإلا كان المسلم آثما .

---

(١) يوسف : ٧٦ .

(٢) البقرة : ١٧٣ .

الشبهة السابعة والأربعون بعد المائة

لماذا حرم الإسلام الحرير والذهب على الرجال ؟

الرد على الشبهة :

١ ــ يعتمد القول بتحريم لبس الحرير والتختم بالذهب للرجال فى الإســـلام على العديد من المرويات عن النبى ﷺ ــ كما ذهــب إلــى ذلــك جمــهور العلماء ــ وتتلخص وجهة نظرهم فى أن من طبيعة الرجل الصلابة والقوة . والإسلام يريد أن يتربى الرجال بعيدا عن مظاهر الضعف ، وبعيــدا أيضــا عن مظاهر الترف الذى يحاربه الإسلام ويعده مظهرا من مظـــاهر الظلــم الاجتماعى ، وذلك حتى يكون الرجل قادرا على الكفـــاح والانتصـــار فـــى معارك الحياة وميادين القتال أيضا إذا اقتضى الأمر . ولمـــا كـــان الـــتزين بالذهب وارتداء الحرير يعدان من مظاهر الترف فقد حرمهما الإسلام علـــى الرجال . ولكنه أباحهما للمرأة مراعاة لمقتضى أنوثتها وما فطـــرت عليــه من حب للزينة [١] .

٢ ــ وعلى الرغم من هذا التحريم فإنه إذا كانت هنـــاك ضـــرورة صحيـــة تقضى بلبس الرجل للحرير فإن الإسلام يبيح له ذلك ولا يمنعـــه . فقـــد أذن

---

(١) راجع : الحلال والحرام فى الإسلام للدكتور القرضاوى ص ٨٠ ومـــا بعدهـــا ــ الدوحـــة ــ قطـــر ١٩٧٨م .

النبى ﷺ لكل من عبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام فى لبس الحريـــر لأنهما كانا يشكوان من حكة فى جسمهما [١] .

٣ ــ وقد ذهب الإمام الشوكانى (توفى حوالى عـــام ١٨٤٠م) فـــى كتابـــه الشهير " نيل الأوطار " إلى القول بأن أحاديث النبى ﷺ فى النهى عن لبـــس الحرير تدل على الكراهية فقط وليس على التحريم . والكراهية هنا درجـــة أخف من التحريم . ويقوى الشوكانى رأيه هذا بأن هناك مـــا لا يقـــل عـــن عشرين صحابيا منهم أنس والبراء بن عازب قد لبسوا الحرير . ومن غـــير المعقول أن يقدم هؤلاء الصحابة على ما هو محرم ، كما يبعـــد أيضـــا أن يسكت عنهم سائر الصحابة وهم يعلمون تحريمه [٢] .

٤ ــ أما التختم بالذهب أى اتخاذه كخاتم ونحوه للرجال فقد ذهـــب جمـــهور العلماء إلى تحريمه أيضا اعتمادا على بعض الأحاديث النبوية . ولكن هنـــاك جماعة من العلماء ذهبوا إلى القول بكراهة التختم بالذهب للرجـــال كراهـــة تنزيه فقط . وكراهة التنزيه بعيدة عن التحريـــم وقريبـــة مـــن الإباحـــة أو الجواز ، واعتمدوا فى ذلك أيضا على أن هناك عددا من الصحابة قد تختموا بالذهب منهم سعد بن أبى وقاص ، وطلحـــة بـــن عبيـــد الله ، وصـــهيب ، وحذيفة ، وجابر بن سمرة ، والبراء بن عازب . الذيـــن فـــهموا أن النـــهى للتنزيه وليس للتحريم [٣] .

---

(١) راجع : نيل الأوطار للشوكانى ج٢ ص٨١ ــ دار الجيل ، بيروت ١٩٧٣م .

(٢) نيل الأوطار ج٢ ص٧٣ وما بعدها . راجع أيضا : فقه السنة للشيخ سيد سابق ج٣ ص ٤٨١ ومـــا بعدها . بيروت ١٩٧١م .

(٣) راجع : فقه السنة للشيخ سيد سابق ــ المجلد الثالث ص ٤٨٢ وما بعدها ، ٤٨٨ وما بعدها .

الفهرس

الفهـــرس

الموضـــوع		الصفحـة
تقديم الأستاذ الدكتور / محمود حمدى زقزوق وزيـــر الأوقـــاف		٥
بين يدى هذا العمل أ . د / على جمعة محمد		٩
الشبهـة الأولـــى		
جمع القـــرآن	أ . د / عبد العظيم المطعنى	١١
الشبهـة الثانية		
تعدد مصاحف القرآن	أ . د / عبد العظيم المطعنى	٣٦
الشبهـة الثالثة		
تعدد قراءات القرآن	أ . د / عبد العظيم المطعنى	٤١
الشبهـة الرابعة		
الكلام الأعجمى	أ . د / عبد العظيم المطعنى	٥٤
الشبهـة الخامسة		
الكلام العاطل	أ . د / عبد العظيم المطعنى	٥٨
الشبهـة السادسة		
الكلام المتناقض	أ . د / عبد العظيم المطعنى	٦٦
الشبهـة السابعة		
الكلام المفكك	أ . د / عبد العظيم المطعنى	٧٤
الشبهـة الثامنة		
الكلام المكرر	أ . د / عبد العظيم المطعنى	٧٦

الموضـــوع		الصفحـــة
الشبهـة التاسعة		
الكلام المنسوخ	أ . د / عبد العظيم المطعنى	١١٣
الشبهـة العاشرة		
الكلام الغريب	أ . د / عبد العظيم المطعنى	١٣٠
الشبهـة الحادية عشرة		
الكلام المنقول عن غيره	أ . د / عبد العظيم المطعنى	١٣٩
الشبهـة الثانية عشرة		
رفع المعطوف على المنصوب	أ . د / عبد العظيم المطعنى	١٦٦
الشبهـة الثالثة عشرة		
نصب المعطوف على المرفوع	أ . د / عبد العظيم المطعنى	١٧٤
الشبهـة الرابعة عشرة		
نصب الفاعل	أ . د / عبد العظيم المطعنى	١٨٣
الشبهـة الخامسة عشرة		
تذكير خبر الاسم المؤنث	أ . د / عبد العظيم المطعنى	١٨٦
الشبهـة السادسة عشرة		
تأنيث العدد ، وجمع المعدود	أ . د / عبد العظيم المطعنى	١٩٠
الشبهـة السابعة عشرة		
جمع الضمير العائد على المثنى	أ . د / عبد العظيم المطعنى	١٩٣
الشبهـة الثامنة عشرة		
الإتيان باسم الموصول العائد على الجمع مفرداً		
	أ . د / عبد العظيم المطعنى	١٩٦

الموضـــوع	الصفحـــة
الشبهـة التاسعة عشرة	
جزم الفعل المعطوف على المنصوب	
أ . د / عبد العظيم المطعنى	١٩٩
الشبهـة العشرون	
جعل الضمير العائد على المفرد جمعًا	
أ . د / عبد العظيم المطعنى	٢٠٣
الشبهـة الحادية والعشرون	
الإتيان بجمع كثرة فى موضع جمع القلة	
أ . د / عبد العظيم المطعنى	٢٠٧
الشبهـة الثانية والعشرون	
الإتيان بجمع قلة فى موضع جمع كثرة	
أ . د / عبد العظيم المطعنى	٢١٢
الشبهـة الثالثة والعشرون	
جمع اسم علم يجب إفراده أ . د / عبد العظيم المطعنى	٢١٤
الشبهـة الرابعة والعشرون	
الإتيان بالموصول بدل المصدر أ . د / عبد العظيم المطعنى	٢١٨
الشبهـة الخامسة والعشرون	
وضع الفعل المضارع موضع الماضى	
أ . د / عبد العظيم المطعنى	٢٢٣
الشبهـة السادسة والعشرون	
عدم الإتيان بجواب " لمَّا " أ . د / عبد العظيم المطعنى	٢٢٧
الشبهـة السابعة والعشرون	
الإتيان بتركيب أدى إلى اضطراب المعنى	
أ . د / عبد العظيم المطعنى	٢٣٠

الموضـــوع		الصفحـــة
الشبهـة الثامنة والعشرون		
صرف الممنوع من الصرف	أ . د / عبد العظيم المطعنى	٢٣٤
الشبهـة التاسعة والعشرون		
الإتيان بتوضيح الواضح	أ . د / عبد العظيم المطعنى	٢٣٦
الشبهـة الثلاثون		
الالتفاف من المخاطب إلى الغائب قبل تمام المعنى		
	أ . د / عبد العظيم المطعنى	٢٤٢
الشبهـة الحادية والثلاثون		
الإتيان بفاعلين لفعل واحد	أ . د / عبد العظيم المطعنى	٢٤٦
الشبهـة الثانية والثلاثون		
الإتيان بالضمير العائد على المثنى مفرداً		
	أ . د / عبد العظيم المطعنى	٢٥٢
الشبهـة الثالثة والثلاثون		
الإتيان بالجمع مكان المثنى	أ . د / عبد العظيم المطعنى	٢٥٧
الشبهـة الرابعة والثلاثون		
نصب المضاف إليه	أ . د / عبد العظيم المطعنى	٢٦١
الشبهـة الخامسة والثلاثون		
هل تناقض القرآن فى مادة خلق الإنسان		
	أ . د / محمد عمارة	٢٦٣
الشبهـة السادسة والثلاثون		
حول موقف القرآن من الشرك بالله		
	أ . د / محمد عمارة	٢٦٨

الموضـــوع	الصفحـــة
الشبهـة السابعة والثلاثون	
حول عصيان إبليس وهو من الملائكة	
أ . د / محمد عمارة	٢٧٤
الشبهـة الثامنة والثلاثون	
حول عصيان البشر مع أنهم من المخلوقات الطائعة	
أ . د / محمد عمارة	٢٧٧
الشبهـة التاسعة والثلاثون	
حول مادة خلق السموات والأرض	
أ . د / محمد عمارة	٢٨٠
الشبهـة الأربعون	
حول خلاف القرآن للكتاب المقدس فى بعض الاسماء	
أ . د / محمد عمارة	٢٨٥
الشبهـة الحادية والأربعون	
حول تسمية القرآن الكريم مريم " أخت هارون "	
أ . د / محمد عمارة	٢٨٩
الشبهـة الثانية والأربعون	
حول خلاف القرآن للكتاب المقدس فى عصر النمرود	
أ . د / محمد عمارة	٢٩١
الشبهـة الثالثة والأربعون	
حول الإسكندر ذى القرنين أ . د / محمد عمارة	٢٩٤
الشبهـة الرابعة والأربعون	
حول غروب الشمس فى عين حمئة	
أ . د / محمد عمارة	٢٩٦

الموضـــوع		الصفحـــة
	الشبهـة الخامسة والأربعون	
حول حفظ الله للذكر	أ . د / محمد عمارة	٢٩٩
	الشبهـة السادسة الأربعون	
حول تاريخية أو خلود أحكام القرآن		
	أ . د / محمد عمارة	٣٠٧
	الشبهـة السابعة والأربعون	
حول عصمة الرسول ﷺ	أ . د / محمد عمارة	٣١٥
	الشبهـة الثامنة والأربعون	
دعوى خلو الكتب السابقة من البشارة برسول الإسلام		
	أ . د / عبد العظيم المطعنى	٣٢٠
	الشبهـة التاسعة والأربعون	
قوم النبى محمد ﷺ زناة من أصحاب الجحيم		
	أ . د / عبد الصبور مرزوق	٣٤٥
	الشبهـة الخمسون	
مات النبى ﷺ بالسم	أ . د / عبد الصبور مرزوق	٣٥١
	الشبهـة الحادية والخمسون	
تعدد زوجات النبى محمد ﷺ	أ . د / عبد الصبور مرزوق	٣٥٣
	الشبهـة الثانية والخمسون	
محاولة النبى محمد ﷺ الانتحار		
	أ . د / عبد الصبور مرزوق	٣٦٩

الموضـــوع		الصفحـــة
الشبهـة الثالثة والخمسون		
ولادة النبى محمد ﷺ عادية	أ . د / عبد الصبور مرزوق	٣٧٢
الشبهـة الرابعة والخمسون		
يحتاج محمد ﷺ إلى الصلاة عليه		
	أ . د / عبد الصبور مرزوق	٣٧٥
الشبهـة الخامسة والخمسون		
محمد ﷺ أمى فكيف علّم القرآن ؟		
	أ . د / عبد الصبور مرزوق	٣٧٧
الشبهـة السادسة والخمسون		
محمـــد ﷺ يحرّم ما أحـــل الله		
	أ . د /.عبد الصبور مرزوق	٣٧٩
الشبهـة السابعة والخمسون		
تعلم محمد ﷺ من غيـــره	أ . د / عبد الصبور مرزوق	٣٨١
الشبهـة الثامنة والخمسون		
محمد ﷺ يعظم الحجر الأسود		
	أ . د / عبد الصبور مرزوق	٣٨٣
الشبهـة التاسعة والخمسون		
كاد محمد ﷺ أن يفتن	أ . د / عبد الصبور مرزوق	٣٨٥
الشبهـة الستون		
قاتل محمد ﷺ فى الشهر الحرام		
	أ . د / عبد الصبور مرزوق	٣٨٦

الموضـــوع	الصفحـــة
الشبهـة الحادية والستون	
محمد ﷺ مذنب كما فى القرآن	
أ . د / عبد الصبور مرزوق	٣٨٨
الشبهـة الثانية والستون	
الشيطان يوحى إلى محمد ﷺ	
أ . د / عبد الصبور مرزوق	٣٩١
الشبهـة الثالثة والستون	
حول الاستغناء بالقرآن عن السنة	
أ . د / محمد عمارة	٣٩٥
الشبهـة الرابعة والستون	
حول تناقض النقل – القرآن – مع العقل	
أ . د / محمد عمارة	٤٠٠
الشبهـة الخامسة والستون	
الإسلام انتشر بالسيف ويحبذ العنف	
أ . د / عـلى جمعـــة	٤٠٨
الشبهـة السادسة والستون	
هل الجبال تحفظ توازن الأرض ؟	
أ . د / عـلى جمعـــة	٤٤٦
الشبهـة السابعة والستون	
هل النجوم رجوم للشياطين ؟	
أ . د / عـلى جمعـــة	٤٤٧
الشبهـة الثامنة والستون	
القرآن يتناقض مع العلم أ . د / عـلى جمعـــة	٤٤٩

الموضـــوع		الصفحـــة
الشبهـة التاسعة والستون		
كيف يكون العلم كفرًا ؟	أ . د / عــلى جمعـــــة	٤٥٢
الشبهـة السبعون		
رىٌ مصر بالغيث !	أ . د / عــلى جمعـــــة	٤٥٣
الشبهـة الحادية والسبعون		
الرعد ملك من الملائكة	أ . د / عــلى جمعـــــة	٤٥٥
الشبهـة الثانية والسبعون		
الوادى طوى	أ . د / عــلى جمعـــــة	٤٥٧
الشبهـة الثالثة والسبعون		
هل الزيتون يخرج من طور سيناء؟		
	أ . د / عــلى جمعـــــة	٤٥٩
الشبهـة الرابعة والسبعون		
جبل " قاف " المحيط بالأرض كلها		
	أ . د / عــلى جمعـــــة	٤٦٠
الشبهـة الخامسة والسبعون		
هامان وزير فرعون		
	أ . د / عــلى جمعـــــة	٤٦١
الشبهـة السادسة والسبعون		
قارون وهامان مصريان		
	أ . د / عــلى جمعـــــة	٤٦٣
الشبهة السابعة والسبعون		
العجل الذهبى من صنع السامرى		
	أ . د / عــلى جمعـــــة	٤٦٤

الموضـــوع		الصفحـــة
	الشبهـة الثامنة والسبعون	
أبو إبراهيم آزر	أ . د / عـلى جمعـــــة	٤٦٥
	الشبهـة التاسعة والسبعون	
مريم العذراء بنت عمران	أ . د / عـلى جمعـــــة	٤٦٦
	الشبهـة الثمانون	
يوسف هَمَّ بالفساد	أ . د / عـلى جمعـــــة	٤٦٩
	الشبهـة الحادية والثمانون	
نوح يدعو للضلال	أ . د / عـلى جمعـــــة	٤٧١
	الشبهـة الثانية والثمانون	
فرعون ينجو من الغرق	أ . د / عـلى جمعـــــة	٤٧٢
	الشبهـة الثالثة والثمانون	
انتباذ مريم	أ . د / عـلى جمعـــــة	٤٧٤
	الشبهـة الرابعة والثمانون	
مريم تلد فى البرية ووليدها يكلمها	أ . د / عـلى جمعـــــة	٤٧٦
	الشبهـة الخامسة والثمانون	
لكن أمة رسول منها إليها	أ . د / عـلى جمعـــــة	٤٧٩
	الشبهـة السادسة والثمانون	
خلط الأسماء	أ . د / عـلى جمعـــــة	٤٨٢
	الشبهـة السابعة والثمانون	
أخنوخ وليس إدريس	أ . د / عـلى جمعـــــة	٤٨٤

الموضـــوع		الصفحـة
	الشبهـة الثمانية والثمانون	
نوح لم يتبعه الأراذل	أ . د / عـلى جمعـــة	٤٨٦
	الشبهـة التاسعة والثمانون	
تهاويل خيالية حول برج بابل	أ . د / عـلى جمعـــة	٤٨٧
	الشبهـة التسعون	
اختراع طفل ينطق بالشهادة	أ . د / عـلى جمعـــة	٤٨٧
	الشبهـة الحادية والتسعون	
الكعبة بيت زحل	أ . د / عـلى جمعـــة	٤٨٨
	الشبهـة الثانية والتسعون	
إسماعيل بين الأنبياء	أ . د / عـلى جمعـــة	٤٨٩
	الشبهـة الثالثة والتسعون	
أبناء يعقوب يطلبون أن يلعب يوسف معهم		
	أ . د / عـلى جمعـــة	٤٩٠
	الشبهـة الرابعة والتسعون	
وليمة نسائية وهمية	أ . د / عـلى جمعـــة	٤٩١
	الشبهـة الخامسة والتسعون	
عدم سجن بنيامين	أ . د / عـلى جمعـــة	٤٩٣
	الشبهـة السادسة والتسعون	
قميص سحرى	أ . د / عـلى جمعـــة	٤٩٥
	الشبهـة السابعة والتسعون	
ابنة فرعون أو زوجته	أ . د / عـلى جمعـــة	٤٩٧
	الشبهـة الثامنة والتسعون	
طرح الأولاد فى النهر صَدَرَ قبل ولادة موسى لا بعد إرساليته		
	أ . د / عـلى جمعـــة	٤٩٨

الموضـــوع		الصفحـــة
	الشبهـة التاسعة والتسعون	
صداق امرأة موسى	أ . د / عـلى جمعـــــة	٤٩٩
	الشبهـة المائة	
لم ترث إسرائيل مصر	أ . د / عـلى جمعـــــة	٥٠١
	الشبهـة الحادية بعد المائة	
ضربات مصر عشر لا تسع	أ . د / عـلى جمعـــــة	٥٠٣
	الشبهـة الثانية بعد المائة	
الطوفان على المصريين	أ . د / عـلى جمعـــــة	٥٠٣
	الشبهـة الثالثة بعد المائة	
صخرة حوريب وليست آبار إيليم	أ . د / عـلى جمعـــــة	٥٠٤
	الشبهـة الرابعة بعد المائة	
لوحا الشريعة	أ . د / عـلى جمعـــــة	٥٠٥
	الشبهـة الخامسة بعد المائة	
هل طلبوا رؤية الله ؟	أ . د / عـلى جمعـــــة	٥٠٧
	الشبهـة السادسة بعد المائة	
سليمان أو أبشالوم	أ . د / عـلى جمعـــــة	٥٠٩
	الشبهـة السابعة بعد المائة	
هاجر أو السيدة العذراء	أ . د / عـلى جمعـــــة	٥١٠
	الشبهـة الثامنة بعد المائة	
لم تنزل مائدة من السماء	أ . د / عـلى جمعـــــة	٥١١
	الشبهـة التاسعة بعد المائة	
قصة ذى الكفل	أ . د / عـلى جمعـــــة	٥١٣

الموضـــوع		الصفحـــة
	الشبهـة العاشرة بعد المائة	
أصحاب الرس	أ . د / عــلى جمعـــــة	٥١٤
	الشبهـة الحادية عشرة بعد المائة	
حتى لقمان نبى	أ . د / عــلى جمعـــــة	٥١٥
	الشبهـة الثانية عشرة بعد المائة	
الكعبة مقام إبراهيم	أ . د / عــلى جمعـــــة	٥١٦
	الشبهـة الثالثة عشرة بعد المائة	
فرعون بنى برج بابل بمصر	أ . د / عــلى جمعـــــة	٥١٩
	الشبهـة الرابعة عشرة بعد المائة	
شاول الملك أو جدعون القاضى	أ . د / عــلى جمعـــــة	٥٢٠
	الشبهـة الخامسة عشرة بعد المائة	
يتكلم فى المهد	أ . د / عــلى جمعـــــة	٥٢٢
	الشبهـة السادسة عشرة بعد المائة	
يصنع من الطين طيرًا	أ . د / عــلى جمعـــــة	٥٢٣
	الشبهـة السابعة عشرة بعد المائة	
إنكار الصلب	أ . د / عــلى جمعـــــة	٥٢٤
	الشبهـة الثامنة عشرة بعد المائة	
تحليل إنكار الله	أ . د / عــلى جمعـــــة	٥٢٦
	الشبهـة التاسعة عشرة بعد المائة	
تحليل الحنث فى القسم	أ . د / عــلى جمعـــــة	٥٢٨
	الشبهـة العشرون بعد المائة	
تحليل الإغراء بالمال	أ . د / عــلى جمعـــــة	٥٣٠
	الشبهـة الحادية والعشرون بعد المائة	
تحليل القتل	أ . د / عــلى جمعـــــة	٥٣٢

الموضـــوع		الصفحـــة
الشبهـة الثانية والعشرون بعد المائة		
تحليل النهب	أ . د / عـلى جمعـــــة	٥٣٥
الشبهـة الثالثة والعشرون بعد المائة		
تحليل الحلف	أ . د / عـلى جمعـــــة	٥٣٦
الشبهـة الرابعة والعشرون بعد المائة		
تحليل الانتقام	أ . د / عـلى جمعـــــة	٥٣٧
الشبهـة الخامسة والعشرون بعد المائة		
تحليل الشهوات	أ . د / عـلى جمعـــــة	٥٣٨
الشبهـة السادسة والعشرون بعد المائة		
الحدود فى الإسلام	أ . د / عـلى جمعـــــة	٥٤١
الشبهـة السابعة والعشرون بعد المائة		
حدُّ السرقة	أ . د / عـلى جمعـــــة	٥٤٤
الشبهـة الثامنة والعشرون بعد المائة		
حدُّ الزنا	أ . د / عـلى جمعـــــة	٥٤٨
الشبهـة التاسعة والعشرون بعد المائة		
حدُّ الردّة	أ . د / عـلى جمعـــــة	٥٥٣
الشبهـة الثلاثون بعد المائة		
ميراث الأنثى نصف ميراث الرجل		
	أ . د / محمـــد عمـــارة	٥٥٦
الشبهـة الحادية والثلاثون بعد المائة		
شهادة المرأة نصف شهادة الرجل		
	أ . د / محمـــد عمـــارة	٥٦٠
الشبهـة الثانية والثلاثون بعد المائة		
النساء ناقصات عقل ودين	أ . د / محمـــد عمـــارة	٥٧٥

الموضـــوع		الصفحـــة
الشبهـة الثالثة والثلاثون بعد المائة		
ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة		
	أ . د / محمـــد عمـــارة	٥٩٠
الشبهـة الرابعة والثلاثون بعد المائة		
الرجال قوامون على النساء		
	أ . د / محمـــد عمـــارة	٦٠٠
الشبهـة الخامسة والثلاثون بعد المائة		
قضية الحجاب	أ . د / محمـــد عمـــارة	٦١٢
الشبهـة السادسة والثلاثون بعد المائة		
الـــــرق	أ . د / محمـــد عمـــارة	٦١٥
الشبهـة السابعة والثلاثون بعد المائة		
التســـــرى	أ . د / محمـــد عمـــارة	٦٢٢
الشبهـة الثامنة والثلاثون بعد المائة		
هل تحريم زواج المسلمة بغير المسلم يُعد نزعة عنصرية ؟		
	أ . د / محمـــود حمدى زقزوق	٦٢٨
الشبهـة التاسعة والثلاثون بعد المائة		
هل الإسلام ضد حرية الاعتقاد ؟		
	أ . د / محمـــود حمدى زقزوق	٦٣٠
الشبهـة الأربعون بعد المائة		
ما موقف الإسلام من الديمقراطية وحقوق الإنسان ؟		
	أ . د / محمـــود حمدى زقزوق	٦٣٣
الشبهـة الحادية والأربعون بعد المائة		
ما موقف الإسلام من الفنون ؟		
	أ . د / محمـــود حمدى زقزوق	٦٣٦

الموضـــوع	الصفحـة
الشبهـة الثانية والأربعون بعد المائة	
ما أسباب تفرق المسلمين رغم دعوة الإسلام للوحدة ؟	
أ . د / محمـود حمدى زقزوق	٦٣٩
الشبهـة الثالثة والأربعون بعد المائة	
هل الإسلام مسئول عن تخلف المسلمين ؟	
أ . د / محمـود حمدى زقزوق	٦٤٢
الشبهـة الرابعة والأربعون بعد المائة	
هل صحيح أن الصوم يقلل حركة الإنتاج ؟	
أ . د / محمـود حمدى زقزوق	٦٤٥
الشبهـة الخامسة والأربعون بعد المائة	
هل صحيح أن الزكاة تتيح للغنى فرصة عند الله أفضل من فرصة الفقير ؟	
أ . د / محمـود حمدى زقزوق	٦٤٧
الشبهـة السادسة والأربعون بعد المائة	
لماذا حرم الإسلام أكل لحم الخنزير ؟	
أ . د / محمـود حمدى زقزوق	٦٤٩
الشبهـة السابعة والأربعون بعد المائة	
لماذ حرم الإسلام الحرير والذهب على الرجال ؟	
أ . د / محمـود حمدى زقزوق	٦٥١

رقم الإيداع ٩١٥٣ / ٢٠٠٢
I.S.B.N 977-205-128-1

مطابع الأهرام التجارية ـ قليوب ـ مصر

Bibliotheca Alexandrina
0310784

مطابع الشركة التجارية - قليوب - مصر